الخلافة العثمانية

دولة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

الخلافة العثمانية

دولة القدر

٦٩٩ – ١٣٣٩هـ / ١٢٩٩ – ١٩٢٤م

تأليف

الأستاذ الدكتور عابد توفيق الهاشمي

الأستاذ بجامعة الإمام الأعظم – بغداد

وعميد كلية الدراسات الإسلامية ببغداد سابقًا

الطبعة الثانية

١٤٤٠هـ- ٢٠١٩م

١



الكعبة المشرفة رمز وحدة المسلمين الصادقين بكافة قومياتهم

٢



شعار الدولة العثمانية

يتشكل درع الدولة العثمانية من مجموعة متنوعة من الرموز[١] ، التي ترمز إلىٰ دلالات معينة ، تشير بصورة مباشرة إلىٰ خصيصة من الخصائص التي تتمتع بها الدولة ، وقد حدثت تعديلات علىٰ هذا الدرع بمرور الوقت ، ولكن الاستقرار الأخير له كانت بتعديلات السلطان عبدالحميد الثاني . نجد في الدرع رموز لأسلحة كثيرة وتمثل قوة الدولة العثمانية العسكرية ، كما نجد علم الدولة العثمانية ، وعلم الخلافة الإسلامية ، بجانب مجموعة من الرموز التي نذكرها مع الشرح في النقاط الآتية :

١ – الطغراء السلطاني (توقيع السلطان) ، وتحتوي علىٰ طغراء السلطان عبدالحميد الثاني .

٢ – عبارة باللغة العربية «المستند بتوقيعات الربانية ملك الدولة العثمانية»، وموضوعة بداخل هلال والذي يدل علىٰ حماية الدولة العثمانية لكل مسلمي العالم .

٣– رُمح .

٤ – العلم الأحمر وهو علم الدولة العثمانية ، وهو نفسه علم تركيا .

٥– رُمح مزود ببلطتين .

٦– سيف .

٧– مدفع .

٨– بوق : وكان يستخدم كآلة من الآلات الموسيقية بموسيقىٰ المهتر العثماني الحربية .

النياشين (الميداليات) :

٩– «النيشان المجيدي»، ويعود للسلطان عبدالمجيد الأول ، ظهر لأول مرة عام ١٨٥٢ ، وكان يهدىٰ للشخصيات العسكرية تقديراً لهم ، ويعد الأمير عبدالقادر الجزائري من

---

(١) ألبوم العثمانيين – لم أجد مع الشعار تاريخ اتخاذه شعاراً، ولا من اختاره وقرره، ولم يشر إلىٰ مضامينه، ودلالة نشره

أبرز القادة المسلمين الذين حصلوا عليه .

١٠- «جراب»: وهو رمز لمستودع أسلحة الدولة العثمانية .

١١- «النيشان العثماني»، وظهر لأول مرة في عهد السلطان عبدالعزيز عام ١٨٦٢ ، وكان يمنح للموظف المتميز لتشجيعه .

١٢- «نيشان الفخر»، وظهر أول مرة في عهد السلطان محمود الأول عام ١٨٣١ .

١٣- الشريط النباتي : وهو الشريط الأساسي الذي يتدلىٰ منه الميداليات الخمسة .

١٤- «نيشان الامتياز»، وظهر لأول مرة في عهد السلطان عبدالحميد الثاني ، وهو نيشان عسكري .

١٥- مشعل ، كي ينير الطريق للأيام المشرقة القادمة في المستقبل .

١٦- مرساة للإشارة إلىٰ البحرية العثمانية .

١٧- القرن الخصب ، ويدل علىٰ إنتاجية وخصوبة الأراضي العثمانية ، حيث نرىٰ الخضرة تخرج منه وبه ورد للدلالة علىٰ التسامح .

١٨- «نيشان الرحمة»، وظهر لأول مرة في عهد السلطان عبدالحميد عام ١٨٧٨، وكان يُعطىٰ للسيدات اللاتي تُقمن بعمل ناجح في مجال الأعمال الخيرية التي تخدم الناس .

١٩- ميزان يدل علىٰ عدل الدولة العثمانية .

٢٠- كتابان ، الكتاب الأعلىٰ هو القرآن الكريم ، وكان يسمىٰ الشرع الشريف ، حيث كان العثمانيون يعتمدون علىٰ الشريعة الإسلامية في سن القوانين التي تحكم الدولة ، وذلك بنسبة ٨٥٪ كاستمداد مباشر من أحكام الشريعة الإسلامية .

والكتاب أسفل منه يُسمىٰ بالقانون المنيف ، وكان يحوي علىٰ ١٥٪ من قوانين الدولة

العثمانية ، حيث شكل ٧٦٤ قانونـًا من هذه القوانين ، وكانت هذه القوانين لا تخالف الشريعة الإسلامية ، مثل القوانين العسكرية ، وقانون العقود ، العلاقات الدولية .

٢١- درع به ١٢ نجمة ، تمثل الأقاليم التي تشكل الدولة العثمانية ، وللتعبير علىٰ أن الدولة وأقاليمها مركز للكون .

٢٢- صولجان ، ويمثل النبالة وتفوق المعرفة لدىٰ الدولة ، وكفاءة إدارة موظفي الدولة .

٢٣- مسدس ، وتم استخدامه في الجيش تقريبـًا منذ ١٨٤٠ ، وليدل علىٰ عصرية تسليح الجيش العثماني .

٢٤- بندقية بحرية .

٢٥- العلم الأخضر ذو الأهلة الثلاثة وهو علم الخلافة العثمانية .

٢٦- العمامة التي في المنتصف للإشارة إلىٰ الأسرة العثمانية وللسلطان العثماني كخليفة للمسلمين .

٢٧- «قرص الشمس» يتوسطه طغراء السلطان ، والذي يشير إلىٰ عظمة الدولة العثمانية متمثلة بنور الشمس الذي هو سر الحياة .

الإهــــداء

أهدي أنفس كتبي إلىٰ أجرأ رئيس دولة مسلمة، غيور، فخامة (أردغـان)، الامتداد الروحي للخلافة العثمانية، التي حكمت ستة قرون ونصف قرن، لأوسع رقعة في عمر الإسلام لخمسين دولة من دول هذا القرن.

والتي استردت نهضتها بعد قرن من إقصاء دولة الإسلام عنها، بتآمر جميع أعداء الإسلام عليها،

غير أن دين الله الخالد أقوىٰ من أن ينهار أمام أعدائه: (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبىٰ الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، هو الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحق، ليظهره علىٰ الدين كله، ولو كره المشركون)[1] أيدكم الله بشعبك وأمتك، وهنيئًا لكم بنصر الله لكم: (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) سورة محمد/ ٧، ومن نصر إلىٰ نصر، (والله معكم ولن يتركم أعمالكم)[2].

وأستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه

البروفسور

د. عابد توفيق الهاشمي

٣ / ٣/ ٢٠١٠م

---

(١) سورة التوبة/ ٣٢-٣٣

(٢) سورة محمد/ ٣٥

مقدمة المؤلّف

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما . وبعد .

يمثل هذا الكتاب أنصع صفحة من صفحات التاريخ الإسلامي، بعد عصر الرسالة الحكيمة، وعصر السلف الصالح في قرونها الثلاثةالأولىٰ: (خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)[١]، ومن حق كل مسلم أن يذكر تاريخه، ويعتز به ويفاخر، لما فيه من هدي إلهي، وقيادة ربانية، تسمو بأهلها إلىٰ المجد في الدارين: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾؟![٢] أي فيه شرفكم وعزّكم وخلودكم إلىٰ الأبد.

وذكر الأمجاد وفاء وشحذ للعزائم، وإعلاء للهمم وتذكير بالعودة إلىٰ الله الذي بيده النصر: ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[٣].

لقد عقل الخلف الصالح من السلف الصالح معنىٰ عزنا في هدي ربنا كما عقل العثمانيون الأتراك، هذا المعنىٰ في ماضيهم وحاضرهم، وكذا العرب والأكراد والبربر والتتار والمغول والهنود وجميع الجنسيات من المسلمين في عمر التاريخ الإسلامي، فقه النصر، وعملوا بأسبابه، وتحقق لهم جميعًا وعد الله: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾[٤]، وكانوا هم الأعلون: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٥].

---

(١) رواه البخاري (٢٦٥١) ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه ..

(٢) سورة الأنبياء/ ١٠

(٣) سورة آل عمران/ ١٢٦

(٤) سورة غافر/ ٥١

(٥) سورة آل عمران/ ١٣٩.

من أجل ذلك سعيت في تأليف هذا الكتاب في تاريخ الخلافة العثمانية ، والتي أسميتها « **دولة القَدَر** » مبيناً أثر الإسلام في قوة الأمة، حين الاستمساك به، والاستقامة عليه ، وليكون تذكيرا للمسلمين وتصحيحاً للمفاهيم ، وتنويهاً إلىٰ وضع الحدث في سياقه التاريخي الموضوعي ، وليكون وثيقة لبيان ما أغفل بيانه عن عمد أو عن غير عمد من الجوانب المضيئة في العهود الإسلامية العثمانية التي سنقدم فصولها للقارئ كما سجلها التاريخ بل كما شهد لها خصومها .

وجعلته في بابين :

الباب الأول : الخلافة العثمانية المجاهدة .بيَّنت فيه نشأتها واتساعها وأسباب سقوطها وتقويمها في كل عصورها .

الباب الثاني : الفردوس المفقود . بيَّنت عصوره وحضارته وجهاده وفواجعه ، وجهود العثمانيين في محاولة إنقاذه

كما قدمت بين يدي الكتاب ببيان السبب الباعث علىٰ تأليفه . وزيادة في الفائدة وضعت بعض الصور التوضيحية التي تساعد القارئ علىٰ فهم طبيعة الاحداث

والله تعالىٰ أسأل أن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه وأن ينفع به من كتبه ومن قراه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتىٰ الله بقلب سليم .

الشارقة

في ٢٠١٠/٣/٣م

أ.د عابد توفيق الهاشمي

السبب الباعث على تأليف الكتاب

هي أربعة أسباب نوجزها فيما يلي :

أولها : تصحيح المفاهيم السيئة عن الخلافة العثمانية

تناول تاريخ بني عثمان الإسلامي بعض المؤرخين تناولاً مضطربـًا ، فانحرفوا فيه عن موضوعية نقل الحدث التاريخي ، وتعمدوا فيه الانتقائية السلبية التي تعتمد جزئية الحدث متجاهلة نواتجه الكلية ؛ فضلاً عن إغفالهم موضوعية الاستنتاج والتحليل . وأن بعض الأنظمة والأحزاب السياسية والقومية قدمت جزءاً من هذا التاريخ في مناهجها الثقافية من خلال ما آل إليه حال الدولة العثمانية في عهود ما يسمىٰ بالرجل المريض الذي ارتكست أهدافه في ظل تلك الأوضاع الراهنة التي ساهمت فيها المنظومة الاستعمارية في الآونة الأخيرة ، ومن ورائها الصهيونية العالمية ، في إجهاض دولة الخلافة والقضاء عليها ؛ وأنها النموذج السلبي للاستبداد والتخلف والرجعية .

ثانيها : بيان أهمية التاريخ الإسلامي

وهو الذي لا يقل فهمه الصحيح عن أهمية فهم الشريعة الإسلامية، إذ هو المؤشّر الدقيق لمدىٰ رقي المسلمين وانحطاطهم، بمدىٰ التزامهم بالإسلام نظام حياة ومنهاج أمة ودستور دولة.

يلخصّ هذه النظرة العقدية الفاروق ﵁ : (لقد كنّا أذلة، فأعزّنا الله بالإسلام،

فإن ابتغينا عزّاً بغير الإسلام أذلنا الله)، تجاوباً مع منطق القرآن الحكيم: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(١)،؟!

إذ أن ذكرنا وخلودنا مدىٰ التاريخ هو باستمساكنا بكتاب الله: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾(٢)، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٣)،

فعلينا أن نعقل ذلك، ولا نغفل عنه، إذ هو حياتنا وعزّنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(٤)، وبهجره الذل والهوان، بل الموت!: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٥).

ثالثها : انهيار المسلمين ببعدهم عن إسلامهم

إن انهيار المسلمين في تاريخهم يصوّر مدىٰ انهيار صلتهم بربهم وكتابه، فتخلّىٰ عنهم حينما تخلّوا عنه: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾(٦)، وكان جزاء ذلك النسيان انتقامه عز وجلّ منهم: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾(٧)، ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾(٨).

وليس أشدّ انتقاماً من الذين ينسون الله أن يكلهم إلىٰ أنفسهم المريضة: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(٩).

---

(١) سورة الأنبياء/ ١٠، فيه ذكركم، أي شرفكم وعزكم

(٢) سورة الزخرف/ ٤٣-٤٤

(٣) سورة آل عمران/ ٢٠١

(٤) سورة الأنفال/ ٢٤

(٥) الأنعام/ ١٢٢

(٦) سورة التوبة/ ٦٧

(٧) سورة الزخرف/ ٥٥

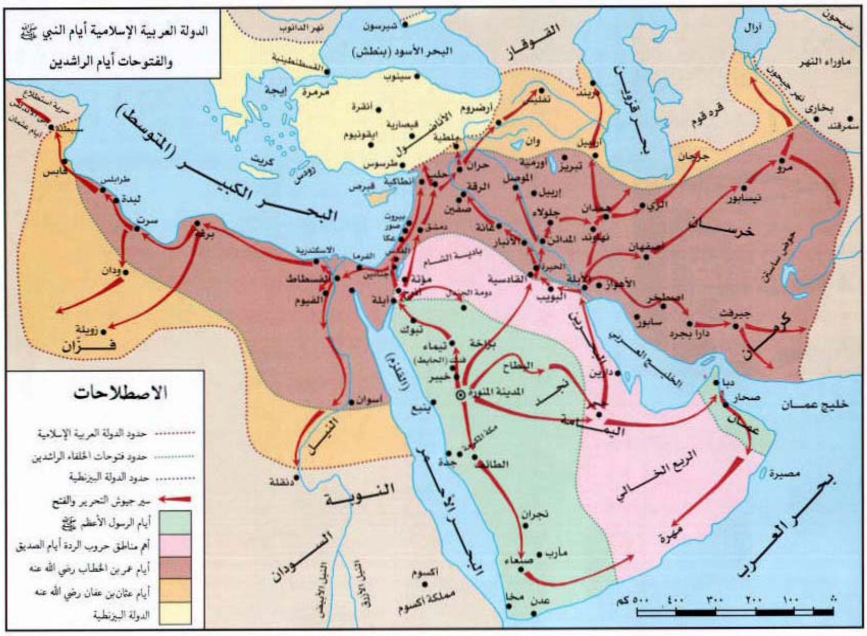
(٨) سورة الأنفال/ ٥٤

(٩) سورة الحشر/ ١٩

وحين يتخلىٰ الله ﷻ عن فرد أو أمة أو دولة، حينئذ يتحتم السقوط.

أما القمم فكانت في صدر الإسلام، زمن الرسالة في حياة المصطفىٰ ﷺ، وعصر الخلفاء الراشدين من بعده، والفتوحات الإسلامية في عصر الصحابة، وأعقبهم عصر التابعين وتابعيهم، في العصر الأموي الذي امتدت الفتوحات الإسلامية فيه إلىٰ أعماق الهند، وما وراء النهر (كاشغر) في الصين شرقًا، والأندلس وفرنسا وسواحل المحيط الأطلسي غربًا، حتىٰ امتدّ الإسلام إلىٰ ما بين الصين والمحيطين الهندي والأطلسي، تلك القمم الأولىٰ: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)[1]، أما القرون الثلاثة فامتدادها حتىٰ نهاية العصر العباسي الثاني[2].

٣



الفتوحات في عهد الخلفاء الراشدين

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشهادات، باب (١٠)، ٣/ ١٥١، ومسلم في فضائل الصحابة، باب (٥٢)، وورد (خير أمتي ....)

(٢) لو يرجع القارئ الكريم إلىٰ كتاب (الأدب الإسلامي وتاريخه في عصوره – العصر العباسي)، المؤلف

استمرّ الصعود حضاريًا، والتخلف قياديًا في الحكم، حتىٰ أواخر الخلافة العباسية، وكان التأديب الإلهي للمسلمين بالحروب الصليبية بحملاتها العشر (مئتي سنة) (٤٨٩-٦٩٠هـ،١٠٩٨-١٢٩١م)، عبثت بالبلاد الإسلامية جنوب الأناضول وبلاد الشام وفلسطين، بما يفوق الوصف، غير أن القمم بدأت تظهر من جديد من خلال المستمسكين بالإسلام، قادةً وجيوشًا، وهي دولة أتابكة السلجوقيين في القرن السادس، بزعامة القمم عماد الدين الزنكي وابنه نور الدين الشهيد، وغيرهما، وهما أتراك، وبعدهما صلاح الدين محرر القدس صاحب حطين (٥٨٣هـ - ١١٨٧م)، وهو كردي، وكان الثلاثة من العراق، مركز الإشعاع الجهادي والحضاري في عمر التاريخ الإسلامي .

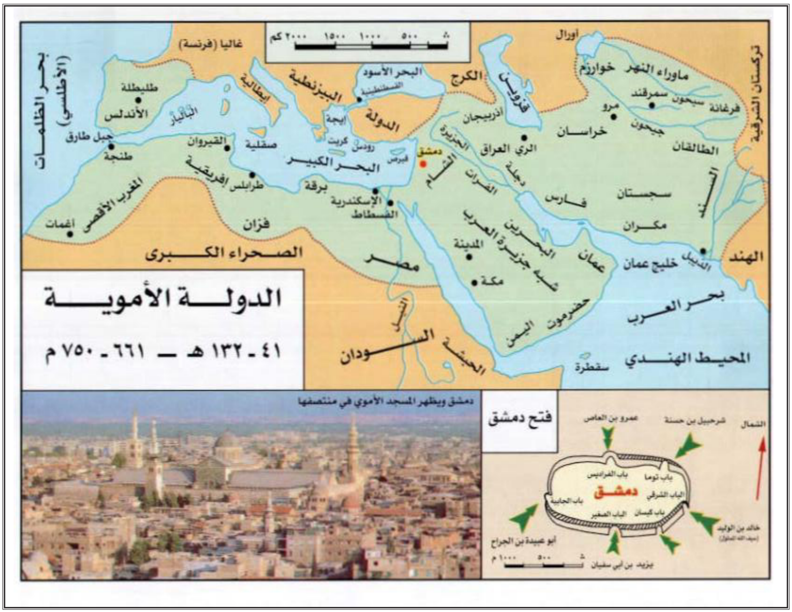
ثم منّ الله علىٰ المسلمين بالقمم في مصر - (الظاهر بيبرس)، وجيشه المؤمن، أقوىٰ قائد بعد صلاح الدين ضد الصليبيين، وكانت انتصاراته المتوالية ٦٤٢-٦٧٦هـ .

٤



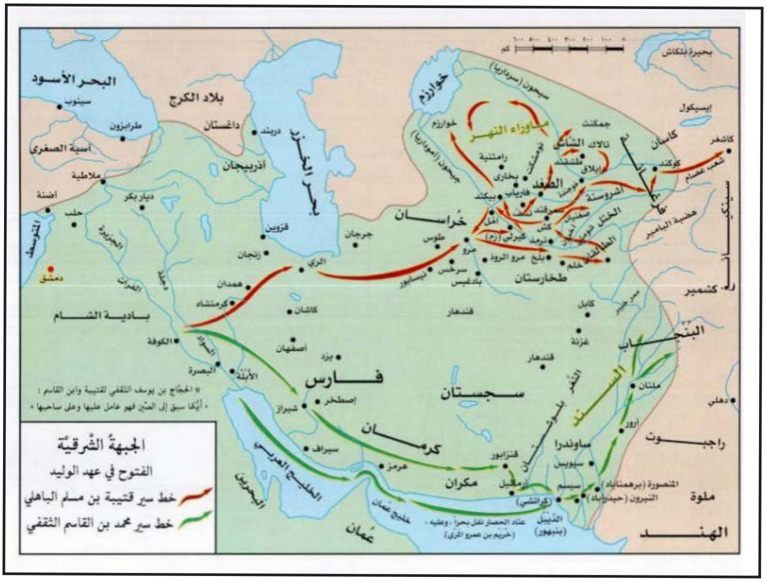
الفتوحات في عهد الدولة العباسية أيام هارون الرشيد

٥



الفتوحات في عهد الدولة الأموية

٦



الفتوحات في عهد الدولة الأموية

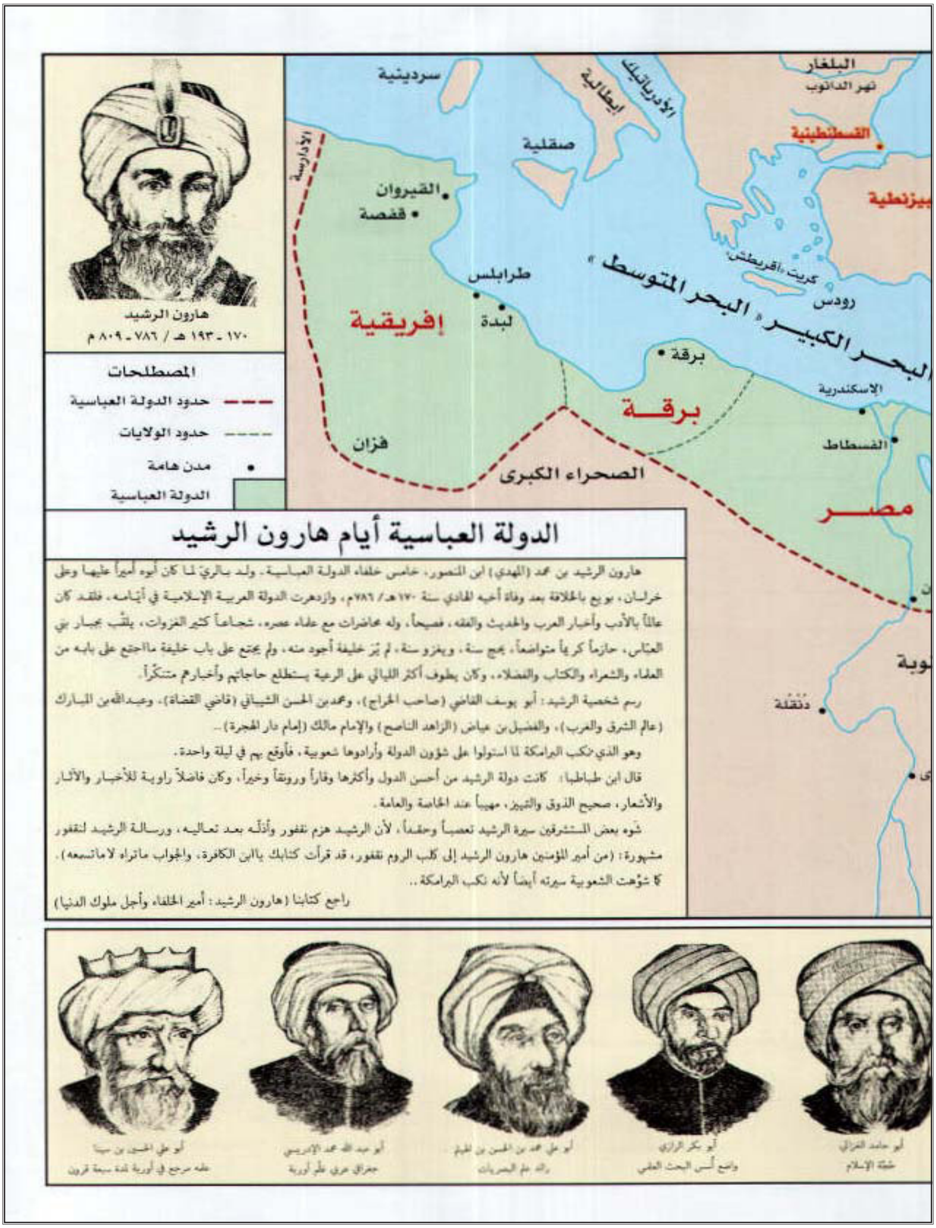
٧



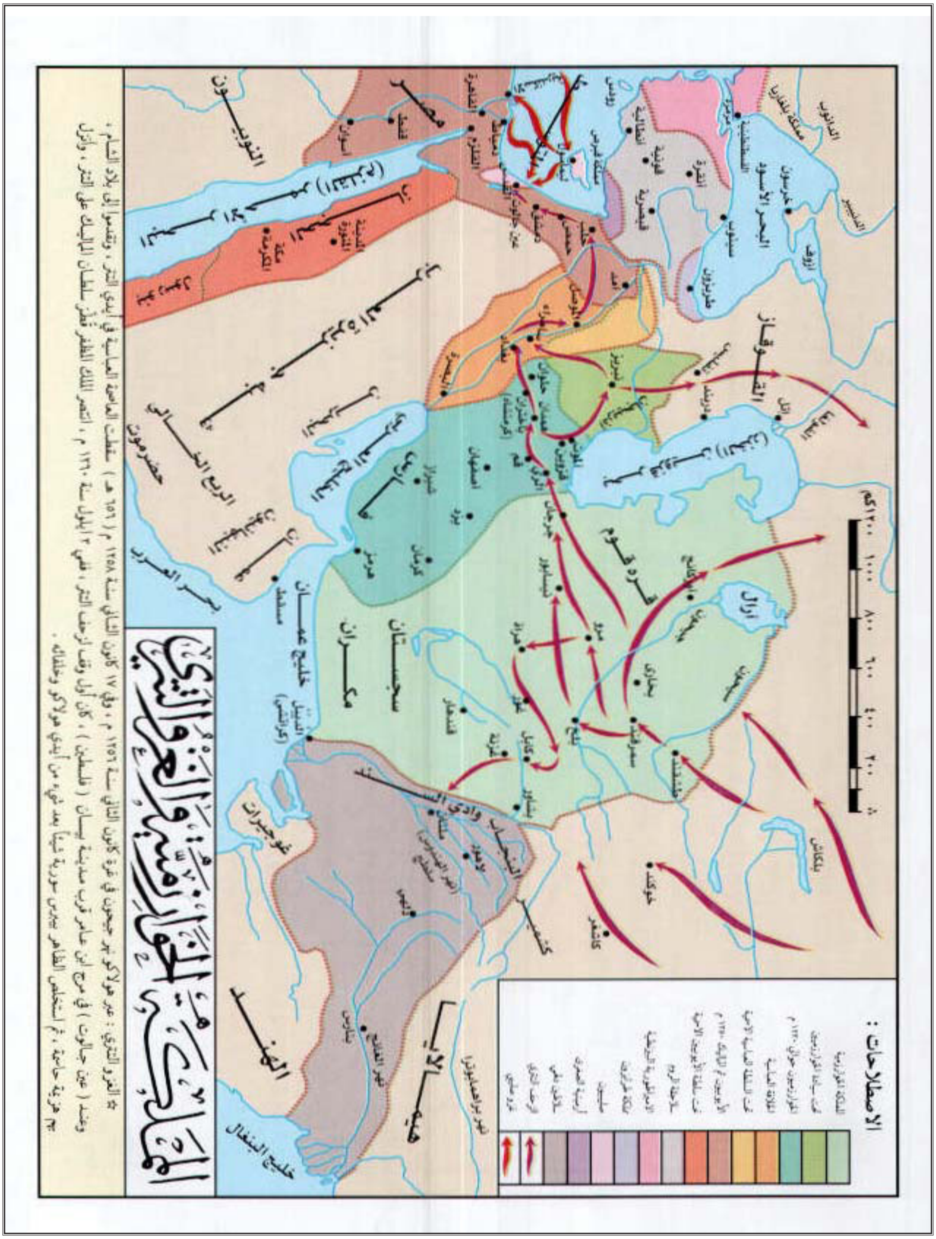
بحر آرال
سيحون (سرداريه)
الشاش
كاث
خوارزم
ماوراء النهر
سمرقند
بخارى
جيحون (أموداريا)
قره قوم
بحر قزوين
القوقاز
دربند
تفليس
جرزان
الرّان
أرمينية
طرابزون
البحر الأسود
تبريز
أردبيل
رشت
جيلان
أذربيجان
جرجان
طبرستان
مرو
طوس
نيسابور
بلخ
خراسان
هراة
كابل
الري
الرّي
الجبال
همدان
نهاوند
الموصل
الجزيرة
الرقة
الرها
العواصم
حلب
بغداد
العراق
واسط
الكوفة
البصرة
بادية الشام
أصفهان
يزد
جنديسابور
الأهواز
فارس
اصطخر
شيراز
كرمان
جيرفت
سجستان
زارانج
قندهار
مكران
الديبل
دارابجرد
سيراف
البحرين
دارين
الخليج العربي
صحراء النفوذ
الحجاز
المدينة المنورة
مكة المكرمة
البحر الأحمر (القلزم)
حجر
اليمامة
دبا
صحار
مسقط
خليج عمان
عمان
الربع الخالي
بحر العرب
اليمن
صنعاء
حضرموت
مخا
عدن
خليج عدن
أكسوم
مملكة أكسوم الحبشة
٤٠٠
٨٠٠
١٢٠٠
١٦٠٠ كم
علماء الحضارة العربية الإسلامية



جابر بن حيان الكوفي
عالم تعتز به الإنسانية
محمد بن موسى الخوارزمي
واضع اللوغاريتمات
محمد بن جابر البتاني
رائد في علم الفلك
أبو مروان ابن زهر
تتلمذ عليه ستة أجيال من الأطباء
أبو الريحان البيروني
العالم في رأي حكيم


هارون الرشيد
١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩ م
المصطلحات
حدود الدولة العباسية
حدود الولايات
مدن هامة
الدولة العباسية
سردينية
إيطالية
الأدرياتيك
البلغار
نهر الدانوب
القسطنطينية
بيزنطية
صقلية
الأدارسة
القيروان
قفصة
طرابلس
لبدة
إفريقية
كريت «اقريطش»
رودس
البحر الكبير «البحر المتوسط»
برقة
برقة
الإسكندرية
الفسطاط
فزان
الصحراء الكبرى
مصر
دنقلة
الدولة العباسية أيام هارون الرشيد
هارون الرشيد بن محمد (المهدي) ابن المنصور، خامس خلفاء الدولة العباسية. ولد بالريّ لما كان أبوه أميراً عليها وعلى خراسان، بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م، وازدهرت الدولة العربية الإسلامية في أيامه، فلقد كان عالماً بالأدب وأخبار العرب والحديث والفقه، فصيحاً، وله محاضرات مع علماء عصره، شجاعاً كثير الغزوات، يلقّب بجبار بني العبّاس، حازماً كريماً متواضعاً، يحج سنة، ويغزو سنة، لم يُرَ خليفة أجود منه، ولم يجتمع على باب خليفة مااجتمع على بابه من العلماء والشعراء والكتاب والفضلاء، وكان يطوف أكثر الليالي على الرعية يستطلع حاجاتهم وأخبارهم متنكّراً.
رسم شخصية الرشيد: أبو يوسف القاضي (صاحب الخراج)، ومحمد بن الحسن الشيباني (قاضي القضاة)، وعبدالله بن المبارك (عالم الشرق والغرب)، والفضيل بن عياض (الزاهد الناصح) والإمام مالك (إمام دار الهجرة)..
وهو الذي نكب البرامكة لما استولوا على شؤون الدولة وأرادوها شعوبية، فأوقع بهم في ليلة واحدة.
قال ابن طباطبا: كانت دولة الرشيد من أحسن الدول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً، وكان فاضلاً راوية للأخبار والآثار والأشعار، صحيح الذوق والتمييز، مهيباً عند الخاصة والعامة.
شوّه بعض المستشرقين سيرة الرشيد تعصباً وحقداً، لأن الرشيد هزم نقفور وأذلّه بعد تعاليه، ورسالة الرشيد لنقفور مشهورة: (من أمير المؤمنين هارون الرشيد إلى كلب الروم نقفور، قد قرأت كتابك يابن الكافرة، والجواب ماتراه لاماتسمعه).
كما شوّهت الشعوبية سيرته أيضاً لأنه نكب البرامكة..
راجع كتابنا (هارون الرشيد: أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا)
أبو حامد الغزالي
حجة الإسلام
أبو بكر الرازي
واضع أسس البحث العلمي
أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم
رائد علم البصريات
أبو عبد الله محمد الإدريسي
جغرافي عربي علم أوربة
أبو علي الحسين بن سينا
علمه مرجع في أوربة لمدة سبعة قرون

٨



٩



معركة حطين

١٠



معركة عين جالوت

وكان للأتراك المسلمين دور مهم في هذه القمم الشامخة التي ارتقوا إليها ، وذلك في حكم الدولة السلجوقية، في القرن الخامس الهجري، قرنا من الزمن من أخصب القرون الإسلامية حضارة، وأوسعها مدىٰ في البلاد، وأشجعها جهاداً، ظهر من قادتها أفذاذ الجهاد الإسلامي، مؤسسها (طغرل بيك)، وابنه (ألب أرسلان)، أي الأسد الشجاع، هما قمة الايمان والشجاعة في عصره، ثم خلفه ملكشاه، وظهر فيها الوزير الشهير نظام الملك الذي اشتهر بعلمه وحكمته في الحكم، وأنشأ المدارس النظامية علىٰ نمط الكليات[١].

ثم كان العقاب الإلهي الثاني للمسلمين الذين انحرفوا عن موازين القوة التي وضعها لهم كتاب الله الخالد: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[٢].

فاجتاح المغول بقيادة (هولاكو) الشرق الإسلامي في أواخر الغزو الصليبي، قبل استئصاله بـ(٤٠) سنة، فكان سقوط بغداد كارثة الكوارث، سنة (٦٥٦هـ - ١٣٥٠م)، يعجز اللسان والقلم عن وصف فواجعها في الأرواح والأعراض والحضارة والأوطان، وقتل فيها الملايين .

ثم انتقم الله تعالىٰ من المغول بالقائد المجاهد (قطز) وجيشه المؤمن الشجاع في معركة (عين جالوت) في الشام سنة ٦٥٨هـ

(١) لو يرجع القارئ الكريم إلىٰ كتاب (الأدب الإسلامي وتاريخه في عصوره – العصور المتأخرة والقارة الهندية)/ ٩-١٠، المؤلف

(٢) سورة الصف/ ٥

ثم أسلم المغول، بسبب يقظة الأمة المسلمة، وانجذاب الفاتحين لدين المسلمين المغلوبين وخلقهم المتميز، فحسن إسلام المغول، وأكرمهم الله بحكم القارة الهندية (٦٦٥) سنة، ما بين ٦٠٧-١٢٩٤ هـ، ١٢١٠-١٨٧٧م وكان فيها من الحكام ما نباهي بهم الدنيا، ومنهم الخليفة (عالم كير - أورينك زيب)، الملقب بسابع الخلفاء الراشدين، وهو الذي حكم القارة الهندية جميعها، لمدة (٥٠ سنة) حوالي عام ١٠٠٠هـ، في تأريخ حكم مراد الثالث العثماني نفسه الذي حكم أوسع رقعة إسلامية في عمر التاريخ.

أما الدولة العثمانية ٦٩٩-١٣٣٩هـ، ١٢٩٩-١٩٢٤ = (٦٢٥م سنة، ٦٤٠هـ)، فقد بدأ ظهورها بإيمان وجهاد نادرين، بمؤسسها (عثمان)، وجنوده جميعهم دعاة ومجاهدون، نشأت في شمال غرب الأناضول (تركيا اليوم)، وتوسعت اتساعـًا مدهشـًا، وكان جميع سلاطينها السبعة والثلاثون، أقوياء الدين والعزائم إلا آحاداً في عصري الضعف والسقوط، وافتتح سلطانها السابع محمد الفاتح (القسطنطينية) سنة (٨٥٧هـ - ١٤٥٣)، بعد غزو المغول لعاصمة الخلافة الإسلامية بـ(١٠٠) سنة، وبعد تحرير القدس بـ (٤٠) سنة . وكان فتحها معجزة البشارة النبوية الكريمة: (لتفتحُنّ القطسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش)[(١)].

استمرت هذه الدولة العثمانية المجاهدة بالصعود إلىٰ القمة حتىٰ عام ١٠٠٠هـ خلال ثلاثة قرون إلا ربع القرن من نشأتها، فأخضعت شرق وجنوب شرق أوربا، بأكثر من (عشرين) دولة من دول القرن الحالي، بما مساحته ثلث أوربا، كما أخضعت الشمال الأفريقي والجزيرة العربية والشرق الإسلامي من الشام والعراق إلىٰ الهند، بما يزيد عن ثلاثين دولة أفريقية وآسيوية من دول هذا القرن ، أي بمجموع خمسين دولة في هذا القرن.

وتماسكت هذه الدولة (خمسة عقود) ، ثم كان الانحدار خلال (٢٠٠) سنة، فالسقوط خلال ١٢٠ سنة، وطال عمر الدولة العثمانية إلىٰ (٦٤٠) سنة هجرية، وكانت تمثل الخلافة الإسلامية في العالم الإسلامي، بعد زوال الدولة العباسية، وتنازل آخر خليفة عباسي إلىٰ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ﷺ في مسنده/ ٤/ ٣٣٥

السلطان سليم الأول (المروّع) الذي حكم مصر والشام بعد قضائه علىٰ دولة المماليك عام ٩٢٦هـ، فصار خليفة المسلمين هو ومن بعده في الصعود إلىٰ القمم، عوامل واضحة صارخة في مدىٰ التزام الأمة والدولة بالايمان الصادق والجهاد الموصول والحكمة المستنيرة في بناء الحضارة والقوة التي يأمر بها الإسلام، ثم كان الانحدار والسقوط، بأسبابه المؤلمة في تخليهم عن الالتزام بالنواميس التي شرعها الإسلام لأهله (نظم الحياة)، ومع أن أغلبية السلاطين والخلفاء حتىٰ في عصري الانحدار والسقوط كانوا أتقياء ومجاهدين، إلا أن انحراف الأمة عن وسائل النهوض والقوة في الإسلام، وتخلفها عن مواكبة العصر وعن الفهم الإسلامي السليم للحاجات المتطورة، وتحالف الغرب النصراني جميعه بثقله وتطوره السريع، وثأره لهزائمه السابقة وبلاده المحتلة، وأسلمة شعوبها، وحروبه التي اتخذت منحىٰ القدسية بفتوىٰ البابا، ضد الإسلام للقضاء عليه وعلىٰ دولته وإفناء المسلمين، كانت كلها عوامل الهدم، تعصف بهم من الداخل ومن الخارج، حتىٰ حلت الفاجعة الكبرىٰ بالقضاء علىٰ الخلافة الإسلامية وإلغائها عام ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٣م، قبل تسعين سنة علىٰ يد (أتاتورك)، غير أن الشعب التركي المسلم بتُركه وكرده وعربه، لم يزل الإسلام ينبض في عروقه، ويشعره بقدرته علىٰ قيادة البشرية من جديد، والذي يزور تركيا اليوم يجد فيها من آثار الوعي الإسلامي ما يملأ القلوب فخراً، وشكراً لله العليّ الكبير. إذ فيها أكثر من مليون حافظ للقرآن الكريم، ذكوراً وإناثـًا، وهم من أتباع الإمام المجدد سعيد النورسي ﵁، الملايين في داخلها وخارجها، وهناك قرابة ألف مدرسة نورية فيها وفي العالم الإسلامي وخارجه[١].

هذا هو التاريخ وأهميته في بيان أثر الإسلام في قوة الأمة، حين الاستمساك به، والاستقامة عليه: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٢].

والتاريخ بيان لواقع الأمة والدولة حين هجره كذلك: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِيٓ أَمْرٍ

(١) هذا ما ذكره لي النوريون الموثوقون في المؤتمرات الدولية الأربعة الأخيرة منذ ١٩٩٧-٢٠٠٨م، وفي رسائل النور إشارات إلىٰ هذه الأعداد

(٢) سورة هود/ ١١٢

مَّرِيجٍ ﴾[١]، أي مضطرب وقلق.

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾[٢]، تـداولًا يتجاوب مع ميزان الله في كتابه: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾[٣].

وميزان التداول هو مدىٰ الالتزام بالمنهاج الإسلامي للحياة الذي اختطه لنا خالقنا وهادينا: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾[٤]، وهـو عـزّوجـل أعلم بما يحيينا وينصرنا: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[٥]؟! ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾[٦]

رابعها : إزالة الشبهة عن مكانة القومية في الإسلام

وهي من أهم أسباب اختياري موضوع الكتاب .

ذلك أن الإسلام يجمع بين القوميات ولا يفرّقها، في إطار الحب والأخوة: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[٧]، أما حديثنا عن (الأتـراك)، فتاريخهم حافل بالخير قبل الإسلام وبعده .

أما قبل الإسلام فقد أحبوا المسلمين العرب الفاتحين في فارس، وأسهموا معهم في الجهاد بإذن من الخليفة الفاروق ﷺ في فتوحات القفقاس وإرمينية، وشاركوا بعد إسلامهم ببسالة نادرة في سوح الجهاد، كما أسهموا معهم في بناء الحضارة الإسلامية، لاسيما في عصور الدولة العباسية الثاني والثالث والرابع، مع ما وقع من الهنات المؤسفة في إفساد عدد من الخلفاء .

---

(١) سورة ق/ ٥

(٢) سورة آل عمران/ ١٤٠

(٣) سورة الشورىٰ/ ١٧ الشعراء/ ٧٨ الملك/ ١٤

(٤) سورة الشعراء/ ٧٨

(٥) سورة الملك/ ١٤

(٦) سورة الفرقان/ ٣١

(٧) سورة الحجرات/ ١٠

ثم كانت دولة السلاجقة في الأنضول انقاذاً للخلافة العباسية، علىٰ الدولة البويهية الشيعية ، ثم ظهرت الدولة العثمانية عام ٦٩٩هـ، واتسعت لمدة (٦٤٠) سنة هجرية، ستة قرون ونصف تقريباً حتىٰ أواسط القرن الرابع عشر الهجري (١٣٣٩هـ - ١٩٢٤م)، وما دعوا في كل هذه القرون إلىٰ (قومية)، وكان العرب والأتراك والفرس والأكراد والبربر، بل حتىٰ الأوروبيون مع المسلمين (إخوة متحابين)، وكانت هوية المواطن العثماني كلمة (مسلم) فقط!.

ثم تبنّت الماسونية النعرات القومية وآزرتها الدول الكبرىٰ منذ بضعة قرون تحت شعار (فرّق تسدْ، فرّق تدمّر)، واشتدت النعرات القومية في أواخر القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي في تركيا، وفي البلاد العربية، لاسيما (الشام ومصر) .

وكان أبرز قادتها (البستاني واليازجي وجورجي زيدان، وأديب إسحق، وشبلي شميل وسلامة موسىٰ)، ثم امتدت إلىٰ ماوراءها من الدول العربية، لنشر الكره بين العرب والأتراك والأكراد والبربر .

وكانت الجمعيات الماسونية هي التي تنفث سمومها بين عملائها، مما هيأ الأجواء لغرس الأحقاد بين القوميات من جهة، وبينهم وبين الإسلاميين من جهة أخرىٰ . وما أفاد من هذا الاتجاه الجديد إلا العدو في تمزيق المسلمين واستعمار أوطانهم.

أ- موقف الإسلام من القومية:

إن الإسلام يتجاوب مع الفطرة، وحبّ القوم فطرة، ابتداءً بحبّ الأسرة والأقارب، وبحب الجار والإخوة الذين نعيش معهم في الوطن الإسلامي الرحيب، بدءاً بالأرحام: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[(١)]، واستمراراً بالمؤمنين وانتهاء بالبشرية : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾[(٢)]، فهم إخوة، والنبي ﷺ يدعو في سجوده، وهو يقرّ بخشوع

(١) سورة الأنفال/ ٧٥

(٢) سورة الحجرات/ ١٣

بالأخوة الانسانية، بقوله ﷺ : (وأنا شهيد أن العباد كلهم إخوة)[١].

لذا حين سئل ﷺ : (أمن العصبية حبّ الرجل قومه؟) أجاب ﷺ : (ليس من العصبية أن يحبّ الرجل قومه، إلا أن يعينهم علىٰ الظلم)[٢]. فحب المسلم قومه مشروط بحبّ كل مسلم من أية قومية فإنّ بغض المسلم لأخيه المسلم خدشٌ بل شرخ للإيمان. وظلم لأخيه المسلم في أخوته.

ب- الإسلام نظام حياة - لجميع المسلمين بقومياتهم وأجناسهم:

إن الذي يجمع المسلمين في تماسكهم: (بأن إلههم واحد وكتابهم واحد ونبيهم واحد ودينهم واحد، وقبلتهم واحدة، وعقيدتهم واحدة، وهدفهم في الحياة وغايتهم واحدة، وخلقهم واحد، وقيمهم في التعامل واحدة، والذي يحكم حياتهم الإسلام، كتاباً وسنة وسيرة يشمل جميع نظم الحياة العقدية والروحية التعبدية والنفسية والتربوية والصحة والقوة والدعوية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية) ، لقد أنجزت بفضل الله موسوعتي (نظم الحياة في رحاب كتاب رب العالمين ورسوله الأمين) يضم(٢٢) كتاباً في قرابة (٣٥٠٠) صفحة، ونظم الحياة في هدي المصطفىٰ ﷺ في(١٦) كتاباً، يقع (١٤٠٠) صفحة، يشمل كل منهما جميع النظم الحياتية في الإسلام(١٢) نظاماً.لذا فإن منهاجهم في الحياة واحد، وهو شامل لجميع شؤون الحياة: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[٣]، لذلك فهم ينتظمون في شتىٰ أمورهم بنظام واحد يجمعهم عليه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ

---

(١) مسند أحمد بن حنبل، ج٤، ص٣٦٩، ونصه كاملًا (كان نبي الله صلىٰ الله عليه وسلم يقول في دُبُر صلاته: اللهم ربّنا وربّ كل شيء أنا شهيد أنك أنت الرب وحدك، لا شريك لك. قال إبراهيم مرتين ربّنا وربّ كل شيء أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك، ربّنا ربّ كل شيء أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة، اللهم ربّنا وربّ كل شيء إجعلني مخلصاً لك وأهلي في كل ساعة من الدنيا والأخرة، يا ذا الجلال والإكرام، أسمْع واستجب، الله الأكبر الأكبر، الله نور السماوات والأرض، الله الأكبر الأكبر، حسبي الله ونعم الوكيل، الله الأكبر الأكبر).

(٢) أخرجه البخاري وابوداود وابن ماجه وأحمد وابن أبي شيبة وأبويعلىٰ والطبراني.

(٣) سورة الانعام/ ٣٨

أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[١].

والأمة الإسلامية بمنهاجها الإسلامي أمة واحدة، لا انقسام بينها: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾[٢]. ويؤكد المعنىٰ معلمنا رسول الله ﷺ: (يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي علىٰ أعجمي، ولا لعجميّ علىٰ عربي، ولا لأحمر علىٰ أسود ولا لأسود علىٰ أحمر الا بالتقوىٰ..)[٣].

بل ولا فخر لإنسان علىٰ إنسان، والفخر علىٰ الناس جاهلية! (إن الله ﷻ قد أذهب عنكم عبيّة الجاهلية، وفخرها بالآباء، مؤمن تقي وفاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعَنَّ رجالٌ فخرهم بأقوام، إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونُنَّ أهون علىٰ الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن)[٤].

ج- القومية نظام حياة علىٰ نقيض نظام الإسلام:

لقد شذّ القوميون، بل غلاة القومية عن الفهم الإسلامي للحياة، فابتدع لهم الغربيون نظامـًا لتمزيق الإسلام وهدم الخلافة الإسلامية، يتلخص بما يأتي:

الوحدة لدىٰ القوميين العرب ترسو علىٰ القومية بأربعة أركانها، وهي: (اللغة والوطن والتاريخ المشترك والمصالح المشتركة)، لا شأن لقادة القومية بالإسلام ولا يدخلونه في أركان القومية، كما لا يدخلون فيها دينـًا، فهم ينسلخون من سلطان الدين عليهم!

المسلمون القوميون ينسلخون من الإسلام، والنصارىٰ القوميون يبقون علىٰ نصرانيتهم!

فأقامت فكرتها علىٰ تمزيق المسلمين، وخلق النعرات القومية بين بقية الأقوام، إضافة إلىٰ أن أركانها واهية، وهي قائمة علىٰ الدعوة إلىٰ تجميع العرب دون غيرهم من المسلمين

(١) سورة النور/ ٥١

(٢) سورة المؤمنون/ ٥٢

(٣) قال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند ٢٣٤٨٩ إسناده صحيح.

(٤) سنن أبي داود/ ٥١١٦، ج٤، ص٣٣١

الأكراد والأتراك والبربر والفرس والأفغان والباكستانيين والهنود والاندونسيين، وغيرهم كثير من القوميات المسلمة، وعددها اليوم حوالي مليار و (٧٠٠) مليون مسلم غير عربي، إلىٰ جوار (٣٥٠) مليون مسلم عربي، ودعوة القومية تحرمنا من خمسة أضعاف عدد المسلمين العرب! أي ضعف هذا بالمنطق القومي !! لقد كانت هذه القوميات المسلمة جميعها كتلة واحدة متآخية عبر التاريخ بوجه العدو المشترك الذي كان شعاره أبداً: (دمّروا الإسلام وأبيدوا أهله)، ولم يزل هذا الشعار كذلك.

وإن نشأة القومية واحتضانها كانت من قبل الماسونية واليهودية والدول الأوروبية الكبرىٰ، التي يجمعها الكفر ضد الايمان، وقد حذرنا الله تعالىٰ منهم وهو أعلم بأعدائنا: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡ﴾[1]، وهم الكفار بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾[2]، والذين خدموا الأعداء شرّ منهم، وهم غلاة القوميين العرب لاسيما من العرب النصارىٰ في لبنان وسوريا ومصر والعراق،... والعميل أخطر من العدو، لأنه داخل الحدود والعدو خارجها، والمنفذ هو (العميل المنافق) الذي هو تحت الكفار في نار جهنم: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾[3]

أما أركانها فهي أربعة :

١- **اللغة**[4]: وهي عامل خطير في حياة الأمم ، ويؤكّد عليها الإسلام ، وقد رفع مقام اللغة العربية من منزلة كونها لغة العرب إلىٰ كونها لغة الإسلام ، إذ هي لغة مقدسة، وهي لغة القرآن الكريم ولسان محمد ﷺ : ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾[5]، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ

---

(١) سورة النساء/ ٤٥

(٢) سورة النساء/ ١٠١

(٣) سورة النساء/ ١٤٥

(٤) راجع كتاب الإعجاز الإلهي في أسلمة الشعوب وتعريبها – للمؤلف، وفيه تفصيل ذلك.

(٥) سورة الشعراء/ ١٩٢ – ١٩٥ .

بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾[١]، لذا فإن فرضـًا علىٰ كل مسلم أن يتعلمها، فيكون عربيّ اللسان، ليفهم دينه، لذا كانت اللغة العربية الفصحىٰ لغة القرآن الكريم هي السائدة في القرون الخمسة الأولىٰ من عمر الإسلام، وجميع المسلمين بمختلف عناصرهم وألسنتهم يفخرون بالكلام بها، حتىٰ إن العالم الفارسي والأديب المشهور (البيروني) كان يقول: (لأن أُهَجىٰ باللغة العربية أحبّ إليّ من أن أمدح بالفارسية)، هذا علمـًا بأن أغلبية الأدباء والنحاة واللغويين والمفسرين والفقهاء كانوا من غير العرب. هذا وإن العروبة في العقيدة الإسلامية هي اللسان، وليست رابطة الدم: (يا أيها الناس إن الرب واحد، وإن الأب واحد، وإن الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، إنما العربية اللسان، إنما العربية اللسان، فمن تكلم العربية فهو العربي)[٢].

٢- ولم يعزّ الإسلام اللغة العربية ويرفعها إلىٰ منزلة القدسية فحسب، وإنما هو الذي حفظها من التغير والتبدل، في حين أن جميع لغات العالم القديمة والحديثة تبدلت، إلا اللغة العربية لحفظ القرآن لها بكثرة تلاوته ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[٣]، ﴿ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾[٤]، حتىٰ إن ٨٥٪من الثروة اللفظية التي هي شائعة بين العرب في حديثهم الاعتيادي وكتاباتهم اليوم هي من ثروة القرآن الكريم، إضافة إلىٰ غنىٰ هذه اللغة بالثروة اللفظية والاشتقاق الذي يوسع اللغة، ولا تغزوها المصطلحات الحياتية الجديدة إلا نادراً، ولا تقدر علىٰ استعمارها.وما زلنا نقرأ الكثير من الشعر الجاهلي قبل ١٥٠٠ سنة ، والشعر الإسلامي منذ ١٤٠٠ سنة، وكأنه قيل اليوم .

ومن آثار هذه اللغة العربية أن تغيرّت الرقعة الواسعة من الصين إلىٰ المحيط الأطلسي

---

(١) سورة مريم/ ٩٧

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق/ ٢١، ٤٠٧، وكنز العمال، ج١٢/ ص٢٣ . ٨ .

(٣) سورة البقرة/ ١٢١

(٤) سورة المزمل/ ٢٠

والهندي والهادي بفضل القرآن الكريم، فتغيّرت الأديان إلىٰ الإسلام، وتغير اللسان إلىٰ العربية، وإن ارتباط اللغة بالقرآن العظيم والقيم الإسلامية هي التي جمعت أهلها، وهم جميع المسلمين في إطار الأمة الواحدة والدولة الواحدة والعقيدة الواحدة، ولو لم يكن الإسلام وعاء اللغة، لما كان للغة فائدة، لأنها يتكلم بها الكافر والمؤمن والملحد والتقي والشيوعي والرأسمالي، ولو اجتمع شقيقان في غرفة واحدة يتكلمان العربية، أحدهما ملحد والآخر مؤمن لما اتفقا، بل كان النزاع والصراع بهذه اللغة، فاللغة وحدها هي لغة المؤمن ولغة الملحد، ولغة الصديق ولغة العدو، فهي وحدها لا تجمع، ولكن لابد من وجودها للتفاهم ولجمع أهلها علىٰ القيم والبناء، لذا عمم الإسلام اللغة العربية علىٰ كل مسلم وألزمه بها، ليفهم دينه بالعربية ويدعو اليه، ويتكلم بها مع المسلمين في شؤون حياتهم، فهي لغة عبادة ودعوة وهي لغة حياة كذلك، وصارت (لغة المسلمين)، وما أسعفت لغة الغساسنة والمناذرة العرب عن مهادنة العرب المسلمين، بل حاربهم أهلها، كما لم تغن لغة اليهود الذين عاشوا باللغة العربية حول المدينة عن التآمر علىٰ العرب وعلىٰ رسوله ﷺ !. وسمّوا أسماءهم بأسماء العرب، وتزيّوا بأزيائهم وتقلّدوا تقاليدهم.

٣- **أما الركن الثاني فهو الوطن الواحد** : وذلك أن حبّ الوطن أمر فطري لما فيه من ذكريات ماضية، وآمال قادمة، وهو أمر خطير ومهم، يعتز به الإسلام، وحين أُخرج رسول الله (صلىٰ الله عليه وسلم) من مكة، مكرهـاً غادرها، وهو يردد: (والله لولا أن أهلك أخرجوني لما خرجت)، غير أن الله تعالىٰ واساه بوعد إرجاعه إليها: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾[1].

(١) سورة القصص/ ٨٥

ثم إن قوة الدولة التي أمر الإسلام بإعدادها إنما هي للحفاظ علىٰ الوطن دفاعًا وتحريراً، وتوسيعًا لرقعة الوطن الإسلامي. وحين يُعتدىٰ عليه، يكون علىٰ كل مسلم ومسلمة فرض عين في الدفاع عنه حتىٰ المرأة والطفل يخرجان للجهاد من غير استئذان الزوج أو الوالدين: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١]. ولقد خير القرآن بين قتل النفس والإخراج من الوطن لمعزة الوطن الفطرية علىٰ كل إنسان: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾[٢]. غير أن الوطن حينما يخلو من القيم التي يعيش فيها المسلم يستحيل جحيمًا، والإسلام رسالة تحيل الموت إلىٰ حياة، والجحيم إلىٰ جنة، لذا فان الوطن مكان بناء العقيدة السليمة والسلوك الحسن القائم علىٰ قيم الحق التي أنزلها الله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾[٣]، ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[٤]،

لذا فإن وطن المسلمين الأوائل حين ضاق بالمسلمين، ومنعهم من مزاولة حياتهم الإسلامية أمرهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلىٰ الحبشة مرتين، ثم إلىٰ المدينة حيث كان موطن استكمال بناء العقيدة ودولة الإسلام.

وحين اجتمع المسلمون مع كفار قريش، وكلاهما عرب، لم يغنهم الوطن الواحد عن الصراع، وحين اجتمعوا مع منافقي المدينة ويهودها وجميعهم عرب، لم يأنسوا جميعًا في الوطن الواحد، علمـًا بأن المنافقين واليهود كانوا عربـًا - عرب اللسان - بلغتهم، وعربا بأسمائهم، وعربـًا بلباسهم، وعرباُ بعاداتهم وتقاليدهم ومطاعمهم ومشاربهم.

---

(١) سورة التوبة/ ٤١

(٢) سورة النساء/ ٦٦

(٣) سورة الاسراء/ ١٠٥

(٤) سورة الكهف/ ٢٩

فلم تجمع القومية العرب المسلمين مع عرب قريش الوثنيين، ولا مع منافقي المدينة العرب، ولا مع اليهود ولسانهم جميعًا عربي، ووطنهم عربي، فأين مكانة القومية وهيمنتها عليهم!

كذلك فإن الغساسنة والمناذرة عرب عاشوا بحماية الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية، وكان لسانهم وتقاليدهم وأسماؤهم ولباسهم عربيًا، ولكنهم وقفوا صفًا واحداً مع دول الكفر غير المسلمين وغير العرب ضد العرب المسلمين في الفتوحات الإسلامية، وقاتلوا بعناد وكثافة وشراسة وهم عرب، فأين أثر القومية العربية بين العرب؟!

٤- **أما الركنان الثالث والرابع فهما التاريخ الواحد والمصالح المشتركة** : ففيهما تعاطف مصلحي، قد تتجاوب معها النفوس بدرجات متفاوتة، منهم من يتجاوب حين يحقق مصالحه من غنىٰ ومركز ودنيا، ومنهم من يتحين الفرص للانقضاض علىٰ بني قومه من هم علىٰ دينه ومن هم علىٰ غير دينه، حتىٰ لو تحققت مصلحته بقدر، إذ يريد احتكارها له وحده، واستغلال كل فرصة لبيع وطنه والانتقام من قومه، كما هو الحال مع اليهود في عمر التاريخ الإسلامي في الوطن الإسلامي، وهو الحال غالبًا لأصحاب الديانات الأخرىٰ مع المسلمين إذ أن قلوبهم ومخططاتهم مع هوىٰ المستعمر، لأن الهوىٰ والمصالح عبث وعمىٰ عن كل شيء، وهو الهدم فكيف يكون البناء به؟!: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[(١)]؟! وحب الهوىٰ بل عبادته (أي طاعته المطلقة والخضوع لأوامره) تعمي صاحبه عن الحق فلا يراه، ويصم أذنيه فلا يصغىٰ له ولا يستمع إليه.

هذه الأركان الأربعة التي لا تقوم علىٰ قيم، بل علىٰ المصالح والتاريخ واللغة والأرض، هي التي يريد القوميون أن يقيموا الوحدة العربية علىٰ أساسها بمعزل عن الدين، إذ ليس

(١) سورة الجاثية/ ٢٣

للإسلام ركن أو ذكر لدىٰ غلاة القومية العربية!

د- مقام العرب في الإسلام أسمىٰ مقام :

يقول الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾(١)، فجعلها في العرب الذين حملوها وضحوا فيها بالأرواح والدماء والأموال والأوطان ورعوها حق رعايتها، فكانوا بحق خير أمة: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾(٢).

ولقد أعز الإسلام العرب، لأنهم مادة الإسلام، والله تعالىٰ يمتدحهم بقوله ﷻ:﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾(٣).

ويخاطب الرسول ﷺ: (يا سلمان لا تبغضني فتفارق دينك، قلت يا رسول الله كيف أبغضك، وبك هدانا الله! قال: تبغض العرب فتبغضني، ومن يبغضني تحرم عليه الجنة)(٤). وحين سئل ﷺ : (أمن العصبية أن يحبّ الرجل قومه؟) أجاب ﷺ : (ليس من العصبية أن يحبّ الرجل قومه ، إلا أن يعينهم علىٰ الظلم)(٥).

ثم إن القرآن الكريم نزل بلسان العرب، وتعرّبت الدنيا بالقرآن، فأعزّ العرب ولغتهم، بنشر العربية إلىٰ حيث انتهىٰ الإسلام في الأرض، ما بلغ الليل والنهار، فكان الإسلام والعربية صنوان لا يفترق.

ولما كان للعرب الفضل في نشر الإسلام في الفتوحات الأولىٰ في صدره، بلغتهم، صار لهم مكانة متميزة لدىٰ المسلمين من غير العرب، يأتمون بهم في صلاتهم، ويتبركون بهم ويعزونهم، ومازال مقامهم كذلك حتىٰ قبل بضعة عقود لدىٰ الأكراد والأتراك والهنود

(١) سورة الأنعام/ ١٢٤

(٢) سورة آل عمران/ ١١٠

(٣) سورة الانعام/ ١٢٤

(٤) ضعيف سنن الترمذي للألباني ، رقم الحديث ٣٩٢٧ .

(٥) سبق تخريجه.

وسكان شرق آسيا والصين بسبب الإعلام الغربي والدس الخبيث المتآمر علىٰ الإسلام .

ثم إن الاتجاه القومي زعزع مكانة العرب لدىٰ المسلمين من غير العرب، إضافة إلىٰ سلوك كثير من العرب المسلمين علىٰ نقيض ما يريده الإسلام، لاسيما كثير من الحكام، كما أوجد النعرات القومية لدىٰ القوميات غير العربية في المسلمين، بما أعان علىٰ تمزيق المسلمين.

فماذا ربح القوميون من دعواهم في تنفير غير العرب من المسلمين منهم؟ أيريدون الامتياز لليهود والنصارىٰ داخل الوطن العربي، ونسبتهم ٧٪ من مجموع السكان، والإسلام يعزهم ويكرمهم، فلا يحتاجون إلىٰ قومية تحميهم ، في حين أن نسبة المسلمين من غير العرب في العالم العربي ٢٥٪، أنقرِّب ٧٪ علىٰ حساب إبعاد ٢٥٪ من الوطن الواحد، وتمزيقه هكذا! علماً بأن القومية واهية الأركان، كما بيّنا: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[١]، وكان يقول فيها ﷺ : (دعوها فإنها منتنة)[٢]!

وحين يختزي العرب القوميون من الانتساب إلىٰ الإسلام، ويكون النصراني العربي واليهودي والصابئي واليزيدي - عابد الشيطان العربي عندهم أعزّ عليهم من المسلم غير العربي، بل إن المسلم غير العربي لا وزن له عندهم، بل هو غريب أجنبي عنهم، حينئذ يتحقق غضب الله فيهم وعقوبته عليهم: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[٣]، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[٤].

هكذا التاريخ يظهر لنا عظمة الإسلام وأبهة الاعتزاز به، كما يكشف لنا ذلّ المنحرفين عنه، وسقوطهم، حين اتخاذهم مبادئ غيره، بديلاً عنه كالقومية والوطنية والطائفية والمذهبية

(١) سورة التوبة/ ١٠٩

(٢) أخرجه البخاري/ ٤/ ١٨٦١، ومسلم/ ٤/ ١٩٩٨

(٣) سورة الزخرف/ ٥٥

(٤) سورة آل عمران/ ١٠٥-١٠٦

والعنصرية، وإن التمرد على الله تعالى وعدم الاستجابة لمناهجه في الحياة، إنما هو الهوى والمصالح الشخصية: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[١]، وإن كل نظام يتبعه المسلمون سوى نظام الإسلام هو جهالة وجاهلية، بحكم الله عزّ وجل، سواء أكان من جاهلية الماضي أم جاهلية الحضارة الحديثة: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٢]، ولا مجال لقياس مخلوق بخالق: (أفمن يخلق كمن لا يخلق، أفلا تذكّرون)[٣]؟!، ولا لقياس نظام الله بنظام البشر: (فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه)[٤].

هـ- الإسلام والعصبية :

لا عصبية في الإسلام إلا للحق: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾[٥]، (﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[٦]، لذا فإن الإسلام نظام جامع للمسلمين، تتناغم فيه أرواحهم وقلوبهم وعقولهم، إذ هو دستور حياتهم الخالد . أما العصبية لغير الحق، فالإسلام كله حق: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[٧]، لذا فإن الإسلام ينبذها: (ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية)[٨]، والإسلام يدعو إلى الإخاء بين جميع من يؤمن به، مهما كانت

(١) سورة القصص/ ٥٠

(٢) سورة المائدة/ ٥٠

(٣) سورة النحل/ ١٧

(٤) رواه الترمذي وقال: حسن غريب ، وانظر : ضعيف سنن الترمذي، رقم ٢٩٢٦، للألباني .

(٥) سورة يونس/ ٣٢

(٦) سورة الاسراء/ ١٠٥

(٧) سورة الذاريات/ ٢٣

(٨) سنن أبي داود، ج٤، ص٣٣٢ – وضعفه الألباني ، ورواه البزار/ ٢٩٣٨، والبيهقي/ ١٠/ ٢٣٢، والطبراني وأبو يعلى وابن ماجه، والهيثمي في الزوائد/ ٨٤١٨

قومياتهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[١]، ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[٢]، وإنهم بفضل هذا الحب والإخاء في تماسك وتراصّ بينهم: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ)[٣].

وإن أكرم المسلمين عند الله أفضلهم عملاً وأدباً مع الله تعالىٰ ومع الناس: (إن أكرمكم عند الله اتقاكم)[٤]. والإسلام دعوة الدنيا إلىٰ هذا الدين: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[٥]، الذي لا سيادة ولا عزّ إلا به، وشيّد علىٰ أكتاف العربي والفارسي والحبشي والرومي، كما أسهم فيه بعدئذ الكردي والتركي والبربري والهندي والمغولي ... هذا إضافة إلىٰ أن شعار الإسلام الأخوة الإنسانية الشاملة، إذ هو (رباني التوجيه، إنساني الاتجاه): (أحبّ للناس ما تحب لهم من نفسك تكن مؤمناً)[٦].

ذلك هو الإسلام حياة العز والسؤدد، فأين نحن منه اليوم!

---

(١) سورة الحجرات/ ١٠

(٢) سورة الحجرات/ ١٠

(٣) أخرجه البخاري وأحمد، ج٤، ص٧٠ – ورواته ثقات.

(٤) سورة الاسراء/ ٧٠

(٥) سورة الفرقان/ ١

(٦) جزء من حديث حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه . انظر : « السلسلة الصحيحة » للألباني برقم٩٣٠ .

الباب الأول

الخلافة العثمانية المجاهدة

(٦٩٩ - ١٣٤٠هـ/ ١٢٩٩ - ١٩٢٤م)

نشأتها. اتّساعها. سقوطها

من (٦٤٠هـ - ٦٢٥م) سنة

لمحة تاريخية

الفصل الأول: عصر النشوء والاتساع والهيمنة (سلاطين القمم)

الفصل الثاني: عصر التماسك

الفصل الثالث: عصر الضعف

الفصل الرابع: عصر السقوط

لمحة تاريخية

أصل الأتراك، والوجيز في تاريخ الخلافة العثمانية خلال ستة قرون ونيّف (قبل ظهور الدولة العثمانية)

أصل الأتراك في موطنهم: (تركستان - الشرقية التي تقع غرب الصين التي استعمرتها في العصر الحديث وهي (بلاد ما وراء النهر)، (سيحون وجيحون) حتىٰ بحر الخزر (قزوين) التي تقع وسط آسيا إلىٰ الشرق من آسيا الصغرىٰ، وتمتد من سيبريا شمالاً إلىٰ القارة الهندية وفارس جنوبًا، وأكثرهم استقراراً بلاد ما وراء النهر (سيحون وجيحون وبحيرة آرال)، حتىٰ فارس، وفيها حضارة عريقة[1].

بدأ اتصال الأتراك بالجيش الإسلامي بعد معركة نهاوند، التي انتهىٰ بها الحكم الفارسي طالبًا الصلح من قائد الجيش الإسلامي عبد الرحمن بن ربيعة، وأظهر ملك الترك شهر براز استعداده للمشاركة في الجيش الإسلامي لمحاربة الأرمن، فكتب عبد الرحمن بن ربيعة بذلك إلىٰ القائد العام سراقة بن عمرو الذي كتب إليه بالموافقة فعُقِد الصلح بين المسلمين والأتراك، واشتركوا في فتح بلاد الأرمن، ثم اعتنق الأتراك الإسلام عام ٢٠هـ، زمن عمر رضي الله عنه.

كما اشتركوا في الفتوحات في عهد عثمان رضي الله عنه، حيث تم فتح طبرستان، وبلاد ما وراء النهر عام ٣١هـ، واستبسل الأتراك المسلمون في الجهاد[2]، حتىٰ تم فتح (بخارىٰ)، فتحها

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ٢٣

(٢) المصدر السابق/ ٢٤، بايجاز

ابن عثمان[١] ﷺ ، ثم معاوية ﷺ ، حتىٰ وصلت إلىٰ سمر قند[٢]، ثم ازداد عدد الأتراك في الجيش وأسهموا في إدارة الدولة العباسية وبلاط الخليفة، وتقلدوا المناصب العليا، لاسيما في الجيش - إبتداء من عصر (المعتصم بالله بن هرون الرشيد) عام ٢٣٠هـ، وبعده (المتوكل) الذي قتلوه كذلك.

وقد نجح المعتصم في تجميعهم وتكوين قوة إسناد أساسية للخلافة في وجه التسلط البرمكي الفارسي الذي قضىٰ عليهم هارون الرشيد، وقد ازدادت قوتهم في أواخر أيام خلافة المعتصم بالله الذي جمّع فرقة تركية قدّمها علىٰ بقية عناصر الجيش، وتسلطوا علىٰ الخلافة العباسية ومصالح الدولة وماليتها وإدارتها مما حدا بالمعتصم إلىٰ بناء (سرّ من رأىٰ) بدلاً من بغداد واستمر تسلطهم علىٰ الخلافة لفترة تزيد علىٰ ربع قرن بعد وفاة المعتصم بالله، شملت عصور الخلفاء الواثق بالله، والمتوكل علىٰ الله، ومحمد المنتصر بالله، والمهتدي بالله والمستعين بالله والمعتز بالله، واستمروا في تحكمهم وطغيانهم وقتلهم للخلفاء، حتىٰ ثورة الزنج التي عجزوا عن التصدي لها، حيث هيأ الله تعالىٰ للعباسيين قائداً فذاً من الأسرة العباسية، هو سيف الإسلام الموفق طلحة بن المتوكل الذي تولىٰ إعادة تشكيل الجيش العباسي وأدار دفة الحكم بحنكة وحكمة وخلص الخلافة من تسلط الجند الأتراك واستبدادهم، وأعاد للحكم العباسي تماسكه ورونقه[٣].

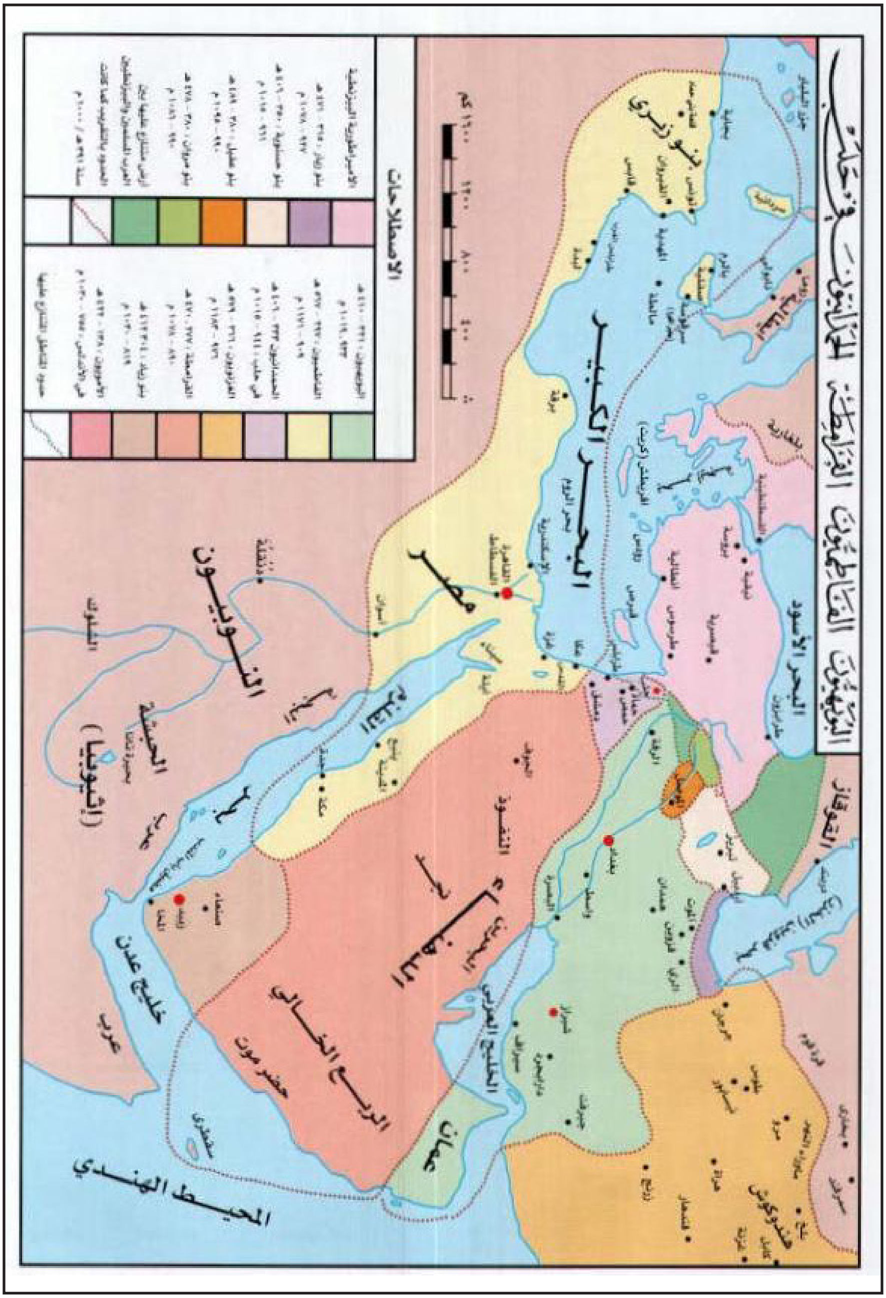
---

(١) قرأت هذا الخبر في كتاب اللواء محمود شيت خطاب، مؤلفاً عام ١٩٩٠م، ولم أذكر اسمه، وإني متيقن من هذا الخبر، الذي أسنده إلىٰ مصدر قديم

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ٢٥

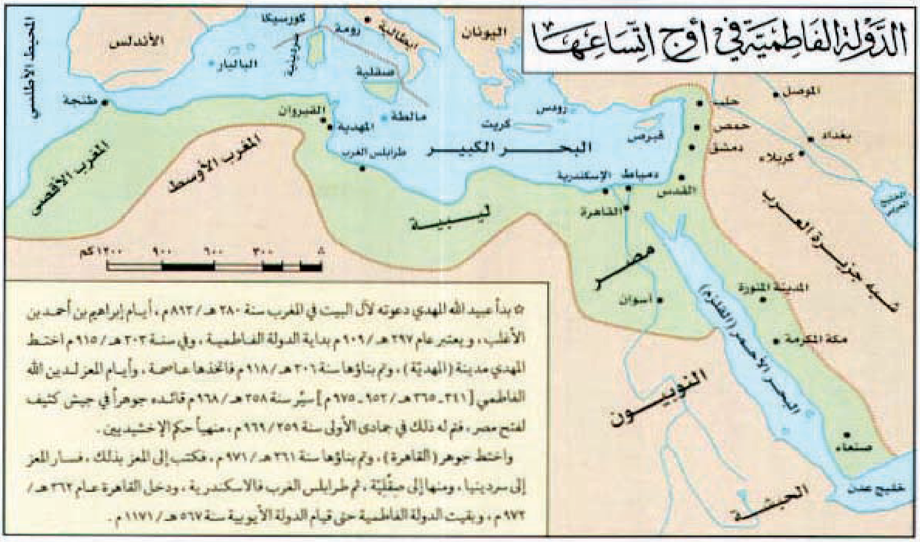
(٣) المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية، حسام الدين السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٦٠م.

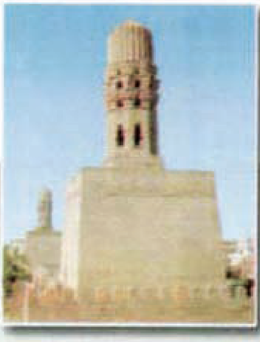
١١



البويهيون . الفاطميون . القرامطة . الحمدانيون في حلب

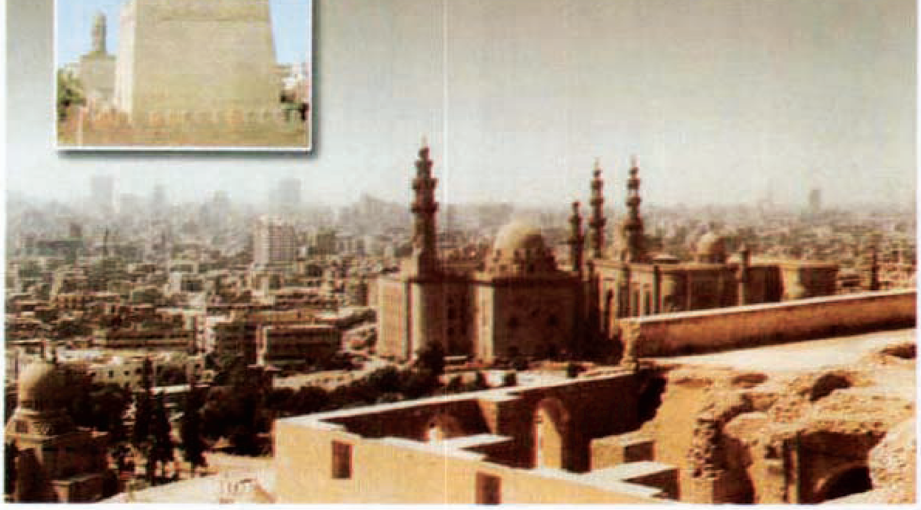
١٢





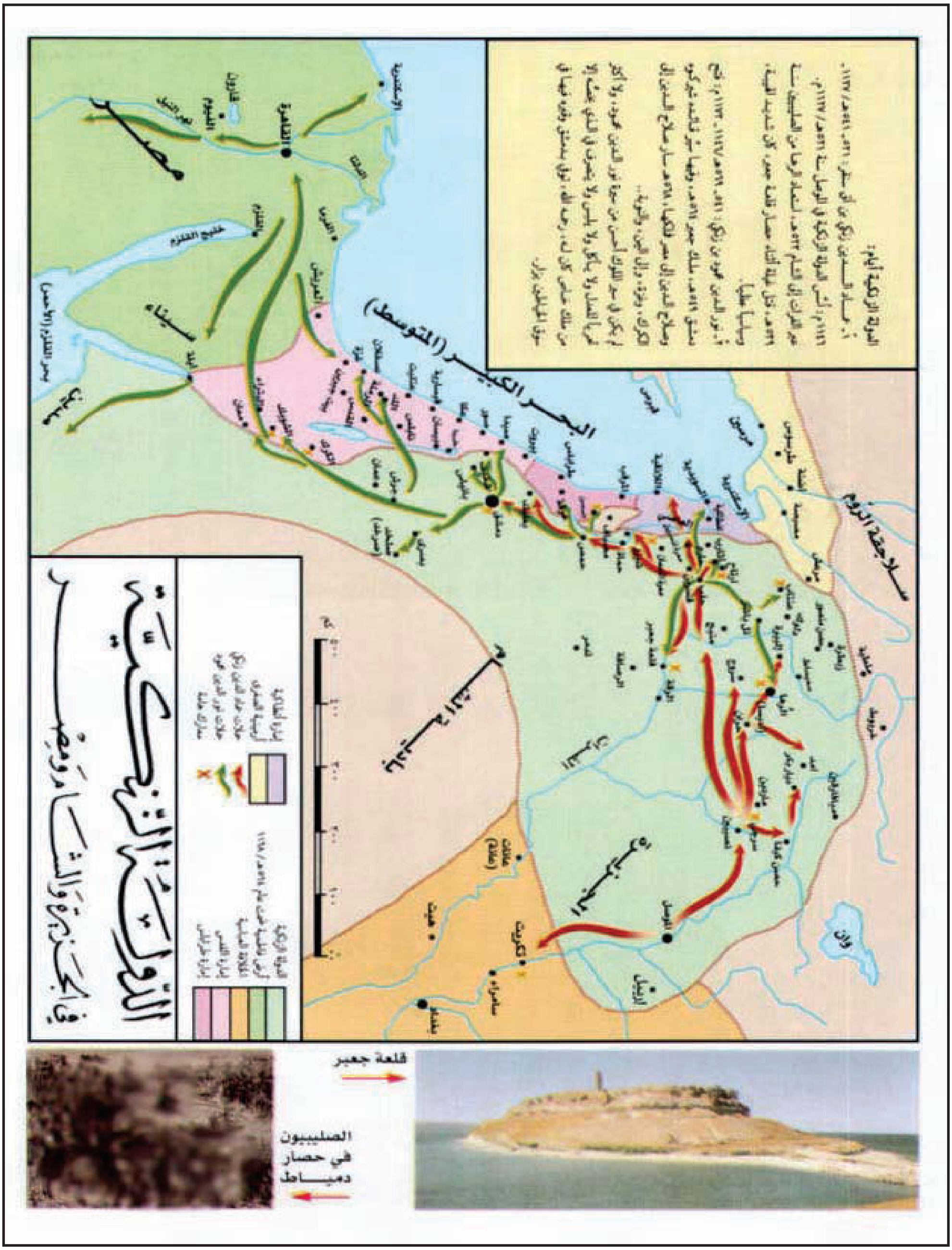
منارتا جامع الحاكم بأمر الله
بباب الفتوح

الجامع الأزهر



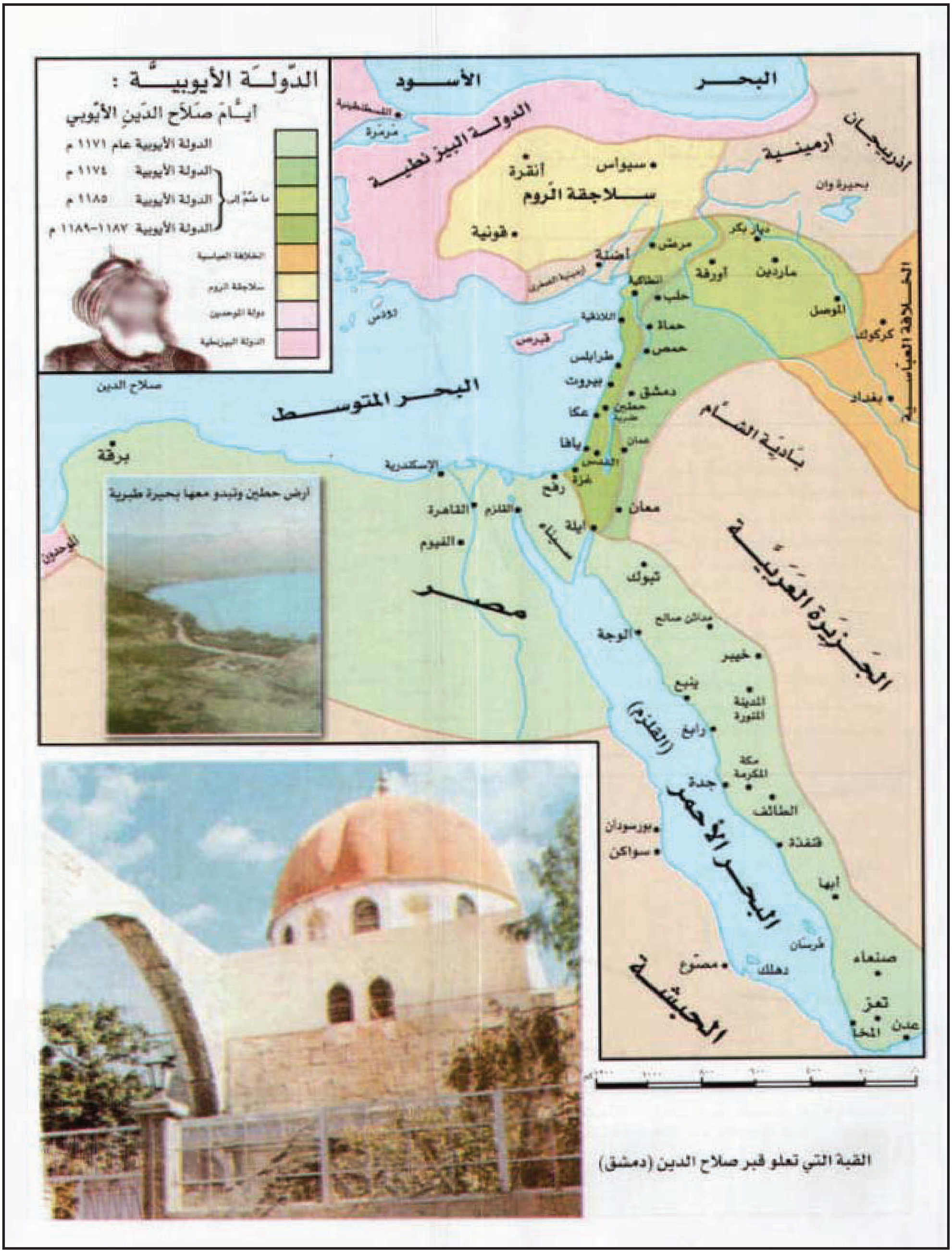
الدولة الفاطمية في أو توسعها

١٣



الدولة الزنكية في الجزيرة والشام ومصر

١٤



الدولة الأيوبية

وظهرت الدولة البويهية سنة ٣١٨هـ، لمدة قرن من الزمن، فتسلطت علىٰ الخلافة العباسية واحتلت بغداد، وعبث الفرس بالخلفاء، كما عبث قبلهم الجند الأتراك.

ويمكن اعتبار الخلافة العباسية حين ظهور السلاجقة ، بأنها كانت بحكم الانقراض، ولكن السلاجقة أعلنت ولاءها للخلافة العباسية، وكانت رقعة حكمها من خوارزم وخراسان والأفغان وإيران والعراق والجزيرة وسورية والحجاز والأناضول، فسيطروا علىٰ البلاد الإسلامية في آسيا من الحدود الغربية للأفغان حتىٰ البحر المتوسط ومصر، فجمعوها مرة أخرىٰ في يد حاكم واحد، وأيقظوا المسلمين وأنشؤا جيلاً جديداً يتصف بالصلابة الدينية، ذا عزم وإقدام .

أعلن مؤسس دولة السلاجقة طغرل بيك قيام دولته في خراسان عام ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م، وضمّ إليه جرجان وطبرستان وخوارزم والري وبلخ وأصفهان سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م، ودخل بغداد وأعلن سلطته في (الري) مقر الخلافة، بعد قضائه علىٰ البويهيين[١] .

ودانت دولته للخليفة العباسي العربي، ومنعت سبّ أبي بكر وعمر والصحابة علىٰ المنابر، وهو ما كان يعمله البويهيون. وظهرت فيها دولة سلاجقة الروم في الأناضول (سلاجقة الروم) ، علىٰ يد الخوارزميين[٢] لمدة ٢٣٥ سنة ، وكانت تشمل (السلاجقة العظام) في (إيران والعراق وسلاجقة كرمان، وسلاجقة الشام، وسلاجقة الأناضول)[٣]، وكان حكم سلاجقة الأنضول مزدهراً برقي العلوم والفنون الجميلة، وآلاف الآثار المعمارية شاهدة عليه[٤].

مؤسس حكم سلاجقة خراسان (طغرل بيك) شخصية قوية يتمتع بذكاء حاد وشجاعة فائقة، متدينًا، ورعًا، عادلاً، وكان جيشه قويًا، تصاهر هو والخليفة، مما زاد الصلة قوة، وتوفىٰ بعمر (٧٠ سنة)[٥].

(١) أطلس التاريخ العربي الإسلامي، د. شوقي أبو خليل/ ص٢١٨

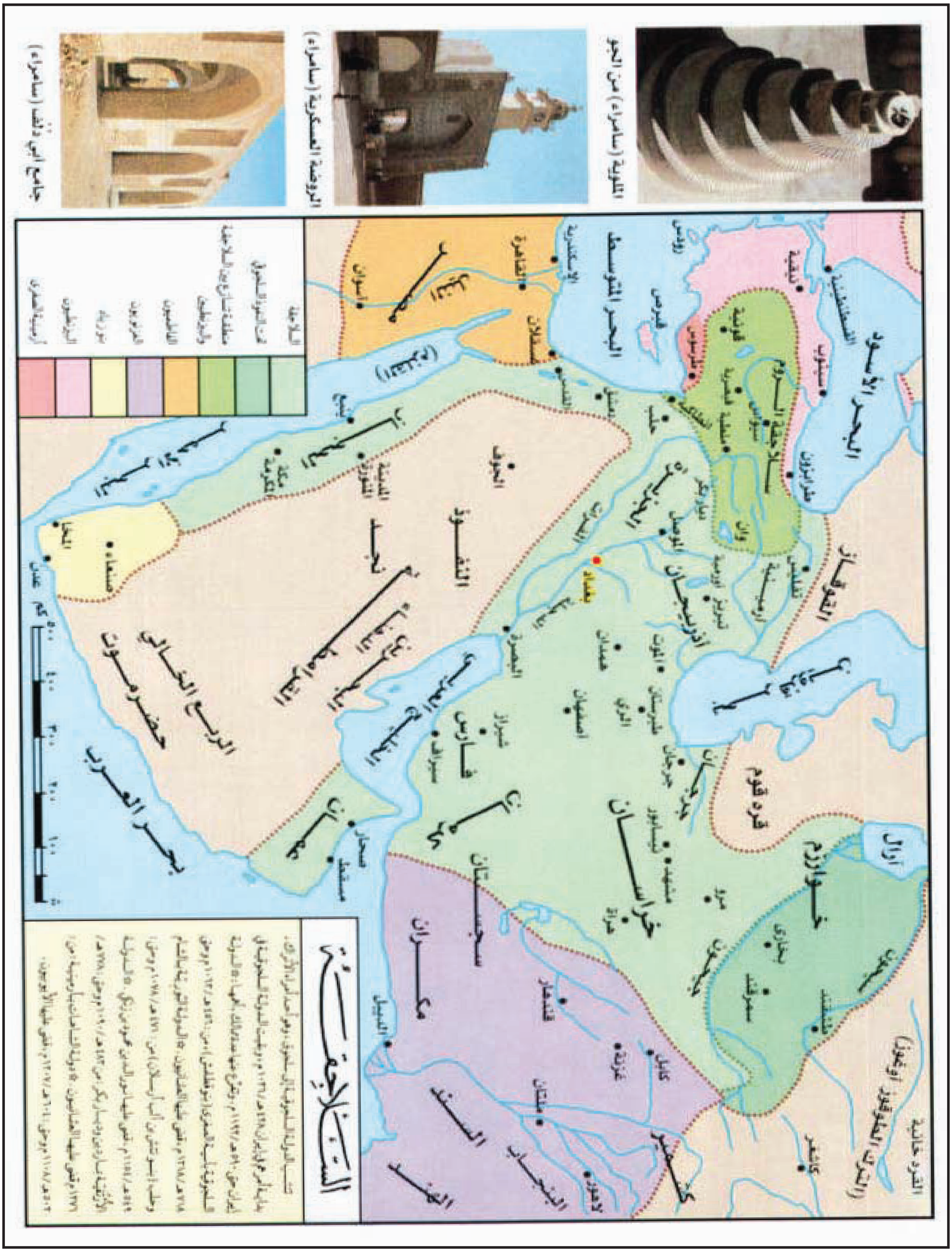
(٢) المصدر السابق، ص٢١٩

(٣) المصدر السابق، ص٢١٩-٢٢٢

(٤) المصدر السابق، ص٢١٩

(٥) الدولة العثمانية، الصلابي

١٥



دولة السلاجقة

خلفه السلطان محمد (الملقب بألب أرسلان، أي الأسد الشجاع)، وهو ابن أخيه، وكان قائداً يتمتع بنفس صفات عمه، وسّع الدولة السلجوقية في أرمينيا والأنضول، حكم (سبع سنين)، وكان حكمه استقراراً واتساعـاً، واستولىٰ بجيش ضخم علىٰ أرمينيا وجورجيا ونشر الإسلام فيها، وضمّ الشام إلىٰ دولته، وانتزع القدس من الفاطميين. وقد اثارت انتصاراته وتوسع الدولة الإسلامية في العصر السلجوقي حفيظة إمبراطور الروم (ارمانوس)، إذ أرسل جحافل كأمثال الجبال، معهم الآف البطارقة، ويقول ابن كثير إن مع بعضهم ٢٠٠٠٠٠ فـارس[١] عدا المشاة، ولعله يقصد أن مجموع جيشه كذلك، تصدّىٰ له ألب أرسلان بـ ٢٠٠٠٠،[٢] بعد توجه خاشع إلىٰ الله تعالىٰ، فلبس هو وجيشه الأكفان، وقال: إن متنا فهذه أكفاننا[٣]، وتحرىٰ سنة النبي ﷺ في اختيار ساعة اللقاء ضحىٰ يوم الجمعة، في الموقعه الفاصلة الشهيرة بـ(ملاذ كرد ٤٦٣هـ-١٠٧٠م)، فأنزل الله نصره، وقتل عشرات الألوف، ومثلهم من الجرحىٰ، والأسرىٰ، وهرب الباقون، وأسر الكثيرون، ومعهم الامبراطور (أرمانوس)، ثم افتدىٰ الامبراطور نفسه بألف ألف دينار و ٥٠٠٠٠٠ دينار[٤]، فأرسله إلىٰ العاصمة، تحت راية (لا إله إلا الله، محمد رسول الله)، مع نفقة سخيّة معه. وكتب بأخبار النصر إلىٰ الخلافة العباسية في بغداد، الذي بادر إلىٰ اعلان أخبار النصر علىٰ المنابر في جميع انحاء الدولة.

---

(١) ولا تخلو من المبالغة بهذا الرقم

(٢) في حين يذكر البعض أن عدد جنوده ١٥,٠٠٠ جندي

(٣) وفي رواية أخرىٰ أن العالم الرباني أبا نصر البخاري قال للسلطان ألب أرسلان: إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره علىٰ سائر الأديان، فالقهم يوم الجمعة في الساعة التي يكون الخطباء علىٰ المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين. فلما كان تلك الساعة صلىٰ بهم، وبكىٰ السلطان، فبكىٰ الناس لبكائه، ودعا فأمنوا، فقال لهم : من أراد الانصراف فلينصرف فما هاهنا سلطان يأمر ولا ينهىٰ. وألقىٰ القوس والنشاب وأخذ السيف، وعقد ذنب فرسه بيده، وفعل عسكره مثله، ولبس البياض وتحنط، وقال: إن قتلت فهذا كفني، الله أكبر علىٰ مثل هؤلاء ينزل نصر الله.
ثم قتل هذا السلطان علىٰ يد أحد الثائرين واسمه يوسف الخوارزمي في ١٠ ربيع الأول عام ٤٦٥هـ - ١٠٧٣م ، ودفن في (مرو) بجوار قبر أبيه، فخلفه ابنه ملكشاه)، عن الدولة العثمانية، الصلابي/ ٣٠-٣١، عن تاريخ الإسلام للذهبي/ ٤٦١، ٤٧٠، ج٢، وقيام الدولة العثمانية/ ص٢١

(٤) غير ان دائرة المعارف البريطانية (النسخة التركية) تذكر المبلغ الذي فرض علىٰ البيزنطينين هو ٣٦٠٠٠٠ دينار، ج/ ٢١، ص٣٦٣

وكانت هذه المعركة نقطة تحول في التاريخ الإسلامي في الأنضول.

لقد كان ألب أرسلان رحيم القلب، كثير الصدقة، كثير الدعاء، قُتل شهيداً عام ٤٦٥هـ في العاصمة السلجوقية (مرو)، ودفن إلىٰ جوار أبيه[١].

أتىٰ بعده ابنه السلطان ملك شاه - عام (٤٤٧-٤٨٥هـ/ ١٠٥٥-١٠٩٢م)، إتسعت دولته إلىٰ ما وراء النهر شرقًا، وإلىٰ منتصف الأناضول والشام غربـًا، وأقيمت الدولة للخليفة العباسي[٢].

ثم بدأ الضعف بوفاة ملك شاه، وظهر في هذه الدولة الإداري المحنك والوزير الصالح (نظام الملك) أبو علي الحسن الطوسي - الوزير الكبير زمن (ألب أرسلان وملك شاه)، أنشأ سبع مدارس دعوية كبيرة عرفت بالنظاميات، منها المدرسة النظامية ببغداد، وأخرىٰ بالمدينة المنورة وثالثة بواسط ورابعة في الموصل وأخرىٰ بنيسابور، وسادسة بطوس[٣]، وكانت هذه المدارس عامرة، مشهورة بعلمائها ومكتباتها وطلابها، ومن مدرسيها الإمام الصالح حجة الإسلام الغزالي ﵀، وكان ذا حكمة واحترام من قبل السلطان والعلماء[٤]، وكان الطلبة يسكنون في أقسام تابعة للمدرسة ونفقتها علىٰ الوزير الذي كان يُجري الرواتب علىٰ الطلبة طيلة التحاقهم بالدراسة مما نجم عنه تخريج اعداد كبيرة جداً من العلماء لنشر الإسلام والوعي الفقهي ومواجهة الانحرافات العقدية التي انتشرت في تلك الحقبة، كالتشيع والزندقة والعقائد الثنوية الفاسدة[٥].

كان نظام الملك (المسلم المثالي) في عبادته وتهجده وخشوعه، حفظ القرآن، وهو ابن (١١ سنة)، واشتهر بسلوكه المتواضع الذكي الإداري مع الناس ومع السلطان، ودامت

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ٣٢

(٢) المصدر السابق/ ٣٢-٣٣

(٣) نشأة المدارس في الدولة الإسلامية، د. حسام السامرائي

(٤) الدولة العثمانية، الصلابي/ ٣٤-٣٨ باختصار كبير

(٥) نشأة المدارس في الدولة الإسلامية، د. حسام السامرائي

وزارته (٣٠ سنة)، وقتله رجل من فرقة (الاسماعيلية الباطنية)، وكان الحاكم الحقيقي للامبراطورية السلجوقية، رحمه الله، لقد عاش سعيداً ومات شهيداً.

كان نظام الملك - بما يروي عنه الذهبي هو (الوزير الكبير قوام الدين، عاقل، سائس، خبير، سعيد، متدين، محتشم، عامر المجلس بالقراء والفقهاء، أنشأ المدرسة الكبرىٰ ببغداد، وأخرىٰ بنيسابور، ثالثة بطوس، وبعد صيته، وأشار علىٰ ملكشاه بتعيين القواد والأمراء الاتقياء الأكفاء، ومنهم آق سنقر جد نور الدين، ووالد عماد الدين الزنكي، وكان آق سنقر أميراً للموصل، واشتغل بجهاد الصليبيين[(١)].

لقد بلغت الحضارة الإسلامية قمتها في عصر السلاجقة (العظام)، حتىٰ أجاز البعض تسميته بالعصر الذهبي الثاني ٤٢٩-٥٩٠هـ[(٢)].

انقرضت الدولة السلجوقية عام ٥٩٠هـ - ١١٢٨م، علىٰ يد الخوارزميين بعد أن حكمت (١٦١ سنة) ٤٢٩-٥٩٠هـ/ ١٠٣٧-١١٩٤م، وظهرت الدولة الخوارزمية فيما وارء النهر، وظهرت إمارات سلجوقية وتركية صغيرة، شمال العراق والشام، ومنها (الأتابكة) بزعامة عماد الدين الزنكي، وابنه نور الدين الشهيد ٥٢١-٦١٩هـ (١٠٠ سنة)، ثم بعدهما أتىٰ صلاح الدين الأيوبي صاحب حطين، وهو كردي، تجمعهم جميعًا (أخوة الإسلام).

لقد كان عماد الدين وابنه من الأتراك ، وكان صلاح الدين كرديًا، وكلاهما أعزّ الإسلام وانتصر له بمعارك مهولة ضد الصليبيين، بسبب عقيدتهم الصلبة وعمق إيمانهم بها. بالصفح والصلح أو بالحرب والحُرَب [(٣)].

(١) سير أعلام النبلاء/ ١٩/ ٩٤

(٢) أطلس التاريخ العربي الإسلامي/ د. شوقي أبو خليل، ص٢١٩

(٣) ابن سناء الملك – موسوعة الأدب الإسلامي وتاريخه في عصوره – العصور المتأخرة والقارة الهندية/ ١٧ – المؤلف

أما سلطنة (سلاجقة الروم) في الأنضول (٤٧٠-٧٠٧هـ) فترة ٢٣٧ سنة، فهي التي قاومت الغزو الصليبي، ثم ظهرت إلىٰ جوارها الدولة العثمانية، حيث ضمتها إليها:

وللسلاجقة أعمال جليلة تتمثل فيما يأتي:

١- أوشكت الدولة العباسية علىٰ الانقراض في ظل سيطرة الشيعة البويهيين الروافض.

٢- منعت الدولة السلجوقية الدولة العبيدية (الفاطمية الشيعية) في مصر من تحقيق أغراضها الهادفة إلىٰ توحيد المشرق العربي الإسلامي تحت الراية الباطنية الرافضة.

٣- بذلت الدولة السلجوقية الجهود الموفقة لتوحيد المشرق الإسلامي الذي تم علىٰ يد عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين تحت راية الخلافة العباسية (السنية).

٤- وقفوا في وجه التحركات الصليبية البيزنطية، وحاولوا صدّ الخطر المغولي .

٥- رفعوا من شأن المذهب السني وعلمائه في دولتهم إلىٰ مستوىٰ (العصر الذهبي)[1].

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ٤٢

الفصل الأول

عصر النشوء والاتساع والهيمنة

(سلاطين القمم)

تداول الخلافة فيه (عشرة) سلاطين

(٦٩٩ - ٩٧٤هـ / ١٢٩٩ - ١٥٦٦م)

خلال (٢٧٥هـ - ٢٦٧م) سنة

تمهـــيد

لم نجد في عمر التاريخ دولة نشأت من رعاة مجاهدين أتقياء، وحّدهم قائدهم (عثمان)، وخاض بهم حروبـاً فوق طاقاتهم، بجهاد وصبر وشجاعة، مع عدل ورحمة بأعدائهم في السلم، ثم ترعرعت هذه الفئة المجاهدة بقيادات ملؤها البسالة والحكمة والورع، وبيع أنفسهم لله ﷻ، من غير استثناء لعشرة سلاطين متعاقبين خلال ٢٧٠ سنة، وأربع خلفاء عظام بعدهم في حكمهم لمدة (٥٢ سنة)، وكانوا جميعـاً يقودون الجيوش بأنفسهم أو يشرفون علىٰ القيادة، ولم يتوان واحد منهم عن الجهاد، وكأنَّ الشعب كله جيش، مع الذين أسلموا من النصارىٰ، إضافة إلىٰ حبهم للعلم، وتفتحهم للتطور السريع في الصناعات العسكرية والأساطيل الحربية والتجارة العالمية والزراعة والتعليم، وإنشاء الكليات والمعاهد والمدارس والكتاتيب، لمكافحة الأمية وتحفيظ القرآن الكريم، وبناء المساجد والتكايا والمستشفيات والقصور والحمامات واستمر الاهتمام البالغ بحفظ القرآن الكريم والدراسات الإسلامية واللغات التركية والعربية والفارسية والرومية والفرنسية والإنكليزية، إضافة إلىٰ الحكمة في إدارة الحكم بأجهزته الأمنية والمخابراتية والسفارات مع الدول الكبرىٰ...

واستمر التطور السريع في جميع أجهزة الدولة، لاسيما الجيوش البرية والأساطيل البحرية، حتىٰ هيمنت علىٰ شرق أوربا وجنوبها، كما هيمنت علىٰ البحر المتوسط والأسود، والبحر الأحمر والبحر العربي، وكانت معاركها البرية ماحقة لأعدائها، وندر أن خسرت معركة واحدة من ضمن المئات، وطُوّقت عدة مرات القسطنطينية، عاصمة الامبراطورية البيزنطية التي حكمت العالم ألفـاً ومئة وخمسين سنة، وأحكمت الحصار عليها، ثم فتحتها، كما حاصرت (فينا)، عاصمة النمسا في قلب أوروبا عدة مرات، وضمت إليها الشمال الأفريقي تباعـاً، والجزيرة العربية وإيران والقفقاس، بما يزيد علىٰ خمس وأربعين دولة من دول القرن الحالي، نصفها في أوربا، والآخر بين أفريقيا وآسيا، وامتد سلطانها إلىٰ الهند، وارتفعت أعلامها في الصين علىٰ كليات إسلامية في بكين وغيرها، وفي سيبريا، وفي الصحراء الأفريقية وفي أندونيسيا، وفي الهند.

١٦

شجرة سلاطين آل عثمان

كوندوز آلب

ارطغرل غازي

1- عثمان غازي (ت ١٣٢٤م)

2- اورخان غازي (١٣٢٤-١٣٦٢م)

3- مراد الأول (١٣٦٢-١٣٨٩م)

4- بايزيد الأول (الصاعقة) (١٣٨٩-١٤٠٢م)

سليمان جلبي (١٤٠٢-١٤١١م)

موسى جلبي (١٤١١-١٤١٣م)

مصطفى "دُوزمَجَه" (١٤٢١-١٤٢٢م)

5- محمد الأول (١٤١٣-١٤٢١م)

عيسى جلبي (١٤٠٣-١٤٠٤م)

6- مراد الثاني (١٤٢١-١٤٤٤، ١٤٤٦-١٤٥١م)

7- محمد الثاني (الفاتح) (١٤٤٤-١٤٤٦، ١٤٥١-١٤٨١م)

8- بايزيد الثاني (١٤٨١-١٥١٢م)

9- سليم الأول (ياووز) (١٥١٢-١٥٢٠م)

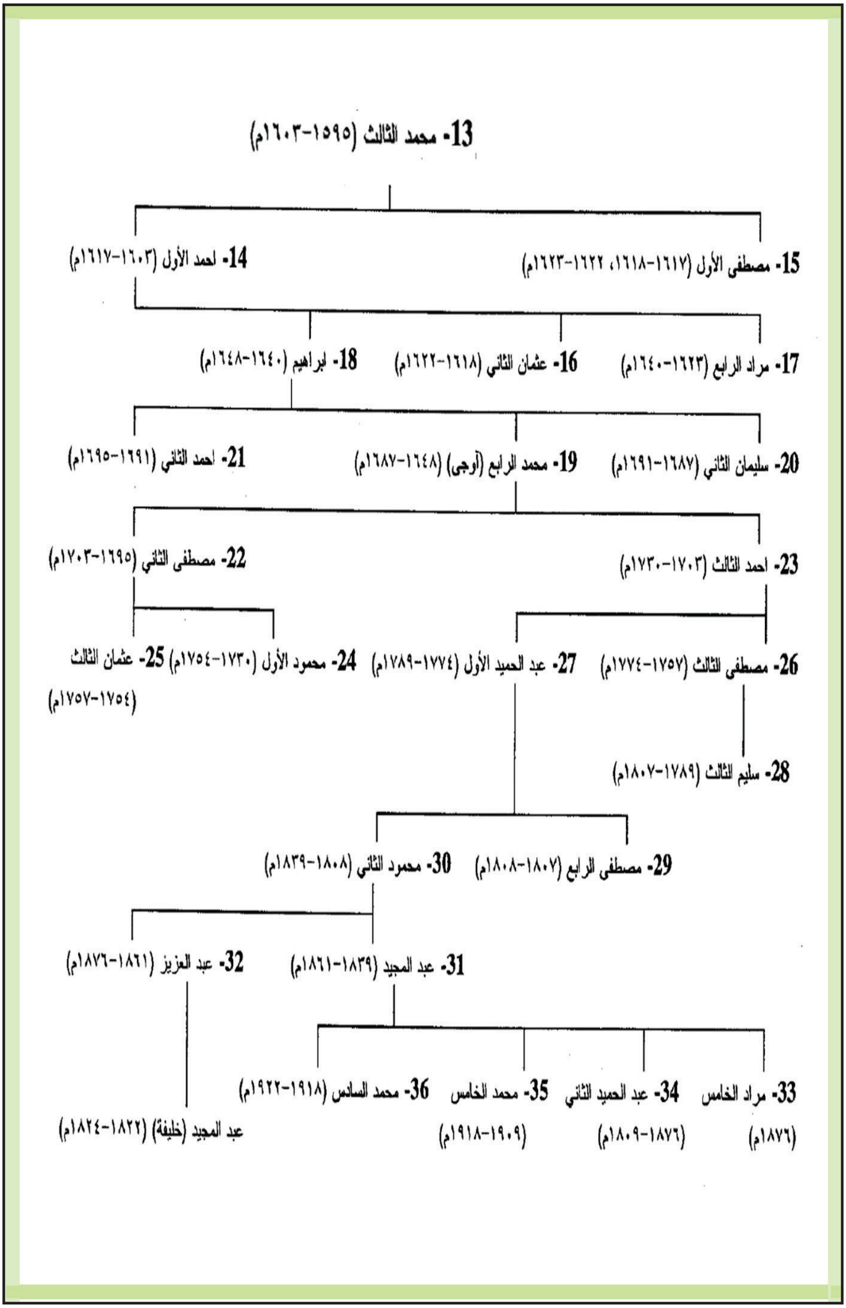
10- سليمان الأول (القانوني) (١٥٢٠-١٥٦٦م)

11- سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤م)

12- مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥م)

13- محمد الثالث (١٥٩٥-١٦٠٣م)

شجرة سلاطين آل عثمان



شجرة سلاطين آل عثمان

وكان للصدر الأعظم[١] نفوذه في إعلان الحرب وتوقيع المعاهدات، وقيادة الجيوش أحيانـًا، وكان العلماء في صفوف الجيوش في السلم يفقهونهم بالإسلام والجهاد، وفي الحروب يلهبونهم بالشوق إلىٰ الجنة، أو الفوز بالنصر، ولم تهن قوتهم وعزائمهم في الحروب التي استغرقت أيام حكمهم، من غير توقف، رغم أن دول أوربا بثقلها مجتمعة كانت متحدة ضدهم، ولم يخذلهم في الحروب إلا (تيمورلنك) الذي اكتسح جميع دول المشرق الإسلامي وجنوبي سيبريا وجنوب روسيا بجيش قوامه ٨٠٠٠٠٠، وكان مسلمـًا صوفيـًا، وذلك عام ٨٠٤هـ.

ثم استردت الدولة العثمانية أراضيها، وتوسعت سريعـًا بعد ذلك،

أما نجدة الأندلس الذبيحة، فقد عزم العثمانيون خلال قرن بعد النكبة علىٰ استردادها، أو إغاثتها - علىٰ الأقل، ولقد أعانوهم بمحاولات كثيرة، ولكن ثورات الصفويين في إيران شغلت الجيوش العثمانية ثلاثة قرون، إبتداء من القرن العاشر الهجري، في حكم سليم الياووز ٩١٨هـ، حتىٰ حكم السلطان سليم الثالث ١٢٠٣هـ، بحروب طاحنة، إضافة إلىٰ تآمرهم مع العدو البرتغالي ومع البابا، وإضافة إلىٰ غدر بعض قادة المغرب والجزائر بالعثمانيين، إذ اتفق أولئك مع الإسبان والبرتغاليين ضد العثمانيين، مما حال دون انقاذ الأندلس، رغم محاولات العثمانيين الجادة، بحراً وبرّاً.

أما عموم الشعب في هذه الدولة المترامية الأطراف، فكان في نشاط وعزم لا يفتأ ولا يهدأ، دوام المدارس والمعاهد والكليات بمناهجها المتطورة مستمر علىٰ مدار السنة، لا عطلة لهم، ولا ملل، لاسيما في عهد السلطان محمد الفاتح ﵁، في مدارسه المحيطة بمسجده في (إستنبول)، إذ كانت جهودهم في التعلم والتعليم عزّاً للإسلام، وكان لهذا النظام الفريد أثره في صياغة أمة مجاهدة واعية ورعة، لا تفقه في الحياة إلا الجهاد والتضحية بالأرواح لنشر الإسلام وإعزازه في الأرض، وهداية الناس به وإسعادهم.

(١) الصدر: مصطلح إداري يشير إلىٰ اعلىٰ مراتب الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية بعد مرتبة الخلفاء والسلاطين، جرىٰ استخدامه في الإدارة الإسلامية في عصور التغلب الأجنبي علىٰ الخلافة العباسية، حل محل منصب الوزير العباسي. عن المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية،

وكان لسلوك الجيش والشعب من الخلق الإسلامي المتميز في العفة والأمانة والحبّ للناس والعدل معهم، والصدق والوفاء ما عجز عن وصفه والإعجاب به الأعداء قبل الأصدقاء، ولم تكد تجد فقيراً يستجدي، أو اميًا جاهلاً، بسبب الزكاة ونزاهة الخلفاء، وبسبب انتشار المدارس حتىٰ في القرىٰ، كما أن حفاظ القرآن الحكيم، بلغوا نسبة عالية من الشعب عن طريق الكتاتيب، وكان الخلق الإسلامي تنبض به قلوبهم، وما عُرف الفجور والخمور في زمانهم، ولا وُجد العملاء ولا المبشرون للنصرانية في بلادهم، ولا أثر لليهود عليهم، بل إن السلطان العثماني سليمان القانوني استقدمهم، وأنقذهم من إسبانيا، إذ كانوا يحرقون،..! وكان عددهم ٢٠٠٠٠٠ يهودي، وأسكنهم إلىٰ جوار عاصمته في مكدونيا شمال شرق اليونان[1]، فكان منهم ما كان !

ولقد ألحقتُ بسلاطين الحكم العشرة القمم الخليفة السلطان عبد الحميد الثاني، الذي حكم بعد الخليفة سليمان القانوني بـ (٣٥٠ سنة)، وقبل سقوط الدولة بـ (١٥ سنة).

(١) «وفي اسبانيا، أجلىٰ ما يزيد علىٰ ٢٠٠٠٠٠ يهودي فيها حين سقط الحكم العربي الإسلامي علىٰ يد الأسبان، وأما في البرتغال فأحرق شعب اليهود بالنار، وكان يجتمع رجالهم ونساؤهم يوم إحراقهم كاجتماع يوم العيد، وكانت النساء المسيحيات يزغردن أثناء حرق اليهود!» كما يذكر مؤلف كتاب إظهار الحق – رحمة الله الهندي: «قتل الألاف من اليهود في اسبانيا في مدنها الكبرىٰ، وقطعت أطراف الكثيرين منهم»، (فلسطين في الميزان)، المؤلف، ص٢٠٠، عن (إظهار الحق)/ ج٢/ ٤٣١-٤٣٣. ويذكر المؤرخ العراقي موفق مصطفىٰ العمري في كتابه (اختلاف نبي صهيون ووسائلهم الظاهرة والخفية): أن دول أوروبا طردت اليهود (٢٢) مرة خلال (٦٠٠) سنة، لا مجال لذكرها هنا. ومن هذه الدول: (انكلترا وفرنسا سبع مرات، المجر مرتين، وبلجيكا وتشيكوسلفاكيا ثلاث مرات، والنمسا ولتوانيا والبرتغال، ومن اسبانيا عام ١٤٩٢م، وأبعد ٢٠٠٠٠٠ يهودي، وهولندا وايطاليا ونابولي وساردينيا وألمانيا وروسيا وأوكرانيا والدنمارك والترويج)، كما يذكر (إظهار الحق) إحراق الآلاف من اليهود في النمسا حين رفضوا التنصر، وألقوا أنفسهم بالنهر، وفي أحدىٰ الحملات الصليبية عام ١٠٩٩م حين استولىٰ الصليبيون علىٰ القدس قتلوا أكثر من ٧٠٠٠٠ مسلم، وجمعوا اليهود فأحرقوهم. المصدر السابق، ص٢٠١ عن أظهار الحق، ج٢/ ٣٤٢، ٣٤٣

المبحث الأول

السلطان رقم (١)[١]

السلطان الأول المؤسس عثمان

حياته: (٦٥٦-٧٢٦هـ) = (١٢٥٨-١٣٢٦م).

حكمه: (٦٩٩-٧٢٦هـ) = (١٢٩٩-١٣٢٦م)

حكم ٢٧ سنة وعمره ٤١ سنة وتوفي وعمره ٦٨ سنة.

وهو أحد أبناء أرطوغرول بك، نصّب رئيسًا للعشيرة بعد وفاة والده باتفاق جميع الأمراء.

ولد في السنة نفسها التي سقطت فيها بغداد على يد (هولاكو)، وهي بشارة ربانية لنصرة من يصدق معه، فيقويه بعد ضعفه، ويمكّن له بعد هزاله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٢].

«نشأ في طفولته وفي ريعان شبابه محبًا للقرآن الكريم، مقدسًا له غاية التقديس، حتى إنه كان ضيفًا عند أحد الشيوخ، فلم ينم ليلته، وحين سأله عن السبب، أجابه كيف أنام، وفي الغرفة كتاب الله! احترامًا وتقديراً له!، فزوجه ابنته! ودعا له بالخير»[٣].

كان رحمه الله متميزاً بصفات قيادية مكنته من تأسيس الدولة وتقويتها وتوسيعها، بما تحلّى به من صفات نادرة أهمها:

---

(١) انظر الدولة العثمانية، د. علي محمد الصلابي، ص٤٤، بإيجاز

(٢) القصص/ ٥-٦

(٣) ألبوم العثمانيين/ ٣٥، باختصار

١٧



السلطان عثمان الغازي (١٢٥٨-١٣٢٦)[١]

١- **صدق الإيمان بالله والإخلاص لدينه والتفاني في نشر الإسلام**[٢]، مما حمل كثيراً من القادة النصارىٰ علىٰ أن يعلنوا إسلامهم، حبًا به وبجنوده الأتقياء المجاهدين، وانخرطوا هم وأقوامهم في جيشه بالجهاد، منهم قائد بروسة (أفرينوس)، الذي منحه السلطان لقب (بك)، وصار من قادة العثمانيين البارزين. وكان من النصارىٰ المسلمين جيوش الأنكشاريين الذين أسهموا بعده بجدارة في فتح أوروبا وفتح القسطنطينية، وحمل السلطان عثمان كذلك كثيراً من الجماعات الإسلامية إلىٰ الانضمام إليه، وأكثرهم المرابطون الذين لديهم خبرة

(١) ألبوم العثمانيين، ص/ ٢٠

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٤٦، ٤٧ باختصار، عن (التراجع الحضاري في العالم الإسلامي)، د. علي عبد الحليم، ص٣٣١-٣٣٢

قتالية، كما انضّم إليه جماعات إسلامية من التجار الذين أعانوه علىٰ بناء المساجد والتكايا والخانات (الفنادق)، وهم جماعة (الإحنان) - أي (الإخوان)، ومنهم جماعة (حاجيات روم) - أي حجاج أرض الروم[١].

٢- **الصبر في الجهاد المتواصل، والشجاعة النادرة**[٢]، إذ خاض حربًا ضروسًا ضدّ حلف صليبي سنة ٧٠٠هـ، وانتصر عليهم، وإفتتح عشرات الحصون المنيعة، ومدينة بروسة ٧١٧هـ، بعد حصارها عدة سنين، وكانت أمنع الحصون بعد القسطنطينية، كما احتل (إيزنك وأنقرة والدردنيل)، وكان يقود الجيوش بنفسه، وكانت فتوحاته جهاداً ودعوة معًا، إذ كل جندي داعية، وهما رسالته في الحياة، حققها بشجاعة وتجرّد كامل لله عزّ وجل، وصل بفتوحاته إلىٰ مشارف القسطنطينية.

أسس السلاجقة في الأنضول دولة قوية هي (دولة سلاجقة الروم) (٤٧٠-٧٠٨هـ) دامت لمدة ٢٣٥ سنة، وقفت ببسالة ضد الهجمات الصليبية، ثم بدأت بالضعف والانحلال في منتصف القرن الثالث عشر، وحينما توفي آخر حكامها (مسعود الثاني) ١٣٠٨م، صار الالخانيون (وهم مغول إيران) المسلمون هم الحكام الشرعيين الوحيدين في الأنضول، وحدث بينهم خلاف علىٰ السلطة، حتىٰ ظهرت إمارة (السلطان عثمان) في الشمال الغربي من الأنضول، فأعلن استقلاله عن (السلاجقة) وبدأ بالتوسع نحو بحر (مرمرة)، وبلغت مساحة دولته حين وفاته ٨٠٠٠كم^2.[٣]

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ٤٧

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٤٥، باختصار، عن (جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك)، ص١٩٧

(٣) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان محمد علي، ص٩-١٠، باختصار، وأطلس التاريخ العربي الإسلامي، شوقي أبو خليل/ ٢١٨-٢١٩، بينما يذكر (ألبوم العثمانيين) في ص٣٣ أن مساحة دولة عثمان حين وفاته كانت ١٦٠٠٠كم^2 بعد أن كانت ٤,٦٠٠كم^2 في حكم والده

استقل العثمانيون بعد قتل الحاكم السلجوقي (علاء الدين الثالث) علىٰ يد الالخانيين، في عام ١٢٩٩م، وأكثر المؤرخين يعدّون هذا العام تاريخاً لنشوء الدولة العثمانية[(١)].

٣- **العدل مع شعبه، ومع سكان البلاد التي فتحها**، ولم يفرّق بعدله بين مسلم ونصراني، وكان قاضياً زمن والده، فحكم لقائد نصراني ضد مسلم، مما أدهش النصراني، فاجابه عثمان: إن الله أمرني بذلك، من خلال الدعوة إلىٰ الحكم بالعدل، في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾[(٢)]، فأسلم القائد هو وقومه[(٣)].

٤- **وفاؤه بالعهود؛ علىٰ نقيض أعدائه**: ومن نوادر وفائه أن اشترط عليه أمير قلعة (أولوبادر البيزنطية)، الذي استسلم للجيش العثماني أن لا يمرّ فوق الجسر أي جندي عثماني مسلم إلىٰ داخل القلعة، فالتزم بهذا العهد[(٤)] عملاً بقوله تعالىٰ : ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[(٥)].

وكان عثمان يجمع إلىٰ شجاعته ووفائه الحكمة، إذ وقف مع سلاجقة الروم

(١) المسك الفاتح من سيرة محمد الفاتح، الصلابي/ ١٧، باختصار، عن (جوانب مضيئة)، ص٣٢

(٢) سورة النساء/ ٥٨

(٣) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٤٧،

(٤) ومن نوادر مارأيت في حياتي شاهداً لوفاء أحد السلاطين، ومن جاء بعده، مسجداً ضخماً في إستنبول، صليت فيه الجمعة، عام ١٩٩٧م، ففوجئت ببركة ماء واسعة داخل ساحة المسجد الداخلية المقببة، وفي هذه البركة الحجرية نافورات ماء! فسألت تلميذي قبل ٥٧ سنة في كركوك الذي كان يرافقني وهو (الأستاذ إحسان قاسم الصالحي) مترجم رسائل النور، عن هذه الظاهرة الغريبة، فقال لي: إن احد السلاطين اشترىٰ أرضاً واسعة لهذا المسجد، وكان في وسطها بيت ليهودي، اشترط حين بيعها أن لا يصلي فيها المسلمون، فحوّلها السلطان إلىٰ بركة ماء، إيفاء بالعهد، ومازال هذا الوفاء بالعهد مع اليهودي قائماً بعد وفاته بقرون! وحتىٰ اليوم!

(٥) ألإسراء/ ٣٤

الأتراك في حروبهم ضد الصليبيين بشجاعة نادرة، حملت سلطان السلاجقة علاء الدين أن يمنحه لقب الإمارة، وسك العملة باسمه، مع الدعاء له في خطب الجمعة، وصار مضرب الأمثال في الشجاعة[١].

٥- **تجرّده الكامل لربه، في حياته الخاصة، وفي فتوحاته،** تمثله شخصيته المتميزة، ووصيته لولده التي ختم بها حياته. أما شخصيته، فقد أجمع المؤرخون علىٰ أن أحبّ عمل إليه هو نشر الإسلام بالدعوة إليه وبالجهاد، وأن غاية الحياة المقدسة التي خُلق لها هي تلك، إضافة إلىٰ أن نفسيته الإيمانية المحبوبة هي أبرز ما يملك من جاذبية، لذلك فإن عدالته لم تفسدها قوته، ورحمته لم ينقصها سلطانه، وتواضعه لم يخدشه غناه. كان حسن التدبير والهيبة ، كما كان كثير الجند، عاشقاً لدين الله ، محباً لأهله المخلصين ، مكرماً للعلماء، مبغضاً للكفر وأهله ، من غير ظلم لهم. وكان يخيّر الأعداء في حروبه بين أحد ثلاثة : الإسلام ، الجزية ، الحرب ، غير ان حروبه كانت قاسية شديدة ، إلا انه رحيم بأعدائه ، وقت السلم، عادل معهم .

أما وصيته لولده: فهي مرآة لمنهاجه الإسلامي الذي اختطه لنفسه واتخذه دستوراً لحياته ونصها:

«يا بُنيّ، إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله ربّ العالمين، وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلا.. بالإسلام نحيا، وللإسلام نموت، أحِطْ مَن أطاعك بالاعتزاز، وأنعم علىٰ الجنود، إياك أن تبتعد عن أهل الشريعة، واعلم أن حماية أعراض المسلمين وأموالهم أمانة في عنقك، سيسألك الله عزّ وجل عنها، طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو طريق الله، ومقصدنا الوحيد هو نشر دينه، ولسنا طلاب جاه ودنيا، ...»[٢].

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٤٥، نقلًا عن (قيام الدولة العثمانية)، ص٢٥

(٢) المصدر السابق/ ص٤٩

كما أوصاه بأن يتخذ من العلماء مجلس شورىٰ، امتثالاً للشورىٰ في القرآن الكريم. ومن وصيته الثمينة لولي عهده:

«أول وصيتي لأبنائي وأصدقائي أديموا علىٰ الدين الإسلامي الجليل بإدامة الجهاد في سبيل الله، أمسكوا راية الإسلام الشريفة في الأعلىٰ بأكمل جهاد، اخدموا الإسلام دائمـًا، لأن الله عزّ وجل قد وظف عبداً ضعيفـًا مثلي لفتح البلدان، إذهبوا بكلمة التوحيد إلىٰ أقصىٰ البلدان بجهادكم في سبيل الله، ومن انحرف من سلالتي عن الحق والعدل، حرم من شفاعة الرسول الأعظم يوم المحشر، يا بني! ليس في الدنيا أحد لا يخضع رقبته للموت، وقد اقترب، أجلي بأمر الله ﷻ ، أسلمك هذه الدولة، واستودعك المولىٰ ﷻ ، إعدل في جميع شؤونك»(١).

كانت مساحة دولته الناشئة حين وفاته ١٦٠٠٠كم٢ بعد أن كانت ٤٦٠٠ كم٢ في حكم والده، واستطاع أن يجد لها منفذاً علىٰ بحر مرمرة، وأن يهدد أهم مدينتين في الامبراطورية البيزنطية آنئذ: أزنيق وبورصة)(٢).

أحصيت ثروته ساعة وفاته فإذا هي: (درع، حصان، زوج جزم، عدة رايات، سيف، رمح، مخزن للسهام، وعدة أحصنة، وثلاثة قطعان غنم).

دفن في (سوغرت) إلىٰ جانب والده، ثم نقل جثمانه إلىٰ (بورصة) تنفيذاً لوصيته بعد فتحها.

توفىٰ عن سبعة أبناء وبنت واحدة(٣).

---

(١) ألبوم العثماني/ ص٣٣، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٥٠، بايجاز

(٢) من (ألبوم العثمانيين) – عبد القادر دده أوغلو، ترجمة محمد جان – الدار العثمانية للنشر/ ١٩٨٠م، ص٣٣

(٣) المصدر السابق/ ٣٣

١٨



الإمارة العثمانية في عهد مؤسسها عثمان

المبحث الثاني

السلطان أورخان - السلطان رقم (٢)

حياته: (٦٩١-٧٦١هـ) = (١٢٨١-١٣٦٠م) - عمّر ٧٨ سنة.

حكمه: (٧٢٦-٧٦١هـ) = (١٣٢٦-١٣٥٩م)، حكم ٣٣ سنة وعمره ٤٥ سنة[١].

سياسته في التعليم :

«هو ابن السلطان عثمان . سار علىٰ نهج والده، وكانت حياته تنفيذاً لوصيته، عُنِي بالعلم والعلماء، فأسس في كل بلدة كلية أو معهداً أو مدرسة ، وفي كل قرية مدارس ومساجد ، واهتم فيها بحفظ القرآن الكريم، كما اهتم بمناهجها في العلوم الإسلامية واللغة العربية والعلوم المادية من طب وفلك وهندسة، وقضىٰ عشرين سنة من غير حرب لتشريع النظم المدنية والعسكرية، وتعزيز الأمن الداخلي وبناء المساجد والمعاهد والكليات والمدارس، وتنظيم المناهج الدراسية. وأكرم العلماء بالاحترام والعطاء، وكان لكل قرية مدارسها، ولكل مدينة كليتها التي تعلم العلوم الإسلامية واللغوية والعلوم المدنية، كما اهتم بتحفيظ القرآن الكريم»[٢].

سياسته في الجيش:

سار علىٰ نهج والده في الفتوحات، بعد أن جهّز جيشًا نظاميًا دائمًا عُرف بالإنكشارية، أكثره من أبناء البلاد المفتوحة الذين أسلموا طوعًا وحبًا بالإسلام، وبذل خُمس الغنائم

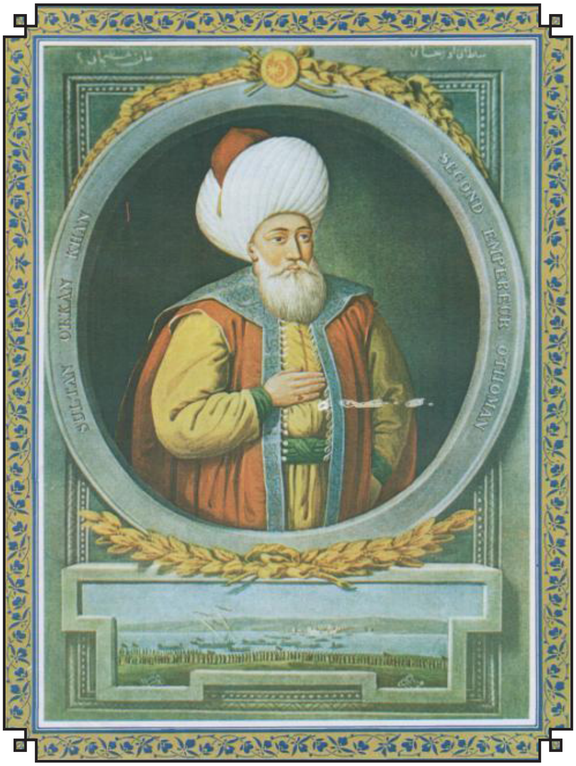
---

(١) ألبوم العثمانيين/ ٣٣، بينما يذكر المؤرخ أورخاي في كتاب (السلطان عبد الحميد) أن حكمه استمر ٣٨ سنة أنتهاء ب ١٣٦٢م، ويذكر تاريخ دولة سلاجقة الروم أنه يبتدئ بعام (٤٢٩) بدلاً من ٤٤٣

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٧٥-٧٦ بإيجاز

للجند، وكان يقود الجيوش بنفسه[١].

١٩



السلطان أورخان الغازي (١٢٨١-١٣٥٩)[٢]

سياسته في الفتوحات:

ثم استولىٰ علىٰ (دولة سلاجقة الروم) (٤٧٠-٧٠٨هـ = ١٠٧٧-١٣٠٨م) لمدة ٢٣٥ سنة، بعد ان انقسمت علىٰ نفسها بفتن داخلية، وقوىٰ الجيش النظامي في زمانه، وصار شعاره

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٧٢-٧٣، بإيجاز
ويفتري معظم المؤرخين الغربيين أن الجيش الإنكشاري هو نتيجة انتزاع خمس عدد أطفال كل مدينة أو قرية نصرانية باعتبارهم خمس الغنائم لبيت المال، ومنهم البروفسر (جب، وبروكلمان)،.. وإن نظام (الدوشرمة) هذا المزعوم كذبة وخداع، وإنما كانت الدولة العثمانية تعنىٰ بالمشردين والأيتام من الأطفال، بانخراطهم بالجيش، وكانوا أعداداً هائلة.

(٢) ألبوم العثمانيين – الدار العثماني للنشر، ص٣٤

(الغازي الشهيد)، حينما يتوجهون إلىٰ سوح الجهاد - وكانت راية جيشه قماشاً أحمر، وسطه هلال، وتحت الهلال صورة سيف اسمه (ذو الفقار)، تيّمنا بسيف الإمام علي رضي الله عنه[(١)].

كما أنشأ مدرسة بورصة، واستعمل لقب (السلطان) لأول مرة، وسك أول عملة عثمانية[(٢)].

افتتح مدن بورصة وإزنيك وهي (أزميت) وإنقرة في الأنضول، وجناق قلعة وبالق كسر في الجانب الأوروبي، وأخذوا بالتوسع في (تركيا)[(٣)].

فتح (إزميت) جنوب شرق إستنبول، وقريباً منها، بعد سنة من حكمه، وهي مدينة مقدسة لدىٰ النصارىٰ، وأقام فيها أول جامعة عثمانية، وحرص علىٰ تحقيق بشارة النبي القائد ﷺ في محاولة فتحها، فطوّقها من الشرق والغرب، وحاصرها، واستولىٰ علىٰ بورصة، وبعدها الدردنيل سنة ٧٥٨هـ، بجهود ابنه الكبير، وبنىٰ (جناق قلعة) علىٰ المضيق، كما فتح قلاعاً أخرىٰ في الجانب الأوروبي، تمهيداً لفتح المدينة، وكان قد عبر إلىٰ أوروبا عام ١٣٥٤م[(٤)].

واحتل (غاليبولي) التي فيها (قلعة جناق قلعة) علىٰ مضيق الدردنيل، بعد أن أصابها زلزال، كما استولىٰ علىٰ المضيق جميعه، وكانت حملات البلقان تنطلق منها، واستولىٰ علىٰ كثير من إقليم شبه جزيرة البلقان ، كما استولىٰ علىٰ بولو وأنقرة[(٥)].

اعترف حاكم بيزنطة بفتوحات أورخان في أوروبا، مقابل تعهد الأخير بتسهيل وصول الطعام والمؤن إلىٰ القسطنطينية، كما هجّر إلىٰ الكثير من شعوب أوروبا أعداداً كبيرة من القبائل المسلمة للدعوة إلىٰ الإسلام فيها[(٦)].

---

(١) ألبوم العثمانيين – الدار العثماني للنشر ٧٤

(٢) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان محمد علي/ ص١٠-١١، بإيجاز

(٣) المصدر السابق/ ص١٠

(٤) الدولة العثمانية، الصلابي/ ١٠

(٥) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان محمد علي/ ص١٠

(٦) المصدر السابق/ ص٧٧، عن (أصول التاريخ العثماني/ ص٤٧)، والدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث/ ص٢٢-٢٣

لقد أضاف جيشاً آخر عرف بالإنكشارية، شكله من المسلمين الجدد الذين ازداد عددهم، خاصة بعد الفتوحات العظيمة(١).

ومن عوامل النصر للجيوش العثمانية في عهد السلطان أورخان وغيره، التربية الإيمانية النقية والدعوية والجهادية للشعب مع سلاطينه، إضافة إلىٰ وحدة الصف السنيّ، من غير صراع عقدي ولا نزاع طائفي بين الفاتحين، كذلك ضعفت الجبهة النصرانية في أوروبا، إضافة إلىٰ الخلاف العقدي بين الكاثوليك في الفاتيكان، والأرثودكس في القسطنطينية(٢).

لقد اتسّعت دولته إلىٰ ٩٥٠٠٠ كم٢، وقيل أكثر من ١٠٠٠٠٠ كم٢، قبل وفاته، بعد أن كانت ١٦٠٠٠ زمن والده، وتوفي عن ٧٨ سنة، وضريحه بجانب والده، وخلّف خمسة أبناء وبنت واحدة(٣).

كان تعامله مع غير المسلمين من أهل البلاد يتمثل بالإنسانية والرحمة، امتدحه المؤرخون بها.

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ٧٢

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٧٧-٧٨، باختصار، عن (الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث)/ ص٢٣

(٣) ألبوم العثمانيين/ ص٣٦، بينما يذكر المؤرخ أورخان أنها أكثر من ١٠٠,٠٠٠كم٢

المبحث الثالث

السلطان رقم (٣)

السلطان مراد الأول

حياته: (٧٢٦-٧٩١هـ) = (١٣٢٥-١٣٨٩م) - عمّر ٦٥ سنة.

حكمه: (٧٦١-٧٩١هـ) = (١٣٦٠-١٣٨٩م)، حكم ٣٠ سنة بعمر ٣٥ سنة.

هو ابن السلطان أورخان. كان تقياً ورعاً، كثير الدعاء خاشع القلب، شغوفاً بأمرين خطيرين: (بالعلم والعلماء)، و(بالجهاد)، إضافة إلىٰ عدله وعمق إيمانه، كان يقود الجيوش بنفسه.

أما العلماء، فقد أكرمهم وقربهم ونشرهم بين الجند، يثيرون فيهم روح الجهاد، كما نشرهم في المدارس التي فتحها في كل مدينة وقرية يدخلها، وكان محبوباً من قبل الشعب كالأب[١].

أما الجهاد، فقد فتح أكثر المدن البيزنطية تحصيناً، وهي (أدرنة) التي تقع في الجانب الأوروبي، وفيلية[٢] سنة ٧٦٢هـ، واتخذها عاصمة له، وبنىٰ أول قصر فيها[٣]، وانطلق منها إلىٰ فتوحات مكدونيا، ضد تحالف صليبي باركه البابا، يضم الصرب والبلغار والمجر.

خاض معارك مهولة ضد الصليبيين في دول البلقان والمجر، وكانوا يتفوقون علىٰ العثمانيين، في العدد والعدة، غير أن النصر النهائي كان لهم.

---

(١) انظر الدولة العثمانية، د. علي محمد الصلابي، ص٧٩-٨٦ بإيجاز بالغ، والمسك الفائح من سيرة محمد الفاتح/ الصلابي، ص٤٩-٥٦ باختصار.

(٢) اسم هذه المدينة الآن هو (بولوفديف)، وهي من المدن الرئيسة في بلغاريا – السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص١١ الهامش

(٣) ألبوم العثمانيين/ ٣٧، والدولة العثمانية، د. الصلابي/ ص٧٩

٢٠



السلطان مراد الأول (١٣٢٦-١٣٨٩)[١]

والمعركة الأولىٰ بقيادة ملك المجر وبجيش قوامه ١٠٠٠٠٠، والجيش العثماني ١٠٠٠٠ مجاهد، عام ١٣٦٤م، والمعركة الثانية بعد عشر سنوات، واسمها (جيرمن)، واستولىٰ العثمانيون علىٰ صوفيا ومدن أخرىٰ، ووصلوا إلىٰ بحر الإدرياتك، واستمروا في التوسع في بلاد الصرب، كما توسعوا في الأنضول[٢].

كانت جيوش أعدائه في معركة (قوصوة) بتعداد ٦٠٠٠٠ جندي عام ١٣٨٩م، هزمهم العثمانيون إلىٰ جنوب بلغاريا وشرق صربيا.

وكانت معركة (قوصوة) هي المعركة الصليبية الثالثة التي قادتها دول أوروبا مجتمعة ضد الخلافة العثمانية، وكانت في ١٣٨٩م بما أسفرت عن وصول جيوشه إلىٰ رومانيا

(١) ألبوم العثمانيين – الدار العثماني للنشر، ص٣٦

(٢) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان محمد علي/ ص١١

والمجر وألبانيا، وامتدت دولته إلىٰ حدودها(١).

استشهد السلطان مراد بعد معركة ضد الصرب انتصر فيها، غير أن جندياً كان صهراً لملك الصرب، أقبل إلىٰ السلطان بحجة تقبيل يده وإعلانه إسلامه، فطعنه في صدره وبطنه بخنجر مسموم فقضىٰ عليه، وذلك سنة ٧٩١هـ، استجابة لدعائه من الله قبل المعركة بالنصر والشهادة، فحمد الله علىٰ النصر والشهادة معاً، وأوصىٰ بالأسرىٰ والجرحىٰ، ودعا لدولته، وأوصىٰ ببيعة ابنه بايزيد(٢).

لم يشغله الجهاد عن بناء الجوامع والمدارس والتكايا وبيوت إطعام الفقراء.

بلغت مساحة دولته ٥٠٠٠٠٠كم٢،(٣) بعد أن ورثها عن والده ١٠٠٠٠٠كم٢، وقيل ٩٥٠٠٠ كم٢، أي خمسة أضعاف دولة والده، وانتشر الإسلام في البلقان، وكانت مدنها تتهاوىٰ تباعاً أمامه، وأصبحت إمبراطوريته لها هيبتها لدىٰ دول أوروبا كلها، ومن هذه المعارك معركة (قوصوة)، عند نهر مارتيزا، وجيوش العدو ٦٠,٠٠٠ جندي، والتي سقطت بعدها أراضي بلغاريا وصربيا(٤).

خاض (٣٧) معركة في الأنضول والبلقان، وانتصر في جميعها، وكانت حياته جميعها منصبة علىٰ خدمة الدولة وميادين الجهاد(٥).

بلغ الخوف منه مبلغه في بعض دول أوروبا، فعقدت معه جمهورية (راجوزة) علىٰ البحر الأدرياتيكي معاهدة تعهدت بدفع جزية سنوية (٥٠٠ دوكا ذهب)، وهي أول معاهدة مع الدولة العثمانية(٦).

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ٣٧

(٢) البوم العثمانيين/ ص٣٧، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٨١
ويقول المؤرخ أورخان: إن مساحة دولته كانت ٤٠٠,٠٠٠ كم٢ – السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان محمد علي/ ص١١

(٣) ويقول المؤرخ أورخان: إن مساحة دولته كانت ٤٠٠,٠٠٠ كم٢.

(٤) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٨٠، نقلاً عن (تاريخ الدولة العثمانية العالية)/ ص١٣١

(٥) ألبوم العثمانيين/ ٣٧

(٦) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٨١، نقلاً عن (تاريخ الدولة العثمانية العالية)، د. محمد فريد/ ص١٣٢

دعاء السلطان الذي ودّع به الحياة، قبل اندلاع معركة قوصرة:

ونختم سيرة السلطان مراد الأول بالاشارة إلىٰ دعائه الخاشع الذي توجّه به إلىٰ ربه، قبل معركة قوصوة، وفيه بيان بصفاء قلبه، ومدىٰ إخلاصه في جهاده مع ربه، وقد استجاب الله دعاءه: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[١]، كما يمثل نهجه في حياته الخاصة وفي حكمه الإسلامي: (يا الله، يا رحيم، يا ربّ السماوات، يا من تتقبل الدعاء، لا تخزني يا رحمن يا رحيم، استجب دعاء عبدك الفقير هذه المرة، ترسل السماء علينا مدرارا وتبدد سحب الظلام، فنرىٰ عدونا، وما نحن سوىٰ عبيدك المذنبين، إنك الوهاب، ونحن فقراؤك، ما أنا سوىٰ عبدك الفقير المتضرّع، وأنت العليم يا علاّم الغيوب والأسرار، وما تخفي الصدور، ليس لي من غاية لنفسي ولا مصلحة، ولا يحملني طلب المغنم، فأنا لا أطمع إلا في رضاك، يا الله يا عليم، يا موجود في كل الوجود[٢]، أفدّيك روحي، فتقبل رجائي، ولا تجعل المسلمين ينوء بهم الخذلان أمام العدو، يا الله يا أرحم الراحمين، لا تجعلني سبباً في موتهم، بل اجعلهم المنتصرين، إنّ روحي أبذلها فداءً لك يا رب، إني وددت، واسمح لي يا إلهي هذه المرّة أن أستشهد في سبيلك، ومن أجل مرضاتك)[٣].

وفي رواية أخرىٰ: (يا إلهي إنني أقسم بعزّتك وجلالك إنني لا أبتغي من جهادي هذه الدنيا الفانية، ولكنني أبتغي رضاك، ولا شيء غير رضاك يا إلهي، إنني أقسم بعزّتك وجلالك إنني في سبيلك، فزدني تشريفاً بالموت في سبيلك)، (إلهي ومولاي، لقد شرفتني بأن هديتني إلىٰ طريق الجهاد في سبيلك، فزدني شرفًا بالموت في سبيلك)[٤].

وهنالك روايات أخرىٰ فيها زيادات خاشعة، نقتصر علىٰ ما ذكرناه للايجاز[٥].

---

(١) سورة المائدة/ ٢٧

(٢) أي موجود يعلمه في كل الوجود

(٣) الدولة العثمانية، الصلابي/ ٨٢ – نقلًا عن (الفتوح الإسلامية عبر العصور)/ ص٣٩٠

(٤) المصدر السابق/ ص٨٣، عن (جوانب مضيئة)/ ص١٩٠

(٥) المصدر السابق/ ص٨٣، عن (جوانب مضيئة)/ ص٤٠-٤١

أما كلمته الأخيرة التي ودّع بها الدنيا، وأوصىٰ فيها بولده[1]، فهي تستحق كلّ إعجاب بإخلاصه لربه.

(لا يسعني، حين رحيلي إلا أن أشكر الله، إنه علاّم الغيوب، المتقبّل لدعاء عبده الفقير، أشهد أن لا إله إلا الله، وليس يستحق الشكر والثناء إلا هو، لقد أوشكت حياتي علىٰ النهاية، ورأيت نصر جند الإسلام، أطيعوا ابني بايزيد، ولا تعذّبوا الأسرىٰ، ولا تؤذوهم، ولا تسلبوهم، وأودعكم منذ هذه اللحظة، وأودع جيشنا الظافر العظيم إلىٰ رحمة الله، فهو الذي يحفظ دولتنا من كل سوء)! رحمه الله من الخالدين[2].

توفي السلطان مراد الأول عن عمر (٦٥)، ودفن في موضع استشهاده (في قوصرة)، ثم نقل إلىٰ بورصة، وخلفّ أربع بنين وبنتين[3].

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ٨٢

(٢) المصدر السابق/ ٨٢، نقلًا عن (الفتوحات الإسلامية عبر العصور)/ ٣٩١

(٣) ألبوم العثمانيين/ ٣٥

المبحث الرابع

السلطان رقم (٤)

السلطان يلدرم بايزيد الأول (الصاعقة، البرق)

حكمه: (٧٩١-٨٠٥هـ) = (١٣٨٩-١٤٠٢م).

حكم ١٤ سنة وعمره ٢٩ سنة. وتوفي بعمر ٤٤ سنة.

هو ابن السلطان مراد الأول. كان تقيًا، كريمـًا، مجاهداً، شجاعـًا، داعية، أوقف حياته علىٰ توسيع رقعة دار الإسلام، كان يسمىٰ (بالصاعقة)، إذ كان كالبرق الخاطف في حروبه، لصرامة عزيمته، وقوة إيمانه، واهتمامه البالغ بجيشه - تدريباته وعدده وعُدده[١].

نتيجة توسع السلطان (بايزيد - الصاعقة) أن تداعت جميع الدول الأوروبية بتحريض البابا، وفي ٢٥/ ٩/ ١٣٩٦م التقت الجيوش الصليبية مع جيش المسلمين في معركة (نيغبولي) الشهيرة، وكانت النتيجة نصراً كبيراً للعثمانيين بقيادة بايزيد[٢].

امتلك ما تبقىٰ من الإمارات البيزنطية في الأنضول - تركيا الحالية - واتخذ لنفسه لقب (سلطان الروم)، دليلاً علىٰ أنه ورث دولة السلاجقة، وأرسل إلىٰ الخليفة العباسي المقيم بالقاهرة أن يقرّ هذا اللقب، ليُسبغ عليها طابعـًا شرعيـًا رسميـًا، زيادة في هيبته في العالم الإسلامي وقد وافق السلطان المملوكي برقوق، حامي الخليفة العباسي علىٰ هذا الطلب، إذ أن بايزيد هو حليفه الوحيد ضد تيمورلنك[٣].

---

(١) الدولة العثمانية/ علي محمد الصلابي، ص٨٧، بإيجاز بالغ، نقلًا عن (الدولة العثمانية في تاريخ الإسلام الحديث)، ص٤٠، والمسك الفائح من سيرة محمد الفاتح/ الصلابي، ص٥٧-٦٥ بإختصار، وألبوم العثمانيين/ ص٣٩.

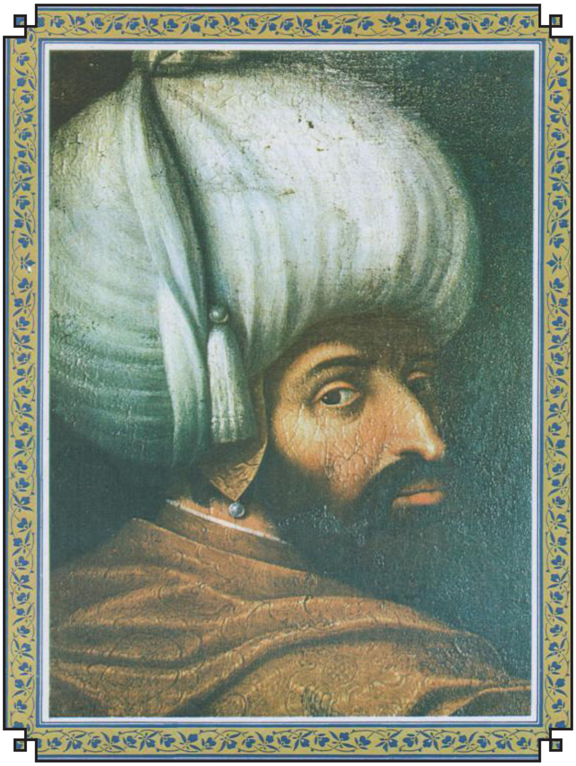
(٢) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص١٢

(٣) الدولة العثمانية/ علي محمد الصلابي، ص٨٩، نقلًا عن (في أصول التاريخ العثماني)، أحمد عبد الحليم/ ص٥٤-٥٥

واتخذ السلطان (أدرنة) عاصمة له.

كان سياسيـًا بارعـًا، إضافة إلىٰ شجاعته النادرة، فحين علم أن الصرب هم السبب في قيام حلف بلقاني ضده، أقام علاقة ودية مع الصرب، فوافق علىٰ أن يحكمها أبنا الملك لازار الذي قتل في معركة قوصوة، واشترط عليهما أن يدينا له بالولاء، ويقدّما له الجزية، ويقدما له فرقة من جنودهما يحاربان مع جيشه، وتزوج ابنة الملك لازار، فأمّن جانب الصرب[1].

٢١



السلطان يلدرم بايزيد (١٣٦٠-١٤٠٣)[2]

حاصر القسطنطينية (٧ أشهر) مرتين، وشدّد النكير علىٰ الإمبراطورية البيزنطية، وفرض علىٰ الإمبراطور أن يعين قاضيـًا مسلمـًا للفصل بين شؤون المسلمين فيها، ولما

(١) الدولة العثمانية/ . علي محمد الصلابي، ص٨٧، نقلًا عن (الدولة العثمانية في تاريخ الإسلام الحديث)، ص٤١

(٢) ألبوم العثمانيين – الدار العثماني للنشر، ص٣٨

اشتد الحصار عليها، وافق الإمبراطور علىٰ إيجاد محكمة إسلامية، وعلىٰ تأسيس مسجد، وتخصيص (٧٠٠ منزل) للجالية الإسلامية فيها، ووافق كذلك علىٰ إقامة حامية عثمانية فيها تتألف من (٦٠٠٠) جندي مسلم، كما أنه تعهد بدفع الجزية، وانتشرت المآذن في مساجدها! وكانت محاولات تسليم القسطنطينية إلىٰ السلطان بايزيد، جارية، لولا اكتساح تيمورلنك للشرق الإسلامي[١].

خلال حصار القسطنطينية، تكتلت جميع دول أوروبا، من (ألمانيا وفرنسا وإنجلترا واسكتلندا وسويسرا ولوكسمبرغ وهولندا وبلجيكا، وبعض الإمارات الإيطالية)، بجيش قوامه ١٢٠٠٠٠ مقاتل، في معركة (نيكوبولس)، عام (٨٠٠هـ) وقد انتصر السلطان بايزيد علىٰ المجر، كما انتصر علىٰ دول التحالف الأوروبي انتصاراً ساحقًا، وغنم ذخائر وغنائم لا تحصىٰ، **وكان بايزيد ينوي احتلال إيطاليا، تمهيداً لإغاثة المسلمين في الأندلس،** كما انه استولىٰ بحروبه الصاعقة علىٰ بلغاريا والبوسنة ورومانيا، بعد هذه المعركة الفاصلة[٢].

الصدام بينه وبين تيمورلنك: جلس تيمورلنك علىٰ عرش سمرقند، وحكم الأراضي الشاسعة الممتدة من أواسط الهند - دلهي، وحدود الصين، إلىٰ دمشق والبحر العربي وما بين بحر قزوين والبحر الأسود، وذلك في آسيا، أما في أوروبا فحكم ما بين أنهار الفولكا والدون والدنيبر في روسيا، وكان يردد: يجب أن يحكم الأرض سيّد واحد، طالما لا يوجد إلا إله واحد في السماء[٣].

(١) الدولة العثمانية، د. علي محمد الصلابي، ص٩٠، نقلًا عن (أصول التاريخ العثماني)، أحمد عبد الحليم، ص٥٣

(٢) الدولة العثمانية، د. علي محمد الصلابي، ص٨٨، نقلًا عن (تاريخ الدولة العثمانية)، د. علي حسون، ص٢٤-٢٥

وقال السلطان: (إنه سيفتح إيطاليا، ومطعم حصانه الشعير في مذبح القديس بطرس بروما)

(٣) المسك الفائح من سيرة محمد الفاتح/ ص٦١، عن (أصول التاريخ العثماني)/ ص٣٦

كان تيمورلنك مسلماً، متبعاً الطريقة النقشبندية الصوفية، محبّاً للعلماء، يقربهم إليه، عبقرياً بفنون القتال بعيد النظر، سياسياً، غير أنه استجاب لتحريض النصارىٰ له علىٰ الحرب ضد بايزيد، ثأراً لهزائمهم، ولجأ إليه كل من أمراء العراق والأنضول في هذا التحريض(١).

التقىٰ الجيشان جيش تيمورلنك بـ (٨٠٠٠٠٠) جندي، بجيش بايزيد (١٢٠٠٠٠) جندي في معركة (أنقرة) سنة ١٤٠٢م-٨٠٤هـ، وفرّ كثير من جنود التتار من جيش بايزيد إلىٰ تيمور، الذي كان في جيشه الكثير من التتار وعددهم (٥٠٠٠٠)، وكانت موقعة رهيبة، ولولا انضمام قسم من جنوده وأمرائه في أثناء المعركة إلىٰ الجهة الأخرىٰ لكان النصر من نصيبه، وانتصر فيها المغول، ووقع بايزيد في الأسر، ومات فيه كمداً وحزناً! واستولىٰ تيمور علىٰ مدن كثيرة، أهمها أزنيق وإزمير وبروسه، فبعث ملوك إنكلترا وفرنسا وإسبانيا وإمبراطور القسطنطينية رسائل تهنئة إليه!(٢)

وأراد تيمورلنك أن يضفي علىٰ حروبه طابع الجهاد، فانتزع (إزمير) من قبضة فرسان رودس - فرسان القديس يوحنا(٣).

ثم أعاد تيمور أمراء آسيا الصغرىٰ إلىٰ أملاكهم السابقة، وأرجع الإمارات التي ضمّها بايزيد إلىٰ دولته، أرجعها إلىٰ أهلها، وغرس بذور الشقاق بين أولاد بايزيد الثلاثة، وسبق أن قُتِل اثنان من أولاده في الحرب، إذ كان له ثمانية أولاد(٤).

استقر تيمورلنك في الأنضول عاماً كاملاً، ثم رحل عنها، وتركها ممزّقة.

توفي السلطان بايزيد الصاعقة بعمر (٤٤) في سجنه (٧ أشهر و١٢ يوماً)، نقل جثمانه إلىٰ (بورصة).

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٩١، عن (أصول التاريخ العثماني)/ ص٩١

(٢) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان محمد علي/ ص١٢، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٩٢، عن (الدولة العثمانية في تاريخ الإسلام الحديث)/ ص٢-٣

(٣) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٩٣، عن (محمد الفاتح)، د. سالم الرشيدي/ ص٣٦

(٤) ألبوم العثمانيين، ٣٩

عاصره المؤرخ القاضي ابن خلدون، وتوفي في عهده هو والعلامة سعد الدين التفتازاني، وكانت مساحة دولته حين وفاته قد نقصت من ٩٢٠٠٠٠كم٢ إلىٰ ٤٢٠٠٠٠ كم٢.[(١)]

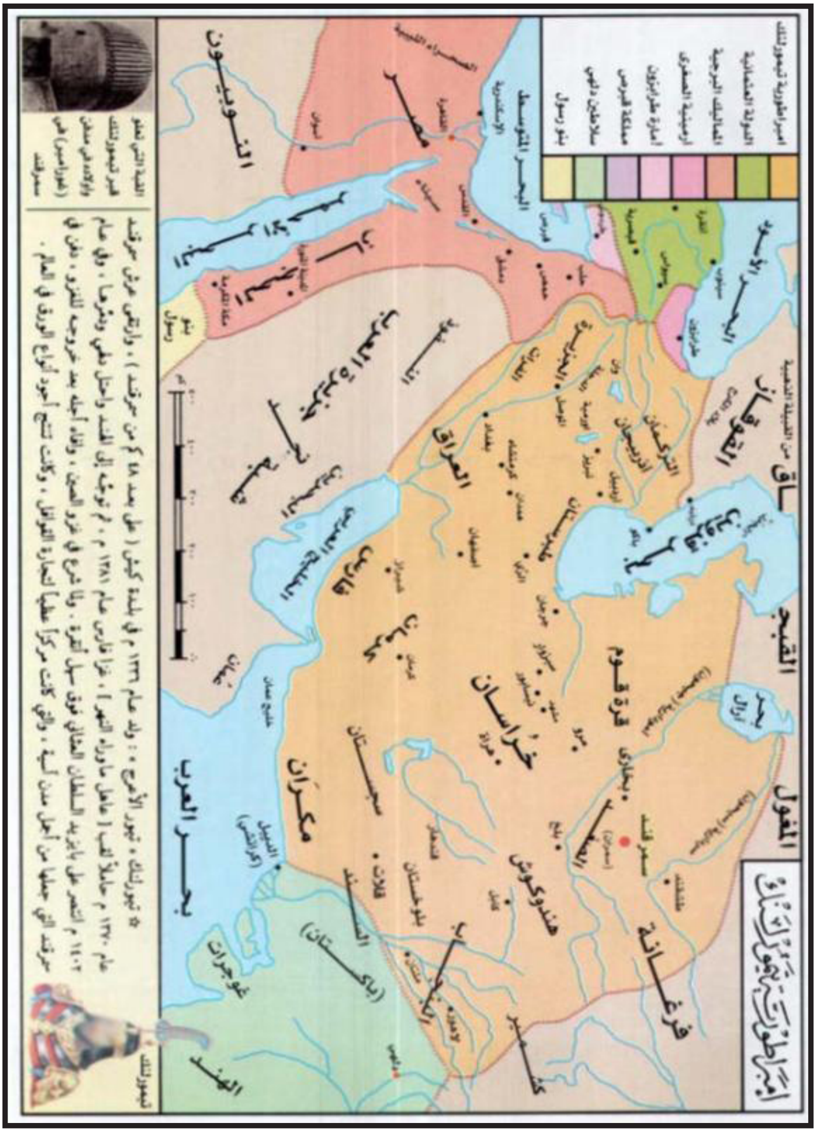
٢٢



معركة انقرة بين تيمور لنك وبيازيد الصاعقة

(١) السلطان عبد الحميد، أورخان محمد علي/ ص١٢

٢٣



إمبراطورية تيمور لنك

المبحث الخامس

السلطان رقم (٥)

السلطان جلبي محمد جلبي (محمد الأول)

حياته: (٧٩١-٨٢٤هـ) = (١٣٨٩-١٤٢١م) - عمّر ٣٣ سنة.

حكمه: (٨١٥-٨٢٤هـ) = (١٤١٣-١٤٢١م)، حكم ٨ سنوات وعمره ٢٤ سنة[١].

هو المؤسس الثاني للدولة العثمانية، اشتهر بالصلاح والتقوىٰ، وكان مسالمًا، نقل عاصمة الدولة من أدرنة، مدينة الغزاة إلىٰ بروسة (مدينة الفقهاء)، كان حازمًا في حكمه، قضىٰ علىٰ الفتنة بينه وبين أخويه المتمردين، أحدهما سليمان في أدرنة، إذ أعلن نفسه سلطانًا، فاضطر إلىٰ قتله[٢]، والآخر (عيسىٰ) في بروسة الذي قتله كذلك[٣]، أعلن نفسه سلطانًا.

حين استولىٰ تيمورلنك علىٰ الأنضول عمد إلىٰ إحياء الإمارات القديمة لتفتيت الدولة العثمانية - لذا فإن محمد الأول واجه مشكلات استمرت (١١) سنة، نصفها قبل توليه الحكم، والنصف الثاني بعده لكي يستتب له الحكم، ويقبض علىٰ زمام الأمور.

تسلمها بمساحة ٤٢٠٠٠٠ كم^2 عن حكم والده المنهار، وانتهىٰ بها إلىٰ ٥٥٠٠٠٠ كم^2.

قمع الفتن في آسيا وأوروبا، وسالم إمبراطور القسطنطينية، وحالفه مكرهًا، كما صالح البندقية، ومع ذلك، فإنه دخل (٢٤) معركة، وأصيب بـ(٤٠) جرحًا، وكان قويًا مصارعًا،

---

(١) ألبوم العثمانيين، ص٤١، والسلطان عبد الحميد، أورخان/ ص١٢

(٢) المصدر السابق، ص٤١

(٣) المصدر السابق، ص٤١

وانتصر في معارك كثيرة في جنوب شرق أوروبا[١]، وكان يقود المعارك بنفسه، كل ذلك كان تمهيداً للوصول إلىٰ الأندلس لإغاثة مسلميها، كما كان محبًا للعلماء والأدباء والشعراء[٢].

ظهرت في حكمه (فتنة الدجال) الشيخ بدر الدين، الذي ادعىٰ بدعوىٰ الإخاء الإنساني، بغير اعتراف بالعقيدة والدين، وهي دعوىٰ الماسونية والبهائية واليهودية اليوم، أكرمه تيمورلنك كثيراً، حين كان في تبريز، ثم انتقل إلىٰ عدة دول إسلامية، حتىٰ استقر في بلغاريا، وقاد جيشًا من (٨٠٠٠) جندي، هزَم السلطان، ثم انتصر عليه السلطان في المعركة الثانية، وأسره، ثم حاكمه وقتله[٣].

٢٤



السلطان جلبي محمد (١٣٨٩-١٤٢١)[٤]

(١) ألبوم العثمانيين، ص٤١

(٢) السلطان عبد الحميد الثاني – أورخان محمد علي/ ١٢

(٣) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٩٩، عن (العثمانيون في التاريخ والحضارة)/ ص١٤٠

(٤) ألبوم العثمانيين – الدار العثماني للنشر، ص٤٠

أحب الشعب السلطان، وأطلقوا عليه لقب (بهلوان)، بمعنىٰ (الرجل الشجاع العبقري والبطل).

وهو أول سلطان عثماني أرسل الهدية السنوية (صرّة من المال) إلىٰ أمير مكة، لتوزيعها علىٰ فقرائها وفقراء المدينة المنورة[١].

توفي عن (٥ بنين) و(بنتين)، في أدرنة، ثم نقل نعشه إلىٰ بورصة، أخفيت وفاته، وهو الوحيد بين السلاطين، بسبب أن ولده مراد لم يكن في إستنبول، توفي في زمانه العلامة مجد الدين الفيروزآبادي مؤلف كتاب قاموس المحيط[٢].

(١) ألبوم العثمانيين – الدار العثماني للنشر، ص١٠٠

(٢) ألبوم العثمانيين، ص٤١، وهو معارض لما ذكره المؤرخ أورخان محمد علي في أنه توفي أيام السلطان بايزيد

المبحث السادس

السلطان رقم (٦)

السلطان مراد الثاني

حياته: (٨٠٧-٨٥٥هـ) = (١٤٠٢-١٤٥١م) - عمّر ٤٩ سنة.

حكمه: (٨٢٤-٨٥٥هـ) = (١٤٢١-١٤٥١م)، حكم ٣٠ سنة وعمره ١٩ سنة[١].

هو ابن السلطان جلبي محمد، كان مجاهداً وداعية، واشتهر بالتقوىٰ والعدالة والرحمة وكان خطاطًا، فصيحًا أديبًا شاعراً، شجاعًا صبوراً لا يمل[٢]، وكان خير ملوك زمانه، بنىٰ جامع أدرنة الشهير، وجامع مرادية في أدرنة، وفي بورصة وجوامع أخرىٰ وقناطر، وجوامع كبيرة أخرىٰ، ومدارس، كان حازمًا في حكمه، قضىٰ علىٰ مؤامرة عمه عليه، حين تآمر مع إمبراطور القسطنطينية، وحاصر غاليبولي، لانتزاعها منه، فألقىٰ القبض عليه، وقاده إلىٰ المشنقة، كما تآمر عليه أخوه، فقتله السلطان، ثم احتل سلانيك، تأديبًا للإمبراطور.

احتل بلاد الصرب واليونان جميعها سنة ١٤٣١م، كما احتل الأفلاق في رومانيا، وهَزَم المجر، وقتل من الأعداء ٨٠٠٠٠ جندي، وأسر منهم ٧٠٠٠٠ جندي، وكانت معركة مهولة استمرت ثلاثة أيام ١٠٠٠٠٠ جندي أوروبي عداالاحتياطي، ضد ٤٠٠٠٠ جندي عثماني، وكانت عام (٨٢٤هـ/ ١٤٣٨م)، وهي من أقسىٰ معارك التاريخ، واستولىٰ علىٰ جنوب ألبانيا، كل ذلك لتوسيع رقعة الإسلام، وتمهيداً لإنقاذ الأندلس علىٰ المدىٰ البعيد، وكان يقود الجيوش بنفسه، غير أن ألبانيا لم تهدأ في زمانه، وخسر العثمانيون خسائر فادحة[٣].

---

(١) ألبوم العثمانيين، ص٤٣، والدولة العثمانية، د. علي محمد الصلابي/ ص١٠٣-١٠٤ بإيجاز

(٢) ألبوم العثمانيين، ص٤٣

(٣) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٠٤ بإيجاز، والسلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص١٣

٢٥



السلطان مراد الثاني (١٤٠٢-١٤٥١)

عقدت أوروبا مجتمعة حلفًا تقوده البابوية، من (المجر وبولونيا والصرب وجنوه والبندقية والمانيا والجيك والإمبراطورية البيزنطية مجتمعة)، فخسر مراد معركتين عام (١٤٤٢م-٨٤٦هـ)، وطلب الصلح لمدة عشر سنوات: (٨٤٨هـ- ١٤٤٤م)، تنازل فيها عن (الصرب)، كما تنازل عن (الأفلاق) للمجر. وثار الأنكشاريون فأخضعهم ثانية[١].

كان زاهداً في الحكم، رجع إلىٰ الأنضول، ففُجِع بموت ابنه علاء، ثم تنازل عن السلطة مرتين لابنه (محمد)، وكان بعمر (١٤) سنة.

بلغت مساحة دولته ٩٠٠٠٠٠ كم٢، بعد تسلمها ٥٥٠٠٠٠كم٢ من والده، ووصلت جيوشه المجر وألحق الهزيمة بها، مما حمل أوروبا علىٰ تشكيل جيش صليبي من خمس دول

(١) ألبوم العثمانيين، ص٤٣

مكونـاً من ١٠٠,٠٠٠ جندي ضد الجيش العثماني الذي يقوده مراد الثاني بـ ٤٠,٠٠٠ مجاهد، وكانت من أكبر معارك التاريخ، قتل من العدو ٨٠,٠٠٠، وأسِر الباقون[١]. كما ذكرنا من قبل .

وبعد التنازل لابنه نقض النصارىٰ المعاهدة، فتألبوا علىٰ الدولة العثمانية، إذ لا عهود ولا أيمان لهم: (فقاتلوا أئمة الكفر، إنهم لا أيمان لهم، لعلهم ينتهون)[٢]، واستغلّوا صغر سنّ ولده، فرجع السلطان إلىٰ الحكم، مستعيناً بأسطول جنوة، لنقل ٤٠٠٠٠ جندي عثماني من آسيا إلىٰ أوروبا، مقابل دينار لكل جندي، ووصل السلطان مسرعـاً إلىٰ رأس جيشه الذي كان يقوده بنفسه، في نفس اليوم الذي وصل فيه الصليبيون إلىٰ (فارنة)[٣]، ووضع السلطان المعاهدة التي نقضها العدو علىٰ رأس الرمح، ليشهدهم بالغدر، وليزيد من حماس جنده، وكانت المعركة ملحمة رهيبة، حقق النصارىٰ في بدايتها تقدما أوليـًا ثم دارت الدائرة عليهم في سهول (قوصوة)[٤]، وقطع الجنود المسلمون رأس ملكهم المجري وعلّقوه علىٰ الرمح، فانهزم جيشهم سنة ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م، بعد استمرار المعارك ثلاثة أيام، وأطلق السلطان سراح جميع الأسرىٰ[٥].

ثم تنازل السلطان للمرة الثانية لولده الذي بلغ عمره (١٩) سنة، وهو الملك الوحيد في التاريخ تنازل مرتين في حياته زهداً بالملك[٦]، غير أن ثورة الجيش الإنكشاري في (أدرنة)، أضطرته إلىٰ العودة، فخضع له الإنكشارية، وبقي في السلطة إلىٰ آخر يوم في حياته، وكان ابنه أميراً علىٰ (مغنسيا–مايسيا)[٧].

(١) السلطان عبد الحميد الثاني – أورخان/ ١٣

(٢) سورة التوبة/ ١٢

(٣) ميناء في بلغاريا علىٰ البحر الأسود في منتصف ساحلها الشرقي، أنظر خارطة الدولة العثمانية

(٤) تقع جنوب (صربيا)، قريبـًا من حدود البانيا الشمالية الشرقية، أنظر خارطة الدولة العثمانية،

(٥) البوم العثمانيين/ ٤٣

(٦) المصدر السابق/ ١٠٩

(٧) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٠٨، والمدينة تسمىٰ هكذا، و(مغنيسيا–مانسيا) مدينة تقع غرب الأنضول، ويذكر الصلابي في كتابه الدولة العثمانية أن مراد الثاني والده أرسل ابنه محمد إلىٰ مغنيسيا حاكمـًا عليها

توفي السلطان عن عمر ٤٨ سنة، وخلّف (٥ بنين ، وبنتين)، ودفن في بورصة، وأوصىٰ أن يدفن يوم الجمعة، وبأن لا يبنىٰ علىٰ قبره بناء، وأن يهيّأ مكان لقراءة القرآن الكريم عند قبره، ونفذت وصيته(١).

بلغت مساحة دولته ٩٠٠٠٠٠كم٢، بعد تسلمها بمساحة ٥٥٠٠٠٠كم٢ من والده.

(١) البوم العثمانيين/ ٤٣

المبحث السابع

(السلطان رقم ٧)

السلطان محمد الفاتح

حياته (٨٣٥-٨٨٦هـ) = (١٤٣٢-١٤٨١م) عمّر ٤٩ سنة

حكمه (٨٥٥-٨٨٦هـ) = (١٤٥١-١٤٨١م)، حكم ٣٠ سنة، حكم وعمره ١٩ سنة[(١)].

تمهيد

محمد الفاتح رضي الله عنه[(٢)] هو بشارة المصطفىٰ ﷺ قبل (٨٦٠) سنة من فتحها، حين أعلن للمسلمين في موقعة الخندق: (لتفتحن القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش)[(٣)].

هو ابن ذلك السلطان الورع المجاهد (مراد الثاني)، وقد رباه العالمان: (أحمد الكوراني وآق شمس الدين)، من أكابر علماء زمانهم، وغرس فيه الثاني أنه هو المعني بحديث بشارة الفتح، فنشّأه علىٰ روح الجهاد، وبعقيدة صلبة وتجردّ كامل لربه[(٤)]، صاغ شخصيته بصفات ندر اجتماعها في واحد - من حزم وشجاعة وتواضع ومشاركة للجنود في كل عمل، وعدل مع المسلمين ومع أهل الذمة، ومشاركتهم في أيام الفتح بموائدهم! وكانت وصيته لولده بايزيد من اجمع الوصايا في عمر التاريخ[(٥)].

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٤٦

(٢) ترّضينا عنه لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، سورة التوبة/ ١٠٠، وهو الذي صدقت فيه بشارة المصطفىٰ (صلىٰ الله عليه وسلم) ومديحه له : (لتفتحن القسطنطينية) الحديث

(٣) أخرجه الأمام أحمد/ (٤/ ٣٣٥)، والحاكم (٤/ ٤٢٢)، والطبراني في الكبير: (٢/ ٢٤)، والحديث صححه الحاكم ووافق الذهبي.

(٤) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٦٩

(٥) وستأتي في أواخر سيرته

٢٦



السلطان محمد الفاتح (١٤٣٢-١٤٨١)

اهتم بالعلماء، وأسهمهم بقيادة الجيوش ومشاركتهم بالحروب، كما اهتمّ بالمجال التعليمي اهتماماً بالغاً- لاسيما المناهج الإسلامية التي صاغت مجاهدي الدولة لقرون من غير ملل ولا كلل في حروبها، كما اهتم بتجهيز الجيوش البرية من مدفعية متطورة وبنائه لدور الصناعة، مستفيداً من أوربا، وأنشأ جامعة عسكرية، كما أنشأ الحصون والقلاع، واهتم بالأساطيل البحرية، حتىٰ شاد أقوىٰ اسطول في البحر الأسود والمتوسط، مستفيداً من الغرب في تطوير الأساطيل[١]، واهتم بالتجارة والصناعة والعمران والمساجد والمعاهد والكليات والقصور والمستشفيات والخانات (الفنادق - الخانقا)، والأسواق الكبيرة، وهندسة المدن، وعمّ الرخاء والرفاه للجميع .

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ١٧٨-١٧٩ بإيجاز

بنىٰ الفاتح المدارس والمعاهد في كل مكان، مع أقسام داخلية ملحقة بها، وأوقافٍ واسعة تدرّ الموارد لها، ومكتبات ودراسات تخصصية نظرية وتطبيقية[١]،

واهتم بالكتاتيب التي نشرها في القرىٰ، لتحفيظ القرآن الكريم، ومكافحة الأمية في الدولة، وكانت اللغات العربية والتركية والفارسية والرومية تدرّس، كما ترجم كتب الحضارات السابقة، واهتم بنشر المكتبات، حتىٰ إن مكتبته الخاصة كان فيها ١٢,٠٠٠ مجلد! ثم ان الدوام في المدارس والمعاهد الملحقة بمسجده، كان علىٰ مدار السنة من غير عطلة[٢].

شرّع (قانون نامه)، وهو دستور الدولة من الكتاب والسنة، وقسّم الدولة إلىٰ ولايات كبرىٰ وصغرىٰ، وأعطىٰ مسؤوليات إدارية لرؤسائها في الإدارة، وفي تجهيز الجيوش، وأن يكونوا في مقدمة الجيوش في الجهاد، لتكون الدولة دولة جهاد، والجهاد ونشر الإسلام هو الغاية من الحكم[٣] بعقيدته ؛ وهو الصحيح.

توفي وسط جيشه العرمرم الذي هيأه لفتوحات واسعة، لا يعلم أحد إلىٰ أين كان سيغزو به، ولكنه كان في نيته وعزيمته إنقاذ الأندلس من خلال زحفه من جنوب إيطاليا الذي استولىٰ عليه[٤].

أما فتح القسطنطينية، فكان ثمرة وعد المصطفىٰ ﷺ قبل (٨٦٠) سنة من فتحها، ومدحه الأمير وجيشه في حديثه المشهور (لتفتحن القسطنطينية)، فكان تسابق المسلمين بالفوز بهذه البشارة، بهدف نشر الإسلام وتوسيع رقعته في الأرض، وبسبب أنها كانت عقبة كاداء في طريق الفتوحات الإسلامية، ولابدّ من إزاحتها، إذ هي أحصن مدينة في العالم، واستغل الفاتح صراع الدول الأوروبية وصراع الكنائس فيما بينها[٥].

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٧٠-١٧١ بإيجاز
(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٧٠-١٧١
(٣) المصدر السابق/ ص١٧٦
(٤) المصدر السابق/ ص٢٠١
(٥) المصدر السابق/ ص١٥٥-١٥٩ بإيجاز وتصرف

وكان فتحها بالمحاولة الحادية عشرة، وكانت عاصمة الإمبراطورية البيزنطية لمدة ١١٥٠ سنة ثم صارت عاصمة الخلافة الإسلامية (٤٧٠) سنة، ولقّب بالفاتح وأبي الخيرات[١].

بدأ استعداده لفتحها من الشهر الأول من حكمه، ولمدة سنتين، بعد الاستعداد الرهيب ببث روح الجهاد، ونشر العلماء بين الجنود، وكان كل جندي مجاهداً وداعية، واهتم بالتدريبات المكثفة، وإعداد السلاح الخطير، لاسيما المدفعية والأسطول الحربي، وتحرّي أخبارها من خلال الجالية الإسلامية الكثيفة فيها، وأقام قلعة جديدة مقابل القديمة علىٰ جانبي البسفور، وهيأ مئات البواخر الحربية لحصارها، وصنع قلعة خشبية عليها الجنود، أعلىٰ من الأسوار، وهيأ أفواجاً من حفّاري الأنفاق تحت الأرض اليها، ونقل أسطولاً بحرياً يتألف من (٧٠) سفينة، عبر خمسة كيلومترات من الأرض المرتفعة مقابل القسطنطينية ضماناً لإحكام حصارها[٢]؛ ذلك هو الاستعداد العسكري.

أما الروح المعنوية فكانت عالية جداً، تتجاوب مع مدح الرسول القائد ﷺ لهم، وكان الهجوم علىٰ الأسوار بمختلف الأسلحة الحديثة متواصلاً لمدة (٥٤) يوماً من غير استراحة، أقضّ مضاجع الأعداء، فانهارت روحهم المعنوية، وعقدوا اجتماعات كثيرة بينهم، وطلبوا الصلح عدة مرات، ورفض الفاتح أي حلّ إلا التسليم ، والقصف المدفعي والمنجنيق والسهام والنبال وحفر الأنفاق، والأسطول البحري، كل هذه تعمل ليل نهار، مع دعاء العلماء وإسهامهم في الجهاد وقيادتهم له، وفي جو (الله أكبر)، الذي كان يشق عنان السماء، و(قراءة القرآن الكريم والذكر)، إضافة إلىٰ الروح المعنوية العالية ، كان عدد جيشه اكثر من ربع مليون، وكان الفاتح مع جيشه يعمل ويشجع ويدعو كأحدهم. انهارت معنويات العدو الذي لجأ إلىٰ تماثيل مريم العذراء والمسيح، يستغيثون ويبكون ويصلّون ، هم وقائدهم والإمبراطور[٣]. كانت الحرب

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١١١

(٢) المصدر السابق/ ص١١٦-١٢٥ باختصار كبير

(٣) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١١٦-١١٧، ١١٩، نقلًا عن (تاريخ الدولة العلية العثمانية)، محمد فريد بك/ ص١٦١، والصلابي/ ص١٢٢، عن (محمد الفاتح)، عبد السلام فهمي/ ص١٢٣

قاسية، وخسائر المسلمين المهاجمين فادحة، وكذا العدو.

ثم كان الهجوم العام يومًا واحداً، الساعة الواحدة من صباح الثلاثاء جمادىٰ الأولىٰ سنة ٨٥٧ هـ ، الموافق ٢٩ مايو ١٤٥٣م، هجومًا كثيفًا، أسهمت به جميع الأسلحة البرية والبحرية، ولاسيما المدفعية ، وتسلق السلالم علىٰ الأسوار، ودخول المدينة بأعلامهم العثمانية وهتاف (الله أكبر)، الذي كان له أثره البالغ في الهزيمة المعنوية للأعداء[1].

٢٧



رسم يبينفي آيا صوفيا القسطنطينية

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٣١١، عن (الفتوح الإسلامية عبر العصور)/ ص٣٨٠

المطلب الأول

شخصية الفاتح ﷺ في عمق إيمانه وحكمة قيادته

شخصية فذة، نادرة، صاحب بدن قوي، وكان من أكابر علماء عصره، ويتقن سبع لغات، امتدحه المصطفىٰ (صلي الله علية وسلم) قبل ظهوره ب(٨٦٠) سنة، لذا فانها تستحق الدراسة التحليلية الواعية، من خلال عقيدته وسيرته، ووصيته لولده، حين وفاته، نوجز سيرته بما يأتي:

صفاته ونشأته:

أولاً: صفاته:

كان ﷺ طويل القامة، ملئ الخدين، بشرته بيضاء، وحمراء، معقوف الأنف، عضلي الذراعين، قوي البدن، وكان من أكابر العلماء، وقوراً مهيباً. عاش ٤٩ سنة، وامتد حكمه ٣٠ سنة، وقد حكم بعمر ٢٩ سنة[١].

ثانيًا: نشأته:

ولد في ٢٧ رجب ٨٣٥هـ - ٣٠ مارس ١٤٣٢م، نشأ في كنف أبيه السلطان مراد الثاني - سابع سلاطين الدولة العثمانية، وتعهده بالرعاية والتعليم، ليكون جديراً بالسلطنة، فأتم حفظ القرآن، وقرأ الحديث، وتعلم الفقه، ودرس الكثير من العلوم الدنيوية، كما درس أمور الحرب، وتعلم العربية والفارسية واللاتينية واليونانية وثلاث لغات أخرىٰ إلىٰ جوارها، كان إداريًا فذاً وقائداً جسوراً، كان يجالس العلماء واشترك في شبابه مع أبيه في حروبه وغزواته[٢].

ثم عهد إليه أبوه بإمارة (مغنيسيا- غرب الأنضول)، وهو صغير السن ليتدرب علىٰ إدارة شؤون الدولة، تحت إشراف أكابر علمائها، الشيخ آق شمس الدين، والملاّ الكوراني، وهو ما أثّر في تكوين شخصيته عميق الأثر، وكان الشيخ آق يبثّ فيه روح الجهاد، ويلّمح له بأنه

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٤٦، في حين أغلب المصادر تنص علىٰ أنه حكم بعمر (٢٠) سنة، وفتحها بعمر (٢٢) سنة

(٢) المصدر السابق/ ص٤٦

المقصود ببشارة النبي ﷺ في الفتح، فتجاوب معه إيمانـًا وهمة عالية[١].

كان يعنىٰ بالعلماء ويجالسهم، ويجمعهم والشعراء والفنانين، وكان يمقت تبذل الشعراء ونفاقهم، ويعاقب عليه، وله ديوان شعر بالتركية، وكان وقوراً متأنيـًا جسوراً، وقائداً إداريـًا لا مثيل له، ويخفي الأسرار حتىٰ علىٰ أقرب الناس إليه، أمضىٰ حياته في الحروب[٢].

حكم بعمر (١٩) سنة، لمدة ٣٠ سنة، وفتح القسطنطينية بعمر (٢٢) سنة، أسقط الدولة البيزنطية وإمبراطورية الروم في (طريزون) وأربعة مماليك و١١ إمارة، و٢٠٠ مدينة، حارب جيوش أوربا العشرين مجتمعة عليه خلال ثلاثين سنة، في ٢٥ حربـًا قادها بنفسه[٣]، ولقد نجا من ١٤ مؤامرة عليه لاسيما من قبل البنادقة ، لم ينجُ من الأخيرة إذ مات مسمومـًا من قبل طبيبه اليهودي (يعقوب) الذي كان أسلم نفاقـًا[٤].

ثالثـًا: عقيدته الإسلامية:

إمتلأ بها عقله وقلبه، وفاضت هذه العقيدة الربانية علىٰ كيانه، وسرت في عروقه، فهو يتصرّف في سلوكه الشخصي وحكمه بوحي من عقيدته الصافية .

وتمثلت عقيدته الإسلامية بما يأتي[٥]:

١ – أن خالق الكون والمهيمن عليه هو الله ﷻ : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[٦]،

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١١٥، عن كتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية/ ص٥٢

(٢) المصدر السابق/ ص١١٥

(٣) ألبوم العثمانيين/ ص٤٦

(٤) اليوم العثمانيين/ ٤٦، في حين أن أغلب المصادر تنص علىٰ أنه حكم وعمره (٢٠) سنة وفتحها وعمره (٢٢) سنة.

(٥) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٥٥-١٥٦ بإيجاز

(٦) سورة الأعراف/ ٥٤

ومن حق الخالق أن يأمر وأن يُطاع، وأن يُشكر علىٰ نعمائه.

٢- **أن الخالق سبحانه هو المشرّع، وتشريعه منهاج حياة ملزم:** ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾(١)، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾(٢).

٣- **علىٰ سلوك المسلم الالتزام الكامل بهدي الله ورسوله:** ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾(٣).

٤- **كما أن عليه الخضوع المطلق للشريعة الإسلامية:** ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾(٤)، وإن أي انحراف عنه ذل وانهيار: (لقد كنا أذلة، فأعزنا الله بالإسلام، فان ابتغينا عزاً بغير الإسلام أذلنا الله)(٥).

٥- **أن الحياة هي امتحان، فلابد للمسلم من الفوز فيه:** ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾(٦)، **فلا انهيار للمسلم في أية محنة، ولا بطر في أية نعمة!.**

٦- **الفائز بالامتحان يؤيده الله وينصره:** ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(٧)، ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾(٨).

٧- **الحياة الدنيا طريق السعادتين في الدنيا والآخرة:** ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ

(١) سورة الرعد/ ٤١
(٢) سورة الاحزاب/ ٤
(٣) سورة الاحزاب/ ٣٦
(٤) سورة الأنبياء/ ١٠
(٥) كلمة الفاروق ة رضي الله عنه.
(٦) سورة الملك/ ٢
(٧) الحج/ ٤٠
(٨) الأعراف/ ٩٦

أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[١].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[٢]، فالمسلم أبداً في جنتين، جنة الدنيا وجنة الآخرة.

٨- **للحياة قوانينها الثابتة التي لا تتبدّل** : ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾[٣]، تسري علىٰ الكون إنسانه وحيوانه ونباته وجماده ومياهه وفضائه، لا تبديل لها ولا تغيير[٤].

رابعـًا: آثار عقيدته في سلوكه[٥]

يمكن حصرها بما يأتي:

١- **حزمه** - في الحكم وفي الحرب ، وحين وقعت الموقعة البحرية بين الأسطولين العثماني والبيزنطي ، أرسل إلىٰ قائد أسطوله معنّفـًا: (إما أن تستولي علىٰ هذه السفن، وإما أن تغرقها، وإن لم توفق فلا ترجع إلينا حيـًا)، ولما فشل فيها، أتاه مصاباً بعينه من أثر قوة الصدام، فعفا عنه[٦].

٢- **شجاعته في الحروب** - وهي شجاعة نادرة صادرة من عقيدته الربانية، ذلك أنه كان يخوض المعارك بنفسه، ويتسلق الجبال، ويقطع الأشجار مع جنوده، تعرّض جيشه لكمين بين الغابات، فانهالت عليه قذائف المدافع والبنادق، وكاد جيشه يجبن، إذ بوغت، إلا أن الفاتح تباعد عن مرمىٰ المدافع، وصاح برئيس جيشه الإنكشاري، يعنفه علىٰ التخاذل، ويشجعه

---

(١) النحل/ ٩٧

(٢) فصلت/ ٣٠ .

(٣) فاطر/ ٤٣ .

(٤) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٥٥-١٦٥ بإيجاز

(٥) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٦٦-١٦٩ باختصار، وعن (السلطان محمد الفاتح)/ ص١٠٢، ١٢٢، ٢٤٧، و(الفتوح الإسلامية عبر العصور)، ص٣٧٦

(٦) المسك الفاتح من سيرة محمد الفاتح، الصلابي/ ١٣٦

وإياهم علىٰ أن يكونوا جند الله، ولتكن فيهم الحمية الإسلامية، وأمسك بالترس، واستلّ سيفه، وركض بجواده أمام جنده، فالتحم الجيشان بقتال ضروس، سحابة النهار، ثم نزل النصر[١]: (إن الله مع الصابرين).

وكان يسوّي الطرق مع جنوده تمهيداً لنقل المدافع من أدرنة إلىٰ القلاع المشرفة علىٰ القسطنطينية في حصارها، بل كان يسبق الجنود، ويتقدمهم في الحروب، ولقد خاض البحر بفرسه، مشجعاً أساطيله في الحرب، **وسمّىٰ جيشه (جند الله)، وهو الجيش الذي امتدحه رسول الله ﷺ، هو وأميره**[٢].

حارب ١٦ عاماً جيوشاً صليبية لعشرين دولة، أطلق سراح ٤٠٠٠٠ اسير، واحتل جنوب ايطاليا مع جزيرة صقلية إلىٰ نابولي قريباً من روما، تمهيداً لاحتلال الأندلس، وقاد (٢٥) حرباً خلال (٣٠) سنة، وجرح جروحاً بليغة، ونجا من ١٤ مؤامرة قتل من قبل الصليبيين، ثم قتله أحد البنادقة بالسّم وهو طبيبه الخاص اليهودي واسمه (يعقوب باشا)[٣].

حوّل (٨) كنائس في إستنبول إلىٰ جوامع، وأنشأ مئات المدارس، واكتشف في عهده قبر أبي أيوب الأنصاري[٤]، كشفها العالم الشهير آق شمس الدين، وألقىٰ فيه أول خطبة جمعة[٥].

٣- **عزيمته وإصراره** - تظهر من خلال حصاره القسطنطينية، وهجومه المتواصل ليل نهار في (٥٤) يوماً، من غير كلل، ومن خلال قيادته للجيوش، وانتصاراته في جميع حروبه.

---

(١) المسك الفاتح من سيرة محمد الفاتح، الصلابي/ ص١٣٦-١٣٧

(٢) ألبوم العثمانيين/ ص٤٥، و(الدولة العثمانية)، الصلابي/ ص١٦٦، وهو الذي جنده (جند الله)، المصدر السابق/ ص١٥٨، عن (العثمانيون في التاريخ والحضارة)/ ص٢٥٨

(٣) البوم العثمانين/ ٤٥

(٤) المصدر السايق/ ص٤٥

(٥) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٤٥، عن (العثمانيون في التاريخ والحضارة)/ ص٣٧٤

ومن قصص عزائمه، وهي لا تحصىٰ[(١)]:

- حين احترقت القلعة الخشبية التي اخترعها، والتي أبلت بلاءً حسنا في الحصار، قال: (غداً نصنع أربعـًا غيرها).
- وحين فشلت تجربة (الأنفاق)، أعادها بالعشرات، حتىٰ أسهمت في تحقيق اقتحام المدينة، كما أسهمت في هدم الروح المعنوية للعدو.
- وحين امتنع الإمبراطور قسطنطين عن تسليم المدينة: (إما أن أحفظ عرشي، وإما أن أدفن تحت أسوارها)، فكان جواب الفاتح: (حسنـًا، عن قريب سيكون لي عرش في القسطنطينية أو قبر)!
- وحين خوضه البحر بحصانه إلىٰ صدره، مشجعـًا بالهجوم[(٢)].
- وحين حاول السلطان فتح طربزون، والتي كانت تابعة آنذاك للامبراطورية البيزنطية، كان عليه أن يتسلق جبالا عالية، فترجل عن فرسه، وتسلقها علىٰ يديه ورجليه، مع قطعه الأشجار مع الجنود، فسالته والدة زعيم التركمان، وكانت معه: لِمَ تشقىٰ هذا الشقاء، وتتعب هذا التعب؟! هل تستحق طريزون كل هذا؟ فأجابها: يا أماه، إن الله قد وضع هذا السيف في يدي، لأجاهد به في سبيله، فإن لم أعطه حقه، فكيف ألقىٰ الله يوم القيامة، وكيف أكون جديراً بلقب الغازي الذي أحمله![(٣)]

وهكذا كان جنده في جهادهم كقائدهم! جند عقيدة وتضحية وإصرار علىٰ إحدىٰ الحسنيين - الشهادة أو النصر.

٤- عدله في تعامله مع أهل القسطنطينية المسلمين وأهل الذمة ، كان شعاره: (العدل أساس

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٦٧، عن (الفتوح الإسلامية عبر العصور)/ ص١٣٣، ٣٧٦

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٢٣-١٢٤، عن (محمد الفاتح)، د. سالم الرشيدي/ ص٣٠١

(٣) المصدر السابق/ ص١٥٨، عن (محمد الفاتح)، د. سالم الرشيدي/ ص٢٦٣

الملك)[١]، ومن عدله أن أعطىٰ كتباً رسمية للزعماء الدينيين النصارىٰ، يجولون البلاد، ثم يتقدمون بظلاماتهم من قبل المسلمين، فلم يتقدموا إلا بالشكر لمعاملة المسلمين لهم، وكان ينصب لنفسه خيما يجلس فيها للمظالم بنفسه، يستمع ويقضي فيها.

بعد فتح القسطنطينية توجه الفاتح إلىٰ كنيسة أياصوفيا، وقد اختبأ فيها الرهبان والقسس وخلق كثير، فطمأنهم، وسمح لهم بالذهاب إلىٰ بيوتهم بأمان، فخرج الكثيرون يعلنون إسلامهم، وردّ عليهم جميع الغنائم، وافتدىٰ عدداً كبيراً من أسراهم من ماله الخاص.

وأعطىٰ السلطان للنصارىٰ حرية إقامة الشعائر الدينية واختيار رؤسائهم الدينيين، وأعطىٰ رجال الكنيسة حق الحكم في قضاياهم المدنية في جميع الدولة، وأمرهم بتنصيب بطريرك جديد فاختاروا (أجناديوس)، فاستقبله السلطان في ديوانه بحفاوة بالغة وأكرمه ومن معه، ونصب له مائدة الطعام الفاخرة، وتناول معه الطعام، فاطمأن النصارىٰ جميعاً إلىٰ عدل الإسلام وإنسانيته، إذ هو (رباني التوجيه إنساني الاتجاه)[٢].

ومارسوا حريتهم الدينية في انشاء مدارسهم الخاصة حسب مللها المختلفة، لهم حرية العقيدة والملة واللغة[٣].

٥- **عدله مع شعبه**، ومن عدله مع شعبه أن امتنع أحد غلمانه عن الحضور إلىٰ القاضي في أدرنة، بسبب فساده، فركب إليه القاضي، فاعتدىٰ عليه الغلام وضربه، فلما سمع السلطان أمر بقتله، فتشفع له الوزراء، فلم يقبل شفاعتهم، ولما جاؤا به إلىٰ الفاتح، ليقبّل يده، أحضر له عصاً كبيرة، فضربه بها بشدة، حتىٰ مرض الغلام أربعة أشهر، عالجوه حتىٰ شفي، ثم صار وزيراً بعد ذلك، واسمه داود باشا[٤].

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٦٨، عن (السلطان محمد الفاتح) ص١٥٢

(٢) عبارة للإمام حسن البنا – رحمه الله ـ

(٣) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٣٩-١٤١ باختصار

(٤) المصدر السابق/ ص١٨٠-١٨١، عن (محمد الفاتح)/ ٤٠٩

٦- تواضعه لربه: في حمده وشكره حين فتح القسطنطينية، ودعائه للشهداء، وللجنود والثناء عليهم، وسجوده علىٰ الأرض، شاكراً ربه، وخدمته للجنود في الموائد في احتفالات الفتح وتفقده لأحوال الرعية ليلاً، اقتداء بالخلفة عمر الفاروق ﷺ، إضافة إلىٰ جهاز أمنه القوي.

وخطب في هذه المأدبة شيخه العالم الورع آق شمس الدين، فقال: يا جنود الإسلام، اعلموا واذكروا أن النبي (صلىٰ الله عليه وسلم) قال في شأنكم: (لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ونعم الجيش ذلك الجيش)[١].

٧- إخلاصه: يتمثل بشعاره الذي كثيراً ما كان يردده:

(نيّتي : امتثالي لأمر ربي في الجهاد ،

حماستي : بذل الجهد لخدمة ديني ،

عزمي : أن أقهر أهل الكفر بجند الله ،

تفكيري : منصبّ علىٰ الفتح، علىٰ النصر، علىٰ الفوز بلطف الله ،

جهادي: بالنفس والمال ،

أشواقي : الغزو والغزو مئات الآلاف لوجه الله ،

رجائي : في نصر الله ، وسمو الدولة علىٰ أعداء الله)[٢]

وكان يتمثل بقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[٣].

خامسًا: آثار عقيدته في وصيته لولده (بايزيد الثاني) :

إذ هي المقياس الثاني لشخصيته الفذة التي استحقت مدح النبي القائد الهادي ﷺ له بأنه

---

(١) المصدر السابق، عن (محمد الفاتح)/ ص١٤٩

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٥٧-١٥٨، عن (العثمانيون في التاريخ والحضارة)، ص٢٥٨

(٣) سورة الأنعام/ ١٦٢ ، ١٦٣ .

(نعم الأمير) توقفنا علىٰ صفات الحاكم المسلم التي تتوفر فيه، بما يطابق صفاته في حكمه، الا فلينتبه الحكام إلىٰ دراسة وصيته وممارستها مع شعوبهم.

وإن وصيته متميزة بين سائر وصايا الحكام في امتداد التاريخ الإسلامي، باستثناء الخلفاء الراشدين، والمبشرين بالجنة، وهي تمثل أقصىٰ أمانيه أن تتحقق في أعز إنسان عليه - ولده، فهي صادرة من قلبه المؤمن بها، والتي مارسها في واقع حياته.

إنها الوصية التي تحقق غاية المسلم من خَلْقه ووجوده علىٰ هذه الأرض، لتحقيق سعادته وكرامته، من خلال عبوديته الخالصة لخالقه، وطاعته المقدسة لأحكامه في شريعته: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾[1].

نصّ وصيته لابنه بايزيد، والأب هو علىٰ فراش الموت :

١ – كن عادلاً صالحـًا رحيمـًا.

٢– وابسط علىٰ رعيتك حمايتك دون تمييز .

٣– واعمل علىٰ نشر الدين الإسلامي ، فإن هذا هو واجب الملوك علىٰ الأرض .

٤ – قدّم الاهتمام بأمر الدين علىٰ كل شيء ، ولا تفتر في المواظبة عليه.

٥– ولا تستخدم الأشخاص الذين لا يهتمون بأمر الدين، ولا يجتنبون الكبائر، وينغمسون في الفحش .

٦– جانب البدع المفسدة، وباعد الذين يحرضونك علىٰ اتباعها.

٧– وسع رقعة البلاد بالجهاد.

٨– واحرس أموال بيت المال (خزينة الدولة) من أن تبدّد.

٩– وإياك أن تمد يدك إلىٰ شيء من أموال رعيتك إلا بحق الإسلام .

(١) سورة الأنعام/ ٥٧

١٠- واضمن للمعوزين قوتهم، وابذل إكرامك للمستحقين .

١١- العلماء هم القوة المبثوثة في جسم الدولة، عظّم جانبهم، وشجّعهم، وإذا سمعت بأحد من العلماء في بلد آخر فاستقدمه إليك، وأكرمهم بالمال .

١٢- حذار حذار لا يغرنك المال ولا الجند ، وإياك ان تبعد أهل الشريعة عن بابك، وإياك أن تميل إلىٰ عمل يخالف أحكام الشريعة، فإن الدين غايتنا، والهداية منهجنا، وبذلك انتصرنا.

١٣- واعمل علىٰ تعزيز هذا الدين وتوقير أهله.

١٤- ولا تنفق أموال الدولة في ترف أو لهو، واقتصد قدر اللزوم ، فإن ذلك الإسراف من أعظم أسباب الهلاك[١].

١٥- وإن قمة شخصيته الورعة لتتجلّىٰ في (بطاقة الهوية العثمانية للمواطنين المسلمين)، يسجل فيها (مسلم) فقط، من غير النظر إلىٰ قومية او مذهب، أو وطن أو لغة، عملاً بقوله تعالىٰ: (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلىٰ الله وعمل صالحـًا، وقال: إنني من المسلمين)[٢].

سادسـًا: آثار عقيدته في اعماله الحضارية والعسكرية[٣]:

١ – اهتمامه بالعلماء في بناء صرح الدولة المسلمة :

وذلك من خلال النهوض بمستواهم وتكريمهم وتقريبهم منه في الحكم، ومشاورتهم في إدارة الدولة.

لقد عُني بتربيته إمامان فاضلان : الشيخ أحمد الكوراني والشيخ آق شمس الدين.

أما الشيخ أحمد فانتهىٰ إلىٰ منصب قاضي العسكر، وكان الفاتح يقبل يده، وَصَلهُ أمرٌ

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٨، ٢٠٤ باختصار

(٢) سورة فصلت/ ٣٣

(٣) مسك الفاتح من سيرة محمد الفاتح، الصلابي/ ١٤-١٤٧ بإيجاز، ١٤٨-١٤٩ بإيجاز، والدولة العثمانية، الصلابي/ ، عن (السلطان محمد الفاتح)/ ١٧١-١٧٢، و(الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي)/ ص٩٤

من الفاتح مخالف للشرع، فمزّقه وضرب الخادم الذي أتاه بالأمر، غضب السلطان عليه وعزله فرحل إلىٰ مصر، ونزل ضيفاً علىٰ واليها السلطان قايتباي، فأكرمه غاية الإكرام، ثم إن الفاتح ندم، فكتب إلىٰ سلطان مصر أن يرسل إليه الشيخ، فاستجاب حذراً من حدوث مشكلات بسببه بين الوالي وبين الفاتح، فرجع إليه بهدايا كثيرة، واحتفىٰ به السلطان، وأسند إليه منصب القضاء، ثم الإفتاء، وهو أعلىٰ مركز ديني في الدولة، وكان لهذا العالم مؤلفات قيمة في التفسير وشرح البخاري، وشرح كتاب (جمع الجوامع)، وقصيدة في علم العروض من (٦٠٠) بيت، وأنشأ جامعاً بإستنبول ومدرسة دار الحديث، وانتشر علمه وقصده الأكابر، توفي وصلىٰ عليه السلطان .

ترجمة حياة الشيخ آق شمس الدين[١]: فهو محمد بن حمزة الدمشقي (٧٩٢-٨٦١هـ) = (١٣٨٩-١٤٥٩)، عمّر (٧٠) سنة، ارتحل به والده إلىٰ الروم وإلىٰ أنقرة، .. حفظ القرآن الكريم وعمره سبع سنوات، كان عالماً موسوعياً، شأنه شأن علماء السلف الصالح في قمة حضارة الإسلام. كان يتقن العلوم الإسلامية بفروعها واللغات العربية والفارسية والتركية، وعلوم الرياضيات والفلك والتاريخ والطب، وكان يتقن إدارة الحكم، وهو الذي درّب السلطان منذ صغره علىٰ الحكم الإسلامي بولاية مغنيسيا، وهو من أشهر العلماء النباتيين الإمام الشيخ آق شمس الدين، الذي اشتهر بأن (النبات يتحدث إليه)! إشتهر بأن الشجرة تناديه (أني شفاء من المرض الفلاني)! وهذا صدىٰ لشهرته في شفاء المرضىٰ بأدويته، كما اهتم بالأمراض المعدية وعلاجها، لاسيما السرطان، وهو أول من ذكر أن العدوىٰ تنتقل بأحياء صغيرة لا تُرىٰ بالعين المجردة، قبل باستور الفرنسي بقرون، وألفّ كتباً بالطب بالعربية والتركية.

أما مقامه عند السلطان فعزيز ومهيب، وكان يشعر بالرهبة بجانبه، وما كان يقوم له الشيخ

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٤٥-١٤٧، عن (محمد الفاتح)/ ١٤٩، و(العثمانيون في التاريخ والحضارة)/ ص٣٧٤-٣٧٦

حين زيارته، ليدفع عنه وسوسة الزهوّ[١].

طلب منه السلطان يوماً أن يدخل خيمته للخلوة والذكر فيها، فأبىٰ عليه، فالحّ السلطان مراراً فأبىٰ، فغضب قائلاً: إنه يأتي إليك واحد من الاتراك، فتدخله الخلوة بكلمة واحدة، وأنا تأبىٰ عليّ، فأجابه الشيخ الحكيم: إذا دخلت الخلوة تجد لذةً، تسقط عندها السلطنة من عينيك، فتختل أمورها، فيمقت الله علينا ذلك، والغرض من الخلوة تحقيق العدالة، فاعدل تستغن عنها![٢].

وإن هذا العالم الذي كان معلّم الفاتح في صغره، ومربيه ورفيقه في الحكم، ومفتيه، هو الذي نفث فيه أنه المعنيّ ببشارة الرسول المعجزة، لذا فإنه نشأه علىٰ حبّ الجهاد وعلىٰ التحمس لفتح القسطنطينية. لذا فإنه بدأ استعداده لفتحها منذ توليه الحكم بعمر (٢٠) سنة، واعترف الفاتح أن الفتح كان بتشجيعه وبركاته ودعائه، وكان له من الحظوة عنده ما كان للقاضي الفاضل لدىٰ صلاح الدين الأيوبي، الذي كان يقول: (لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم، بل بقلم الفاضل)[٣]،

رافق الشيخ آق شمس الدين الفاتح أكثر من ربع قرن، وصلّىٰ عليه السلطان وبكاه ودعا له وأثنىٰ عليه، وهكذا فان علماءه كانوا يحكمون عليه! أيّ تقوىٰ وورع كان لهذا السلطان الذي كان يقول: (إن احترامي للشيخ آق شمس الدين احترام غير اختياري، إنني أشعر وأنا بجانبه بالانفعال والرهبة !)[٤].

إن الملوك ليحكمون علىٰ الورىٰ   وعلىٰ الملوك لتحكم العلماء!

هكذا كنا!

وكان من حرص السلطان علىٰ العلماء أن يغدق عليهم المال، ليشجعهم علىٰ طلب العلم، ويغري غيرهم بطريق العلم، وكان الوزراء والعلماء من أصحاب الثروات يتنافسون

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٤٦، عن (البدر الطالع)/ ٢/ ١٦٧

(٢) المصدر السابق/ ص١٤٥-١٤٦، عن (البدر الطالع)/ ٢/ ١٦٧

(٣) الأدب الإسلامي وتاريخه في عصوره – العصور المتأخرة والقارة الهندية/ ٧٠ – المؤلف.

(٤) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٤٥، عن (العثمانيون في التاريخ والحضارة)/ ص٣٧٥

في إنشاء المعاهد والمدارس والمساجد والأوقاف الخيرية[١]، وكان لا يسمع بعالم أصابه عوَز إلا أمر بمساعدته[٢].

وكان العلماء في شهر رمضان يأتون إلىٰ قصره، يفسّرون القرآن الكريم، ويسهم معهم بالمناقشات، كما يسهم لهم بالهبات الشخصية، وعُرف (بأبي الخيرات)[٣] لسخائه فيها.

ومن بالغ اهتمامه بالعلماء دقة تنظيمه لإشراف العلماء وهيمنتهم علىٰ شؤون الدولة فأعطىٰ لقب (شيخ الإسلام) كأعلىٰ منصب ديني في الدولة، وهو يترأس (الهيئة الإسلامية)، وهو المسؤول عن التشريع والمحاكم والمساجد والمدارس والمعاهد الملحقة بها، إضافة إلىٰ ممتلكات الأوقاف الواسعة الخاضعة له، والمؤسسات الخيرية، مثل التكايا، .. ولا تقدّم الدولة علىٰ إعلان الحرب إلا بفتوىٰ صادرة منه، وأحكامه نهائية لا اعتراض عليها، ومن صلاحياته عزل السلطان[٤].

ثم إن جهاز (الهيئة الدينية الإسلامية) تمتد جذوره في أوساط الشعب والجيش، وكل رعايا الدولة، أعضاؤها قضاة ومفتون ومدرسون[٥].

وإن أفراد الهيئة الإسلامية الحاكمة يصحبون الجيش في ميادين الجهاد، ويقومون بالدعوة في شحن الجنود روحيًا، بطلب النصر أو الشهادة - من خلال الكتاب والسنة وسيرة المصطفىٰ ﷺ ، والقصص الجهادية في سالف هذه الأمة، ليبذل الروح رخيصة في توسيع رقعة الدولة الإسلامية، ونشر دين الله، وكانوا يؤمون الجنود في صلاة الخوف في ساحات القتال[٦].

وكان العلماء ينظرون إلىٰ السلطان علىٰ أنه إمام المسلمين، تجب عليهم طاعته وحبه، من

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٧٠-١٧١، عن (محمد الفاتح)/ ص٣٨٤-٣٨٥

(٢) المصدر السابق/ ص١٧٣

(٣) المصدر السابق/ ص١٧٣

(٤) المصدر السابق/ ١٩٥، عن (الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث)/ ص٨٩

(٥) المصدر السابق/ ص١٩٥

(٦) المصدر السابق/ ١٩٥-١٩٦، و(الدولة العثمانية دولة إسلامية)/ ص٤٥١، ٤٥٦

خلال طاعتهم لله ورسوله، وإن مرجعهم الشريعة عند حدوث أي خلاف مع السلطان والصدر الأعظم[١]: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٢].

وكانت هيمنة العلماء على الشعب أقوى من هيمنة السلطان، **لذا فإن الدولة حينما ضعفت بسلاطينها، لم تضعف بجهادها.**

٢- **اهتمامه بالمجال الروحي والتربوي والتعليمي**: إن التوجيه الروحي يسير جنبًا إلىٰ جنب مع التربية والتعليم، لدىٰ الفاتح ﷺ، فاهتم بالمساجد الكبيرة[٣] في المدن الكبيرة، والآف المساجد في القرىٰ والمدن الصغيرة، وإلىٰ جوانب المسجد مدارس ملحقة به، وأقسام داخلية، وأوقاف واسعة تمدها بالرصيد المالي الذي لا ينقطع، وكانت أوقاف المطاعم الخيرية للأكل المجاني اليومي لـ ٢٠٠٠٠ شخص يوميًا مجانًا في إستنبول وحدها، وفي غيرها الكثير، وبلغت ميزانية جامع السليمانية سنة ١٥٨٦م، ما يعادل عشرة ملايين دولار أمريكي اليوم، وكان مثل هذا في كل الولايات وكانت الدولة تضمن للمعوزين قوتهم[٤].

٣- **اهتمامه بالأدب والترجمة**: وقد اصطفىٰ الأدباء الأتقياء، وكان في بلاطه ثلاثون شاعراً، راتب كل منهم ألف درهم شهريًا، وكان يعاقب الشعراء المبتذلين والماجنين بالطرد من بلاطه، وبالسجن[٥].

وكان ﷺ إلىٰ جوار إتقانه التركية والعربية والفارسية، كان يتقن اللغة الرومية، وأمر بترجمة الآثار المكتوبة باليونانية واللاتينية والعربية والتركية، وترجمة أمهات الكتب في جميع المجالات العلمية، ومنها كتاب (التصريف) في الطب للزهراوي الأندلسي، مع صور

---

(١) المصدر السابق/ ٥٩١-٦٩١، و(الدولة العثمانية دولة إسلامية)/ ص١٥٤، ٦٥٤/

(٢) سورة الشورىٰ/ ١٠

(٣) الجامع في النظام العثماني معماريًا وإداريًا وحدة دينية وعلمية متكاملة فيها الجامع والمدرسة والمدارس الأقل من المدرسة والجامعة، والمكتبة ومدينة الطلاب والمطعم الخاص بهم والمطعم الخيري العام، والحمامن ومدرسة الطب والمستشفىٰ، المصدر السابق/ ص١٩٣- الهامش

(٤) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٩٤، عن (العثمانيون في التاريخ والحضارة)/ ص٤٢٢

(٥) المصدر السابق/ ص١٧٣، عن (محمد الفاتح) ص٣٩٣

الآلات الجراحية وأوضاع المرضىٰ أثناء العمليات الجراحية، كما ترجم كتاب (بطليموس) في الجغرافيا وخريطة له إلىٰ العربية[١].

وكان عنده في مكتبة قصره (١٢٠٠٠) مجلد، احترقت في حياته عام ١٤٦٥م، وصنفت بأنها كانت نقطة تحول في العلم بين الشرق والغرب[٢].

٤- **اهتمامه بالتنظيم الإداري**: سنّ قوانين الدولة من الكتاب والسنة باسم (قانون نامة)، استجابة منه لهدىٰ ربه، ومنهاجه للمسلمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾[٣]، ونظم علاقة المواطنين مع بعضهم - المسلمين مع بعضهم، ومع غير المسلمين، ومع الدولة، وأشاع العدل والأمن، ولاحق اللصوص، وأقام عليهم القصاص.

قسّم الدولة إلىٰ ولايات كبرىٰ، يحكمها (أمير الأمراء)، يلقب (بكلربيك)، وصغرىٰ يحكمها (أمير اللواء)، ويعرف بـ(سنجق بيك)، وكلاهما يقوم بأعمال مدنية وعسكرية في آن واحد، وفي الحروب عليهم أن يجهزوا الجيوش بنظام خاص، ويكونوا هم في مقدمة الجيش المجاهد، ويشتركوا في الحرب[٤].

وسنّ قواعد صارمة في صيانة الأموال، وتحديد موارد الدولة، وطرق الصرف بما يمنع الاسراف والترف، وقضىٰ علىٰ الفساد المالي والإداري[٥].

وكان السلاطين يلقبون أنفسهم باسماء في خدمة الوطن: (سلطان الغزاة، المجاهد، خادم الحرمين، خليفة المسلمين).

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٧٣-١٧٤، عن (محمد الفاتح)/ ص٣٩٦

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٧٥، عن (محمد الفاتح)/ ص٣٩٦

(٣) سورة الأنفال/ ٢٤

(٤) المصدر السابق/ ص١٧٧، عن (السلطان محمد الفاتح)/ ١٥٥

(٥) المصدر السابق/ ص١٧٧

وطهّر الجهاز الإداري من غير الأكفاء، واشترط الكفاءة وحبّ الشعب للإداريين، بما أسفر عن الأمن والاستقرار والتطور السريع والانسجام بين الدولة والشعب، وأجرىٰ علىٰ اللصوص وقطاع الطرق أحكام الإسلام، فاستتب الأمن في ربوع الدولة(١).

٥- **اهتمامه بالجيش والبحرية**: استمرت فتوحاته في أوربا وآسيا إذ أتمّ فتح اليونان وفتح ألبانيا والبوسنة والهرسك، وقضىٰ علىٰ امبراطورية طرابزون - الرومانية، أضافة إلىٰ أحدىٰ عشرة إمارة أخرىٰ، كما افتتح مئتي مدينة، اضافة إلىٰ رومانيا والقرم وسواحل بحر آزوف، ومقاطعة استراخان شمال القوقاز، وبلغت مساحة الدولة العثمانية عند وفاته (٢٠٠٠٠٠٠ كم٢)(٢).

وكان اهتمامه بالقوة العسكرية بالغـًا الذروة، إذ هي تحمي الدولة من أعدائها، وتوسع رقعة ديار الإسلام، وتحقق النصر(٣).

جعل لكل فرقة (آغا) يقودها، وجعل لقيادة الانكشارية حقّ التقدم علىٰ بقية القواد وكان لهم الفضل الأكبر في فتح القسطنطينية، وأغلبهم من أهل البلاد المفتوحة - النصارىٰ الذين أسلموا حبّـًا بالإسلام وبأهله، ويتلقىٰ الجيش أوامره من الصدر الأعظم، الذي بيده القيادة العليا للجيش(٤).

كان اهتمامه منصبـًا علىٰ القوة العَددية والعُددية، وأنشأ دور الصناعة العسكرية التي تجهز الجيش بالملابس والدروع والسروج والعتاد والذخيرة والأسلحة المتنوعة المتطورة، التي يجلبها من البلاد الأوروبية، ويصنعها ويطورها.

كما اهتم بأنواع التشكيلات العسكرية من فرسان ومشاة ومدفعية، وفرق مساندة تمد

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٧٧

(٢) السلطان عبد الحميد الثاني/ أورخان/ ٤، والبوم العثمانيين/ ٤٥، وفيه ان مساحة امبراطوريته بلغت (٢,٢١٤,٠٠٠كم٢).

(٣) المصدر السابق/ ١٧٨، عن (محمد الفاتح)/ ص١٦٢

(٤) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٧٨، عن (السلطان محمد الفاتح)/ ١٦٢

القوات المحاربة بالوقود والغذاء والماء وعلف الحيوانات وصناديق الذخيرة، إضافة إلىٰ (لُغمجية)[١]، في حفر الأنفاق ووزرع الألغام، أثناء محاصرة القلاع.

لقد طوّر الجامعة العسكرية، حتىٰ أصبحت تخرّج المهندسين والأطباء والبيطريين وعلماء الطبيعيات والمساحين، والقادة العسكريين[٢]. وأنشأ كذلك القلاع والحصون في مواضعها الاستراتيجية. واستعان بالمهندسين الغربيين في تطوير المدافع الثقيلة، و(المدفع السلطاني) الذي يزن (٧٠-١٠٠) من الأطنان.

وكان (الفاتح) يُعرَف (بأبي الفتح) و(أبي الخيرات)[٣]، إذ قضىٰ علىٰ امبراطوريتين، وفتح سبع ممالك، واستولىٰ علىٰ مئتي مدينة[٤]،

أما الأسطول الحربي، فقد أنشأ أقوىٰ أسطول في البحر الأسود والمتوسط، وأفاد من خبرة الأساطيل الإيطالية المتطورة في البندقية وجنوة، أكبر الموانئ البحرية آنئذ، واعتبره المؤرخون مؤسس الأسطول البحري العثماني[٥]، حماية للدولة وتمهيداً لانقاذ الأندلس .

كما ابتدع خطّة فذة لم يسبق اليها في عمر التاريخ ولم تحصل في مستقبل الأيام، في نقل أسطول بحري من (سبعين سفينة حربية) عبر البرّ، لإحكام الحصار علىٰ القسطنطينية، ونقلها جميعها في ليلة واحدة بإشرافه وإسهامه المباشر[٦].

٦- اهتمامه بالتجارة والصناعة: إذ كان مقتفياً آثار آبائه وأجداده، وكانوا علىٰ دراية واسعة بالأسواق العالمية، والطرق البحرية والبرية، فقد جرىٰ تطوير الطرق القديمة، وعمّ الرخاء

(١) اللغمجية هم الذين يزرعون الالغام في أرض العدو

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٧٨، عن (السلطان محمد الفاتح)/ ١٦٢

(٣) المصدر السابق/ ص١١١

(٤) ألبوم العثمانيين/ ٤٦، و(الدولة العثمانية)، الصلابي/ ص١٧٣، عن (العثمانيون في التاريخ والحضارة)/ ص٢٤٧

(٥) المصدر السابق/ ١١٦-١١٨ باختصار، وص١٧٩

(٦) المصدر السابق/ ١٢٤-١٢٥، عن (محمد الفاتح)، عبد السلام فهمي/ ص١٠٠، و(الفتوح الإسلامية)، عبد الصبور/ ص٣٧٠

والرفاه في أرجاء الدولة، وصارت العملة الليرة الذهبية هي عملة الدولة، وأنشأ العديد من المصانع الخاصة بالجندية الحربية منها، ومصانع الأدوية(١).

٧- **اهتمامه بالعمران والبناء ودور الشفاء:** كان ﵁ مغرماً ببناء المساجد والمعاهد والقصور والمستشفيات والخانات والحمامات والأسواق الكبيرة، والحدائق العامة، واهتم بهندسة المدن، لتكون المنشآت متناسقة، ملبية للحاجة، أدخل المياه إلىٰ إستنبول بواسطة قناطر خاصة، وشجع الوزراء والأغنياء والأعيان علىٰ تشييد المباني والدكاكين والحمامات، وجعل من إستنبول أجمل عواصم الدنيا، وحاضرة العلوم والفنون، واهتم بالمستشفيات (دور الشفاء)، التي أصبحت علىٰ غاية من النظام الدقيق، كما وضع الأطباء مناهج متطورة لكليات الطب، تعدهم إعداداً دقيقاً لاختصاصهم، كما عُني بعيادة المرضىٰ في المستشفيات، يعودهم أهلوهم مرتين يومياً(٢).

واهتم بالصيدلة والصيادلة، كاهتمامه بالطب والاطباء، كما اهتم بالأدوية النباتية وغيرها، وعُني بالمستشفيات - مرضاهم وأدويتهم، وعلاجهم وأطعمهم.

وكان العلاج والدواء في جميع مستشفيات الدولة مجاناً لجميع المواطنين علىٰ السواء، بمختلف أديانهم وقومياتهم ولغاتهم ومستوياتهم المعيشية(٣).

كذلك عُني ببناء القصور، ومن أشهرها وأكبرها (قصر طوب قابي سراي)، وكانت منه تنطلق جيوش المسلمين إلىٰ جميع أنحاء الدنيا، وكانت رايات الجيوش الإسلامية تنطلق منه، وفيه صدر قرار إرسال الأسطول الإسلامي للحيلولة دون وقوع اندونيسيا والفلبين بين براثن الاستعمار الهولندي .

وكذا من هذا القصر كانت تصدر قرارات إرسال الجيوش والاساطيل الإسلامية لحماية شمال افريقيا من الغزاة الطامعين، بين جدرانه لواء الرسول (صلىٰ الله عليه وسلم)، وبردته

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٧٥-١٧٦

(٢) المصدر السابق/ ١٧٥ بإيجاز

(٣) المصدر السابق/ ١٧٥

المباركة وسيوفه وكثيراً من آثاره الشريفة[١].

٢٨



قصر طوب قابي

بدأ العمل بإنشاء قصر طوب قابي سنة ١٤٦٥م في عهد السلطان محمد الفاتح وانتهىٰ إنشاؤه سنة ١٤٧٨م،

يدعىٰ قديمـاً «سراي جديدة عامرة» ولكن الناس كانوا يطلقون عليه «طوب قابي سراي» لأنه كانت أمامه مدافع، ثم سمي أخيراً بـ»طوب قابي سراي» . إن جميع السلاطين تقريبـاً اضافوا شيئـاً إلىٰ هذا القصر، وأن أكبر علاوة قام بها السلطان سليمان القانوني .

وقصر طوب قابي محاط بسور طوله خمسة كيلومترات، وكان الباب الأول الذي يدخل عن طريقة القصر يدعىٰ «باب همايون»، والثاني «باب السلام» والثالث «باب السعادة»، وكان

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٩٠

الناس يدخلون من الباب الأول بسهولة ويتجولون في الصحن الأول دون تقصير في الاحترام، وكان الدخول من الباب الثاني متوقفاً علىٰ الإذن.

إن هذا القصر العظيم الأثري المستخدم اليوم متحفاً، أنشئ علىٰ ٧٠٠ دونم من الأرض، وعاش فيه في الفترات الأكثر ازدحاماً ٤٠,٠٠٠ شخص.

٢٩



مسجد محمد الفاتح من الداخل

المطلب الثاني

فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م / ٨٥٧هـ[١]

يقول المصطفىٰ ﷺ : (لتفتحنّ القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش)[٢]. تولي السلطان محمد الفاتح الحكم وعمره (١٩) سنة، وأول عمل قام به

(١) الدولة العثمانية – الصلابي – ص١١٢-١٦٥ بايجاز شديد، والمسك الفائح من مسيرة محمد الفاتح/ الصلابي – ص٨٢-١٣٤ باختصار شديد.

(٢) سبق تخريجه

هو الاستعداد لفتحها، فيحقق به بشارة المصطفىٰ ﷺ بعد ٨٦٠ سنة !

وحين تم له فتحها كان عمره ٢٢ سنة وذلك عام ١٤٥٣م = ٨٥٧هـ، وكان قد تولىٰ الحكم عام ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م .

اولاً: أسباب الفتح[1]

تصب هذه الأسباب جميعها في المجال الإسلامي المحض ، من بشارة الرسول ﷺ ، ووعده بالفتح، ورسالة الجهاد للدولة المسلمة، وزيادة قوتها واتساعها، وإزاحة العقبات التي تعترض الإسلام في انتشاره لهداية البشرية، وانقاذ المستضعفين في الأرض.

١- **بشارة الرسول القائد محمد** ﷺ، ووعده المعجز بفتحها، بما حدا بالقادة إلىٰ التسابق في فتحها، لينالوا هم وجيوشهم شرف الفتح وثناء النبي الهادي ﷺ ، وسارع الفاتح وجيشه إلىٰ تنفيذ وصاياه حين الفتح بهداية أهلها إلىٰ نور الله، وبالرفق بهم في حالتي إسلامهم أو بقائهم علىٰ دينهم، والتعامل معهم بالحسنىٰ، ومساواتهم بالحقوق والواجبات مع إخوانهم المسلمين، وإنقاذهم من طغيان حكامهم واستبدادهم بهم، ومن ظلمات الشرك والكفر والخرافة[2] إلىٰ نور الإسلام .

٢- **كانت القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية** قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون، وكانت جيوشها تهدد الإسلام والمسلمين، منذ عهد النبي ﷺ ، لذا كانت غزوة مؤته، ثم غزوة تبوك، ثم إنفاذ جيش أسامة الذي أوصىٰ به النبي القائد قبل موته ﷺ ، ثم إن هذه الإمبراطورية حرضت المرتدين وزودتهم بالمال والسلاح، ثم إنها كانت عقبة كأداء تعيق الفتوحات الإسلامية في تحريرها للأنضول ولأوربا، وتثير الدول الأوروبية ضد العثمانيين، طوال بقائها عاصمة للامبراطورية البيزنطية لذا فإن محاولة الاستيلاء عليها كانت ضرورة

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٥٥-١٦١ بإيجاز

(٢) ومن واقع الخرافة والمتاهة في واقعهم المظلم، في جدالهم الفلسفي السفسطائي – الدجاجة من البيضة أم البيضة من الدجاجة، وكم من الجان والشياطين يتراقصون علىٰ رأس الدبوس! وهذا الجدل وسط دوي المدافع العثمانية وهي تدك أسوارها وحصونها!

لابد منها، لحماية المسلمين من الاعتداء، وتيسير حملات التحرير لأوربا.

٣- **نشر الإسلام، وتوسيع رقعة الوطن الإسلامي**: وهي رسالة كل مسلم، لاسيما الجيش، وكل مسلم جندي مجاهد وداعية، مهيأ لنشر الإسلام وحمايته والذود عنه، ليعزّه باللسان والقلم، والعلم والسلاح، والروح والدم: (وكذلك جعلناكم أمة وَسَطا، لتكونوا شهداء علىٰ الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا)[١]، فنشهد يوم القيامة علىٰ تبليغ الإسلام للناس، ويشهد علينا الرسول ﷺ أن قد بلغنا الأمانة التي نحيا ونموت بها: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[٢].

٤- **القسطنطينية هي العقبة الكؤود في طريق الجيوش الإسلامية المجاهدة في أوربا**[٣]، وهي تستنفد بقاء فرق عسكرية كاملة حولها، حين الفتوحات في أوربا، وفي ذلك إضعاف للجيش الإسلامي، إضافة إلىٰ هيمنتها علىٰ مضيق البسفور، الذي يربط البحر الأسود ببحر مرمرة، ثم البحر المتوسط، بما يمنع الصلة بينهما في المجال التجاري والسياحي والحربي. وإنّ مجرّد فتحها يمهد دعائيا لقوة الإسلام، لاسيما أنها مشهورة في العالم بأنها أقوىٰ مدينة محصنة بأسوارها العالية وأبراجها وحصونها المنيعة، إضافة إلىٰ كونها أجمل مدن العالم، وكونها عاصمة الإمبراطورية البيزنطية اكثر من (١١٥٠ سنة).

٥- **انقسام الدول الأوربية التي أنهكتها آنئذ حرب المئة عام بين إنكلترا وفرنسا**، إضافة إلىٰ مشاغل إنكلترا الداخلية، وإسبانيا والبرتغال، كانتا مشغولتين في القضاء علىٰ من تبقىٰ من المسلمين في الأندلس، والاستعداد للقضاء علىٰ مملكة غرناطة وكانت الجمهوريات الإيطالية علىٰ صلات تجارية طيبة مع الدولة العثمانية، وكانت هي والبندقية وبلاد البلقان في حلف مؤقت مع الدولة العثمانية، فعزلت المجر والنمسا والبابا معهم، غير أن البابا توفىٰ وخسرت المجر الحرب مع العثمانيين، هذا إضافة إلىٰ الصراع الذي كان بين الكنيستين

---

(١) سورة البقرة/ ١٤٣

(٢) سورة الأنعام/ ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٣) المسك الفاتح من سيرة محمد الفاتح، الصلابي/ ص٨٢ بإيجاز

الشرقية واللاتينية، وكان كل منهما تكفرّ الأخرىٰ.

ادعاء النصارىٰ أن أسباب الفتح ثلاثة :

تتلخص في ثلاثة دوافع :

تعطش المسلمين إلى تسليم العدو المدينة.

طمعهم بكنوز المدينة.

حقد الإسلام والمسلمين على النصرانية والنصارى.

إن هذه الأسباب المفتراه مرفوضة إسلامـًا وتاريخـًا ومنطقـًا.

أما السبب الأول المفترىٰ، فمرفوض، بسبب أن الفاتح دعاهم إلىٰ تسليم المدينة من غير حرب، ومن غير أذىٰ يلحق بهم، وأقسم لهم بذلك، غير أنهم رفضوا ذلك، ثم إنه لم يقتل نصرانيـًا واحداً من أهلها، ولم يسفك قطرة دم، ولم يثلم عرضـًا، ولم يرفع سيفـًا علىٰ نصراني أن يسلم أو يقتل، بل كانوا يخرجون من الكنائس زرافات ووحدانا، ومن بيوتهم، فيعلنون إسلامهم، في أول يوم من الفتح، لاسيما رجال الدين، وقدم الفاتح موائد الطعام لهم في الأيام الأولىٰ، وأفاض في إكرامهم، ولم يهنهم، بل إن شعار المسلم في تعامله مع جميع البشر قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[١]، وسلوكهم الرحمة في السلم والحرب: (الراحمون يرحمهم الرحمن، إرحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء)[٢].

أما السبب الثاني المفترىٰ، فمرفوض كذلك، ومع أن كل فاتح في ذلك التاريخ كان يأخذ الغنائم في الحروب - مهما كان دينه، نظامـًا قائمـًا بينهم، غير أن غنائم القسطنطينية وزعت علىٰ أهلها، كما أمر الفاتح، بما أوصاه به معلمه الشيخ آق شمس الدين ولم ينهب بيتـًا ولا متجراً ولا مخزنـًا، وإنما حماهم المسلمون، كما حموا

(١) سورة الاسراء/ ٧٠

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ، رقم / ١٩٢٤ ، حسن صحيح.

أنفسهم سواءً بسواء، عملاً بوصية الفاروق ﵁ حين تسلمه إيلياء - القدس .

أما الجزية التي فرضها الفاتح عليهم، فإن المرأة والطفل والمريض والشيخ ورجل الدين والأسير، لا تؤخذ منهم، وإنما تؤخذ من الشباب القادر علىٰ حمل السلاح، وإن أخذ الجزية من غير المسلمين إجماع من المسلمين كافة[١]، فإن انخرط في الخدمة العسكرية، سقطت عنه، فهي (بدل خدمة عسكرية)ليس غير.

شواهده كثيرة علىٰ ذلك ، منها :

١- طلب شهربراز من سراقة بن عمرو القائد المسلم أن يضع عنه وعمن معه الجزية، علىٰ أن يقوموا بما يريده منهم ضد عدوهم، فقبل سراقة، وقال له: (قد قبلنا ذلك ممن كان معك علىٰ هذا مادام عليه،..)، وكتب سراقة إلىٰ عمر بن الخطاب ﵁ بذلك، فأجازه وحسّنه[٢].

٢- كتب سراقة لأهل إرمينية: (أن ينفروا كل غارة، وينفروا لكل أمرٍ ناب أو لم ينب رآه الوالي صلاحًا، علىٰ أن توضع الجزية عمن أجاب إلىٰ ذلك)[٣].

٣- كذلك فإن عجزت الدولة الإسلامية عن حماية الذميين، فإنها تردّ الجزية إليهم، ولهذا فإن أبا عبيدة الجراح ﵁ ردّ الجزية إلىٰ الذميين في بعض مدن الشام، عندما عجز الجيش الإسلامي عن حمايتهم[٤].

---

(١) أصول الدعوة، د. عبد الكريم زيدان/ ص٢٦٣، عن (المغني)/ ج٨/ ص٤٩٦، و(الجصاص)/ ٣/ ص٩٢-٩٣، و(إختلاف الفقهاء)، الطبري/ ص١٩٩

(٢) أحكام الذميين والمستأمنين، د. عبد الكريم زيدان/ ص١٢٠-١٥٨

(٣) المصدر السابق، عن (تاريخ الطبري)/ ج٥/ ص٢٥٧

(٤) الخراج لأبي يوسف/ ص١٣٩

٤- وفي صلح خالد بن الوليد ﷺ مع صلوبا بن نسطونا صاحب قس الناطف في منطقة الحيرة:

(فإن منعناكم فإنها الجزية، وإلا فلا حتىٰ نمنعكم)[١].

ومراتب الجزية ثلاث هي كما يأتي :

الغني يدفع عادة جزيته ثلاثة دنانير سنويـًا، ومتوسط الحال دينارين، وضعيف الحال ديناراً واحداً[٢]، وهي قابلة للزيادة والنقصان بقدر اجتهاد العلماء في أزمانهم، وإذا قيست الجزية بالزكاة التي يدفعها المسلم سنويـًا، ويعفىٰ منها الذميّ، تكاد لا تساوي شيئًا إزاءها، فلو ملك اثنان مسلم وذمي (يهودي أو نصراني أو مجوسي، أو صابئي) كل واحد مليون دينار، فإن المسلم يدفع الزكاة ٢٥٠٠٠ دينار سنويـًا، ويدفع الذمي (٣) ثلاثة دنانير جزية فقط[٣].

أما السبب الثالث المفترىٰ في حقد الإسلام علىٰ النصرانية ، فالإسلام أكرم الأديان السماوية منزلة، وهو يحترم الأنبياء جميعـًا، لاسيما السيد المسيح عليه السلام، وهو (روح الله في القرآن)، وله سيرته العطرة فيه، وأمه سيدة نساء العالمين:﴿ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[٤]، وأقرّ محمد ﷺ بدين عيسىٰ غير المحرّف: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾[٥].

وأوصىٰ الإسلام بالذميين، ومنهم النصارىٰ الذين يعيشون في ذمة الدولة المسلمة، أن نبرّهم ونعدل معهم: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم

(١) أحكام الذميين والمستأمنين، د. عبد الكريم زيدان/ عن (تاريخ الطبري)/ ج٤/ ص١٦

(٢) (علىٰ كل حالم دينار أو قيمته، ولا يفتن يهودي عن يهوديته)، رواه الإمام عبد الرازق

(٣) نظم الحياة في الإسلام، المؤلف/ ص٢٩٠، عن (سنن البيهقي الكبرىٰ)/ ج٩/ ص١٩٣، رقمه ٨٤٥٠

(٤) سورة آل عمران/ ٤٢

(٥) سورة البقرة/ ١٣٦

مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾[١]، ويحذّر المصطفىٰ ﷺ من قتلهم، بل من ايذائهم: (من آذىٰ ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه، خصمته يوم القيامة)[٢]، كما يوصي بالتعامل معهم إخوة في الإنسانية إمتثالاً لهدي المصطفىٰ ﷺ: (وأنا شهيد أن العباد كلهم إخوة)[٣]، (أحبّ للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً)[٤].

هذا بالإضافة إلىٰ ان سلوك المسلمين الفاتحين مع أهل المدينة كان منطبقاً علىٰ وصايا الإسلام بهم، إذ لم يلحقهم أي ضرر، لا بهم ولا بأهليهم ولا بأموالهم، ولا بأملاكهم، ولا بأعراضهم ولا بحريتهم كمواطنين، بل أعاد الجيش غنائمه عليهم، وحرّر السلطان عدداً كبيراً من أسراهم بماله الخاص، وخاصة أمراء اليونان ورجال الدين، وأقام الموائد وأكل معهم وطمأنهم علىٰ ممارسة مناسك عبادتهم وأطلق لهم الحرية في تكلم أية لغة يريدونها[٥].

مدينة القسطنطينية ومحاولات فتحها :

١- **تاريخها**: كانت عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، لأكثر من ١١٥٠ سنة، أسسها الإمبراطور قسطنطين عام ٣٣٠م، وكانت أجمل مدن العالم وأهمها سياسياً ودينياً وتجارياً وعسكرياً، محصنة تحصيناً لا تدانيه أية مدينة في العالم، فيها كنيسة أيا صوفيا، أقدس كنيسة في العالم وأجملها[٦]، وهي مركز النصارىٰ الأرثودكس، عدوّة النصارىٰ الكاثوليك في روما

(١) سورة الممتحنة/ ٨

(٢) تاريخ بغداد، وأخرجه أبو داود بمعناه، وفي الحديث الآخر: (من قتل معاهداً في عهده، لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمس مئة عام) أخرجه ابن حبان، في باب وصف الجنة وأهلها، والحاكم في مستدركه، ومسند الإمام أحمد ..

(٣) المستدرك علىٰ الصحيحين، ج٢/ ص١٧، رقم/ ٢٤١، وسنن أبي داود، ج٤/ ص٣٣٢

(٤) مسند أحمد بن حنبل، ج٢/ ص٣١٠، ونصه: (إتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنىٰ الناس، وأحسن إلىٰ جارك تكن مؤمنا، وأحبّ للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر الضحك، فان كثرة الضحك تميت القلب).

(٥) المسك الفاتح من سيرة محمد الفاتح، الصلابي/ ص٨٢، ٨٨

(٦) المصدر السابق/ ص١٣٢، عن (محمد الفاتح)/ ص١٢٦

برئاسة البابا، وكان أهلها بل بعض زعمائها يقولون: عمامة التركي، ولا قبعة الكاثوليكي![١]

وتقع علىٰ جانبي مضيق البسفور وبحر مرمرة والقرن الذهبي الذي تحميه سلسلة حديدية ضخمة جداً، تحول دون وصول السفن الحربية إليها، إضافة إلىٰ إحاطتها بسورين ضخمين، بارتفاع ٤٠ قدم للداخلي، و٢٥ قدم للخارجي، تعلوها أبراج بالمئات، بارتفاع ٦٠ قدماً حتىٰ (١٠٠ مئة قدم)، مليئة بالجند، إضافة إلىٰ عشرات القلاع المنيعة والتحصينات الصعبة الاختراق. وكان لها أسطولها البحري التجاري والحربي، وصلاتها بالبحر الأسود والمتوسط واسعة[٢].

دافع عنها الإمبراطور (قسطنطين) دفاع المستميت بغاية من الشجاعة، حتىٰ قتل فيها[٣]، أما أهميتها بعد الفتح، فكانت عاصمة الخلافة الإسلامية - العثمانية لمدة خمسة قرون تقريباً، وغيّر اسمها الفاتح إلىٰ (إسلام بول)، أي (عاصمة الإسلام)، وكانت منار العلوم، ومقصد العالم الإسلامي من أعماق الصين والهند وسيبيريا وروسيا والقفقاس وأوربا والشمال الأفريقي والجزيرة العربية والشرق الأدنىٰ والأوسط والأقصىٰ، وكانت ملجأ العالم الإسلامي في الدفاع عنه وحمايته من الفتن الداخلية، لاسيما الصفويين والفرق الباطنية الأخرىٰ والمماليك،.. ومن مؤامرات الدول الأوروبية عليهم، وكانت المنابر تدعو للخليفة في إستنبول من بيكين في شرق الصين والهند وحتىٰ المحيط الأطلسي في جميع انحاء العالم الإسلامي.

٢- **محاولات فتحها**: بشر بفتحها المصطفىٰ (صلىٰ الله عليه وسلم)، في وقعة الخندق،قبل ٨٦٠ سنة من الفتح، (لتفتحن القسطنطينية، ولنعم الأمير اميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش)[٤]، ولمناعة حصونها لم تفتح خلال (١٠ عشر حملات سابقة)، إلا في الحادية عشرة.

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١١٩، نقلًا عن (محمد الفاتح) للرشيدي/ ص٨٩، ونصّ قول أحد زعمائهم: (إنني أفضل أن أشاهد في ديار البيزنط عمائم الترك علىٰ أن أشاهد القبعة اللاتينية)

(٢) المصدر السابق/ ص١١٩، عن (سلاطين آل عثمان)/ ص٢، و(محمد الفاتح)/ ص٩٦

(٣) المصدر السابق/ ص١٣٨-١٣٩، عن (محمد الفاتح)/ ص١٣٩

(٤) سبق تخريجه.

١– المحاولات الأولىٰ أيام الدولة الأموية[١]:

أ – زمن معاوية ﷺ ، مرتين: لقد كانت محاولة الفتح الأولىٰ زمن معاوية ﷺ سنة ٤٩هـ = ٦٦٩م، وشارك فيها عدد كبير من الصحابة، منهم عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما)والحسن والحسين (رضي الله عنهما)، وولده يزيد بن معاوية، استشهد فيها الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري عن عمر قد ناهز الثمانين، في قتال ضار ضدّ الروم، ومازال قبره في إستنبول، إذ اكتشف زمن الفاتح(٢).

وعادت الحملة مرة أخرىٰ في خلافة معاوية عام ٥٤–٦٠هـ = ٦٦٩–٦٧٣م، ولم تحقق النصر، وكانت النار الإغريقية التي قذفوها علىٰ الأسطول الإسلامي، قد أحرقت الكثير من السفن، واستشهد الكثيرون من الصحابة المجاهدين.

ثم كان الاستيلاء علىٰ جزيرة كريت - أرواد - عام ٥٤هـ / ٦٧٤م لنفس الغرض، وتم الاستيلاء علىٰ جزر أخرىٰ جنوب تركيا، وغربها لهذا الغرض، كل ذلك بإصرار من معاوية لفتحها، لتكون هذه الجزر محطات للإسطول الإسلامي، حين الغزو القادم إليها[٣].

ب– **زمن سليمان بن عبد الملك،** عام ٩٨هـ / ٧١٧م بجيش جرار من ١٠٠٠٠٠ مجاهد، و ١,٨٠٠ سفينة حربية، بقيادة مسلمة أخي سليمان. غير ان المحاولة لن تحقق شيئًا، ثم جرت محاولات أخرىٰ بعدها خلال العصر الأموي، لم توفق[٤].

٢– المحاولات الثانية أيام الدولة العباسية: وكانت عدة محاولات مكثفة، ولم تصل إلىٰ

---

(١) المسلك الفاتح من سيرة الإمام الفاتح، الصلابي/ ص٨٢–٨٤ بإيجاز

(٢) وقد زرته قبل أربعين سنة، فوجدت في مسجده من الخشوع ما لم أجده إلا في الحرمين الشريفين، كما زرته عدة مرات بعدها

(٣) المصدر السابق/ ص١١٢، عن (أوروبا في العصور الوسطىٰ)، سعيد عاشور/ ص٢٩، و(المجتمع المدني – الجهاد ضد المشركين)، د. اكرم ضياء العمري/ ص١١٥

(٤) المصدر السابق/ ص١١٣، عن (ابن خلدون العبر)/ ٣/ ٧٠، و(تاريخ ابن طياط)/ ص ٣١٥

القسطنطينية رغم أنه كان لها أثرها الواضح في ارهابها ايام هرون الرشيد سنة ١٩٠هـ(١).

٣- المحاولات الثلاث أيام الدولة العثمانية:

أ- **حاصرها بايزيد (الصاعقة)**، السلطان الرابع عام ٨٠٣هـ = ١٤٠٠م قبل ٦٣٠ سنة، لمدة سبعة أشهر، مرتين، وبدأت المفاوضات لتسلمها سلمًا، غير أن هجوم تيمورلنك بجيشه العرمرم الذي اكتسح به العالم الإسلامي بـ ٨٠٠٠٠٠ جندي، هزم بايزيد، ومعه ١٢٠,٠٠٠ جندي في معركة (إنقرة) الشهيرة، وأسره، ومات في الأسر عام ٨٠٥هـ = ١٤٠٢م(٢).

ب- **حاصرها السلطان مراد الثاني**، ولم يوفق رغم محاولات عديدة جادة قام لفتحها، في الفترة (٨٢٤-٨٦٣هـ/ ١٤٢١-١٤٥١م)(٣).

ت- **حاصرها محمد الفاتح** رضي الله عنه، وفتحها بعد استعداد لفتحها سنتين وعلىٰ علم بالمحاولات السابقة، وصدقت به وبجنده نبوءة محمد ﷺ وبشارته، **استمرت معركة الفتح (٥٤) يومـًا متواصلاً من دون توقف، وكان فتحها عام (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م).**

كان السلطان بايزيد الأول قد أنشأ علىٰ ضفة البسفور الآسيوية، في أثناء حصاره القسطنطينية حصنـًا تجاه أسوارها، عُرف باسم (قلعة الأناظول)، وكانت تقوم علىٰ أضيق نقطة من مضيق البسفور، وصل ارتفاعها إلىٰ (٨٢ متراً) .

وعزم الفاتح علىٰ أن يبني قلعة أخرىٰ علىٰ الجانب الأوروبي من البسفور مواجهة

(١) الدولة العثمانية، الصلابي، عن (خليفة بن خياط، تاريخه)/ ص٤٥٨، و(تاريخ الطبري)/ ١٠/ ٦٩، و(ابن الاثير في الكامل)/ ٦/ ١٨٥-١٨٦

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي، ص٩٢، عن (الدولة العثمانية في تاريخ الإسلام الحديث)/ ص٢-٣، و(محمد الفاتح)، د. سالم الرشيدي/ ص٣٥، والمصدر السابق/ ص١١٤، عن (الفتوحات الإسلامية عبر العصور)، د. عبد العزيز العمري/ ٣٥٨

(٣) المصدر السابق/ ١١٤، عن (الفتوح الإسلامية عبر العصور)، د. عبد العزيز العمري/ ص٣٥٨

لأسوار القسطنطينية، وهيأ لها العمال ومواد البناء، وكان يشترك مع العمال هو ورجال دولته في أعمال البناء، حتىٰ شمخ البناء، والإمبراطور قسطنطين ينظر ولا يقدر علىٰ عمل شيء!.

اكتمل بناء القلعة (روململي حصار) خلال ٣ أشهر، كمثلث سميك الجدران، في كل زاوية منها برج ضخم مغطىً بالرصاص، وأمر السلطان أن ينصب علىٰ الشاطئ مجانيق ومدافع ضخمة، توجّه تجاه الشاطئ، لمنع السفن الرومية التي تحاول نجدة القسطنطينية، وكان ارتفاع القلعة ٨٢قدمـًا، وكان موقعها مقابل قلعة بايزيد في الجانب الآسيوي وبينهما ٦٦٠م[١].

٣٠



قلعة روململي حصار (قلعة الروم) التي بناها السلطان محمد الفاتح

ثالثـًا: إعلان الحرب علىٰ الدولة البيزنطية

بدأ العدو بالتحرش في ضرب القلعة، فأعلن السلطان الحرب رسميـًا علىٰ الدولة البيزنطية.

وأعلن الإمبراطور أن سيدافع عن المدينة لآخر قطرة من دمه، واعتقل جميع العثمانيين

(١) الدولة العثمانية، الصلابي، ١١٧، عن المصدرين السابقين .

داخلها، وأغلق أبوابها، وقام بإصلاح أسوارها، وجمع الغلال لسكانها، ووصلتها بعض الامدادات بحراً، وأغلق البحر المقابل للقسطنطينية بسلسلة بالقرن الذهبي منه.

وكان فتح القسطنطينية بعد سقوط الدولة العباسية علىٰ يد هولاكو (٦٥٦هـ) بـ(٢٠٠) سنة، وبعد وقعة (عين جالوت ٦٥٨هـ)، وبعد وقعة حطين وتحرير القدس سنة (٥٨٣هـ)[١]. بـ(٢٧٠).

وبث الفاتح في جيشه العلماء، وكان كل جندي عثماني داعية إلىٰ الإسلام،

١ - الاستعداد للفتح والإبداع في تطوير آليات الحرب[٢]:

بدأ استعداد الفاتح في الشهر الأول من توليه الحكم بعمر (١٩) سنة، بما يلي:

- عُني بالجيش، وبث العلماء فيه، يستحثهم علىٰ الجهاد، ويشوّقهم إليه، مع التدريبات العسكرية المكثفة علىٰ السلاح الحديث، وبخبرات متطورة، وبلغ عدد جيشه (٢٦٥٠٠٠) جندي، كل واحد منهم مجاهد وداعية، وبثّ فيهم العلماء والفقهاء والخطباء، منهم ربع مليون عثماني و ١٥أ٠٠٠ إنكشاري، الذين كان لهم الفضل الأكبر في اقتحام المدينة في نهاية المعركة، واستشهد قائدهم، فأكرمهم السلطان بإعطائهم حق التقدم علىٰ بقية القوات[٣].
- جهّز الخرائط الخاصة للحصار، وتجسّس أخبارها بما فيها من جالية إسلامية تقدّر بالألوف، إضافة إلىٰ حذره من نجدة مملكة طريزون الواقعة شمال الانضول علىٰ البحر الأسود، وكانت امبراطورية مستقلة متعاطفة مع القسطنطينية.

---

(١) وذلك بحساباتي لها من المصادر الموثوقة

(٢) المسلك الفائح من سيرة محمد الفاتح، الصلابي/ ٨٦-٨٩ بإيجاز، و(الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١١٦-١٢٤ بإيجاز

(٣) المصدر السابق/ ص ١١٦، عن (تاريخ الدولة العلية العثمانية)، محمد فريد بك، ص١٦١، وص١١٩، عن (سلاطين آل عثمان)/ ص٢٤-٢٥، وص١٣٨، عن (الفتوح الإسلامية عبر العصور)/ ٣٨٢، و(ألبوم العثمانيين)/ ص٤٥

- اهتم الفاتح بتطوير السلاح، لاسيما المدافع الضخمة، وعلىٰ رأسها المدفع السلطاني المشهور، بوزن عشرات الأطنان بينما يدعي أحد المصادر أن وزنه مئات الأطنان، وفيه مبالغة، يحتاج إلىٰ مئات من الثيران القوية لتحريكه، أشرف بنفسه علىٰ صناعتها، بتصميم المهندس المجري المشهور (أوربان)[١]، ومهّد السلطان الطريق من أدرنة إلىٰ القسطنطينية، لتكون صالحة لجرّ المدافع، التي وصلت إلىٰ مواقعها خلال شهرين، يقودها الفاتح بنفسه، وكان يجرّ المدفع السلطاني ١٠٠ ثور، مع مئة من الرجال. وكانت قذائف هذا المدفع تزن ١٢٠٠٠ رطلٍ، وكانت القذيفة التي سقطت علىٰ بعد ميل واحد، سمع دويها علىٰ بعد ٢٠كم، واستغرق سحبه من أدرنة إلىٰ موضعه في إستنبول شهرين.
- اهتم ببناء الأسطول الحربي، ببنائه أكثر من (٤٠٠) سفينة لحصارها[٢]، كما اهتم بالمنجنيق، إضافة إلىٰ المدافع الحديثة.
- قسّم جيشه البريّ حسب الخطة، وأقام جيوشـاً إحتياطية خلفها تتناوب القتال، ونصب المدافع أمام الأسوار، ووضع فرقـًا للمراقبة.
- عقد معاهدات مع إمارة (غلطة) شرق القسطنطينية، يفصل بينهما (القرن الذهبي)، كما عقد معاهدات مع المجر والبندقية، غير أنهما نقضتا العهود. وانتشر الأسطول العثماني حولها، واستولىٰ علىٰ جزر الأمراء في بحر مرمرة[٣].
- ابتدع خطة لم تخطر ببال أحد، وهي نقل الأسطول الحربي (٧٠ سفينة)، عبر المرتفعات والوديان مسافة (٥ خمسة) كيلومترات إلىٰ القرن الذهبي، بتمهيد الأرض وتسويتها، وأتىٰ بألواح الخشب، دهنت بالزيت والشحم، وصُفّت علىٰ الطريق، وسحبت السفن، وكانت صغيرة الحجم، خفيفة الوزن، من البسفور إلىٰ البر، ومنه إلىٰ القرن الذهبي،

---

(١) المسك الفائح من سيرة محمد الفاتح، الصلابي/ ص١١٧، عن (الفتوح الإسلامية عبر العصور)/ ص٣٦١

(٢) المصدر السابق/ ص١١٨، عن (محمد الفاتح)/ ص٩٠

(٣) المصدر السابق/ ص١١٨، عن (تاريخ سلاطين آل عثمان)/ ص٥٨

وسحبت كلها في ليلة واحدة، بعيداً عن أنظار العدو، بإشراف مباشر من الفاتح، فسيطرت علىٰ القرن الذهبي، وسط التهليل والتكبير، وكان نقل الأسطول خلال الحرب[١].

- حفر الأنفاق تحت الأرض، باتجاه المدينة، وسيأتي الحديث عنها، وذلك خلال الحرب كذلك.
- صنع القلعة الخشبية الضخمة المتحركة من (٣ أدوار)، أعلىٰ من الأسوار، وكسيت بالدروع والجلود، وعليها الجنود، وزحف العثمانيون بها قريباً من الأسوار ولصقوها بها، وذلك خلال الحرب، وسيأتي الحديث عنها[٢].

أما استعدادات العدو، فإن المدينة كانت محصنة تحصيناً محكماً، يغني عن أية زيادة، غير أن المدينة عُزلت بالحصار عن العالم الخارجي - تقريباً.

لجأ العدو إلىٰ تمثال مريم العذراء والسيد المسيح، يستغيثون بهما، ويصلون في الكنائس وكنيسة أيا صوفيا، والجيش يطوف بينه القسس ويدعون.

وصلت إمدادات بسفن من جنوا، مع مقاتلين من (٧٠٠) متطوع، بقيادة جستنيان الذي قاد البيزنطيين ضد الفاتح، بعد مواجهة بحرية، ولكنها رغم وصولها لم تنقذها، ولم تنفعها في حصارها الطويل[٣].

حاول البابا توحيد الكنيستين الشرقية (الارثودكسية والكاثوليكية)، إذ أرسل إلىٰ كنيسة أيا صوفيا لتوحيدها، فثار الأرثودكس علىٰ محاولة التوفيق بينهما للعداوة التقليدية العقدية بينهما حتىٰ قال بعض زعماء الأرثودكس: إنني أفضل أن أشاهد في ديار البيزنط عمائم الترك علىٰ ان أشاهد القبعة اللاتينية[٤].

---

(١) المسك الفائح من سيرة محمد الفاتح/ ص١٢٤-١٢٦، عن (السلطان محمد الفاتح)، عبد السلام فهمي/ ص١٠٠-١٠٢، و(الفتوح الإسلامية عبر العصور)/ ص٣٧، و(تاريخ الدولة العثمانية)، يلمان ألنتونا/ ص١٣٥

(٢) المصدر السابق/ ص١٢٩-١٣٠، عن (محمد الفاتح)/ ١٤٤

(٣) المصدر السابق/ ص١٢١، عن (محمد الفاتح)/ ص١٢٠

(٤) المصدر السابق/ ص١٨١-١١٩

وقدّم الإمبراطور عروضـًا سخيّة إلىٰ الفاتح، ليحول دون تسليم المدينة، فأبىٰ الفاتح إلا الحرب أو التسليم.

٢- بدء الحصار:

وصل السلطان بجيشه العرمرم أمام الأسوار الغربية للقسطنطينية المتصلة بقارة أوربا الجمعة ١٣ رمضان/ ٨٥٥هـ = ٥ ابريل ١٤٥١م، وأمر بنصب سرادقه ومركز قيادته أمام باب القديس رومانوس، ونصب المدافع القوية بعيدة المدىٰ، ثم اتجه السلطان إلىٰ القبلة وصلىٰ ركعتين، وصلىٰ الجيش كله وراءه، وكان ٢٦٥٠٠٠ جندي مجاهدٍ[١]، وبدأ الحصار الفعلي وتوزيع قواته، ووضع الفرق الأناضولية، وهي أكثر الفرق عدداً عن يمينه إلىٰ ناحية بحر مرمرة، والفرق الأوروبية عن يساره حتىٰ القرن الذهبي، ووضع الحرس السلطاني الذي يضمّ نخبة من الجنود الانكشارية، وعددهم ١٥٠٠٠ في الوسط[٢]، ولم يسبق أن حوصرت بجيش في هذه الكثافة والتسليح المتطور من قبل.

طلب السلطان من الإمبراطور (قسطنطين) أن يسّلم المدينة إليه، وتعهد باحترام سكانها وتأمينهم علىٰ أرواحهم ومعتقداتهم وممتلكاتهم، ولكن الإمبراطور رفض ذلك، معتمداً علىٰ حصون المدينة المنيعة المسوّرة، يحميها سوران طولهما ٤ أميال، من شاطئ البحر إلىٰ شاطئ القرن الذهبي، ويبلغ ارتفاع السور الداخلي منها ٤٠ قدمـًا، ومدعم بأبراج يبلغ ارتفاعها ٦٠ قدمـًا، والمسافة بين كل برجين ١٨٠ قدمـًا[٣].

---

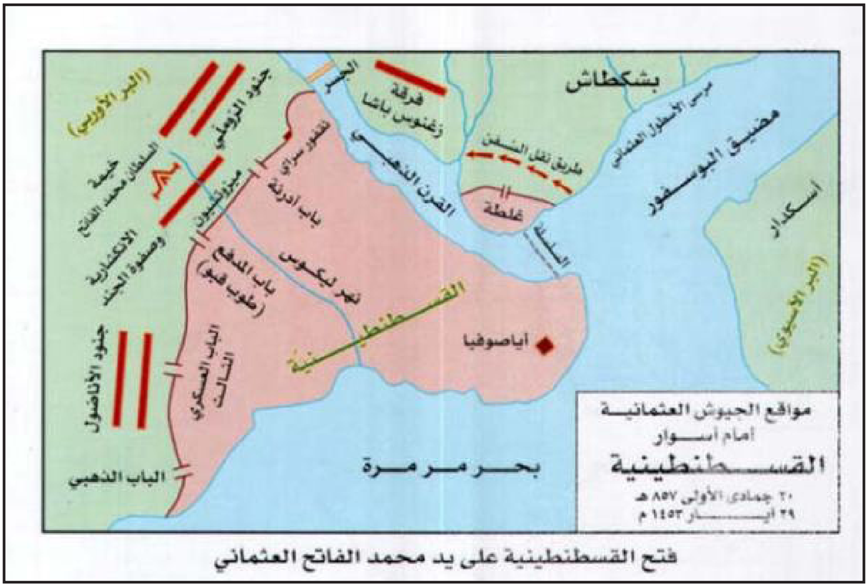
(١) ألبوم العثمانيين/ ص٤٦، و(الدولة العثمانية)، الصلابي/ ١١٩، عن (محمد الفاتح) للرشيدي/ ص٨٩، و(سلاطين آل عثمان)/ ص٢، و(محمد الفاتح)/ ص٩٦، وفتح القسطنطينية)، محمد صفوت/ ص٥٧، و(محمد الفاتح)، سالم الرشيدي/ ص٨٢

(٢) المصدر السابق/ ص٤٦، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص١١٩، عن (سلاطين آل عثمان)/ ص٢، و(محمد الفاتح)/ ص٩٦، عن (سلاطين آل عثمان)/ ص٢٤-٢٥

(٣) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١١٩

أما السور الخارجي فارتفاعه ٢٥ قدمـًا، ومحصن بأبراج شبيهة بأبراج السور الأول، وبين السورين فضاء عرضه ٥٠-٦٠ قدمـًا، وكـان القرن الذهبي الـذي أحاطت مياهه المدينة من الشمال الشرقي يغلق بسلسلة حديدية هائلة، يمتد طولاً عند مدخله غلطة وسور القسطنطينية، وكان عدد المدافعين عن المدينة ٤٠٠٠٠ مقاتل(١).

٣١



مواقع الجيوش العثمانيةأمام أسوار القسطنطينية

رابعـًا: مرحلة الفتح(٢)

بعد إعداد جيش الفتح بجند الله، إعداداً إيمانيـًا ونشر العلماء بينهم يثيرون فيهم روح الجهاد والشوق إلىٰ الجنة وإلىٰ لقاء المصطفىٰ ﷺ فيها، وبعد إحكام التسليح الحديث والتدريب عليه، وبعد وضع الخطط الدقيقة للمعركة.

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٢٠

(٢) الدولة العثمانية - الصلابي، ص١١٩-١٤٢ بايجاز، والمسك الفاتح من سيرة محمد الفاتح، ص٨٩-١١٢ باختصار.

ألقىٰ الفاتح فيهم خطبة إيمانية تتوقد شرراً علىٰ أعدائهم، تصدّرت بتلاوة خاشعة لكتاب الله ﷻ ، ثم بخطب حماسية، مرصعة بآي من القرآن الكريم والأحاديث التي تبشر بالفتح، ثم بفضل الجيش وأميره، وسط التهليل والتكبير، ثم كانت الصلاة الخاشعة بإمامة الفاتح، واقتداء جميع الجيش به وراءه، والعلماء في صفوف الجيش مشجعين ومجاهدين[(١)].

١- **بدء الهجوم**: وصلت الأجناد العثمانية ربع مليون جندي يقودها الفاتح بنفسه إلىٰ مشارف القسطنطينية يوم الخميس ٢٦ ربيع الأول ٨٥٧هـ، الموافق ٦ ابريل ١٤٥٣م، خطب فيهم خطبة جهادية ألهبت عواطفهم وشوقهم إلىٰ الجنة أو النصر، وعززها بآيات الجهاد، بدأ بإطلاق المدافع الضخمة والمدفع السلطاني علىٰ الأسوار بكثافة، وكانت أصوات اصطدام القذائف بالأسوار تملأ القلوب فزعـًا، وكان القتال من علىٰ الأبراج والقلاع، وفي البحر بين الأساطيل، وكانت خسائر ضخمة من الجانبين، ولم يفلح الأسطول العثماني من تخطّي السلسلة الضخمة، وكانت الأسوار حين يتهدم بعضها، أو ينثلم، يسرعون في ترميمها بجهد مكثف موصول، وكان إطلاق المدافع متواصلاً ومرعبـًا بأصواته، وقتل الكثير من الجانبين مما حمل قسطنطين علىٰ (مفاوضة الفاتح)، بدفع رشاوي مالية ضخمة للصلح، والفاتح يردّها طالبـًا التسليم، وأقسم له أن أحداً لن يتعرض لسوء، لا في نفسه ولا في ماله وعرضه، ومن شاء بقي فيها، ومن شاء رحل عنها حيث أراد بسلام، كما أعطىٰ الفاروق ؓ الأمان لأهل القدس، وحاول بعض الوزراء الموافقة علىٰ الصلح، ولكنه رفض.

استمر الحصار والقتال علىٰ أشده كأحسن جيش يبتغي الحسنيين، وحين حصول الثغرات في الأسوار حاول العثمانيون اقتحامها، كما تسلقوها بالسلالم، وقاتلوا من فوقها، من غير نتيجة حاسمة[(٢)].

وحدثت معركتان بحريتان، غرقت فيها من سفن الجانبين الكثير من غير نتيجة، وخاض الفاتح بحصانه البحر، مشرفـًا عليهما، وكان علىٰ مرمىٰ حجر من المعركة، ومنعت أي سفينة

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٢٠، عن (الفتوحات الإسلامية عبر العصور)/ ص٣٦٤

(٢) المصدر السابق/ ص١٢٠، ١٢٦-١٢٧

من الاقتراب إلاّ بعض سفن الدول القادمة من صقلية، نجدة من البابا نجحت بالوصول إلىٰ القسطنطينية، رغم المعركة البحرية القاسية، واستولىٰ الأسطول العثماني علىٰ جزر الأمراء في بحر مرمرة[1].

٢- نقل الأسطول براً: وبسبب السلسلة الحديدية الضخمة التي تحمي القرن الذهبي، فإن أسوارها عنده كانت ضعيفة، ففكر في نقل أسطول بحري من (٧٠) سفينة، عبر البر إلىٰ الخليج الذي يطلّ عليه القرن، ونفّذه، ففوجئ العدو بها تسيطر علىٰ القرن، مع التكبير الذي أقضّ مضاجع العدو، قال المؤرخون البيزنطيون: (ما رأينا ولا سمعنا بمثل هذا من قبل، محمد الفاتح يحوّل الأرض إلىٰ بحار، وتعبر سفنه فوق قمم الجبال، بديلاً من الأمواج، لقد فاق محمد الفاتح بهذا العمل الاسكندر الأكبر)![2].

٣٢



السفن العثمانية تبحر علىٰ اليابسة!!

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٢٠، عن (محمد الفاتح)/ ص٩٨، و(العثمانيون والبلقان)/ ص٨٩، و(المصدر السابق)/ ص١٢٣-١٢٤، عن (محمد الفاتح)/ ص١٠١، ١١٠

(٢) المصدر السابق/ ص١٢٤-١٢٦، عن (السلطان محمد الفاتح)/ ص١٠٠، ١٠٢، ١٠٦، و(الفتوح الإسلامية عبر العصور)/ ص٣٧٠، و(تاريخ الدولة العثمانية)، يلماز اورتونا/ ص١٣٥

إنزال السفن في الخليج

استمرار الحرب والحصار: اضطر العدو إلىٰ سحب قوات كبيرة من المدافعين عن الأسوار، لحماية أسوار القرن الذهبي الضعيفة، وكان من قبل تحميه المياه، حاول الإمبراطور تدمير الأسطول العثماني من غير جدوىٰ، والمدافع العثمانية مستمرة في دك الأسوار ليل نهار، وأصاب الأسطول العثماني سفنهم بالشلل والغرق بعد أن تكبد الأسطول العثماني خسائر فادحة(١).

كان للفاتح مخابرات داخل المدينة، توصل أخبارها إليه، وكان عددهم بالألوف، واستنجد الإمبراطور بالدول، فلا نجدة له، لإحكام الحصار عليه، واستمر تسلق الأسوار، مع التكبير والشجاعة النادرة، فانتشر فيهم الذهول واليأس، وعلامات الذل والهلع علىٰ وجوههم(٢).

عقد الإمبراطور قسطنطين ثلاثة مؤتمرات، مع قادته، من غير جدوىٰ. فتحت ثغرة في الأسوار، تداركها الإمبراطور، وانسحب الفاتح عن قصد، ثم كرّ، وتكررت الثغرات، وكان الكرّ والفرّ لإنهاك العدو، بجهد متواصل كثيف، وكان التكبير (الله أكبر) كالصواعق علىٰ رؤوسهم(٣).

٣- **حفر الأنفاق**: سمع سكانها ضربات شديدة تحت الأرض، فأسرع الإمبراطور بنفسه تجاه الأصوات، فحفروا خنادق مماثلة مقابلها، لمواجهتهم تحت الأرض، دون علمهم، فلما وصلوا إلىٰ أنفاق العدو، ظنوا أنها سراديب تؤدي إلىٰ المدينة، فصبّ الروم عليهم فجأة ألسنة النار والنفط المحترق والمواد الملتهبة، فاختنق الكثيرون، واحترقوا.

لكن العثمانيين عادوا إلىٰ حفر أنفاق أخرىٰ، ففزع لها أهلها، واهتزت الأرض تحت

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٢٦، عن (الفتوح الإسلامية عبر العصور)/ ص٣٧١

(٢) المصدر السابق/ ص١٢٧، عن (محمد الفاتح)/ ص١١٦

(٣) المصدر السابق/ ص١٢٧، عن (محمد الفاتح)/ ١٠٦

أقدامهم، وأصوات الحفر تفزعهم، وكانوا يتصورون أن الأرض ستنشق ويخرج منها الجند، يملؤون المدينة، وكانوا بمشيهم يلتفتون يمنة ويسرة في فزع، ويقولون: (هذا تركي، هذا تركي)، ويركضون هرباً من أشباح يظنونها تطاردهم، وهلك كثير من الجنود العثمانيين بسبب الأنفاق، ومنهم من أسر وقطعت رؤوسهم، وألقيت علىٰ معسكر المسلمين[1].

واستبسل كلا الفريقين في الهجوم والدفاع، وفي حرب ضروس متواصله من غير توقف، بلغ الفزع أقصاه، وهُرع الناس إلىٰ تمثال السيدة العذراء، يحملونه، ويتضرعون إليه، فسقط فجأة وتحطم، فرأوا فيه نذير شؤم، وهطلت أمطار غزيرة مع صواعق، أحدها علىٰ كنيسة أيا صوفيا، فزاد التشاؤم، واعتقدوا أن الله تخلىٰ عنهم، فأغمي علىٰ الإمبراطور، والمدافع العثمانية مستمرة في القصف، وأصواتها تصمّ الآذان، وهدمت أجزاء كثيرة من الأسوار والأبراج، وامتلأت الخنادق بآلاف القتلىٰ، وبالانقاض، مما سهل اقتحام المدينة[2].

٤- **صنع القلعة الخشبية**: أمر بصنعها الفاتح، وهي ضخمة، متحركة من ثلاثة أدوار، أعلىٰ من الأسوار، وكُسيت بالدروع والجلود المبللة بالماء، لمنع احتراقها، والجنود في أدوارها، يقذفون بالنبال كلّ رأس يظهر فوق الأسوار، وزحف العثمانيون بها، ولصقوها بالأسوار، رغم دفاع الإمبراطور بنفسه مع جيشه، واستطاع بعض الجنود تسلق الأسوار من القلعة التي قذفوها بنيران المدافع حتىٰ احترقت، ووقعت علىٰ الأبراج والأسوار، فقتلت من فيها من المدافعين، وامتلأت الخنادق المجاورة بالحجارة والتراب، فقال الفاتح: غداً نصنع أربعة أخرىٰ![3]، وقد ورد ذكر (القلعة الخشبية) في مطلع الحروب الإسلامية للرسول القائد في فتح الطائف، وفي نهاية العصر العباسي.

٥- **مفاوضات لتسليم المدينة**: بدأها الفاتح للمرة الثانية، بأن كتب للامبراطور أن

(١) الدولة العثمانية/ ص١٢٨-١٢٩، عن (محمد الفاتح)/ ص١٠٨، ١١٠، و(الفتوح الإسلامية عبر العصور)/ ص٣٧٢

(٢) المصدر السابق/ ص١٣١، عن (محمد الفاتح)/ ص١٤٤

(٣) المصدر السابق/ ص١٢٩-١٣٠، عن (محمد الفاتح)/ ص١١٦

يسلم المدينة من غير إراقة الدماء، مع تأمين خروجه هو وأسرته وأعوانه ومن يرغب ممن معه إلىٰ حيث يشاؤون بأمان، وتحقن دماء الناس، فعرض الإمبراطور الأمر علىٰ مستشاريه، فانقسموا وكتب إلىٰ الفاتح برضاه بدفع الجزية، وإن لم يوافق فهو مصرّ علىٰ الحرب، وأقسم علىٰ مواصلة القتال إلىٰ آخر نفس، وسبب رفض الفاتح الموافقة علىٰ إيقاف الحرب، هو أن طلب العدو جاء متأخراً، وكان في خلال الحرب: (إما أن أحفظ عرشي، وإما ان أدفن تحت أسوارها)، وهذه وقيعة من العدو للنجاة من الخسارة في الحرب التي أدرك العدو حتميتها، وإن شروط الحرب في الإسلام: (إما أن يدخل العدو في الإسلام، وإما أن يعطي الجزية، وإما الحرب) هكذا بهذا التسلسل.

٣٣



السلطان محمد الفاتح يقود حصانه في البحر

تسلم الفاتح الرفض، وقال: (حسناً عما قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش أو قبر)[١].

عقد الفاتح إجتماع مجلس الشورىٰ، من العلماء والقواد، فانقسموا، خوفاً من أوروبا النصرانية، تجتمع عليهم، أيد الحرب قائد نصراني، كان قد أسلم (زغتوس باشا)، وأيده العلماء،

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ١٣١-١٣٢، عن (محمد الفاتح)/ ١١٦

فاستمرت الحرب، وأعلنوا الهجوم العام الكاسح، وانفجر المدفع السلطاني لكثرة القصف الكثيف المستمر، وقتل مخترعه المهندس المجري ومن معه، ثم أجرىٰ السلطان عمليات التبريد للمدافع بزيت الزيتون، ونجح واستمر القصف منها إلىٰ الأسوار وإلىٰ وسط المدينة وإلىٰ القلاع[١].

الهجوم العام الكاسح:

توجه السلطان محمد إلىٰ خيمة الشيخ شمس الدين - فقبل يده، وقال: علمني ياسيدي دعاء أدعو الله به ليوفقني، فعلمه الشيخ دعاء، وخرج السلطان من خيمة الشيخ ليأمر بالهجوم العام، الذي أقرّه عليه الشيخ[٢].

توجه الفاتح يوم الثلاثاء ٢٠ جمادىٰ الأولىٰ ٨٥٧هـ / ٢٩ مايو ١٤٥٣م، إلىٰ جنده بالتضرّع إلىٰ الله، بخشوع ودعاء وصلاة، وقراءة قرآن وذكر لله تعالىٰ، وذكر للجنة وأن كل واحد منهم عليه إخلاص القلب في نيته وعزيمته، والاستقامة علىٰ طاعة ربه، لا يحيد عنها مع ربه ولا مع نفسه ولا مع إخوانه ولا مع عدوّه، ولا مع أهل الذمة، ألاّ يمسّهم بسوء، لا هم ولا نساءهم ولا أطفالهم ولا شيوخهم.

أوقد العثمانيون ناراً كثيفة حول معسكراتهم، وتعالت الأصوات بالتهليل والتكبير، إلهابـًا للعزائم، وتفاؤلاً بالنصر، خاف العدو منها، والعلماء يشجعون علىٰ الجهاد، ويتوسلون[٣]ببركات الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري ﵁ ، المدفون قريبـًا منهم، ويقولون للجنود: إن رسول الله (ﷺ) نزل ضيفـًا عنده في هجرته إلىٰ المدينة، وأبو أيوب هنا إلىٰ جوارنا! [٤]

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ١٣٢، عن (الفتوح الإسلامية عبر العصور)/ ص٣٧٦

(٢) المصدر السابق/ ١٤٣، عن (العثمانيون في التاريخ والحضارة)/ ص٣٧٣

(٣) هذا ما حدث، رغم أن التوسل بالقبور أيّـًا كانت حرام، ولكن وجود من استضافه رسول الله إلىٰ جوارهم حملهم وفي صراع الكفر، وفي فقههم الخاطئ علىٰ هذا التوسل، غفر الله لهم في ساعة الضيق والمحنة وأثابهم.

(٤) المصدر السابق/ ص١٣٥، عن (محمد الفاتح)/ ص١٢٦

وقال الفاتح: إذا تم لنا فتح القسطنطينية فسيتحقق فينا حديث النبي ﷺ ، ومعجزته وبشارته، وأوصىٰ اجتناب الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذىٰ، ويَدَعوا القسس والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون، كما يَدَعوا النساء والأطفال[١].

بدأ الهجوم الأول البري والبحري في وقت واحد، الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، مع التكبير، وباتجاه الأسوار، كانت حين تنهك الفرقة الهجومية الأولىٰ يسحبها الفاتح، **ويقدّم الأخرىٰ بالهجوم الثاني، ونجح الأسطول العثماني في رفع السلاسل الحديدية في مدخل الخليج**[٢].

وأقام مئات السلالم لاقتحام الأسوار، واستطاع العدو قلبها، واستماتوا بالدفاع واستبسل المسلمون في الهجوم، وكانت الضحايا كثيرة من الفريقين، وكان العلماء يرددون بينهم قوله تعالىٰ: ﴿سيُهزَم الجمع، ويولوّن الدّبر، بل الساعة موعدهم، والساعة أدهىٰ وأمر﴾[٣].

أصدر الفاتح قراره بالاستراحة:

ثم فاجأهم بهجوم ثالث أقوىٰ، وهكذا دواليك، حتىٰ أرهق العدو، وانهارت أعصابهم، ثم أمر الفاتح بالانسحاب لتدك المدافع المدينة .

ثم استأنف الهجوم الرابع، بتسلق الأسوار، وبالمعارك البحرية، لاشغال قوات العدو في أكثر من جهة .

كانت الكتائب الأولىٰ من جند الله تمطر جند العدو علىٰ الأسوار والأبراج بوابل القذائف، واستبسل الجيشان، وكانت الضحايا منهما لا تحصىٰ لكثرتها، وبعد أن أنهكت الكتائب الأولىٰ، أمر بسحبها.

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٣٥، عن (محمد الفاتح)/ ص١٢٦

(٢) المصدر السابق / ص ١٣٧

(٣) سورة القمر/ ٤٥

ثم تقدمت الفرقة الثانية مكانها في الهجوم الرابع، فأصاب المدافعين الإعياء، مما هيّأ للمهاجمين الوصول إلىٰ الأسوار فاقاموا مئات السلالم، ولكن العدوّ قلب السلالم، من غير جدوىٰ، واستمرت المحاولات الجريئة من جند الله وعدوهم.

ثم أصدر الفاتح أمره بالتوقف،للراحة ، **ثم أصدر أمره للفرقة الثالثة بالهجوم الخامس علىٰ الأسوار بنشاط وقوة**، ما كان يتوقعها العدو المنهك البائس، وكان يوافق الهجمات البرية هجمات بحرية شديدة في نفس الوقت.

ثم أصدر الفاتح أمره بالراحة والتوقف الخامس عن القتال، لتقوم المدافع بدورها في القصف المكثّف علىٰ الأسوار، وعلىٰ الأبراج، فأنهكوا بهذه التدفقات النشطة الشُجاعة، العدو كما أُنهِكوا بسهر الليل [١].

ثم استأنف جند الله **الهجوم الختامي السادس، يقودهم السلطان**، بجميع الأسلحة: النبال والسهام والمدفعية في البرّ والبحر، واستطاع ثلاثون من الجنود الانكشاريين، تسلق الأسوار، وقُتِل أكثرهم، وتمكن الباقون من خلال الثغرات المفتوحة بين الأسوار المتهدمة من دخول المدينة عند (طوب قابي)، رافعين الأعلام العثمانية، ولحقهم جند الله، يتدفقون كالبرق الخاطف إلىٰ قلب المدينة، وفتحت الثغور في الأسوار، وجند الله يُهرعون فيها، حتىٰ إذا دخلوا المدينة في باب (أدرنة) ومن مناطق مختلفة، رافعين الرايات العثمانية، مهللين ومكبرين، وجدوا أهلها مختبئين في الكنائس والدور والدروب، فردد العلماء بين الجند قوله تعالىٰ: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[٢].

لقد كان الهجوم العام يوم الثلاثاء بعد منتصف الليل ٢٠ جمادىٰ الأول ٨٥٧هـ الموافق ٢٩ مايو ١٤٥٣م، وكان الفتح والنصر المبين الاربعاء بعده، كما أخبر به الإمام العالم آق شمس الدين، وكان هذا الهجوم النهائي مركزاً علىٰ نقطة الضعف في أسوارها، وهي وادي نهر ليكوس،

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٣٨، عن (الفتوح الإسلامية عبر العصور)/ ص٣٨٢

(٢) سورة الأنعام/ ٤٥

بقيادة السلطان الفاتح، إضافة إلىٰ أنه كان موزعـًا علىٰ أسوارها كلها، وما هي إلا ثلاث ساعات من بدء الهجوم الكاسح حتىٰ نزل النصر[١]، ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[٢].

أما العدو، فقد دعا الإمبراطور الرجال والنساء والصبيان إلىٰ التضرّع إلىٰ الله تعالىٰ والبكاء في الكنائس، وخطب فيهم خطبة بليغة، هي آخر خطبه، يعلن استماتته في الدفاع عنها حماية للنصرانية، وكانت من ابلغ خطبه التي شاد بها المؤرخون، وقالوا: إنها أبكت الجموع، قال فيها المؤرخون: لو أن شخصـًا قلبه من خشب أو حجر لفاضت عيناه بالدموع!، ثم صلىٰ في كنيسة (أيا صوفيا) المقدسة لديهم، ثم قصد قصره ليودع أهله الوداع الأخير، بمشهد مؤثر، ثم توجه إلىٰ صورة المسيح المزعومة، فركع تحتها، ودعا، ثم خرج من القصر بعد منتصف الليل، ليلة الهجوم الختامي، مع رفيقه المؤرخ (فرانتزتش)، بعد تفقدهما قواتهم المدافعة، ورؤيتهم حركة الجيش الإسلامي المتأهب للهجوم البري والبحري معـًا[٣].

وحين الهجوم العثماني، دقت نواقيس الكنائس، والتجأ الكثيرون إليها، وعلت أصوات المجاهدين بالتكبير، واتجهوا نحو الأسوار[٤].

أصيب قائد العدو (جستنيان) بجروح بليغة، فانسحب، وركب سفينة هاربـًا، وتولىٰ الإمبراطور بنفسه القيادة، وروح العدو المعنوية منهارة[٥].

ولما رأىٰ الإمبراطور الأعلام العثمانية ترفرف علىٰ الأسوار والأبراج، وانتشرت في شوارعها، ألقىٰ في جنوده خطبة أبكاهم، ثم نزل عن صهوة جواده، لئلا يعرف، وغيّر ملابسه،

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٣٧، ١٣٩

(٢) سورة آل عمران/ ١٢٦ .

(٣) المصدر السابق/ ص١٣٦، عن (محمد الفاتح)/ ص١٢٦-١٢٩

(٤) المسك الفائح من سيرة محمد الفاتح، الصلابي/ ص١٠٧، عن (الفتوح الإسلامية عبر العصور)/ ٣٨٠

(٥) المصدر السابق/ ١٣٨، عن (محمد الفاتح)/ ص١٣٧

واقتحم المعركة، فسقط قتيلاً[١].

وكان لقتله دويّ هائل، من الانهيار لجيشه الذي استسلم لجند الله، وكانت في المدينة جيوب فيها من جيش العدو، نُظّفت بخسائر المجاهدين، وهرب أغلبهم إلىٰ الكنائس.

سادسًا: نتائج الفتح[٢]

١- **نتائجه في سلوك القائد الفاتح**: دخل الفاتح القسطنطينية دخول الشجاع الرحيم المتواضع، شاكراً ربّه، مصليًا علىٰ المصطفىٰ ﷺ، مادحاً جنده، جند الله، مطمئنًا أهلها بالأمان، وجند الله يردد: (ما شاء الله، ما شاء الله)، فألقىٰ بجنده كلمة ايمانية، منها: (الحمد لله، والله أكبر، اللهم صلّ علىٰ سيدنا وقائدنا وهادينا نبينا محمد (صلىٰ الله عليه وسلم)، ليرحم الله الشهداء، ويمنح المجاهدين الشرف والمجد، ولشعبي الفخر والشكر، لقد أصبحتم فاتحي القسطنطينية، الذين أخبر عنهم الرسول القائد ﷺ، **أهنئكم بالنصر، وأنهاكم عن القتل، وآمركم بالرفق بالناس والاحسان إليهم**).

ثم ترجل عن فرسه، وسجد علىٰ الأرض، شكراً لله، وتواضعًا وانقياداً لله تعالىٰ[٣]، وأكرم الجنود، وأقام لهم مأدبة، ثلاثة أيام، والفاتح يخدم جنوده بنفسه.

٢- **نتائج الفتح في أهلها النصارىٰ**: كتب (محمد الفاتح) إلىٰ أهالي القسطنطينية النصارىٰ: (أنا الأمير العظيم السلطان محمد بن الأمير العظيم السلطان مراد أقسم باسم خالق السماوات والأرض، وباسم رسولنا الأعظم محمد ﷺ، وبالمثاني السبع التي نؤمن بها، وباسم مئة وأربعة وعشرين ألف نبي من أنبياء الله، وأقول باسم جدي وروح والدي وباسم أبنائي،

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٠٨-١٠٩، عن (محمد الفاتح)/ ١٣٩

(٢) المصدر السابق/ ص١٠٩-١١١ بإيجاز

(٣) المصدر السابق/ ص١٠٩-١١٠، والدولة العثمانية، الصلابي/ ١٣٩، عن (الفتوح الإسلامية عبر العصور)/ ص٣٨٣

وبالسيف الذي أتقلده أنني أعطي لأهالي (غُلطة) حريتهم وقوانينهم، يستطيع الأهالي أن يديروا أموالهم وبيوتهم ومتاجرهم وبساتينهم ومراكبهم وتجارتهم، وأن يحافظوا علىٰ أولادهم وزوجاتهم كما يشاؤون، وهم أحرار في بيع تجارتهم في جميع أنحاء البلد، وسأحافظ علىٰ كنائس وصلوات أهل المدينة، وإنني لن أحوّل كنائسهم إلىٰ جوامع، ولن آخذ أبناءهم إلىٰ الانكشارية، ولن اكرههم علىٰ الدخول إلىٰ ديننا، وأعدهم بأنني لن اعاملهم كعبيد، بل سأحافظ عليهم وأدافع عنهم كما أحافظ وأدافع عن نفسي)[(١)].

٣- أما بالنسبة لـ(أياصوفيا) التي حولها من كنيسة إلىٰ جامع، فإنه أضطر إلىٰ ذلك لأنه كان هو والمسلمون في حاجة آنية إلىٰ مكان يقيمون فيه الصلوات، وصلاة الجمعة بصورة خاصة، ولم يكن من الممكن الانتظار حتىٰ بناء جامع كبير يسعهم، فاشترىٰ أياصوفيا منهم، ودفع لهم المال مقابلها، وعلىٰ أية حال فقد كان ذلك الأمر استثناء، إذ بقيت معظم الكنائس الأخرىٰ علىٰ حالها، لم يمسسها أحد بسوء وهذا خلاف ما تم في اسبانيا عند هزيمة المسلمين، إذ حوّلت الجوامع جميعها إلىٰ كنائس، وتم ذبح المسلمين الذين لم يتنصروا.

٤- ويروي التاريخ بمصادره الموثوفة أن الفاتح توجه إلىٰ كنيسة أيا صوفيا، وفيها القسس والرهبان، وكثير من أهلها، ففتح أحد الرهبان له الأبواب، وكانوا خائفين، فلما رأوا الأمان وأدب التعامل، خرجوا إلىٰ ضواحيها وطرقها، فأمرهم الفاتح أن يرجعوا إلىٰ بيوتهم بأمان، وأعلن كثير من رجال الدين والأهالي إسلامهم[(٢)].

وهذا خلاف ما تم في الأندلس حين هزيمة المسلمين إذ حولت جميع الجوامع إلىٰ كنائس، وتم ذبح المسلمين الذين أَبُو أن يَتَنَصَّروا.

ثم إنه حول ثمانية كنائس إلىٰ جوامع في إستنبول حين فتحها، وحوّل غرف القسيسين

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص١٣ – بالهامش Hayot Kucuk Ansikiopedisi, s, 1177

(٢) السلطان عبد الحميد – أورخان – هامش ص١٣.

في أطرافها إلىٰ مدارس(١)، **واشتراها بثمن**، لأنها فتحت عنوة، فأزالوا الصلبان والتماثيل، وطمسوا معالم الصور بطبقة من الجير، وعملوا منبراً للخطيب(٢).

وأمر الفاتح إقامة مسجد في موضع قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الانصاري، الذي عثر العالم آق شمس الدين، بمساعدة الجنود علىٰ قبره، فاستبشروا به خيراً، كما ذكرنا سابقًا في حياة العالم الإمام

أمر الفاتح رضي الله عنه بتنصيب بطريرك جديد للنصارىٰ انتخابـًا، فكان (أجناديوس)، واستقبله السلطان بحفاوة بالغة، وتناول معه الطعام، هو ومن معه من الرهبان، علىٰ وليمة فخمة، تحدّث معهم في أمور دينية وسياسية واجتماعية، وربط رجال دينهم به مباشرة(٣).

استأنف أهل البلد حياتهم الاعتيادية بأمن وسلام، وأصبح لكلّ ملّة نصرانية مدارسها وأديرتها ورئيسها الديني، وتركهم بحريتهم الدينية يمارسونها ويعايشونها بأمورهم الداخلية، وبلغتهم الخاصة يتخاطبون بها(٤).

وفرض الجزية علىٰ أهل الذمّة، وهي مبالغ تكاد تكون رمزية، مقابل حمايتهم، فإن انخرطوا في الجيش سقطت عنهم، وأعطىٰ مرسومـًا يخوّل رؤساءهم الدينيين التجوّل في أنحاء الإمبراطورية، ليتفقدوا أحوال النصارىٰ، ويرفعوا ظلامتهم إن وجدت، غير أنهم رفعوا إليه شكرهم علىٰ أحوالهم جميعـًا، إذ كان شعارهم الإسلامي في التعامل كلمة الفاروق رضي الله عنه لأهل إيلياء (القدس)، حين تسلمها: **(لكم مالنا، وعليكم ما علينا)**(٥).

افتدىٰ الفاتح عدداً كبيراً من الأسرىٰ بماله الخاص، خاصة أمراء اليونان، ورجال الدين،

(١) ألبوم العثمانيين/ ٤٥

(٢) السلطان عبد الحميد، أورخان، هامش/ ١٣، والدولة العثمانية، الصلابي/ ١٤٠، عن (الفتوح الإسلامية عبر العصور)/ ص٣٨٤

(٣) الدولة العثمانية، الصلابي/ ١٤٠-١٤١، عن (محمد الفاتح)/ ١٣٤-١٣٥

(٤) المصدر السابق/ ص١٤١، عن (جوانب مضيئة)/ ص٢٧٤، ٢٨٣

(٥) أخرجه الطبراني، الحافظ أبو القاسم سليمان.

امتثالاً لقول الحبيب محمد ﷺ : (أكرموا عزيز قوم ذلّ، وغنيّ قوم افتقر وعالمـًا بين الجهال)[١]

افترىٰ المؤرخون الغربيون علىٰ الفاتح اضهاده لأهل المدينة، واسترقاقهم وبيعهم في أسواق الرقيق في أدرنة، كما في الموسوعة الأمريكية ١٩٨٠م،وهـذا حقد صليبي وكذب عليه. ويكذّب افتراءات الأعداء كتاب (محمد الفاتح) إلىٰ أهالي القسطنطينية النصارىٰ الذي أثبتنا نصه سابقـًا

١ – **الفاتح وأستاذه آق شمس الدين في النصر ونتائجه**[٢]: أعلن الفاتح حين تسلمه القسطنطينية:

ليس فرحي لفتح المدينة فحسب، وإنما فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زمني، وقد ظهرت بركته بتحديد يوم الفتح - (الأربعاء) علىٰ يديه، ولقد كان قد اعدّ الفاتح، حين كان مربيـًا له ومعلمـًا، ليكون فاتحـًا للقسطنطينية، وأنه هو المعني ببشارة المصطفىٰ ومعجزته، وكان مقامه لدىٰ الفاتح كمقام القاضي الفاضل لدىٰ صلاح الدين الأيوبي في استرداد القدس - رحمهم الله أجمعين.

وإن هذا الإمام هو الذي وجه السلطان وشجعه للبدء بالاستعداد لفتحها من أول يوم لتوليه السلطنة، بعمر (١٩ سنة)، وفتحها بعمر (٢٢ سنة)[٣]!

وكان (لمولانا) الشيخ آق شمس الدين الأثر البالغ في استمرار الفتح وفي الفوز فيه.

ولما عوتب السلطان علىٰ طاعته لمعلمه وإمامه في حربه، وفشل الهجوم الأول، ووصلت أربـع سفن بابوية، مساعدات للامبراطور، رجع إلـىٰ الشيخ، فأجابه إجابة المطمئن إلـىٰ نصر الله عـزّ وجـل: (لابـد أن يمَنّ الله بالفتح)، تجاوبـًا مع قوله تعالىٰ

(١) أخرجه البيهقي – مرفوع من أوجه ضعيفة.

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٤٢–١٤٧، المسك الفاتح من سيرة محمد الفاتح، الصلابي/ ص١١٢–١١٧ باختصار.

(٣) الدولة العثمانية، الصلابي/ ١٤٢

ووعده:﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[١]، وكتب إليه: (إن العبد يدبّر، والله يقدّر، والحكم لله، .. ولقد لجأنا بخشوع وإجلال لرب العزة، وتلونا القرآن الكريم، وتضرعنا إليه ﷻ ..)[٢]،

اطمأن السلطان، وعلىٰ الفور قرر الاستمرار بالقتال، ثم إن السلطان ذهب إلىٰ خيمة الشيخ، فقبل يده، وطلب منه دعاءً ليوفقه الله في الفتح، فعلمه الدعاء، وخرج ليأمر بالهجوم العام[٣].

وأراد السلطان أن يكون الشيخ بجانبه في القتال، فأرسل إليه من يستدعيه، منعه الحرس، فغضب الفاتح، وذهب بنفسه إليه، فمنعه الحرس من دخول الخيمة، فشقّ الخيمة بخنجره، ونظر داخلها، فإذا به يرىٰ الشيخ ساجداً سجدة طويلة، وعمامته متدحرجة من علىٰ رأسه، وشعره الأبيض يتدلىٰ علىٰ الأرض، ولحيته البيضاء تنحدر عليها وعلىٰ خديه الدموع، وعلىٰ الأرض، إذ كان في مناجاة خاشعة بإنزال النصر، وهو يسأله الفتح القريب الذي كان في اليوم الثاني[٤].

عاد السلطان إلىٰ مقرّ قيادته، ونظر الأسوار المحصنة، فإذا بالثغرات فيها، والجنود يتدفقون منها إلىٰ المدينة، ولعلّ ذلك كان بدعاء الشيخ الإمام.

الشيخ آق: ألقىٰ كلمته بين يدي السلطان، وبين الجيش الظافر، بعد دخولهم المدينة، فذكرهم بحديث بشارة الرسول ﷺ بالفتح، ومقام الأمير ومقام الجيش عند الله وعند الرسول ﷺ ، وعند عموم الأمة الإسلامية، ودعا للشهداء، وهنّأ الجند، وذكّرهم بعدم الإسراف، وبإنفاق الغنائم في البر والخير علىٰ أهل المدينة الكافرة، وأمرهم بالسمع والطاعة لسلطانهم

(١) سورة الحج/ ٤٠

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ١٤٣، عن (البطولة والفداء عند الصوفية)، اسعد الخطيب/ ص١٤٦

(٣) المصدر السابق/ ١٤٣، عن (العثمانيون في التاريخ والحضارة)/ ٣٧٣

(٤) المصدر السابق/ ١٤٣، عن (التاريخ والحضارة)/ ص٣٧٣

والحب له، (واسمعوا لسلطانكم، وأطيعوه وأحبوه).

ثم توجّه إلىٰ الفاتح يخاطبه: يا سلطاني، لقد أصبحت قرة الأعين لآل عثمان، فكن مجاهداً أبداً، ثم صاح مكبراً بأعلىٰ صوته: الله أكبر![1]

ثم اهتدىٰ الشيخ آق شمس الدين إلىٰ قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري بموضع قريب من سور القسطنطينية[2]، فزاره، وكان السلاطين يبايعون فيه، ثم ألقىٰ أول خطبة له في جامع أيا صوفيا.

٢- **أثر الفتح علىٰ العالم الإسلامي**: غير الفاتح اسم المدينة إلىٰ (إسلام بول) - أي مدينة الإسلام[3]، إعترافًا بفضل الإسلام عليه وعلىٰ الفتح، واتخذها عاصمته، واستمرت عاصمة الخلافة (٤٧٠) سنة. وبنىٰ فيها الجامع الكبير (وهو جامع محمد الفاتح)، وبنىٰ الفاتح قصر (طوب قابي) وهو أوسع القصور، ووضع فيه لواء الرسول الأعظم، وبردته المباركة، وسيوفه والشعرات المباركة، ومصحف عثمان[4]، وكانت تصدر قرارات قيادات الجيوش منه، كذلك فإن قرارات إرسال الأساطيل الإسلامية البحرية، كانت تصدر منه إلىٰ أندونيسيا: (جزائر الشرق الهولندية)، هكذا كان اسمها، كما كانت تصدر منه إلىٰ الفلبين، ضد الاستعمار الهولندي[5].

ولقد عم الفرح جميع أرجاء الشعوب الإسلامية في أوربا وآسيا وأفريقيا، وأرسل رسائل

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ١٤٥، عن (محمد الفاتح)/ ١٤٩

(٢) المصدر السابق/ ١٤٥، عن (العثمانيون في التاريخ والحضارة)/ ص٣٧٤

(٣) المصدر السابق/ ١٤٨، عن (تاريخ الدولة العثمانية)، محمد فريد/ ص١٦٤

(٤) ولقد رأيت أكثرها في الستينات، غير أني حين زرتها في التسعينات وما بعدها، لم أجدها، وقيل: إنها ضمُتَّ في خزانة.

(٥) المصدر السابق

إلىٰ كل قطر، يبشرهم بتحقيق نبوءة الرسول الحبيب ﷺ، وأعلنت البشائر والشكر لله علىٰ المنابر من الهند إلىٰ المغرب، وأقيمت صلوات الشكر، وزينت المنازل والحوانيت، وعلقت الأعلام العثمانية عليها[١]. وكان لرسائله احترام وتقدير، ومنها كلمات في جواب شريف مكة علىٰ رسالة السلطان، تنبيء عن مدىٰ احترامهم للفاتح، ونصها:

(وفتحناها بكمال الأدب، وقرأناها مقابل الكعبة المعظمة، بين أهل الحجاز وأبناء العرب، فرأينا فيها من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، وشاهدنا من فحاويها ظهور معجزة رسول الله ﷺ، خاتم النبيين، وما هي إلا فتح القسطنطينية العظمىٰ وتوابعها، التي متانة حصنها مشهورة بين الأنام، وحصانة سورها معروفة عند الخواص والعوام،..)[٢]

وأرسل السلطان رسائل إلىٰ مصر وإيران والأمراء المسلمين في أوروبا، وإلىٰ بقية الدول الإسلامية في العالم الإسلامي، ببشارات الفتح[٣].

٣- **أثر الفتح علىٰ العالم النصراني**[٤]: اهتزّت له مشاعر أوروبا النصرانية، وكان **سقوطها نهاية العصور الوسطىٰ، وبدء العصور الحديثة**، التي رافقتها النهضة العلمية في شتىٰ مجالات الحياة، ومنها القوة العسكرية، البرية والبحرية، تنادي النصارىٰ إلىٰ نبذ الخلافات، وحزن البابا كثيراً، وترأس مؤتمراً في روما للدول الأوروبية جميعها، لعقد حلف يضمها كلها بحلف واحد، **ولكن الموت عاجله كمداً عام ١٤٥٥م، إضافة إلىٰ انقسام أوروبا علىٰ نفسها في حرب المئة عام، بين فرنسا وإنكلترا**، وانشغال إسبانيا بالقضاء علىٰ مسلمي الأندلس

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ١٥٠، عن (السلطان محمد الفاتح)/ ص١٤١-١٤٢

(٢) المصدر السابق/ ١٥٤، عن (الدولة العثمانية)، د. جمال عبد الهادي/ ٤٨

(٣) المصدر السابق/ ١٥١، عن (محمد الفاتح)/ ص١٤٢

(٤) المصدر السابق/ ص١٤٨-١٥٢ بإيجاز

عمومـًا، والتهيؤ للقضاء علىٰ مملكة غرناطة، ثم إن المجر هُزمت شرّ هزيمة علىٰ يد الفاتح، واستولىٰ السلطان علىٰ شبه جزيرة البلقان والقرم(١).

ومما يجدر ذكره دعوة البابا بولس الثاني محمد الفاتح والمسلمين معه إلىٰ اعتناق النصرانية، ووعده بمنحه (صك غفران) بدخول الجنة به، ثم لجأ بعد الرفض والسخرية إلىٰ التهديد، ولكن وضع أوروبا الذي أشرنا إليه، وموته أنهىٰ الأزمة مؤقتـًا(٢).

استولىٰ الفاتح علىٰ موسكو ثم انتزعها (إيفان الثالث) دوق موسكو في الأزمة بين السلطان بايزيد الثاني ابن الفاتح وأخيه عام ١٤٩٠م

٣٤



توسعات الدولة العثمانية في أوربا

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ١٤٩، عن (السلطان محمد الفاتح)/ ١٣٦، ١٣٧، ١٤٠

(٢) المصدر السابق/ ١٥٠، عن (السلطان محمد الفاتح)/ ١٤١

المطلب الثالث

وفاته ﷺ ، وأثرها علىٰ العالمين الإسلامي والنصراني

وفاته: عام ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م.

غَادَرَ الفاتح إسلامبول إلىٰ أسكدار، ليقود جيشاً عرمرماً، لا يدري أحد إلىٰ أين كان في نيته أن يتجه به، فأصابته وعكة مرضية، لم يهتم بها، إذ الجهاد له شفاء، كما تعوّد، ولكنها اشتدت عليه، فتوفىٰ في وسط جيشه، رحمه الله تعالىٰ ورضي عنه وأرضاه. والظن الأغلب أنه مات مسموماً من قبل طبيبه اليهودي الأصل (ادعىٰ اعتناقه الإسلام)، وقد قتل هذا الطبيب بعد افتضاح أمره(١).

وكان لا يعلن عن وجهته في الغزو، ويقول: لو أن شعرةً بلحيتي علمت إلىٰ أين أتجه لنتفتها وأحرقتها بالنار(٢).

غير أنه كان يتحرق لمحنة المسلمين في الأندلس، ويتوق إلىٰ نجدتهم، وكانت مملكة غرناطة تستغيث، ولا مغيث لها، وحين وفاته كانت جيوشه في جنوب ايطاليا، وقد احتلت صقليه وجنوب إيطاليا إلىٰ نابولي، وعلل الكثيرون من القواد العثمانيين والأعداء أن اقتحامه لإيطاليا هو الطريق الذي سيسلكه إلىٰ فرنسا، ومنها ينحدر إلىٰ الأندلس لإعادة فتحها، غير ان القدر عاجله، مما اضطر جيشه هناك إلىٰ عقد صلح بينه وبين ملك نابولي شريطة انسحاب الجيش غير ان العدو نقض العهد، واعتقل مؤخرة الجيش العثماني، وسلسله بالحديد ثم انسحب الجيش من جنوب إيطاليا(٣).

أغلب الظن أنه كان يحاول فتح روما المدينة الثانية التي بشر الرسول (صلىٰ الله عليه

---

(١) البوم العثمانيين/ ٤٥،

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٠٢، عن (محمد الفاتح)/ ص٢٦٩

(٣) المصدر السابق/ ص٢٠١، عن (محمد الفاتح)/ ص٣٧٣

وسلم) بفتحها بعد (إستنبول)[١].

أثر وفاته علىٰ العالم الإسلامي[٢]: بكاه المسلمون، وترحموا عليه وترضّوا عنه، علىٰ المنابر والمحافل، وأقاموا له التعازي في المساجد والنوادي، ودعوا له، وخطب الخطباء وشعر الشعراء في مراثيه، وتحدّث المؤرخون والكتاب عن مناقبه[٣]، وساد العالم الإسلامي حزن عميق، إذ فقدوا من أثنىٰ عليه المصطفىٰ (صلىٰ الله عليه وسلم) وبشر به، قبل (٨٦٠ سنة) من فتحها: (... ولنعم الأمير أميرها، ...): ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾[٤]، ولقد خلفه سلاطين ساروا علىٰ نهجه وما بدّلوا، إدامة لبركته، وبركة الإسلام الحاكم.

أثر وفاته علىٰ العالم النصراني: لم يفرح النصارىٰ في حياتهم كفرحهم بموت الفاتح الذي عدل فيهم، وأحسن إليهم، غير أن حقد الحكام الظلمة والبابوية المتاجرة بالدين لكرسيها، وبيع الجنة بالصكوك لمن يخضع لها، وهو الذي حملهم علىٰ هذا الكره، فأقام الحكام والشعوب المخدوعة صلوات الشكر في جميع كنائسهم في بلادهم، وأقاموا المواكب للزينة والبهجة، وأطلقت المدافع ثلاثة أيام. ودق البابا النواقيس بموته ثلاثة أيام بلياليها، فرحة بموته![٥]

---

(١) الحديث بلفظ : (يا رسول الله أي المدينتين تفتح – القسطنطينية أم رُومِيَّةُ ؟- قال: مدينة هرقل يرد مدينة القسطنطينية)، رواه عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما)، حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين، قاله الحاكم في المستدرك علىٰ الصحيحين/ ج٤/ ص٤٦٨، ورقم الحديث ٨٣٠١ ، كما ورد الحديث في « رُومِيَّةُ » بصيغة أخرىٰ، واختصارها: (بل مدينة هرقل تفتح أولاً)، في سنن الدارمي/ ج١/ ص١٣٧، برقم ٤٨٦
وكان السلطان بايزيد عازماً علىٰ فتح روما، وهو القائل: (إنه سيفتح إيطاليا ويطعم حصانه الشعير في مذبح القديس بطرس برومة) قالها في نشوة النصر بعد معركة نيكوبوليس ضد أكبر تكتل صليبي من ١٢٠,٠٠٠ مقاتل من (المانيا وفرنسا وأنكلترا واسكتلندا وسويسرا ولوكسمبورغ والأراضي المنخفضة وبعض الإمارات الإيطالية)، وجيش بايزيد ١٠٠أ٠٠٠!، الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٨٨، عن (محمد الفاتح)، د. سالم الرشيدي/ ص٣٣

(٢) المسك الفاتح من سيرة محمد الفاتح، الصلابي/ ص١٧١-١٧٤ بإيجاز

(٣) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٠٣-٢٠٤، عن (شذرات الذهب)/ ٧/ ص٣٤٥

(٤) سورة الاحزاب / الآية ٢٣

(٥) البوم العثمانيين/ ٤٥، و(الدولة العثمانية)، الصلابي/ ص٢٠٢

وكانت جيوشه قد امتلكت جنوب ايطاليا وعازمة علىٰ امتلاكها مع فرنسا في طريقها إلىٰ تحرير إخوانهم المسلمين في الأندلس، الذين أخمدت أنفاسهم في محاكم التفتيش بعد (١١) سنة من موت الفاتح، وكان ﷺ يتحدث بحرقة قلب وأمنيات ايمانية صادقة.

اكتشف في عهده قبر أبي أيوب الانصاري، اكتشفه العالم آق شمس الدين، وصلّىٰ فيه أول صلاة جمعة خطيباً[١].

توفىٰ وعمره (٤٩) سنة، ودفن بجامع فاتح الذي بناه[٢]. خلّف ثلاثة أبناء وبنت واحدة.

كانت مساحة دولته في عهد أبيه ٩٠٠٠٠ كم^2، وأصبحت في زمانه (٢٢٢٠٠٠٠كم^2)، أي أكثر من عشرين ضعفاً[٣].

ماقاله مشاهير التاريخ في محمد الفاتح:

۞ يقول المؤرخ الايطالي (zoro dolphin) : (انتهت العصور الوسطىٰ وبدأت العصور الحديثة بمحمد الفاتح) .

۞ ويقول المؤرخ : (السلطان محمد يندر أن يضحك ، ذكاؤه يعمل بصورة مستمرة ، كريم جداً عنيد، وجسور، وجريء في تصميمه ، ذكاؤه متّقد ، هو كالإسكندر الكبير، لا يشبع من الشهرة والرفعة ، يتحمل البرد والحر، والجوع والعطش ، كلامه قطعي لا يخشىٰ أحداً ، بعيد عن اللهو والمجون ، يتكلم التركية واليونانية والصربية بصورة جيدة ، ويجيد قراءة وفهم اللغات الأخرىٰ ، يعكف علىٰ المطالعة كل يوم مدة من الزمن ، ومن الكتب التي يطالعها : التاريخ الروماني، تاريخ البابوات أباطرة ألمانيا ، ملوك فرنسا، ولمبارديا، له علم بجغرافية إيطاليا بصورة دقيقة ، وبكامل فروعها ، علىٰ علم كذلك بجميع الحكومات الموجودة في أوربا، لا يستغني عن خارطة كبيرة لأوربا ، يتبع العلوم العسكرية والجغرافية برغبة شديدة ، ماهر في

(١) ألبوم العثمانيين/ ٤٥، و(الدولة العثمانية)، الصلابي/ ص١٦٧، عن (الفتوح الإسلامية عبر العصور)/ ص٣٧٦، ١٣٣

(٢) المصدر السابق/ ٤٥

(٣) البوم العثمانيين/ ٤٥، ويذكر المؤرخ أورخان أن مساحتها كانت ٢,٠٠٠,٠٠٠كم^2

تكييف نفسه علىٰ عادات وتقاليد الأقطار المختلفة الموجودة في دولته.) نقلاً عن (تاريخ الدولة العثمانية يمان أوتاتورك) : (محمد الفاتح ليس متخصصـاً في اللغات من الدرجة الأولىٰ فحسب ، ولا مؤرخـاً وفيلسوفـاً فحسب ، بل هو إلىٰ جانب ذلك إداري عظيم ، وخبير في استعمال الأسلحة بشكل خارق للعادة)[١] .

أول من اخترع الصواريخ :

كانت الامبراطورية الإسلامية العثمانية أول من اخترع الصواريخ . (استعمل فاتح في حصار اسكود ار ، بالونات وصواريخ حريق ، و ١١ مدفعـاً ضخمـاً جداً ، وصواريخ طيارة - تتفجر في المكان الذي تمسه) [٢].

(١) المؤرخ البريطاني : (tle harmen .N.M. panjer) لندن / ١٩١٦ م . ص - ٢٣٧.

(٢) المصدر السابق/ ١٦٨

المبحث الثامن

(السلطان رقم ٨)

السلطان بايزيد الثاني

حياته: (٨٥١-٩١٨هـ) = (١٤٤٦-١٥١٢م) عمّر ٦٥ سنة

حكم: (٨٨٦-٩١٨هـ) = (١٤٨١-١٥١٢م) - حكم ٣١ سنة، عن عمر ٣٤ سنة[١].

هو ابن محمد الفاتح، كان وديعـًا، أديبـًا، وشجاعـًا مقدامـًا، وكان خطاطـًا وملحنـًا، عالمـًا بالعلوم الإسلامية والعربية والفلك، استعان بالخبراء الفنيين اليونانيين والبلغاريين في تحسين شبكة الطرق والجسور لربط أقاليم الدولة ببعضها[٢]، أكرم العلماء والشعراء، وله ديوان شعر في الحكمة والقيم الإسلامية، ولقد عُني به والده بتربيته علىٰ يد أشهر علماء عصره، **ولقد لقب بـ(الولي) لورعه**، وكان يعز العلماء والشعراء، فيجمعهم في قصره.

اشتهر بالتقوىٰ والورع، كان يعتكف العشرة الأواخر من رمضان، مجاهداً، شجاعـًا، يباشر الحروب بنفسه، **كان يجمع غبار ثيابه في المغازي، حتىٰ صنع منها (لَبِنة) صغيرة، وأوصىٰ بوضعها تحت خده الأيمن في قبره**[٣].

تعلم الخط حين كان أميراً لمدينة أماسيا، علىٰ يد شيخ الخطاطين (مولانا حمدالله)، وتمرّن معه، حتىٰ قارب أن يصل إلىٰ مرتبة أستاذه، وبعد وفاة والده لم يتولّ السلطنة إلا بعد أداء فريضة الحج، وفي سلطنته أكرم أستاذه الخطاط، وكان السلطان قبل توليه السلطنة يحمل له محبرته إجلالاً له واحتراماً للخط العربي، وسأل معلمه الخطاط عن ابتكار أنماط أخرىٰ

---

(١) البوم الدولة العثمانية/ ٤٧

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٠٥، عن (الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث)/ ص٥٠

(٣) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢١٧، عن (تاريخ سلاطين آل عثمان)، القرماني/ ص٣٦

من الخط غير (الأقلام الستة)، فاعتكف أربعين يومـًا، حتىٰ توصل إلىٰ اختراع ستة أنماط أخرىٰ جديدة - وهي: (النسخ والثلث والريحاني والمحقق والتوقيعي والرقعة)[١].

اهتم ببناء الجوامع والمدارس والعمارات ودور الضيافة (الخانات - الخانقاه)، والتكايا للصوفية وشيوخهم وللفقراء، والمستشفيات والحمامات والجسور، وشبكة الطرق، مستعيناً بالمهندسين الأوروبيين، كما اهتم بالصدر الأعظم والمفتي والعلماء والمدرسين.

٣٥



السلطان بايزيد الثاني [٢] (١٤٤٧-١٥١٢)

السلطان الولي التقي ذوالورع النقي: عندما اكتمل بناء جامع بايزيد وتم فرشه، جاء يوم افتتاحه للصلاة فيه، ولكن من سيقوم بإمامة المصلين في هذه الصلاة؟ أيؤم الناس الإمام

(١) (فن الخط التركي بين الماضي والحاضر)، معمر أولكر، ص٣٠٨

(٢) ألبوم الدولة العثمانية/ ٤٧

المعين لهذا الجامع؟! أم شيخ الإسلام؟! أم أحد العلماء المعروفين؟! لم يكن أحد يعلم ذلك، وكان الجميع في انتظار من يتقدم إلىٰ الإمامة.

عندما اصطفت الصفوف وقف إمام الجامع وتوجه إلىٰ المصلين قائلاً لهم: ليتقدم للإمامة من لم يضطر طوال حياته لقضاء صلاة فرض، أي: من صلىٰ الصلوات الفرض في أوقاتها طوال حياته.

دهش الحاضرون من هذا الشرط، وبدأ بعضهم يتطلع لبعض، وبعد انتظار دقيقة أو دقيقتين، شاهد المصلون السلطان (بايزيد الثاني) وهو يتقدم للإمامة، بكل هدوء، ثم يكبر لصلاة الجماعة بخشوع[١].

حين توليه السلطنة واجه مشكلة خطيرة، وهي تمرّد أخيه (جم) في بروسة، الذي بايعه أهلها سلطانـًا، وطلب من أخيه بايزيد الاعتراف به، فرفض، لأن والده أوصىٰ ببايزيد سلطانـًا بعده، ثم اقترح عليه أخوه تقسيم الدولة بينهما – الأوروبي له، والأسيوي لبايزيد، واستمرت مشكلة أخيه ١٤ سنة[٢].

أعدّ السلطان جيشـًا ضخمـًا ضدّ أخيه، ففرّ إلىٰ مصر، ثم قاد حملتين ضده، فهزمه، فالتجأ إلىٰ رودس، «ثم باعه فرسان مالطة إلىٰ البابا، وقضىٰ في روما عدة سنوات، ثم طلب ملك فرنسا من البابا أن يعطيه أخا السلطان فلم يستطع البابا الرفض، فأعطاه، ولكن بعد أن دسّ له السمّ، لذا مات قبل أن يصل إلىٰ باريس، وجلب السلطان بايزيد جثة أخيه، ودفن في بلده»[٣].

كانت موسكو أيام الفاتح تحت حكم العثمانيين فانفصلت في هذه الأزمة بين السلطان وأخيه ٨٨٦هـ - ١٤٩٠م، وكان دوق موسكو (ايفان الثالث) هو الذي انتزعها من أيدي العثمانيين[٤].

---

(١) دعوة للتميز، مريم عبد الله النعيمي عن كتاب (روائع من التاريخ العثماني)، أورخان محمد علي/ ص٥٤

(٢) البوم الدولة العثمانية/ ٤٧

(٣) هذه ملاحظة تلميذي العالم المؤرخ أورخان محمد علي، في استنبول، شاكراً له.

(٤) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٠٧، عن (الدولة العثمانية)، د. جمال عبد الهادي/ ص٤٩-٥٠.

عقد السلطان صلحـًا مع المماليك في الشام ومصر، إذ كان يؤثر السلم مع المسلمين.

حرِص علىٰ إنقاذ مملكة غرناطة في نهاية القرن الثامن الهجري – الرابع عشر الميلادي من السقوط، كما حرص علىٰ مساعدة مسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة ومحاكم التفتيش، وشجع مسلمي الأندلس – المور سكيين – علىٰ الثورة، وأمدّهم بالعون والجند والسلاح، خاصة غرناطة وبلنسية، ولكن الثورة أخمدت بقسوة ووحشية متناهية، فهدد بايزيد الثاني أن سيفعل بنصارىٰ دولته نفس ما فعل الإسبان بالمسلمين، ليكفّ فرديناند وايزابيلا عن مجازرهم، وأرسل الأندلسيون رسالة استغاثة، معها قصيدة من أكثر من مئة بيت، ليتوسط بايزيد لدىٰ البابا، في كشف الضرّ عنهم، فلم يستجب البابا، وسيأتي ذكرها، وذكر محاولات الإنقاذ لاحقـًا[١]؛ غير أن حروب أوروبا مجتمعة ضده منعته من إرسال النجدة القوية الفعالة، إضافة إلىٰ نزاعه مع أخيه (جم)، ومع ذلك فقد وجّه أسطولاً إلىٰ سواحل صقلية والشواطئ الإسبانية في أواخر القرن الخامس عشر، ولم تواجهه أية دولة – خوفـًا من الأسطول العثماني، وأحرز نصراً بحريـًا علىٰ أساطيل البندقية في خليج لبانتو في اليونان (٩٠٩هـ/ ١٤٩٩م)، **واستولىٰ علىٰ البندقية**، وتقدمت جيوشه إلىٰ وارشو، وفتحت قلاعـًا محكمة في أوربا، تمهيداً لتوغل الجيوش الإسلامية في أواسط أوروبا للوصول إلىٰ الأندلس – انقاذاً لمسلميها. ولم تتم في زمانه فتوحات واسعة. مما أدىٰ إلىٰ اتفاق الأساطيل الفرنسية والإسبانية والبابوية ضده، فعقد الصلح معهم[٢].

كانت حروبه قليلة وكان يقودها بنفسه – فتح عدة مدن في أوروبا، وحاصر بلغراد للمرة الثانية، وانتصر انتصارات نادرة، وأخمد تمرد (شاه قولو) في إستنبول[٣].

وحارب المماليك في مصر عام (١٤٨٤-١٤٨٥م)، علىٰ الحدود الشامية، انتهت

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٠٨، عن (جهود العثمانيين لانقاذ الأندلس)، د. نبيل عبد الحميد/ ص١٢٥، غير أن مصدراً آخر ذكر الاستيلاء عليها في عصر الخليفة مراد الثالث وسنأتي ذكره.

(٢) المصدر السابق/ ص٢١٦، عن (الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث)/ ص٥٢

(٣) البوم العثمانيين/ ٤٧

بالصلح حتىٰ نهاية حكمه عام ١٥١٢م[١].

تنازل السلطان بايزيد عن العرش لابنه سليم أقوىٰ أولاده، .. وكان مريضـًا، وتوفي في قرية (آبالر) عن عمر (٦٥)[٢]. وكتب علىٰ قبره (انتهىٰ السلطان بايزيد خان ولي) وهي تاريخ وفاته بحساب الجمّل[٣].

كان بايزيد ميالاً إلىٰ السلم، عمل علىٰ إقامة علاقات دبلوماسية مع دول أوربا، بدءاً بروسيا ٨٩٨هـ. مما فتح الباب أمام أعدائه لكشف ضعف الدولة، ثم التآمر عليه[٤].

حدث زلزال مدمر في إستنبول تكرّر يوميـًا للحظات خلال ٤٥ يومـًا، تدفقت أمواج البحر فوق أسوارها وهدم أكثر من ألف منزل ومئة مسجد وقصور وأسـوار، ثم أصلح الضرر[٥].

توفىٰ عن عمر ٦٥ سنة، وصلىٰ عليه حتىٰ في مصر[٦]، ثم دفن في إستنبول بجوار جامعه، وكانت في زمانه محنة الأندلس في تسليم غرناطة ومحاكم التفتيش عام ٨٩٧هـ - ١٤٩٢م.

وخلف (٨ بنين و٥ بنات)[٧].

بلغت مساحة دولته في نهاية حكمه إلىٰ ٢٣٧٥٠٠٠ كم^{٢}، وكان اتساعها في آسيا في جميع أراضي إيران والعراق والشام[٨].

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ٤٧، في حين يذكر الصلابي في كتابه/ ص٢٠٧، أن الحرب بينهما كانت عام ١٤٩١م، عن (قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين)/ ص٦٦

(٢) المصدر السابق/ ٤٧

(٣) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٠٧، عن (الدولة العثمانية)، د. جمال عبد الهادي/ ص٤٩-٥٠

(٤) ألبوم العثمانيين/ ٤٧

(٥) أنظر تاريخ سلاطين آل عثمان، يوسف آصاف، ص ٦٦.

(٦) البوم العثمانيين/ ٤٧

(٧) المصدر السابق/ ٤٧

(٨) المصدر السابق./ ٤٧

المبحث التاسع

(السلطان رقم ٩)

الخليفة الأول السلطان سليم الياووز (المروّع)

المطلب الأول

ترجمة حياته

حياته: (٨٧٠-٩٢٦هـ) = (١٤٦٥-١٥١٩م) عمّر ٥٤ سنة

حكم: (٩١٨-٩٢٦هـ) = (١٥١٢-١٥١٩م) – حكم ٨ سنوات، عن عمر ٤٦ سنة[١].

هو ابن بايزيد الثاني، كان مجاهداً تقياً، صارماً في تصفيته خصومه، شغوفاً بالأدب، وله أشعار غزيرة وحيدة، وكان رقيقاً، أديباً يحب العلماء، والأدباء، وهو الخليفة الأول من السلاطين العثمانيين[٢].

هو أول من تسمىٰ (بخادم الحرمين الشريفين).وكان اهتمامه بتسليح الجيوش كبيراً حتىٰ إنه استخدم المدافع المتحركة التي هزم بها المماليك[٣].

توقف عن الحرب في الغرب الأوروبي، نسبياً ، وتوجه نحو الشرق الإسلامي والمغرب الإسلامي ، إذ أحرز انتصارات جبارة فيهما، مما حمل آخر الخلفاء العباسيين (المتوكل) علىٰ التنازل للسلطان سليم، ومنحه لقب (الخلافة)[٤]، وهو لقب (خادم الحرمين الشريفين)، وهو

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ٤٩

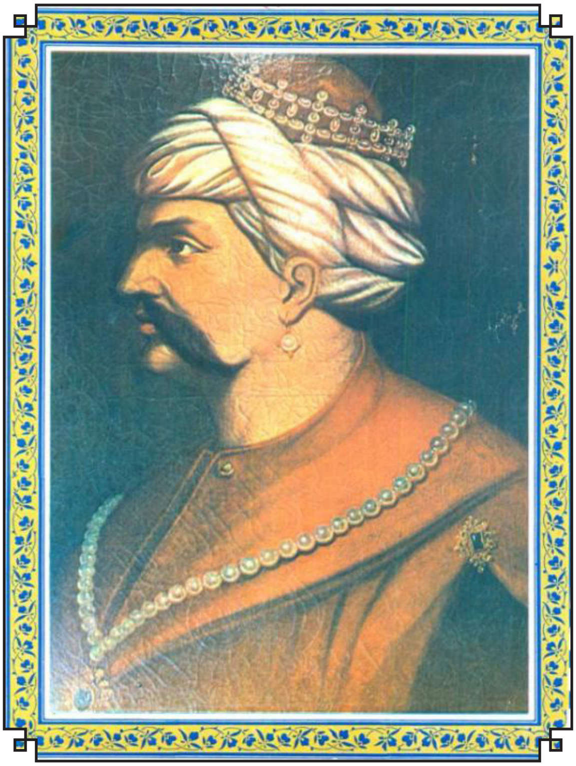
(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ٤٩، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢١٩، عن (أصول التاريخ العثماني)/ ص٧٦

(٣) المصدر السابق/ ٢٣٣

(٤) ومن المتعارف عليه بين المؤرخين أن الخلافة العباسية إنتهىٰ حكمها حين سقوط بغداد، علىٰ يد هولاكو (٦٥٦هـ)، غير أنها بالواقع بقيت ضعيفة هزيلة، صورية، بعد السقوط، لدىٰ المماليك في مصر، حتىٰ سنة ٩٢٠هـ أي بعد (٢٦٥) سنة، وندر من يعرف هذه الحقيقة، انظر السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص١٤.

من أرفع الألقاب التي يعتز بها السلطان العثماني (سليم الأول) في عام ١٥١٦م، وأعاد بناء الحرم المكي بأفضل المهندسين الماهرين والبنائين العريقين الذين هدموا البناء القديم جزءاً جزءاً، وأعاد بناء الحرم كاملاً، بما ظهر بأبهىٰ حلّة زاهياً بتناسق زخارفه وفخامة قببه وأعمدته[١]، ومازال ذلك شاهداً حتىٰ اليوم، وذلك (سنة ٩٢٠هـ - ١٥١٤م)، بعد أن قضىٰ علىٰ المماليك، وضم مصر بعد الشام إلىٰ دولته ونقل جميع الأمانات المقدسة إلىٰ إستنبول، وبنىٰ مسجد (السلمية) في أدرنة[٢].

٣٦



السلطان والخليفة سليم الياوز (١٤٧٠-١٥٢٠)[٣]

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ٢٣٧، عن (تاريخ العرب الحديث)، مجموعة من العلماء/ ص٤٠

(٢) صحوة الرجل المريض/ ٨١

(٣) ألبوم العثمانيين/ ٤٩

المطلب الثاني

التعريف بالصفويين

مؤسسها الشاه إسماعيل الصفوي (٨٥٩هـ/ ١٤٥٥م)، أسسها وعمره ١٣ سنة.

كان والده الشيخ حيدر، تزوج من (مارثة)، أمها مسيحية (كاترينا) بنت ملك طرابزون، علىٰ البحر الأسود، خلف ٣ أولاد، أصغرهم (إسماعيل)، مؤسس الدولة الصفوية، كان عمره سنة واحدة حينما قتل أبوه[١]، ربّته أمه مارته، وأمها كاترينا بنت كارلو يوحنا ملك طرابزون، وهي مسيحية[٢].

شملت دولته ماوراء النهر والعراق وقفقاسيا، إضافة إلىٰ إيران، شيّع شعوبها بالقوة، وسب الخلفاء الثلاثة شعاراً لدولته، وسبّ الصحابة، احتل بغداد عام ١٥٠٨م، وقتل الملايين من السنة، ونبش قبر الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه[٣]، وكان سبّ الخلفاء في الشوارع وعلىٰ المنابر، ومن لا يسبهم تقطع رقبته فوراً.

أمر بقتل والدته التي ثبتت وأصرّت علىٰ المذهب السني ، وحوّل إيران السنية بالدم والنار إلىٰ إيران الشيعية ،وحظر اعتناق المذهب السني .

ادعىٰ إسماعيل أن الإمام المهدي أجازه بالثورة، بعد دخوله كهفًا رآه فيه، فخرج متقلداً سيفه، وشاهد علياً رضي الله عنه في المنام فأقره علىٰ مذهبه ! وكان يؤمن بالكشف، أي الالهام الغيبي، وأنه معصوم!

أمر بتنظيم الاحتفال بذكرىٰ مقتل الحسين، كما هو الآن ، وكان قد بدأه البويهيون في القرن (١٤م)، ثم تطورت إلىٰ (مجالس التعزية)، ثم إلىٰ (التشبيه والتمثيل) بعائشة (رضي

(١) التعريب القرآني في ضوء الصراع الصفوي العثماني، وأثره في بلورة الطائفية، علاء الدين المدرس/ ص٦٢٥

(٢) المصدر السابق/ ص٣٥، ٣٦

(٣) المصدر السابق/ ص١٠

الله عنها) والخلفاء[١].

أباح دم المسلمين وقتالهم، كان هو وأتباعه يشربون الخمر، ويمارسون القتل العشوائي والتعذيب والمحرمات، وهم المخترعون لاستخدام التربة في السجود في القرن (١٠) الهجري[٢].

خلفه بعد موته وعمره ٣٧ سنة ابنه الشاه طهماسب، وكان ضعيفًا في إدارته، وبعده حكم الشاه عباس الكبير – عباس الثاني (٩٩٦-١٠٣٨هـ/ ١٥٨٧-١٦٢٩م)، الذي استعاد قوة الدولة، وحكم (٤٢) سنة، بمساعدة الإنكليز ، وحوّل إيران إلىٰ قوة عسكرية.

استرد العثمانيون العراق وبغداد ثانية، وعاصمتهم تبريز والولايات الشمالية لإيران، ثم بدأ الضعف يدب في الدولة حتىٰ بلغ التدهور أقصاه في ١١٣٦هـ/ ١٧٢٤م، حتىٰ مجيء نادر شاه ١١٤٨هـ/ ١٧٣٥م[٣].

أرسل الشاه حسين الصفوي عام ١٧٠٨م كتابًا رسميًا إلىٰ ملك فرنسا لويس الرابع عشر، وقع معاهدة تحالف بين فرنسا وإيران، ومن بنودها إرسال فرنسا أسطولاً إلىٰ الخليج العربي لمساعدة إيران علىٰ احتلال مسقط[٤].

وفي منتصف القرن التاسع عشر اتفقت إنكلترا وإيران علىٰ ضرورة وضع خطة محكمة لنشر التشيع الصفوي بين العشائر العربية جنوب العراق والخليج، وتم انتماء بعض العشائر العربية إلىٰ التشيع الصفوي[٥].

كان الاحتلال الصفوي لبغداد علىٰ عهد الشاه عباس ١٦٢٣، بعد حصارها ٣ أشهر،

(١) المصدر السابق/ ص١٦

(٢) المصدر السابق/ ص٢٠

(٣) المصدر السابق/ ص٣٢

(٤) المصدر السابق/ ص٤٧-٤٨

(٥) المصدر السابق/ ص٤٨-٤٩

فعل كما فعل جده الشاه إسماعيل وزيادة، فهدم مرقدي الإمامين أبي حنيفة، والشيخ عبد القادر الجيلاني، وقتل الكثير من أهل السنة(١).

كان من أكبر علمائهم (الشيخ المجلسي) في أواخر العصر الصفوي ١٦٩٩، قبل سقوطها بـ ٢٣ سنة – أشهر كتبه (بحار الأنوار) من ٢٥ مجلداً، وهو أضخم ما كتب بالعربية، فيه الفضائح المذهلة لمذهبهم! وهو معتمد عقيدتهم.

فتح بغداد من قبل مراد الرابع عام ١٦٣٨، بعد احتلالها بـ ١٥ سنة، من قبل شاه عباس، وعقد الصلح، واستمر ٩٠ سنة بسبب ضعف الصفوية(٢).

جاء إلىٰ الحكم بعد عباس الكبير حفيده الشاه صفي الدين الذي كان منغمساً في السكر والنساء، ثم ابنه عباس الثاني، وحفيده الشاه سليمان، الذين انغمسوا في اللهو والعبث لفترة امتدت ربع قرن (١٦٦٦-١٦٩٤م)(٣).

بعد (مراد الرابع) بدأ الانحطاط للدولة العثمانية واضحًا، كما بدأ النفوذ الأوروبي، وظهر الصراع الغربي العثماني المعروف (بالمسألة الشرقية في تقسيم إرث الدولة العثمانية)(٤).

سقوط الدولة الصفوية: علىٰ يد إحدىٰ القبائل الأفغانية (١١٣٥هـ/ ١٧٢٢م)، وكانت الدولة الصفوية قد احتلت أكثر بلاد الأفغان واضطهدتهم، ولكنها لم تنجح في تحويلهم إلىٰ التشيع، إلا قلة من القبائل الحدودية لإيران، وقد توغل الأمير ويس ١٧١٥م، في أراضي الدولة الصفوية وواصل ذلك بعده الأمير محمود التركي الأصل الذي تم له القضاء علىٰ الصفوية واحتلال عاصمتهم أصفهان ١٧٢٢م، وأعلن سقوطها، أتىٰ بعده ابن عمه (أشرف خان ١٧٢٥م).

بين دولة الافغان والعثمانيين، وبعد ذلك شب الصراع وكلتاهما سنة وأحناف: وقد هزم الأفغان العثمانيين، ثم تم الصلح بينهما علىٰ أن يعترف الأفغان بخلافة السلطان العثماني

(١) المصدر السابق/ ص٤٩-٥٠

(٢) المصدر السابق/ ص٥٠

(٣) المصدر السابق/ ص٥١-٥٢

(٤) المصدر السابق/ ص٥٢

(أحمد الثالث ١١٤٣هـ/ ١٧٣٠م)، وأن يبقىٰ (أشرف خان) ملكـاً علىٰ إيران والأفغان، وكالة عن السلطان العثماني ١٧٢٧م[١].

ظهور نادرشاه: (نابليون الشرق)، كما سماه الأوروبيون[٢]، كان راعياً للغنم في صباه في خراسان، ثم قاطع طريق (رئيس عصابة)، وصل أتباعه إلىٰ ٥٠٠٠ محارب، استطاع خلال سنتين طرد الأفغان، وقضىٰ علىٰ (أشرف خان)، وطرد العثمانيين من إيران الغربية، حاصر (نادرشاه) بغداد مرتين والموصل، وعزل طهماسب شاه، ونصب ولده الرضيع، ونصب نفسه وصياً عليه، ثم اختاره القادة ملكـاً عليهم، فوافق بشرط عدم سب الخلفاء، إذ كان يريد جمع المسلمين من غير طائفية، ودعا إلىٰ المذهب الخامس (الجعفري)[٣]،

واتخذ من جعفر الصادق ﵁ رمزاً للتقريب بين الفريقين، وكان الصادق في عصر الإمام مالك وأبي حنيفة، كانا يجلانه، ومن قوله: (ولدني أبوبكر مرتين)، فأمه (فروة) زوجة الإمام الباقر ﵁ هي بنت القاسم محمد بن أبي بكر الصديق ﵁، وأمها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وهو جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين ﵁ بن علي ﵁، فالإمام الصادق علوي بكري، من حيث النسب[٤].

فتح نادر شاه الهند، وأخضعها لحكمه ١٧٣٨م، ثم اجتاح بلخ وبخارىٰ، حيث وصل إلىٰ قمة مجده، فأطلق علىٰ نفسه (شاهنشاه) أي ملك الملوك.

ألغىٰ تقاليد وعقائد الصفويين، وأرسل هدايا إلىٰ مرقد الإمام أبي حنيفة وإلىٰ مراقد الأئمة في الكاظمية والنجف وكربلاء، وأرسل هدايا إلىٰ السلطان العثماني ووالي بغداد (أحمد باشا)، وتبرع بتذهيب قبة المرقد العلوي[٥].

---

(١) المصدر السابق/ ص٥٦-٥٧

(٢) هو أحد جبابرة التاريخ القساة والطغاة المتجبرين

(٣) المصدر السابق/ ص٥٩-٦٢

(٤) المصدر السابق/ ص٦٣

(٥) المصدر السابق/ ص٦٤

غزو نادرشاه العراق للمرة الثالثة: عام ١٧٤٣م ، طلب من السلطان العثماني محمود الأول (١٧٣٠-١٧٥٤م)، الاعتراف الرسمي بالمذهب الجعفري، فلم يستجب، فأعلن الحرب علىٰ العثمانيين والزحف علىٰ العراق، وحاصر الموصل ٤٢ يومـًا، قذفها بـ ٤٠٠٠٠ قنبلة، وشنّ عليها خمس هجمات، دافع أهل الموصل ببطولة نادرة، فطلب الصلح من أهل الموصل، ثم تركها إلىٰ النجف، وطلب الصلح مع العثمانية، فوافق الخليفة العثماني، فزار في بغداد الإمام الأعظم، كما زار الكاظمية، وتراجع عن طلبه للدولة العثمانية بمشروع المذهب الخامس (المذهب الجعفري)، ثم عاد إلىٰ النجف، وأمر أن تبنىٰ القبة، وتغطىّ بالذهب لمرقد الإمام[1].

مؤتمر النجف: عقده السلطان نادرشاه في ١١/ ١٢/ ١٧٤٣م/ ١١٥٦هـ، جمع من علماء العراق فيه أكثر من مئة عالم، برئاسة العلامة السويدي السني – علامة العراق، وكّله أن يرفع جميع المكفرات المستحدثات في الدين من قبل إسماعيل الصفوي، وبعد الحوار الطويل تحت السقيفة قرب ضريح الإمام، كتبوا محضراً يشمل ما اتفقوا عليه، خلاصته ما يأتي:

١- هجر المكفرات والمستحدثات في العصر الصفوي والسب، وقبلوا المذهب الجعفري مذهبـًا خامسـًا.

٢- اشتراك أتباع المذهب الجعفري مع بقية المذاهب في الحج والصلاة.

٣- فك الأسرىٰ من الجانبين العثماني والإيراني، ومنع التحقير والاذلال عليهم.

٤- رفع الخلافات بين أمة سيد الثقلين محمد ﷺ .

٥- إقرار بشرعية الخلفاء الراشدين الأربعة والصحابة.

٦- الإمـام جعفر الصادق من كبار أئمة أهل البيت، وممدوح من سائر المسلمين وأئمة المذاهب الإسلامية.

(١) المصدر السابق/ ص٦٥-٦٦

٧- أخوة الدين بين الإيرانيين وجميع السنة، وتحريم قتل واحد منهم للآخر أو نهبه أو أسره[١].

وفي ختام المؤتمر صلىٰ المجتمعون صلاة الجمعة في جامع الكوفة، وتقدم السيد نصر الله الحائري، مجتهد العراق في كربلاء فألقىٰ خطبة، أثنىٰ فيها علىٰ الخلفاء الأربعة، كما أثنىٰ علىٰ بقية الصحابة وأهل البيت، ثم دعا للسلطان العثماني محمود الأول ولنادرشاه بعده[٢].

اعتراف العثمانيين بقرارات المؤتمر: وذلك بعد المؤتمر بمدة قصيرة عاد التوتر بين الإيرانيين والعثمانيين، ودارت حروب الحدود بالقرب من إرمينيا، وانتصر فيها نادرشاه، وأبدىٰ رغبته بالصلح، وتم الصلح بوساطة والي بغداد أحمد باشا في ٢١/ ٣/ ١١٤٧هـ، زمن الخليفة السلطان محمود الأول (١١٤٣-١١٦٨هـ)[٣].

اغتيال نادرشاه: في ٢٠/ ٦/ ١٧٧٤م، من قبل بعض الإيرانيين الغلاة والعنصريين، لأنه قرّب التركمان والأزبك أكثر من الإيرانيين الفرس، بعد مقتله بدأ الصراع من جديد بين الشيعة والسنة، وبين الأقاليم، فانفصلت الأفغان والهند، وشاع القتل واضطراب الأمن، وتتابع الصراع بين عشرة من الملوك من أسرة نادرشاه علىٰ الحكم، وكان كل من يحقق النصر يسمل عيني غريمه، استمرت الفوضىٰ **حتىٰ سقوط الدولة الصفوية عام ١٧٩٦م**[٤].

الدولة الفاجارية[٥]، ظهرت عام ١٧٩٦م، واستمرت حتىٰ العقد الثاني من القرن العشرين (حوالي ١٣٠ سنة)، إذ ورثتها أسرة البهلوية، وعادت إلىٰ التعصب الصفوي القديم، وترويج البهلوية السب، وانتهىٰ الصراع بين الدولتين العثمانية والفاجارية منذ منتصف القرن ١٩

(١) المصدر السابق/ ص٦٦-٧٠، ويذكر العلامة عبد الله السويدي في مؤتمر النجف/ ص٢٤، ٢٦، أن تمّ استخراج ٢٠٠ رواية في مناقب أهل البيت وصلتهم بكبار الصحابة، لاسيما الخلفاء الراشدين وأبنائهم من (٥٠) خمسين مصدراً من كتب الإمامية المعتبرة، بما يعجز عن ذكر هذه المناقب علماء السنة.

(٢) المصدر السابق/ ص٧٢

(٣) المصدر السابق/ ص٧٢-٧٣

(٤) المصدر السابق/ ص٧٣

(٥) حكم إيران بعد الصفويين (الافقانيون، فالأفشاريون، فالختاريون، فالرنديون) قبل الفاجاريين، أطلس التاريخ العربي الإسلامي، شوقي أبو خليل/ ص٢٣٦

بصلح بينهما[١]، وبعد الأسرة البهلوية قامت الثورة الإسلامية بقيادة الإمام الخميني ١٩٧٩م، علىٰ محمد رضا بهلوي، ونكتفي بهذا القدر، ولا نجاوزه إلىٰ ما بعده!

المطلب الثالث

حروب السلطان ضد الدولة الصفوية[٢]

ابتدأت حروبها بالسلطان سليم الياووز سنة ٩٢٠هـ = ١٥١٥م، وانتهاء بالسلطان عبد الحميد الأول (الغازي) سنة ١٢٠٠هـ = ١٧٨٠م، ولمدة (٢٨٠) سنة.

إن أهم عمل عسكري قام به هو تصديه للصفويين في إيران، ونسب الصفويين إلىٰ الشيخ الصوفي صفي الدين الأردبلي[٣] (٦٥٠-٧٣٥هـ / ١٢٥٢-١٣٣٤م)، الذي التف حوله المريدون من المتصوفة والدراويش في إيران والعراق والشام، وهو الجد الأكبر لإسماعيل الصفوي، مؤسس الدولة الصفوية حوالي (٩٢٠هـ - ١٥٢٥م) وكاد يدعي الربوبية، ويسجد له عسكره، ثم تحول إلىٰ المذهب الشيعي، ونسب نفسه إلىٰ آل البيت كذبا، ثم أعلنه مذهبـًا رسميـًا للدولة، فرضه بالتهديد علىٰ عموم إيران، وفعل بأهل السنة الافاعيل وأحرق الكثيرين، وسمل عيون الآلاف منهم، وأحرق مكتباتهم ومصاحفهم، وحرّف القرآن، وكفّر الصحابة، ولعن صدر الإسلام، ولم تهزم له راية إلا من قبل العثمانيين[٤].

---

(١) المصدر السابق/ ص٧٣-٧٧

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٢٠-٢٢٩ بايجاز، ويذكر المؤرخون أن الحروب مع الصفويين استمرت من (٩٠٠-١٢٠٠)هـ أي استمرت (٣٠٠) سنة.

(٣) بدأ دعوته شيخـًا صوفيـًا شافعيـًا سنيـًا، عملًا بالتقية، ثم ادعىٰ أنه من سلالة الإمام علي ﷺ، وأن الإمامة له، وانتشرت دعوته في إيران، وامتدّت إلىٰ العراق، وبدأ بهذه الدعوة فتحولت إيران من المذهب السني إلىٰ الشيعي الإمامية، وذلك في مطلع القرن الثامن الهجري ومطلع القرن الرابع عشر الميلادي. ثم إن إسماعيل الصفوي أقام دولته (الصفوية) سنة ٩٢٠هـ-١٢٠٠هـ.

(٤) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٢٢، عن (الإسلام في آسيا منذ الغزو المغولي)، د. محمد نصر/ ص٣٤٢-٣٤٣، و(البدر الطالع)/ ١/ ٢٧١، و(الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٢٣، عن (جهود العثمانيين في انقاذ الأندلس)/ ٤٣٥

وكان أتباعه يعتقدون فيه الألوهية، وسقط مرة منديل من يده إلىٰ البحر، وكان علىٰ جبل شاهق مشرف علىٰ ذلك البحر، فرمىٰ بنفسه خلف المنديل فوق ألف نفس تحطموا وتكسّروا وغرقوا، لجلب منديله![١]

جمع السلطان أتباع الصفويين في الأنضول وقام بتصفيتهم وتطهير الأمة منهم، وتداول الرسائل مع إسماعيل الصفوي بالتهديد، ثم وقعت الحرب الضروس.

هزمه السلطان سليم في صحراء (جالدران) سنة ٩٢٠هـ/ ١٥٢٤م، في ١٢ ساعة، وأسر زوجته، واحتل عاصمتهم تبريز(الاحتلال الأول) وسيطر علىٰ خزينة المعسكر والعرش الذهبي، واحتل أغلب مملكتهم، **وقضىٰ علىٰ دولتهم**، ومنها إيران والعراق وكردستان والقفقاس بأقاليمها وشرق وجنوب شرق الأنضول، وكانت المعركة علىٰ بعد ٢٥٠٠ كم من إستنبول ، وهي من الوقائع النادرة في التاريخ ، انتقل سرادق الشاه وعرشه وخزينته التي تضم أكبر الماسات العالمية ، وزوجته تاجلي خانم لحوزة الدولة العثمانية . وكان نفوس تبريز العاصمة في ذلك التاريخ يتجاوز المليون نسمة ، لم يكن في أوربا – بما فيه استنبول – أي مدينته بهذا الحجم – تليت الخطبة فيها بعد احتلالها بالشعائر السنية ، وباسم السلطان سليم ١٥١٤ م.(تاريخ الدولة العثمانية ، يماز أوتونا ٢١٥ – ٢١٨) كما ضمّ المملكة الأيوبية إليه[٢].

انتقل سرادق الشاه وعرشه وخزينته التي تضم أكبر الماسات العالمية وزوجته تاجلي خانم لحوزة الدولة العثمانية .هرب إسماعيل واتفق مع البرتغاليين الكفار ضد الأتراك السنة المسلمين. ولم ينته الصراع بينه وبين السنة في الدولة العثمانية، بانتهاء المعركة، وإنما ازداد شدّة وضراوة بعدها، وكان كل من الاثنين يتربص بالآخر الدوائر، فحمل هذا الصراع فارس علىٰ التحالف مع البرتغاليين الكفار ضدّ الدولة المسلمة، مما أعان البرتغاليين علىٰ احتلال مضيق هرمز، باتفاق مع الصفويين، وعقد الاثنان اتحاداً من البرتغال وفارس ضد الدولة المسلمة

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٢٢، عن (البدر الطالع)/ ١/ ٢٧١

(٢) البوم الدولة العثمانية/ ٤٩

السنية، ووضع البرتغاليون بهذا العقد أسطولهم ضد قلاع الأتراك العثمانيين في الهند، كما وضعوا أساطيلهم في الخليج الفارسي (الخليج العربي)، إزاء البحرين والقطيف والأحساء، كما وعدوا فارس باحتلال باب المندب، والهيمنة علىٰ عدن ثم جدة، تمهيداً للانقضاض علىٰ البلاد العربية السنية، وخاصة مكة والمدينة المنورة، والمساومة ضد الدولة العثمانية علىٰ الكعبة وعلىٰ قبر جسد المصطفىٰ ﷺ في المدينة المنورة، مقابل استيلائهم علىٰ فلسطين، مولد المسيح عليه السلام[1]، هذا ما أعلنه قائد الأساطيل البرتغالية (هنري الملاح)، الحاقد الصليبي الأكبر، إنها مؤامرة خطيرة جداً علىٰ يد (الصفويين الإثني عشرية)، ضد العالم العربي والإسلامي السني، وكان علم الأساطيل البرتغالية مرسوماً عليه الصليب والمدفع، أي التنصّر أو القتل.

ثم إن السلطان العثماني اكتفىٰ بهذا النصر العظيم عن مطاردة الشاه إسماعيل، حذراً من توغله في بلاد الصفويين وكمائنهم، وحذراً من المماليك الذين كشف أمر تعاونهم السري مع الصفويين ضده، وراحة لجيشه الذي كان علىٰ بعد ٢٥٠٠ كم من إستنبول مركز تحركه ضد الشاه!

٣٧



المسجد النبوي الشريف والقبة المشرفة

وتآمر الصفويين مع البرتغاليين علىٰ قبره الشريف

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٢٦-٢٢٧، عن (جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس)/ ص٤٣٦، وقراءة جديدة في تاريخ العثمانيين/ ص٦٣-٦٤، والشعوب الإسلامية/ ص٢٢٦

لقد كان إحباط التآمر الصفوي البرتغالي، تأميناً لحماية الديار المقدسة، وتأميناً لطريق الحج، وحماية الحدود الإسلامية والطرق البحرية التي تربط الهند بالشرق الأقصىٰ والأوسط والأدنىٰ، عبر الخليج العربي والبحر الأحمر، ولاستمرار التجارة الهندية بين الهند وأوروبا والعالم الإسلامي[١]. كما هيمن السلطان بأساطيله علىٰ البحر الأحمر حتىٰ صار بحراً عثمانيًا.

تصدىٰ المماليك لمخططات البرتغال وأساطيلها في البحر العربي، ووقعت معركة بحرية بين أساطيل المماليك التي أرسلها السلطان قانصوه الغوري عند جزيرة (ديو) فانتصر المماليك، ثم كرّ البرتغاليون فانتصروا في عام ٩١٥هـ-١٥٠٩م، ثم استردت أساطيل العثمانية مقاديشو في الصومال وممباسة في كينيا، وحررت مصوع وزيلع علىٰ البحر الأحمر، وخسر البرتغاليون خسائر فادحة[٢].

ثم إن اكتشاف رأس الرجاء الصالح سنة ٩٠٤هـ - ١٤٩٧م، من قبل فاسكو دي كاما، في حياة السلطان بايزيد الثاني، يسّر نهب ثروة الهند والشرق إلىٰ أوروبا، بما مكّن دولها إقتصاديـًا، إضافة إلىٰ تسويق إنتاجها، وكان لليهود دور خطير، كجواسيس لدىٰ الأوروبيين في بلدان الشرق الإسلامي الواقعة جنوب شبه جزيرة كوجورات في غربي الهند علىٰ البحر العربي[٣].

---

(١) المصدر السابق/ ٢٢٧-٢٢٨، عن (قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين)/ ص٦٣-٦٤

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٤٢ باختصار، عن (النفوذ البرتغالي في الخليج العربي)، نوال صيرفي/ ص١٠٦، و(المماليك الفرنج)، أحمد سيد دراج/ ص١١٥، و(تاريخ كشف افريقيا واستعمارها)، شوقي الجمل/ ص١٧٢، و(موقف أوروبا من الدولة العثمانية)/ ص٣٩

(٣) المصدر السابق/ ص٢٤٠، عن (أوروبا في مطلع العصور الحديثة)، شناوي/ ١/ ١٢٣

المطلب الرابع

حروبه ضد المماليك في الشام ومصر ، وتحريره الحجاز واليمن(١)

كذلك كان هنالك تآمر سرّي بين الصفويين والمماليك في مصر (الشراكسة)، كشف وثائقه السلطان سليم.

وكان السلطان الغوري المملوكي (قانصوه) (٩٠٧-٩٢٢هـ/ ١٥٠١-١٥١٦م) يخلق متاعب للسلطان سليم سياسية وعسكرية، إضافة إلىٰ موقفه الايجابي من الصفويين، كما يخلق مشكلات الحدود بين العثمانية والمملوكية في شمال الشام، إضافة إلىٰ ظلم المماليك للشام ومصر، فاسنجدوا بالسلطان سليم لإنقاذهم من ظلمه، فكانت الحرب بينهما.

والتقىٰ الجيشان العثماني والمملوكي في موقعة (مرج دابق) عام ٩٢٣هـ - ١٥١٧م، علىٰ مشارف حلب، وقتل (الغوري) وهو بعمر (٨٠) سنة، وانتصر العثمانيون، ورحّب أهل الشام جميعهم، وسُكت النقود باسمه (سلطان وخليفة).

ثم كتب الخليفة إلىٰ زعيم المماليك في مصر بالطاعة، فرفض بسخرية وقتل رسول السلطان سليم إليه(٢).

مرّ السلطان سليم بالمسجد الاقصىٰ وقبة الصخرة بالقدس، فبكىٰ بكاء حاراً، وصلىّ صلاة الحاجة، داعياً الله أن يفتح عليه مصر(٣).

---

(١) الدولة العثمانية – الصلابي، ص٢٠٦-٢٠٧، ص٢٢٧-٢٣٧ بايجاز.

(٢) المصدر السابق/ ص٢٢٩-٢٣٠، عن (العثمانيون في التاريخ والحضارة)، د. محمد حرب/ ص١٦٩-١٧٠، و(قراءة جديدة في التاريخ العثماني)/ ص٧٠

(٣) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٣٣، عن (العثمانيون في التاريخ والحضارة)/ ص٣٠، عن المؤرخ سلامشور صاحب مخطوطة فتح نامه ديار العرب، وكان مصاحباً للسلطان سليم

٣٨



المماليك والصفويون والدولة العثمانية

٣٩



معركة مرج دابق بين المماليك والعثمانيين

وقرر السلطان الحرب، وقطع صحراء سيناء في ١٣ يوماً، في زحفه علىٰ المماليك في مصر، بينما قطعت في الحرب العالمية الأولىٰ في (١١) يوماً، بإمكانات التقنية الحديثة[١]، التقىٰ الجيشان في معركة (غزة) في فلسطين، وانتصر العثمانيون انتصاراً ساحقاً، وهُزم المماليك في (معركة الريدانية) للمرة الثانية عام ٩٢٦هـ، وأخذ القاهرة، وحمل جنازة السلطان المملوكي علىٰ كتفيه، ثم صعد الخليفة العباسي المتوكل الثالث المنبر في جامع أيا صوفيا وأعلن خلافة سليم الياووز[٢].

وكانت الحجاز تابعة للماليك ، فتقدم بعد ذلك بالطاعة للدولة العثمانية، وأصبح الخليفة سليم خادماً للحرمين الشريفين، وعظمت مكانته لدىٰ الشعوب الإسلامية، مما أدىٰ إلىٰ بسط سلطان العثمانيين علىٰ البحر الأحمر، ودفع الخطر البرتغالي عن الحجاز والبحر الأحمر، وبانهيار الحكم المملوكي، انتقلت الخلافة العباسية إلىٰ الدولة العثمانية، فسمي السلاطين العثمانيون بالخلفاء، وما كانوا يهتمون بهذا اللقب، غير أنهم اعتزوا به في أيام ضعف الدولة العثمانية[٣].

وبعد القضاء علىٰ سلطان المماليك في مصر، تقدم حاكم اليمن الشركسي المملوكي بفروض الطاعة للخليفة سليم، فأبقاه في منصبه[٤].

عندما دخل السلطان سليم حلب أطلق الخطيب الذي تلا الخطبة علىٰ السلطان سليم صفة (حاكم الحرمين الشريفين) فتدخل البارشاه وبدّل كلمة (حاكم) بخادم ، ثم

(١) توركية تاريخي، يلماز اوتونا، دار الحياة

(٢) ألبوم العثمانيين/ ٤٩، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٣٢-٢٣٥، عن (العثمانيون في التاريخ والحضارة)/ ص٢٩-٣٠

(٣) المصدر السابق/ ٢٣٥-٢٣٦، عن (الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث)/ ٦١-٦٢

(٤) المصدر السابق/ ص٢٣٧، عن (تاريخ العرب الحديث)/ ص٤٠

تلقب الخلفاء الذين انحدروا من بني عثمان بصورة رسمية حتىٰ ١٩٢٤م بلقب خادم الحرمين الشريفين.

ولقد فرّ السلطان الذي لم يتمكن من السيطرة علىٰ دموع عينيه علىٰ الأرض ساجداً سجدة شكر، ووضع رأسه علىٰ أرض المسجد المرمري بعد رفعه للسجادة من الموضع الذي يجلس فيه ، فرحًا لنيله خلافة الرسول ﷺ الشرعية ، خلع خلعته التي لا تقدر بثمن وألبسها الخطيب ، ثم أمر بنقل الأمانات المقدسة الموجودة القاهرة ومكة إلىٰ ساري طوبقا بوفي استانبول ، وشيّد جناح خرقة شريف (البردة الشريفة) لحفظها ، واكتملت صفة خلافة السلطان بانتقال القدس والمدينة المنورة ومكة المكرمة إلىٰ الإدارة العثمانية.

لقد كانت جهود السلطان سليم المكثفة في الشرق الإسلامي حماية للعقيدة الإسلامية من الانحراف وتآمر الصفويين ، ورصّـًا لصفوف السنة في الشام (سوريا ولبنان وفلسطين) ومصر والحجاز واليمن وأذربايجان وأرضروم التي ضمّها جميعها إلىٰ الدولة العثمانية، وحماية لها من خطر البرتغاليين.

وفي تآمر الصفويين علىٰ العثمانية هنالك حقيقة مقولة أوروبية شائعة : (لولا الشاه الصفوي لوصلت العثمانية إلىٰ الراين)- في ألمانيا

وبعد ضم العثمانيين بلاد مصر والشام تحت حكمهم، واجهوا البرتغاليين ببسالة، واستردوا الموانئ المهمة، منها مصوّع وزيلع، كما حرروا مقاديشو وممباسة، وأوقعوا خسائر فادحة بأعدائهم[١].

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٤٢

٤١ ٤٠



السلطان قايتباي – المملوكي



السلطان قانصوه الغوري – المملوكي

المطلب الخامس

جهوده في تحرير الأندلس

وفاة السلطان – رحمه الله في القسطنطينية، إذ عاجله الأجل قبل قطف ثمار العون لمسلمي الأندلس.

وكان ولده سليمان غائبًا، ثم دفن بحضوره وهو الذي أمر ببناء جامع ضخم لوالده، وأقاموا الموائد والصدقات له، وكان قد كتب بيتين في وفاته :

الملك لله من يظفر بنيل منىٰ   يردده قهراً، ويضمنْ بعده الدركا
لو كان لي أو لغيري قدر أنملةٍ   فوق التراب، لكان الأمر مشتركا[1]

كان هذا السلطان المجاهد (المروّع) متواضعًا، يتناول في كل وجبة طعامًا واحداً، علىٰ الأطباق الخشبية.

وصلّىٰ عليه ابنه سليمان القانوني في جامع فاتح ودفن في فناء جامع السلطان سليم،

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٤٦، عن (تاريخ سلاطين آل عثمان)، القرماني/ ص٤٠

ارتفعت مساحة الدولة زمن والده من ٢٣٧٥٠٠٠ كم٢ إلىٰ ٦٥٥٧٠٠٠كم٢ في نهاية حكمه في فتوحاته خلال (٤) سنوات، أي ثلاثة أضعاف مساحة الدولة قبله.

حكم ٨ سنين، وتوفي عن عمر (٥٤) سنة، **وكان يقرأ سورة يس في الدقائق الأخيرة من حياته، وخلف ابنًا واحداً سليمان القانوني و٤ بنات.** و توفي في عهده الإمام أحمد القسطلاني مؤلف كتاب المواهب، ورئيس الخطاطين الشيخ حمد الله[١].

٤٢



إسطنبول (فن البناء العثماني الرشيق) آيا صوفيا (إسطنبول)[٢]

(١) بينما يذكر كتاب الدولة العثمانية، الصلابي، أنه حكم (٩) أعوام و(٨) أشهر/ ص٢٤٦، عن (تاريخ سلاطين آل عثمان)، القرماني/ ص٤٠

(٢) **ألبوم العثماني/ ٤٩**

المبحث العاشر

السلطان رقم (١٠)

الخليفة السلطان سليمان الأول القانوني

حياته: (٩٠٢-٩٧٤هـ) = (١٤٩٤-١٥٦٦م) عمرّ ٧٢ سنة.

حكمه: (٩٢٦-٩٧٤هـ) = (١٥٢٠-١٥٦٦م) حكم ٤٦ سنة وعمره [١] ٢٦.

المطلب الأول

ترجمة حياته

هو ابن الخليفة سليم الأول، كان محبّاً للعلم والعلماء والأدب والأدباء، حليماً، متأنياً، وإذا اتخذ قراراً لا يتراجع فيه، شجاعاً وقوراً مهيباً، اعتنىٰ والده بتربيته حتىٰ ارتقىٰ عرش السلطنة وهو في السادسة والعشرين من عمره[٢].

كان حازماً في حكمه، متأنياً في أحكامه، يفكر بعمق، سُمِّي بالقانوني لأنه أمر بكتابة القوانين القائمة، وأشرف علىٰ تطبيقها.

ولأنه سمح للقوانين الأوروبية أن تسهم في شؤون الدولة العثمانية[٣]، لقد اقتدىٰ ملك بريطانيا بدقة عدالته، إذ أرسل هيئة إلىٰ إستنبول لمراقبة كيفية ممارسة العدالة ونظامها[٤].

سماه الأوروبيون بـ(سليمان العظيم)[٥]، إذ قاد حروباً كثيرة كجده الفاتح.

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ٥١

(٢) المصدر السابق/ ٥١

(٣) التقريب القرآني في ضوء الصراع الصفوي العثماني، علاء الدين المدرس/ ص٤٠

(٤) الدولة العثمانية – الصلابي، ص٢٤٧

(٥) ألبوم العثمانيين/ ٥١

كان حكمه يمثل العصر الذهبي للدولة العثمانية[١]، كما كان هرون الرشيد في الدولة العباسية، وكان ذلك حوالي عام ٩٥٠هـ = ١٥٥٠م، إذ ضمت أكثر من (٥٠) إقليماً من دول هذا القرن، وانتصر علىٰ المجر في موقعة (موهاكس) عام ١٥٢٦، ودخل (بودا)، وهي عاصمتهم (بودابست) الحالية[٢].

بلغ عدد الحملات العسكرية التي قادها بنفسه (١٣) حملة، فتح بلغراد وجزيرة رودس والمجر ووصل إلىٰ أسوار فينا عام ١٥٢٩م، وفتح بغداد، وأجزاء من إيران، كما فتح شمال أفريقيا كله، كما سيأتي تفصيلها.

٤٣



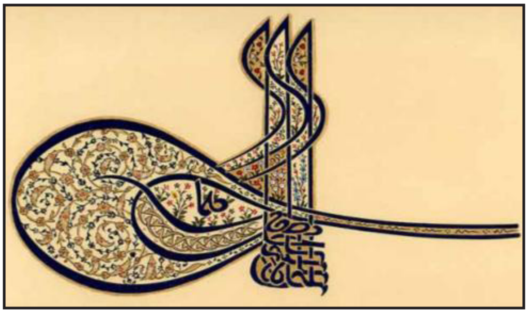
السلطان سليمان القانوني (١٤٩٥-١٥٦٦)

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٥٠

(٢) المصدر السابق/ ص٢٤٩

٤٤



طغراء (توقيع السلطان سليمان القانوني)

أقاليم الدولة العثمانية في توسعها[١]:

وزادت مساحة إمبراطوريته من ٥ ,٦ مليون كم² إلىٰ ١٣ مليون كم². أي الضعف[٢].

١- **في آسيا شملت (١٥) إقليماً** : الأنضول، العراق، الشام (سوريا، لبنان، الأردن، فلسطين)، الحجاز، نجد واليمن والبحرين وقطر والكويت وإمارات الخليج العربي وعُمان، وبعض المواقع في الهند ومنها (ديو)، ومواقع في كينيا، ومباسا، ومواقع أخرىٰ مهمة فيهما وفي إيران وغيرها.

٢- **في أوروبا ضمت أكثر من (٢٥) إقليماً** : القرم، والقفقاس بما فيها مناطق واسعة من أرمينيا وأذربايجان والشيشان وجورجيا وجنوب ووسط روسيا، وبولونيا، وأوكرانيا، وسلوفاكيا، ورومانيا، ومولدافيا وترانسلفانيا، والنمسا وبلغاريا، والمجر وصربيا والبوسنة والهرسك، ومكدونيا، والبانيا واليونان، وجزيرة كريت، وجزر الباليار الثلاث قرب الأندلس، وقبرص ورودس، وارخبيل اليونان وصقليا وجنوب ايطاليا.

٣- **وفي أفريقيا ضمّت (١٠) أقاليم** : مصر والشمال الأفريقي: طرابلس وتونس والجزائر والمغرب ومالي وتشاد والصومال والسودان، وجيبوتي، وجزر كناري (في المحيط الأطلسي).

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٤٩، عن (الشعوب الإسلامية)، د. عبد العزيز نوار/ ١٤٧

(٢) ألبوم العثمانيين

كان ذا عزيمة لا تكلّ في حروبه، وتميّز عصره بالحروب الحاسمة الشرسة مع أعدائه، لذا فإنه عُنِي بإعداد الجيوش البرية، والأساطيل الحربية، وكانت حروبه في القارات الثلاث موفقة، حققت انتصارات باهرة، كما سيأتي ذكرها أدناه.

المطلب الثاني

جهوده في القارة الأوروبية

توسعت رقعة حكمه إلىٰ عاصمة الإمبراطورية النمساوية (فينا)، وحاصرها وقذفها بالمدافع الضخمة عام (١٥٢٩م) ثم تراجع عنها السلطان، إضافة إلىٰ انتصاراته الماحقة في المجر عام ١٥٢١م، بسبب امتناعها عن دفع الجزية السنوية، كانت أضخم الحروب هي موقعة (موهاكس) عام ١٥٢٦م، واحتل (بودا) عاصمتهم، وكانت هذه المعركة من أعجب المعارك في التاريخ، قادها الخليفة بنفسه ، وأصيب بسهم.

كان قوام الجيش الامبراطوري العثماني (١٠٠٠٠٠- و (٣٠٠) مدفع ، أما الجيش المجري (٢٠٠٠٠)كانت الأمطار المتوالية منذ شهور جعلت الأرض مستنقعات ، ألقىٰ البارشاه العثمان خطبة إيمانية ، والجيش يبكي هجم الجروفن وسحب العثمانيون جيوش المجرمين إلىٰ الوسط وأوقعوهم في الفخ ، وكانت حرباً شرسة لم يعهد التاريخ لها مثيلاً، وأصيب القانوني برمية سهم لم يخترق الدرع دمرت الخيالة المجرية المدرعة كاملاً بقصف المدافع – استمرت الحرب (١,٥) ساعة فقط فدخل القانوني عاصمتهم ووصلت الحدود العثمانية إلىٰ النمسا وحكسون كيف ودخلت إلىٰ دول أوربا الوسطىٰ، واستمرت المقاومة المجرية بعدها مع الدول الأوروبية المؤيدة لها، حتىٰ وفاة السلطان[١].

معركة موهاكس وقعت سنة (٩٣٢ هـ– ١٥٢٦ م) قبل (٥٠٠ سنة) بين الخلافة العثمانية بقيادة سليمان القانوني وبين مملكة المجر بقيادة فيلاديسلاف الثاني جاجليو ، وانتصر فيها المسلمون انتصاراً ساحقـًا ؛ مما أدّىٰ إلىٰ ضم المجر إلىٰ الدولة العثمانية.

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ٢٤٩

أسباب معركة موهاكس : كان ملك المجر فيلاديسلاف الثاني جاجليو قد عزم علىٰ نقض أي تعهدات كانت قد أعطيت من قبل أسلافه لسلاطين الدولة العثمانية ، وذهب إلىٰ حدّ قتل مبعوث السلطان سليمان إليه ، وكان المبعوث يُطالب بالجزية السنوية المفروضة علىٰ المجر ، ولهذا ردّ سليمان بغزوة كبيرة ضد المجر .

التحرك لمعركة موهاكس : سار السلطان سليمان من استانبول في (١١ رجب ٩٣٢ هـ - ٢٣ ابريل ١٥٢٦ م) علىٰ رأس جيشه ، الذي كان مؤلفاً من نحو مائة ألف جندي ، وثلاثمائة مدفع وثمانمائة سفينة ، حتىٰ بلغ بلجراد ، ثم تمكن من عبور نهر الطونة بسهولة ويسر ؛ بفضل الجسور الكبيرة التي تمّ تشييدها . وبعد أن افتتح الجيش العثماني عدة قلاع حربية علىٰ نهر الطونة وصل إلىٰ « وادي موهاكس » بعد ١٢٨ يوماً من خروج الحملة ، قاطعاً ألف كيلو متر من السير ، وهذا الوادي يقع الآن جنوبي بلاد المجر علىٰ مسافة ١٨٥ كم شمال غربي بلجراد ، و١٧٠ كم جنوبي بودابست ، وكان في انتظاره الجيش المجري البالغ نحو مائتي ألف جندي ، من بينهم ٣٨ ألفاً من الوحدات المساعدة التي جاءت من ألمانيا ، ويقود هذه الجموع الجرارة الملك « فيلاديسلاف الثاني جاجليو » .

اللقاء المرتقب : وفي صباح يوم اللقاء (٢١ ذي القعدة ٩٣٢ هـ - ٢٩ أغسطس ١٥٢٦ م) دخل السلطان سليمان بين صفوف الجند بعد صلاة الفجر، وخطب فيهم خطبة حماسيّة بليغة ، وحثهم علىٰ الصبر والثبات ، ثم دخل بين صفوف فيلق الصاعقة ، وألقىٰ فيهم كلمة حماسية استنهضت الهمم ، وشحذت العزائم ، وكان مما قاله لهم : « إن روح رسول الله ﷺ تنظر إليكم » . فلم يتمالك الجند دموعهم التي انهمرت تأثراً مما قاله السلطان .

وفي وقت العصر هجم المجرمون علىٰ الجيش العثماني ، الذي اصطف علىٰ ثلاثة صفوف ، وكان السلطان ومعه مدافعه الجبارة وجنوده من الانكشاريين في الصف الثالث ، فلما هجم فرسان المجر وكانوا مشهورين بالبسالة والإقدام ، أمر السلطان صفوفه الأولىٰ بالتقهقر حتىٰ يندفع المجريون إلىٰ الداخل ، حتىٰ إذا وصلوا قريباً من المدافع ، أمر السلطان بإطلاق نيرانها عليهم .. فحصدتهم حصداً ، واستمرّت الحرب ساعة ونصف الساعة ، في

نهايتها أصبح الجيش المجري في ذمة التاريخ ، بعد أن غرق معظم جنوده في مستنقعات وادي موهاكس ، ومعهم الملك فيلاديسلاف الثاني جاجليو وسبعة من الأساقفة ، وجميع القادة الكبار ، ووقع في الأسر خمسة وعشرون ألفـًا ، في حين كانت خسائر العثمانيين مائة وخمسين شهيداً ، وبضعة آلاف من الجرحىٰ .

نتائج معركة موهاكس : كانت معركة موهاكس من المعارك النادرة في التاريخ ، حيث هُزم أحد أطرافها علىٰ هذا النحو من مصادمة واحدة ، وفي وقت قليل لا يتجاوز ساعتين ، وترتب عليها ضياع استقلال المجر بعد ضياع جيشها علىٰ هذه الصورة في هزيمة مروعة . وبعد اللقاء بيومين في (٢٣ ذي القعدة ٩٣٢ هـ ت ٣١ أغسطس ١٥٢٦ م) قام الجيش العثماني بعمل استعراض أمام السلطان سليمان ، وقام بأداء التحية له وتهنئته ، وقام القادة بدءاً من الصدر الأعظم بتقبيل يد السلطان .

ثم تحرك الجيش نحو الشمال بمحاذاة ساحل الطونة (الدانوب) الغربي ، حتىٰ بلغ بودابست عاصمة المجر ، فدخلها في (٣ ذي الحجة ٩٣٢ هـ - ١٠سبتمبر ١٥٢٦ م)، وشاءت الأقدار أن يستقبل في هذه المدينة تهاني عيد الأضحىٰ في سراي الملك ، وكان قد احتفل بعيد الفطر في بلجراد في أثناء حملته الظافرة .

مكث السلطان في المدينة ثلاثة عشر يومـًا يُنَظِّم شئونها ، وعيّن « جان زابولي » أمير ترانسلفانيا ملكـًا علىٰ المجر ، التي أصبحت تابعة للدولة العثمانية ، وعاد السلطان إلىٰ عاصمة بلاده ، بعد أن دخلت المجر في سلطان الدولة العثمانية [(١)].

وكان إلىٰ جوار قدرته العسكرية سياسيـًا ضليعـًا، فعقد معاهدات بينه وبين كثير من دول أوروبا، ومنها معاهدة للتقارب مع فرنسا، حتىٰ لا يجتمع أعداؤه جميعـًا عليه، إذ كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة تضم: (إسبانيا والبرتغال وبلجيكا وهولندا وألمانيا والنمسا

---

(١) أيام لا تنسىٰ .. صفحات مهمة من التاريخ الإسلامي : تأليف تامر بدر ، تقديم / الدكتور راغب السرجاني ، دار أقلام للنشر والتوزيع والترجمة ، الطبعة الأولىٰ ، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١م)

وإيطاليا)، وكلها مجتمعة ضد الدولة العثمانية[1].

ومن انتصاراته البحرية احتلاله جزيرة رُودس معقل فرسان القديس يوحنا، أخبث القراصنة الصليبيين الذين كانوا يقطعون طريق الحجيج الأتراك ، ويعرقلون المواصلات البحرية العثمانية في عام ١٥٢٢م، بعد حرب ضروس استمرت سنة، واحتل قبرص التي كان البنادقة يحتلونها، ثم انطلق أسطوله إلىٰ (مالطة) التي استعصت علىٰ جميع من حاربها من بعده ومن قبله فأعطاه (شارل كنت) أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة[2]، حق حكم هذه الجزيرة لفترة قصيرة.

وأغار علىٰ سواحل إيطاليا وصقليا.

استمرت فتوحاته الباهرة في أوروبا فانتصر السلطان في معركة (بافيا) سنة ١٥٢٥م، أسر فيها ملك فرنسا، فرانسوا الأول، فأرسلت والدته والوصية علىٰ العرش مبعوثها برسالة إلىٰ السلطان سليمان تستعطفه لإطلاق سراح ابنها، فأطلق سراحه بموجب معاهدة أبرمت في مدريد بين فرنسا وأسرة الهابسبرج الألماني سنة ١٥٢٦م[3].

معاهدة (الامتيازات العثمانية الفرنسية) ٩٤١هـ/ ١٥٣٥م:

وهي أولىٰ المعاهدات التي عقدها السلطان مع إحدىٰ الدول الأوروبية (فرنسا)، عقدها السلطان مع الملك فرانسوا الأول بعد اطلاق سراحه، وهي اقتراح تحالف منه مع السلطان، علىٰ شكل معاهدة، ومن أهم بنودها: (حرية تنقل الأساطيل الحربية والتجارية للدولتين وحرية التجارة، ودفع فرنسا للرسوم الجمركية والضرائب للدولة العثمانية)، وتشمل حق التمثيل القنصلي، مع حصانة القنصل الفرنسي، ومن حقه النظر في القضايا المدنية والجنائية في رعاية ملك فرنسا، وأكدت المعاهدة حرية العبادة.

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ٢٦٤، عن (جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس)، د. نبيل عبد الحي/ ٣١١

(٢) المصدر السابق/ ٢٤٩، عن (الشعوب الإسلامية)/ ١٤٧

(٣) ملاحظة تلميذي العالم المؤرخ التركي أورخان محمد علي، مشكوراً. أنظر (موقف أوروبا من الدولة العثمانية) – يوسف علي الثقفي، ص٤٧

وكان من نتائجها زيادة التعاون بين الأسطولين، وأفادت فرنسا من المعاهدة في فتح أبواب المشرق للتجارة، وكانت فائدتها لفرنسا أكثر من الدولة العثمانية، وكانت أول اسفين يدق في نعش الدولة العثمانية التي ظهرت آثارها البعيدة فيما بعد، بما حمل الدول الأوروبية علىٰ التدخل في شؤونها، تحت حماية الامتيازات والدفاع عن نصارىٰ الدولة الذين كانوا يعدون من رعايا الدول الأجنبية، خاصة في بلاد الشام.

وعن أسباب عقد هذه المعاهدة حرص السلطان علىٰ التفرغ إلىٰ بقية الدول الأوروبية، مع أن فرنسا كانت تنقض بنود هذه المعاهدة مراراً، تجاوباً مع مصالح الدول الأوروبية[(١)]، إذ لا ثقة بمواثيقهم: (لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة، وأولئك هم المعتدون)[(٢)].

وكانت دول أوروبا منقسمة انقسامات خطيرة بين البابا ليو العاشر، رئيس المذهب الكاثوليكي، وبين مارتن لوثر الألماني، رئيس المذهب البروتستنتي، الذي ظهر في عصر السلطان سليمان، وبين ملك فرنسا فرانسوا الأول وبين منافسه تشارلز الخامس ملك الامبراطورية الرومانية المقدسة، كما كانت بلغراد تعاني اضطرابات داخلية[(٣)]. وكان ظهوره نعمة للعثمانيين، إذ تمزّقت الوحدة الكاثوليكية ، عمل شارل كوينت الكاثوليكي المتعصب علىٰ مارتن لوثر المتعنت ، لكن مذهب لوثر انتشر بسرعة فائقة ، وأصبحت أقطار كثيرة تدين بالبروتستانية وانفصلت علىٰ نفوذ البابا وقد عمل القانوني ما بوسعه لمساندة لوثر وبقوة) .

ولخطورة معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية، نورد أهم بنودها:

١- حرية التنقل والملاحة في سفن مسلحة وغير مسلحة بحرية تامة.

٢- حق التجارة والمتاجرة في كل أجزاء الدولة العثمانية بالنسبة لرعايا ملك فرنسا.

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٥١-٢٥٢، عن (موقف أوروبا من الدولة العثمانية)/ ص٤٧-٤٩

(٢) سورة التوبة/ ١٠

(٣) الدولة العثمانية، الصلابي/ ٢٥٠-٢٥١ ❋ تاريخ الدولة العثمانية / ٢٦٩

٣- الضرائب الجمركية وغيرها يدفعها كل من الفرنسيين والعثمانيين إلىٰ بعضهما البعض.

٤- حق التمثيل القنصلي مع حصانة للقنصل ولأقاربه والعاملين معه.

٥- من حق القنصل الفرنسي النظر في القضايا المدنية والجنائية التي يكون أطرافها من رعايا ملك فرنسا، وأن يحكم في هذه القضايا، ومن حقه الاستعانة بالسلطات المحلية لتنفيذ أحكامه.

وعقدت معاهدات شبيهة لها وعلىٰ نهجها مع دول أوروبية أخرىٰ بعد السلطان سليمان. واعتبر المسيحيون في الدولة العثمانية من رعايا فرنسا، ثم الدول الأخرىٰ في المعاهدات القادمة، مما خلق جوّ التمرد علىٰ الدولة العثمانية، وخلق الاضطرابات والمشاكل الداخلية(١).

وتواصلت معاركه الضارية في أوروبا بعد قضائه علىٰ التمردات في بلاده، وحقق انتصاره الكبير في موقعة موهاج (موهاكس) عام ١٥٢٦م ضد المجر التي طالبت بردّ جزيتها السنوية المفروضة عليها، فدخل (بودا) وهي عاصمتهم المسماة حالياً (بودابست) واستمرت بعدها المقاومة المجرية، حتىٰ انتهت إلىٰ محاصرة فينا عاصمة النمسا وعاصمة الامبراطورية الرومانية المقدسة بربع مليون جندي ، وقصفها بالمدافع، ثم تراجع عنها بسبب تضامن الدول الأوروبية مع النمسا ضده، وبسبب طول المواصلات من إستنبول وبسبب المقاومة الشديدة ، وكرر السلطان محاولته بعد ثلاث سنوات وصمدت ، ثم وقع الصلح ، ثم استأنفت الحرب للمرة الثالثة فهزم النمسا وأخذ منها الجزية لخمس سنين، واستمر الصراع مع الدول الأوروبية حتىٰ وفاة السلطان سليمان(٢).

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٥١-٢٥٣، عن (تاريخ الدولة العثمانية)/ ص٧٥، وقراءة جديدة في تاريخ العثمانيين/ ص٧٧-٧٨

(٢) المصدر السابق/ ٢٤٩، عن (الشعوب الإسلامية)/ ص١٤٧

المطلب الثالث

جهوده في القارة الآسيوية

بغداد والبصرة بين الصفويين والعثمانيين:

حين توجه الجيش العثماني إلىٰ بغداد، أخلاها الصفويون ، ودخلها السلطان سليم القانوني -٢٨/ ١١/ ١٥٣٤م.

ذهب البارشاه القائد العام في الحال إلىٰ مرقد الإمام الأعظم أبي حنيفة وزاره وأمر بإعماره و إعمار الأعظمية ، وبقي في بغداد ٤ أشهر وغادرها في ١/ ٤/ ١٥٣٥م. فتح كامل العراق الأوسط ، والتحق أمير البصرة ببغداد، وأعلن تابعيته له وقبل يد الخليفة .

وتأسست ولاية البصرة ١٥٣٨م، وارتبطت بها مناطق جنوب العراق – الكويت ، الإحساء – قطيف – نجد – قطر – البحرين – عمان – جبل شمّر – الإمارات – وبقبول شيوخ العرب الحماية العثمانية ، وهكذا تحقق الهيمنة علىٰ خليج البصرة.

الحملة علىٰ الهند : اجتاز البحر الأحمر أسطول سليمان باشا من قبل والي مصر، وأخضع جميع السواحل التي مرّ عليها ، وثأر للمسلمين في الهند من اعتداء الاسبان عليها، ونظفها منهم ومن شرّهم ، كما أعاد فتح تجارة الهند أمام البحارة المسلمين.

كذلك أرسل الخليفة المدافع والبنادق إلىٰ مسلمي أريترية والصومال ضد البرتغاليين وحليفتهم مملكة الحبشة . (تاريخ الدولة العثمانية / ٣٢٨).

وبعد أن هدأت الفتن، بدأ السلطان بالتخطيط لسياسة الجهاد في أوروبا وأفريقيا.

التمردات والقضاء عليها:

- واجه السلطان في السنوات الأولىٰ من حكمه أربعة تمردات، شغلته عن الجهاد في الميادين الأخرىٰ، فقد تمرّد (جان بردىٰ الغزالي) والي الشام، وحاول احتلال حلب، فقمعه السلطان، وقطع رأسه، وأرسله إلىٰ إستنبول[١].
- وتمرّد أحمد شاه والي مصر ٩٣٠هـ = ١٥٢٤م، إذ كان يطمع بمنصب الصدر الأعظم، فلم يوفق، ثم عُيّن واليـًا علىٰ مصر، فأعلن نفسه سلطانـًا مستقلاً، فقتله الجنود العثمانيون، وعُرف بالخائن في كتب التاريخ[٢].
- وتمرّد الشيعي الرافضي (بابا ذو النون) عام ١٥٢٦م، مع ٤٠٠٠ ثائر من أنصاره، حقق بعض الانتصارات وفرض الخراج لنفسه، ثم هزَم بعض القواد العثمانيين، فقُتل، وأرسل رأسه إلىٰ إستنبول[٣].
- وتمرّد الشيعي الرافضي (قلندر جلبي) في قونية ومرعش، ومعه ٣٠٠٠٠ شيعي، فقتل المسلمين السنيين فيها، وكانت دعواه أن من قتل سنيـًا وهتك عرض امرأة سنية فقد حاز أكبر الثواب، ثم قُتِل بعد أن فشلت محاولات الانتصار عليه[٤]، ثم توجه إلىٰ الصفويين، وانتصر عليهم، واحتل عاصمتهم تبريز للمرة الثانية[٥]. أما الأولىٰ فزمن والده ياووز

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ٢٤٧، عن (العثمانيون في التاريخ والحضارة)، د. محمد حرب/ ص٩١

(٢) المصدر السابق/ ص٢٤٧

(٣) المصدر السابق/ ص٢٤٧

(٤) المصدر السابق/ ٢٤٨، عن (العثمانيون في التاريخ والحضارة)، محمد حرب/ ص٩

(٥) ألبوم العثمانيين/ ص٥١، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٧١، عن (فتح العثمانيين عدن)/ ص١٣٠

المطلب الرابع

جهوده في القارة الأفريقية

كانت جهوده مركزة على إغاثة مسلمي الأندلس، وإنقاذ أهلها من الفناء، ولقد عزم الخليفة على احتلال الأندلس، بعد احتلاله بلغراد، من خلال الخطوات الآتية[١]:

- أنشأ أضخم أسطول بحري في المتوسط والأسود والأحمر والعربي، وهيمن عليها جميعها إزاء الأساطيل الأوروبية[٢].
- ركّز اهتمامه على الشمال الأفريقي، تمهيداً لإنقاذ مسلمي الأندلس، فضمّ الجزائر إلى دولته، بعد صراع رهيب بينه وبين امبراطور الدولة الرومانية المقدسة وملك إسبانيا، ثم ضمّ تونس، كما غزا جنوب إيطاليا وجزيرة صقلية، واستعصت عليه جزيرة مالطه، إذ كانت مقر فرسان القديس يوحنا الذي كانت لأساطيله هجمات شرسة على الأسطول العثماني طيلة عهود السلاطين السابقين واللاحقين، باستثناء الفترة التي تسلمها من امبراطورية الدولة الرومانية المقدسة، وهي فترة محدودة[٣].

وسيأتي تفصيل محاولاته لإنقاذ الأندلس لاحقـًا، وهي واسعة وموفقة.

المطلب الخامس

الاقتراح بغزو أمريكا

اقترح على إبراهيم باشا ضرورة إرسال أسطول إلى أمريكا التي تسمّى (العالم الجديد) والحصول على مستعمرة فيها، لكن الباشا أفاد بأن لديهم أعمالاً مهمة وكثيرة

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٦٥

(٢) المصدر السابق/ ص٢٦٧

(٣) المصدر السابق/ ص٢٦٧-٢٦٨، ٢٧٠، ٢٧٢، عن (تاريخ الجزائر)، محمد خير فارس/ ص٣٤، وحقائق الأخبار عن دول البحار/ ١/ ٤٢٠، وجهود العثمانيين لاسترداد الأندلس/ ص٣٢١

في البحر الأبيض المتوسط حيث إنه يجب كفّ يد الاسبان عن المغرب بصورة مطلقة ، وإلا سوف تفعل أسبانيا في المغرب ما فعلته في الشعب الأندلسي ، وفي العالم الجديد.

المطلب السادس

وفاته

استمر حكمه (٤٨) سنة، أكثرها في الحروب، وقد قاد بنفسه ١٣ حملة، وكانت آخر معاركه قبل موته محاصرته لمدينة زيكتوار التي توفي فيها، وكان يقودها بنفسه، توفي ومساحة دولته ١٤٨٩٣٠٠٠ كم^{٢}، بعد أن كانت ٦٥٥٧٠٠٠ كم^{٢} في عهد والده، أي ضعف مساحتها، عن عمر ٧٢ سنة، وخلف ٩ أبناء وبنتين.

لقد كان رحمه الله شاعراً، بل من أكابر الشعراء في عصره، ومن شعره المترجم عن التركية:

ليس هناك بين الناس شيء أهم من الدولة

لكن الدولة لا تساوي في الدنيا نَفساً من الصحة

إن السلطنة إنما هي منازعة دنيوية

لا يوجد في العالم بخت وسعادة قبل الوحدة

عاصره كثير من العلماء والمؤرخين واللغويين والأدباء والخطاطين، وتوفوا في عهده[١].

* **ركسانة الأوكرانية الصليبية** : (أكثر المصادر ذكرتها يهودية)، كانت زوجة السلطان

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ٥١، في حين أن المؤرخ أورخان يذكر أن سليمان القانوني تسلم الأمبراطورية بمساحة ٥٫٧ ميليون كم^{٢}، ثم بلغت عند وفاته ١٣ ميليون كم^{٢}، السلطان عبد الحميد، أورخان/ ص١٤

سليمان وأسلمت ، وكان لها تأثير خطير علىٰ سياسته، لاسيما في أواخر أيامه – بضغوطها علىٰ زوجها بتعيين ابنها منه (سليم الثاني) بدلاً من ولده من غيرها (مصطفىٰ جلبي) الذي كان يقود جيشاً ضد أوروبا والصفويين، وكانت انتصاراته تخيف أوروبا والصفويين معًا، وكان رصيده عالياً لدىٰ الجيش والشعب، فقتله السلطان مع ولده الآخر بايزيد، كما أغرته بعدم قيادة الجيوش في الحرب (والقيادة تقليد عثماني أصيل وإسلامي عريق)، مما أدىٰ إلىٰ هزائم الجيوش المتتابعة، بعد أن قاد (١٣) معركة بنفسه[١].

كما أغرته في أواخر حكمه بالانصراف إلىٰ الراحة وترك الدولة بيد الصدور، والتي كانت هي تشرف علىٰ ترشيحهم وتعيينهم وسياستهم.

وهي التي أقنعته بتوقيع معاهدة فرنسا، وإعطائها صلاحيات غير محدودة.

وهي التي حملته علىٰ تهجير يهود الأندلس والبرتغال إلىٰ أراضي الدولة العثمانية في مكدونيا شمال اليونان، وهم يهود الدونمة الذين دقوّا آخر مسمار بنعش الدولة العثمانية[٢].

(١) التقريب القرآني في ضوء الصراع الصفوي العثماني، علاء الدين المدرس/ ص٣٦، ٣٩، ٤٠

(٢) المصدر السابق/ ٤٠

الفصل الثاني

عصر التماسك

تداول الخلافة فيه (أربعة) خلفاء

(٩٧٤-١٠٢٦هـ = ١٥٦٦-١٦١٧م)

خلال (٥٢) سنة هجرية

تمهيد

نعني بالتماسك محاولة الحفاظ علىٰ الهيمنة في داخل الدولة المترامية الأطراف في القارات الثلاث، والهيمنة علىٰ الدول الأوروبية القوية المعادية لها في البر، وأخطرها المجر والنمسا وروسيا، في أوروبا، وفي البحر - إيطاليا والبندقية وإسبانيا والبرتغال، والقراصنة. أما في آسيا، فالدولة الصفوية، وأساطيل البرتغال البحرية. أما في أفريقيا ففرنسا وإسبانيا والبرتغال وإيطاليا (البندقية) في البر والبحر.

ونعني بالتماسك كذلك ، عدم السماح للدول الكبرىٰ في التدخل الفعلي في شؤون البلاد ، رغم ما حدث من محاولات جادة ، وقطف ثمرات هزيلة.

ويدخل ضمن التماسك كذلك، الروح المعنوية العالية التي هيمنت علىٰ الخلفاء والجيوش والصدور في المحاولات المستمرة لإنقاذ مسلمي الأندلس ، ومساعدتهم علىٰ الثورة ، واسترجاع ما فقدوه، إنها مسؤوليات كبرىٰ في القارات الثلاث أمام أعداء شرسين.

أما في أوروبا، فقد عقد البابا حلفاً مع الدول الأوروبية جميعها عدا فرنسا لمواجهة الدولة العثمانية، وكانت الحروب سجالاً، ولكن أكثرها تحقق فيه انتصار العثمانيين وخضعت المجر لهم، واستمرت النمسا بدفع الجزية للدولة العثمانية، واسترجعت الدولة العثمانية السيادة علىٰ رومانيا وبولونيا، حتىٰ وصلت إلىٰ سواحل بحر البلطيق[1].

وفي الحروب البحرية، كانت الانتصارات سجالاً بين الطرفين، خسارة فادحة للعثمانيين ثم استرجاع لقوتها المهيمنة بعدها، في البحر الأسود والبحر الأحمر

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ٣٥٣، عن (تاريخ الدولة العثمانية العلية)/ ص٢٥٩-٢٦٠، ٣٥٩، عن (الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي)/ ص١٠٥، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٥٩، عن (الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي)/ ص١٠٥

والبحر العربي بانتصارات ماحقة(١).

أما في آسيا، فكانت المعارك سجالاً بينها وبين الدولة الصفوية التي فقدت ثلاثة أرباع بلادها، ثم استردتها، ودخلت بغداد والنجف في حكمها، وقتلت الألوف من أتباع مذاهب أهل السنة، وسملت عيونهم، وكاد الشاه عباس الكبير يُعبَد من دون الله، وهو سكير وفاسق، شجع تجارة النصارىٰ وتبشيرهم (تنصيرهم)، إضافة إلىٰ خدمته لهم كاملة، وحصلت ثورات انفصالية في الأنضول، قُضي عليها(٢).

أُخرج اليهود من سيناء والغور، بعد أن أفسدوا بالمسلمين والنصارىٰ معـًا، وضمت العثمانية المدخل إلىٰ الديار المقدسة في باب المندب(٣)، واستردت اليمن كاملًا، ووضعت نقاط حراسة في الحبشة لحماية باب المندب(٤).

أما في أفريقيا والأندلس، فقد بذلت الدولة العثمانية جهوداً مكثفة حتىٰ حررت تونس من مغتصبها (دون جوان) - ابن الحرام المتوحش(٥)، ثم طهّرت الجزائر من الإسبان، ثم كانت المعارك الطاحنة في المغرب التي أقضت مضاجع أوروبا(٦).

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٣٩-٣٤٣، عن (حرب الثلاثمئة سنة)/ ص٣٩٦، ٣٩٨، ٣٩٩، وتاريخ الدولة العثمانية/ ص١٢٥-١٢٦

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٦١-٣٦٢، عن (الإسلام في آسيا)، محمد نصر مهنا/ ص٢٤٩-٢٥٠، وانظر (المصدر السابق)/ ص٣٦١، عن (تاريخ الدولة العلية العثمانية)/ ص٢١٢

(٣) المصدر السابق/ ص٣٥٥-٣٥٦، عن (الدولة العثمانية)، د. جمال عبد الهادي/ ص٦٨

(٤) المصدر السابق/ ص٣٤٦-٣٤٩، عن (جهود العثمانيين)/ ص٤٦٠، ٤٨٤، ٤٨٧، والبرق في الفتح العثماني، قطب الدين النهروالي/ ص١٧٣، ١٧٧، ٢١٨، ٢٦٦، ٢٤٩، ٢٥٥، ودراسات في تاريخ العرب القديم، عمر عبد العزيز/ ص١٠٢-١٠٣، وغاية الأماني في أخبار القطر الباني، يحيىٰ بن الحسين/ ٢/ ٧٣٣-٧٣٦

(٥) المصدر السابق/ ص٣٤٤-٣٤٦، عن (الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية)/ ص٢٥٠-٢٥١، وحرب الثلاثمئة سنة/ ص٤٠٠-٤٠١، وتاريخ الجزائر/ ص٥١، وجهود العثمانيين/ ص٤٦٠

(٦) المصدر السابق/ ص٣٤٥، عن (تاريخ الجزائر الحديث)/ ص٥١، وحرب الثلاثمئة سنة/ ص٤٠١، وجهود العثمانيين/ ٤٦٠

المبحث الأول

السلطان رقم(١١)

الخليفة السلطان سليم الثاني

حياته : (٩٢٤-٩٨٢هـ = ١٥٢٤-١٥٧٤م) عمّر (٥٠) سنة.

حكمه : (٩٧٤-٩٨٢هـ = ١٥٦٦-١٥٧٤م) .

حكم (٨) سنوات وعمره (٤٢ سنة)[١].

المطلب الأول

ترجمة حياته

كان إدارياً حكيماً، وشجاعاً في حروبه التي كان يقود بعضها، وما قيل عنه من قبل المؤرخين الغربيين من أنه كان سكيراً، فهو محض اختلاق، للإساءة إلىٰ السلاطين العثمانيين، والتشفي منهم، والكيل بالتهم وتلويث تاريخهم بالكذب، كما كان الخليفة شاعراً، مثل والده.

بلغت مساحة الدولة في عهده (١٥,١٦٢,٠٠٠كم^{٢}، بعد أن كانت في عهد والده (١٤,٨٩٢,٠٠٠) كم^{٢}.

عاش (٥٠ سنة)، ودفن عند جامع أيا صوفيا، وخلّف (٨ بنين، و٤ بنات)[٢].

وأمه (روكسلانا) اليهودية المسلمة التي عملت علىٰ تعيينه سلطاناً، وقد أساءت في

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ٥٤

(٢) ألبوم العثمانيين/ ٥٣

تصرفاتها مع زوجها السلطان سليمان في أواخر حكمه[١].

كانت جهوده في الحكم منصبة علىٰ القارات الثلاث .

٤٥



الخليفة السلطان سليم الثاني (١٥٢٤-١٥٧٤)

---

(١) هي التي حرمت ولد السلطان مصطفىٰ من تولي العرش بعد والده، وكان مصطفىٰ قائداً عظيماً ومحبوباً في الجيش، مما حمل الإنكشاريين علىٰ ثورة كبرىٰ ضد السلطان، أخمدها السلطان سليمان، وعينت ابنها (سليم الثاني) سلطاناً- الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٣٤، عن (أصول التاريخ العثماني)/ ص١٠٢، والدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي، ص٩٤.

ثم إن (روكسلانا) زوجت ابنها (سليم الثاني) من الإيطالية اليهودية (نور بانو) التي أسلمت، وقد تنقل في تربيته في حرم السراي وكان أثرها أخطر من (روكسلانا) علىٰ البلاط العثماني، ثم انتهت بمقتلها علىٰ يد ابنها سليم الثاني، وهي أمه، للتخلص من خبثها وتآمرها، وحصلت إشاعات لدىٰ المؤرخين أن زوجته أغرقته بالشهوات والسكر- التغريب القرآني في أضواء الصراع الصفوي العثماني، علاء الدين المدرس/ ص٣٦، ٤٤، غير أن مصادر أخرىٰ تنفي عنه مجال الفساد.

المطلب الثاني

جهوده في القارة الأوروبية

قلّم أظافر أعدائه، وذلك بعقد معاهدات مع بعضهم، لتستمر هيمنته علىٰ البلاد التي في قبضته[١]، ويتجلىٰ ذلك فيما يلي:

١- **عقد صلحًا مع النمسا** ٩٧٥هـ = ١٥٦٧م، احتفظت بموجبه النمسا بأملاكها في المجر، ودفعت الجزية السنوية للدولة العثمانية، بمشورة رئيس وزرائه العبقري (الصدر الأعظم)، المجاهد الشجاع، السياسي الضليع محمد باشا الصقلي (صو قلو)[٢]، الذي أعاد هيبة الدولة، بعد أن تزعزع أمرها في نهاية حكم (سليمان القانوني)، من خلال معاهدة الامتيازات

---

(١) ومنها معاهدة الصلح مع النمسا عام ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م، احتفظت بموجبها النمسا بأملاكها في المجر، ودفعت الجزية السنوية للعثمانية، وكذا فعل أمراء ترانسلفانيا والافلاق والبغدان- الدولة العثمانية/ ص٣٣٥، انظر تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسونة/ ص١٢٣، كما تجددت الهدنة مع ملك بولونيا وملك فرنسا، ومعاهدة مع فرنسا مكنتها من أن تصبح ملكة التجارة في البحر المتوسط، وقامت بارسال البعثات النصرانية إلىٰ كافة أرجاء العثمانية التي يسكنها النصارىٰ، مما خلق العصيان والتمرد تدريجيًا علىٰ الدولة العثمانية، وشجعت هذه الامتيازات الأوروبية علىٰ تعاون دولها علىٰ تحدياتها للدولة العثمانية، وتعاونها فيما بينها سياسيًا واقتصاديًا، أثمرت في المستقبل، أما زمن السلطان سليم الثاني فقد وقف الصدر الأعظم القدير محمد باشا الصقلي بصرامة ضد الدول الأوروبية ، حملها علىٰ الكف عن استغلال نفوذها، والترصّد للمستقبل- الدولة العثمانية/ ص٣٣٥، عن (تاريخ الدولة العثمانية)/ ص٢٣٠

(٢) محمد باشا الصقلي: كان من أقوىٰ الصدور الذين عاصروا السلاطين الثلاثة (سليمان وسليم الثاني ومراد الثالث) حيث قتل في العام الخامس من حكم السلطان مراد. عام ١٥٧٩م، وبدأ الضعف تظهر آثاره بعد اغتياله- السلطان عبد الحميد، أورخان/ ص٢٠، وكان مستقيمًا حكيمًا في بناء الدولة، وحسن القيادة ودقيق التخطيط ودقيقًا في متابعة الولاه، وتمرد بعض فرق الجيش بعد اغتياله، وحدثت ثورات داخلية، خرجت بولندا عن الدولة العثمانية، واشتبكت في صراع معها في عصر السلطان مراد- الدولة العثمانية، الصلابي/ ٣٥٥، عن (الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي)/ ص١٠١-١٠٢، كما أخمد في زمن السلطان سليمان وسليم الثاني الثورات الداخلية، وحال دون توسع روسيا في شمال وغرب البحر الأسود، بعد فشل العثمانيين في الاستيلاء علىٰ استراخان، الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٣٧-٣٣٨، عن (جهود العثمانيين)/ ص٤٤٧، وهو الذي جابه خسارة الأسطول العثماني في معركة ليبانتو، وبتصميم نادر أعاد بناء الأسطول أقوىٰ مما كان عليه، واسترد هيبته علىٰ البحر المتوسط، وساهم من ماله الخاص في بنائه، وذلك زمن السلطان سليم الثاني.كما أخمد في عهد السلطان مراد الثالث تمرد أمراء الأفلاق والبغدان وترانسلفانيا في شرق أوروبا، وانتصر عليهم وعلىٰ النمسا التي آزرتهم عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م- المصدر السابق/ ص٣٥١، عن (الدولة العثمانية)، د. جمال عبد الهادي/ ص٧٧

بينه وبين فرنسا، آثارها علىٰ الدولة العثمانية كما سبق أن شرحناه.

٢- **فتح موسكو** : سار خان قرم دولت كيراي في ربيع ١٥٧١م بجيش مكون من ٢٠٠,٠٠٠ أخيال أكثرهم من قرم ، وقسم منه جنود عثمانيون إلىٰ روسيا، استصحب معه سرية مدفعية عثمانية ، جرت هذه الحملة للتعويض عن هزيمة استرخاني وتحذير للروس من محاولتهم التوسع أكثر، تشتت الجيش الروسي بعد أن خسر ٨,٠٠٠ شخص، ولم يتمكن من الدفاع عن موسكو، دخل الأتراك موسكو، عاد الخان إلىٰ قرم مع (١٥٠,٠٠٠) أسير، وعلىٰ إثر انتصاره حصل علىٰ لقب (تخت الآق) أي كاسب العرش ، (تاريخ الدولة العثمانية يماز أوتوفا – ص ٣٧٦)

٣- **جدد الهدنة** مع ملك بولونيا وشارل التاسع، ملك فرنسا ٩٨٠هـ = ١٥٦٩م، وعيّنت فرنسا (هنري) أخو ملكها ملكـًا علىٰ بولونيا.

واستمراراً للمعاهدات السابقة مع فرنسا، التي تسمح بها بإرسال البعثات النصرانية إلىٰ كافة أرجاء البلاد العثمانية، التي يسكنها نصارىٰ، خاصة في بلاد الشام، لغرس محبة فرنسا في قلوبهم، فقد شجعت هذه البعثات التبشيرية تدريجيًا علىٰ التمرد والثورات، بدءاً باحتفاظ النصارىٰ بجنسيتهم ولغتهم كأقليات، حتىٰ ثاروا في أيام ضعف الدولة العثمانية، مطالبين بالاستقلال، وكان لهذه الامتيازات التي حصلوا عليها بتلك المعاهدات أثرها الخطير في نخر الدولة، سيما فترة ضعفها، علمـًا أن بدء إرسال البعثات التبشيرية كان في عصر السلطان سليم الثاني، واستمر حتىٰ نهاية الدولة العثمانية، غير أنها كانت تتعثر أحيانـًا[(١)].

٤- **موقفه من روسيا** – استولت روسيا علىٰ استراخان المدينة الاستراتيجية علىٰ نهر الفولغا،

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٣٥، عن (تاريخ الدولة العثمانية)/ ص١٢٣-١٢٤

وكانت تقبض علىٰ الحجاج الوافدين من تركستان، لذا اقترح حكام ما وراء النهر في خوارزم و بخارىٰ وسمرقند علىٰ السلطان سليم أن يفتح استراخان بهدف إعادة فتح طريق الحج[١]، اقتنع السلطان بهذا الرأي، وأعد الصدر الأعظم صوقللي باشا حملة كبرىٰ عام ٩٧٦هـ/ ١٥٦٨-١٥٦٩م للاستيلاء علىٰ استراخان وتحويلها إلىٰ قاعدة عثمانية دفاعية عن منطقة ما وراء النهر، وعمل علىٰ وصل ما بين نهري الفولغا والدون بقناة صالحة لرسو السفن لتسهل دخول الأسطول العثماني بحر الخرز (قزوين) عن طريق البحر الأسود، ولصدّ الروس عن توسعهم نحو الجنوب، وطرد الفرس من القوقاز وأذربيجان، ومن ثمّ غزو فارس من الشمال، بدلاً من غزوها عبر أذربيجان الوعرة، والاتصال بالأزبك أعداء الصفويين وتتار القرم، وإحياء طريق التواصل القديمة المارة بأواسط آسيا من الشرق والغرب[٢].

شرع العثمانيون بتنفيذ مشروع وصل نهر الدون بالفولغا، واكتمل انشاء ثلث القناة، حتىٰ إذا داهمهم شتاء روسيا توقف العمل، ثم كانت الحملة علىٰ استراخان غير موفقة بسبب الشتاء القاسي، كما توقفت روسيا عن الهجوم والتحرش بقوافل الحج[٣]، وتوقفت كذلك عن محاولة التوسع نحو الجنوب.

٥- **رمم جامع أيا صوفيا**، وأنشأ جامع السليمية في أدرنة ، وتقدمت قوات القرم في محاربة روسيا مما حملها علىٰ دفع الجزية للعثمانية[٤].

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٣٧، عن (الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترىٰ عليها)/ ١/ ٧٥

(٢) المصدر السابق/ ص٣٣٧، عن (أصول التاريخ العثماني)/ ص١٤٤

(٣) المصدر السابق/ ص٣٣٧، عن (جهود العثمانيين)/ ص٤٤٧

(٤) ألبوم العثمانيين/ ٥٤

المطلب الثالث

جهوده في القارة الأفريقية - ومحاولات تحرير الأندلس

كانت استعدادات الخليفة سليم كثيفة لإنقاذ الأندلس، والتمهيد لهذا الإنقاذ، وسيأتي تفصيله لاحقًا. **وخلاصته**، تحريره للجزائر، ثم لتونس، وجزيرة قبرص، **وقوع معركة ليبانتو البحرية الخطيرة**، التي تجمع فيها حلف البابا المقدس مع اسبانيا والبندقية وبعض المدن الإيطالية، ثم انضمت فرنسا إليه بقيادة (دون جوان) ابن حرام النمساوي، ووقعت المعركة عند ليبانتو جنوب البحر الادرياتيكي، وهدفها استرداد جميع المواقع (تونس والجزائر وطرابلس) المغتصبة من المسيحيين، احتدمت المعركة في عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م، انتصر العثمانيون في مطلعها، ولكنهم فشلوا في النهاية وفقدوا ٣٠,٠٠٠ مقاتل، وخسروا ٢٠٠ سفينة نصفها أغرق والآخر غنيمة العدو، وأسر العثمانيون ١٠,٠٠٠ رجل من عدوهم، وغنم المسلمون السفينة التي تحمل علم البابا، ورجع الأسطول إلىٰ إستنبول باستقبال الفاتحين، رغم مرارة الهزيمة، وهذه المعركة هي أول هزيمة للأسطول العثماني في المتوسط، فرح الشيعة الأثنا عشرية الصفوية بهزيمة المسلمين، مهنئين البابا بذلك ، فأشار إليهم أن يفيدوا من هذه الفرصة للقضاء علىٰ المسلمين، لم تطل آثار النكبة علىٰ الدولة العثمانية إذ أن قائد السفن الجديد (قلج علي) أسرع بكل طاقته وطاقة الدولة العثمانية بإنتاج ٢٥٠ سفينة جديدة خلال سنة واحدة من المعركة، فارتاعت أوروبا لهذا الأسطول، وطلبت البندقية الصلح مع دفع غرامة حربية ضخمة، وتنازلت عن جزيرة قبرص[(١)].

تونس: احتلها دون جوان بجيش إسباني في عام ٩٨١هـ/ ١٥٧٣م، بأسطول ضخم (١٣٨ سفينة) عليها ٢٥,٠٠٠ مقاتل. ثم استردها العثمانيون بوزيره الشجاع الحكيم سنان باشا وقائد الأسطول قلج علي في عام ٩٨١هـ/ ١٥٧٤م، بعد معارك حاسمة[(٢)].

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ٥٤، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٤٢-٣٤٣، عن (تاريخ الجزائر العام)/ ٣/ ص٩٧-٩٨، وحرب الثلاثمئة سنة/ ص٣٣٩

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٤٥-٣٤٦، عن (الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية)/ ص٢٥٠-٢٥١، وحرب الثلاثمئة سنة/ ص٤٠، وتاريخ الجزائر الحديث/ ص٥١، ٤٠١، وجهود العثمانيين/ ٤٦٠

المطلب الرابع

جهوده في القارة الآسيوية

١- **استرداد اليمن**: اهتم السلطان باليمن، لموقعه الاستراتيجي الخطير، إذ هو المنفذ إلىٰ البحر الأحمر، الذي خطط البرتغاليون اقتحامه للوصول إلىٰ الديار المقدسة، إضافة إلىٰ كونه المنطلق إلىٰ البحر العربي والمحيط الهندي، وما فيه من صلات إسلامية - عقدية وتجارية وعسكرية.

ظهر الزعيم الزيدي المطهرّ، ودعا القبائل إلىٰ مقاطعة العثمانيين، فكانت هزيمة ساحقة له أمام العثمانيين، فأرسل السلطان سنان باشا(١)، وجمع معه من مصر الكثير من الجند، ونزل في ينبع إلىٰ مكة، وضمّ إليه الشام وحلب،... وخدم الجند، وأكرم العلماء، ثم غادرها إلىٰ جيزان، فهرب حاكمها الإمام الزيدي المطهر، وتهافتت إليه القبائل، يباركون مقدمه، ويعلنون الطاعة، ثم سار إلىٰ تعز، وواصل انتصاراته فيها، ثم جهز سنان باشا حملتين للاستيلاء علىٰ عدن - بحرية، بقيادة أخيه، وبرية بقيادته(٢)، وكان أهل عدن شافعيين يكرهون الزيديين الذين حاكمهم منهم، وكان هذا الحاكم الزيدي قد اتفق مع البرتغاليين، لينجدوه شريطة أن يكون الساحل لهم، والبرّ للزيود، فأسرع الجيش العثماني إلىٰ احتلالها برّا، بعد متاعب حصلت لهم، كما أسرع الأسطول العثماني إلىٰ مطاردة الأسطول البرتغالي الذي قارب السواحل(٣).

---

(١) هو القائد العثماني الذي جمع بين عمق الإيمان والشجاعة والصبر والحكمة وبعد النظر في حروبه، سواء أكانت في استرداد تونس أم في تنصيبه علىٰ مصر عام ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م، أم في استرداد اليمن، وكان لا يملّ من الجهاد المتواصل، كما كان يعمل مع الجنود حين اشتداد المعارك، ويقود ويقاتل ببسالة نادرة، ولم يخسر أي موقعة قادها، كما قاد معارك في أواسط أوروبا ضد المجر والنمسا وبولندا، انتصر في أكثرها

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٤٧، عن (غاية الأماني في أخبار القطر اليماني)، يحيىٰ بن الحسين/ ٢/ ٧٣٣، والبرق اليماني في الفتح العثماني/ ص٢١٨، ٢٦٦

(٣) المصدر السابق/ ص٣٤٨، عن (والبرق اليماني في الفتح العثماني)/ ص٢٤٩-٢٥٥

ثم اتجه القائد المحنك الورع سنان باشا بجيشه نحو الشمال إلىٰ ذمار، وأمر بسحب المدافع لحصار صنعاء، فهرب المطهر مع خزائن البلاد، ودخل الجيش العثماني فطمأنهم وأكرمهم، ثم اتجه نحو كوكبان وثلايا، ودامت الحرب سجالاً سنتين، انتهت بموت الإمام الزيدي المطهر سنة ٩٨٠هـ/ ١٥٧٣م، ثم واصل زحفه علىٰ بقية المدن اليمنية، ومنها صعدة، مركز الإمامية الزيدية، وأسرَ الإمام الحسن، الذي استحوذ علىٰ الإمامة بعد المطهر(١).

وكانت مساعدته العسكرية إلىٰ غير المسلمين - إضافة إلىٰ أمته ، فقد أرسل الحكام الهندوس وفداً من اثنين من راجات سيلان والبنغال ، إليه يذكران فيها مساعدتها عسكريـًا وتكنولوجيا ، وإنهما سيعترفان بالبارشاه متبوعـًا لهما ، ويقران بالدين الإسلامي . فأرسل السلطان سليمان مساعدات تكنولوجية إلىٰ خاناقاتهم وإلىٰ خانقات تركستان ، كذلك أرسل مدافع وبنادق وعسكريين وفنيين) (تاريخ الدولة العثمانية يماز أوتوفا - ص ٣٦٥).

٢- **حراسة الحرمين**: احتفظ السلطان بحرس عثماني خاص في مكة المكرمة والمدينة المنورة وينبع، كما أقام محطات حراسة بجوار آبار المياه، علىٰ طول الطريق، بين مصر وسوريا ومكة المكرمة، لحماية المسافرين والحجيج، كما قرر أن يكون الوالي في جدّة، ممثلاً له في الحجاز، وبذا استطاعت الدولة العثمانية أن تبني درعـًا قويـًا، حمىٰ الأماكن المقدسة الإسلامية من العدو المسيحي، ومن آثاره إعادة بناء (المحراب السليماني) في المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة تخليداً لاسم والده السلطان سليمان القانوني الذي توفي قبل بدئه بمشروع المحراب الشريف(٢).

ساعد الحكام المسلمين في الهند، وخرج لفتح أندونيسيا بحرًا(٣).

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ٣٤٨، عن (غاية الأماني في أخبار القطر اليماني)، يحيىٰ بن الحسين/ ٢/ ٧٣٦، والفتح العثماني لليمن، فاروق آباضة/ ص٢٣

(٢) صحوة الرجل المريض/ ٨١، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٤٩، عن (جهود العثمانيين)/ ص٤٨٤، ٤٨٧

(٣) ألبوم العثمانيين/ ٥٣، ولم أحصل علىٰ هذا الخبر التاريخي المهم بمثل هذا الايجاز إلا في هذا المصدر .

دفاعـًا عن السلطان سليم الثاني:

وصفه كثير من المستشرقين - ومنهم (بروكلمان) بارتكابه المعاصي والفسق، وكما وصفه بالسِّكير[(١)] وتبعه بعض المؤرخين العرب، منهم الدكتور عبد العزيز الشناوي[(٢)]، كما رد عليهم الكثير من المؤرخين المنصفين.

أما شهادة الكافر علىٰ المسلم فتُردّ ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾[(٣)]، هذا إضافة إلىٰ أن تاريخ السلطان سليم وغيرته الإسلامية وحروبه وانتصاراته هي نقيض الحاكم السكير الفاسق! ولقد أنفق من ماله الخاص علىٰ إعادة بناء أسطوله البحري الذي قضىٰ أكثره في معركة ليبانتو، وخرج خلال سنة إلىٰ البحر المتوسط كأقوىٰ أسطول فيه![(٤)]

ولقد ذكر مؤرخو الغرب أن إفراطه الشديد في السكر هو سبب وفاته، في حين ذكر المؤرخون المسلمون أن سبب وفاته انزلاق قدمه في الحمام، مرض بسببها، ثم توفي[(٥)].

المطلب الخامس

وفاة السلطان

بسبب انـزلاق قدمه في الحمام، مرض منها أيامـًا، ثم توفي عام ٩٨٢هـ، رحمه الله، وقد ترك آثاراً في سلطنته، والفضل الأكبر في ذلك للصدر الأعظم الذي احتضنه منذ صغره في الحكم، وهو وزيـره الصقلي الذي أعاد بناء الأسطول الحربي بعد المعركة البحرية الخاسرة بسنة، وفي موقفه الجريء ضد روسيا، وحفره القناة بين نهرين، ومحاولة استرجاع (استراخان)، وحكمته في بناء الدولة واستقامته ودقة تخطيطه، وضبط إرادته، ومتابعة الولاة والخبرة الواسعة في الحكم[(٦)]. هذ وإن بعض المؤرخين دأبوا علىٰ القول بان حادثة اغتيال

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٥٠، عن (الاتراك العثمانيون)، كارل بروكمان/ ٣/ ١٣٧

(٢) المصدر السابق/ ص٣٥٠، عن (أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ)/ ص٦٤

(٣) القرآن الكريم، سورة الحجرات/ ٦

(٤) الدولة العثمانية، الصلابي/ ٣٥٠-٣٥١، عن (أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ)/ ص٦٤-٦٥، والدولة العثمانية دولة إسلامية/ ١/ ٦٧٧-٦٧٨، والدولة العثمانية، جمال عبد الهادي/ ص٦٦

(٥) المصدر السابق/ ص٣٥٢، عن (تاريخ الدولة العثمانية)/ ص١٢٨

(٦) المصدر السابق/ ص٣٥٥، عن (الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي)/ ص١٠١

الصدر الأعظم تمثل نهاية عصر النمو والتقدم العثماني الذي أعقبه مرحلة التوقف[(١)].

٤٦



أدرنة، مسجد السليمية من الخارج

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٢٠، الذي قسم مراحل الدولة العثمانية إلىٰ ثلاث:

١- مرحلة النمو والتقدم - من فتح استنبول ١٤٥٣هـ/ ١٥٧٩م، وهي سنة اغتيال الصدر الأعظم صوقولي

٢- مرحلة التوقف - من عام ١٥٧٩م حتىٰ الحصار الثاني لفينا ١٦٨٣م، في حكم السلطان محمد الرابع

٣- مرحلة التأخر والانحطاط - من عام ١٦٨٣م وحتىٰ تمزق الامبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولىٰ

المبحث الثاني

السلطان رقم (١٢)

الخليفة السلطان مراد الثالث

حياته : (٩٥٣-١٠٠٣هـ/ ١٥٤٥-١٥٩٤م) عاش (٤٩) سنة.

حكمه : (٩٨٢-١٠٠٣هـ/ ١٥٧٤-١٥٩٤م) .

حكم (٢٢) سنة وعمره (٢٨ سنة)[١].

المطلب الأول

ترجمة حياته

ابن السلطان سليم الثاني، من زوجته (نوربانو) اليهودية التي أسلمت، كان محبـًا للعلماء، تقيـًا، حسن الخلق، كريمـًا في عطاياه، لاسيما للجند، إذ صرف لهم ١١٠,٠٠٠ ليرة ذهب، وكان مثقفـًا يتقن اللغات الثلاث: التركية والفارسية والعربية، يميل إلىٰ التصوف النقيّ، منع الخمور بأمر سُلطاني، غير أن الجيش الانكشاري دون بقية الجيش ثار لذلك المنع، فاضطر إلىٰ التراجع عن أمره، وهذا يمثل بداية الضعف لدي جيش الجهاد! المتمثل في عدم قدرة السلطان علىٰ تنفيذ أمر شرعي! غير أن عموم الشعب كان محترمـًا لأحكام الشرع[٢].

ومن الهنات في حياته زواجه باليهودية (أستير كيرا)، كانت غاية في الجمال، مسؤولة عن كمارك إستنبول، والتي أسلمت، وبذلت الكثير من أموال الدولة ليهود إسبانيا في إعانتهم علىٰ الرحيل منها إلىٰ مقدونيا في الدولة العثمانية[٣]، استكمالًا لجهود والده وجدّه.

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٥٣ باختصار

(٢) تاريخ الدولة العثمانية العلية/ ص٢٥٩

(٣) التغريب القرآني في ضوء الصراع الصفوي العثماني، علاء الدين المدرس/ ص٤٥

المطلب الثاني

جهوده في القارة الأوروبية

١- زحفت جيوش القرم[١] ضد روسيا، وتقدموا إلىٰ موسكو، واحتلوها ثم انسحبوا منها ، وأرغمت روسيا علىٰ دفع الجزية[٢].

٢- بولونيا - هرب ملك بولونيا (هنري دي فالوا) إلىٰ فرنسا، فأوصىٰ الخليفة بانتخاب أمير ترانسلفانية ملكـًا عليهم، ففعلوا، وصارت بولونيا محمية عثمانية (٩٨٣هـ / ١٥٧٥م)، واعترفت النمسا بذلك في معاهدة الصلح التي أبرمتها مع الدولة العثمانية ٩٨٤هـ/ ١٥٧٦م، ومدتها ثماني سنوات[٣]، ثم خرجت بولونيا من حكمها، وحاربتها!

إدخال انكلترا تحت الحماية العثمانية:

عام (١٥٨٠) كتبت الملكة إليزبيت في رسالتها إلىٰ مراد الثالث ، تطلب مساعدته ضد الكاثوليك الذين سمتهم (عبدة الأصنام)، وذكرت أن عبادة التصاوير في المذهب البروتستانتي ممنوعة كما في الدين الإسلامي كتب السلطان في خطابه الذي حُرِّر في ١٥٨٠م ، للملكة وأنتم كذلك عليكم الطاعة والانقياد لبابي العالي ووعدها بالمساعدة المالية والعسكرية ، حررت الملكة كتبـًا عديدة ومفصلة ، تطلب فيها المساعدة - إلىٰ الوزراء الأعظم - كنان باشا ، وسياوش باشا ، وناظر البحرية قيليج علي باشا ، والأستاذ السلطاني (شيخ الإسلام) سعدالدين أفندي ،.. كانت اليزبيت في ١٥٨٧م ترجو إرسال ٦٠-٧٠ سفينة حربية تركية علىٰ الأقل تجاه الأسطول الاسباني. تاريخ الدولة العثمانية ، يماز أوتوفا / ٣٦٥.

---

(١) وهي شبه الجزيرة الواقعة جنوب روسيا وشمال البحر الأسود، عاصمتها سيفاستبول

(٢) ألبوم العثمانيين/ ٥٥

(٣) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٥٣، عن الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث)/ ص١٠٠

٣- الامتيازات الأوروبية: لفرنسا والبندقية في المجال التجاري وكذا (الامتيازات الأجنبية) مع ايزابيلا ملكة إنكلترا عام ١٥٨٠م، في المجال التجاري، وكانت سفن هذه الدول تبحر بأعلامها في الموانئ العثمانية، وأصبحت هذه الامتيازات ذريعة للتدخل الأوروبي الفعلي في شؤون الدولة العثمانية[١].

٤- تمرّد بعض الفرق الانكشارية في الجيش، بعد حربهم مع المجر التي ساندتها النمسا، واحتلت عدة قلاع استردها سنان باشا، وكذلك تمرّد أمراء الأفلاق والبغدان وترانسلفانيا، وانضمامهم إلىٰ النمسا، فحاربهم سنان باشا عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م وخسر عدة مدن[٢]، من غير أن يحقق أي انتصار عليهم.

المطلب الثالث

جهوده في القارة الآسيوية

١- الصراع مع الشيعة الصفوية، عام (٩٨٥هـ/ ١٥٧٢م) أرسل السلطان حملة قوية إلىٰ (القفقاس وشمالي إيران)، بسبب الاضطرابات التي أثارها الصفويون، فاحتل الجيش العثماني تلك البلاد، حتىٰ تبريز للمرة الثالثة ، ٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م وهي عاصمتهم، كما احتلّ (تفليس وجلدر وجورجيا وكرجستان والكرج)، كما سيطر علىٰ أذربيجان وشيروان ولورستان، وجميعها في القفقاس، بين البحر الأسود وبحر الخزر، واستماتت تفليس في الصمود حتىٰ أكلوا لحوم الكلاب والقطط[٣]. وحين حكم الشاه عباس الكبير، تنازل رسمياً عن تلك البلاد بموجب معاهدة الصلح للعثمانيين، كما تعهّد بعدم سبّ الخلفاء الراشدين، رضي الله عنهم، في مملكته، وبعث بابن عمه (حيدر ميرزا) رهينة إلىٰ إستنبول[٤].

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ٣٥٤، عن (تاريخ الدولة العثمانية العلية)/ ص٢٦٠

(٢) المصدر السابق/ ٣٥٤-٣٥٥، عن (الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي)/ ص١٠١

(٣) ألبوم العثمانيين/ ٥٥

(٤) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٥٤، عن (الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي)/ ص١٠١

انتصار عظيم علىٰ الصفويين أدىٰ إلىٰ قبولهم احترام المذهب السني وعدم سب شخصيات السنة العظام:

وقعت معاهدة استنبول ٢١آذار / ١٥٩٠ ، وانتهت حرب من أقسىٰ حروب التاريخ العثماني التي استمرت منذ ١٢ عاماً، وكان قد ذكر صاحب الكتاب أن الشاه الصفوي قبل في هذه المعاهدة أنه من جملة الحكام الذي يجرون سلطانهم تحت سيادة السلطان، وانضمت إلىٰ الدولة العثمانية الأراضي التي فتح أكثرها أوزدمير أوغلو باشا، والبالغة ٥٩,٠٠٠كم٢ وامتدت حدود الدولة بشكل قطعي حتىٰ غربي سواحل بحر الخزر، بالإضافة إلىٰ قبول إيران احترام المذاهب السنية ، فإنها واقفت علىٰ عدم سب شخصيات للسنة العظام [١].

٤٧



الخليفة السلطان مراد الثالث (١٥٤٥-١٥٩٤م)

٢- اليهود والهجرة إلىٰ سيناء - فقد سمح السلطان بهجرة بعضهم إلىٰ سيناء وسكنىٰ الطور، وهي مدينة استراتيجية موصولة بحراً بالسفن التجارية مع موانئ البحر الأحمر، وبرّاً مع

(١) تاريخ الدولة العثمانية / ٤٢١

القاهرة، وهي تصلح لرسوّ السفن، فكثفوا هجرتهم إليها، فآذوا الرهبان النصارىٰ، الذين شكوهم إلىٰ الخليفة، فأمر بإخراجهم من سيناء، ومنعهم من العودة إليها والسكنىٰ فيها، بما فيها مدينة الطور[(١)].

٣- آبار نفط باكو عام ١٥٨١م، كان أزدمير أوغلو قد نقل قاعدته إلىٰ باكو ، واهتم بتحسين إنتاج نفط باكو - المصدر السابق تاريخ الدولة العثمانية / ٤٠٧ .

المطلب الرابع

جهوده في القارة الإفريقية

تتلخص أعمال الخليفة مراد الجادة في محاولة استرجاع الأندلس (الفردوس المفقود)، بدعم الجزائر والمغرب عسكريـًا، وبكثافة، غير أن خيانة سلطان المغرب أحمد المنصور بالله، بعد انتصاره في معركة المخازن الجبارة علىٰ جيوش أوروبا المنقولة إلىٰ المغرب، أدت إلىٰ غرور السلطان المنتصر وتخاذله ، بالاتفاق مع الإسبان ضد العثمانيين، ومنعِه الأسطول العثماني من أن يرسو في الساحل المغربي ، مما حمله علىٰ المغادرة لئلا تزهق قطرة دم مسلم، ومع ذلك، جرت غزوات موفقة علىٰ السواحل الأندلسية، وسيأتي تفصيلها لاحقـًا في الباب الثاني (الفردوس المفقود) - الفصل الثالث (جهود الدولة العثمانية لإنقاذ الفردوس المفقود)، المبحث التاسع.

من مظاهر الدسائس الأجنبية والضعف في الحكم :

مقتل الصدر الأعظم (صوقلي محمد باشا)، وكان في منصب الصدر الأعظم منذ زمن سليمان القانوني، وهو أعلىٰ منصب في الدولة، يوازي منصب رئيس الوزراء في الاصطلاح الحديث وهو يمثل قمة السلطة التنفيذية، وكان هذا الصدر قمة في الاستقامة والحكمة ودقة التخطيط والقيادة وضبط الإدارة ومتابعة الولاة، وكان قتله علىٰ يد مجنون، وفيه شبهة بمكيدة حاشية السلطان المتنفذة بدسائس الأجانب، وكان مقتله نكبة علىٰ الدولة وخسارة فادحة، وفتح باب الشرّ في التحكم بالصدور، بما أضعف مقام الخلافة وهيمنتها،

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص ٣٥٦، عن (الدولة العثمانية)، د. جمال عبد الهادي/ ص٦٨

وفتح باب تمرّد الجيش، وحصول اضطراب الأحوال الداخلية والخارجية، إذ الصدور الثقات المقتدرون صمام أمن للدولة وهيبة لها، ونتيجة لذلك خرجت بولندا عن الدولة العثمانية، واشتبكت في صراع معها[١].

أما صلاحية فتوىٰ خلع السلطان فتعود إلىٰ شيخ الإسلام، وليس إلىٰ الصدر الأعظم.

٤٨



الخليفة السلطان مراد الثالث (الرسام قابي داخلي)

المطلب الخامس

وفاته

توفي رحمه الله في إستنبول في عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م، ١٦ كانون الثاني، عن عمر (٤٩)

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٥٥ بايجاز، عن (الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي)/ ص١٠٢

سنة، وعن (١٩ ابنًا) و(٤ بنات)، ودفن في فناء آيا صوفيا[١]، رحمه الله.

بلغت مساحة الأراضي العثمانية في عهده (١٩,٩٠٠,٠٠٠كم٢)، بعد ان كانت (١٥,١٦٠,٠٠٠كم٢) في عهد والده سليم الثاني . وهي أوسع رقعة للإمبراطورية العثمانية، بل للدولة الإسلامية في عمرها المديد[٢].

٤٩



الدولة العثمانية في أقصىٰ اتساعها

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٥٦، عن (السلاطين العثمانيون)/ ص٥

(٢) ألبوم العثمانيين/ ٥٥

المبحث الثالث

السلطان رقم (١٣)

الخليفة السلطان محمد خان الثالث

حياته: (٩٧٤-١٠١٢هـ/ ١٥٦٦-١٦٠٣م) عمرّ (٣٨) سنة.

حكمه: (١٠٠٣-١٠١٢هـ/ ١٥٩٤-١٦٠٣م) حكم (٨) سنوات وعمره (٣٠ سنة)[١].

تولىٰ الخلافة بعد وفاة والده بـ(١٢) يومـًا، إذ كان في مغنيسيا في غرب الأنضول، وأمه إيطالية الأصل[٢].

كان شجاعـًا جسوراً، رفع راية الجهاد، وقاد بنفسه الجيوش، وكان ورعـًا غاية في التقوىٰ، **حين كان يسمع اسم محمد ﷺ ، يقوم إجلالاً له، شديد الحب له** ، متواضعـًا مع شعبه ، مثقفـًا ثقافة عالية ، أديبـًا شاعراً صوفيـًا نقيـًا[٣].

توفي وعمره ٣٨ سنة بعد أن خلف ثلاثة أولاد ، ولم يعرف أسماء بناته ولا عددهن[٤].

تقلدّ مركز قيادة الجيوش بنفسه، بعد تخلّف الخليفتين من قبله عن ذلك ، وقد تدارك بعض الضعف في خلافة مراد الثالث ، فزادت بقيادته شجاعة الجيش ، فافتتح قلعة (أغري) في ٢٦ اكتوبر/ ١٥٩٦م ، التي عجز عن فتحها الخليفة سليمان .

واشتهر في التاريخ بلقب فاتح قلعة (أغري) (أرلو)، وخاض حربـًا ضروسـًا ضد جيوش المجر والنمسا، قادها بنفسه، وانتصر فيها انتصاراً حاسمـًا، مما حال دون وقوع حروب شديدة بعدها، لمدة طويلة وحدثت ثورات داخلية، تشير إلىٰ اختلال النظام العسكري، غير

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ٥٧

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٥٧، عن (سلاطين آل عثمان)، يوسف آصاف/ ص٨٦

(٣) المصدر السابق/ ٣٥٨، عن (الدولة العثمانية)/ ص٧٠

(٤) ألبوم العثمانيين/ ٥٧

أن الخليفة قضىٰ عليها بصعوبة[١].

سلمت الدولة العثمانية الكثير من القلاع إلىٰ الدول الأوروبية. وانشغل بإخماد الحركات التمردية (تمردات جلالي)، وفقد الأراضي الكثيرة في أوروبا. وخاض معركة الدفاع عن قلعة (كنجة)، وشغل بحروب الصفويين من جديد[٢].

٥٠



الخليفة السلطان محمد الثالث (١٥٦٦-١٦٠٣م)

ومن شعره الذي هو مرآة قلبه وصدقه، من خلال ترجمته إلىٰ العربية، ولا يحمل أوزان الشعر العربي طبعـًا:

(لا نرضىٰ بالظلم، بل نرغب في العدل

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ٣٥٨، عن (تاريخ الدولة العلية العثمانية)/ ص٢٦٨

(٢) ألبوم العثمانيين/ ٥٧

نحن نعمل لحب الله، ونصغي بدقة لأوامره

نريد الحصول على رضى الله

نحن عارفون، وقلوبنا مرآة العالم

قلوبنا محروقة بنار العشق في الأزل

نحن بعيدون عن الغش والخديعة وقلوبنا نظيفة)[١].

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ٥٧، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٥٨، عن (السلاطين العثمانيين)/ ص٥٧، وتاريخ الدولة العثمانية/ ص١٣١

المبحث الرابع

السلطان رقم (١٤)

الخليفة السلطان أحمد الأول

حياته: (٩٩٨-١٠٢٦هـ = ١٥٩٠-١٦١٧م) عمرّ (٢٨) سنة.

حكمه: (١٠١٢-١٠٢٦هـ = ١٦٠٣-١٦١٧م) .

حكم (١٤) سنة وعمره (١٤ سنة)

المطلب الأول

ترجمة حياته

تولىٰ الحكم بعمر (١٤ سنة)، ولم يسبقه خليفة أو سلطان بهذا العمر، كان تقياً ورعاً، نشأ في إدارة الحكم، يباشرها بنفسه، متواضعاً ملابسه في غاية البساطة، يحبّ أهل العلم، ويكثر من استشاراتهم[١]، عميق الحبّ لرسول الله (ﷺ)، صورّ أثر قدم الرسول (ﷺ)، وكتب عليه الشعر التالي بالتركية، ووضعه في تاجه تحت عمامته - (وترجمته إلىٰ العربية خال من الوزن الشعري):

أرغب دوماً في حمل صورة انطباع أقدام النبي عالي المقام

من هو سيد الأنام فوردة الحديقة الأنبياء ملكة هذه الأقدام الشريفة

فيا أحمد لا تتردد، ولو للحظة ومرّغ وجهك بأقدام الوردة الشريفة الرفيعة[٢].

بدأ بإرسال أستار الكعبة إليها من إستنبول، بديلاً من مصر سابقاً .

عُني بتقوية الجيش، وبنىٰ أجمل جامع كبير في إستنبول، ولم يزل من مشاهير المساجد

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٦٦، عن (السلاطين العثمانيون)/ ص٥٩

(٢) المصدر السابق/ ٣٦٦، عن (الدولة العثمانية)/ ص١٣٣

في العالم، المسمىٰ بجامع السلطان أحمد، بل هو أشهرها!

كانت أحوال الدولة مضطربة، بسبب حروبها ضد النمسا في أوروبا، والصفويين في إيران، والثورات الداخلية بتمرد (جلالي)، وأخمدت تماماً عام ١٦١١م، عيّن قائد الجيش صدراً أعظم: (لالا محمد باشا)، بديلاً عمن قبله، ولما مات عين خلفه مراد باشا بديلاً عنه، من قادة الجيش المتميزّين.

٥١



الخليفة السلطان أحمد الأول (١٥٩٠-١٦١٧م)

ونلخص أعماله في القارات الثلاث، كما يأتي، بإيجاز:

المطلب الثاني

جهوده في القارة الأوروبية

حروبه البرية والبحرية

١- **حارب ألمانيا وحلفاءها في الغرب**، وحقق انتصارات عليها، فطلبت الصلح وعقدت بين الطرفين معاهدة[١].

٢- استردّ قلاعـًا منيعة في النمسا، وقاتل (الأفلاق والبغدان،..) وعقد صلحـًا معها، كما هزم المجر، فقبلت النمسا في طلبها الصلح، ودفع الجزية (٢٠٠,٠٠٠) دوكة ذهبـًا سنويـًا، وعلىٰ أن تبقىٰ المجر تابعة للدولة العثمانية[٢].

وبذا فإن مساحتها كانت أكبر من مساحة الامبراطورية البيزنطية في أوج قوتها.

٣- **وحدثت حروب بحرية بين الأساطيل العثمانية والإسبانية والإيطالية ورهبان القديس يوحنا في مالطة**، وكان النصر سجالاً بينهم[٣].

٤- **تجديد الامتيازات الممنوحة لفرنسا وإنكلترا**، وتجديد الاتفاقية مع بولونيا بمنع تتار القرم من التعدي عليها، وتمنع بولونيا القازاق من التعدّي علىٰ الدولة العثمانية[٤]، وحصلت هولندا علىٰ امتيازاتها، فنشرت التدخين في الدولة العثمانية، وحرّمه المفتي، فهاج الجند وكثير من الشعب، مما اضطر العلماء إلىٰ السكوت عنه، بما جرّأ الجنود علىٰ العلماء[٥].

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ٥٩

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٥٩، عن (الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي)/ ص١٠٥

(٣) المصدر السابق/ ص٣٥٩، عن (الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي)/ ص١٠٥

(٤) المصدر السابق/ ص٣٦٠، عن (الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي)/ ص١٠٥

(٥) المصدر السابق/ ص٣٦٠، عن (الدولة العثمانية)، د. جمال عبد الهادي/ ص٧٢، علمـًا أن الدخان محرم نصـًا

المطلب الثالث

جهوده في القارة الآسيوية

١- **عبث الصفويين بالشرق الإسلامي**، وتواصلت خيانتهم: لم يزل الشاه عباس الصفوي في إيران، يصول ويجول، واسترجع ما انتزعه منه الخلفاء السابقون، فاسترد عاصمته تبريز ومدينة وان في شرق الأنضول، التي تقع علىٰ بحيرة (وان)، كما استرد بغداد وكربلاء والنجف والكوفة، وكان حكم الشاه مطلقًا، قتل من أهل السنة الكثير، وسمل عيون الآلاف، ولم يتسامح معهم إلا إذا تخلوا عن مذاهبهم وأعلنوا ولاءهم للمذهب الشيعي ولعنوا الصحابة وأبا بكر وعمر وعثمان[١]، وبعد حروب معه، اضطر الخليفة إلىٰ عقد أول معاهدة تنازل له فيها عن بعض البلاد والمدن التي استولىٰ عليها، ومنها بغداد، التي لاقت الفواجع علىٰ يديه، وهي أول معاهدة تظهر ضعف الدولة العثمانية، ولم يكتف عباس الصفوي بذلك فحسب، بل كان فاجراً وخائنًا، إذ اتصل بملوك النصارىٰ، لتقويض الحكم العثماني، وكان الشاه عباس الصفوي يشرب الخمر في أعيادهم واحتفالاتهم، كما أعطاهم امتيازات ببناء الكنائس في كبرىٰ المدن الإيرانية[٢]، وكاد يُعبَد من دون الله ويسجد له أتباعه!

٢- **الحركات الانفصالية في الأنضول**، بسبب ظهور الضعف في الدولة، ولكنها أُخمدت جميعها:

- حركة الكردي (جان بولاد).
- حركة والي أنقرة (قلندر أوغلي). قضىٰ عليها جميعها الصدر الأعظم (قيوجي مراد باشا)، الذي كان وزيراً محنكًا للخليفة، وطهرّ الأنضول منها.

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٦١، عن (الإسلام في آسيا)، د. محمد نصر مهنا/ ص٢٤٩-٢٥٠

(٢) المصدر السابق/ ص٣٦٢، عن (الإسلام في آسيا)/ ص٢٥٣

- الحركة الانفصالية في لبنان، قام بها فخر الدين الدرزي(١) عام ١٠٢٢هـ، وجمع بعض الفرق من نصيرية ودروز ونصارىٰ، فقضىٰ عليها الصدر الأعظم ، بعد دعم الطليان له، وجمعوا له ٤٠,٠٠٠ جندي، وبعد هزيمته فرّ إلىٰ إيطاليا، ثم عاد إلىٰ لبنان ١٦٢٨م، بعد فترة حكم خليفتين، فصدر العفو عنه، ثم أعلن التمرد ثانية مستغلاً فتنة الصفويين، وقد فشل في ثورته وأسر، ثم التحق بثورة أخرىٰ ١٠٤٥هـ، ففشل وأُسر وشُنق، ثم قاد ابن أخيه (ملحم) ثورة مسلحة أخرىٰ للأخذ بثأره، ففشل(٢).

أما سبب تلك الحركات فكانت اضطرابات داخلية محدودة، حركتها دول أجنبية،

---

(١) الدروز: فرقة باطنية تؤله الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، أغلب عقائدها من الإسماعيلية، عقيدتها مستخلصة من عدة أديان، وتؤمن بسرّية عقيدتها، ومن أهمها:

- ألوهية الحاكم بأمر الله، وتؤمن بغيبته وعودته.
- ينكرون الأنبياء والرسل، ويلقبونهم بالأبالسة.
- يؤمنون بأن المسيح (عليه السلام) هو داعيتهم (حمزة).
- يستبيحون دماء المسلمين وأموالهم.
- يعتقدون بنسخ ديانتهم للأديان السابقة، وينكرون أحكام الإسلام وعباداته، لا يصومون ولا يحجون، ولكنهم يحجون إلىٰ خلوة البياضة في بلدة حاصبية - لبنان.
- يؤمنون بتناسخ الأرواح.
- ينكرون الجنة والنار وينكرون الثواب والعقاب الأخرويين.
- ينكرون القرآن الكريم، ويقولون: إنه من وضع سلمان الفارسي، ولهم مصحفهم الخاص بهم.
- يبدأ التاريخ عندهم من ٤٠٨هـ، وهي السنة التي أعلن فيها (حمزة) ألوهية الحاكم.
- يعتقدون أن القيامة هي رجوع الحاكم الذي سيقودهم إلىٰ هدم الكعبة، وسحق المسلمين والنصارىٰ في الأرض، وسيحكمون العالم إلىٰ الأبد، ويفرضون الجزية والذل علىٰ المسلمين.
- يحرّمون التزاوج بغيرهم والصدقة عليهم ومساعدتهم، كما يمنعون التعدد وإرجاع المطلقة.
- يحرمون البنات من الميراث.
- يتهمون الصحابة بأعمال منكرة، ويقولون: إن الفحشاء والمنكر هما: أبو بكر وعمر (رضي الله عنهما).
- إن عقائدهم خليط من الإسماعيلية واليونانية، في فلسفة أرسطو وأفلاطون، والدهريين والبوذيين، وفلاسفة الفرس والهند والفراعنة القدماء.

(الدولة العثمانية - عوامل النهوض وأسباب السقوط، د. محمد علي الصلابي، ص٣٦٣-٣٦٦ باختصار، عن (الموسوعة الميّسرة في الأديان)/ ١/ ص٤٠٠-٤٠٤)

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٦٦، عن (تاريخ الدولة العثمانية)/ ص١٣٣

لغرض تقويض كيان الدولة، واستغلت صغر سن الخليفة الذي كان عمره (١٤ سنة) حين توليه الحكم، وكان اغتيال الصدر الأعظم وتعيين الأخر (مراد باشا) بعده، وهما لا يرقيان إلىٰ مستوىٰ قمة (صوقللي باشا) المتوفىٰ قبلهما، مما أدىٰ إلىٰ خلل في إدارة الدولة، غير أن الله تعالىٰ هيأ صدراً أعظم (قبوجي مراد باشا) وكان ذا خبرة عسكرية واسعة، ومحنكًا، ومتقدمًا في السن، فأحكم الخناق علىٰ الثورات في الأنضول، وتطهيرها منهم[١].

المطلب الرابع

وفاته

توفي في إستنبول عن عمر (٢٨) عاماً، ودفن في فناء جامع السلطان أحمد، وخلّف ١٠ بنين، و٦ بنات[٢].

٥٢



إسطنبول، مسجد السلطان أحمد والمباني الملحقة من الخارج

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٦٣، عن (تاريخ الدولة العثمانية)، علي حسون/ ص١٣٢

(٢) ألبوم العثمانيين/ ٥٩

ماشهد به كبار شخصيات العالم بحق الخلافة العثمانية :

لم يشهد التاريخ الإسلامي كياناً سياسياً قوياً ومستقراً ، كالإمبراطورية العثمانية ،... كانت تملك أكبر المصادر الاقتصادية في أوربا ، وكان جهازها الإداري كيانًا راسخًا ، يخدم ويرعىٰ مصالح الشعب العثماني ، وكان الأسطول العثماني يسيطر علىٰ كامل البحر الأبيض. وكانت إسطنبول قبلة السياح الأوروبيين كأكبر مركز للحضارة في العالم.

(المستشرق الفرنسي سوفوافت)

كانت الامبراطورية العثمانية دولة عالمية كبرىٰ بحق

(المستشرق الألماني باين)

الامبراطورية العثمانية هي الدولة الوحيدة التي جمعت الشرق الأوسط تحت حكمها أطول حقبة في التاريخ، إن كافة الأقوام الناطقة بالعربية اجتمعت تحت راية دولة واحدة. إن أيـًا من الدولة الأوربية الاستعمارية التي أخذت مكان الدولة العثمانية سواء انجلترا أو فرنسا أو إيطاليا أو روسيا لم تتمكن من إدارة هذه الأقطار مدة طويلة ، وبطريقة مستمرة كما أدارتها الدولة العثمانية

.المؤرخ الإنكليزي توينبي) [(١)]

---

(١) كل هذه النقول عن كتاب (تاريخ الدولة العثمانية ليماز أونوفا ص٧-٩.

الفصل الثالث

عصر الضعف

تداول الخلافة فيه (أربعة عشر خليفة)

(١٠٢٦-١٢٢٢هـ/ ١٦١٧-١٨٠٧م)

خلال (١٩٧) سنة هـ

المبحث الأول: الخليفة السلطان مصطفىٰ الأول (١٠٢٦-١٠٣١هـ)/ (١٦١٧-١٦٢١م)

المبحث الثاني: الخليفة السلطان عثمان الثاني (١٠٢٦-١٠٣١هـ)/ (١٦١٧-١٦٢١م)

المبحث الثالث: الخليفة السلطان مراد الرابع (١٠٣٢-١٠٤٩هـ)/ (١٦٢٣-١٦٤٠م)

المبحث الرابع: الخليفة السلطان إبراهيم بن أحمد (١٠٤٩-١٠٥٨هـ)/ (١٦٤٠-١٦٤٨م)

المبحث الخامس: الخليفة السلطان محمد الرابع (١٠٥٨-١٠٩٩هـ)/ (١٦٤٨-١٦٨٨م)

المبحث السادس: الخليفة السلطان سليمان خان الثاني (١٠٩٨-١١٠٢هـ)/ (١٦٨٧-١٦٩١م)

المبحث السابع: الخليفة السلطان أحمد الثاني (١١٠٢-١١٠٦هـ)/ (١٦٩٠-١٦٩٤م)

المبحث الثامن: الخليفة السلطان مصطفىٰ الثاني (١١٠٦-١١١٥هـ)/ (١٦٩٥-١٧٠٣م)

المبحث التاسع: الخليفة السلطان أحمد الثالث (١١١٥-١١٤٣هـ)/ (١٧٠٣-١٧٣٠م)

المبحث العاشر: الخليفة السلطان محمود الأول (١١٤٣-١١٦٨هـ)/ (١٧٣٠-١٧٥٤م)

المبحث الحادي عشر: الخليفة السلطان عثمان الثالث (١١٦٨-١١٧١هـ)/ (١٧٥٤-١٧٥٧م)

المبحث الثاني عشر: الخليفة السلطان مصطفىٰ الثالث (١١٧٤-١١٨٧هـ)/ (١٧٥٧-١٧٧٣م)

المبحث الثالث عشر: الخليفة السلطان عبد الحميد الأول(١١٨٧-١٢٠٣هـ)/ (١٧٧٣-١٧٨٩م)

المبحث الرابع عشر: الخليفة السلطان سليم الثالث (١٢٠٣-١٢٢٢هـ)/ (١٧٨٩-١٨٠٧م)

تمهيد

المُتَأمِّل في سير الخلفاء الأربعة عشر، في عصر ضعف الدولة العثمانية في واقع الدولة خلال هذه الفترة، يرىٰ بوضوح ما يأتي:

١ – **تديُّن أغلب الخلفاء، وتشرّبهم بروح الجهاد** ، وكان بعضهم يتولىٰ قيادة الجيوش بنفسه، وكانت الجيوش العثمانية في هذا العصر تخوض المعارك اليومية سجالاً، بينها وبين الدول الأوروبية ، لاسيما روسيا والنمسا والمجر وصربيا، والمعارك البحرية ضد البندقية وإيطاليا، وكانت روحها القتالية عالية في البر والبحر، رغم تواصل الحروب وشدتها واتساعها وخسائرها الفادحة أحيانـًا.

٢– **ضعفت عزائم الجيش الإنكشاري، وضعف تدينه، وملله الحروب،** وسرىٰ في أفراده معاقرة الخمر، والتمرد علىٰ السلاطين لأكثر من (٢٥٠) سنة، منذ ١٥٥٠م في عهد السلطان مراد الثالث، إذ قتلوا بعضهم وعزلوا آخرين وعصوهم وتمرّدوا عليهم، مما أدىٰ إلىٰ ضعف الدولة وخسارتها الفادحة في الحروب ، ثم قضىٰ عليهم السلطان محمود الثاني حوالي ١٨٢٥م، واشتدت قوتهم في التآمر بعد سنة ١٦٠٠م.

٣– **ضعف بعض الخلفاء، وصغر سنهم وقلة تجاربهم**، مما حمل العدو علىٰ الجرأة عليهم، إضافة إلىٰ تدخّل الحريم في سياسة البعض، وشيوع مظاهر الترف لدىٰ بعض الخلفاء وكبار المسؤولين.

٤ – **كان للصدر الأعظم منزلة مرموقة في قيادة الدولة**، ورئاسة الوزراء، ومنهم من استشهد في حروبه، غير أنه ظهر منهم خونة وعملاء ومرتشون وضعفاء أعانوا في هدم الخلافة، وكانوا قلة.

٥– **موقف (الصفويين) خلال ثلاثة قرون ابتداء بالسلطان سليم الياووز (٩١٨–٩٢٦هـ/ ١٥١٣–١٥٣٠م)، حتىٰ نهاية عصر الضعف في عهد السلطان سليم الثالث (١٢٠٣–١٣٢٣هـ/ ١٧٨٩–١٨٠٧م) من الخلافة العثمانية**، وإفسادهم العقائد الإسلامية في الشرق

الأوسط، واستيلاؤهم علىٰ أراضٍ واسعة من الدولة، وقتلهم الملايين من المسلمين، حمل الدولة العثمانية علىٰ الانشغال بإرسال حملات كثيفة من جيوشها تتصدىٰ لهم، أضعفتها إزاء الدول الأوروبية، وقد ختم هذا العصر بسيطرة روسيا علىٰ سواحل البحر الأسود الشمالية والشرقية، وعلىٰ بلغاريا، وخسارة الدولة العثمانية لأكثر ولايات البلقان، مما شكّل خطراً علىٰ أراضيها ومياهها ومضايقها.

٦- **استغلال الدول الأوروبية نقاط الضعف المتمثلة في ضعف بعض الخلفاء** وعمالة الصدور وتمرد الإنكشاريين وكثير من الحروب الخاسرة، إضافة إلىٰ عدم التطور السريع المواكب للغرب في الصناعة والتجارة، لاسيما التصنيع العسكري الحديث، مما أدىٰ إلىٰ تكاتف تلك الدول، التي يجمعها الحقد علىٰ الإسلام، وعلىٰ الأتراك خصوصـاً، وكان لهذا التجمع والتماسك ضد الدولة العثمانية أثره البالغ في طعنها من الداخل، باثارة المؤامرات، وبمحاربتها في البر والبحر، واستغلال كل فرصة لإضعافها، حتىٰ انتهت إلىٰ السقوط ولكن القوة لم تزل فيها من خلال روح الشعب الذي يغذي الروح الجهادية لجيوشه إضافة إلىٰ ثقته بربه وبدينه مما حمله علىٰ ثقته بنفسه، وتقديم التضحيات المتوالية من غير ملل ولا يأس.

٧- **تحريف مفهوم الدين لدىٰ العامة وتغليب الطقوس والكسل والدروشة**، خاصة لدىٰ أتباع أكثر الفرق الصوفية السلبية والخرافية، والبعد عن الاحتكام إلىٰ نصوص القرآن العظيم والحديث الصحيح، وغلق العقل عن الاجتهاد، والاكتفاء بالتقليد الأعمىٰ الذي يقف حائراً أمام حل المشكلات المستجدة التي تأتينا خاصة من الغرب، وهي نتيجة طبيعية لتطور الحياة، مما حمل الكثيرين علىٰ الدعوة إلىٰ هجر الإسلام، ومطاوعة الغرب في أمور الحكم ودسائسه ونخره في كيان الدولة والشعب.

٨- **كانت قدرة الخلافة العثمانية اليوم (١٦٢٩م** قدرة مجموع دول العالم أجمع) بين هرمين وكانت الامبراطورية العثمانية أوسع الامبراطوريات التي عرفها العالم .

(مؤرخ فرنسي سفير أمريكا لدىٰ الامبراطورية العثمانية).

المبحث الأول

(السلطان رقم ١٥)

الخليفة السلطان مصطفىٰ الأول

حياته: (١٥٩٢-١٦٣٩م) عُمِّر (٤٧) سنة

حكمه: (١٠٢٦-١٠٣١هـ)/ (١٦١٧-١٦٢٣م)

حكم (٦) سنوات وعمره ٢٥ سنة.

ترجمته :

صفاته: كان وسيمـًا، خفيف اللحية، أصفر البشرة، واسع العينين[(١)].

حكمه: كان مصاباً بضعف في عقله، لذا فإنه عُزل بعد تنصيبه بثلاثة أشهر، ونصب بدلاً منه عثمان الشاب الذي سيخلفه.

ثم عيّن مرة ثانية بعد عزل السلطان عثمان بدسيسة عام ١٦٢٢ .

واستشهد بعد عزله بـ١٦ عامـًا، عن عمر ٤٧ سنة .

ودفن في جامع آيا صوفيا.

ولم يكن له أولاد[(٢)].

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ٦٠ باختصار

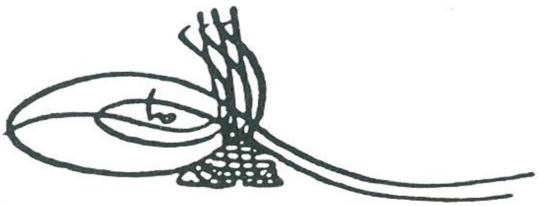
(٢) المصدر السابق/ ٦٠

٥٣



الخليفة السلطان مصطفىٰ الأول[١]

٥٤



طغراء السلطان مصطفىٰ الأول

(١) ألبوم العثمانيين/ ٦٠

المبحث الثاني

السلطان رقم(١٦)

الخليفة السلطان عثمان الثاني

حياته: (١٦٠٤-١٦٢٣م) عمرّ (١٨) سنة

حكمه: (١٠٢٦-١٠٣١هـ)/ (١٦١٨-١٦٢٣م) .

حكم (٥) سنوات وعمره ١٣ سنة[١]

ترجمته :

أنهىٰ دراسة علمية جيدة بعناية أمه، كان ذكيـًا نشطـًا، ووسيمـًا، وكانت عنده خطط كاملة وعظيمة رغم كونه في مستهل شبابه، اشترك في حرب بولندا بصفته القائد العام، تولىٰ السلطنة نتيجة عزل عمه مصطفىٰ الأول ١٦١٧م، بناء علىٰ فتوىٰ العلماء لخلل في عقل عمه[٢]، ثم تآمر الانكشاريون علىٰ قتله، وأعادوا السلطان مصطفىٰ مكانه ، كما تآمروا علىٰ السلطان **حيث غيروا الصدور سبع مرات في عام، وبعضهم بقىٰ شهراً في الحكم**[٣]**، واستمر الحال علىٰ ذلك في عصور كثيرة من الخلفاء المتأخرين .**

كان سبب التآمر عليه أنه أعلن الجهاد علىٰ بولونيا لتدخلها في شؤون إمارة البغدان ، وتم الصلح بينهما عام (١٠٢٩هـ/ ١٦٢٠م)، بناء علىٰ طلب بولونيا، وطلب الإنكشاريين الذين تعبوا من مواصلة القتال، فغضب الخليفة عليهم بسبب خلودهم إلىٰ الراحة والكسل، وإجباره علىٰ التصالح مع بولونيا، فعزم علىٰ التخلص من هذه الفئة الباغية منهم، للاستعداد لتنفيذ أمره الخطير بتجنيد جيوش جديدة وتدريبها وتنظيمها، وبدأ فعلاً بتنفيذ مشروعه،

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ٦١ باختصار، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٦٧-٣٦٨ باختصار

(٢) المصدر السابق/ ص٦١، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٦٧، عن (الدولة العثمانية)، د. جمال/ ص٧٢

(٣) المصدر السابق/ ص٢٦٧-٢٦٨، عن (تاريخ الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث)/ ص١٠٧

فعلمت الانكشارية بذلك، وهاجوا وماجوا وتذمروا، واتفقوا علىٰ عزله ثم قتله خنقًا في السجن[١]، وتم لهم ذلك في ٩ رجب ١٠٣١هـ/ ٢٠ مايو ١٦٢٢م.

قال فيه بعض المؤرخين: لو كتب له البقاء لأصبح الفاتح الثاني ، كان خطاطًا وشاعراً، ومن شعره المترجم إلىٰ العربية:

[كانت نيّتي الخدمة لحكومتي ودولتي وللعجب أن الحسود يعمل لنكبتي!][٢]

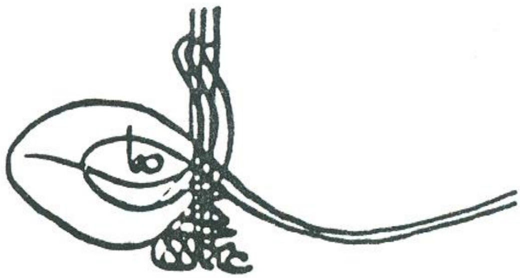
لم يعاونه أحد، لا صدر أعظم ولا وزير في تنفيذ خططه، أبعد عن العرش بفاجعة خنقه في السجن من قبل الإنكشاريين[٣].

٥٥



الخليفة السلطان عثمان الثاني (الشاب)[٤]

٥٦



طغراء (عثمان الثاني)

(١) المصدر السابق/ ص٣٦٧، عن (الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي)/ ص١٠٦، والسلاطين العثمانيين/ ص٦١

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ٣٦٧، عن (السلاطين العثمانيون)/ ص٦١

(٣) المصدر السابق/ ص٦١

(٤) ألبوم العثمانيين/ ٦١

المبحث الثالث

السلطان رقم (١٧)

الخليفة السلطان مراد الرابع (فاتح بغداد)

المؤسس الثاني للدولة العثمانية - فاتح بغداد

حياته : (١٦١٢-١٦٤٠م) عمرّ (٢٨) سنة

حكمه : (١٠٣٢-١٠٤٩هـ)/ (١٦٢٣-١٦٤٠م) .

حكم (١٧) سنة وعمره (١١) سنة[١]

ترجمته :

تولىٰ أمر السلطة بعد عزل عمه (مصطفىٰ)، وهو اخو (عثمان الثاني)،وهما ولدا (السلطان أحمد الأول)، المؤسس الثاني للدولة العثمانية .

كان قويـًا جداً في بدنه وفي حكمه، عاقلاً، شجاعـًا، قمع العصاة، واستأصل الفساد، انتقم من الإنكشاريين، وهيأ جيشـًا قويـًا من المخابرات والأمن، وأعدم المستبدين أمام شعوبهم في المدن، وحرّم الخمر والتدخين، وأعدم كل من ارتدّ عن الإسلام، وأخمد تمردات جلالي، وتمردات أخرىٰ، وأعدم قادتها، رغم صغر سنه[٢].

حارب الشيعة الصفويين سنة ١٠٤٤هـ / ١٦٣٤م، وقاد الجيوش بنفسه إلىٰ بغداد، وكان ينام علىٰ صهوة جواده! وقد لاقت بغداد الأهوال خلال فترة تسلط حكم عباس شاه الصفوي، وقد هدم السلطان مراد بعض أسوارها بالمدفعية، وتَمَكَّن من دخولها عام ١٠٤٨ بعد أن قتل ٢٠,٠٠٠ من الجيش الصفوي، ثم أصلح بغداد المهدمة، وعين وزيراً لها،

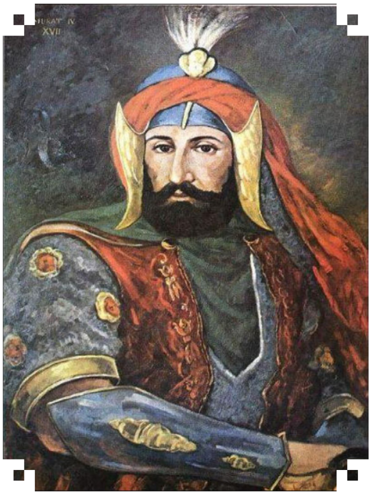
(١) ألبوم العثمانيين/ ٦٣ باختصار، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٦٨-٣٦٩

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٦٨، عن (السلاطين العثمانيون)/ ص٦٣، وتاريخ الدولة العثمانية/ ص١٣٦

وأحرز لقب فاتح بغداد[١].

تسلم الخزينة فارغة، وتركها ملأىٰ ، أعاد بناء الكعبة. توفي بمرض عن عمر بلغ (٢٨) سنة، وخلف (٤ أبناء، و٦ بنات)[٢].

٥٧



الخليفة السلطان مراد الرابع (١٦١٢-١٦٤٠)[٣]

٥٨



طغراء (مراد الرابع)

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص ٣٦٨-٣٦٩، عن (السلاطين العثمانيون)/ ص٦٣

(٢) المصدر السابق/ ص ٣٦٩، عن (السلاطين العثمانيون)/ ص٦٣، وتاريخ الدولة العثمانية/ ص١٣٦

(٣) ألبوم العثمانيين/ ٦٢

المبحث الرابع

السلطان رقم (١٨)

الخليفة السلطان إبراهيم بن أحمد

حياته : (١٦١٦-١٦٤٨م) عمرّ (٣٤) سنة

حكمه : (١٠٤٩-١٠٥٨هـ)/ (١٦٤٠-١٦٤٨م)

حكم (٩) سنوات وعمره ٢٥ سنة[١]

ترجمته :

تولىٰ الخلافة بعد أخيه، مراد الرابع الذي لم يعقب ذكورا، فأصلح الكثير من الفساد، وأوقف تدخل النساء في الحكم، كان البنادقة مهيمنين علىٰ التجارة في بحر إيجة، مستغلين معاهدة الصلح بينهما، فعزم الخليفة علىٰ تدمير نفوذهم، فجهز الجيوش والأساطيل، وأعلن الحرب علىٰ البنادقة، واعتقل جميع البنادقة في طول البلاد وعرضها، صادر أموالهم وممتلكاتهم، ثم هاجم كريت، واحتل جزءاً منها في عام ١٠٥٥هـ/ ١٦٤٥م، واجه تمرداً عسكريـاً ضده في إستنبول، أبعده عن العرش، ثم قتله الجند الإنكشاريون خنقـاً، وقرروا تعيين ابنه محمد الرابع وعمره (٧) سنوات[٢].

كان السلطان إبراهيم الوحيد من ذكور السلالة العثمانية ، وهكذا نجت السلالة العثمانية من الانقطاع، كان مسجونـاً مدة خلافة أخيه فأسرع كبار الدولة إلىٰ السجن ليخبروه بتعيينه خليفة، فظن أنهم قادمون لقتله، وأغلق باب السجن عليه، فكسره الجنود ودخلوا يهنئونه، فظنها حيلة، ولم يقتنع بموت أخيه، حتىٰ أحضرت والدته جثة أخيه دليلاً علىٰ وفاته، ثم أجلس علىٰ سرير الخلافة، بعد أمره بدفن جثة أخيه باحتفال مهيب، وأُخذ به إلىٰ جامع أبي

(١) ألبوم العثمانيين/ ٦٤ باختصار، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٦٩-٣٧١

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٧٠، عن (تاريخ الدولة العثمانية)/ ص١٣٧

أيوب الأنصاري، حيث قلدوه السيف، ونادوا عليه بالخلافة(١).

كانت الأحوال مستقرة بسبب جهود أخيه (مراد) ضد الانكشارية وتجديد الجيش، فاتجه إلىٰ الاقتصاد في نفقات الجيش والأسطول، وإقامته النظام الضرائبي علىٰ أسس جديدة(٢). جاهد ضد مستبدي قادة الإنكشارية، افتُري عليه الكثير كذباً.

توفي عن عمر (٢٥) سنة، وخلّف (٦ بنين و٥ بنات)، بعد أن ترك الخزينة مملوءة بعد ما كانت فارغة(٣).

٥٩



الخليفة السلطان إبراهيم(٤)

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٦٩-٣٧٠، عن (السلاطين العثمانيون)/ ص٦٣، وألبوم العثمانيين/ ص٦٤

(٢) المصدر السابق/ ص٣٧٠، عن الدولة العثمانية)، اسماعيل سرهنك/ ص١٠٩، ١٥٠

(٣) ألبوم العثمانيين/ ٦٤

(٤) ألبوم العثمانيين/ ٦٤

المبحث الخامس

السلطان رقم (١٩)

الخليفة السلطان محمد الرابع

حياته : (١٦٤٢-١٦٩٣م) عمرّ (٥٢) سنة

حكمه : (١٠٥٨-١٠٩٩هـ)/ (١٦٤٨-١٦٨٧م).

حكم (٣٤) سنة وعمره (٧) سنوات[١].

ترجمته :

هو ابن السلطان إبراهيم، كان خليفة وعمره (٧) سنوات قوي العزم عميق الإيمان، غير أن الدول الأوروبية كونت حلفاً سموه مقدساً من (النمسا وبولندا والبندقية ورهبان مالطة والبابا وروسيا) للوقوف بوجه التوسع العثماني في هذه الفترة المضطربة، ولكن الله قيض لها صدراً أعظم (أحمد كوبريللي) ابن الصدر الأعظم المتوفي عام ١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م، أعاد للدولة هيبتها وسلطانها عمره (٧) سنوات، سار علىٰ رأس جيش لقتال النمسا، وانتصر عليها (١٠٧٤هـ - ١٦٦١م)، وفتح أعظم قلعة فيها (فوهزل) شرق فينا، كما انتصر قبلها علىٰ روسيا ١٦٥٩م، ثم انتصر علىٰ ألمانيا ١٦٦٣م، ثم خسر الحرب ضدها، وكان يقود بنفسه كثيراً من المعارك[٢].

إن هذا النصر علىٰ النمسا مهّد لفرنسا التقرب من الدولة العثمانية وتجديد الامتيازات، فسلكت طريق التهديد بإرسال أسطولها الحربي إلىٰ المياه التركية، فما كان من الصدر

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ٦٥ باختصار، والدولة العثمانية/ ص٣٧١ باختصار

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٧١، عن (الدولة العثمانية)/ ص٧٣

الأعظم إلا تحدّي فرنسا، بالمثل، فتراجعت عن موقفها، إلىٰ اللين والمفاوضات، بعد أن قال لها الصدر الأعظم : (إن الامتيازات كانت منحة وليست معاهدة واجبة النفاذ)، غير أن المفاوضات أسفرت عن تجديد المعاهدات القديمة، وأعادت امتياز حماية بيت المقدس عام ١٠٨٤هـ[١].

حاصر (فيينا) للمرة الثانية، ولم يفلح في إعادة فتحها، فانسحب الجيش العثماني، ووقعت الدولة العثمانية معاهدة تنازلت فيها عن المجر وترانسلفانيا، وكانت المعركة الأولىٰ التي خسرت فيها الحرب، وفقدت (بودابست وغيرها)، وأعقبتها بخسارة الحرب ضد روسيا بخيانة جيوش القرم التي استقلت عن الدولة العثمانية، وأغارت بولونيا علىٰ ولاية البغدان، وأغـارت سفن البندقية علىٰ سواحل المورة واليونان واحتلت (أثينا وكورنثه) عام ١٠٩٧هـ وغيرها من المدن، انتهت هذه المآسي بإبعاد السلطان عن الحكم في قصر أدرنة (٦ سنين)، حيث توفي، ثم نقل جثمانه إلىٰ إستنبول عام ١٠٩٩هـ/ ١٦٨٨م[٢]

احتل عام ١٦٦٤م كريت بتمامها، ثم استولىٰ علىٰ بولندا وأراضي أخرىٰ، وتواصلت حروبه في أوروبا.

عزل السلطان ووفاته:

تذكر كتب التاريخ أن العلماء ورجال الدين اتفقوا علىٰ عزل السلطان محمد الرابع، فعزل عام ١٠٩٩هـ وتوفي، وتولىٰ مكانه أخوه سليمان الثاني[٣].

خلّف (٤ بنين و٤ بنات).

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٧١، عن (الدولة العثمانية)/ ص٧٣-٧٤

(٢) المصدر السابق/ ص٣٧٢

(٣) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٧٢، عن (الدولة العثمانية)، د. جمال/ ص٧٤

٦٠



الخليفة السلطان محمد الرابع[١]

يهود الدونمة : هم يهود الأندلس المهجّرون من قبل الخليفة سليمان القانوني، بوحي من زوجته اليهودية التي أسلمت، (روكسلانا) ، أنقذهم من القتل والحرق ، وكانوا بحدود (٢٠٠,٠٠٠) يهودي، وأسكنهم في مكدونيا شمال اليونان ، ظهر فيهم زعيمهم (شبتاي زيفي) عام ١٦٤٨م، وادّعىٰ أنه المسيح، وأنه سيقود اليهود، ويتخذ القدس عاصمة لهم، وكانت هذه العقيدة شائعة لدىٰ اليهود آنئذ ، وانتشر خبره في أوروبا وأفريقيا، **وأتته الوفود، وقلدته لقب ملك الملوك، يحكم العالم**، وقام شبتاي بحذف اسم السلطان محمد الرابع من الخطب في كنيس اليهود، وجعل اسمه محله، سُجن وحوكم، وقيل له : إن الحراس سيعرونك من ملابسك، ويتخذونك غرضاً للسهام، فإن لم تخترق جسمك فسيعتبرونك

(١) ألبوم العثمانيين/ ٦٥

السلطان، فأنكر اتهامه، وأسلم باسم محمد عزيز أفندي، وبدأ يدعو اليهود إلىٰ الإسلام بإذن من الدولة، ولكنه قام يدعو سراً إلىٰ اليهودية، فألقي القبض عليه بزي يهود، محاطاً بالنساء، يعاقرون الخمر، ويقرؤون المزامير، فنفاه السلطان محمد الرابع إلىٰ ألبانيا عام ١٦٧٣م، حيث مات فيها بعد خمس سنين[1].

وكان ليهود الدونمة دور خطير في هدم القيم الإسلامية، إذ نشروا الإلحاد والأفكار الغربية والماسونية وسفور المرأة واختلاطها بالرجال[2].

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٦٥

(٢) المصدر السابق/ ص٦٥

المبحث السادس

السلطان رقم (٢٠)

الخليفة السلطان سليمان خان الثاني

حياته: (١٦٤٢-١٦٩١م) عمرّ (٤٩) سنة

حكمه: (١٠٩٧-١١٠٢هـ)/ (١٦٨٧-١٦٩١م) >

حكم (٤) سنوات وعمره ٤٥ سنة[١]

ترجمته:

ولد في استنبول، اعتنت والدته بتربيته، وكان متوسط القامة، رمادي اللحية، جسيمًا، هو غاية في الحلم، كان تقيًا جسوراً محبًا للوطن، شفيقًا ظريفًا، يمقت الرشوة والسفاهة. موهوبًا بالخط، كتب مصاحف كثيرة بخطه، وكان يتقن اللغتين العربية والفارسية، وذا همة عالية، وشاعراً[٢].

قام بحركات تطهيرية كبيرة نتيجة إخلال مستبدي الجيش بأمن البلاد، فأمن السلام والاستقرار ، وكانت الدولة تعيش ظروفًا صعبة عند تسلمه الحكم، استردّ الكثير من الأراضي التي احتلتها ألمانيا في عهد سلفه محمد الرابع[٣].

رغم أن حكمه كان لأربع سنوات إلا أنه كان مشحونـًا بالحروب الحاسمة مع كبريات الدول مجتمعة ومتفرقة، وانتصر في أغلبها، أما في البلقان فاستمرت الهزائم فيها، واحتلت البندقية سواحل دالماسيا الغربية علىٰ البحر الأدرياتيكي، واستمر التدهور السياسي في نهاية حكمه[٤].

حارب ضدّ تحالف بعض الدول الأوروبية عليه : (بولندا وروسيا وألمانيا والبندقية)

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٦٦ باختصار

(٢) المصدر السابق/ ص٦٦

(٣) المصدر السابق/ ص٦٦

(٤) الدولة العثمانية، الصلابي/ ٣٧٢، عن (الدولة العثمانية)، د. جمال/ ص٧٤

مجتمعة، وانتصر عليها، إلا أن ألمانيا استمرت في هجومها علىٰ بلغراد وصربيا عام ١٦٩٠م، وكان الصدر الأعظم كبريلي مصطفىٰ يقود المعارك بنفسه، وانتصر عليها، فاستقبله السلطان سليمان بالبكاء الشديد، وألبسه معطفه، ثم استشهد الصدر الأعظم في معارك ضارية مع النمسا ١١٠٢هـ، في مطلع حكم السلطان أحمد الثاني - أخيه من بعده[١]

وبدأت حربه لفتح المجر عام ١٦٩١م، واستمرت أربع سنين، غير أن الموت عاجله عن عمر يقارب الخمسين، نتيجة مرضه .

ولم يعقّب وهو يودع الجيش الغازي لحرب أوروبا، وجيء بنعشه إلىٰ إستنبول ودفن في ضريح السلطان سليمان القانوني[٢].

تعامل مع نصارىٰ دولته في جميع أنحائها بتكريمهم كما يوصي الإسلام، فسمح لهم بناء ما تهدم من كنائسهم، وأحسن إليهم، وعاقب أشدّ العقاب من يتعرض لهم أو يضايقهم في شعائر دينهم، حتىٰ استمال جميع مسيحي الدولة، بما أثمر استمالة المسيحيين في دولته فحمل أهالي مورة في اليونان علىٰ البنادقة الكاثوليك، وطردوا جيشها من بلادهم، بسبب اضطهادهم واجبارهم علىٰ المذهب الكاثوليكي، ودخلوا في حماية الدولة العثمانية مختارين[٣].

عاصره الخطاط المشهور حافظ عثمان، الذي توفي في عصره.

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٦٦

(٢) الدولة العثمانية/ ص٣٧٣، عن (تاريخ الدولة العثمانية العلية)/ ص٣٠٦

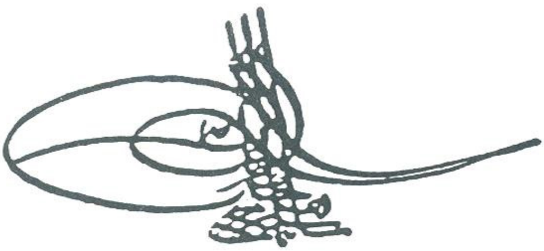
(٣) المصدر السابق/ ص٣٧٢، عن (الدولة العثمانية)، د. جمال/ ص٧٤، وتاريخ الدولة العلية العثمانية/ ص٣٠٦

٦١



الخليفة السلطان سليمان الثاني[(١)]

٦٢



طغراء (سليمان الثاني)

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٦٦

المبحث السابع
السلطان رقم (٢١)
الخليفة السلطان أحمد الثاني

حياته: (١٦٤٣-١٦٩٥م) عمرّ (٥٢) سنة

حكمه: (١١٠٢-١١٠٦هـ)/ (١٦٩١-١٦٩٥م) حكم (٤) سنوات وعمره (٤٨) سنة[١]

ترجمته :

كان هو وصدره الأعظم ضعيفين، وهو ابن السلطان إبراهيم أخو السلطان سليمان الثاني، ولد السلطان أحمد الثاني في إسطنبول، اعتنت والدته بشأن دراسته بدقة. كان غاية في النشاط ويحب ان يباشر إدارة جميع الشؤون بنفسه، وكان صاحب قابلية فائقة في فن الخط. كتب مصاحف كثيرة وكان يتقن اللغات العربية والتركية والفارسية. ويراقب شؤون الدولة عن كثب، ويشترك في اجتماعات الديوان حتىٰ ولو كان مريضاً[٢].

كان شغوفاً بالشعر والشعراء، تولىٰ بعد وفاة الصدر الأعظم (مصطفىٰ كوبرلي) وهو الصدر الأعظم (جي علي باشا عريجي) وكان ضعيفاً، فساءت الأمور، واستمر التدهور، واحتلت البندقية بعض جزر بحر إيجه، وكانت الحروب في أيامه مجرد مناوشات، ولم تطل مدة حكمه في السنوات الأربع.

حاصر الألمان بلغراد وانسحبوا منها بعد ما تركوا ١٠,٠٠٠ قتيل[٣].

توفي السلطان أحمد الثاني في ٦ شباط ١٦٩٥ في مدينة أدرنه وجيء بنعشه إلىٰ إستنبول مثل أخيه الكبير سليمان الثاني، ودفن رحمه الله في ضريح السلطان سليمان القانوني.

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٦٧

(٢) المصدر السابق/ ص٦٧ باختصار

(٣) المصدر السابق/ ص٦٧

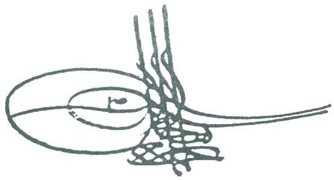
توفي عن ابنين وثلاث بنات[(١)].

٦٣



الخليفة السلطان أحمد الثاني[(٢)]

٦٤



طغراء (أحمد الثاني)

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٦٧

(٢) ألبوم العثمانيين/ ٦٧

المبحث الثامن

السلطان رقم (٢٢)

الخليفة السلطان مصطفىٰ الثاني

حياته : (١٦٦٤-١٧٠٣م) عمرّ (٣٩) سنة

حكمه : (١١٠٦-١١١٥هـ)/ (١٦٩٥-١٧٠٣م)

حكم (٨) سنة وعمره ٣١ سنة[1]

ترجمته :

هو ابن الخليفة محمد الرابع، ولد في إستنبول. كان غاية في الجد والزهد والورع والجهاد، وكان بارعاً في الخط العربي. قاد معارك هائلة ضد الدول الكبرىٰ ألمانيا وبولندا والبندقية، ولا سيما روسيا ، وكانت المعارك سجالاً، انتصر في أغلبها، كما خسر بعضها، وخسر قبرص.

حدثت للجيش العثماني هزيمة استشهد فيها ٣٠,٠٠٠ جندي، ومن خلال ضخامة الحروب واستمرارها، وخسارة بعضها، والتضحيات الهائلة التي وقعت فيها، ضعفت روح الجهاد في نهاية حكمه، تم توقيع معاهدة كارلوفتش جنوب غرب زغرب علىٰ نهر الدانوب عام ١١١٠هـ/ ١٦٩٩م، مع روسيا، وطبقاً لشروطها، انسحب العثمانيون من المجر كلها، تاركين المسلمين تحت أيدي النصارىٰ من غير رحمة، كما انسحبوا من إقليم ترانسلفانيا، وأصبحت جميع الدول المسيحية التي كانت تدفع الجزية صاغرة، ممتنعة عن دفعها[2].

كانت عزيمته في الجهاد والتضحية نادرة ، حتىٰ إنه نشر في اليوم الثالث من حكمه رسالة بيّن فيها ما سيقوم بها من الأعمال - ومنها : (حرّمت علىٰ نفسي اللهو والراحة)، وكان يقول

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٦٨

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٧٤، عن (الدولة العثمانية)، د. جمال عبد الهادي/ ص٧٦

أيضاً في رسالة أرسلها إلىٰ أحد وزرائه:

(ليس لي حاجة إلىٰ المال والشهرة، أتناول الخبز اليابس إن اقتضىٰ الحال، أبذل جهدي ونفسي للدين، أصبر علىٰ كافة البلوىٰ ولا أرجع من الحرب قبل أن أكمل الخدمة لشعبي، نعم أنا اشترك بنفسي في الحرب)، إذ كان يقود الجيوش بنفسه.

حدث تمرد الإنكشاريين في إستنبول بسبب تدخلهم بعزل الصدور، ولكن السلطان رفض، ونتيجته أُبعد السلطان عن العرش، وتوفي بعد أربعة أشهر.

ودفن في جامع يني جامع[١].

عاش الخطاط المشهور عثمان أفندي في عهده.

خلّف (٨ أبناء) و (١١ ابنة)[٢].

٦٥



السلطان مصطفى الثاني

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ٦٧

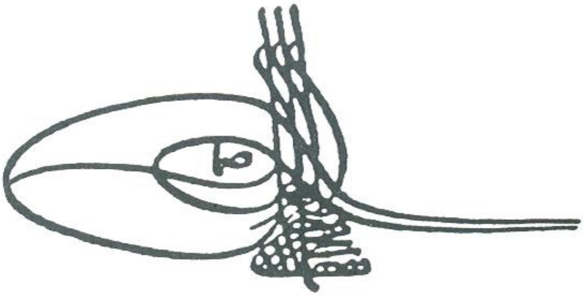
(٢) ألبوم العثمانيين/ ص٦٨

٦٦



كتب هذا الخط مصطفىٰ الثاني في التاسعة من عمره

٦٧



طغراء (مصطفىٰ الثاني)

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٦٨ باختصار، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٧٣-٣٧٤

المبحث التاسع

السلطان رقم (٢٣)

الخليفة السلطان أحمد الثالث

حياته : (١٦٦٧-١٧٣٠م) عمرّ (٦٣) سنة

حكمه : (١١١٥-١١٤٣هـ)/ (١٧٠٣-١٧٣٠م)

حكم (٢٧) سنة وعمره ٣٦ سنة

ترجمته :

كان طويل القامة، أسود العينين، أنفه كأنف الصقر، حنطي البشرة، كان شاعراً وخطاطًا.

هو ابن السلطان محمد الرابع، خليفة قوي في حكمه[١].

ومن مظاهر قوته:

- ارتفع براية الجهاد، فاستعاد بعض البلاد في شرق أوروبا.
- كاد يقضي علىٰ روسيا بموقعة (بروت) الضروس ، طوّق ٢٠٠,٠٠٠ جندي، كادوا يقعون في الأسر، ومعهم القيصر وزوجته، ولكن خيانة الصدر الأعظم (بلطة جي باشا) بالمال والنساء ١١٢٣هـ أوقفت الحرب بتدخل إنكلترا، بمعاهدة (أدرنة) تنازلت روسيا بموجبها عن جميع سواحل البحر الأسود، عزل الصدر الأعظم، واستمر الجهاد ضد الروس، وإنّ أكثر المؤرخين يخطئون هذه الخيانة[٢].
- انتصر العثمانيون في البحر المتوسط علىٰ أساطيل البنادقة، واستردّ (مـورا)[٣] منهم،

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٦٩-٧٠ باختصار، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٧٤-٣٧٧ باختصار

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٧٤-٣٧٧، عن (الدولة العثمانية)، د. اسماعيل باغي/ ص١١٧

(٣) وهي شبه جزيرة تقع جنوب اليونان ومساحتها حوالي ثلثها، تقع شمال كريت

واستولوا علىٰ جزيرة كريت للمرة الرابعة[١].

- استنجد البنادقة بالنمسا لرفض الدولة العثمانية إعادة ما احتلته من البلاد، فنشبت الحرب بينهما، وانتصرت النمسا، وسقطت بلغراد وأكثر بلاد الصرب، وتملك البنادقة سواحل دالماسيا (شرق الأدرياتيكي)، بينما احتل بطرس الأكبر بلاد داغستان وسواحل بحر الخزر (قزوين) الغربية بسبب ضعف الدولة الصفوية[٢].

٦٨



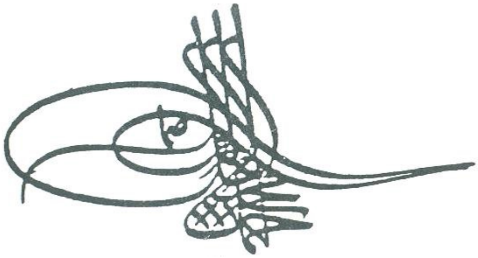
الخليفة السلطان أحمد الثالث[٣]

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٧٥، عن (في أصول التاريخ الإسلامي)/ ص١٥٦-١٥٧

(٢) المصدر السابق/ ص٣٧٥، عن (تاريخ الدولة العثمانية)، د. اسماعيل

(٣) ألبوم العثمانيين/ ص٦٩

٦٩



طغراء (أحمد الثالث)

- هاجم الصفويون العثمانيين، ولكنهم هزموا، واحتل تبريز للمرة الخامسة ، وهمدان وأرمينيا (بلاد الكرج)، وعدداً من القلاع، وعقد معاهدة (همدان) للصلح معهم ١١٤٠هـ/ ١٧٢٨م بطلب من الدولة الصفوية[(١)].
- اهتم بالتعرف إلىٰ الحضارة الأوروبية، وكان للصدر الأعظم (الداماد إبراهيم باشا) قصب السبق بين الصدور إلىٰ هذا الأمر، فأقام اتصالات بالسفراء الأوروبيين المقيمين بالإستانة، وأرسل السفراء العثمانيين إلىٰ العواصم الأوروبية، خاصة فينا وباريس، للمرة الأولىٰ، مما أشعر الدول الأوروبية إلىٰ حاجة الدولة العثمانية اليها، بعد أن كسرت الستار الحديدي العثماني.
- غير أن التأثر بالحضارة الغربية، كان بقشورها (الترف والبذخ والاسراف وبناء القصور والحدائق التي اقتبسها عليه القوم من العثمانيين)، ومنهم السلطان نفسه، الذي تأثر بإسرافهم وزخرفاتهم، وانتشرت مظاهر الترف - تبعاً لذلك في علية القوم من الأتراك، بما بدد الثروة وأضعف القوة الإيمانية والجهاد لدىٰ الكثيرين.
- ونشطت الحركة الأدبية والترجمة والطباعة، إذ استخدم أول مطبعة في تركية، واهتم بالتصنيع العسكري[(٢)].
- ثار عليه الإنكشاريون وعزلوه، ونصبوا مكانه ابن أخيه[(٣)].

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٧٥، عن (تاريخ الدولة العثمانية)، د. اسماعيل سرهنك/ ص٢٠٧

(٢) المصدر السابق/ ص٣٧٦-٣٧٧، عن (الدولة العثمانية)، د. اسماعيل ياغي/ ص١١٩

(٣) المصدر السابق/ ص٣٧٥، عن (تاريخ الدولة العثمانية)، د. اسماعيل سرهنك/ ص٢٠٧-٢٠٨

المبحث العاشر

السلطان رقم (٢٤)

الخليفة السلطان محمود الأول

حياته: (١٦٩٦-١٧٥٤م) عمرّ (٥٨) سنة

حكمه: (١١٤٣-١١٦٨هـ)/ (١٧٣٠-١٧٥٤م) .

حكم (٢٤) سنة وعمره ٣٤ سنة[(١)]

ترجمته :

هو ابن مصطفىٰ الثاني، تتلمذ علىٰ يد أكابر العلماء منذ صغره - كان صاحب همة، خليفة قوي في حكمه، ومن مظاهر قوته :

- أفاد من صلاته بالغرب في تطوير صناعة المدافع وأنواع الأسلحة الشائعة الأخرىٰ، أما اقتراحاته الأخرىٰ بالتطوير الحديث في التنظيم العسكري فقد عارضها الإنكشاريون، ولم تنفذ.
- افتتح مدرسة الهندسة العسكرية، ومصنع الورق[(٢)].
- قاتل الصفويين وانتصر عليهم، وعقد الصلح معهم عام ١١٤٤هـ، وحيث تخلّوا بموجب بنود الصلح عن تبريز وهمدان، ثم استرد الصفويون جميع ما خسروه تقريبـًا، بعد أن تولىٰ الحكم نادر خان (نابليون الشرق) ملكـًا علىٰ الفرس بديلاً من الشاه طهماسب، وانتصر علىٰ العثمانيين وحاصر بغداد وكان ضد الصفويين ودعا إلىٰ الجمع بين الشيعة والسنة في (مؤتمر النجف الشهير) عام ١١٥٦هـ ـ ١٧٤٣م ثم قتل علىٰ أيديهم.

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٧٠

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٧٧، عن (في أصول التاريخ العثماني)/ ص١٦٢-١٦٣

- أوقف تقدم روسيا في إقليم البغدان[١] كما أوقف تقدم النمسا في البوسنة والصرب والأفلاق[٢].

- وانتصر علىٰ الصرب وعلىٰ جيوش النمسا التي انسحبت من الحرب وطلبت الصلح عن طريق فرنسا، وتم توقيع معاهدة الصلح في بلغراد عام ١١٥٢هـ/ ١٧٣٩م، تنازلت فيه النمسا عن مدينة (بلغراد) وعن جميع بلاد الصرب) والأفلاق، وتعهدت روسيا بعدم بناء سفن في البحر الاسود[٣].

- ردّ اقتراح قبول المذهب الجعفري الذي عرضه عليه الصفويون[٤]، ثم أقرّه السلطان العثماني محمود، كما دعا الخطباء في العراق علىٰ المنابر للخليفة العثماني.

- حدث حريق في إسطنبول، وهزة أرضية، تضررت جوامعها الكبيرة، فرممها في الحال، وعوض المتضررين ببنائها من جديد وسلمها إلىٰ أصحابها[٥].

- **كانت مساحة دولته ١٥,٥٣٨,٠٠٠ كم^{٢}**.[٦]

- دفن في ضريح والده جامع (يني جامع).

- ولم ينجب[٧].

---

(١) البغدان يقع في رومانيا في أقصىٰ شمالها علىٰ ساحل البحر الأسود، شرق المجر

(٢) يقع في رومانيا في أقصىٰ جنوبها، شمال نهر الدانوب

(٣) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٧٨، عن (تاريخ الدولة العثمانية)، د. اسماعيل سرهنك/ ص٢٠٨-٢١٢

(٤) ألبوم العثمانيين/ ص٧٠

(٥) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٧٠

(٦) المصدر السابق/ ص٧٠

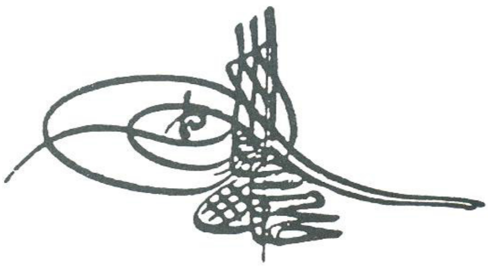
(٧) المصدر السابق/ ص٧٠

٧٠



الخليفة السلطان محمود الأول[١]

٧١



طغراء (محمود الأول)

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٧٠

المبحث الحادي عشر

السلطان رقم(٢٥)

الخليفة السلطان عثمان الثالث

حياته: (١٦٩٩-١٧٥٧م) عمرّ (٥٨) سنة

حكمه: (١١٦٨-١١٧١هـ)/ (١٧٥٤-١٧٥٧م) .

حكم (٣) سنوات وعمره ٥٥ سنة[١]

ترجمته:

بويع في جامع أبي أيوب الأنصاري، كان حكمه عهد استقرار، وإصلاحات داخلية، حدث حريقان في إستنبول، وتضرر أكثر من نصفها، وكان غاية في السخاء، شفيقاً علىٰ الفقراء، أتقن فن الخط العربي، وله خطوط جميلة جداً.

رسم أثر قدم الرسول ﷺ، ورسم إلىٰ جانبه طغراء (توقيعه)، ثم أهداه إلىٰ ضريح سيدنا أبي أيوب الأنصاري (رضي الله عنه).

كان عصبيًا، يتعجل الأحكام، مهتمًا بتأديب النساء، وكان يحتذي حذاء كعبه مسمّر عند تجواله في القصر، وإذا سمعت النساء صوت حذائه كنّ يتعجلن الدخول إلىٰ غرفهن[٢].

لم تحدث في حكمه حروب ولا نزاعات داخلية، إلا ثورات محدودة أهمها ثورة الاكراد التي أخمدها، وأصدر أوامر بمنع كل ما يخالف الشرع الشريف، وكان يتحسس أحوال الرعية ليلاً متنكراً[٣].

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٧١

(٢) المصدر السابق/ ص٧١

(٣) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٨٧، عن (الدولة العثمانية)، د. جمال عبد الهادي/ ص٧٩، والدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي/ ص١٢٢

٧٢



الخليفة السلطان عثمان الثالث[١]

٧٣



طغراء (عثمان الثالث)

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٧٦

المبحث الثاني عشر

السلطان رقم(٢٦)

الخليفة السلطان مصطفىٰ الثالث

حياته : (١٧١٧–١٧٧٤م) عمرّ (٥٧) سنة

حكمه : (١١٧١–١١٨٧هـ)/ (١٧٥٧–١٧٧٤م) .

حكم (١٧) سنة وعمره ٤٠ سنة(١)

ترجمته :

هو ابن السلطان أحمد الثالث، أنهىٰ دراسته العلمية، وكان غاية في الجدّ والسخاء، كما كان شاعراً، موهوبـًا، ومن أشعارة المشهورة، المترجمة عن التركية، لا وزن فيها ولا قافية:

إن الدنيا منهدة ، لا تظنّ أنها تستقيم لنا

جميع مراتب الدولة بقيت في أيدي الأرذال

وإن السعــداء اليـوم كلهـم أدنـاء(٢)

ونحـن متوكلـون علـىٰ الله جل جلالـه(٣)

- وكان علىٰ دراية واسعة بإدارة الدولة، وهذاالشعر من السلطان يشير إلىٰ تردّي الواقع السلوكي للمسؤولين في دولة الخلافة العثمانية في حياته، بل امتداد لما قبلها كذلك، رغم صلاح السلاطين وغيرتهم وقيادتهم للجيوش في حروب الجهاد المتواصلة.

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٧٢

(٢) أدناء جمع أدْناء وأَدْنِياء ودُنَئاءُ ودنيئون (للعاقل)، مؤنث دنيئة ، جمع مؤنث دنيئات (للعاقل) ودَنايا : صفة مشبَّهة تدلّ علىٰ الثبوت من دنُؤَ ؛والدنيء : خسيس دُون لا خير فيه (وتسهَّل همزتُه ، فيقال : دَنيّ.

(٣) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٨١

- كان يدرك أن الخطر الكبير من روسيا، فاجتهد في ملء الخزانة الداخلية والخارجية بالذهب. لإعداد العدة للدفاع ليلاً ونهاراً، وأعدّ المعدات العسكرية، وقام بحملات إصلاحية كبيرة، وكان ينوي فتح قناة السويس، ولكنه لم يجد الرجال الثقات لهذا العمل[1].
- حدثت هزة أرضية في إستنبول، وتضرر جامع الفاتح وجامع أبي أيوب الأنصاري ١٧٦٦م، فعمّرهما جميعهما في حينها، وافتتح مدرسة الهندسة البرية والبحرية ١٧٦٤م.
- أنشأ جامع (لا له لي) في أربع سنوات[2].
- كان مجاهداً صادقًا، غير أن الوضع الداخلي مضطرب، وظهر بعض العملاء من المسؤولين، كما تعاقب عدة صدور ضعفاء، ومنهم خونة، مما ادىٰ إلىٰ مصائب وقعت علىٰ الدولة لا سيما في حروبها.
- كانت الحروب في عصره سجالاً مع روسيا ١٧٦٨-١٧٧٤م، وأنزل بها هزائم عديدة، ثم جرت مفاوضات إنهاء الحروب بينهما (الصلح)، ولكنها فشلت، وعادت الحرب وانتصر العثمانيون[3].
- تآمر الغربيون ضده، لا سيما روسيا التي عملت علىٰ دعم الثورات الداخلية في مصر والشام، بعد عجزهم عن هدم الدولة من الخارج[4]، وبدأ التخلف الحقيقي ابتداء من هذا العصر.
- مرض السلطان في حربه ضد روسيا، حزنـًا، وتوفي عام ١١٨٧هـ بعمر ٥٧ عامـًا، مخلفـًا ولدين و٥ بنات[5]، وتولىٰ مكانه السلطان عبد الحميد الأول.

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٧٢

(٢) المصدر السابق/ ص٧٢

(٣) الدولة العثمانية، الصلابي، عن (الدولة العثمانية)، د. اسماعيل ياغي/ ص١٢٢

(٤) ألبوم العثمانيين/ ص٧٢، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٧٩، عن (تاريخ الدولة العثمانية) اسماعيل سرهنك/ ص٢١٦

(٥) المصدر السابق/ ص٧٢

٧٤



الخليفة السلطان مصطفىٰ الثالث[١]

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٧٢

المبحث الثالث عشر

السلطان رقم (٢٧)

الخليفة السلطان عبد الحميد الأول (الغازي)

حياته: (١٧٢٥-١٧٨٩م) عمرّ (٦٥) سنة

حكمه: (١١٨٧-١٢٠٣هـ)/ (١٧٧٤-١٧٨٩م) حكم (١٥) سنة وعمره ٤٩ سنة[١]

ترجمته:

أخو السلطان مصطفىٰ، تولىٰ الحكم بعد وفاة أخيه، وكان محجوزاً في قصره مدة حكم أخيه[٢]، ثقافته عالية لاسيما في التاريخ، منذ صغره، كما ولع بالخط، وكان غاية في الحساسية واللطافة، قام بحركات إصلاحية وإعمارية، وكان يقود كثيراً من الحروب بنفسه[٣].

استؤنفت الحرب مع روسيا، التي احتلت فارنا في بلغاريا علىٰ البحر الاسود، وعقدت معاهدة (كينارجة) سنة ١٧٨٣م وأهم ما جاء فيها: الصلح بينهما، بإنهاء السيطرة العثمانية علىٰ البحر الأسود، واستقلت القرم، وحصلت روسيا علىٰ امتيازات لها، وحمايتها للأرثودكس في الدولة العثمانية، وحرية الملاحة للروس في كافة الموانئ العثمانية في البحر الأسود والمتوسط، وحرية التجار الروس في البلاد العثمانية براً وبحراً، وحق التصدير والاستيراد والاقامة، وبناء الكنائس، وحرية الهجرة للاعيان من الروس وإعفائهم من الحرب والجزية، وتحولت روسيا بالنهاية إلىٰ حماية الأرثودكس في جميع البلاد العثمانية[٤].

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٧٣

(٢) المصدر السابق/ ص٣٨١، عن الدولة العثمانية)، اسماعيل ياغي/ ص١٢٣

(٣) المصدر السابق/ ص٢٧٣، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٨٢

(٤) المصدر السابق/ ص٣٨٣-٣٨٤، عن (العثمانيون والروس)/ ص٨٥

- هجمت روسيا علىٰ القرم بـ٧٠,٠٠٠ جندي، واحتلتها، فجاءة نقضاً للمعاهدة في ١٧٨٣م[١].
- أعلنت النمسا الحرب علىٰ الدولة العثمانية، تضامناً مع روسيا، ولكن القوات العثمانية انتصرت علىٰ النمسا المهاجمة لبلغراد والصرب[٢].
- بعد وفاته إستردت روسيا عدة ولايات شرق البلقان (البغدان وبسارابيا) في رومانيا، واحتلت النمسا بلغراد، وبعض الولايات الصربية[٣].
- استمرت الحرب ضد الصفويين ١٧٧٥-١٧٧٩م، لم تسفر إلا عن إراقة الدماء[٤].

٧٥



الخليفة السلطان عبد الحميد الأول[٥]

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٨٤، عن (العثمانيون والروس)/ ص٨٦

(٢) المصدر السابق/ ص٣٨٤،

(٣) المصدر السابق/ ص٣٨٤،

(٤) المصدر السابق/ ص٧٣

(٥) ألبوم العثمانيين/ ص٧٣

٧٦



طغراء (عبد الحميد الأول)

● بدأت الحرب مع ألمانيا، التي انهزمت في حربين، وأطلق علىٰ السلطان عبد الحميد لقب (الغازي) لكثرة حروبه، ولكن جيشه أنهك في نهاية حكمه لخسائره الفادحة في حروبه مع روسيا والنمسا والمانيا والصفويين[١].

● سقطت قلعة (أوزي) بيد الألمان، فقتلوا جميع من فيها من المدنيين (٢٥,٠٠٠)، ولم يتركوا واحداً علىٰ قيد الحياة، فأصيب السلطان بالفالج حين سماعه الخبر، فتوفي بعمر (٦٥) سنة، ودفن في ضريحه في (بخجة قابي).

● خلّف (٦ بنين و١٠ بنات)[٢].

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٧٣، عن (العثمانيون والروس)/ ص٨٧

(٢) المصدر السابق/ ص٧٣

المبحث الرابع عشر
السلطان رقم(٢٨)
الخليفة السلطان سليم الثالث

حياته: (١٧٦١-١٨٠٨م) عمرّ (٤٧) سنة

حكمه: (١٢٠٣-١٢٢٢هـ)/ (١٧٨٨-١٨٠٧م) .

حكم (١٩) سنة وعمره ٢٨ سنة[١]

المطلب الأول
ترجمته

هو ابن السلطان مصطفىٰ الثالث، تولىٰ الحكم بعد وفاة عمه (عبد الحميد الأول)، كان خليفة قويـًا مجاهداً، شجاعـًا.

كان مهتمـًا بالأدب والخط، وعلّق بعض لوحاته علىٰ الجوامع والأضرحة، وكان يتقن اللغتين العربية والفارسية، وكان عطوفـًا شفيقـًا، وأديبـًا شاعراً، قال حين احتلال الروس القرم الأبيات الشعرية المترجمة عن التركية، منها:

هـل نبقـىٰ هكـذا تحـت السيـوف
هل يوجد هكذا في ديننا الجلوس والكسل
أسـر الـروس كثيـراً مـن التتـار
هل نقول لتبقىٰ قرم تحت سيطرة الروس
أذهـب وآخذ بثـأري من ذلك المسقـوف[٢]•
أو أهـلك علـىٰ يـد العـدو الروسـي[٣]

---

(١) صحوة الرجل المريض، أو السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية، موفق بني المرجة/ ص٥٨.

(٢) • المسقوف: الروس، ومازالت الكلمة التركية تستعمل في العامية العربية

(٣) ألبوم العثمانيون/ ص٧٣-٧٤

أراد استنهاض الهمم بماضي الدولة، فأعلن شعار الجهاد واصراره عليه، لإخلاصه، وكان يقول: إن أيدي الأجانب تتجول فوق كبدي!، وذكر شعبه أن الانتصارات الماضية كانت بسبب تمسكهم بالدين، وأن سبب الهزائم ضعف عقيدتهم وبعدهم عن هدي ربهم[(١)].

إن أخطر عمل إصلاحي أنه خلّص الجيش من الإنكشارية الذين عبثوا بالحكم وتمردوا في الحروب لقرنين من الزمن، كما اهتم بإنشاء الأسطول البحري الذي وصل إلىٰ مرتبة الأسطول الثالث في العالم، وعين قائداً له هو القائد السابق (حسن باشا)، ورفع القوات البرية إلىٰ ٧٠٠,٠٠٠ جندي، وجهّز الجيش بأحدث الأسلحة العسكرية، ولاسيما المدافع بالتصنيع الفرنسي خاصة، وزاد في رواتب الجند مع مكافآت إضافية[(٢)].

٧٧

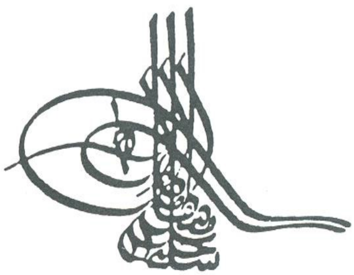


الخليفة السلطان سليم الثالث

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٨٥

(٢) المصدر السابق/ ص٣٨٥

٧٨



طغراء (سليم الثالث)

عيّن الصدر الأعظم (يوسف باشا)، وهو كفء إداريًا وعسكريًا وسياسيًا.

زار مصر وفرنسا وإنكلترا وبروسيا والنمسا والمجر، واستهدف من ذلك هو العمل علىٰ توحيد مواقف الدول الأوروبية ضد روسيا[١].

كان حكمه مشحونًا بالطاقات الهائلة التي واجهت القارات الثلاث إيجابًا وسلبًا، كما سنعرضه أدناه:

المطلب الثاني

جهوده في القارة الأوروبية

- طلب من الصدر الأعظم (يوسف باشا) اتخاذ الاجراءات للتصدي للأعداء.
- بلغ من إصرار السلطان علىٰ الانتصار علىٰ روسيا ان عقد معاهدة صداقة مع السويد، تلتزم فيها الدولة العثمانية بدفع مبالغ نقدية سنوية محددة لمدة عشر سنوات، مقابل أن تقاوم السويد روسيا من الناحية الشمالية، واتفقتا علىٰ مواصلة الحرب ضد روسيا، وكان موقف الدول الأوروبية إزاء هذه المعاهدة متباينًا، بسبب المصالح والمطامع لكل منها[٢].
- بدأ بقيادة الجيش العثماني عبر البغدان والأفلاق (رومانيا حاليًا)، غير أنه فوجئ بمباغتة

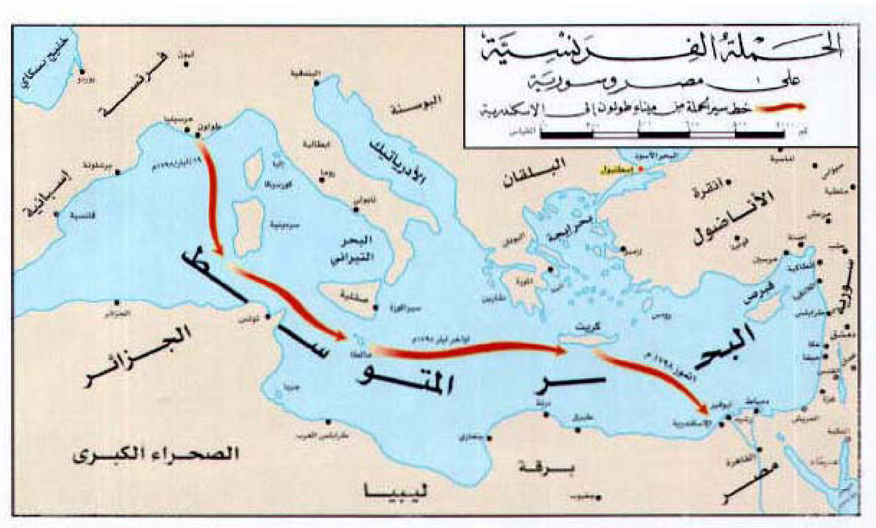
(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٥٩

(٢) المصدر السابق/ ص٣٨٧، عن (موقف أوروبا من الدولة العثمانية)/ ص٧١، وتاريخ الدولة العثمانية، عبد الرحمن شرف/ ص٢١٠-٢١١

الجيشين الروسي والنمساوي له فوقعت معركة (يورا) علىٰ حدود النمسا، مكنت هذه الحرب النمساويين وحلفاءهم من الاستيلاء علىٰ الصرب وطرد العثمانيين من جميع الأراضي شمال الدانوب، وكان ذلك عام ١٧٨٩م[١]، وكانت الهزيمة بسبب عدم الاستعداد الكافي للجيش، وضعف الصدر الأعظم الذي أتىٰ بديلاً عنه (حسن باشا)[٢].

● غير أن الثورة الفرنسية التي كانت في نفس العام ١٧٨٩م حملت الدول الأوروبية ومعها روسيا علىٰ التعاطف مع الدولة العثمانية، خوفًا من استفحال الثورة النابليونية، وهيمنت فرنسا علىٰ شؤون القارة الأوروبية، فنجحت الدول الأوروبية في وساطتها بين الدولة العثمانية وروسيا والنمسا، ثم عقد معاهدة (رشتوىٰ المشهورة) في ١٢٠٥هـ/ ١٧٩١م، فهدأت الحرب بينهم[٣].

٧٩



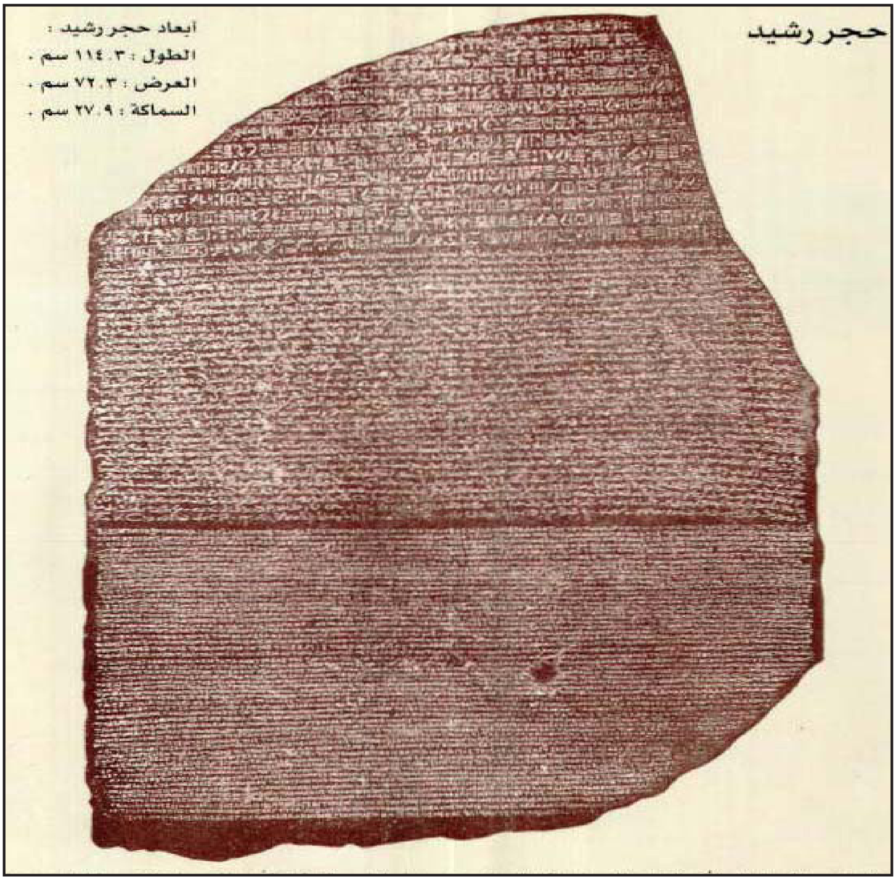
الحملة الفرنسية علىٰ مصر والشام

(١)الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٨٨، عن (موقف أوروبا من الدولة العثمانية)/ ص٧٢

(٢) المصدر السابق/ ص٣٨٩، عن (موقف أوروبا من الدولة العثمانية)/ ص٧١

(٣) المصدر السابق/ ص٣٨٩، عن (موقف أوروبا من الدولة العثمانية)/ ص٨٢-٨٤

٨٠



حجر رشيد

- ثم عقدت معاهدة أخرىٰ بين الدولة العثمانية وروسيا، وهي معاهدة سلام لضمان تحققه بينهما في مدينة (باش) عام ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م، ووافقت الدولة العثمانية بسبب ما انهكتها الحروب الخاسرة، ومن أهم بنودها (تبادل الأسرىٰ، وتتنازل الدولة العثمانية لروسيا عن ميناء آزوف وأوديسا وسيفاستبول الواقعة في أقصىٰ الشمال من البحر الأسود، وتنازلها عن القرم وبساربيا - الجزء الشرقي من رومانيا علىٰ البحر الاسود، ومواقع أخرىٰ، ويكون نهر الدنيستر الحد الفاصل بين الدولتين، وإرجاع روسيا البغدان ومواقع أخرىٰ في رومانيا إلىٰ الدولة العثمانية، مقابل إعفاء الدولة العثمانية رعاياها من الضرائب، وعدم مطالبة روسيا بتعويضات حرب أو ما

شابهها، ومنع الباب العالي رعايا دولته من الغارات علىٰ السفن الروسية في البحر المتوسط..)، وانتهت بذلك إلىٰ هيمنة الأسطول الروسي علىٰ البحر الأسود وعلىٰ مصبات الأنهار العظيمة كالدانوب والدنيستر وبروث وحركتها الملاحية، فتحقق بهذه المعاهدة وقف الحرب بينهما، ومع أنها حققت السلام لفترة مؤقته، فإنها في الحقيقة بداية لنهاية هي أفجع من الأولىٰ[١].

المطلب الثالث

جهوده في القارة الأفريقية

● غزا نابليون مصر (١٢١٣هـ- ١٧٩٨م)، ومعه (١٢٢ عالمـًا)، وكان أول هجوم صليبي علىٰ ولاية عربية من ولايات الدولة العثمانية في التاريخ الحديث، وجلب معه أقطاب الماسونية، وكانت فرنسا وبقية الدول الأوروبية عالمة بالأوضاع الداخلية للدولة العثمانية من خلال سفرائها، وتنازلات العثمانية لها، وإقامة العلاقات التجارية، وظهور النشاط الماسوني الخفي فيها[٢].

ثم إن بعض علماء نابليون حلّوا رموز الخط الهيروغليفي والفرعوني، وأعلنوه للعالم، بكشفه للحضارة الفرعونية علىٰ أيدي الفرنسيين، وكان له يد عليا علىٰ مصر في المجال العلمي[٣].

أعلن نابليون إسلامه نفاقـًا مع بعض حاشيته ١٨٠١م، وأعلن للمصريين أنه أتىٰ مخلّصـًا لمصر من الظالمين الأتراك المحتلين لهم[٤]، وجنّد فرقة مسلحة من نصارىٰ مصر - الأقباط - لضرب الثورة الشعبية التي قادها العلماء المسلمون ضدهم، وأُلحقت هذه الفرقة

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٩١، والمسألة الشرقية، الشاذلي/ ص١٢٢٤

(٢) المصدر السابق/ ص٣٩٢، نقلًا عن (قراءة جديدة في تاريخ الدولة العثمانية)/ ص١٤١-١٤٢

(٣) المصدر السابق/ ص٣٩٣، نقلًا عن (عجائب الآثار في التراجم والأخبار)/ ٣/ ص١٢٠

(٤) المصدر السابق/ ص٣٩٤، نقلًا عن (قراءة جديدة في تاريخ الدولة العثمانية)/ ص١٤٣، و(الصراع الفكري بين أجيال العصور الوسطىٰ والعصر الحديث)، العدوي/ ص٨٣

المرتبطة بجيش الاحتلال، برئاسة (يعقوب حنا) خسائر فادحة للمصريين ، ولقّبه (كليبر) خليفة نابليون لقب جنرال، قائداً عاماً للفيالق القبطية بالجيش الفرنسي، وكانت انتفاضة النصارىٰ بدءاً للفتنة الطائفية فيها، واستطاعت مع الجيش الفرنسي احتلال مصر، وارتكبت من الفظائع في هتك الأعراض وقتل المدنيين وحرق القرىٰ وسرقة الأموال باسم شعار الثورة : (الحرية والإخاء والمساواة)، واحتل الدلتا، ومنها القاهرة، وساحل فلسطين[١]، وأعلن ليهود العالم أنهم الورثة الشرعيون لإقامة دولتهم[٢].

- أعلن السلطان الجهاد ضد فرنسا، فاستجابت الحجاز والشام والشمال الأفريقي خاصة ليبيا، وحدثت عدة معارك بين المجاهدين والفرنسيين - انتصر فيها المسلمون انتصارات هائلة عليهم، في الدلتا والصعيد والقاهرة، وكان المصريون يصفون نابليون - المسلم!: (نصراني ابن نصراني)، وكان لهيب الجهاد بقيادة علماء الأزهر، وزعماء القبائل[٣].

الإنكليز وأطماعهم في مصر:

- فاجأ الأسطول البريطاني بقيادة نيلسون الأسطول الفرنسي عند الاسكندرية في خليج (أبي قير)، وأغرقه عام ١٧٩٨م، فعزلت الجيوش الفرنسية في مصر، وسيطرت إنكلترا علىٰ البحر المتوسط[٤]. دكت المدافع الفرنسية الأزهر، واقتحموه بخيولهم، وداسوا المصاحف في الأرض، وهدموا حيّ الأزهـر[٥]، ثم انتصر نابليون علىٰ العثمانيين في

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٩٤، ٣٩٥، عن (قراءة جديدة في تاريخ الدولة العثمانية)/ ص١٤٣-١٤٤

(٢) المصدر السابق/ ص٣٩٦، عن (الدولة العثمانية)، د. جمال عبد الهادي/ ص٨٦

(٣) المصدر السابق/ ص٣٩٧، عن (الدولة العثمانية)، د. جمال عبد الهادي/ ص٦٠

(٤) المصدر السابق/ ٣٩٨

(٥) المصدر السابق/ ٤٠٠، عن (عجائب الآثار)/ ٣/ ص١٨

الشام، ثم انتصر عليهم في مصر في معركة (أبي قير البرية) ١٧٩٩م[١]، واضطر نابليون إلىٰ مغادرة مصر إلىٰ فرنسا، بسبب حرب عامة أوروبية، اندلعت ضده، وترك مكانه (كليبر) الذي حكم مصر بقوة ودهاء، غير أنه اضطر إلىٰ مصالحة الخليفة سليم بوعده بترك مصر، ولكنه اقتحم معركتين ضد العثمانيين عام ١٨٠٠م قرب القاهرة، خسرها، ثم اتجه إلىٰ دك القاهرة بالمدافع، فاستسلمت أحياء كاملة، وتوسط الأزهر، وطلبوا الأمان، غير أن كليبر أعدم العلماء، وفرض غرامات فادحة، ثم اغتيل (كليبر) من قبل طالب أزهري من سورية، ثم هاجم الإنكليز والعثمانيون الفرنسيين في مصر[٢].

- أسس (كليبر) أول محفل ماسوني في القاهرة (إيزيسي)، دعا إلىٰ السفور والبغاء.

ومن آثار حملة نابليون في مصر :

١- وضعه قانونـاً جديداً غير الإسلام، يحكمهم لأول مرة في تاريخهم، مستمداً من التشريع الفرنسي.

٢- شعور المسلمين بقوة الجيوش الأوروبية وتسليحها ومدافعها، بما لا يملكه المسلمون، فأحسّوا بالضعف إزاء عدوهم، مما حملهم علىٰ مضاعفة جهدهم لتدارك ذلك.

٣- ظهور محمد علي باشا والياً علىٰ مصر عام ١٢٢٠هـ = ١٨٠٥م، بعد أن كان جابياً عنيفاً مكروهاً، في بدء حياته، وهو الذي هدم الإسلام والخلافة، ما لم تقدر أن تقوم به الدول الأوروبية[٣].

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٤٠١

(٢) المصدر السابق/ ص٤٠٢-٤٠٣، عن (العالم العربي في التاريخ الحديث)/ ص٢١٤-٢١٥، والدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادي/ ص٨٩، وعجائب الآثار/ ٣/ ص٣٠

(٣) المصدر السابق/ ص٤١٠-٤١٩ باختصار، عن (واقعنا المعاصر)، محمد قطب/ ص٢٠٥، ومصر في مطلع القرن التاسع عشر، د. محمد فؤاد شكري/ ٢/ ٨٥٧

المطلب الرابع

جهوده في قارة آسيا

- ظهرت حركة (الوهابيين) في المملكة العربية السعودية، احتلوا مكة والمدينة المنورة، وهدموا الكثير من القبور غير الشرعية[١].
- ثم حدثت ثورة (قباقجي)، أُبعد خلالها السلطان عن العرش، واستشهد بعد سنة من عزله، وعن عمر ينَاهز (٤٦) سنة[٢].

المطلب الخامس

الاصلاحات الداخلية والمعارضة

بعد هدوء القتال في أوروبا، انصرف السلطان سليم الثالث إلىٰ الاصلاحات الداخلية، فبدأ بتنظيم الجيش للتخلص من الإنكشاريين الذين أصبحوا سبب كل فتنة.

كما اتجه إلىٰ أوروبا يفيد منها في تقدمها الحضاري، فعُني بصناعة السفن والأسلحة خاصة المدافع علىٰ الطريقة الفرنسية، ونهج التعليم العسكري الغربي، وإنشاء فرق علىٰ النظام الجديد .

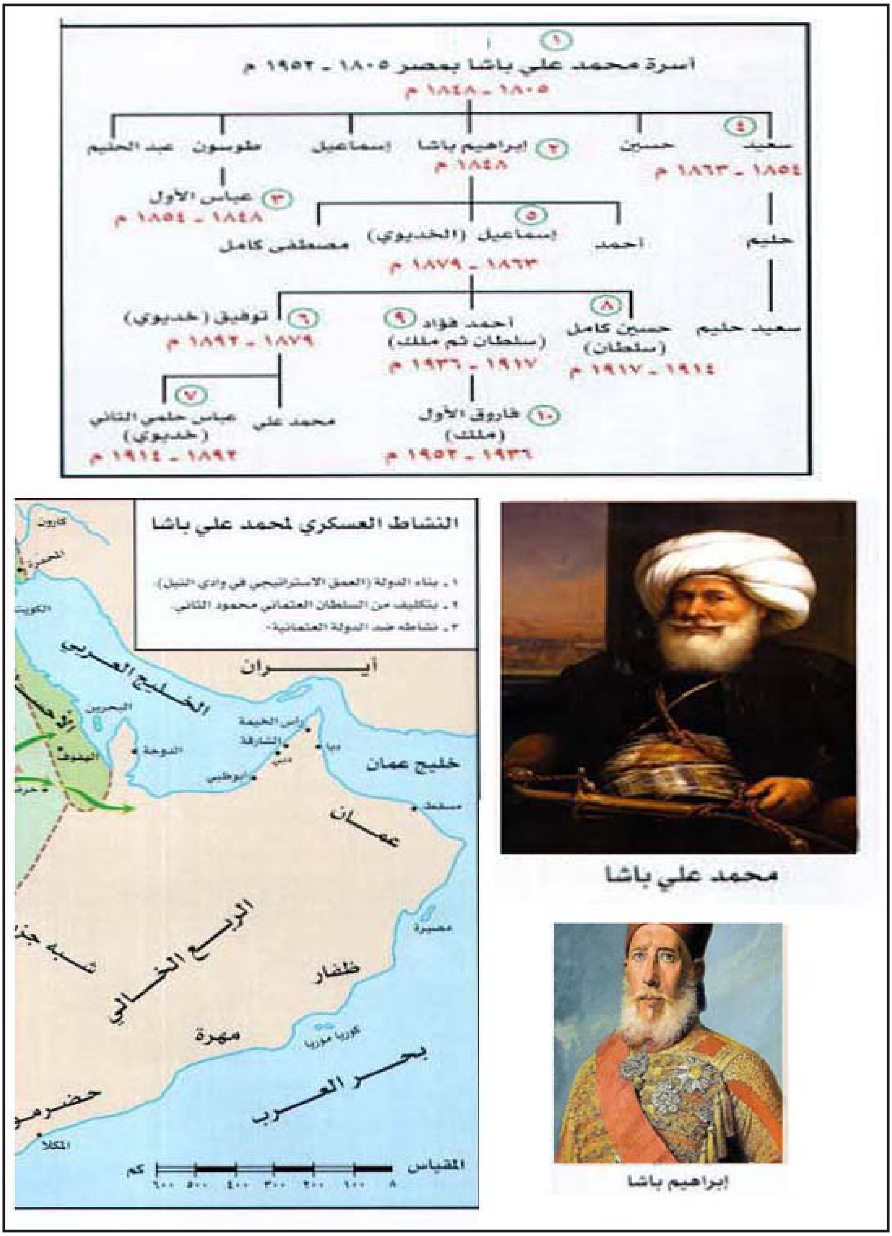
ثار الجنود الإنكشاريون، فاضطر السلطان إلىٰ إلغاء النظام العسكري الجديد، ومع ذلك لم يوفق إلىٰ إرضاء الانكشاريين الذين قرروا خلعه من الحكم، وتولىٰ ابن عمه مصطفىٰ الرابع مكانه، فصار دمية بأيديهم[٣].

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٤٢٢، عن (العالم العربي في التاريخ الحديث)/ ص١٧

(٢) ألبوم العثمانيين/ ٧٤

(٣) المصدر السابق/ ٣٩١، عن (قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسعية)، د. سليمان غانم/ ص١٢

٨١ [1]



محمد علي باشا وأسرته والنشاط العسكري له

---

(١) أطلس التاريخ الإسلامي ، شوقي أبو خليل/ ص١٢٤

٨٢ [1]



الخديوي إسماعيل

(١) أطلس التاريخ الإسلامي، شوقي أبو خليل / ص١٢٥

٨٣



الاحتفال بالعيد وتقديم التهاني للسلطان سليم الثالث

الفصل الرابع

عصر السقوط

تداول الخلافة فيه (تسعة خلفاء)

(١٢٢٢-١٣٤١هـ = ١٨٠٧-١٩٢٤م)

خلال (١١٩) سنة هجرية

تمهيد
في سقوط الخلافة العثمانية

تمثل هذا العصر بصفات الخلفاء في جهادهم، ومعنويات الجند، ومكانة الدولة في الداخل والخارج خلال ١٢٠ سنة مع تسعة سلاطين، بما يأتي:

١- **الخلفاء الصالحون المجاهدون أكثر من الفاسدين المتخاذلين**، وكان شعارهم وواقعهم الجهاد، وانتصروا في حروب مهولة علىٰ أعدائهم في أوروبا، لاسيما روسيا والنمسا، وكان النصر سجالاً بينهم، وكان روح الجهاد عالياً، لاسيما بعد التخلص من الانكشاريين بعشرات الألوف، إذ صاروا خمارين فاسقين متمردين، وختمت الخلافة بأربعة خلفاء، لا حول لهم ولا قوة، وسمّيت الدولة في هذا العصر بالرجل المريض.

٢- **كان موقف الخلفاء إزاء التطوير الحضاري الأوروبي يمثل اتجاهين**: اتجاه الأخذ بالعلوم الغربية، لاسيما التصنيع العسكري والبحري، إذ كان للدولة العثمانية أسطولها البحري المتميز في العالم. واتجاه علماني ينادي بالتغريب الكامل في الدستور والتشريع، وطراز الحياة والزيّ، وأُرسل الشباب في بعثات إلىٰ الغرب من دون تحصينهم بالعقيدة، ففسدوا، وأفسدوا، وتسلمّوا المناصب القيادية، غير أن الاتجاه الأول تأخر عن الركب بعد أن سبقه الغرب بمراحل في العلم والتسلح والقوة المادية والتجارية(١).

٣- **كان للثورة الفرنسية (١٢١٥هـ - ١٧٨٩م) أثرها البالغ علىٰ أوروبا**: في التعاقد مع الدولة العثمانية، ضد فرنسا، ثم غدرت بها الدول، كما كان لغزو نابليون لمصر وتكوينه جيشاً من الأقباط ضدّ الثورة الإسلامية، ثم جلبه معه العلماء، الذين حلّوا رموز الخط الهيروغليفي، وإظهار قوته العلمية والعسكرية، وتأسيسه لعدة محافل ماسونية فيها، واستيلاؤه علىٰ

(١) ومع أن أحد الخلفاء (عبد المجيد الأول) حكم بعمر ١٧ سنة، وهو مراهق إلا أنه استمر في الحكم ٢١ سنة، وكان حكيماً في سياسته سباقاً إلىٰ الأخذ بالتطور الأوروبي

الشام، واستغلال الغرب لمحمد علي باشا الكبير في زيادة قوته العسكرية وسيطرة بريطانيا علىٰ الشام، ودعمها له في احتلال اليونان، ثم استقلالها عن الدولة العثمانية، ثم قضاؤه علىٰ الحركة الوهابية في دعوتها إلىٰ عقيدة السلف الصالح، وعلىٰ من وقف معها من الأمراء السعوديين، كل ذلك كان إضعافاً للدولة العثمانية، وإيصالها إلىٰ الحضيض، وانتزاع سلطتها علىٰ البحر الأسود والبلقان، وتغلغلها حتىٰ حدودها الحالية في (تركيا) الأوروبية.

٤- **احتلت فرنسا تونس ١٨٨١م، والجزائر ١٨٨٠، والمغرب، والشام، كما احتلت إيطاليا البانيا، وليبيا، واحتلت إنكلترا مصر ١٨٨٢م، ثم فلسطين، ثم العراق**: وكان للماسونية دورها الخطير في الإساءة إلىٰ الإسلام بإعلامها، وإثارة النعرات الطائفية في مصر وسوريا ولبنان وفلسطين، والنعرات القومية والوطنية والمذهبية، وكان دور العملاء من العرب اليهود والنصارىٰ والمسلمين أخطر من دور الماسونيين المخططين لهذا التآمر، لتمزيق الوحدة الإسلامية تحت شعار خفيّ عن المسلمين (فرق تسدْ، فرّق تدمرْ)!. وأعانت الماسونية اليهود علىٰ موطئ قدم لهم في فلسطين، وكان المعول الأقوىٰ في هدم الدولة العثمانية، وفي توحيد الدول الأوروبية النصرانية لهيمنتها علىٰ الدولة العثمانية، ثم إسقاطها، وكذلك فإن البعثات التبشيرية ودعم النصارىٰ بالمطابع والإعلام والمراكز السياسية والتجارية، حتىٰ وصل الماسون إلىٰ أعلىٰ منزلة في الدولة - الصدر الأعظم، وتجرؤا علىٰ إفساد بعضهم بالخمور والفجور، غير أنهم لم يقدروا أن يحولوا عموم الأمة المسلمة العثمانية عن الإسلام، فبقيت مؤمنة محتسبة، وما نهضة تركيا المسلمة اليوم، إلا بسبب غيرتها المتقّدة في قلوب أهلها.

٥- **أما الخليفة السلطان عبد الحميد الثاني**، فهو من القمم، الذي سيصدر عنه القارئ الكريم رأيه فيه، وسيأتي تفصيل سيرته الحكيمة.

المبحث الأول

(السلطان رقم ٢٩)

الخليفة السلطان مصطفىٰ الرابع[(١)]

حياته : (١٧٧٩-١٨٠٨م) عمرّ (٢٩) سنة

حكمه : (١٢٢٢-١٢٢٣هـ)/ (١٨٠٧-١٨٠٨م) حكم (١) سنة وعمره ٢٨ سنة

ترجمته :

هو ابن السلطان عبد الحميد الأول ... ولد في إستنبول، عنيت والدته بتربيته وتدريبه، واهتم بالخط، استمرت الحرب مع روسيا في عصره، حكم سنة وشهرين، وليس في حكمه شيء من المآثر. حدثت مؤامرة عليه فقتل غدراً، ودفن في ضريح والده السلطان عبد الحميد الأول، وخلف ابنة واحدة.

٨٤

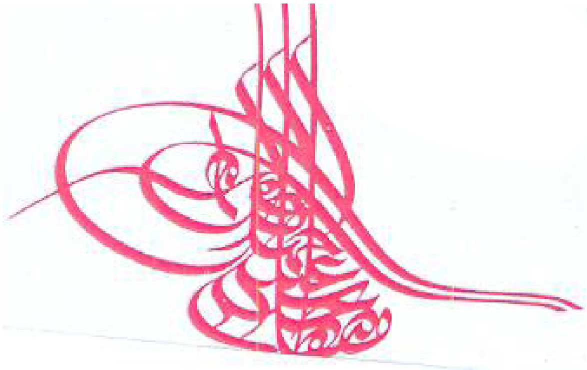


الخليفة السلطان مصطفىٰ الرابع[(٢)]

(١) ألبوم العثمانيين/ ٧٥

(٢) المصدر السابق/ ٧٥

٨٥



طغراء السلطان مصطفىٰ الرابع

المبحث الثاني

(السلطان رقم ٣٠)

الخليفة السلطان محمود الثاني[١]

حياته: (١٢٠٠-١٢٥٥هـ = ١٧٨٤-١٨٣٩م) عمرّ (٥٥) سنة

حكمه: (١٢٢٣-١٢٥٥هـ = ١٨٠٨-١٨٣٩م) حكم (٣٢) سنة وعمره ٢٣ سنة

المطلب الأول

ترجمته

هو ابن السلطان عبد الحميد الأول كان محبًا للجهاد جسوراً، حليمًا، صابراً، حكيمًا، ذا عزيمة، أسس جيشًا نظاميًا جديداً، ثم قضىٰ علىٰ الإنكشاريية قضاء تامًا، وهو جدّ الخليفة (عبد الحميد الثاني). لقد جدد بناء المسجد النبوي، وبنىٰ القبة الخضراء فوق المقصورة النبوية الشريفة[٢].

جابه الأوضاع الداخلية والخارجية المضطربة، وكان له من الكفاءة والتحمّل والذكاء ما جعله يتصدّىٰ لها بحزم، ولكنها كانت فوق طاقته.

- وسع دائرة مخابراته، بإضافة الدراويش الرحّل إليها.
- انتقم من الإنكشاريين الذين كانوا مصدر الإفساد، بضعف ايمانهم، واغراقهم في المحرّمات والخمر، وتآمروا علىٰ كثير من الخلفاء السابقين، إذ خلعوا السلاطين مصطفىٰ الثاني وأحمد الثالث ومصطفىٰ الرابع، وطمعوا بالحكم، وتلاحقهم الهزائم في الحروب في أوروبا .. وقتلوا بعض الخلفاء، ونصبوا غيرهم، وعزلوا الآخرين، استطاع

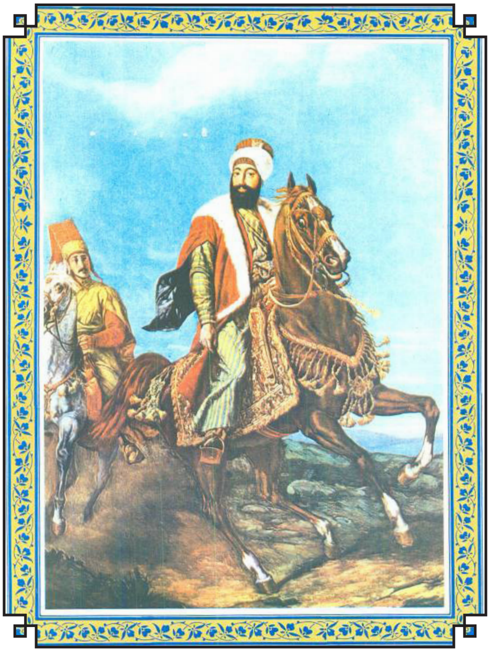
---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٤٠٨-٤٠٩، وتاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون/ ص١٦٩، والدولة العثمانية، الصلابي/ ٤٠٧-٤٤٧ بايجاز

(٢) صحوة الرجل المريض/ ٨١

أن يحيط بهم، وكانوا ٦٠,٠٠٠، واستمر قصفهم بالمدافع والقتال معهم، حتىٰ أفناهم، وتعقّب الهاربين منهم، وقضىٰ عليهم، بفتاوىٰ من شيوخ الإسلام[١].

٨٦



الخليفة السلطان محمود الثاني (١٧٨٥ - ١٨٣٩)[٢]

كان متأثراً بالحضارة الغربية، واستبدل بالعمة العثمانية الطربوش الرومي، والزي الأوروبي. لقد قام بأعمال كثيرة - منها فتح المدارس بأعداد كثيرة، وأنشأ عمارات كبيرة ورمم الجوامع الكبيرة في إستنبول، وبنىٰ القنطرة المشهورة (أون قايان)، وبنىٰ مدرسة في مكة المكرمة، ورمم المسجد الأقصىٰ، وتوفي عام ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م، عن ٥٥ سنة وخلف (١٢ ابنـًا، و١١ بنتـًا)[٣].

(١) ألبوم العثمانيين/ ٧٧

(٢) المصدر السابق/ ص٧٦

(٣) المصدر السابق/ ٧٧

٨٧



بسملة بخط السلطان محمود الثاني الذي كان مولعـًا بالخط

٨٨



طغراء السلطان محمود الثاني

في زمانه سميّت (الدولة العثمانية) بالرجل المريض، ليس بسببه، ولكن بسبب التركة الثقيلة المتراكمة في عصر الضعف، والتي تفرغ لها بجميع طاقاته وأوقاته، من غير ملل، ولكن الفتق واسع، والرقعة مهما حاول أن يوسعها لسدّ الفتق لم تنفع، غير أن جهوده الكثيفة حالت دون الانهيار، وانتهت به إلىٰ داء السل حزنـًا علىٰ الواقع المرّ ، ومن أعماله الموصولة إزاء العقبات الرهيبة أمامه كانت تتمثل فيما يأتي:

المطلب الثاني

جهوده في القارة الأوروبية

- **عقد صلحـًا مع بريطانيا** عام ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م، وحاول أيضـًا إبرام عقد صلح مع روسيا، ولكنه فشل.

- **كان صارمًا في حروبه،** وخاض حربًا مع روسيا التي هزمت جيوشه، ثم عزل الصدر الأعظم، وعين آخر بدله، ثم انتصر علىٰ روسيا، وأجلاها عن مواقعها الجديدة، إلا أنها خشيت من فرنسا، أن تعلن الحرب عليها، فطلبت روسيا الصلح مع الدولة العثمانية، وعقدت معاهدة (بوخارست) عام ١٢٣٧هـ/ ١٨١٢م، وتنازلت لها عن مناطق في وسط أوروبا، وشرقها وصربيا ثم استردت بعضها[١].

- **استمر التآمر علىٰ الدولة العثمانية،** بإثارة النعرات الطائفية، وظهرت النعرة القومية العربية والطورانية التركية في حكم السلطان محمود الثاني[٢]، وتفجير الثورات الداخلية، بهدف إحياء الإمبراطورية البيزنطية المندثرة بقيادة الأرثودكس، وأصبح كثير من رجال الدين النصارىٰ عملاء للدول الأوروبية، لاسيما روسيا وإنكلترا وفرنسا، لتحقيق ذلك، وقامت جمعيات سرّية تثير الشعب العثماني علىٰ دولته لهدم الدولة من الداخل، لأنها من المستحيل أن تُغلب عسكريًا، لروح الجهاد الذي تنبض به عروقهم، والذي وقفوا حياتهم عليه، ودعمهم لخلفائهم وعلمائهم[٣]. ثم إن إقامة الجمعيات السرية في جميع أنحاء الدولة، لاسيما اليونان، التي يسكنها يهود الدونمة المهجرون من إسبانيا والبرتغال منذ عصر السلطان سليمان القانوني، والذين أنقذهم من الذبح والحرق، وآواهم في وطن الإسلام شمالي اليونان، عام ١٠٠٠هـ، تآمروا علىٰ الخلافة الإسلامية.

بدأ التمرد في اليونان بقيادة الأسقف جرمانوس (جريجوريوس) - رئيس الجمعية السرية في المورة باليونان، يحمل راية عليها صورة يزعمون انها مريم العذراء، ويهتف باليونانيين بقتل الأتراك، وذلك عام ١٨٢١م، وبدأ هجومهم علىٰ الأتراك ليلة عيد الفصح.

كشف الخليفة محمود الثاني المؤامرة هي ووثائقها بإحكام ، فعزل قائدهم البطريرك

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٤٠٧، عن (تاريخ الدولة العثمانية)، د. اسماعيل ياغي/ ص١٢٧-١٢٨

(٢) المصدر السابق/ ص٥١٦

(٣) المصدر السابق/ ص٤٠٧-٤٠٨، عن (تاريخ الدولة العثمانية)، د. أحمد سرهنك/ ص٢٢٦-٢٢٨، والدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي/ ص١٢٧-١٢٨

جريجوريوس، ثم أعدمه يوم عيد الفصح الأرثوذكس، وانتخبوا غيره، وأعدم بعض قادة التمرد[١].

● **دور محمد علي باشا في اليونان**، الذي استعان به الخليفة للقضاء علىٰ ثورة اليونان، مقابل حصوله علىٰ اليونان وكريت، وبعد احتلاله لها عن طريق ابنه إبراهيم باشا ١٨٢٣م، أعلنت أوروبا بسطها حمايتها علىٰ اليونان، وأجبرت الدولة العثمانية علىٰ السماح لروسيا بعبور سفنها في المضايق دون تفتيش، ثم اتفقت روسيا وفرنسا وإنكلترا علىٰ إجبار الدولة العثمانية علىٰ استقلال اليونان عنها، فتحركت أساطيلها وباغتت الأسطول العثماني المصري، بقيادة إبراهيم باشا، فأغرقت أكثره، وقتل أكثر من ٣٠,٠٠٠ جندي عثماني، استقلت اليونان بعدها، بقرار فرنسا وإنكلترا[٢].

المطلب الثالث

جهوده في أفريقيا وآسيا

محمد علي باشا، والدولة العثمانية :

١- في مصر[٣]: ظهور محمد علي باشا الكبير، والي مصر، بعد أن كان شخصية مغمورة،

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٤٣٢-٤٣٧ باختصار، عن (دور الكنيسة في هدم الدولة العثمانية)، ترجمة محمد حرب، تأليف ثريا شاهين/ ص٦٠، ٦٤، ٦٥، ٧٠، ٧٢-٧٤، وألبوم العثمانيين/ ص٧٧، وكتب البطريوس إلىٰ قيصر روسيا، يبين كيفية هدم الدولة العثمانية من الداخل: (من المستحيل سحق وتدمير الأتراك العثمانيين بالمواجهة العسكرية، لأن الأتراك العثمانيين ثوريون جداً ومقاومون، وواثقون من أنفسهم، وهم أصحاب نفس واضحة، وهذه الصفات تنبع من دينهم ورضائهم بقدر الله وقوة تراثهم وتاريخهم وطاعتهم لسلطانهم وقادتهم واحترامهم لكبارهم، وهم أذكياء، مجدون، مجتهدون، متحابون مع رؤوسهم الذين يقودونهم إلىٰ الطريق الايجابي الصحيح،.. مما يجعلهم قوة هائلة مرعبة، وهي تتميز بالقناعة والتصميم وشدة المراس والثبات عند المواجهة، لذا فهو يوصي بإفسادهم بالأفكار الغريبة عن دينهم، وبالإغراءات المالية والجنسية لهم، ولابد من التخريبات في بنيتهم الذاتية والاجتماعية ومكانتهم الدولية دون أن يشعروا بشيء، وإنشاء جمعيات سرية في كل مكان، وضمان تأمين مساعدة الدول الكبرىٰ)

(٢) المصدر السابق/ ٤٣٧-٤٣٩ بإيجاز شديد، عن (الدولة العثمانية)، د. جمال عبد الهادي/ ص٩٨-١٠١، ودور الكنيسة في هدم الدولة العثمانية/ ص٧٧

(٣) المصدر السابق/ / الصلابي، ص ٤١١-٤٢٠ باختصار شديد - وانظر : محمد قطب في كتاب (واقعنا المعاصر) ص ٢٠٥

مكروهة، جابيًا عنيفًا في بدء حياته، خدّاعًا، يحلف الأيمان الكاذبة، أنانيًا جشعًا، يحب الكرسي لدرجة الجنون، وكان يسخر من (ميكافيللي)، إذ هو أشدّ خداعًا منه! لذا اتخذته الماسونية عميلاً خطيراً لها، إذ أنشأ محافل عديدة في مصر، تبنّاها اليهود، ثم عملاؤهم معهم، لإفساد الأخلاق والتشكيك بالإسلام، وإشاعة الكفر والإلحاد، وانتهاء بقيام دولة اسرائيل، وتمزيق الدولة العثمانية المسلمة[١].

- وقد احتضنته فرنسا، وكوّنت له جيشًا حديثًا قويًا، وأسطولاً بحريًا متطوراً[٢]، كما أعانت علىٰ بناء القناطر الخيرية، لتنظيم الري في مصر، وإشعار المصريين أن خيرهم يتم عن طريق الحضارة الغربية وهجر الإسلام[٣].
- نقل محمد علي باشا مصر من انتمائها الإسلامي إلىٰ الخروج والتمرد عليه، بإرسال الشباب صغار السن بأعداد كثيفة إلىٰ أوروبا، مراهقين، وأهمل الأزهر[٤].
- أحاط نفسه ببطانة من النصارىٰ الأقباط وغيرهم من اليهود، فزاد نفوذهم في البلاد[٥].
- اضطهد الفلاحين وأرهقهم بالضرائب، فتركوا أراضيهم فراراً من الظلم، وفرّوا من جيشه بغضًا له، إذ فرّ منهم ٦,٠٠٠ فلاح في عام واحد ١٨٣١م[٦]، وحرّم التجارة علىٰ أهل البلد، وفتحها للأوروبيين، فاعتمدت أسواق مصر علىٰ الأسواق الغربية الزراعية والصناعية، وشلّ الدعوة الإسلامية، وشجع الثقافة الغربية، وفتح باب الدعوة القومية العربية والوطنية، بإيحاء من الماسونية والدول الغربية، لتمزيق الدولة المسلمة[٧].

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ٤١٤-٤١٥ بإيجاز، د. محمد الزحيلي/ ص١٨، ٤٠٣، واليهود والماسونية، عبد الرحمن الدوسري/ ص٤٢، وحقيقة الماسونية، محمد علي الزغبي/ ص٧٠

(٢) المصدر السابق/ ص٤١٥، عن واقعنا المعاصر/ ص٢٠٥

(٣) المصدر السابق/ ص٤١٥

(٤) المصدر السابق/ ص٤١٦، عن (واقعنا المعاصر)/ ص٢٠٩-٢١٠

(٥) المصدر السابق/ ص٤١٧، عن (عجائب الآثار)/ ٤/ ١٥٠

(٦) المصدر السابق/ ص٤١٧، عن (تاريخ الشرق العربي)، د. عمر عبد العزيز/ ص٣٤٦

(٧) المصدر السابق/ ص٤١٣، عن (قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين)/ ص١٦٩

٢- الجزيرة العربية، ومحمد علي باشا[١]: ظهور حركة محمد بن عبد الوهاب التجديدية، ولد عام ١١١٥هـ/ ١٧٠٣م، القائمة علىٰ نهج عقيدة السلف الصالح -الكتاب والسنة، واقتداء بالإمامين الصالحين ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ)، وابن القيم (٦٩١-٧٥١هـ) (رضي الله عنهما).

تحالف الشيخ محمد بن عبد الوهاب، مع محمد بن سعود، فتحت الرياض عام ١١٧٨هـ، وتوفي الشيخ، واستمر دعم السعوديين للحركة، وفتحوا مكة، ثم المدينة المنورة، وجنوبي العراق إلىٰ كربلاء والشام إلىٰ حوران، وسيطرت علىٰ الجزيرة العربية جميعها، باستثناء اليمن، وسيطرت علىٰ مياه الخليج، وانتصرت علىٰ الأساطيل البحرية البريطانية فيه، فأثارت أوروبا العالم الإسلامي باعتبارها الخرافات هي الدين، فخاصمهم أصحاب المصالح من عبدة القبور، وعبدة الأموات من الجهلة وعموم الشيعة.

وأوحىٰ الأوروبيون أن الحركة السلفية الوهابية تهدف إلىٰ الانفصال عن الدولة العثمانية، فأمرت والي بغداد والشام بصدّ هجماتها، فلم يفلحا، وطلب الخليفة سليم الثالث إلىٰ محمد علي باشا، قبل عام ١٨٠٧م، قبل خلافة محمود الثاني بسنة، بالقضاء عليها، ففشلت قواته أول الأمر، ثم استعادت الحرمين، ثم واصل الحرب في الجزيرة العربية واستباح النساء والأموال والأعراض، ثم انهزم طوسون بن محمد علي أمام الأمير عبد الله بن سعود، وتحطم نصف جيشه، فقاد محمد علي الجيش مع المدد الجديد بنفسه، وانتصر علىٰ السعوديين في موقعة (بسل)، من أكبر الحروب في تاريخ السعودية، ثم استمر ابنه قائداً منتصراً حتىٰ احتلت قواته العاصمة (الدرعية)، وطلب السعوديون الصلح، ولم يوفقوا إليه، ثم استأنف إبراهيم باشا الزحف، لاستكمال السيطرة علىٰ الجزيرة، وأعدم الأمير عبد الله بن سعود الأسير في إستنبول[٢].

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٤٢٠ بايجاز، والمملكة العربية السعودية في سطور - خلاصة تاريخ السعودية - تقويم الثقافة، والإعلام السعودية ١٤٢٨-١٤٢٩هـ = ٢٠٠٧.

(٢) المصدر السابق/ ص٤١٧-٤٢٩ بايجاز شديد، عن مصادر كثيرة منها: (عجائب الآثار/ ٤/ ١٥٠، وتاريخ الشرق العربي، د. عمر عبد العزيز/ ص٣٤٦، ٣٢٢، ٣٢٣، وقراءة جديدة في تاريخ العثمانيين/ ١٨٠، ارنولد تويني، عبد الرحمن الجبرتي/ ١٤، ومصر في مطلع القرن التاسع عشر، محمد فؤاد/ ٣/ ١٢٣٢، ومن أخبار نجد والحجاز، عمر أديب غالب/ ص١١٠-١١٢)

كل هذا خدمة للإنكليز والماسون وعمالة محمد علي وخيانته وغدره بالإسلام ودولته.

ويتلخص قيام الدولة السعودية بالمراحل الآتية[١]:

أ- سنة ١٧٤٤م حكم الإمام محمد بن سعود معظم الجزيرة، وكانت عاصمته (الدرعية) شمال غرب الرياض ١١٥٧هـ - ١٧٤٤م، ١٢٣٣-١٨١٨ - لمدة (٧٥ سنة).

ب- قيام الدولة السعودية الثانية، أسسها الإمام فيصل بن تركي ١٢٤٠هـ - ١٨٢٤م - ١٣٠٩م-١٨٩١، لمدة (٧٤ سنة)، وذلك قبل ١١٥ سنة.

ت- قيام الدولة الحديثة، باستعادة الملك عبد العزيز الحكم عام ١٣١٩هـ - ١٩٠٢م، واسترد الرياض عاصمة له، واستمر الحكم (٧٥ سنة).

ث- أعلنها الملك عبد العزيز باسم (المملكة العربية السعودية) في ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م، وحكم بعده تباعاً ملوك، هم: (سعود وفيصل وخالد وفهد وعبد الله) منذ ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، وصدرت الأنظمة الثلاثة للحكم - السياسي، ومجلس الشورىٰ، ونظام المناطق.

صدر في عام ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦ نظام (هيئة البيعة) يحدد كيفية اختيار ولي العهد.

بلغ إجمالي توسيع المسجد الحرام ٤٠٠,٠٠٠ م٢، يستوعب أكثر من مليون مصلّ، وبلغ اجمالي توسيع المسجد النبوي ٧٠٠,٠٠٠ م٢، يستوعب أكثر من مليون مصلّ

٣- احتلال فرنسا للجزائر: عام ١٨٣٠م بـ ٥٥,٠٠٠ مقاتل، نقلهم أسطولها.

---

(١) ملخصة من كتيب صادر من وزارة الثقافة والإعلام السعودية ١٩٧٢ م

٨٩



الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود

٩٠[1]



مراحل قيام المملكة العربية السعودية

---

(١) أطلس التاريخ الإسلامي ، شوقي أبو خليل / ص١٤٦ .

المبحث الثالث

السلطان رقم(٣١)

الخليفة السلطان عبد المجيد الأول

عمره: (١٢٣٩-١٢٧٧هـ = ١٨٢٣-١٨٦٠م) عمرّ (٣٨) سنة.

حكمه: (١٢٥٥-١٢٧٧هـ = ١٨٣٩-١٨٦٠م).

حكم (٢١) سنة وعمره ١٧ سنة(١)

المطلب الأول

ترجمته

هو ابن السلطان محمود الثاني، من أذكىٰ الخلفاء وأرحمهم وأوقرهم، كان واقعيًا، رحيمًا، أحب الاصلاح، وكان ضعيف البنية غير أنه لم يكن محبوبًا من شعبه، بسبب انغماسه في الشهوات والمسكرات، وتميّز عهده بالفوضىٰ، وسوء الإدارة والاسراف المالي الكبير، وطبعت في عهده لأول مرة النقود الورقية بدلاً من النقد الذهبي(٢)، إلا أنه جمع بين الأصالة والمعاصرة، جمعًا مشينًا، قوّىٰ الجيش، وكان يملك ثالث أقوىٰ أسطول بحري في العالم، بعد بريطانيا وفرنسا، ووسع مجال التجارة، وترقّت العلوم في زمانه، وامتدت أسلاك الهاتف والسكك الحديد في البلاد(٣).

لقد بدأ أول القروض من الدول الأوروبية دون التفكير في كيفية سدادها، بما أدىٰ إلىٰ التفكك والانهيار في أرجاء الامبراطورية، كما بدأت عقدة الخوف من الدول الكبرىٰ، وظهور

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٧٨

(٢) السلطان عبد الحميد، أورخان/ ص٣١

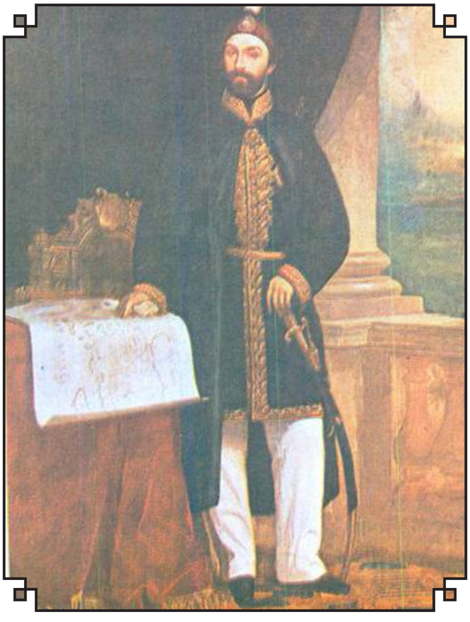
(٣) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٤٤٨-٤٦٨٩، عن (تاريخ الدولة العثمانية)، د. علي حسون، (١٩٨)

الازمات الاقتصادية، نتيجة للتضخم المالي[١].

«**أعاد بناء المسجد النبوي** كله جزءاً بعد جزء، ما عدا الحجرة النبوية الشريفة ودار الزهراء، والمحاريب الثلاثة والمنبر الشريف، واكتفىٰ بترميمها، وأعاد للمسجد النبوي بهاءه ورونقه، **كأول مسجد في الإسلام**، وتم تجديد عمارته عام ١٢٧٧هـ، حيث أقيمت الأعمدة الجديدة علىٰ عقود من الحجر المنحوت، كما أعيد بناء باب السلام، وشيدت المآذن، وكتابات اسماء الله الحسنىٰ، وأسماء الرسول الكريم، حتىٰ صار درّة مساجد المسلمين في الأرض.

واستمر العثمانيون في بناء المساجد في العالم الإسلامي، وازدهرت إستنبول بأكثر من ألف مسجد، وازدهرت المدن الأخرىٰ في العالم الإسلامي وقراها بعشرات الألوف من المساجد كذلك.

٩١



الخليفة السلطان عبد المجيد الأول[٢]

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٣١

(٢) ألبوم العثمانيين/ ص٧٨

٩٢



خط من خطوط السلطان عبد المجيد الأول

كما جدد أروقة وأسقف وعمارة المسجد الأقصىٰ، وهو ثالث الحرمين الشريفين، ولم تزل حتىٰ ١٩٦٧م، حيث أحرق اليهود المسجد الأقصىٰ، كما أحرقوا منبر صلاح الدين الأيوبي (رحمه الله)[١].

مع أعمال السلطان عبد المجيد الحسنة في مجالات الإعمار للمساجد ومرافق الدولة وانتصاراته في حروبه الكثيرة، إلا أنه لم يكن محبوباً من قبل شعبه، بسبب انغماسه في الشهوات والسكر والإسراف في أواخر حياته[٢].

جرت حروب ضروس بين العثمانيين والروس، أهمها في سينوب ومعركة (بركوي) عام ١٨٥٤م حيث انتصر العثمانيون، وأرسل السلطان قوات إلىٰ القرم، وكانت فرنسا وبريطانيا إلىٰ جانب تركيا[٣].

حدثت عدة ثورات في البلقان، وقضىٰ عليها عام ١٨٤٨م، وفتح سيواس عام ١٨٥٥م، وأنشأ قصر (دولمه باقجه سراي)، وجامع مجيدية[٤].

---

(١) صحوة الرجل المريض/ ص٨١

(٢) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان محمد علي/ ص٣١

(٣) ألبوم العثمانيين/ ص٧٨

(٤) المصدر السابق/ ص٧٨

أسس خطوط البرق والسكك الحديد، ثم انتهت حياته بإصابته بداء السل مثل والده، لأحزانه وأتعابه، ودفن في فناء جامع السلطان سليم في إستنبول. وخلف ١٨ ابنـًا و١٨ بنتـًا»(١).

كان أجرأ خليفة في إعلانه (التغريب) بقرار رسمي، بإصداره (مرسوم خط شريف جلخانة)(٢) - أي الدستور ساوىٰ فيه بين أهل الذمة والمسلمين في كل شيء، وهو ما حصلت عليه بريطانيا والدول الأوروبية الأخرىٰ من السلطان العثماني، مقابل تسوية النزاع بينه وبين والي مصر محمد علي باشا، الذي كان يريد الاستقلال والانفصال عن الدولة العثمانية عام (١٢٥٥-١٢٥٧هـ/ ١٨٣٩-١٨٤١م).

فاستبعد الشريعة الإسلامية، بتأثير من وزراء ماسون معه، وساوىٰ بين اليهود والنصارىٰ والمسلمين، وأمر بالتزيي بالزي الغربي عام ١٨٤١م، ولم يكن علماء ذو نفوذ يقفون في وجه التيار العلماني، مما مكّن الماسون من النكاية بالإسلام(٣).

لقد كان السلطان عبد المجيد أول سلطان عثماني يضفي علىٰ حركة تغريب الدولة العثمانية صفة (الرسمية)، ثم أصدر السلطان مرسومـًا آخر عام ١٨٥٦م، سمّي (خطي شريف همايون)، وكان أكثر جرأة من المرسوم السابق، وينص علىٰ ما يأتي:

١- إلغاء نظام الالتزام، والقضاء علىٰ الرشوة والفساد.

٢- المساواة في التجنيد بين المسلمين وغير المسلمين من يهود ونصارىٰ.

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٧٨

(٢) هذا المرسوم متوج بخط السلطان عام ١٨٣٩م، جاء فيه: (... لا يخفىٰ علىٰ عموم الناس أن دولتنا العلية من مبدأ ظهورها، وهي جارية علىٰ رعاية الأحكام القرآنية والقوانين الشرعية المنيعة بتمامها، ولذا كانت قوة سلطتنا السنية ورفاهية وعمارية أهاليها وصلت إلىٰ حدّ الغاية، وقد انعكس الأمر منذ ١٥٠ سنة، بسبب عدم الانقياد والامتثال للشرع الشريف، ولا للقوانين المنيعة، .. فتبدلت قوتها بالضعف وثروتها بالفقر،...)، الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٤٤٨، عن (تاريخ الدولة العثمانية)، د. علي حسون/ ص١٨٥

(٣) الدولة العثمانية، الصلابي/ ٤٤٠-٤٤٢ بإيجاز، عن (قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين/ ص١٩٢، ١٩٣، ١٩٦-١٩٨، والجامعة الإسلامية، أحمد الشويكة/ ص١٠١، والدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادي/ ص١٠٢-١٠٣، ١٠٨

٣- المساواة في المعاملة بين جميع رعايا الدولة مهما كانت أديانهم ومذاهبهم.

٤- المحافظة على الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها رؤساء الملل غير الإسلامية.

٥- السماح للأجانب بامتلاك الأراضي في الدولة، والاستعانة برأس المال والخبرات الأوروبية في تطوير اقتصاد الدولة[١].

وأصدر السلطان فرمان التنظيمات عامي ١٨٥٤-١٨٥٦م، وهو اصطلاح يعني تنظيم شؤون الدولة وفق المنهج الغربي، وبذا استبعد العمل بالشريعة الإسلامية. غير أن المسلمين نفروا نفوراً عظيماً ضد هذا التنظيم الجديد باعتباره منافياً للقرآن الكريم، فلم يجد السلطان من عمل إلا عزل صدره الأعظم (رشيد باشا) صاحب حركة التغريب هذه عام (١٨٤١م)، إلا أنه عاد بعد أربع سنوات عام ١٨٤٥م، ليتولى الصدارة العظمى عام ١٨٤٦م، ثم عزل منها عام ١٨٥٨م[٢].

وأمر السلطان بالتزي بالزي الغربي عام ١٨٤١م.

ولم يجد السلطان في الساحة فيمن يحسن التغيير إلا من تدربوا على الطريقة الأوروبية، ممن عادوا من أوروبا في دراستهم العسكرية والسياسية، وخلت الساحة من مصلح إسلامي كبير يتقن التغيير والاجتهاد خلال القرنين المنصرمين بعيداً عن التقليد الأعمى، بما مكّن الماسون من النكاية بالإسلام.

أصبح (مدحت باشا) الصدر الأعظم، ولكنه عزل بعد سنة، نتيجة كذبة بقوله: لا عجز في الميزانية عن تسديد الديون، مع وجود العجز[٣].

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٤٥٤، عن (الانحراف عن العقدية والعلمية/ ٢/ ٢٦٨، وتاريخ العرب الحديث، مجموعة علماء/ ١٤٠، ومذكرات السلطان عبد الحميد، والمصدر السابق/ ص٤٤٩، عن (قراءة جديدة في التاريخ العثماني)/ ص٢٠٨

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٤٥٢، عن (مذكرات السلطان عبد الحميد)، ترجمة محمد حرب/ ص٣، والمشرق الإسلامي، حسين مؤنس/ ص٢٥٦، وقراءة جديدة في تاريخ العثمانيين/ ص٢٠٩، والدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها/ ١/ ١٨١

(٣) ألبوم العثمانيين/ ٨٠

المطلب الثاني

محمد علي باشا

١ – سياسة محمد علي باشا وولده إبراهيم في الشام :

بعد أن قضىٰ علىٰ الحركة الوهابية فيها، عسكريـًا وسياسيـًا[١]، أرسل ابنه إبراهيم باشا إلىٰ الشام، فهزم الجيش العثماني عام ١٨٤٠م، بعد سنة من حكم الخليفة عبد المجيد[٢]، وشدد الخناق علىٰ المسلمين، وأعطىٰ الحرية المطلقة لليهود والنصارىٰ فيها، وفتح البلاد للبعثات الفرنسية والأمريكية والمدارس التبشيرية والمحافل الماسونية والكنائس، وانتقلت المطابع إلىٰ بيروت والأديرة، من الدول الأوروبية، وحصرها بيد النصارىٰ، حيث الإعلام والثقافة بأيديهم، كما أثارت النعرات الطائفية فيها. وأثـارت التيارات القومية المعادية للإسلام، وأتاحت الفرص لشركات تجارية أوروبية تتحكم بالاقتصاد في الشام، كما منحت امتيازات واسعة للأوروبيين مع أهالي مصر والشام، وخنق الاتجاه الإسلامي وعلماءه فيها،واصبح محمد علي وابنه مثالاً يحتذىٰ في الاستبداد والعمالة، كما حدث لمصطفىٰ كمال وأشباهه كثير في العالم العربي اليوم[٣].

وفي أعقاب هزيمة الجيوش العثمانية أمام جيوش محمد علي في الشام والأناضول، اضطرت الدولة العثمانية إلىٰ الاستنجاد بروسيا، بعد أن أدركت ان محمد علي يحظىٰ بتأييد بريطانيا وفرنسا سنة ١٨٣٣م، وتم إعلان تحالف بين روسيا والدولة العثمانية، مما أدىٰ إلىٰ مسارعة كل من بريطانيا وفرنسا للتصدي لمحمد علي، خشية المزيد من التدخل الروسي، وفرضت عليه اتفاقية (لندن ١٨٤٠م)، بما أجهض محاولة الاصلاح التي حاول السلطان أن

(١) التي كانت سداً منيعـًا أمام الأطماع البريطانية في الخليج العربي والمشرق، والتي تحمل الإسلام النقي من الخرافات والعمالة

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٤٤١

(٣) المصدر السابق/ ص٤٤١

يقوم بها لقبول وصاية الدول الأوروبية، مقابل حمايتها من أطماع محمد علي[١].

٢- انتقام إنكلترا من محمد علي باشا :

فقد وضع نفسه تحت حماية بريطانيا في مفاوضات استمرت أربعة أشهر، يذكرها تقرير (فريزر) الذي تولىٰ التفاوض، ويتعهد محمد علي من جانبه بمنع الفرنسيين والأتراك وغيرهم من الجيوش من الدخول إلىٰ (الإسكندرية)، مما حمل الإنكليز علىٰ إنجاز حملتهم علىٰ مصر، تحقيقاً لمصالحه وسيادته علىٰ مصر.

وأما انتقام إنكلترا منه فبعد أن حقق لهم فصل اليونان عن الدولة العثمانية، والقضاء علىٰ حركة الموحدين النقية السلفية، وانتزاع الشام من العثمانيين، تخوّف الإنكليز من غروره، فهاجموه في الشام، وقتلوا ثلاثة أرباع قواته، وأجبروه علىٰ معاهدة التنازل عن حكمه للشام، مقابل اعترافهم بحكمه لمصر وراثياً له ولأبنائه من بعده، مع تحديد جيشه بـ ١٨,٠٠٠ جندي، ومنعه من صناعة السفن، ودفع غرامة حربية للدولة العثمانية سنوياً بـ ٨٠,٠٠٠ كيس، مصالحة لها[٢].

وهكذا فإن أوروبا وقفت مع محمد علي في نهضته العلمية والاقتصادية والعسكرية، مقابل خدمته لها، واستقلال اليونان وخسارة الشام والجزائر وتونس، وتحطيم الدولة السعودية، وفتح أبواب الدولة التجارية للشركات الأوروبية عليها.

وتعساً لمن باع دينه بدنياه وبدنيا غيره!

وشرعت فرنسا وإنكلترا بإثارة الفتن الطائفية من عام (١٨٤١-١٨٦٠م) لإيجاد المبرر

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ٤٤٠-٤٤٣ بايجاز، عن (قراءة جديدة في تاريخ العثمانية)/ ص٣١٢، ١٩٣، ١٩٦، والجامعة الإسلامية، أحمد الشويكة/ ص١٠١

(٢) المصدر السابق/ ٤٤٤، عن (الدولة العثمانية)، د. جمال عبد الهادي/ ١٠٨

لتدخلهما في لبنان وسوريا والأردن (بلاد الشام)، وتحقيق نفوذهما في الشمال الأفريقي كذلك، وبالتحديد تونس والجزائر، وكان احتلالها للجزائر عام ١٨٣٠م.

وفي حكم السلطان احتلت روسيا (الأفلاق والبغدان)، وهما أغلب أراضي رومانيا، باتفاق سابق مع العثمانيين عام ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨م.

المبحث الرابع

السلطان رقم (٣٢)

الخليفة السلطان عبد العزيز خان

حياته: (١٨٣٠-١٨٧٦م) عمرّ (٤٦) سنة

حكمه: (١٢٧٨-١٢٩٣هـ)/ (١٨٦١-١٨٧٦م).

حكم (١٥) سنة وعمره ٣١ سنة[١]

المطلب الأول

ترجمته

هو ابن الخليفة محمود الثاني، حكم بعد أخيه السلطان عبد المجيد، وكان جسيماً مهيباً، قوياً، يمكنه مصارعة أبطال العالم، كما كان رساماً وشاعراً وملحناً.

أفاد من التطوير الأوروبي في سائر مجالات الحياة، زار أوروبا، وعزم علىٰ مواصلة خطة والده وأخيه في التغريب، وأبقىٰ المسؤولين عما سمّي (الإصلاح) في مناصبهم.

وسميت الدولة العثمانية في عهد والده محمود الثاني، وعهد أخيه، وعهده بـ(الرجل المريض)، وهو أول من طبع النقود الورقية، بدلاً من النقد الذهبي، فانخفض سعر الليرة الذهبية إلىٰ أقل من الربع، حتىٰ إن الباعة كانوا يرفضون أخذها، بل حتىٰ الخباز، فاصبح الكثيرون جياعاً لا يملكون النقد لشراء الخبز، كما لم يجدوا الخبز في السوق[٢].

كان يجمع من الصفات المتناقضة، فهو إلىٰ جوار قوته الجسمية وذكائه الحاد، حرص علىٰ التجديد من خلال التغريب، وفي عهده فتحت قناة السويس، وحين زيارته لمصر كان في عربة تجرها الخيول، والخديوي اسماعيل مع وزرائه كانوا يسيرون بجانبه وخلفه علىٰ أقدامهم عام ١٢٨٥هـ - ١٨٦٩م، وكان لفتحها ضغط إنكلترا، وتدخل مباشر بأمور الدولة

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٨٠، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٤٦٨-٤٧١ باختصار

(٢) السلطان عبد الحميد الثاني، حياته وأحداث عصره، أورخان محمد علي/ ٣٢

العثمانية، بسبب أنها شريان الشرق الأوسط للهند[(١)].

وبلغ من غروره أنه ابتدع عادة (صفع الوزراء)، إذ بدأ يصفع كل من ينقل إليه خبراً سيئـاً[(٢)].

٩٣



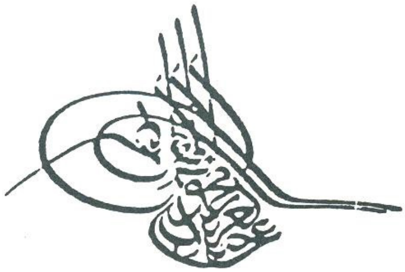
الخليفة السلطان عبد العزيز[(٣)]

(١) المصدر السابق/ ٣١-٣٦ باختصار

(٢) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٣٦، عن مصدر تركي (ULU, Hakan, N, F.): ولكون السلطان ذا قوة بدنية خارقة، إذ كان مصارعـاً ممتازاً، فإن صفعة واحدة منه كانت تكفي لملازمة الوزير فراش المرض لعدة أيام، ولكن غضبه كان يسكن ويتلاشىٰ بعد دقائق من الصفعة، ويرجع إلىٰ طبيعته المسالمة، فيندم علىٰ فعلته، وعند ذلك تبدأ الهدايا السلطانية بالوصول إلىٰ بيت الوزير المستلقي علىٰ الفراش! وقد فكر رجال القصر ورجال الدولة في طريق الخلاص من هذه الصفات السلطانية القوية، فاهتدوا أخيراً إلىٰ طريقة طريفة، وهي القيام بإخباره الخبر السيّئ، وهو في وضع لا يستطيع معه تحريك ذراعه علىٰ الفور، فاختاروا وقت الغداء، وهو منهمك في الأكل بيديه، فكان يقوم ثائراً ويصرخ طالبـاً الماء والصابون ليغسل يديه، فتكون الفترة اللازمة لغسل اليدين وتجفيفها كافية لسكون هياجه، فيتخلص صاحب الخبر من الصفعة)، المصدر السابق/ ص٣١

(٣) ألبوم العثمانيين/ ص٧٩

٩٤



طغراء (عبد العزيز)

المطلب الثاني

إصلاحاته

حاول في سنيه الأولىٰ إنقاذ الدولة من ضعفها، في المجالات الآتية :

أولاً: الجيش والقوة البحرية : زاد عدده من ٥٠,٠٠٠ إلىٰ ١٨٠,٠٠٠ بكامل تجهيزاته الحديثة، وأخمد ثورة كريت، وأخضعها جميعها له، واكتمل ضم اليمن إلىٰ الدولة العثمانية، حماية لباب المندب.

وكانت منزلته الثانية أو الثالثة بين جيوش العالم[1]، وصلت القوة البحرية إلىٰ ثاني مرتبة في العالم، بعد بريطانيا، ولكنه لم يهيء كادراً لضباط البحرية، قادراً علىٰ قيادة هذا الأسطول، فبقىٰ أكثره عاطلاً[2].

واهتم باليمن وباب المندب لاسيما بعد افتتاح قناة السويس، وأعاد فتح اليمن بشكل نهائي في زمانه[3].

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٨٠، والسلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٣٣

(٢) المصدر السابق/ ص٨٠، والثاني/ ص٣٤

(٣) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٥١

ثانيًا: سكك الحديد: مدّها إلىٰ مجموع ١,٣٠٠كم، خلال خمس سنوات[١].

ثالثًا: حركة البناء والإعمار : كانت واسعة في بناء المدارس والمستشفيات والطرق والموانئ والمدارس الصناعية والشركات، وشـرّع رسوم الكمارك، لحماية الصناعة المحلية، وشملت إصلاحاته ولاية (الطونة - الدانوب) التي تضاعفت وارداتها إلىٰ أربعة أضعاف، خلال خمس سنوات[٢]،

لقد أنشأ مجلس الشورىٰ عام ١٨٦٨م، أي (مجلس الدولة) علىٰ النسق الفرنسي، ومن اختصاصاته مناقشة الميزانية[٣]، وأخذ من الدساتير الغربية الكثير، وأقام العدل والرفاه في البلاد نسبياً[٤].

المطلب الثالث

مساوئه

أما مساوئه فكثيرة كذلك: رغم أنه حاول إنقاذ بلاده من الضائقة المالية الخانقة، وبذل جهوداً في الإصلاح وأحاط نفسه بوزراء اكفاء، غير أنه بمرور الزمن تمكن المنافقون والمتملقون من جرّه إلىٰ حياة البذخ واللهو، فانصرف إليها، ومن مساوئه:

أولاً: كان غير محبوب لإسرافه في الترف والمسكرات واللهو والشهوات[٥].

ثانيًا: كما أفرغ الخزينة، ومدّ يده إلىٰ القروض الأجنبية، التي بلغت مع فوائدها أكثر من (١٥٠) مليون ليرة ذهب، أي ما يقارب مليار جنيه استرليني، ولا يدري كيف يسددها، مما

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٣٤

(٢) المصدر السابق/ ص٣٥

(٣) المصدر السابق/ ص٤٦٨، عن (الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي/ ص١٥٩

(٤) المصدر السابق/ ٣١-٣٦ باختصار

(٥) المصدر السابق

حمل الدول الكبرىٰ علىٰ التدخل المباشر[١].

ثالثًا: في عهده فتحت قناة السويس عام ١٨٧٨م، وأن فتحها ليس من المساوئ، بل هو فتح لكل من يحسن الإفادة منها، غير أن إنكلترا كان لها النصيب الأكبر فيها، إضافة إلىٰ خدمة مصالحها لربط الشرق بالغرب سياسيًا واقتصاديًا، وكان لفتحها ضغط لإنكلترا، وتدخل مباشر بأمور الدولة العثمانية، بسبب كونها شريان الشرق الأوسط وطريق الهند[٢].

رابعًا: ظهور جمعية (تركيا الفتاة) (جون ترك)، تشكلت في زمانه من قبل شخصيات بارزة، لإقصائه عن العرش، ومن أعضائها ولي العهد (مراد) الماسوني، وكان قادتها (وزير الحربية حسين عوني، والصدر الأعظم - رئيس الوزراء - رشدي باشا، ومدحت باشا وزير الحربية، وأحمد باشا، ووزير المدارس العسكرية سليمان باشا، وقائد حامية إستنبول مصطفىٰ سيفي)، ودُعي عبد الحميد الثاني، أخو مراد إليها، فرفض[٣]،

استعان المتآمرون علىٰ السلطان عبد العزيز بفرنسا وبريطانيا في التآمر عليه، وهو أول تآمر أجنبي علىٰ الدولة العثمانية! ومع ذلك فان السلطان عفا عن المتآمر عليه، ولكن (عوني) لم يعف عن السلطان! وانتهت المؤامرة بقتل السلطان عبد العزيز علىٰ يد حسين عوني ومدحت، بقطع شرايين يديه بالمقص، وتركوه ينزف حتىٰ مات، بالاستعانة بمصارعين ورجال أقوياء اجتمعوا علىٰ صدره ورجليه حتىٰ الموت![٤]

وكان (مدحت باشا) من يهود الدونمة والتي نزعت عليه لقب (أبي الدستور)، وأوصلوه

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٣٣

(٢) ألبوم العثمانيين/ ص٨٠

(٣) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٤٤-٤٥ باختصار

(٤) ألبوم العثمانيين/ ص٨١، وصحوة الرجل المريض/ ٥٨، والسلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٥٣ بايجاز

إلىٰ منصب الصدر الأعظم عام ١٨٧١م، رئيس سورية والعراق، وكان اغتيال السلطان بسبب صموده ضد التدخل الأجنبي في الدولة[١].

هاجر إلىٰ إستنبول علامة الهند (رحمة الله الهندي) عام ١٨٥٧م، في عصر السلطان عبد المجيد، بعد سيطرة بريطانيا علىٰ الهند، ثم عاصر السلطان عبد الحميد الثاني، وألف في عهده كتابه المشهور (إظهار الحق)، وترجم بعدئذ إلىٰ عدة لغات، وهو من أنفس الكتب في علم الأديان المقارن، ولم يزل، المؤلف يعتبر بمقام الأئمة الأربعة المجتهدين[٢].

بعد استشهاده في ٥ حزيران ١٨٧٦م، دفن في ضريح السلطان محمود الكائن في (ديوان بولو) وخلف ٨ أبناء و٧ بنات[٣].

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٨١

(٢) صحوة الرجل المريض/ ص٥٨

(٣) ألبوم العثمانيين/ ٨٠

المبحث الخامس
السلطان رقم(٣٣)
الخليفة السلطان مراد الخامس

حياته: (١٨٤٠-١٩٠٤م) عمرّ (٦٤) سنة

حكمه: (١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م).

حكم (ثلاثة أشهر) وعمره ٣٣ سنة(١)

ترجمته:

هو ابن الخليفة عبد المجيد، تولىٰ الحكم بمساعدة الذين أبعدوا السلطان عبد العزيز عن العرش. كان ذكيًا، ولكنه اختل عقله عند ارتقاء العرش، ولم يشف رغم علاج خيرة المتخصصين في العالم(٢)، وإعجابه بأوروبا حين زيارته لها، لم يعمل شيئًا، لا إيجابًا ولا سلبًا.

واستمر حكمه (٣ أشهر) فقط، ثم عزل بسبب مرض عقلي، ثم تشافىٰ بعد عزله.

وعاش من غير حكم مدة طويلة، حتىٰ توفي بعمر (٦٤ سنة).

ودفن بجامع يني جامع، مخلفًا (ابنًا واحداً وثلاث بنات)(٣).

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ٨١

(٢) الدولة العثمانية/ ص٤٧٢-٤٧٣ بايجاز

(٣) المصدران السابقان/ ص٨١، ٤٧٢-٤٧٣ بايجاز

٩٥



السلطان مراد الخامس

المبحث السادس

لسلطان رقم(٣٤)

الخليفة السلطان عبد الحميد الثاني

عمره: (١٢٥٩-١٣٢٦هـ = ١٨٤٢-١٩١٨م) عمرّ (٧٧) سنة

حكمه: (١٢٩٣-١٣٢٦هـ = ١٨٧٦-١٩٠٩م) .

حكم (٣٣) سنة وعمره ٣٤ سنة[(١)]

المطلب الأول

ترجمته

هو أخو الخليفة مراد الخامس ؛ يعتبر هذا الخليفة من سلاطين القمم الذين حكموا الدولة العثمانية، وبينه وبين آخر القمم ثلاثة قرون، وهو الخليفة سليمان القانوني، إلا أنه رغم ذكائه وخبرته ودهائه وفصاحته وُجد في أواخر عصر السقوط للرجل المريض، ولو ظهر قبل قرن واحد لتغيرت ظروف الدولة إلىٰ ما يُرجَىٰ شفاؤها، ومع ذلك فقد أخر سقوطها ثلث قرن.

وفي نفس العام الذي تولىٰ فيه العرش كان الإنكليز قد حكموا الهند، وكانوا يحاولون دخول الصين وآسيا الوسطىٰ[(٢)].

وفي باكورة توليه الحكم شكّل محكمة للتحري أن كان عمه السلطان عبد العزيز إنتحر أم قُتل، فأثبتت المحكمة بأن عمه قتل بأمر حسين عوني ومدحت باشا وبعض أتباعهما،

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني - حياته وأحداث عصره، أورخان محمد علي/ ص٦١-٦٦ باختصار، وألبوم العثمانيين/ ٨٣

(٢) صحوة الرجل المريض/ ١٠٣

لكن لم يعدمهما، رغم طلب إعدامهما من قبل أمثال عثمان باشا الغازي وجودت باشا من العباقرة، بل عاقبهما بالحبس المؤبد، وصرف مرتباتهم إلىٰ أسرهم، وعين بعض رجالهما في الوظائف إلىٰ درجة الصدارة العظمىٰ، مثل عبد الرحمن باشا وخليل رفعت باشا، وغيرهم من جماعتهم في المناصب العليا[١].

المطلب الثاني

نشأته

أولاً : ولادته : هو ابن السلطان عبد المجيد، ووالدته شركسية ، (تيري موجكات) كسائر زوجات السلطان عبد المجيد والده، لذا كان مهتماً بقريبات والدته الشركسيات. أطلقت المدافع حين ولادته بأمر من والده خمس مرات يومياً، لمدة أسبوع، وكانت ولادته يوم الأربعاء ١٦ شعبان ١٢٥٨هـ/ ٢٢/ ٩/ ١٨٤٢م[٢].

ثانيًا: طفولته: توفيت والدته بمرض السلّ، وهو بعمر الثامنة، وحزن كثيراً لفقدها، واحتضنته الزوجة الثانية لوالده، التي عاشت معه حتىٰ أواخر العمر، إذ عمّرت ٨٠ سنة، وكان الحبّ بينهما متبادلاً، من غير السماح لها بالتدخل بشؤون الدولة، برجاء منه وموافقة منها[٣].

ثالثًا: شبابه: عاش في مزرعة والده مشغولاً بهواياته الرياضية خاصة، كالمبارزة بالسيف والتهديف بالمسدس والسباحة والتجديف وركوب الخيل والصيد، وكان ولوعًا بجميع الأسلحة لاسيما النادرة، وكان يهوىٰ تربية الحيوانات الأليفة، لاسيما الطيور، وكان يهوىٰ النجارة بمهارة، ويأنس بالقراءة المنوعة، لاسيما في مجال التاريخ، كما كان يهوىٰ التصوير والموسيقىٰ، ويهتم بالمزرعة وحيواناتها ومزروعاتها وزهورها.

---

(١) صحوة الرجل المريض/ موفق المرجه/ ٦٧

(٢) السلطان عبد الحميد الثاني - حياته وأحداث عصره، أورخان محمد علي/ ص٦١ باختصار

(٣) المصدر السابق/ ٦٢-٦٣ بايجاز

غير ان حياته كانت في غاية البساطة بعيداً عن البذخ والإسراف قبل حكمه وخلاله، حتىٰ اتهم بالبخل[(١)].

سافر مع عمه السلطان عبد العزيز إلىٰ فرنسا وإنكلترا، وكان هادئـًا وقوراً، في حين أن أخاه (مراد الخامس) كان معه، وهو ولي العهد، وكان شرِّيبـًا للخمر[(٢)].

٩٦



الخليفة السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢-١٩١٨م)[(٣)]

كان مخططـًا بعيد النظر، فاهمـًا للسياسة النصرانية الخبيثة ضد الدولة العثمانية، تربىٰ علىٰ أيدي علماء أجلاء، ودرّبَ نفسه علىٰ السلاح منذ طفولته وعلىٰ الرياضة، واهتم

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان محمد علي/ ص٦٠

(٢) المصدر السابق/ ص٦٥، ١١١-١١٢ باختصار، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٤٧٢-٤٧٣ باختصار

(٣) ألبوم العثمانيين/ ص٨٢

بالتصوف النقي علماً وسلوكاً، وعُنِي بالسياسة العالمية، زار أوروبا مع عمه السلطان عبد العزيز، والتقىٰ بنابليون الثالث وفكتوريا ملكة إنكلترا، وليوبولد الثاني ملك بلجيكا وبسمارك مستشار بروسيا، ثم غليوم الأول إمبراطور ألمانيا وامبراطور النمسا.

وكوّن صورة واضحة عن أوروبا، قال عن فرنسا: إنها لهو، وعن بريطانيا إنها ثروة وصناعة وتجارة، وعن ألمانيا عسكرية وإدارة، وكان معجباً بها، وعهد بتدريب الجيش العثماني إلىٰ ألمانيا، ثم كان صديقاً حميماً لبسمارك، ثم لغليوم اللذين كانا يجلانه ويحترمانه كثيراً.

حاول إنقاذ الدولة، بعد أن دارت عليها الدوائر، وأحكِم عليها الحصار(١).

المطلب الثاني

ملامح شخصيته

١ - **صفاته**: كان مربوع القامة، حنطاوي البشرة، مائلاً إلىٰ النحافة، أسود الشعر، ذا أنف كبير معكوف يحمل طابع آل عثمان، وعيناه ـ أبرز ما في وجهه - خضراوتان واسعتان نافذتان، لا يملك إزاءهما مخاطبه الا خفض بصره، وتحيط بهما أهداب كثيفة.

كان حليق اللحية حين ارتقائه العرش، مع شارب أنيق، بصوته حلاوة وكلامه واضح، هادئ، ذو شخصية وقورة مهيبة، نظراته وقسمات وجهه معبرة، يطيل الإصغاء إلىٰ محدثه، من غير مقاطعة، حركاته رقيقة ومخجلة وخجولة، جبهته عريضة تعبر عن قدره، وهو محبوب وخبير بإدارة الدولة، وله قلب متسامح مع مختلف القوميات والأديان في دولته(٢).

٢- **مظهره الخارجي**: لباسه في غاية البساطة والأناقة معاً، ولم يحمل سوىٰ وسام واحد (وسام آل عثمان)، بينما صدور قواده ووزرائه مزدانة بالأوسمة والنياشين، كان جسده قوياً ونشيطاً(٣).

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني - حياته وأحداث عصره، أورخان محمد علي/ ص١١١-١٢٠ بإيجاز، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٤٧٥-٤٧٦ باختصار

(٢) المصدر السابق، أورخان محمد علي/ ص١١٠-١١١ باختصار

(٣) المصدر السابق/ ١١٢ باختصار، عن مصادر تركية

٣- ثقافته: كان يتقن اللغة التركية والفارسية والعربية والفرنسية، وكان موسيقياً يتذوق الموسيقىٰ الشرقية والغربية، مولعاً بقراءة التاريخ، ويقول الشعر أحياناً[(١)].

٤- برنامجه اليومي: كان ينام مبكراً بعد صلاة العشاء ويستيقظ مبكراً، حسب السنة النبوية، ثم يصلي الفجر، ويتناول فطوره الخفيف، ثم يتوجه إلىٰ دار الحرم، ثم إلىٰ جناح العمل الإداري، للنظر في أمور الدولة الرسمية حتىٰ قبيل الظهر حيث يتناول الغداء مع الحَرَم، ثم يقيل ربع ساعة ظهراً، يعود بعدها للعمل حتىٰ العشاء، وقد يستمتع بلقاء أحدىٰ زوجاته أو أولاده، أو يستمع إلىٰ عزف البيانو، وبعد تناول العشاء يخرج إلىٰ حديقة القصر يتنزه في ارجائها مع بعض الباشوات ورجالات القصر، أو يتوجه إلىٰ ورشة النجارة أو المكتبة. وحين تكثر أعماله يبقىٰ إلىٰ منتصف الليل لإنجازها[(٢)].

٥- خلقه وطبعه: كان مثال العفة والاحترام والوقار، ولم يمُد عينه إلىٰ عرض أحد أو ماله، وكان حليماً صبوراً رحيماً، كان ورعاً في أداء الصلوات الخمس بأوقاتها، ويكثر من قراءة القرآن الكريم، وكان شاذلياً في شبابه، يكثر ارتياد الجوامع لاسيما في رمضان، ثم انتسب إلىٰ الطريقة القادرية بواسطة شيوخ، كان من حبه لرسول الله (صلىٰ الله عليه وسلم) أن أمر بوضع طبقات عديدة من اللباد تحت الخط الحديدي قرب المدينة لئلا يحدث القطار ضوضاء لساكن المدينة الموقر، ولم يكن يوقع علىٰ أي ورقة تخص الأمة ، ألا وهو علىٰ وضوء ، وكان يسمي باسم الله ثم يوقع بإمضائه، ولم يأخذ من خزينة الدولة لحاجته، بل كان يتبرع لأمور الدولة من ماله الخاص، أنشأ من ماله الخاص ١٥٥٢ بناية ما بين مدرسة ومستشفىٰ وجامع بكلفة بأكثر من ٧٨٠,٠٠٠ ليرة ذهبية[(٣)].

وكان يعمل بطاقة جميع وزرائه، وطيلة نهاره وليله أحياناً، ويقرأ جميع الجرائد الأوروبية المترجمة، ومعلوماته عن الدول الأوروبية والامريكية واسعة جداً، وهو ذو إرادة جيدة وعيون معبرة ومؤثرة، وعقل وقاد ورزين، افكاره متوازنة بين الأصالة (الإسلام)

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني - حياته وأحداث عصره، أورخان محمد علي/ ١١٢-١١٣ باختصار

(٢) المصدر السابق/ ١١٣، عن مصادر تركية

(٣) المصدر السابق/ ١١٤-١١٥ باختصار، عن مصادر تركية

والحداثة (المعاصرة)، وكان يكثر من عطاياه للأرمن والروم ولجميع المسيحيين ويبوّئهم مناصب عالية في الوزارات والقصر السلطاني، وقد شجع علىٰ الكتابة العصرية في جميع العلوم في الاقتصاد والتاريخ والفلك والجغرافيا[١].

وإن أهم صفة للسلطان (الرحمة)، ومع أن الأرمن أطلقوا عليه لقب (السلطان الأحمر)، وكلادستون صنفه (المجرم الكبير)، وكتب عنه جورجي زيدان - القبطي الماسوني بأنه (السفاح)، كان يبدل دائمـًا حكم الإعدام بحق أعدائه وأعداء الدولة، إلا واحداً كان وحشيـًا قام بقتل أبيه وأمه، كما أنه لم يعدم أي سياسي أو أي مجرم اكتشف أنه يريد اغتياله أو حاول الاغتيال أو تآمر عليه أو علىٰ الدولة، أو كان عميلاً لدولة أجنبية، بل كان يعفو أو ينفي أو يقرّب بمنصب أعلىٰ، تخجيلاً له واصلاحـًا، ولم يسمح بإطلاق طلقة واحدة علىٰ الجيش الذي أتىٰ لخلعه، وكان بإمكانه بإشارة منه أن يبيده جميعـًا[٢]، وينجو هو وتنجو الخلافة.

ولقد عفا عن الجنديين اللذين أطلقا الرصاص عليه في قصر يلدز، وكانا من حراس القصر، أخرجهما من سلك الجندية وأرسلهما إلىٰ بلدهما مع إعطاء راتب تقاعد لهما.

٦- اهتماماته : درس الموسيقىٰ في شبابه ودرس الخط وتعلم اللغتين العربية والفارسية، إضافة إلىٰ الفرنسية والأدب العثماني والعلوم الإسلامية علىٰ يد علماء عصره من عام ١٢٦٦هـ - ١٨٥٠م ، أتم دراسة البخاري في علم الحديث ، وتعلم السياسة والاقتصاد علىٰ يد وزير المعارف ، كان شغوفـًا بالموسيقىٰ والتجارة ويقول في ذلك :

كنت قد شُغِفت بالعزف علىٰ البيانو في شبابي

عبدالحميد الثاني

وكان أيضـًا شغوفـًا بالتجارة والرسم وكان مغرمـًا برسوم المناظر الطبيعية ، رسم زوجته صورة بقلم الفحم وقيل أنه كان يحتفظ بها في مكتبه ، وقد بدأ شغفه بالتجارة علىٰ أيام والده

(١) السلطان عبد الحميد الثاني - حياته وأحداث عصره، أورخان محمد علي/ ١١٦-١١٧ بإيجاز

(٢) المصدر السابق/ ١١٧-١١٩ بإيجاز، عن مصدر تركي، وعبد الحميد الثاني ودور سلطنتي، حيات خصوصية، وسياسية سي، عثمان نوري، كتابخانة إسلام وعسكري، إبراهيم حلمي، اسطنبول/ ١٣٢٧هـ/ ٢/ ٢٤١

السلطان عبدالمجيد الأول الذي كان أيضـاً شغوفـاً بهذه الصنعة وكان إلىٰ جانب والده رجل متقن اسمه خليل أفندي وتعلم السلطان علىٰ يديه .

وكان محباً للرياضة والفروسية ويقول في ذلك :

كنت في شبابي أنزل البحر ، وأسبح جيداً ، وأركب الخيل ، وأستخدم العربة ، وأهوىٰ التجديف وأستخدم المراكب الشراعية ، وأمارس الرماية بالطبنجة ، وأخرج إلىٰ الصيد ، وألعب بالسيف .

عبدالحميد الثاني

وكان أيضـاً متمسكـاً بدينه وتقول ابنته عائشة بخصوص هذا الموضوع :

كان والدي يؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها ، ويقرأ القرآن الكريم ، وفي شبابه سلك مَسْلك الشاذلية ، وكان كثير الارتياد للجوامع لا سيما في شهر رمضان .

عبدالحميد الثاني

توليه الحكم :

في ٣١ أغسطس ١٨٧٦ توجه في الموكب الملكي إلىٰ ضريح أبو أيوب الأنصاري ، وهناك تقلد السيف السلطاني وفق العادة المتوارثة مذ أن فتح العثمانيون القسطنطينية ، ومنه سار لزيارة قبر والده السلطان عبدالمجيد الأول ، ثم ضريح محمد الثاني فاتح استنبول ، ثم قبر جده محمود الثاني مبيد الانكشارية ، ثم قبر عمه عبدالعزيز الأول .

زوجاته وجواريه :

تزوج السلطان مثل أغلب أسلافه من الجواري وزوجاته ، دفن منهن عشر زوجات وجواري :

١- السيدة نازك أدا .

٢- السيدة بدر فلك . ثم دفنها في الآستانة بعد نفي أسرة آل عثمان .

٣- السيدة نور آفسون الزوجة الثالثة ، طلقها السلطان ، وزوجها من الأثوابجي الثاني

صفوت بك، وتوفي وهي علىٰ ذمته .

٤- السيدة بيدار . ثم دفنها في الآستانة بعد نفي أسرة آل عثمان .

٥- السيدة دليسند .

٦- السيدة مزيدة .

٧- السيدة نور أمثال أو أمثال نور . ثم دفنها في الآستانة بعد نفي أسرة آل عثمان .

٨- السيدة مشفقة . توفت عام ١٩٦١ ودفنت في مقبرة يحيىٰ أفندي الآستانة .

٩- السيدة سازكار ، تم دفنها في الشام بعد نفي أسرة آل عثمان .

١٠- السيدة بيوسته ، تم دفنها في باريس بعد نفي أسرة آل عثمان .

١١- السيدة فاطمة بسند ، تم دفنها في الآستانة بعد نفي أسرة آل عثمان .

١٢- السيدة بهيجة ، عاشت في نابولي في إيطاليا ، وتوفت عام ١٩٦٩ ودفنت في مقبرة يحيىٰ أفندي .

١٣- السيدة صالحة ناجية ، توفيت قبل صدور قرار نفي آل عثمان بشهر واحد ، وتم دفنها في ضريح السلطان محمود في ٤ فبراير ١٩٢٤ .

أولاده :

للسلطان عبدالحميد سبعة عشر ثمانية ذكور وتسع إناث هم :

١- الأميرة علوية ولدت في الآستانة في قصر طولمه باغتشه عام ١٨٦٨ ، وتوفيت عام ١٨٧٥ عقب حادثة اشتعال النيران في جسدها .

٢- محمد سليم أفندي ولد في الآستانة في قصر طولمه باغتشه عام ١٨٧٠ ، وتوفيت عام ١٩٣٧ في جونيه بيروت ودفن في الشام في ضريح جامع السلطان سليم .

٣- الأميرة زكية ولدت في الآستانة في قصر طولمه عام ١٨٧٢ ، وتوفيت عام ١٩٥٠ في مدينة بو الفرنسية ومكان دفنها ليس معلوماً .

٤- الأميرة نعيمة ولدت في الآستانة في قصر طولمه عام ١٨٧٦ ، غادرت ديارها إلىٰ مدينة تيران في ألبانيا ، توفيت في تاريخ غير معلوم أثناء الحرب العالمية الثانية ، تزوجت مرتين وماتت أرملة .

٥- محمد عبدالقادر أفندي ولد في الآستانة في قصر يلدز عام ١٨٧٨ ، غادر دياره إلىٰ بلغاريا، طلق زوجتين وبعد خلع والده حظي من زوجته الثالثة (مهربان) بمولود أسماه أورخان ، وتوفي هناك من الرعب أثناء غارة جوية أثناء الحرب العالمية الثانية ودفن هناك .

٦- أحمد نوري أفندي ولد في الآستانة في قصر يلدز عام ١٨٧٨ ، غادر تركيا إلىٰ فرنسا وتوفي ودفن هناك بعد أن عانىٰ من الضيق والعوز .

٧- الأميرة نائلة ولدت في الآستانة في قصر يلدز عام ١٨٨٤ ، غادرت ديارها إلىٰ بيريت وتوفيت عام ١٩٥٧ .

٨- محمد برهان الدين أفندي ولد في الآستانة في قصر يلدز عام ١٨٨٥ خرج في رحلة إلىٰ أوربا وعندما أعلنت الجمهورية التركية حال ذلك دون عودته ، توفي في نيويورك ودفن في ضريح السلطان سليم في الشام .

٩- الأميرة شادية ولدت في الآستانة في قصر يلدز عام ١٨٨٦ ، وتوفيت عام ١٩٧٧ ، ودفنت في ضريح السلطان محمود .

١٠- الأميرة عائشة ولدت في الآستانة في قصر يلدز عام ١٨٨٧ ، وتزوجت بفخري بك عام ١٩١٠ ، ثم بأحمد نامي ثم طُلقت منه وتزوجت بأحمد علي بك وغادرت معه إلىٰ فرنسا ثم ترملت منه عام ١٩٣٧ ، وتوفيت في ١٠ أغسطس ١٩٦٠ ، ودفنت في مقبرة يحيىٰ أفندي باستنبول .

١١- الأميرة رفيعة ولدت في الآستانة في قصر يلدز عام ١٨٩١ ، وتوفيت عام ١٩٣٨ ، في بيروت ودفنت في ضريح جامع السلطان سليم .

١٢- عبدالرحيم خيري أفندي ولد في الآستانة في قصر يلدز عام ١٨٩٤ ، انتحر في باريس في ٢٠ يناير ١٩٥٢ ، ودفن في مقبرة المسلمين .

١٣- الأميرة خديجة ولدت في الآستانة في قصر يلدز عام ١٨٩٧ ، وتوفيت قبل أن تكمل عاماً ودفنت في مقبرة يحيىٰ أفندي ، وقد أقيم مستشفىٰ الأطفال (مستشفىٰ شيشلي للأطفال حاليًا) تخليداً لذكراها .

١٤- الأمير أحمد نورالدين توأم الأمير محمد بدر الدين ولد في الآستانة في قصر يلدز عام ١٩٠١ ، وتوفي مريضاً في باريس عام ١٩٤٥ ودفن في مقبرة المسلمين .

١٥- الأمير محمد بدرالدين توأم الأمير أحمد نورالدين ولد في الآستانة في قصر يلدز عام ١٩٠١ ، وتوفي نتيجة مرض أصابه ١٩٠٣.

١٦- الأميرة سامية آخر أنجال السلطان ، توفيت وهي طفلة صغيرة ودفنت في مقبرة يحيىٰ أفندي .

١٧- محمد عابد .

حادثة القنبلة ومحاولة اغتياله :

وكانت محاولة اغتياله عام ١٩٠٥م بوضع ٨٠ كغم من المتفجرات مع ٢٠ كغم من قطع الحديد في مركبة في فناء الجامع الذي يصلي فيه السلطان، تأخر السلطان عن موعد تفجيرها ، وكان لانفجارها أثر مروع قتل ٢٦ شخصاً، وجرح ٥٨، ونفقت ٢٠ رأساً من الخيول، ثم مشىٰ السلطان بهدوء إلىٰ عربته، حيث ساقها بنفسه بين هتاف الناس ، وكانت خطة أرمينية لاغتياله ، أعقبها نسف مقر الحكومة العثمانية، ثم نسف مباني الباب العالي وجسر غلطة سراي ومبنىٰ البنك العثماني وسفارات بعض الدول، لإشاعة الفوضىٰ ولإعطاء ذريعة لتدخل الدول الأوروبية.

ثم إن الذي وضع القنبلة ألقي القبض عليه وحكم عليه بالإعدام ، غير أن السلطان عفا عنه، واكتفىٰ بإخراجه خارج الوطن، ولم يوقع عقوبة الإعدام علىٰ أحد طيلة حكمه.

لم يتحرك السلطان من موقعه أثناء تفجير القنبلة، وكان جالساً يستمع إلىٰ التفجيرات

كأنها أصوات مدافع، وأمامه الدماء والأشلاء[١].

وكان نزيهـًا أمينـًا علىٰ شعبه وخزينته، لقد تسلمها بديون قدرها (٢,٥٢٨,٠٠٠,٠٠٠) مليار قطعة ذهب (ليرة)، وحين تركه العرش كانت (١٠٦,٤٤٠,٠٠٠) ليرة، بينما رفع هذه الديون الانقلابيون بعده إلىٰ (١٣ ضعفا)[٢].!

٩٧ [٣]



لوحة بخط الثلث بقلم السلطان عبد الحميد الثاني

المطلب الرابع

ارتقاؤه العرش

بعد اليأس من شفاء السلطان مراد، اتجهت الأنظار إلىٰ ولي العهد عبد الحميد، وكانت إستنبول تعج بسفراء الدول الأجنبية - البريطانية والفرنسية والروسية المتآمرين علىٰ الدولة وسلطانها.

لقد قادها بحذر وأناة وبدأ بالاقتصاد، حتىٰ اتّهم بالشح، قلّص ثمن الطعام المقدم إلىٰ

(١) السلطان عبد الحميد الثاني - حياته وأحداث عصره، أورخان محمد علي/ ١٢٤-١٢٦ بايجاز

(٢) صحوة الرجل المريض/ ٨٦

(٣) ألبوم العثمانيين / ص٨٦

مستخدمي القصر إلىٰ الثلث عما كان زمن السلطان عبد المجيد مما وفر مبلغـًا مقداره ثلث مليون قطعة ذهبية، كما منع مظاهر البذخ والترف للأميرات والأمراء.

وغيّر كثيراً من التقاليد الاجتماعية، فأخذ يأكل مع أسرته مجتمعين، ويجلس مع وزرائه بعد أن كانوا يقفون أمام السلطان معقودة أيديهم.

وكان طيلة فترة حكمه ومنذ بدايته يرصد الواقع عن كثب ليحيط نفسه بالمخلصين لاسيما أصحاب المراكز المرموقة في القصر وفي الحكم، فلم يكن آلة بأيدي الانقلابيين والماسونيين، وكان يجتمع بكل وزير ومسؤول عال وبكل صدر بشكل منفرد، ويدرس المشكلات، ولا يزعج مخالفه الرأي بل يطيّب خاطره، وكان يستقطب أمهر الاقتصاديين، ويتدارس الأمور المالية الدقيقة معهم.

لقد كان خلال السنوات الثلاث الأولىٰ من حكمه مشغولاً بالحروب التي فُرضت عليه، مع روسيا والصرب واليونان، وسيأتي الحديث عنها، ثم تفرغ خلال السنوات الثلاثين الباقية من حكمه إلىٰ إحباط مؤامرات الأعداء، وإلىٰ رصّ شمل العالم الإسلامي، وإلىٰ اصلاحاته الداخلية التي أتت متأخرة، ومن غير ملل ولا كلل، ولا ذنب له، إذ وضعه القدر في هذا العصر! (١)

عبقرية السلطان عبد الحميد بنظر بسمارك: يقول فيه: (ان ٩٠٪ من العقل موجود في رأس السلطان عبد الحميد الثاني، و٥٪ في رأسي، والخمسة الباقية في رؤوس باقي السياسيين).

وقد تعززت العلاقات بين ألمانيا والدولة العثمانية، كان القيصر غليوم الثاني معززاً تقديره لعبد الحميد، وتعاطفه مع المسلمين، وقام بزيارته إلىٰ إستنبول، كما زار القدس عام ١٨٩٨م (٢).

اقتصرت حروبه في السنوات الثلاث الأولىٰ من حكمه علىٰ حربين:

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي، ٤٧٤-٥٥١، باختصار شديد، والسلطان عبد الحميد الثاني، أورخان محمد علي/ ص٦٥-٦٩ باختصار

(٢) صحوة الرجل المريض - موفق المرجه/ ٦٧

أولهما: مع روسيا، من دون رغبة منه، وقبل قبضه علىٰ زمام الأمور، بل كانت بدافع من مدحت باشا، وقد خسرت الدولة العثمانية هذه الحرب.

وثانيها: مع اليونان، وانتصرت فيها الدولة العثمانية، وكانت شرارة الحرب من جزيرة (كريت) التي بدأ الصراع فيها بين المسلمين والنصارىٰ الذين أمدتهم اليونان بالسلاح، وتفاقم الأمر، مما أدىٰ إلىٰ تدخل الدول الأوروبية، فأرسلت سفنها الحربية إليها، كما أنزلت اليونان جنودها فيها، وقتلوا من المسلمين الكثير، بما انتهىٰ إلىٰ تحذير الدول الأوروبية لليونان بسحب جيشها خلال ستة أيام، وزاد المشكلة تعقيداً هجوم اليونان علىٰ حدود تركيا، حيث استولت القوات اليونانية علىٰ مواقع فيها، غير ان السلطان كان حكيماً حليماً، وأخبر الدول الأوروبية بما حدث، فعزل اليونان عن أي تعاطف خارجي، حينئذ أعلن الحرب علىٰ اليونان التي انتهت، بهزيمة ساحقة سريعة، ووصل أثينا، فاستعانت اليونان بالدول الأوروبية وروسيا، وقد لبّىٰ السلطان رجاء القيصر، وأوقفت الحرب، وعقد الصلح في نهاية العام[١].

المطلب الخامس

موقفه من الحضارة الغربية

عمل بكل طاقته لنقل المخترعات الغربية في المجال العسكري والتصنيع والتعليم إلىٰ الدولة العثمانية، وطوّر المناهج الدراسية، وجعلها جميعها تحت رقابته الشخصية، وأنشأ دوراً للمعلمات.

وأدخل التلغراف إلىٰ البلاد، وأنشأ المدارس الحديثة، واشترىٰ غواصتين، وأدخل أول سيارة، وأول دراجة إلىٰ البلاد، كما أدخل الكثير من المخترعات الحديثة[٢].

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ٨٣، والسلطان عبد الحميد الثاني - حياته وأحداث عصره، أورخان محمد علي/ ١٧٦-١٧٩ بإيجاز

(٢) المصدر السابق/ ٦٦-٧٠ باختصار.

غير أنه وقف بحزم ضد الفكر الغربي، وضدّ التغريب الذي سعىٰ إليه الكثيرون ممن قبله، ولم يتأثر بأي ضغط عليه، لصلابته في عقيدته، وقد التزم بتطبيق الشريعة، وقاوم الاتجاهات الغربية، عُني بالمرأة - تربية وتعليماً وزياً محتشماً، ومنع سفرها من غير محرم، كما منع الاختلاط، ودعا إلىٰ الحجاب الشرعي، والنقاب، وحصر دور المرأة في التربية الأسرية، وتعليم البنات[1].

المطلب السادس

أهم إصلاحاته الداخلية

١ - **محاولته تعريب الدولة**[2]: كان الخليفة يرىٰ ضرورة اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية للدولة، وكان يقول نصاً: (اللغة العربية لغة جميلة، ليتنا كنا اتخذناها لغة رسمية للدولة من قبل، لقد اقترحت علىٰ (خير الدين باشا) التونسي، حينما كان صدراً أعظم أن تكون اللغة العربية اللغة الرسمية، لكن سعيد باشا كبير أمناء القصر إعترض علىٰ اقتراحي هذا، وقال: (إذا عربنا الدولة فلن يبقىٰ - للعنصر التركي - شيء بعد ذلك)، كان سعيد باشا رجلاً فارغاً، وكلامه فارغاً، ما دخل هذه المسألة بالعنصر التركي؟! المسألة غير هذه تماماً، هذه مسألة وتلك مسألة أخرىٰ، اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية للدولة من شأنه - علىٰ الأقل، أن يزيد ارتباطنا بالعرب)[3].

وكان يتقن فن الخط العربي - وله لوحات خطية نادرة، منها الصورتان المرفقتان قبل

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٥٠٦-٥٠٧ بإيجاز

(٢) السلطان عبد الحميد الثاني/ ١٩٩، د. محمد حرب.

(٣) الدولة العثمانية، ص٥٠٤ باختصار، عن (السلطان عبد الحميد الثاني)، أورخان محمد علي/ ص٧٠، ١٩٩-٢٠٠ بإيجاز، وواقعنا المعاصر/ ص١٥٣

أربع صحائف، وكان وزراؤه يميلون للتغريب، وللاتجاه القومي، كما كان وزراء من سبقه من الخلفاء قبله، وكانوا يعارضونه في كثير مما له صلة بالإسلام الحق(١).

٢- إعلانه الدستور، ثم إلغاؤه: اضطرّ مكرهـًا في أول حكمه ١٨٧٦م علىٰ إعلان الدستور، الذي أعلنه الوزير الماسوني اليهودي الخطير: مدحت باشا، وإن اعلان الدستور كان من قبل لجنة عكفت علىٰ إعداده عدة شهور، برئاسة مدحت باشا، وكان من أشد أنصار إعلانه، وبعد مناقشة الدستور في البرلمان تمت موافقة جميع الأصوات بالإجماع(٢).

وتنفيذاً للدستور أجرىٰ الانتخابات الأولىٰ لمجلس النواب - (المبعوثان) - عن طريق المجالس الإدارية للولايات، وليس من قبل الشعب مباشرة، كان للمسلمين (٧١) مقعداً، وللنصارىٰ (٤٤)، ولليهود (٤)، يتألف مجلس الأعيان - (الشيوخ) - من (٢٦) عضواً، بينهم (٢١) مسلمـًا، وافتتحهما في ١٨٧٧م(٣).

ثم عطل الخليفة (البرلمان) (٢٣ سنة)، ونفىٰ البارزين، ثم اضطرّ إلىٰ إعلانه بضغط الماسون الشديد، وقال بسمارك: (لقد أحسنتم صنعـًا بتعطيلكم المجالس، ذلك لأن أية دولة عندما تكون متكونة من قوميات عدة، فإن ضرر النظام البرلماني فيها يكون أكثر من فائدته)(٤).

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، اورخان محمد علي/ ص١٠٤

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٤٧٧-٤٧٩، عن (السلطان عبد الحميد)، محمد حرب/ ص٧٧، والسلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٧٠-٧١

(٣) المصدر السابق/ ص٤٨٠، عن (الدولة العثمانية)، د. اسماعيل ياغي/ ص١٨١

(٤) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٧٠-٧٢ باختصار، عن (Abdilhamid in Hatira Defteri, yayinlari, Iṡtanbul, S.117)

٩٨


قانون اساسى

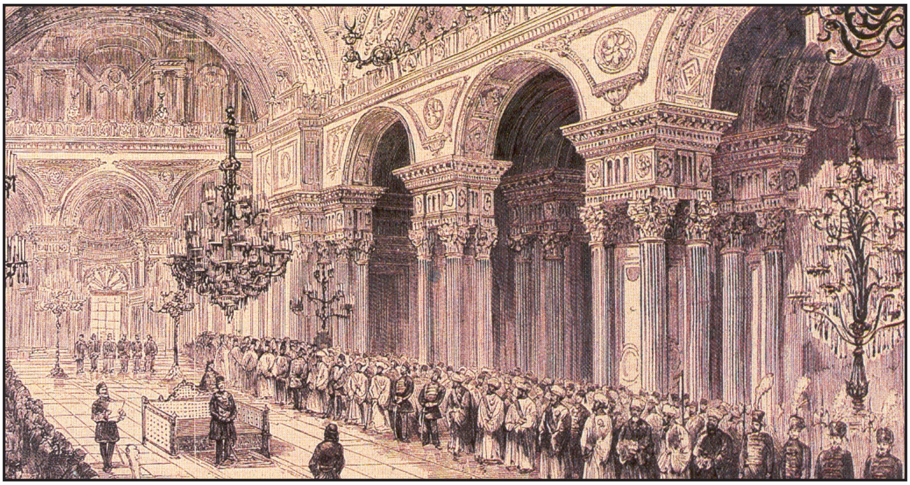
قانون اساسى‌يه دائر شرف‌صدور ايدن خط همايون
عدالت مشحون شاهانه‌نك صورتى

استانبول — مطبعه احمد كامل

الصفحة الأولىٰ من الدستور العثماني .

اشتهر السلطان عبدالحميد الثاني أنه أوّل سلطان دستوري في تاريخ الدولة العثمانية ، فقد أعلن دستوراً للبلاد بعد أن أقنعه زعيم تكتل «اتفاق الحمية» مدحت باشا أن الإقدام علىٰ هذا العمل يجعل الدول الأوربية تتوقف عن تدخلها في الشؤون الداخلية للدولة لا سيما وإنه سيُصلح وضع الرعايا المسيحيين في البلقان والشام . تشكلت لجنة عامة برئاسة مدحت باشا، ولجان فرعية لدرس مشروع الدستور قبل إصداره ، وانتهت بعد مداولات طويلة إلىٰ وضع هيكل للنظام البرلماني يقوم علىٰ مجلسين : مجلس شيوخ يطلق عليه «مجلس الأعيان» ومجلس نواب يُطلق عليه «مجلس المبعوثان».

٩٩



حفل إعلان الدستور العثماني وافتتاح البرلمان

كان الدستور العثماني ينص علىٰ تقييد السلطة المطلقة للسلطان وإنه حامي الدين الإسلامي ، يتمتع شخصه بحرمة قدسية ، وهو غير مسؤول عن تصرفاته أمام أحد ، وحدد الدولة وعاصمتها والحقوق العامّة للرعايا . وانتقص الدستور كثيراً من سلطات الصدر الأعظم التنفيذية وأعطاها للسلطان ، وجعل الدستور للسلطان الحق في تعيين أعضاء مجلس الأعيان مدىٰ الحياة ، علىٰ أن لا تقل سن العضو عن أربعين عاماً ، أما مجلس المبعوثان فكان أعضاؤه يعينوا عن طريق إجراء انتخابات عامّة ، وكان المجلسان يجتمعان كل سنة في دورة عادية ، تبدأ في الأول من شهر نوفمبر وتنتهي في آخر شهر فبراير ، ويحق للسلطان تقديم موعد الدورة أو اختصار مدتها . كانت الحكومة هي التي تقترح التشريعات الجديدة علىٰ البرلمان ، أما اقتراحات أعضاء المجلسين فيجب أن تُعرض علىٰ السلطان ، فإذا وافق عليها يُحيلها إلىٰ البرلمان عن طريق مجلس الدولة الذي يوافق عليها ، وينتهي الأمر بصدور موافقة السلطان ، أما إذا رفض أحد المجلسين مشروع قانون فلا يعيد النظر فيه في دورة انعقاده نفسها .

الواقع أن الحياة الدستورية بمعناها الحديث ، في عهد السلطان عبدالحميد الثاني ، كانت تجربة فاشلة قُدّر لها الإخفاق ، ومرّت بمرحلتين : بدأت المرحلة الأولىٰ بصدور الدستور في

٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٦ م ، الموافق فيه ٦ ذي الحجة سنة ١٢٩٣هـ ، وانتهت بحل البرلمان وإيقاف العمل بالدستور في ١٤ فبراير سنة ١٨٧٨ م ، الموافق فيه ١١ صفر سنة ١٢٩٥ هـ، وبدأت المرحلة الثانية حين قرر السلطان عبدالحميد إعادة العمل بالدستور في شهر يوليو من عام ١٩٠٨ م ، واستمرت إلىٰ ما بعد عهده ، حيث انتهت في ١٨ مارس سنة ١٩٢٠ م ، الموافق فيه ٢٦ جمادىٰ الآخرة سنة ١٣٣٨ هـ ، حين قرر البرلمان إيقاف جلساته إلىٰ أجل غير مسمّىٰ ، ثم أصدر السلطان محمد السادس في ١١ أبريل من نفس العام قراراً بحله .

البرلمان والدستور العثماني :

البرلمان العثماني أو مجلس المبعوثان في ٤ ربيع الأول ١٢٩٤ – ١٩ مارس ١٨٧٧، فتح البرلمان العثماني الأول في قصر بشكطاش ، وعند افتتاحه ألقىٰ السلطان خطبة عن أسباب انحطاط الدولة وتأخرها ، وما يلزم من الإصلاحات ونشر التعليم والمساواة بين الجميع والعدل في الأحكام ، عطل المجلس في فترة تقارب الثلاثين عاماً ١٣ صفر ١٢٩٥هـ، ١٤ فبراير ١٨٧٨ ، حتىٰ ٢٣ جمادىٰ الآخر ١٣٢٦ هـ – ٢٣ يوليو ١٩٠٨ .

٣– **استحداثه أقوىٰ جهاز للمخابرات**: يكتشف به المؤامرات الداخلية والخارجية، قبل تنفيذها، وربطه مباشرة به، وقضىٰ علىٰ مؤامرات كثيرة في مهدها.

وأعانه في زيادة الحذر من الخيانات مع الدول الكبرىٰ وتسلم الرشاوىٰ منها، خصوصاً من بعض من تسلموا منصب الصدر الأعظم في عصره، ومن بعض قواده ووزرائه، وأفاد من جهاز الأمن والشرطة السرية، كما أفاد من أعضاء الطرق الصوفية والزهاد والدراويش، وركّز السلطات كلها في يده[١].

٤– **اهتمامه بمؤسسات التعليم**: لقد طفر بالتعليم ومؤسساته طفرة نوعية، لم يُسْبَق إليها، لاعتقاده بأن تطوّر البلاد ضمان لقوتها واستمرار لسيادتها، فكانت اهتماماته بالكليات والمعاهد والمدارس، بما أسسها ولم تزل حالياً، بعد قرن من رحيله، وهي

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٥٠٢–٥٠٤ باختصار

تتمثل فيما يأتي:

أ- الكليات والمعاهد:

١- جامعة الهندسة
٢- كلية الطب
٣- كلية العلوم
٤- كلية الآداب
٥- كلية الحقوق
٦- كلية العلوم السياسية
٧- أكاديمية الفنون الجميلة
٨- كلية التجارة
٩- كلية الزراعة والبيطرة
١٠- معهد المعادن والغابات
١١- معهد المعلمين العالي
١٢- معهد اللغات[١]
١٣- المدرسة العلمية في سامراء[٢]

ب- المدارس المتوسطة والثانوية:

١- المدارس الإعدادية (الثانوية) في كل محافظة (مدنية وعسكرية)
٢- مدارس متوسطة في كل قضاء.
٣- مدارس صناعية للبنين والبنات
٤- مدارس للمعلمين والمعلمات.
٥- مدارس للصم والبكم.

ج- المدارس الابتدائية التي أنشأها لاتعدّ ولا تُحصىٰ.

ولولا الضائقة المالية الشديدة لتضاعفت أعداد المدارس، ومع ذلك فهي كثيرة، منتشرة في أطراف الدولة.

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان محمد علي/ ص١٢٧

(٢) خلّدنا تاريخها بقصيدة شعرية فوق بابها، لم تزل، وخصص لإنشائها ٤٠٠,٠٠٠ ليرة، ثم توسعت خلال خمس سنوات، تخرج فيها خير علماء العراق في النصف الأول من القرن العشرين، ومنهم: شاكر البدري، وعبد العزيز السالم وعبد الملك السعدي وأيوب الخطيب، ووالده ملا توفيق، وعبد الوهاب السامرائي، وطه الياسين - والد الدكتور سعيد - المتوفىٰ في نهاية القرن المنصرم، والحافظ محمد سعيد الادريسي، والسيد أحمد الراوي، والسيد عبد الوهاب البدري، والسيد محمد سعيد السيد علي الشاهر.. نقلاً عن بعض العلماء الخريجين منهم ممن عاشروهم قبل وفاتهم

ولقد أسهمت مؤسسات التعليم بنشر العلم والعقيدة الإسلامية، وتحصين العقول ضد الجهل والأمية، وضدّ المدارس التبشيرية - الأمريكية والفرنسية والإنكليزية، التي تمنع تدريس الدين الإسلامي، لتخريج الطلاب المسلمين بالصبغة الغربية(١).

٥- **تأسيس المرافق الحضارية الأخرىٰ** - مثل المكتبات والمتاحف وتأسيسات إسالة الماء، ومكاتب البريد والبرق وسكك الحديد والطرق والجسور ودور العجزة، وخطوط الترمواي في إستنبول وبيروت ، وتقوية القلاع الحربية لاسيما (جناق قلعة)، وهذه القلعة وبقية القلاع هي من أهم عوامل نجاح صمود القوات العثمانية في وجه أعدائهم في الحرب العالمية الأولىٰ ١٩١٥م(٢).

وأسس المستشفيات، ودوائر النفوس العامة، والغرف التجارية والزراعية والصناعية، كما أسس مصنعـًا للفخار ومصنعـًا للورق ومصنعـًا للغاز ومصنعـًا للشمع، ووسع مصنع القماش في (هركه)، وبنىٰ مرفأ بيروت ومرفأ حيدر باشا في إستنبول، ومرفأ غلطة وطوبهانه، وبناء سد كوجوك، وشغّل منجم الفحم، وبنىٰ محطة القطار في حيدر باشا في إستنبول، ولم تزل موجودة تؤدي خدمتها حتىٰ العصر الحديث، ومد خطوط التلغراف حتىٰ المدينة المنورة، كما أنشأ خط التلغراف في بنغازي في ليبيا، وأسس شبكة المياه في منىٰ للحجاج، وبنىٰ القلاع في مكة المكرمة وبنايات أخرىٰ...، وضاعفت الدولة العثمانية من إنشاء البنوك والمشاريع الحديثة، وربطت أجزاء الدولة بـ ٣٠,٠٠٠ كم من خطوط البرق والهاتف، امتدت إلىٰ الحجاز واليمن والشام.

وبلغ عدد المرافق العامة التي بناها السلطان عبد الحميد (١٥٥٢) بناية، صرف عليها ما يقارب (٧٣) مليون ليرة ذهب، بما يعادل اليوم عشرات المليارات من الدولارات!

وحينما ذاع صيت المخترع (أديسون ١٨٤٧-١٩٣١م) في عهده، أرسل إليه السلطان عرضـًا بالمجيئ إلىٰ إسطنبول، والاستقرار فيها، وإجـراء بحوثه واختراعاته، مع كل

(١) صحوة الرجل المريض، ٧٢ بايجاز.

(٢) المصدر السابق/ ص١٢٧ بإيجاز

التسهيلات، ودفع أربعة أضعاف ما يحصل عليه في وطنه، ولكن أديسون اعتذر[١].

٦- **دعوته إلىٰ الجامعة الإسلامية**[٢]: وهي محاولة ذكية منه، لإنقاذ الدولة من السقوط بشدّ روابط المسلمين برباط الجامعة الإسلامية التي هي أمتن رباط.

ولو كانت دعوته بهذا الشمول والإخلاص والصمود قبل قرن لآتت أُكلها، ولكن ماذا يصنع، وقد أحاط بدولته الأعداء، وتوغلوا فيها إلىٰ الأعماق!

أدرك الخليفة الورع الذكي أن سقوط دولته مرتبط بضعف الوازع الإسلامي، فنادىٰ بالأمة الإسلامية من تركستان والصين والهند وسيبيريا وإلىٰ أواسط افريقيا وشمالها وشرقها، وإلىٰ الجزيرة والعراق والشام ومصر... بهذه الدعوة التي أيقظت الشعوب من سباتها ومن واقعها الحزين، فكان من نتائجها ما يأتي:

- إيقاف نشاط العلمانيين من الاداريين بوعي مضاد قوي، فكانت هجمة مضادة للعلمنة.
- ردع حكومات أوروبا التي لا يرعبها شيء كالإسلام، لاسيما روسيا، التي يقلقها أن ترىٰ المسلمين أمة واحدة تقف بوجهها.
- مواجهة الغزو الثقافي والفكري والعقدي الأوروبي، بما هو أقوىٰ منه وأحكم، وهو الإسلام، وإثارة العاطفة الإسلامية المضادة للغزو الغربي.
- استعادة الدولة الإسلامية قوتها الجديدة علىٰ السياسة العالمية.
- تقوية منصب الخلافة وردّ هيبته، وردّ ثقة المسلمين بدولتهم وتحبيبهم في نبيهم[٣]،

أسلوب الدعوة: جهّز الدعاة من مختلف جنسيات العالم، من دعاة العقيدة وعلماء الشريعة إسلاميين وسياسيين، وحاول تعريب الدولة العثمانية، باتخاذ العربية لغة الدولة، فلقيت محاولته معارضة شديدة من العلمانيين والقوميين، واهتم بالجوامع

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص١٢٩-١٣٠ بإيجاز

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٤٩٥-٤٩٨ باختصار

(٣) المصدر السابق/ ص٤٩٧، عن (السلطان عبد الحميد الثاني/ ص١٦٨

- ترميمها، وبناء الجديد منها، وأسهم في التبرعات لإحياء رسالة المساجد، واستمالة زعماء القبائل العربية، وشيوخ الطرق الصوفية، والعلماء، والإفادة من الصحافة وسيلة للإعلام عنها، واستحداث صحف خاصة لها، وضمّ نخبة من علماء العالم الإسلامي من العراق ومصر وسوريا وليبيا، منهم (جمال الدين الأفغاني)، الذي قلده السلطان رئاسة العمل في مشروع الجامعة الإسلامية، وقد سُحِر جمال الدين بدهاء السلطان وتقواه وأدبه ومنطقه، وكان جمال حينئذ منفياً من مصر من قبل الإنكليز المحتلين لها، فاستضافه السلطان[١].

وقاومت حكومتا بريطانيا وفرنسا (فكرة الجامعة الإسلامية)، وتعاونت في ذلك مع الصهيونية العالمية ويهود الدونمة، وعملوا علىٰ نقيضها بالدعوة إلىٰ الوطنية والقومية والطائفية[٢].

ونشر الخليفة مفهوم الجامعة الإسلامية في موسم الحج، وفي بغداد، وبلغ عدد الزائرين من الشمال الأفريقي وحده ٢٥,٠٠٠ رجل، نفث فيهم معاني الجهاد، وأهداف الجامعة، ومقاومة الاستعمار النصراني، مع تنسيق دعوي في إستنبول[٣].

وبلغ من خطورة الدعوة إلىٰ الجامعة الإسلامية أن المخابرات الفرنسية قالت: إنه بقدرة السلطان أن يجمع جيشاً محلياً في أي مكان لمقاومة الاعتداء[٤].

ومن الوسائل التي أعانته في دعم فكرة الجامعة الإسلامية طبعه الكتب الإسلامية - مكتبة الأحاديث النبوية - وتوزيعها في أرجاء العالم الإسلامي، وقد قرّب السلطان العلماء ورجال الفكر الإسلامي والدعاة، حتىٰ غدت إستنبول (مكة ثانية) يتقاطر عليها شخصيات العالم الإسلامي وصارت الوفود ترسل من إستنبول إلىٰ جميع الأقطار الإسلامية، لتحقيق

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٤٩٩

(٢) المصدر السابق/ ص٤٩٨-٥٠٠ بايجاز، عن (السلطان عبد الحميد الثاني)/ ص١٨١-١٨٣

(٣) المصدر السابق/ ص٥٠٣

(٤) المصدر السابق/ ٥٠٣، عن (السلطان عبد الحميد الثاني)/ ص١٩٦-١٩٧

أهداف الجامعة، استمر ذلك لمدة ثلاثين سنة متواصلة[١].

وكان من طموحات (الجامعة الإسلامية) **دعوة اليابان إلىٰ الإسلام**، انتصرت اليابان علىٰ روسيا عام ١٩٠٤م، وكان لهذا الانتصار فرحته الغامرة في الدولة العثمانية، وتمنىٰ كثير من رجال الجامعة الإسلامية أن ينتحل أبطال اليابان الإسلام، فشرع السلطان عبد الحميد محاولته التقّرب من اليابان، فقامت العلاقة بينهما، وقد اختار السلطان الدعاة لهذا المشروع بوفد إلىٰ اليابان علىٰ بارجة حربية، استقبلت اليابان الوفد بغاية من التكريم، ولكنها لم تكشف عن رغبتها في الدخول إلىٰ الإسلام، ثم ردت اليابان الزيارة إلىٰ إستنبول عام ١٨٨٠م برئاسة الأمير (هيي) أحد أقرباء الإمبراطور، فاهتم بهم السلطان غاية الإهتمام، واقترح إنشاء علاقات سياسية واقتصادية بينهما، ثم كانت الزيارة الثانية بصورة رسمية برئاسة ابن خال الإمبراطور (ميكادو)، وبالغ السلطان في اكرامهم وسلم رسالة إلىٰ الإمبراطور يقترح إقامة العلاقات السياسية المتبادلة، ويلمّح إلىٰ «أن اليابان علىٰ استعداد لمساعدة الدولة العثمانية ضد أي اعتداء عليها»[٢]، وكان ردّ السلطان بزيارة عثمانية (تربوية وتعليمية) تحمل العلم العثماني، تزور الموانئ التي يسكنها المسلمون حتىٰ يصلوا اليابان، استغرقت الرحلة قرابة السنة، وصلت الباخرة إلىٰ ميناء (يوكوهاما) ١٨٩٠م، واستقبلوا استقبالاً حاراً من اليابانيين، كما استقبلوا في جميع الموانئ الإسلامية، مكث الوفد ٣ أشهر، وداهمتهم في العودة عاصفة بحرية في بحر اليابان استمرت لمدة ٤٤ ساعة، تحطمت السفينة علىٰ أثرها علىٰ صخور سواحل أوشيما ولم ينج من الوفد البالغ عددهم (٦٠٧) شخصاً إلا (٦٩) شخصاً فقط وكان رئيس الوفد المشير عثمان باشا من بين الغرقىٰ[٣].

٧- **تأسيس مدارس العشائر**، في جميع الدول العربية، والتي كانت تستقبل طلابها كل

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان محمد علي/ ص١٩٥-٢٠٤ بإيجاز

(٢) المصدر السابق/ ص٢٠٣

(٣) المصدر السابق/ ١٩٥-٢٠٤ بايجاز

(خمس سنوات) علىٰ نفقة الدولة.

وكانت مناهجها شاملة العلوم الإسلامية واللغات العربية والفارسية والتركية والفرنسية والاجتماعيات، والصحة والمحاسبة والتدريب العسكري. وكان الخريجون يدخلون الخدمة العسكرية[(١)].

٨- **تطوير الجيش العثماني وتسليحه**[(٢)]: أدرك السلطان بعد الحرب الروسية العثمانية - ضعف جيشه - إزاءها وإزاء الجيوش الأوروبية المتطورة في سلاحها وتدريبها وأنظمتها، غير أن الخزانة كانت فارغة ومثقلة بالديون[(٣)]، وقد دُفع إلىٰ الحرب الروسية دفعـًا من قبل من سبقه، ومع ذلك، حرص علىٰ اتباع السياسة الاقتصادية التقشفية لإنفاذ جيشه وهو حامي الدولة المترامية الأطراف، فأتىٰ بالوسائل الكثيرة المعجزة في تقويته منها:

أ- ورث السلطان عبد العزيز من عهد السلطان عبد المجيد جيشـًا نظاميـًا قوامه ٥٠٠٠٠ جندي، ثم ارتفع في عهد السلطان عبد العزيز إلىٰ ١٨٠٠٠٠ جندي وتجهيزاته كاملة. كان عدد أفراد الجيش العثماني بحوالي ربع مليون جندي في الحرب الروسية، إزاء أكثر من نصف مليون تعداد جيوش الروس والصرب والرومان معـًا، واستطاع ان يطور الجيش ليصل تعداده إلىٰ سبعة جيوش، كل جيش من فرقتين[(٤)]• أصليتين وفرقتين احتياط، وفرقتين للحراسة، وفرقة فرسان وفرقة مدفعية، علمـًا أن الجيشين الثالث والرابع كان لكل منهما فرقة إضافية، كما شكّل في كل من الحجاز وطرابلس الغرب فرقة مستقلة، وأصبح الجيش العثماني يملك في حالة الدخول إلىٰ الحرب ٤٩ فرقة مشاة و٧ فرق من الفرسان و٥ فرق

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٥٠٨-٥١٠ باختصار، عن (تاريخ التربية التركية)، عثمان أولين/ ص٦١٤، ٦١٥، ٨٤، ١١٨٠، ١١٨٢ علىٰ التوالي، والسلطان عبد الحميد الثاني/ ص٢٧٢

(٢) المصدر السابق/ ص٢٠٠-٢٠٤ بايجاز

(٣) وكانت ديونها مع الفوائد ٢,٥٣٨,٠٠٠,٠٠٠ مليون ليرة ذهب، غير أن السلطان بسياسته وحلمه وبعد نظره استطاع تخفيضها إلىٰ ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ مليون ليرة ذهب، وتخفيض الفوائد إلىٰ ١٪، وتقسيط الديون بما لا يثقل العثمانية، المصدر السابق/ ١٦٣.

(٤) •لم أعثر علىٰ عدد أفراد الفرقة للجيش العثماني أيام السلطان عبد الحميد في أي مصدر .

مدفعية، مع ٣ أفواج مستقلة من الفرسان و٣ أفواج مدفعية وطابور مدفعية.

أظهر هذا الجيش القدرة الفائقة في اكتساحه الجيش اليوناني وتدميره في حرب خاطفة لمدة شهر واحد.

ب- قام بتحصين المواقع الحساسة في مضائق إستنبول وجناق قلعة، ولولاها لما استطاع الجيش العثماني إحراز النصر في معركة جناق قلعة المشهورة في الحرب العالمية الأولىٰ ضد الجيش البريطاني وحلفائه.

ت- بدأ بتطوير صنع المدافع والبنادق في المعامل العثمانية، واهتم بها اهتماماً بالغاً، كما نجح في بناء الغواصة.

ث- عزز تحصين المواقع الحساسة في مضايق إستنبول وجناق قلعة، وغيرها.

ج- اعتمد علىٰ ألمانيا في تدريب الجيش علىٰ الأصول الحديثة في الحروب، وهيأ الأعداد الكثيرة من الضباط الأكفاء للجيش.

ح- تسلّم السلطان عبد الحميد ٣٩ سفينة حربية من عهد عمه السلطان عبد العزيز، فرفع أعدادها إلىٰ ٨٥ سفينة حربية، و ٧٩ سفينة مساعدة، واشترىٰ من ألمانيا طوربيدين كبيرين ومن فرنسا وإنكلترا ستة زوارق طوربيد. وكان أسطوله البحري أقوىٰ أسطول في العالم بعد إنكلترا وفرنسا[١].

٩- الاهتمام البالغ بالوعظ والإرشاد: فأنشأ (معهد تدريب الوعاظ والمرشدين)، لإعداد الدعاة للجامعة الإسلامية، وجه الدعاة إلىٰ الصين، إذ كان في بكين وحدها (٣٨) مسجداً وجامعاً يدعون للخليفة عبد الحميد، وتُقرأ الخطبة باللغة العربية، ثم تترجم إلىٰ الصينية، وكذا في جميع مساجد الصين، وهي بالمئات، وتأسست في بكين جامعة إسلامية باسم (دار العلوم الحميدية، أو الجامعة الحميدية)، حضر افتتاح الجامعة آلاف من

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان محمد علي/ ص١٣١

المسلمين الصينيين، وبكىٰ الصينيون لفرحتهم، كما رفع علم الدولة العثمانية علىٰ بابها، أما في الهند فكانت آلاف الجوامع تقام فيها صلاة الجمعة، ويُدعىٰ للخليفة عبد الحميد، حتىٰ حين كانت الهند مستعمرة بريطانية، بعد فترة حكم المغول المسلمين لها[١].

١٠- **مجلس المشايخ ومدارس العشائر**: أنشأ السلطان هذا المجلس وأوقف له رواتب ضخمة، وهو يشمل العرب والأكراد والألبان، وحلّ بهذا المجلس من مؤامرات تفكك الدولة، واستقلال الأقليات عن الدولة العثمانية، كما أنشأ (مدارس العشائر العربية) في كافة الاقطار العربية، لتعليم وإعداد أولاد العشائر فيها، وكانت المدرسة في إسطنبول تمتدّ الدراسة فيها خمس سنوات، وفيها اقسامها الداخلية، وتتكفل الدولة بجميع مصاريفها، وبرامجها هي اللغة العربية والقرآن الكريم وعلومه، والرياضيات والتدريب العسكري واللغات العربية والتركية والانكليزية والفرنسية والفارسية والتاريخ والجغرافيا، ويدخل خريجوها المدارس العسكرية، يحصلون فيها علىٰ مراتب عالية في الجيش، يعودون بعدها إلىٰ ديارهم[٢].

١١- **سكك الحديد**[٣]: أنشأها في أنحاء كثيرة من الدولة العثمانية، لربطها ببعضها، لاسيما المدن المتباعدة، ولتسهيل مهمة الدفاع وحركة الجيوش.

أنجز مشروع سكة حديد دمشق - المدينة المنورة (٨١٤ ميلاً = ١٢٠٠ كم)، وهو يمتد إلىٰ إستنبول بطول أكثر من (٢٠٠٠كم).

اكتملت سكة الحديد في ١٩٠٨م، قبل إقصائه بسنة واحدة، وكانت بكلفة ٤,٢٨٣,٠٠٠ ليرة ذهب، منها ٣٢٠,٠٠٠ ليرة ذهب، من ماله الخاص، ومن شاه إيران ٥٠,٠٠٠ ليرة ذهب، وأكثر الكلفة من الهند، وكان مفروضـًا امتداد الخط إلىٰ مكة، ولكن الشريف حسين خشي علىٰ وظيفته أو أن يقدم العثمانيون علىٰ تعيين شريف لمكة من رجالهم، **وفي الحرب العظمىٰ**

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٥٠٩-٥١٠ بايجاز

(٢) المصدر السابق/ ص٥٠٨-٥٠٩

(٣) المصدر السابق/ ١٢٩، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٥١٠-٥١٦ باختصار

تعاونت القوات العربية مع البريطانية علىٰ تخريبه، ولم يزل معطلاً منذ أكثر من (١٠٠) سنة!! وكان ميسراً للحجيج، ووصل أول قطار إلىٰ المدينة المنورة من دمشق في ٢٢ آب ١٩٠٨م، وهو حلم ٣٠٠ مليون مسلم في العالم آنذاك، وهذا أحد الأسباب المهمة في إقصائه!

ومن فوائد هذا الخط إظهار تماسك المسلمين وارتباطهم بنداء الخليفة، كما قوّىٰ سياسة الجامعة الإسلامية التي قادها السلطان، وسهّل سفر الحجيج إلىٰ المدينة في أربعة أيام، بدلاً من ٤٠ يومًا براً، و١٢ يومًا بحراً، وتسهيل السفرات إلىٰ المنطقة العربية (مصر)، والمضايق - البحر الأحمر واليمن.

ولقد أنجزت ألمانيا هذا الخط الحديد، علىٰ أثر تقارب السلطان منها في زيارة رئيسها غليوم الثاني له الزيارة الأولىٰ عام ١٨٨٩م، وأغدق السلطان عليه وعلىٰ زوجته الهدايا بمقدار مليون ونصف ليرة ذهب، وتم الاتفاق معه علىٰ تدريب الجيش العثماني وتزويده بالسلاح الحديث، إضافة إلىٰ مشروع لسكة حديد، ثم الزيارة الثانية عام ١٨٩٨م، والتي شملت القدس كذلك، وقد أضاف السلطان إلىٰ مشروع سكة الحديد - من إستنبول إلىٰ المدينة، مشروعـًا آخر لربط إستنبول ببغداد والبصرة بسكة حديد مع ألمانيا عام ١٩٠٢م، إضافة مع ما يشكله ذلك من خطورة للتقرب إلىٰ الهند والمضايق التي هي في طريق الهند، وتهديد مصالح الاستعمار البريطاني لها[١]. وبلغ اهتمام السلطان بسكك الحديد أن ضاعف مجموع خطوطها من ١٣٠٠كم إلىٰ ٤٥٠٠كم، رغم ثقل الديون عليه .

١٢- مشروع جسر في إسطنبول تحت البحر: أوعز السلطان بتهيئة الخطط الهندسية لبناء جسر يوصل بين القسمين الأوروبي والآسيوي لمدينة إستنبول، كما كلف المهندس الأمريكي (فريدريك إستروم)، بتهيئة مشروع حفر نفق تحت مياه مضيق البسفور في منطقة

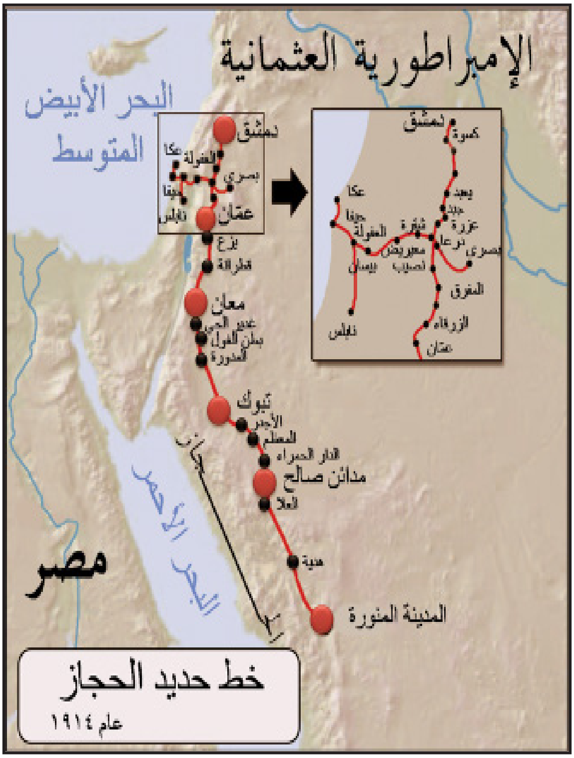
---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان محمد علي/ ص١٢٩-١٣٠ باختصار

أسكدار في إستنبول بربط قسميها، وهيّأ المهندس الأمريكي خرائط هذا المشروع الجريء، وكان النفق يستند إلىٰ (١٦) عموداً، ويمرّ فيه خط سكة حديد، ولكن خلع السلطان حال دون تنفيذ المشروع.

والآن تقوم شركات يابانية وتركية بتنفيذ هذا المشروع الذي سيكتمل عام ٢٠١٣ م إن شاء الله ، بعد أن قرر السلطان إنشاءه قبل أكثر من قرن من الزمن، وهكذا كان تخطيطه يسبق الزمن، ولكن العداء قد استحكم في الخارج والداخل، وكان أقوىٰ من طاقاته الإبداعية (ذلك تقدير العزيز العليم).

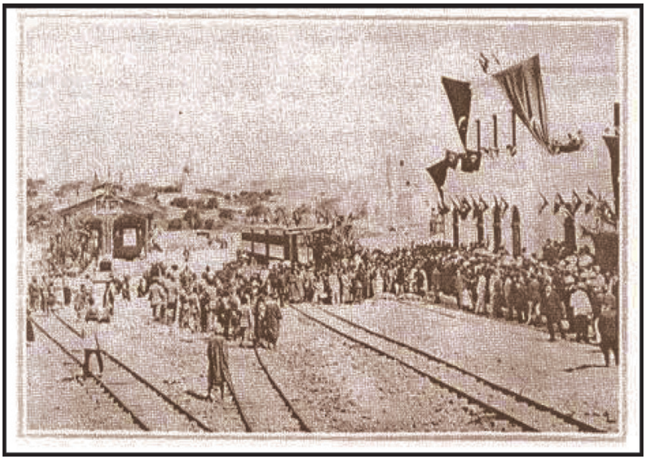
١٠٠ (١)



خط الحجاز عام ١٩١٤

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان محمد علي/ ص١٨٧

١٠١



صورة خط الحجاز

١٣- اهتمامه بالصحافة[(١)]: ابتدأ ظهور الصحافة في عهد السلطان محمود الثاني، وكانت بالفرنسية، وتخدم غير المسلمين، ثم ازداد عدد الجرائد في عهد السلطان عبد الحميد إلىٰ أكثر من (٥٠) جريدة ومجلة ، وأكثرها بيد الأقليات غير المسلمة (١٧ جريدة تركية، ٩ باليونانية، ٣ بالبلغارية، ٧ بالفرنسية، ١ بالألمانية ، ١ بالعربية ، ٩ بالأرمنية، ٢ بالعبرية ، ٢ بالإنكليزية)، وحتىٰ الجرائد التركية المسلمة كانت بأيد متفرنجة، مرتبطة بالخارج، عملاء لهم، وكانت تنفث سمومها في (الرجل المريض)، تحت شعار (حرّية الصحافة)، وانعكست خلالها منازعات الدول الأوروبية ومشكلاتها علىٰ الدولة العثمانية، بما أحرجها أمام الدول، وتمزيق الأمة، وخلق الشكوك بين الدول العظمىٰ إزاء الدولة العثمانية، مما حمل السلطان علىٰ إغلاق بعضها، ووضع البقية تحت رقابته، وأمر وزارة المعارف بتدقيق المقالات، وحذف ما لا يليق بالآداب والأخلاق، ووضع رقابة صارمة علىٰ الصحف الأجنبية، ومنع بعضها من الدخول، بسبب رقابته الصارمة.

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٥٠٣-٥٠٤

١٤- توحيد الطرق الصوفية[١]: وكان عددها (٧٠) طريقة، منها (المولوية والقادرية والشاذلية والرفاعية والخلوتية)، وغيرها، وربط جميع تكاياها بلجنة مركزية بمقر الخلافة، وجرت محاولات لتنقيتها من الخرافات والبدع والكسل والخمول والتواكل، وبث الروح والحياة فيها، وعمّر تكاياها وأنفق عليها الطعام، كما أرسل مجموعة من الزهاد والمتصوفة إلىٰ الهند والصين وإلىٰ جنوب أفريقيا وإلىٰ تركستان للدعوة إلىٰ الإسلام،.. وكان الصوفيون في عصره يؤمنون أن الخليفة هو الممثل لظلّ الله في الأرض، تجب طاعته، وهذه العقيدة قوة لحكمه.

ومن نجاح هذه الفرق الصوفية دعوتها إلىٰ الإسلام وإلىٰ الجامعة الإسلامية، غير أن انحراف الكثير منها عَقديًا وجمود العقول علىٰ التقليد الأعمىٰ وعلىٰ كثير من الخرافات والبدع والدَّجل... أضر بالخلافة في منحنىٰ السقوط الذي كانت تنحدر إليه.

وكان أكثر الصوفية مغلقين علىٰ الذكر البدعي.

غير أن الخليفة حرص علىٰ إصلاح الصوفيين وتنقية بعضهم من البدع والخرافات التي هيمنت علىٰ سلوكهم الحياتي، ولكنه لم يحاربهم، لأنهم رغم فساد الكثير منهم يمثلون الاتجاه «الإسلامي» الذي يفيد منه بالقَدْر الذي يعينه في ظروفه الصعبة، التي وَرِثها عمن قبله، ولها رصيدها الواسع في الشعب، كما وحَّد بين الطرق الصوفية - القادرية والشاذلية والمدنية وغيرها بعمل موحد يخدم سياسته التي تجمع ولا تشتت «القوىٰ الإسلامية» تحت إمرته.

وقد أفاد السلطان من إضافة (الدراويش) إلىٰ جهاز المخابرات (الجورنالجية) - (الشرطة السرية)، علىٰ نهج جده السلطان محمود الثاني[٢].

١٤- عُني بإصلاح الحرمين، وترميم مساجدها وزخرفتها، واستمال علماءها، وكوّن حرسًا مسؤولين فيها، ومنح وظائف عليا لهم، لكسب الشعوب الإسلامية..

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان محمد علي/ ص١٢٠-١٢٢ بايجاز

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٤٨٣

المطلب السابع
التمردات والحروب في عهده

١- تمردات البلقان:

حصلت في الجبل الأسود والصرب والبوسنة والهرسك والبلغار،.. دعمتها النمسا وروسيا وألمانيا وفرنسا وإنكلترا، وهكذا فإن الكفر ملة واحدة، وهو أبداً ضد الإسلام وأهله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾[(١)]، ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[(٢)].

أخمدت هذه الحركات، فاتخذت أوروبا إجراءات التصدي لها وإخمادها ذريعة لاتهام الدولة العثمانية بالمجازر، واستمروا بإمداد المتمردين، مع نشر الإعلام للأخبار الملفقة علىٰ نطاق واسع، وانتهت بموافقة الدولة العثمانية علىٰ سحب جيوشها من الصرب، علىٰ أن تبقىٰ تحت سيادة الدولة العثمانية، وكان هدف هذه الحركات القضاء علىٰ الدولة العثمانية في السنة الأولىٰ أو الثانية من تولي السلطان الحكم[(٣)].

٢- الحرب الروسية:

كان حلم بطرس الأكبر (١٦٢٧-١٧٢٥م)، قبل قرن ونصف من خلافة السلطان عبد الحميد، وهو ضرورة محو الدولة العثمانية من الوجود، وقد نصّ علىٰ ذلك بوصيته، ثم اقتسام العالم بينه وبين النمسا، فأعلنت روسيا الحرب علىٰ الدولة العثمانية في السنة الأولىٰ من خلافته، كما أعلنت الدولة العثمانية الحرب علىٰ روسيا، بضغط من مجلس المبعوثان في ٢٤/ ٤/ ١٨٧٧م، وبسبب الاضطرابات في البلقان، وأعلنت ألمانيا والنمسا وايطاليا الحياد لمصالحها[(٤)].

---

(١) سورة البقرة/ ٢١٧

(٢) سورة النساء/ ١٠١

(٣) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٤٨٤-٤٨٦

(٤) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان محمد علي/ ص٩٨-١٠٢، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٤٨٧-٤٩٠ بإيجاز

١٠٢



رسم هزلي من مجلة الملكة البريطانية يعود لتاريخ ١٧ يونيو سنة ١٨٧٦ ، يصوّر الإمبراطورية الروسية بهيئة رجل ، علىٰ وشك أن تُطلق «كلاب الحرب» البلقانية علىٰ الدولة العثمانية ، بينما بريطانيا ممثلة بهيئة شرطي ، تحذرها من مغبة عملها ، أعلنت الصرب والجبل الأسود الحرب علىٰ الدولة العثمانية في اليوم التالي لنشر هذا العدد من المجلة

١٠٣



إخلاء المسلمين لمدينة نيكوبول البلغارية بعد سقوطها بيد روسيا ، وفق ما نصت عليه معاهدة سان ستيفانو

٣- الحروب في الجانب الأوروبي[١]:

صَدّت الجيوش العثمانية هجومين علىٰ بلغاريا باتجاه صربيا في **معركتي بلفنا الأولىٰ** (١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م)، وكان الجيش الروسي ٢٥٠٠٠٠ مع ٨٠٠ مدفع، والاحتياطي لا يحصىٰ لكثرته، إضافة إلىٰ قوات رومانيا ٥٠٠٠٠ جندي، إضافة إلىٰ قوات الصرب، وكانت الجيوش العثمانية ٢٠٠٠٠٠ جندي، فقد الروس فيها قرابة ٣٠٠٠ جندي، **ثم المعركة الثانية في** ١٨٧٧م، انتصر فيها العثمانيون كذلك بقوة ٣٢٠٠٠ جندي يساندهم ٦٨ مدفعاً ضد ٥٠,٠٠٠ جندي روسي يساندهم ١٨٤ مدفعاً، وفقد الروس ٧,٣٠٠ جندي مقابل استشهاد ١٠٠ جندي عثماني مع ٤٠٠ جريح،

ثم قاد المعركة الثالثة القيصر نفسه، بجيوشه الكثيفة ١٠٠,٠٠٠ جندي، ومع ٤٣٢ مدفعاً، وانضمت اليه رومانيا بجيش قوامه ٥٠,٠٠٠ جندي، مقابل ٣٠,٠٠٠ جندي عثماني، معهم ٥٨ مدفعاً فقط، واستمرت المعركة أربعة أيام في أقسىٰ معارك التاريخ، وذلك في نفس العام للمعركتين الأولىٰ والثانية، انتهت المعركة بهزيمة ساحقة للجيش الروسي بخسارة ٣٥٣ ضابطاً، بينهم ٣ جنرالات و ١٥٢٠٠ جندي - وتذكر بعض المصادر الغربية خسائر الروس في المعارك الثلاث بـ ٥٠,٠٠٠ قتيل وجريح، مقابل ٣-٤ آلاف شهيد وجريح عثماني.

بعد هذه الانتصارات الباهرة أنعم السلطان علىٰ المشير عثمان باشا بطل معركة بلفنة بلقب (الغازي)، مما أثار مشاعر الغيرة لدىٰ القواد الآخرين، ولم يقدموا أية خطوة ايجابية له!

أما معركة (بلفنة) الرابعة: فقد جرت عام ١٨٧٨م/ ١٢٩٥هـ، حيث بدأت بحصار الروس بجيوشهم بعدد ١٥٠٠٠٠ جندي للجيش العثماني في مدينة بلفنة، واستطاع العثمانيون اختراق الخط الأول للمحاصرين، وبعده الخط الثاني، واستولوا علىٰ المدافع فيه، واصيب القائد عثمان باشا عند الخط الثالث، ونخر الجوع والبرد وقلة الذخيرة به،

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان محمد علي/ ص١٠٠

وانتشرت الأمراض في الجيش المنهك، وضحىٰ بـ ٢٥٠٠ شهيد، و٣٥٠٠ جريح غير ان اشاعة خبر جرح القائد العثماني (عثمان باشا) في المعركة وقتل جواده، فاضطر القائد إلىٰ الاستسلام حتىٰ لا يفنىٰ جيشه، وانتهت هذه الملحمة الرابعة التي استمرت قرابة خمسة أشهر بسقوط بلفنة، حيث فتح الطريق إلىٰ إستنبول، فأسهم الصربيون واليونانيون والبلغار مع الروس باحتلال (نيس، والجبل الأسود، وتساليا، وصوفيا وفيلينا، ثم أدرنة) حتىٰ وصلوا إلىٰ ضواحي إستنبول[١]

وهذه ثمرة الحرب التي دفع مدحت باشا وأنصاره الدولة العثمانية عن طريقها إلىٰ الهاوية.

استقبل الأرمن الجيوش الروسية، يطلبون استقلال أرمينيا عن الأنضول، كما ذهب وفد برئاسة البطريك (ترسيس) لتهنئة القائد الروسي في النصر!

هدنة أدرنة:

طلب السلطان عبد الحميد الهدنة من الروس، كما وسّط ملكة بريطانيا، فأرسل رئيس وزراء بريطانيا دزرائيلي أسطوله إلىٰ بحر مرمرة، ووقعت الهدنة للحرب بين روسيا والدولة العثمانية التي استمرت تسعة أشهر، وامتلات مساجد إستنبول ومدارسها بمئات الآلاف من المهاجرين المسلمين الذين فرّوا من الذبح في البلقان وبلغاريا بمئات الألوف كذلك[٢]

تعطيل مجلس النواب (المبعوثان):

بسبب التهم المفتراة علىٰ الخليفة والمسؤولين، وأقرّ (بسمارك) تعطيل المجلس بسبب تعدد القوميات فيه، وحدوث الفوضىٰ، فأعطىٰ السلطان عبد الحميد إجازة لأجل غير محدود عام ١٨٧٨م/ ١٢٩٥هـ، وأعلن اقتداءه بالسير علىٰ خطىٰ جده السلطان محمود، بالسير علىٰ طريق القوة في خدمة الامة، وعدم السير علىٰ نهج والده السلطان عبد المجيد في اللين[٣].

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص١٠١-١٠٢ بإيجاز

(٢) المصدر السابق/ ص١٠٢-١٠٥ بإيجاز

(٣) المصدر السابق/ ص١٠٣-١٠٤ بإيجاز

١٠٤



بطل معركة بلفنة الغازي المشير عثمان باشا[١]

معاهدة سان استيفانو: في سنة ١٨٧٨م وقعت معاهدة سان استيفانو، من وزير خارجية تركيا صفوت باشا، والجنرال أغناتيف من الجانب الروسي، وكانت من أسوأ المعاهدات في تاريخ الخلافة العثمانية، وقعها صفوت باشا وهو يبكي، وهي مؤلفة من ١٩ بنداً أهمها دفع (مليار وعشرة ملايين روبل، كانت تعادل يومئذ ١٦٤ مليون ليرة ذهب عثمانية)، واستقلال بلغاريا إلىٰ بحر إيجة، واستقلال الصرب والجبل الأسود، مع زيادة مساحتها، واستقلال رومانيا، وتنازلت عن جنوب بساربيا لروسيا، واستيلاء روسيا علىٰ قارص وباطوم، وعلىٰ البحر الأسود من الأنضول، مقابل تنازل روسيا عن مليار وعشرة ملايين روبل، وهي الغرامة

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان محمد علي/ ص١٠٠

التي فرضت روسيا عليها[١]. وطلب القائد الروسي العام أثناء المباحثات بست قطع بحرية في الأسطول العثماني موجودة في البحر الاسود، غير ان السلطان أقسم بالله بأنه لن يتنازل عنها، وإن اقتضىٰ التضحية بنفسه عام ١٨٧٨م، ثم تنازل القائد الروسي عن طلبه.

اضطر العثمانيون في هذا الظرف القاسي إلىٰ توقيع صفوت باشا وزير خارجية تركيا معاهدة (سان استيفانو) (أياستيفانوس) عام ١٨٧٨م، كما وقعها الجنرال أغناتيف من الجانب الروسي، وكاد العدو يحتل إستنبول، والتي وضع شروطها الروس، لولا أن أرسلت بريطانيا أسطولها الحربي إلىٰ جزيرة (بيوك اده) في بحر مرمرة، تهديداً لروسيا إذا حاولت احتلال إستنبول، بإعلان الحرب عليها، وأهم شروطها، وهي التي لم تطبّق أبداً:

- استقلال الجبل الأسود وصربيا وبلغاريا ورومانيا.
- حماية الدولة العثمانية للأرمن والنصارىٰ.
- تدفع الدولة العثمانية غرامة حربية (٢,٥) مليون ليرة ذهب، ويمكن لروسيا احتلال أراضٍ مقابل هذا المبلغ، وهي (قارص وباطوم وارداهان) من أراضي الأنضول، مقابل تنازل روسيا عن مليار ومئة مليون روبل، وهي الغرامة التي فرضتها روسيا علىٰ تركيا.

غير أن السلطان عبد الحميد بوسائله الدبلوماسية الذكية لم يصدق هذه المعاهدة من خلال اتفاقه مع إنكلترا إذ أعطاها قبرص مقابل تصديقه علىٰ معاهدة مع إنكلترا بالدفاع المسلح عن الدولة العثمانية إذا هاجمتها روسيا من شرقي الأنضول[٢].

مؤتمر برلين[٣]: وهو المؤتمر الذي يمثل تدهور الدولة العثمانية، لقد وافقت روسيا علىٰ عقد مؤتمر برلين، بتشجيع من بسمارك، ورئاسته في ١٣/٦/١٨٧٨م/ ١٢٩٥هـ، لإعادة النظر في شروط المعاهدة السابقة، وقد اشتركت فيها (الدولة العثمانية وروسيا

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان محمد علي/ ص١٠٥-١٠٧ بإيجاز

(٢) المصدر السابق/ ص١٠٥-١٠٦

(٣) المصدر السابق/ ١٠٧-١٠٩ بإيجاز، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٤٩٢-٤٩٣ بإيجاز

وبريطانيا وألمانيا والنمسا وفرنسا والمجر وإيطاليا)، استمر المؤتمر شهراً كاملاً في عشرين جلسة، قرر ما يأتي بإيجاز:

١- أعيدت مقدونيا إلىٰ الدولة العثمانية،

٢- قسمت بلغاريا إلىٰ شمالية وجنوبية، باستقلال ذاتي للشمالية علىٰ أن تدفع ضريبة سنوية للدولة العثمانية، واستقلال الجنوبية تحت سيادة الباب العالي،

٣- أعطيت البوسنة والهرسك للنمسا،

٤- منحت رومانيا والصرب والجبل الأسود الاستقلال،

٥- أعطيت بساربيا فقط لروسيا،

٦- إجراء الإصلاحات في أرمينية ومكدونيا،

٧- خفضت تعويضات الحرب المفروضة علىٰ العثمانية إلىٰ (٨٠٢,٥٠٠,٠٠٠ مليون فرنك ذهبي، أي ثلثي المبلغ السابق في المعاهدة السابقة)، تدفع بأقساط ٣٥٠,٠٠٠ فرنك سنويًا، واستمر الدفع طيلة حكم السلطان عبد الحميد،

٨- أعطيت قبرص إلىٰ إنكلترا[١]،

٩- فرنسا لم تحصل من الغنائم علىٰ شيء، ولكنها من خلال الكواليس أن يكون نصيبها (تونس)، واستولت عليها بعد ٣ سنوات، واقتطع من الدولة العثمانية في القسم الأوروبي ١٦٦,٠٠٠كم^2 كان يعيش فيها خمسة ملايين نسمة، كما اقتطع من الأنضول ٤٦,٠٠٠ كم^2 كان يعيش فيها مليون نسمة[٢].

٤- **الحروب في الجانب الآسيوي**[٣]: وصل الروس إلىٰ الأنضول، هزمهم العثمانيون، وطاردوهم داخل أراضيهم، وانتصروا عليهم في أكثر من ست معارك، ثم عادوا بهجوم كثيف

---

(١) كانت (قبرص) إعادة مؤقتة لبريطانيا، حتىٰ بدء الحرب العالمية الأولىٰ، حيث تحولت إلىٰ احتلال دائم.

(٢) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان محمد علي/ ص١٠٨-١٠٩ بإيجاز

(٣) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٠٥

سابع انتصر عليهم العثمانيون كذلك، غير أنهم احتلوا بعض المواقع في الأناضول.

٥- **المسألة المصرية**: فتحت قناة السويس في عهد السلطان عبد العزيز، بامتياز منه عن طريق الرشوات الثمينة له، فاستدان مبالغ ضخمة بلغت مئة مليون جنيه ذهبي، صرفها علىٰ حياة البذخ والترف وبناء القصور، مما اضطر الخديوي إسماعيل إزاء هذه الديون أن يعرض أسهم القناة التي يملكها للبيع وهي ٤٤٪ من مجموع أسهم القناة، **وكانت فرنسا هي التي شقت القناة ترغب بشرائها**، غير أن دزرائيلي - رئيس وزراء بريطانيا سبق فرنسا في شراء الأسهم، وبثمن بخس، إلاّ أن هذه المبالغ لم تكف لتسديد الديون.

عزل السلطان الخديوي إسماعيل لسياسته المنحازة ضد المصريين الذين التفوا حول أحمد عرابي وعين مكانه ابنه محمد توفيق ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م، تشكلت الوزارة المصرية برئاسة أحمد عرابي، ورقّاه السلطان عبد الحميد إلىٰ رتبة لواء، وأنعم عليه بلقب الباشا وبوسام الحميدية من الدرجة الأولىٰ، فاهتم بالجيش وطهّره من الأجانب، مما حمل إنكلترا وفرنسا علىٰ حشد سفنها الحربية أمام الاسكندرية، ثم قصفت الأساطيل الحربية البريطانية الاسكندرية لعدة ساعات، وأنزلت جيوشها واحتلتها عام ١٨٨٢م، ودخلت القاهرة، بعد انتصارها علىٰ جيش (أحمد عرابي) في معركة (التل الكبير)، وهكذا استعمر الإنكليز مصر بحجة إزالة القلاقل وحماية مصالح الأوربيين، وزعمت كذبا أن ذلك يمس بتبعيّة مصر للدولة العثمانية[١].

ثم إن السلطان أنشأ مدينة (بئر السبع) عام ١٩٠١م في منطقة استراتيجية بين غزة والبحر الميت، تشرف علىٰ سيناء، وعلىٰ طريق خط الحجاز، قريباً من مصر المحتلة من قبل إنكلترا، وقد أثبتت هذه المدينة أهميتها الاستراتيجية في الحرب العالمية الأولىٰ عندما خسرت إنكلترا ١٠,٠٠٠ جندي في المعركة التي نشبت بين الجانبين هناك، وذلك بتخطيط السلطان عبد الحميد بعيد المدىٰ، الذي أبقىٰ (العقبة) بعد تثبيت الحدود المصرية ضمن

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان محمد علي/ ص١٦٠-١٦٢ باختصار

الحصة العثمانية ثم ضمّ إليها مدينة (طابا)، للمساومة عليها فيما بعد، وحدثت مشكلة عسكرية بين الجانبين انتهت بإرجاع طابا إلىٰ مصر، واحتفظت العثمانية بالعقبة[١].

٦- **تآمر شريف مكة عليه**[٢]: علم بتآمره وخيانته له، وهو (الشريف حسين)، وظهر اقتراح إنكلترا (إعلان الشريف حسين) أمير مكة خليفة للمسلمين، فحجزه عنده في إسطنبول، بتعيينه في (مجلس الشورىٰ) للدولة في إسطنبول، ليمنعه من العودة إلىٰ مكة، بسياسته الحكيمة.

ولقد تأخر قيام الثورة العربية بقيادة الشريف حسين، بعد خلع السلطان، من قبل الاتحاديين الذين أعادوه إلىٰ مكة، متحالفاً مع الإنكليز ضد الأتراك المسلمين، الذين دافع جيشهم عن القدس الشريف - هكذا كانوا يسمونها - ضد الإنكليز والعرب واليهود مجتمعين[٣]، وكانت ضحايا الأتراك المسلمين ٢٥,٠٠٠ جندي تركي مسلم، ما بين شهيد وجريح!

٧- **اقتسام أراضي الدولة العثمانية**: احتلت فرنسا الجزائر ١٨٣٠م، في عصر السلطان محمود الثاني، ثم احتلت بريطانيا قبرص ١٨٧٨م، في أوائل حكم السلطان عبد الحميد الثاني، ثم احتلت فرنسا تونس ١٨٨١م، نظير احتلال بريطانيا لقبرص، واحتلت مصر ١٨٨٢م، وادّعت احتلالها مؤقتاً.

كشفت الاستخبارات العثمانية المخطط الإيطالي السري لاحتلال ليبيا، فأرسل الخليفة ١٥,٠٠٠ جندي إليها، مما حدا بإيطاليا إلىٰ تأجيل احتلالها إلىٰ ما بعد إقصاء السلطان،

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان محمد علي/ ٢٢١-٢٢٣ باختصار شديد

(٢) ترجمة حياته: (الشريف حسين: كان عضواً في مجلس شورىٰ الدولة في استنبول، من القادة العرب المحنكين، الخائن للخلافة العثمانية، وكان له دور سياسي عربي خفي ضد السلطان عبد الحميد، الذي لم يطمئن إليه، وقال فيه: (إن الشريف حسين لا يحبنا، إنه الآن هادئ وساكن، ولكن الله وحده يعلم ماذا يمكن ان يفعله الشريف غداً)، فحجزه في إستنبول، ولكن حزب الاتحاد والترقي الماسوني أعاد الشريف حسين إلىٰ مكة بعد خلع السلطان عبد الحميد، ثم إنه تحالف مع الإنكليز واستطاع ان يحدث فجوة كبيرة بين مسلمي العرب والأتراك). الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٥١٥-٥١٦، عن (السلطان عبد الحميد الثاني)، أورخان محمد علي/ ص٢٢٧

(٣) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٤٩٦

واحتلت إيطاليا (ألبانيا)، ثم احتلت الحبشة وجزءاً من الصومال (أغادير)[١].

١٠٥



الاستعمار الاوربي للوطن العربي

المطلب الثامن

المشكلة الأرمنية

نبذة تاريخية:

سكن الأرمن الأناضول قبل مجيء الأتراك إليها، وكانوا علىٰ طريق الفاتحين الإسكندر الكبير، وفي منطقة النزاع بين الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، مما حدا بهم إلىٰ الهجرة والتشتت، واضطهدوا كأقليات في تاريخهم القديم، وافتتنوا في دينهم - مع الفرس تحويلهم عن النصرانية، ومع البيزنطيين تحويلهم إلىٰ المذهب الأرثوذكسي، ومحاربة لغتهم وثقافتهم.

ثم صاروا تحت الحكم الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين، إذ كانت أذربيجان تحت ولاية الأشعث بن قيس عند وفاة عثمان (رضي الله عنه) وقبل وفاة علي (رضي الله عنه)

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٥١٨-٥١٩

الذي استبدل به سارية بن سعيد الخزاعي ثم اعيد الاشعث إلىٰ سجستان وضمت اليه ولاءه لأرمينيا[(١)] - واستمر الحكم الإسلامي للأرمن حتىٰ نهاية الدولة العثمانية أكثر من ثمانية قرون، وكانوا يتمتعون بحكم ذاتي مع احترام عقائدهم علىٰ مدىٰ التاريخ الإسلامي.

وكانوا يُعفَوْن من الخدمة العسكرية، مما حملهم علىٰ الانصراف للزراعة والتجارة والصيرفة، والصياغة[(٢)].

كانت الصداقة العائلية قائمة بودّ بين العثمانيين والأرمن، وما كان أرمني يتكلم بالأرمنية، وإنما هم جميعاً يتكلمون التركية، مع أن اللغة التركية كانت تعلم في المدارس بالحروف الأرمنية، بل حتىٰ القُداس كان يقام في الكنائس باللغة التركية، وكانت المناصب الحكومية مفتوحة للأرمن، ولقد أنشأ محمد الفاتح بطريركية أرمنية في عاصمة مملكته، كرماً منه من غير تدخل أجنبي[(٣)].

لقد كتب السلطان بخطه في (مذكراتي السياسية) عن حقيقة هذه المشكلة المفتعلة (شكاوىٰ الأرمن) ١٨٩١م: (شيء مضحك أن نُتهم بتعذيب الأرمن واستغلالهم، لو جال المرء بنظره في تاريخ إمبراطوريتنا لثبت لديه أن الأرمن كانوا دائماً أغنياء، الذين يعرفون حقائق الأمور يؤكدون تفوق الأرمن مالياً علىٰ رعايانا المسلمين، لقد تقلد الأرمن في جميع العهود المناصب الوظيفية في الدولة بما فيها منصب الوزير العظيم، ولا أكون مبالغاً أبداً إذا قلت إن ثلث الموظفين هم من الأرمن، وفيما عدا ذلك ليس علىٰ الأرمن الخدمة العسكرية شأنهم شأن باقي الرعايا، والبدل النقدي الذي يؤدونه رمزي، لا يكافئ أبداً الزمن الذي يمضيه المسلمون في الخدمة العسكرية، وتجارة الأرمن في وضع ممتاز.

وباستثناء الأرمن الذين يعيشون في جبال الأكراد عيشة بائسة، فإن الأرمن هم أغنىٰ

(١) تاريخ الطبري/ ٥/ ٦٠١، وفتوح البلدان، البلاذري/ ٢٠٧، وتاريخ ابن خياط/ ١٩٣

(٢) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان محمد علي/ ١٦٤-١٧٤ بإيجاز، وفي الأصل أسماء مسؤولي الأرمن في الدولة العثمانية تفصيلاً.

(٣) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص١٦٥

الرعايا بمن فيهم الروم، والحقيقة التي لا غبار عليها أن هؤلاء القوم يعرفون كيف يستفيدون من ثروات بلادنا)[١]، وكانت التجارة الممتازة محصورة فيهم.

لقد تقلد الأرمن مناصب رفيعة فكان منهم الوزراء ونوابهم والأعيان والنواب،

وقد اختير منهم عدد من الوزراء، منهم واحد للمالية ووزيران للخزانة، وأربعة وزراء للشؤون الاجتماعية، وثلاثة وزراء للبريد والبرق، ووزيراً للخارجية، بمجموع (١١) وزيراً. أما الأعيان، فكان منهم أربعة ، وأما النواب في عام ١٨٧٦م فكانوا تسعة في (المشروطية الأولىٰ)، وأما النواب في عام ١٩٠٨م فكانوا أحد عشر في (المشروطية الثانية). أما الأرمن الذين تسلموا مناصب مهمة أخرىٰ كالمدراء العاملين ومعاوني الـولاة والمتصرفين (المحافظين)، فعددهم أكثر من أن يُحْصىٰ[٢].

والمشكلة الأرمنية خلقتها روسيا لمصلحتها في إحداث الفوضىٰ في الدولة العثمانية من قبل أرمن قفقاسيا الروسية، في حين أن الأرمن في روسيا كانوا يرزحون تحت حكم قاس وظروف سيئة جداً، وكانوا في روسيا يؤخذون للجندية ويرسلون للخدمة في مناطق نائية عن بلدهم[٣].

ويقدر عدد الأرمن في الدولة العثمانية سنة ١٩٠٥م بمقدار ١,٢٩٥,٠٠٠ نسمة، أي بنسبة ٧٪ من سكان تركيا البالغين حوالي (٢٠) مليون عام ١٩٠٠م ، يقطنون علىٰ أراض عثمانية تقدر بحوالي نصف مساحة أوروبا[٤] كما يقول المصدر .

ويؤكد القنصل الفرنسي (M. Zarecki) في (وان) الواقعة شرق الأنضول أن نفوس الأرمن في العالم هو ثلاثة ملايين، قبل مئة وعشرين سنة من اليوم، يتوزعون في تركيا ١,٣٠٠,٠٠٠، وروسيا ١,١٠٠,٠٠٠، وأمريكا وبولونيا ومصر ورومانيا وبلغاريا ٥٠٠,٠٠٠، فكيف تقام دولة لهذه القلة، في قلب الدولة العثمانية؟!، وقد نصت معاهدتا

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني - مذكراتي السياسية/ ١٨٩١-١٩٠٨م - مؤسسة الرسالة/ ص٢٧-٢٨ بإيجاز

(٢) المصدر السابق/ ص١٦٩-١٧١

(٣) المصدر السابق/ ص١٧٥

(٤) المصدر السابق/ ١٧٠

سان أستيفانو وبرلين علىٰ منح حكم ذاتي للأرمن، غير أن السلطان رفض بإصرار تطبيق هذا البند، قائلاً: «إني أفضل الموت علىٰ أن أقبل ما يؤدي إلىٰ انفصال شرق الأناضول»، وهددت بريطانيا بشن حرب علىٰ الدولة العثمانية إن لم تجد تجاوباً مع الفقرة الخاصة بالأرمن في المعاهدة، رغم تحريك أساطيلها البحرية من الإسكندرية إلىٰ (جناق قلعة)، واستمالتها إليه فرنسا وروسيا، غير أنها ما لبثت أن غيرت سياستها وسحبت أساطيلها، أما روسيا فقد امتنعت عن التدخل في القضية الأرمنية وغيرت سياستها في بلادها إلىٰ اتباع سياسة القومية الروسية، وقد تحمل الأرمن عبء هذا الصراع، غير أنها ما لبثت أن غيرت سياستها، فحوربوا داخل روسيا في لغتهم وكنيستهم وقوميتهم وهكذا بقيت القضية الأرمنية ورقة في يد الإنكليز، يستخدمونها ضد العثمانية في كل حين[١].

الجمعيات الأرمنية المسلحة: تشكلت عام ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م أول جمعية أرمنية مسلحة بقيادة أرمني روسي اسمه (نازاريك) تحت اسم (خنجاك) لتشكيل دولة أرمنية بالصدام المسلح، من غير الاعتماد علىٰ تدخل الدول الأجنبية، ثم نزعوا منها جمعية (طشناق)، التي عملت علىٰ إثارة اضطرابات في عهد السلطان، نجم عنها حركات دامية ذهب ضحيتها الألوف من الجانبين، وقد اقتحم الأرمن الروس بمساعدة روسيا حدود الدولة العثمانية، وانضم اليهم الكثير من أرمن تركيا، وقد تسبب ذلك في إبعاد الأرمن المتمردين بمئات الألوف عن الأناضول إلىٰ سوريا ولبنان والعراق أو جنوب تركيا الحالية، وانتشر المرض بين المهجرين، حصد مرض التيفويد أرواح المئات[٢].

المطلب التاسع

المشكلة الكردية

بدأت مع نهاية دولة الخلافة العثمانية، حيث يقطن الأكراد قلب آسيا الصغرىٰ وشرقها في المنطقة الجبلية - جبال طوروس وزاغروس من البحر الأسود، حتىٰ سهول العراق، ومن

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص١٧١-١٧٣ بإيجاز

(٢) المصدر السابق/ ص١٧٥-١٧٦

طوروس حتىٰ الهضبة الإيرانية، وتحدهم شمالاً أرمينيا وجنوباً خانقين في العراق، وكرمان شاه في إيران، وهو شعب قديم عاصر أكاد وبابل وأشور، وأعدادهم اليوم في حدود (٣٠) مليون في الاحصائيات الشائعة غير الموثقة - (٥ في العراق،١٥ في تركيا، ١٠ في إيران، ٢ في سوريا ، ٢ في أرمينيا ، ٦ في العالم ، والمجموع (٤٠) مليون) تقريباً، وسبق أن اعتنقوا الإسلام علىٰ المذهب السني - الشافعي، عدا أقلية شيعية، وقلة من اليزيدية والنصارىٰ، وبرز من بينهم صلاح الدين الأيوبي بطلاً وقائداً إسلامياً مجاهداً[١].

ثم اجتذب العثمانيون الأكراد إلىٰ جانبهم في قتالهم جند الصفويين عام ١٥١٤م، في عهد السلطان سليم الأول، وأدخل السلطان محمود الثاني الكثير من الاصلاحات إلىٰ كردستان، مما أثار أمراء الأكراد، فنظموا الثورات ضد العثمانيين لمدة ربع قرن، ونادوا بالاستقلال واحتلوا جزءاً من كردستان الإيرانية بتشجيع من القياصرة الروس في نفس الوقت الذي ظهرت فيه النزعة الطورانية التركية والدعوة القومية العربية[٢].

وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني تم ربط رؤسائهم بالسلطان مباشرة واستمالهم واستخدمهم لقمع ثورة الأرمن، كذلك قاتل الأكراد خلال الحرب العالمية الأولىٰ إلىٰ جانب الأتراك تلبية لدعوة الجهاد، اعترفت معاهدة (سيفر) ١٩٢٠م بحقوق الأرمن والأكراد في اقامة دولة لكل منهما، تنفيذاً لحفظ الدول الغربية وروسيا، وتمزيق الدولة العثمانية، إلا أن معاهدة لوزان عام ١٩١٣م قضت علىٰ أحلام الأكراد، ثم تزعم الأكراد الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي (رحمه الله) باسم الإسلام، وليس باسم القومية الكردية، داعياً إلىٰ إعادة الخلافة التي أسقطتها الكمالية[٣].

المطلب العاشر

ومن عوامل الضعف من داخل الخلافة بإيجاز ما يأتي

أولاً - التراجع عن منهج الإسلام الأصيل وجوهر الإيمان وهو عماد قوتها مثل قبلها ،

---

(١) صحوة الرجل المريض/ ص٩٩

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٥١٦-٥١٧

(٣) صحوة الرجل المريض/ ص٩٩

وكان هذا التراجع في عصور بعض الخلفاء ، وكانوا قلة..

ثانيـًا– عدم إسناد كثير من المناصب إلىٰ الأكفاء في داخل تركيا وفي الدول التي كانت تحكمها ، وظهور ظاهرة الرشوة والمحسوبية والاختلاس في الإدارة بما أدىٰ إلىٰ ظهور حركات انفصالية ، قضي عليها في مهدها بعد أن أربكت الاستقرار، وذلك عند بعض الخلفاء.

ثالثـًا - تدخل النساء في شؤون الحكم ، ولهو بعض الحكام والخلفاء مع الحريم مما أضعفهم في قيادة الجيوش وفي عزائمهم الجهادية.

رابعـًا - تأخر الدولة عن ركب الحضارة الحديثة– بإهمالها أسباب القوة العسكرية ، بعد أن كانت هي رمز القوة في جيوش العالم وأقواها براً وبحراً بلا منازع ، في حين ظهرت الثورة الصناعية في أوربا ، علمـًا أنها كانت من أقوىٰ الجيوش في العالم حتىٰ قبيل نهايتها، وذلك في عصر السلطان عبدالحميد الثاني وقبله.

خامسـًا - جمود الخلافة علىٰ المذهب الواحد– الحنفي - مع سموّ مقامه ، وإهمالها لبقية المذاهب ، وتمسكها بالتقليد، وبعدها عن الاجتهاد، مما جعلها حائرة وجامدة إزاء حل المشكلات المستعصية التي كانت تظهر تباعـًا من غير حل (تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور) عثمان(رض).

سادسـًا - الامتيازات الأجنبية التي منحت للدول الغربية – لاسيما (انكلترا وفرنسا وروسيا) من قبل السلطان (سليمان ومن بعده إلىٰ السلطان أحمد) وهم أقوىٰ الخلفاء في منتصف عمر الخلافة، مما حملتها علىٰ التدخل في شؤون الدولة الداخلية مما أدىٰ إلىٰ تمرد كثير من الدول عليها.

سابعـًا– تكالب جميع الدول الأوروبية علىٰ الخلافة العثمانية، وكانت منتصرة عليهم مجتمعين في جميع الحروب ، حتىٰ في عصري الضعف والسقوط.

ثامنـًا - زواج بعض الخلفاء بغير المسلمات ولا سيما اليهوديات ، اللاتي أسلمن مما أدىٰ إلىٰ الاستجابة لهن - كسليمان ومراد الثالث.

تاسعًا - مشكلة الأقليات في المجتمع العثماني : وهي الأقليات الدينية الإسلامية والنصرانية واليهودية والأديان الأخرىٰ وأقليات اللغات والقوميات التركية والفارسية والسريانية والأرمنية والعربية والكردية وإن هذه الأقليات بفروعها الأربعين ، اضطربت أيام الضعف ، وخمدت أيام السلاطين الأقوياء ، لاسيما في ختام أيام ضعف الخلافة أيام السلطان عبدالحميد الثاني - الحاكم الحازم الرحيم.

المطلب الحادي عشر

الأقليات في المجتمع العُثماني

يكفي الدولة العثمانية حكمةً وفخراً أن مجتمعها كان من عشرات الأقليات دينـًا ولغة وقومية ومذهبـًا، وكانت متماسكة من خلال ورع المسلمين وخُلقهم في التعامل الإنساني، ومن خلال حكمة الخلفاء والسلاطين.

لكي ندرك خطورة الاتجاه الاستعماري في تقسيم أراضي الدولة العثمانية، يكفي أن ننظر إلىٰ تركيبة المجتمع العثماني الذي يتألف من عدد كبير من الأقليات، نذكر منها علىٰ سبيل المثال لا الحصر: (٥٠ أقلية منوعة من القوميات والمذاهب والأديان والطوائف واللغات)!!

- الأكثرية السنية التركية (الطورانية) الناطقة بها.
- الأكثرية العربية الناطقة بالعربية.
- الأقليات الإسلامية السنية - غير العربية والتركية.
- (الأكراد)، (القوقازيون)، (الشركس، والشوشان)، (الشيشان)، (البربر)، (الداغستان)
- الأقليات العربية الإسلامية غير السنية(وهم أكثر من ٤٠٪) :

* الشيعة * الاسماعيليون

* النصيريون (العلويون) *الدروز

- المسيحيون:

* روم أرثوذكس
* الموارنة
* روم كاثوليك
* الكاثوليك اللاتين
* سريان أرثوذكس (يعاقبة)
* الأقباط الكاثوليك
* الأقباط الأرثوذكس
* الكلدان الكاثوليك
* النساطرة (الآشوريون)
* البروتستانت: الأنجليكان[1]

● اليهود والطوائف الموسوية:

* الربانيون
* السبتيون
* شهود يهوه
* الدونمة
* السامريون

● أديان أخرىٰ:

* يزيديون
* بهائيون
* الصائبة (مندائيون)
* قاديانيون
* شباك
* بهرة[2]

● الأقليات غير السنية لغير الناطقين بالعربية:

● الناطقة باللغة الفارسية:

* الشيعة الفرس.
* بهائيون.
* يهود.

● الناطقة باللغة التركية:

* يزيديون
* سريان أرثوذكس

(١) صحوة الرجل المريض/ ص١٠٠
(٢) المصدر السابق/ ص١٠١

* شباك
* شيعة
* سريان كاثوليك
* يهود

- الناطقة باللغة السريانية:

* النساطرة (الآشوريون)
* الكلدان الكاثوليك
* السريان الأرثوذكس (يعاقبة)
* السريان الكاثوليك

- الناطقة باللغة الأرمنية:

* الارمن الأرثوذكس (الغريغوريون)
* الأرمن البروتستانت

- الناطقة باللغة العبرية
- الناطقة باللغة العربية

* اليهود[1]

- **الناطقة باللغة الكردية**

المطلب الثاني عشر

إبطال مخططات الأعداء[2]

أولاً – في العراق - بدأت بريطانيا بتحريض الأكراد ضد الدولة العثمانية ، في مطلع القرن التاسع عشر، لانفصالهم بدولة من أجل تقطيع العثمانية، وطاف الإنكليز بين عشائر الأكراد في العراق لتوحيدهم، وكانت المخابرات العثمانية تتابعهم، ووضعت خطة معاكسة تتمثل بما يأتي:

- حمت الأكراد من هجمات الأرمن الدموية ضدهم[3].
- أرسلت وفوداً من العلماء الدعاة إلىٰ عشائر الأكراد، لتوجيههم إلىٰ راية الجامعة

(١) صحوة الرجل المريض/ ص١٠١
(٢) المصدر السابق/ ص١٠٠-١٠٢ باختصار
(٣) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٥١٦

الإسلامية[١]، فاستيقظ الأكراد علىٰ خطر دعوة تقطيع أوصال الدولة العثمانية

ثانيًا - في اليمن: أنشأ الخليفة قوة عسكرية قوامها (٨,٠٠٠) جندي للقضاء علىٰ التمرد، ولإعادتها إلىٰ سيادة العثمانية مرة أخرىٰ، وقد استعيدت اليمن إلىٰ الحكم العثماني بعد أن أرسل أفضل قواده إليها، وتمكن من إفشال خطة الإنكليز في دعم تمردها، وكان الخليفة يخطط لمدّ سكة الحديد إليها بمشروع عثماني كبير، ولكنه لم يتحقق بإقصاء السلطان عن العرش[٢].

المطلب الثالث عشر

مدحت باشا والسلطان

ترجمة حياته

(اسمه أحمد شفيق) - كان مدحت باشا رئيس مجلس (شورىٰ الدولة) وهو من الشخصيات الغامضة في التاريخ، لقد كان مدحت باشا في ولاياته ناجحًا بمشاريعه في العراق ثلاث سنين وفي ولايته الدانوب (الطونه) وولاية دمشق ، ثم أزمير وقام بإصلاحات لا تنكر[٣].

غير أنه كان متكبراً مغتراً بقدراته ، معجباً بنفسه ، ليس له بُعْد في السياسة ، وهو الذي أوقع الدولة بكارثة رهيبة في الحرب الروسية معها، وهو فاشل في نظرته للدستور الذي علّق عليه الآمال في حماية الدولة من تدخل الدول الأجنبية، وكان يجهل أثر الانتخابات النيابية في تركيا، التي حوت عشرات الأقليات المتباينة متأثرين بأثرها في أوروبا ، نظراً لتنوع عشرات القوميات والعناصر والأديان والمذاهب، وفي ظروف تركيا الحرجة، هذا بالاضافة إلىٰ

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٥١٦

(٢) المصدر السابق/ ص٥١٧، عن (السلطان عبد الحميد الثاني)/ ص١٣١، ١٣٢، ٢٢٤

(٣) السلطان عبد الحميد، أورخان محمد علي/ ص١٣٣ بايجاز شديد، عن مصادر تركية

عمالته للدول الغربية وخيانته لدولته ، وهو الذي أسهم في خلع السلطان عبد العزيز بعد استشارته إنكلترا، ثم قتله![1]

أما سلوكه مع السلطان عبد الحميد فكان بتحدّ ووقاحة وتجهيل بعبارات لا تليق أن توجه لإنسان اعتيادي بلْهَ السلطان! علماً بأن السلطان قد بدأ بالاصلاحات، وأعلن المشروطية - «الدستور»، الذي تبناه (مدحت)! من خلال النظام البرلماني للحكم[2].

ومن جهله وخيانته اقترح وضع الصليب إلىٰ جوار الهلال في العلم العثماني[3].

نفي السلطان مدحت باشا من موقع (الصدر الأعظم) - الذي استمر فيه حتىٰ نهاية الحرب الروسية العثمانية – إلىٰ أوروبا، فاختار إيطاليا، وكان نشاطه ضد السلطان الذي أمده بالمال تكريماً لمقامه! ثم إنه استسمح السلطان بالعودة إلىٰ وطنه، فسمح له بالإقامة في كريت، ومنها عينه والياً علىٰ سوريا لمدة تقارب السنتين، ثم استعطف السلطان أن يرجع إلىٰ وطنه فعينه والياً علىٰ ولاية (آيدن) التي مركزها إزمير، وكانت من أهم الولايات[4].

حوكم مدحت باشا عام ١٨٨١م في محكمة (يلدز) علىٰ تهمة إسهامه بقتل السلطان عبد العزيز، بعد صدور الأمر باعتقاله، وهروبه إلىٰ القنصلية الفرنسية ملتجئاً إلىٰ دولة أجنبية، وهو الصدر الأعظم، ثم جيء به في ساعتها إلىٰ المحكمة، واعترف الذين نفذوا الجريمة بأنهم قتلوه بطريقة وحشية، بقطع شريان يده حتىٰ مات، وكان الذي قطع شرايين يده بسكين هو المصارع مصطفىٰ آغا - واعترف بذلك، كما اعترف بأن ثلاثة أسهموا في الجريمة، واحد أمسك بذراعه، واثنان جثما علىٰ ركبته وصدره، وكانت الجريمة بأمر من حسين عوني باشا وزير الحربية، وشهد عليه ثلاثة جوار في القصر، وكوفئ القتلة الثلاثة من رواتب عدة ليرات

(١) السلطان عبد الحميد، أورخان محمد علي/ ص١٣٤

(٢) المصدر السابق/ ص١٣٨، عن (السلطان عبد الحميد وعهد سلطته)، عثمان سنوري باشا/ ١/ ١٨٥

(٣) المصدر السابق/ ص١٣٩

(٤) المصدر السابق/ ص١٤٠

إلىٰ مئة ليرة ذهب شهرياً كرواتب الوزراء أو القواد!

ثم صدرت الأحكام في محكمة (قصر يلدز)، بعد جلسات علنية ثلاثة أيام بإصدار حكم الإعدام علىٰ كل من المصارعين الثلاثة وعلىٰ رشدي باشا ومدحت باشا والدامار محمود باشا والدامار نوري باشا وفخري بك وعلي نجيب بك.

تمهّل السلطان في المصادقة علىٰ هذه الاحكام، فشكل لجنة من كبار رجال المملكة وعلمائها وخولهم صلاحية التصديق أو التعديل، وصوّت ١٥ عضوا من أصل ٢٥ علىٰ التصديق علىٰ أحكام الاعدام، غير أن السلطان عبد الحميد خفف عقوبة الإعدام إلىٰ السجن المؤبد، وسيقوا إلىٰ سجن الطائف في ٨/ ٧/ ١٨٨١م، وتوفي مدحت باشا بعد ثلاث سنين، وقيل توفي بورم خبيث، وقيل بخنق، والسلطان بريئ من احتمال خنقه[١].

المطلب الرابع عشر

السلطان وتآمر اليهود علىٰ فلسطين[٢]

حاول اليهود بإصرار شديد ومن خلال مقابلات معه منذ ١٨٧٠-١٩٠٢م إقناع السلطان علىٰ السماح لهم بالهجرة إلىٰ فلسطين، فرفض بحزم في خمس محاولات مع زعيم الصهيونية (هرتزل)، الأولىٰ في ١٨٩٦م، والثانية في ١٨٩٨م، والثالثة في ١٩٠١م، والرابعة والخامسة في ١٩٠٢م، لم يسمح له بمقابلته إلا مرتين من خلال أربع محاولات، انتهت بالغضب الشديد عليه والطرد له عام ١٩٠٢م، واقترح هرتزل في مقابلته الأخيرة السماح لليهود باستعمار العراق مضافاً إليه حيفا[٣].

قال السلطان - نقلاً عن هرتزل - (لا أقدر أن أبيع ولو قدماً واحداً من البلاد، لأنها ليست لي، بل لشعبي، وسوف نغطي فلسطين بدمائنا قبل أن نسمح باغتصابها منا، ولو شرّح جسدي

(١) السلطان عبد الحميد، أورخان محمد علي/ ص١٤٣-١٤٤ باختصار

(٢) من يوميات هرتزل، ص٣٥، منشورات مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، ص٢٠-٢٥، التي تضم جميع مقابلاته للسلطان تفصيلاً.

(٣) المصدر السابق/ ص٢٠٦

بالمبضع أنملة أنملة، فليحتفظ اليهود ببلايينهم، فإذا قسّمت الإمبراطورية فقد يحصل اليهود علىٰ فلسطين دون مقابل، إنها لن تقسّم إلا علىٰ جثثنا)[١].

لقد تسلموها فعلاً، بعد الخيانة، من غير مال !!

وقد كانت العروض من قبل هرتزل كالآتي :

١- تغطية جميع ديون الإمبراطورية العثمانية.

٢- مسح جيولوجي كامل للمعادن في الإمبراطورية كلها، واستثمار مناجم المعادن فيها.

٣- تشييد أسطول بحري حديث للامبراطورية في البحر المتوسط.

٤- تشييد جامعة إسلامية في القدس للدراسات الإسلامية، لئلا يفسد أبناء المسلمين في دراساتهم خارجها!

٥- حل مشكلة الأرمن في أرمينيا[٢].

٦- إغراؤه بدفع ملايين من الليرات الذهبية إليه، ابتداءً بخمسة وثلاثين مليون ليرة ذهب، وانتهاء بـ(١٥٠) مليون، بما يساوي مئات المليارات من الدولارات اليوم، مع رشوة مليوني ليرة ذهب للسلطان، والإشارة إلىٰ تركها مفتوحة برغبة السلطان[٣]، غير أن السلطان في آخر مقابلة طرد هرتزل شرّ طردة، هو ورئيس الحاخامات، حين عرضا عليه ملايين الليرات الذهب، بل صكـًا مفتوحـًا بما يشاء، قائلاً لهما: **(لا.. إن الوطن لا يباع بالمال، لو دفعتم ملء الأرض ذهبـًا، فضلاً عن ١٥٠ مليون ليرة إنكليزية ذهبـًا، فلن أتنازل لكم عن شبر واحد من فلسطين، لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية**

(١) المصدر السابق/ ص٢٠٧، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٥٤٨، والسلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٢٠٤-٢١٢ بايجاز شديد

(٢) المصدر السابق/ ص٢٠٧-٢١١ باختصار

(٣) وكانت تساوي في وقتها المليارات من الدولارات، تستعيد بها الامبراطورية العثمانية قوتها، بعد ضعفها وانحلالها!

ما يزيد علىٰ ثلاثين سنة، فلن أسوّد صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين)[١].

٧- لقد حاول هرتزل رشوة السلطان بقوله : (أحب أن أعرض لجلالتكم بأننا مستعدون لتقديم الملايين التي ترونها مناسبة من الذهب حالاً من أجل القدس)!

٨- ويجيب السلطان في حديث إلىٰ أحد أصدقائه في المنفىٰ : (شعرت بالدم يطفر من رأسي، وتأمل، لقد وصلت الجرأة بهذين اليهوديين - هرتزل والحاخام معه إلىٰ عرض الرشوة في مقام سلطتنا! صرختُ بهما: أخرجا من هنا حالاً، إن الوطن لا يباع بالمال ، وبعد ذلك الوقت ناصبني اليهود العداء، .. ولقد ضحيت بعرشي من أجل فلسطين والقدس)[٢].

٩- ولقد كتب السلطان عبد الحميد وثيقة (سندخاقاني)، تمنع فيها الاستيطان اليهودي في فلسطين، بما تتضمنه الخلاصة التالية : (وكان خلاصة رأي السلطان في هجرة اليهود واستيطانهم في فلسطين ما ذكره أحد موظفي القصر (عزت بك) وتضمنته الوثيقة : إن السلطان مستعد أن يفتح امبراطوريته أمام اللاجئين اليهود من جميع الدول ، بشرط أن يتعهدوا بأن يصبحوا رعايا عثمانيين بجميع واجبات القانون والخدمة العسكرية، ليسكنوا في بلادنا ماعدا فلسطين بادئ الأمر، (والقدس مقدسة للمسلمين مثل مكة)، وأصدر السلطان ثلاث فرمانات، ذكر في ثالثها أن جميع الزوار الإسرائليين عليهم إيداع جوازاتهم لدىٰ موظفي الجوازات، والحصول علىٰ تذكرة زيارة أو إقامة لمدة (٣ أشهر) في فلسطين ويُخرج بالقوة من يخالف، ويعاقب الموظفون المتهاونون في هذا التشريع[٣]، ورغم ذلك فإن عدد المهاجرين اليهود المستقرين في فلسطين بلغ ٢٥,٠٠٠ يهودي خلال ٣٠ سنة[٤].

(١) السلطان عبد الحميد - حياته وأحداث عصره، أورخان محمد علي/ ص٢٤٠، عن رسالة السلطان إلىٰ صديقه (إبي الشامات) من منفاه في سلانيك كتبها في ٢٢/ ٩/ ١٣٢٩، ونصّ الرسالة طيًا،

(٢) المصدر السابق/ ٢٣٩

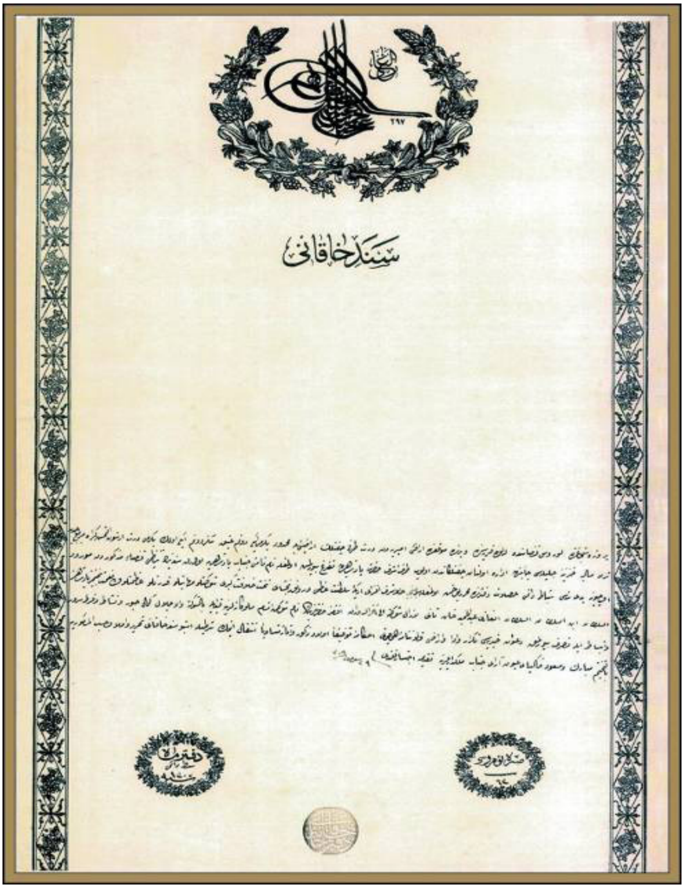
(٣) المصدر السابق/ ص٢٠٩، عن يوميات هرتزل/ ص١٧٢، ٢١٥، ٢١٦

(٤) المصدر السابق/ ص٢١٧، عن (موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧-١٩٠٩م)، الأستاذ حسان علي حلاق

المسجد الأقصىٰ:

لقد خطط اليهود لهدم المسجد الأقصىٰ بحفر أنفاق تحته منذ سنة ١٨٦٣م، أي منذ ١٥٠ سنة، ومازال الحفر قائمًا، ولم يكتشفوا أي أثر إسرائيلي، بإقرار علماء اليهود خبراء الآثار، ثم إنهم أحرقوا المسجد الأقصىٰ من قبل، وذلك لإقامة هيكلهم مكانه، وهو هيكل تعبدي لا روح فيه ولا ذوق في العمارة، ولا فخامة، ولا تطوير، وإنما يمثل بذوقهم وخيالهم ما كان عليه فن العمارة القديمة قبل ما يقارب ٢٠٠٠ سنة! حسب زعمهم حين هدمه تيطس ٧٠م.

١٠٦


سند خاقاني

وثيقة تعود للسلطان الكبير عبد الحميد الثاني لوقف الاستيطان اليهودي في فلسطين

المطلب الخامس عشر

وثيقة السلطان عبدالحميد

بين يدينا وثيقة تاريخية هامة بخط السلطان عبد الحميد الثاني - رحمه الله ، تتضمن رسالة كان قد وجهها السلطان بعد خلعه إلىٰ شيخه الشاذلي محمود أبي الشامات ، وفيها سر خلعه عن الخلافة ،

نشرها المرحوم الأستاذ سعيد الأفغاني في مجلة العربي الكويتية في عددها الصادر في شوال ١٣٩٢هـ الموافق كانون أول/ ديسمبر ١٩٧٢م وأعاد نشر مضمونها الأستاذ رفيق النتشة في كتابه (السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين) والدكتور موفق بني المرجة في كتابه القيم (صحوة الرجل المريض)، والباحث محمد علي شاهين في كتابه (قضايا القرن العشرين) ونقلها من مجلدات العربي المحفوظة من مكتبة مراجع أمانة عمان الكبرىٰ ، أما الترجمة العربية للرسالة فقد قام بها الشيخ أحمد القاسمي الدمشقي وإليك الرسالة المترجمة بالخط الطباعي الواضح :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم علىٰ سيدنا محمد رسول رب العالمين وعلىٰ آله وصحبه أجمعين والتابعين إلىٰ يوم الدين.

أرفع عريضتي هذه إلىٰ شيخ الطريقة العلية الشاذلية، إلىٰ مفيض الروح والحياة، وإلىٰ شيخ أهل عصره الشيخ محمود أفندي أبي الشامات، وأقبل يديه المباركتين راجياً دعواته الصالحة. بعد تقديم احترامي أعرض أني تلقيت كتابكم المؤرخ في ٢٢ مايس من السنة الحالية، وحمدت المولىٰ وشكرته أنكم بصحة وسلامة دائمتين.

سيدي: إنني بتوفيق الله تعالىٰ مداوم علىٰ قراءة الأوراد الشاذلية ليلاً ونهاراً، وأعرض أنني ما زلت محتاجا لدعواتكم القلبية بصورة دائمة

بعد هذه المقدمة أعرض لرشادتكم وإلىٰ أمثالكم أصحاب السماحة والعقول السليمة

المسألة المهمة الآتية كأمانة في ذمة التاريخ :

إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما، سوىٰ أنني ـ بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم (جون تورك) وتهديدهم ـ اضطررت وأُجبرت علىٰ ترك الخلافة. إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصروا علي بأن أصادق علىٰ تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة -فلسطين، ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف، وأخيرًا وعدوا بتقديم (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة إنجليزية ذهبـًا، فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضـًا، وأجبتهم بهذا الجواب القطعي الآتي : (إنكم لو دفعتم ملء الأرض ذهبـًا – فضلاً عن (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة إنجليزية ذهبـًا – فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي، لقد خدمت الملة الإسلامية والمحمدية ما يزيد عن ثلاثين سنة ، فلن أسود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين، لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي أيضـًا). وبعد جوابي القطعي اتفقوا علىٰ خلعي، وأبلغوني أنهم سيبعدونني إلىٰ سلانيك ، فقبلت بهذا التكليف الأخير.هذا وحمدت المولىٰ وأحمده أنني لم أقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة فلسطين. وقد كان بعد ذلك ما كان، ولذا فإنني أكرر الحمد والثناء علىٰ الله المتعال، وأعتقد أن ما عرضته كاف في هذا الموضوع الهام، وبه أختم رسالتي هذه.ألثم يديكم المباركتين، وأرجو وأسترحم أن تتفضلوا بقبول احترامي. سلامي علىٰ جميع الإخوان والأصدقاء.

يا أستاذي المعظم لقد أطلت عليكم التحية، ولكن دفعني لهذه الإطالة أن نحيط سماحتكم علمـًا، ونحيط جماعتكم بذلك علمـًا أيضـًا .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

في ٢٢ أيلول ١٣٢٩

خادم المسلمين

عبد الحميد بن عبد المجيد

١٠٧



من أقوال ومواقف .

السلطان عبد الحميد الثاني

(انصحوا الدكتور "هرتسل" بألا يتخذ خطوات جدية في هذا الموضوع، فإني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من أرض فلسطين ... فهي ليست ملك يميني ... بل ملك الأمة الإسلامية .. لقد جاهد شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه .. فليحتفظ اليهود بملايينهم ... وإذا مزقت دولة الخلافة يوماً فإنهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن ..

أما وأنا حي فإن عمل المبضع في بدني لأهون علي من أن أرى فلسطين قد بترت من دولة الخلافة وهذا أمر لا يكون . إني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة).

السلطان عبد الحميد الثاني
أستانبول ١٩٠١م

من أقوال ومواقف السلطان عبد الحميد

١٠٨

يا هو

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة واتم التسليم على سيدنا محمد
رسول رب العالمين وعلى آله وصحبه اجمعين والتابعين الى يوم الدين .
اشبو عريضه مى طريقت عليه شاذليه شيخى وجودلره روح وحياة
ويرن وعمله نك افنديسى بولنان الشيخ محمود افندى ابو الشامات حضرتلرينه
رفع ايديورم مبارك اللرينى اوپرك ودعالرينى رجا ايدرك سلام
وحرمتلرمى تقديم ايدر تشكر وعرض ايدرم كه . سنه حاليه شهر مايسك ٢٢نجى
كونى تاريخلى مكتوبى واصل اولدى . صحت وسلامتده دائم اولدوغكزدن دولايى
الله حمد وشكرلر ايتدم . افندم اوراد شاذليه قراءتنه ووظيفه شاذليه يه
الهك توفيقيله كيجه وكوندوز دوام ايديورم . وبو وظيفه لرى ادايه موفق
اولدوغمدن دولايى الله تعالى حضرتلرينه حمد ايدرم ودعوات قلبيه كزه دائما
محتاج اولدوغمى عرض ايلرم . بو مقدمه دن صكره شو مهم مسئله يى ذات
رشاد وتبنالرى عاليلرينه وذات ساحتيناهيلرينك امثال عقول سليمه صاحبلرينه
تاريخى بر امانت اولارق عرض ايدرمكه : بن خلافت اسلاميه يى هيچ بر سبب
ايچون ترك ايتمه دم . انجق وانجق ؛ جون ترك ؛ اسميله معروف ومشهور اولان
اتحاد جمعيتك رؤساسنك تضييق وتهديدلرى ايله خلافت اسلاميه يى تركه
مجبور ايدلدم . بو اتحادجيلر اراضى مقدسه ده فلسطينده يهود ديه
ايچون بر وطن قومى تأسيسنى قبول وتصديق ايتمكلكم ايچون اصرارلرنده
دوام ايله اصرارلرينه وتهديدلرينه باقمادن قطعيا بو تكليفى قبول ايتمدم
وبالآخره يوز اللى مليون التون انكليز ليراسى ويره جكلرينى وعد ايتديلر .

رسالة السلطان عبد الحميد الثاني التي بعثها من سلانيك إلىٰ الشيخ محمود أبو الشامات في دمشق يبين فيها أن خلعه عن العرش كان بسبب عدم قبوله الموافقة علىٰ إنشاء وطن قومي لليهود علىٰ أرض فلسطين في ٢٢/ ٩/ ١٣٢٩هـ[1]

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٢٤١

١٠٩



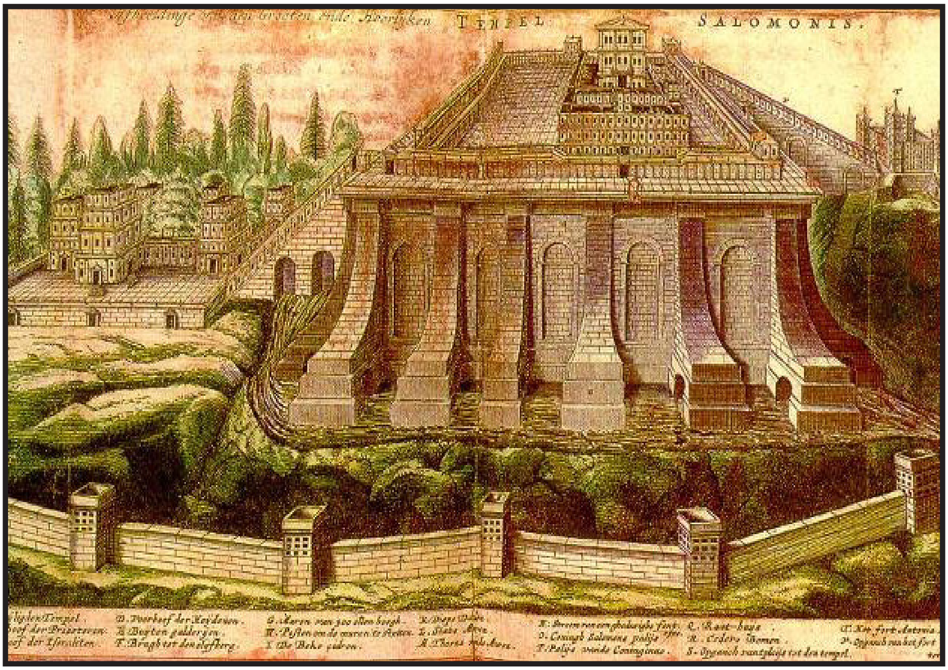
المسجد الأقصىٰ

١١٠



مسجد قبة الصخرة

١١١



صورة لمشروع هيكل سليمان المزعوم

المطلب السادس عشر

جمعية الاتحاد والترقي المعادية للسلطان

هذه آخر فصول حكم السلطان التي علىٰ يدها تم اقصاؤه، تشكلت هذه الجمعية أول نشأتها من طلاب يقودهم طالب ألباني (إبراهيم تيمو) في الكلية العسكرية السلطانية عام ١٨٨٩م، والماسونية من ورائها الإصبع المحرك لها، لعزل السلطان، وقد تدّرب (تيمو) علىٰ يد الماسونيين في إيطاليا[١].

اكتشف أمر الجمعية وخيانتها الوطن والدولة، الذي أنشأها (تيمو) بأعضائها، وحوكموا في المحكمة العسكرية بالسجن، ثم عفا عنهم السلطان (الظالم)! كذا، وهم المتآمرون علىٰ

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٢٢٤-٢٢٥

حياة السلطان وسلامة الدولة[١].

ثم اتسعت الجمعية وكثر الهروب إلىٰ أوروبا لاسيما باريس، وأصدرت جريدة باسم (مشورت) وأعانتها الدول الأجنبية، ثم ألقي القبض مرة أخرىٰ علىٰ معظم رؤوس الاتحاديين عام ١٨٩٥م، قبل تنفيذ مؤامرتهم بيوم واحد، وصدر العفو ثانية بدلاً عن الإعدام بالنفي ولمدة محدودة، ثم إن (إبراهيم تيمو) هرب إلىٰ رومانيا، ونظم فرعاً للجمعية باسم (تركيا الفتاة) ، كما أصدر صحيفة بهذا الاسم[٢].

استمرت الجمعية بأنشطتها بعد العفو بمساعدات الدول الأوروبية ، لاسيما إنكلترا وفرنسا، والماسونية التي لاتزال الصهيونية الدولية تهيمن عليها، وخططت لانقلاب ١٨٩٦م، بعد سنة واحدة من المؤامرة الثانية ١٨٩٥م، وكشفت قبل يوم واحد من ساعة الصفر، فألقي القبض علىٰ جميع المشتركين في المؤامرة، وسجنوا، وللمرة الثالثة أصدر السلطان أحكاماً مخففة، بنفي بعضهم وتحديد إقامتهم في مدن خارج الوطن برقابة خفيفة عليهم، ولم يتم إعدام واحد منهم[٣].

وهذا العفو المتتالي علىٰ أخطر المتمردين كان خطأة غير مغفورة له عجلت بسقوطه، وأعلن الاتحاديون في حينه حل الجمعية وإعلان جريدة الميزان، ومع ذلك فقد وزع عليهم مناصب صغيرة وكبيرة، وبعضهم في لجنة (شورىٰ الدولة) وبعضهم ملحقون عسكريون[٤].

وهكذا أصاب (جمعية الاتحاد والترقي) الشلل في أي نشاط لها في الداخل والخارج، إذ قد كسب قادتها ورضوا بالمناصب الجديدة لهم[٥].

غير أن شرارة جديدة انبثقت من سلانيك مركز يهود الدونمة الماسونيين ، وقد دعمها

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٢٢٤

(٢) المصدر السابق/ ص٢٢٥-٢٢٨

(٣) المصدر السابق/ ص٢٢٨

(٤) المصدر السابق/ ص٢٣٢

(٥) المصدر السابق/ ص٢٣٢-٢٣٣

الماسون، وبعد فشل مساعي هرتزل لدىٰ السلطان في استقطاع وطن قومي لليهود في فلسطين - مدّت الماسونية يدها من جديد إلىٰ جمعية الاتحاد والترقي في سلانيك من بعض الهاربين في داخل الجيش الثالث في اليونان البعيد عن رقابة الدولة، وأفادوا من الصحافة والإعلام المهيمنين به علىٰ العالم، و بدؤوا بعمل منظم جماعي وكان نصف يهود العثمانيين - من يهود الدونمة الذين أتىٰ بهم السلطان سليمان القانوني من الأندلس إلىٰ شمال اليونان، إنقاذاً لهم من الحرق والذبح لأجدادهم[١].

لقد بدأ اليهود الذين بأيديهم المال والصحافة العالمية إلىٰ توحيد القوىٰ المعادية للسلطان في المجتمع العثماني وخارجه، ولعبت المحافل الماسونية الإيطالية دورها الخطير في التآمر علىٰ السلطان، انطلاقـًا من سلانيك، وفي عام ١٩٠٠م قرر المشرف الأعظم الفرنسي الماسوني إزاحة السلطان، وذلك باجتذاب حركة تركيا الفتاة (جمعية الاتحاد والترقي) منذ بداية تكوينها برئاسة (رفيق بك)، بدعم من الماسونية في جميع الدول الأوروبية تقريبـًا، ولم ينكر الماسونيون حتىٰ اليوم دورهم في مؤامراتهم علىٰ الدولة والسلطان[٢].

المطلب السابع عشر

خلع السلطان عبد الحميد الثاني

أعلن السلطان الدستور عام ١٩٠٨م، غير أن جيش الاتحاد والترقي تحرك من سلانيك لاحتلال استنبول، واستأذن قائد السلطان أن يقضي علىٰ هذا الجيش بإشارة منه، وقال له قائد جيشه: بإشارة واحدة منك نبيد الجيش الثالث بساعة، ولكنه رفض سفك دم واحد بسبب عرشه، واتُّهِم السلطان اتهامات باطلة، وأجبر قادة جيش الاتحاد شيخ الإسلام علىٰ إصدار فتوىٰ بخلع الخليفة، ومن فقرات الفتوىٰ في إقصاء السلطان جرائمه فيما يأتي: (التبذير والإسراف من بيت المال، ومخالفة المسوغات الشرعية وقتل وسفك الدماء وحبس وتغريب الرعية بلا سبب شرعي، واتهامه بأنه أقسم علىٰ الرجوع عن غيه، ثم عاد فحنثْ وأصرّ علىٰ

(١) إظهار الحق، رحمة الله الهندي/ ج/ ص٤٣١، ٣٤٣

(٢) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٢٣٥-٢٣٦

إحداث فتنة)[١]، وتألفت اللجنة بإبلاغه قرار الخلع من أربعة[٢]:

١- يهودي إسباني: عمانوئيل قراصو، وهو من يهود الدونمة من سلانيك، لعب دوراً خطيراً في احتلال إيطاليا لليبيا، وكان الأستاذ الأعظم الماسوني في مقدونيا والمحفل الماسوني الإيطالي، ثم هرب إلىٰ إيطاليا، بعد أن فضحت خيانته، وكان من قادة الاتحاد والترقي، وقبض من إيطاليا ثمن الخيانة بمبلغ ضخم من المال، وحصوله علىٰ حق المواطنة الإيطالية، واستقراره في تريستا، وهو بدرجة الأستاذ الأعظم لمحفل مقدونيا الماسوني، حيث مات عام (١٩٣٤م)، وسرق قبلها الكثير من أموال الدولة، وكان يحمل الجنسيتين العثمانية والإيطالية[٣].

٢- آرام - أرمني، كان عضواً في مجلس الأعيان العثماني.

٣- اللواء أسعد باشا طوبطاني - ألباني - نائب في مجلس المبعوثان.

٤- عارف حكمت - فريق بحري - من أصل عراقي، وعضو في مجلس الأعيان، وهو كردي من العراق[٤].

والذي تقدّم إلىٰ الخليفة بقرار الخلع اليهودي « قره صو»، فتقبله مفوضاً أمره إلىٰ الله تعالىٰ قائلاً: (**ذلك تقدير العزيز العليم**)، ثم التفت إلىٰ الوفد مشيراً إلىٰ (قره صو): ألم تجدوا شخصاً غير اليهودي، لتبلغوا خليفة المسلمين بقرار الخلع، وكان ذلك في ٦ ربيع الأول لسنة ١٣٢٧هـ الموافق ٢٧ نيسان ١٩٠٩م[٥]، ثم بقي في المنفىٰ في سلانيك، حتىٰ نقل إلىٰ استنبول في قصر بكلر بكي الذي قضىٰ فيه آخر أيامه، حين تراجع الأتراك في الحرب العالمية

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٥٤٥-٥٤٦

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٥٤٦

(٣) المصدر السابق/ ص٥٤٦-٥٤٧

(٤) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٥٤٦-٥٤٧

(٥) المكتوبات، بديع الزمان النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي/ ص٥٣٧، والسلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٢٨٢-٢٨٣

الأولىٰ، ثم توفي عام ١٩١٨م، بعد أن قضىٰ في المنفىٰ (تسع سنين)[١].

ثم إن المحافل الماسونية انتشرت في أغلب المدن التركية، وهي محافل يهودية، بعد أن كان السلطان قد أغلقها، إذ خلا لليهود الجو للعبث بالمسلمين .

وإن هذا الجيش الثالث كان مموّلاً من قبل إنكلترا وفرنسا وإيطاليا والماسونية العالمية وجمعية الاتحاد والترقي التي كانت مخدوعة بالماسونية واليهودية، وما تبين لها إلا بعد الإطاحة بالخليفة، وظهور نواياهم، ولما وصل الجيش الثالث الذي قاده المتآمرون، أشار قائد الحرس علىٰ السلطان ان إشارة واحدة من السلطان تكفي للقضاء علىٰ المتآمرين جميعـًا، ولكن السلطان رفض أن ترهق قطرة دم مسلم بسبب عرشه[٢].

لقد حاول اليهود محاولات جادة مع السلطان عبد الحميد للسماح لهم بالهجرة، منها :

- تقدم زعماء يهود آخرون إلىٰ السلطان للسماح بهجرة اليهود إلىٰ العراق، ليكون وطنـًا ثانيـًا لليهود، يتسّع لبضعة ملايين من يهود روسيا، فرفض السلطان[٣].
- ولقد أوضح (إسرائيل زا نغفيل) الصهيوني في مجلة (فورت ناكيلي ريفيو) بأنه سيصيد عصفورين بحجر واحد ؛ إذ عرض علىٰ السلطان السماح بهجرة غير مقيدة لليهود إلىٰ تركيا، فينقل إلىٰ ميزوبوتاميا (ما بين النهرين - العراق) بضعة ملايين من يهود روسيا إلىٰ العراق، مقابل تحمل اليهود جميع ديون الإمبراطورية العثمانية، فرفض السلطان المشروع بشدة، غير أن العراق في العهد الملكي بدلاً من أن يحجم عن تهجير اليهود إلىٰ فلسطين من العراق، هجرّهم جميعـًا بما يقارب ١١٥,٠٠٠ يهودي، ولم يبق سوىٰ مئات، واتخذها العراق بطولة وهي مؤامرة[٤].

---

(١) الوسيط في علم الأديان - اليهودية بميزان الإسلام/ ص٢٨٣-٢٨٦ بايجاز، المؤلف، والسلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٢١١

(٢) الوسيط في علم الأديان/ ج١ - اليهودية بميزان الإسلام، المؤلف/ ص٢٨٥

(٣) المصدر السابق/ ص٢٨٥-٢٨٦ بايجاز

(٤) المصدر السابق، ص٢٨٤-٢٨٥، والسلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٢٥٤-٢٥٥

وحين ظهرت جمعية الاتحاد والترقي وكشف السلطان خيانتها حاكم رؤساءها ونفاهم وشرّدهم في الآفاق ثم عفا عن أكثرهم، واحتضنتهم الدول الأوروبية، ثم استمر تآمرهم سراً حتىٰ أطاحوا بالسلطان بعد أن ألصقوا به شرّ التهم(١).

ولما جاءت حكومة الاتحاد والترقي وسنّت القوانين التي أباحت لجميع الأجانب شراء الأراضي في الدولة العثمانية، بينما منع السلطان عبد الحميد الثاني بيع شبر واحد لليهود منها، وكانت الحركة يهودية أكثر مما هي ثورة تركية، وكان رئيس الفرع لهذه الجمعية في استنبول يهودياً ماسونياً من سلانيك، وكذا أمين العاصمة، ووضعت وزارة الشرطة والدرك تحت إمرة ماسوني من سلانيك، وكمّت الجمعية الأفواه، فلا معارض، وشددت الجمعية الماسونية قبضتها علىٰ الجيش، وأنشأت الجمعية محافل بأسماء منوعة بأكثر من سبعة أسماء، يؤيدها اليونانيون والأرمن، ثم انتشرت المحافل الماسونية إلىٰ مصر ولبنان بأسماء صريحة معلنة، وحرية واسعة لها بالعمل والتخريب، ثم استمرت المحافل الماسونية البريطانية والفرنسية إلىٰ جوار الإيطالية في تمزيق الدولة والأمة(٢).

انقسم الاتحاديون إلىٰ فريقين : أنصار إنكلترا، وأنصار ألمانيا، ثم رجحت كفة الثانية التي التزمت جانب ألمانيا في الحرب العالمية الأولىٰ، حيث مزّقوا الدولة العثمانية شرّ ممزّق.

أصيب الاتحاديون بالنكسات السياسة - وأعلنت النمسا ضمّ البوسنة والهرسك إليها في ١٩٠٨م، وأعلنت بلغاريا انفصالها باستقلالها ملكياً ١٩٠٨م، وأعلنت كريت انضمامها إلىٰ اليونان(٣).

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٢٢٢-٢٤٠ باختصار شديد

(٢) المصدر السابق/ ص٢٣٠-٢٣٥

(٣) المصدر السابق/ ٢٦٨، ٢٧٢

أما حركة ٣١ مارس للتقويم الرومي ١٣٢٥، ويصادف ٢٢ ربيع الأول لسنة ١٣٢٧هـ/ ١٣/ ٤/ ١٩٠٩م، فهي حركة عصيان وتمرّد، اتهم بها السلطان، وهو بريء منها، أثارها الاتحاديون، وأخرجوا الغوغاء إلىٰ الشارع، وفيهم من الجيش وطلبوا تغيير الصدر الأعظم، فغيره السلطان بآخر مكانه (توفيق باشا)، كما غيّر وزير الحربية (علي رضا باشا)، وقائد الفرقة الأولىٰ (محمود مختار باشا)، ورئيس مجلس المبعوثان (أحمد رضا باشا)، نزولاً علىٰ طلبهم.

اتهمت سلانيك السلطان بأنه يدير هذا الشغب، فأرسلت (جيش الحركة) للقضاء علىٰ هذا التمرد الذي استمر ثمانية أشهر، ولم يكن هذا الجيش نظاميًا، بل هو من العصابات المقدونية التي حاربت الدولة العثمانية طوال سنوات عديدة .

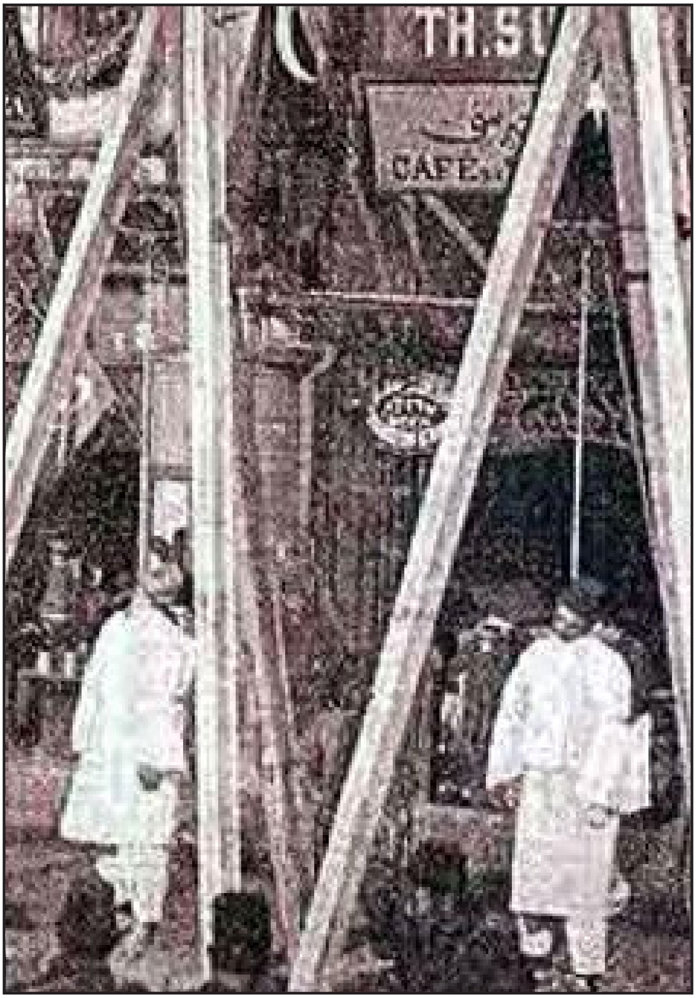
وأما الانتخابات فقد زيفها الاتحاديون ليكونوا الأغلبية في المجلس، وبدأت الجمعية تغتال أعضاءها تباعًا، وازداد نفوذ اليهود في الدولة، وألزم طلاب المدارس الدينية بالخدمة العسكرية بعد أن كانوا معفوّين منها، بما أثارهم، حينئذ تحرّك (الجيش الثالث) الذي دعم (جيش الحركة)، وكان بمقدور السلطان الإيعاز إلىٰ الجيش الأول الذي لم يزل مواليًا له بالالتحاق به والقضاء علىٰ جيش الحركة، عدداً وعُدة.

وصل (جيش الحركة) إلىٰ إستنبول من سلانيك يوم ١٥ نيسان، ووصل ضواحي إستنبول يوم ٢٢ نيسان، وأعلن الأحكام العرفية، والمحكمة العسكرية ، وأُعدم الأبرياء شنقًا ، ونفىٰ العديد من رجالات السلطان[1].

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٢٧٠-٢٧٥ باختصار

١١٢



صورة المشنوقين بعد أحداث ٣١ مارت[١]

كانت حامية القصر ٤٠٠٠ جندي كافية لسحق جيش التمرد، إضافة إلىٰ حاميات أخرىٰ تحت تصرف السلطان، وإضافة إلىٰ الجيش الأول الذي كان مواليـًا للسلطان، وكان متفوقـًا علىٰ (جيش الحركة) بالعدد والعدّة، **ولكن السلطان أمر بمنع إطلاق النار، لأنهم جميعـًا إخوة، ومن أراد إطلاق النار فليطلقها علىٰ السلطان**، هكذا أصدر الأمر، ورغم إلحاح الكثير

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٢٧٤

من الضباط وتوسلهم بالسلطان أن يسمح لهم بالدفاع، إلا أنه رفض أن تهدر قطرة دم مسلم في سبيل حياته وعرشه، وكانت غلطة العمر، إذ دفع ثمنها حياة دولة وأمة!! استسلم ضباط وجنود القصر تباعـاً[١].

وفي الأيام التالية لاستسلام حامية القصر زار سفراء ألمانيا وفرنسا وإنكلترا القصر، وقابلوا السلطان المخلوع، وعرضوا له استعدادهم لتأمين سلامته، بإشارة منه، فشكرهم، وقال: **لو علمت أنهم سيقطّعون لحمي قطعة قطعة فلن ألجا إلىٰ دولة أجنبية، ومن العار أن أهرب من وطني، وأنا أعدّ ذلك خاصة بالنسبة لسلطان مثلي حكم ٣٣ سنة - دناءة وسفالة، لا مثيل لهما، وأنا راضٍ بحكم الله وقدري، وقال قبلها: إن ما يحدث ليس إلا مؤامرة لقتلي، وعاقبتي ستكون مثل عاقبة عمي عبد العزيز**[٢].

بعد خروج الجنود عاش القصر في ظلام، وتناقل الناس أنه سيقصَف ويهدَم علىٰ رؤوس ساكنيه، ووزع عليهم خبز من خبز الجنود.

دوّت أصوات المدافع، تعلن عن تنصيب محمد رشاد سلطانـًا مكانه، تحت لقب محمد الخامس[٣].

أما توقيع المفتي (محمد ضياء الدين)، علىٰ خلع السلطان عبد الحميد، فكان مضطراً عليه، بسبب تهديدهم له بقتله إن رفض، أو قتل السلطان عبد الحميد، ويحملونه إثم هذا القتل، فوقع علىٰ الفتوىٰ قائلاً: (لتكن خطيئة ووبال هذه الفتوىٰ علىٰ أعناقكم)[٤]، وكان المفتي صاحب ضمير ومسنّـًا، وكان قد عاصر سلطانين قبله: (عبد العزيز و مراداً) .

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٢٧٣

(٢) المصدر السابق/ ص٢٧٧، ولعله قالها نصـًا: (دناءة وسفالة) تواضعـًا، وكلمة كهذه لا يحق له أن يقولها، وهو أنبل السلاطين

(٣) المصدر السابق/ ص٢٧٨

(٤) المصدر السابق/ ص٢٨٠

١١٣



وفد الخلع الذي أتىٰ لإبلاغ السلطان قرار الخلع . والشخص الثاني من اليسار هو اليهودي قره صور ،
وكما قال السلطان للوفد : « ماذا يفعل هذا اليهودي بينكم في موضوع خلع خليفة المسلمين »

المطلب الثامن عشر

شهادة جمال الدين الأفغاني للسلطان عبد الحميد الثاني

(إن السلطان عبد الحميد لو وزن مع نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاءً ودهاءً وسياسة، خصوصاً في تسخير جليسه، ولا عجب إذا رأيناه يذلل لك ما يقام لملكه من الصعاب من دول الغرب، ويخرج المناوئ له من حضرته راضياً عنه وعن سيرته وسيره، مقتنعاً بحجته، سواء ذلك الملك والأمير والوزير والسفير،..)، إلىٰ أن قال في امتداحه: (مددت يدي له فبايعته بالخلافة والملك)[١].

(١) جمال الدين الأفغاني المفترىٰ عليه - د. محسن عبد الحميد/ ١٣٧

غير أن السلطان نفسه لا يثق بجمال الدين كما ورد في مذكراته، فيقول: (وقعت في يدي خطة أعدها في وزارة الخارجية الإنكليزية كل من مهرّج اسمه جمال الدين الأفغاني وانكليزي يدعىٰ بلند، قالا بإقصاء الخلافة عن الأتراك واقترحا علىٰ الإنكليز إعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة المسلمين[١].

كنت أعرف جمال الدين الأفغاني عن قرب، كان في مصر، وكان رجلاً خطراً، اقترح عليّ ذات مرة وهو يدعي المهدية، أن يثير جميع مسلمي آسيا الوسطىٰ، وكنت أعرف أنه غير قادر علىٰ هذا، وكان رجل الإنكليز، ومن المحتمل جداً أن يكون الإنكليز قد أعدوا هذا الرجل لاختباري، رفضت فوراً فاتحد مع (بلند)،

استدعيته إلىٰ إستانبول عن طريق أبي الهدىٰ الصيادي، الحلبي، الذي كان يلقىٰ الاحترام في كل البلاد العربية، فقام بالتوسط في هذا كل من منيف باشا حلمي، الأفغاني القديم، وعبد الخالق حامد، جاء إلىٰ إستانبول ولم أسمح له مرة أخرىٰ بالخروج منها![٢]

علماً أن جمال الدين الأفغاني يؤيد فكرة (الجامعة الإسلامية)، في كل مناسبة وفي صحيفته (العروة الوثقىٰ) التي أصدرها في باريس مع الإمام محمد عبده، وأضاف إلىٰ معناها مقاومة الاستعمار)[٣].

ومع تناقض الآراء في ثقة الخليفة عبد الحميد الثاني بجمال الدين الأفغاني، فإن الخلاصة هي أنّ كلا من الاثنين معجب بالآخر، جمال معجب بدهاء الخليفة وذكائه وأدبه ومنطقه، والسلطان معجب بغيرة جمال الإسلامية، وكفاءته ومواهبه الدعوية والقيادية، لذا فقد أبقاه عنده، وولاه رئاسة العمل في مشروع الجامعة الإسلامية، وهو أخطر مشروع لديه[٤].

(١) صحوة الرجل المريض، عن مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني - دار الأنصار، القاهرة - ط١/ ١٩٧٨م
(٢) المصدر السابق/ ص١٠١
(٣) المصدر السابق/ ص١٢٧
(٤) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٤٩٩-٥٠٠

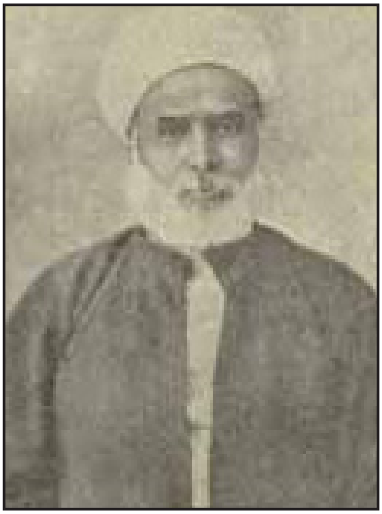
تناقض الآراء في مدىٰ صدق انتساب جمال الدين إلىٰ الماسونية: يمكن الانتهاء إلىٰ رأي معتدل فيه هو أنه انتسب فعلاً إلىٰ الماسونية، قبل أن تتكشف نواياها له، وعمره ٣٧ سنة، فلما دخلها واطلع علىٰ بعض أسرارها الخطرة، خرج منها، ولم يعُدْ إليها، هذا وإن تكليف الخليفة له رئيساً لمشروع الجامعة الإسلامية أكبر توثيق له واعتزاز بصدقه ودعوته الإسلامية الجريئة.

١١٤



جمال الدين الأفغاني

١١٥



الشيخ محمد عبده[١]

المطلب التاسع عشر

السلطان في المنفىٰ

بعد بضع ساعات من قرار الخلع أخبر السلطان بالتهيؤ فوراً للسفر إلىٰ سلانيك، ورفض طلبه بالبقاء في أحد قصور الخلافة في إستنبول ، وأخبر أن أي تأخير خطر علىٰ حياته وحياة أسرته، ونقلوا، وكانوا (٢٤) فرداً من أبنائه وبناته وزوجاته وبعض خدمه في سكون الليل إلىٰ

(١) الشيخ محمد عبده، رفيق السيد جمال الدين الأفغاني في غربته في فرنسا، والمسهم معه في إصدار صحيفة مفته الغرّاء (العروة الوثقىٰ) في باريس، داعياً فيها إلىٰ الجامعة الإسلامية وإلىٰ مقاومة الاستعمار.

محطة القطار الساعة الواحدة بعد منتصف الليل متجهاً إلىٰ سلانيك بعربتين أو ثلاث ، سكن قصر (الآتيني)، وما كان معدّاً للسكن من غير فرش وأوانٍ وصابون، ومن غير كهرباء وماء[١].

قصر (آلاتيني) في سلانيك :

وصل السلطان مع مرافقيه إلىٰ محل إقامته الجديد في هذا القصر الساعة ٨:٤٣ مساءً عند آذان العشاء، وكان في استقباله بعض القادة للجيش الثالث.

قضىٰ ثلاث سنوات فيه ١٩٠٩-١٩١٢م معزولاً عن العالم، محاطاً بحراسة مشددة، والجرائد والصحف ممنوعة عنه، يقضي معظم وقته بممارسة هواية النجارة والنقوش الخشبية والتأمل في بحر إيجه، بين دخان السجاير في ذكرياته أيام حكمه الطويل، وسمر مع بعض ضباط حراسته[٢].

ومن أحاديثه في سمره أسفه علىٰ الكنز[٣] الضخم الذي أنشأه تحت حوض قصر بلدز، لقد سرقوه، كما تحدث عن المشاريع الاقتصادية والسياسية التي يأمل أن تتحقق للدولة في غيابه عنها[٤].

لما احتلت إيطاليا (طرابلس الغرب وبني غازي) عام ١٩١١م، وأعلنت دول البلقان (بلغاريا والصرب واليونان والجبل الأسود) الحرب علىٰ العثمانية في هذه الفترة، وقربت هذه الحرب من سلانيك، لذا استوجب نقله بعيداً عنها، ولما أخبر السلطان بإعلانها الحرب دعا عليهم باسم الله القهار أن يقهر الذين كانوا السبب إلىٰ أي درك ألقوا بالدولة[٥].

تم نقله إلىٰ إستانبول عام ١٩١٢م بواسطة بارجه ألمانية إلىٰ قصر (بكلر بكي) المشرف

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٢٨٤

(٢) المصدر السابق/ ص٢٨٥

(٣) واستودع السلطان فيه الحوالات المالية والذهب الذي اقتصده وجمعه طوال السنوات العديدة، المصدر السابق/ ٢٨٨

(٤) المصدر السابق/ ص٢٨٨

(٥) المصدر السابق/ ص٢٨٨

علىٰ البسفور، وحتىٰ عام ١٩١٨م[١].

قصر بكلر بكي: في إستنبول علىٰ مضيق البسفور، أقام فيه بقية حياته تحت حراسة مشددة، ولأفراد أسرته فقط زيارته في الأعياد.

أعلنت الحرب العالمية الأولىٰ بعد سنتين من أقامته في هذا القصر، ودخلت الدولة العثمانية في أتونها بقرار جمعية الاتحاد والترقي مغمّضة العيون[٢]،

١١٦



قصر بكلر بكي الذي قضىٰ فيه السلطان عبد الحميد الثاني آخر ايامه في إستانبول

أرسل السلطان إلىٰ أنور باشا القائد العام في الحرب ينصيحه ويذكره بشجاعته ونسبه إليه - صهره، في معركة (بلفنه)، كما ذكره بكثير من الشجعان الذين كرّمهم وعينهم بمناصب عليا، ذكره أن المهارة ليست في التقليد الأعمىٰ، ولكن بتكييف المدنية حسب بيئتنا وديننا وتقاليدنا، وكانت المسرحيات والحفلات الموسيقية تقام في قصر يلدز يومي الجمعة والأحد - وكنت أدعو لحضور الحفلات الموسيقية الغربية الحرم، والأمراء والأميرات

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٢٨٩

(٢) المصدر السابق/ ص٢٨٩

والأصهار ورؤساء الخدم، وذكره بأن الحرب مع روسيا كلفته فقدان البلقان بكامله وفقدان الروملي، وذكره بخلعه علىٰ يد اليهودي الماسوني قره صو.. ثم قام أنور باشا مؤدياً التحية العسكرية باحترام شديد، وودعه السلطان إلىٰ باب غرفته[1]. هذه نهاية الزيارة .

السلطان عبد الحميد ونصيحته لأنور باشا:

من نصيحة السلطان عبد الحميد الثاني لأنور باشا، الذي زاره في بداية الحرب العالمية الأولىٰ - **نقطف أهم فقراتها وخلاصتها**، إذ هي واسعة تتسع لأكثر من صحيفتين:

«ابني **أنور باشا**، فأنت الآن الصهر العزيز لعائلتنا، وأنت عسكري شجاع وشهم،... ثم امتدح الغازي المشير **عثمان باشا** وأربعة من القادة المخلصين، وكشف أن صدقهم في مسؤولياتهم حمله علىٰ مصاهرتهم وعلىٰ ارتفاع شأنهم في تاريخ العثمانية الحديث، ثم أردف قائلاً: يا بنيّ يا أنور! لقد حكمت ٣٣ سنة، وكنت مع حرية الفرد وكرامته، ولكني لم أستسغ الحرية الفوضوية، وفي الصحافة بنشر الصور العارية والكتابات غير الأخلاقية والأفكار المسمومة، وتمييع وإفساد عاداتنا وتقاليدنا الإسلامية» ، ثم إنه يذم التقليد الأعمىٰ ويدعو إلىٰ تكييف المدنية حسب بيئتنا وتقاليدنا، فهو يدخل الجوانب الايجابية لهذه المدنية إلىٰ قصره، فكانت المسرحيات والحفلات الموسيقية ترتب في قصر يلدز يومي الجمعة والأحد، وكان يشاهد الفنانين الغربيين وموسيقاهم، كما كان يدعو لهذه الحفلات الموسيقية الحرم والأمراء والأميرات والأصهار، وحتىٰ رؤساء الخدم في القصر» .

ثم ذكر أنه أول سلطان في تاريخ الدولة العثمانية يفتتح مجلس المبعوثان (النواب)، ولكن أقفله بسبب عدم نضج النواب.

ثم يشير إلىٰ حقيقة خطيرة فيقول: هل تعلم ماذا كلفتنا الحرب التي أعلنها مجلس المبعوثان العثماني؟

مع روسيا : فقدنا البلقان بكامله، وفقدنا الروملي كذلك، ولقد عاند مدحت باشا وأصر

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٢٨٩

كثيراً علىٰ إعلان هذه الحرب، وشاهد النتائج المروعة، ورغم البطولات الفائقة في (بلفنه) وفي (القارص) فقد هزمنا.. نعم يا أنور باشا .. أنتم الآن دخلتم في حرب (الحرب العالمية الأولىٰ)، بدون رؤية، وانقياداً للعواطف، فدفعتم البلد إلىٰ الخطر، ولو انتهت الحرب بفاجعة ألا نخسر حتىٰ الأنضول!! ماذا سيبقىٰ عندنا.

ثم استأنف قائلاً: « يا أنور، لقد استوليتم علىٰ إستنبول والقصر وتمكنتم من خلعي، ولكن رفقاءكم جحدوني واتهموني بتدبير حادثة ٣١ مارت، ولم يكن لي أي صلة بها ».

ثم قال:« إن ما آلمني وحزّ في نفسي إرسالكم (عمانوئيل قره صو) اليهودي، وذلك تحقير منكم لمقام الخلافة والسلطنة، وأردف ناصحـًا نصيحته الأخيرة : إن الذين يصفقون الآن يستطيعون غداً تمزيقه وافتراسه، انتبه جيداً، وأدعو الله أن يحفظ أمتنا ودولتنا »[(١)].

بعد أن أتم عبد الحميد حديثه قام أنور باشا، وأدىٰ التحية العسكرية له وصافحه باحترام شديد، وَوَدَّعه السلطان حتىٰ باب غرفته.

وحين اشتداد الحرب ضد إستنبول عن طريق ضرب البوارج الحربية في جناق قلعة، وأخفقت في شق طريقها إلىٰ العاصمة، استبد الخوف بنفوس الاتحاديين ففكروا بنقل العاصمة إلىٰ (اسكي شهر) في وسط الأنضول، أرسل السلطان رشاد وفداً إلىٰ أخيه عبد الحميد يستشيره، اختياره لمدينة بديلة لإقامته، لئلا تسقط المدينة فيقع في أيدي الأعداء، فأجاب السلطان: (لن أتحرك من مكاني قيد أنملة، إن جدي محمد الفاتح عندما فتح إستانبول قال: إن امبراطور بيزنطة لم يفكر في الهرب، وكيف وأنا من نسل الفاتح! أفلا أكون مثل إمبراطور بيزنطة علىٰ الأقل، إ مكاني هو مدينة إستانبول التي فتحها جدي، وإذا توفيت فسأرقد فيها أيضـًا)[(٢)].

(١) السلطان عبد الحميد، أورخان/ ص٢٨٩-٢٩١

(٢) المصدر السابق/ ص٢٩٢ بإيجاز

المطلب العشرون

وفاته

قضىٰ السلطان عبد الحميد في هذا القصر ٥ سنوات و٣ أشهر، وكانت وفاته في ٢٨ ربيع الآخر عام ١٣٣٦هـ/ ١٠/ ٢/ ١٩١٨م، عن عمر يناهز ٧٧ سنة، وكتب فيه مذكراته، بما كتبته الأميرة (عائشة) بنت السلطان، تبشره بولادة طفلها الثاني، وانتشر الخبر بجرائد سويسرا ولادة حفيد لعبد الحميد، من سويسرا وانهالت عليه التهاني من كل صوب(١).

وكان السلطان يشكو التعب من جهازه الهضمي، وقبل وفاته بثلاثة أيام لبس ملابسه كعادته وتجول في حديقة قصره كعادته، وفي مساء ٩/ ٢/ ١٩١٨م جلس مع نسائه إلىٰ مائدة الطعام وبعد عشائه الخفيف شكا إلىٰ زوجته آلاماً في صدره، ولم يكن الطبيب موجوداً.. ثم صلىٰ ركعتي الفجر، وشرب الحليب، وزاره بعض أصدقائه من طرف أخيه السلطان رشاد، ثم زارته زوجته وابنته ودعا لها (ليرضىٰ عنكِ الله)، ثم هتف بقوة (الله)، فسقط رأسه علىٰ ذراع زوجته، لقد أُغمي عليه علىٰ أثر نزيف داخلي.

وارتفعت أصوات النحيب داخل القصر، ثم دخل ضباط الحرس، وأدوا التحية العسكرية، وكان الجميع يبكون حتىٰ الصباح علىٰ الأرض، ويتلون القرآن(٢).

وخلف حقيبة فيها مذكراته ومجوهرات ما قيمته ١٠٠٠٠ ليرة، لكل ابن، و ٥٠٠٠ ليرة لكل زوجة. توفىٰ في ١٠ شباط ١٩١٨م، ودفن في ضريح جده السلطان محمود، إلىٰ جانب عمه عبد العزيز وجده محمود، توفي عن (١٠ بنين و٧ بنات)(٣).

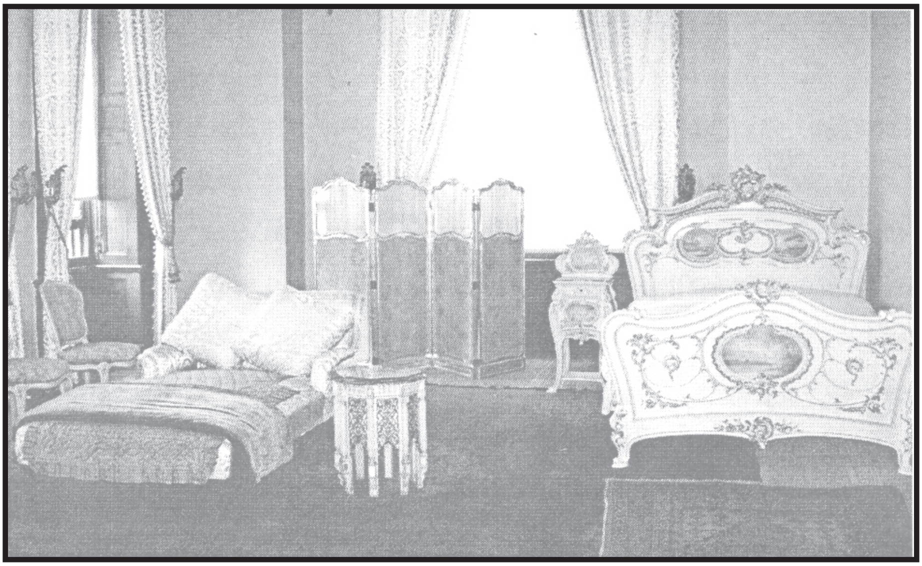
---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٢٩٢-٢٩٣

(٢) المصدر السابق/ ص٢٩٣

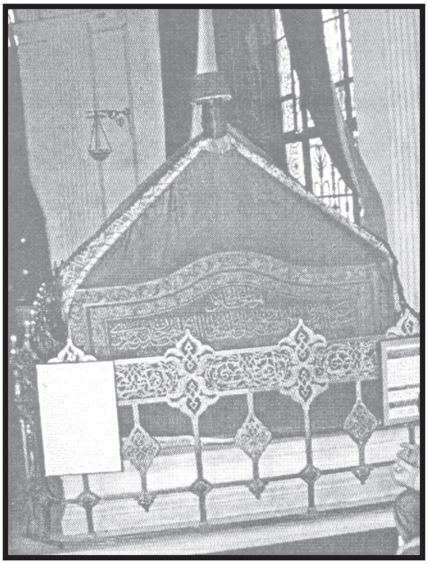
(٣) السلطان عبد الحميد الثاني - مذكراتي السياسية، وصحوة الرجل المريض/ ٨٥

١١٧ [١]



السرير الذي توفي عليه السلطان عبد الحميد وغرفته في قصر بكلر بكي [٢]

١١٨



ضريح السلطان عبد الحميد الثاني في مقبرة السلطان محمود الثاني في منطقة جمبرلي طاش في إستانبول

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان محمد علي/ ص٢٩٦

(٢) المصدر السابق/ ص٢٩٦نشوء

المطلب الحادي والعشرون

موقف الاتحاديين من وفاة السلطان

لقد ندم الاتحاديون علىٰ تضييع الدولة العثمانية خلال (عشر سنوات) (١٩٠٨-١٩١٨م)، مما حدا بهم إلىٰ امتداحه والاشتياق إلىٰ عهده، ومدحه الشعراء بقصائد كثيرة.

لم يشاهد أحد وفاة شخص واحد من الجوع أو منتحراً في عهد السلطان، بينما شاع الموت والجوع والانتحار في عهد الاتحاديين، ولم يقم بإعدام أحد أو تعذيب أحد، كما أعدم الاتحاديون ١٧ شخصاً في يوم واحد، وعذّبوا في سجن واحد أكثر من ١٠٠ شخص، ولم تخسر الدولة العثمانية في عهد السلطان سوىٰ تونس، بينما مزّق الاتحاديون السلطنة بالحرب العالمية[1]، **ولو بقي السلطان لما كانت الحرب العالمية الأولىٰ، ولو حدثت لنجت من أهوالها و لاسترجعت ممتلكاتها من المحاربين المنهكين**[2].

ومما قاله أحد رؤساء الاتحاد والترقي: زرت ضريح المرحوم السلطان عبد الحميد وأجهشت بالبكاء، وقلت لقد أخطأت في حقك يا سلطان، أنا مذنب آثم في حقك، لقد آذيتك لسنوات عديدة، وعاملتني بلطف، وكنت مخدوعاً، إن الذين أهانوك وخلعوك مزقوا الدولة وشتتوا ٣٠ مليوناً من الأتراك المسلمين الذين كانوا متمسكين بدينهم المتين وساقوا مليونا من الأتراك إلىٰ الموت، ودمروا الآلاف من القرىٰ، وقضىٰ أعداؤك أوقاتهم في ملاهي بيوك أده وبيتي كوي، شربوا الخمر حتىٰ الثمالة، وأكلوا حتىٰ الثمالة، أضاعوا البلد وقلصوه إلىٰ خمس مساحته السابقة وحولوه إلىٰ خرائب، وأفقروا البلد وشرّدوا أهله![3]

لقد رحل السلطان إلىٰ رب كريم، ولم يزل سلطاناً علىٰ قلوب المسلمين، رحمه الله ورضي عنه وأرضاه ، وأسكنه فسيح جناته - اللهم آمين.

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص٢٩٩

(٢) المصدر السابق/ ص١٩١، عن (مذكرات الأمير سير هنري وورك)، في كتابه (ذكريات عن تركيا) المطبوع سنة ١٩٢٤

(٣) المصدر السابق/ ص٣٠١

ندم الاتحاديين[١]:

لقد ندموا علىٰ إقامة دكتاتورية رهيبة بعد تآمرهم علىٰ مقام السلطان، وشنقوا أعداءهم أو اغتالوهم، ثم أضاعوا الدولة العثمانية، وورطوها في الحرب العالمية الأولىٰ، فهدموا الدولة خلال عشر سنوات (١٩٠٨-١٩١٨م)، ومن آثار الندم قول شاعرهم وفيلسوفهم رضا توفيق بأسىً عميق:

أين أنت يا سلطاني العظيم يا عبد الحميد؟

هل يصل صراخي إلىٰ مقامكم؟

هلاّ انتبهت لحظة من رقاد الموت!

وشاهدت إثم هذه الأمة الجاحدة!

عندما يذكر التاريخ اسمكم

سيعطي لك الحق أيها السلطان العظيم

كنا نحن المغترين دون حياء

علىٰ أمهر سلطان في السياسة في عصره

قلنا: إن السلطان ظالم ومجنون

وإنه يجب القيام بالثورة عليه

اتبعنا كل ما قاله الشيطان لنا

وسعينا إلىٰ إيقاظ الفتنة

لم تكن أنت المجنون بل نحن المجانين

فقد علقنا الآمال علىٰ أوهىٰ خيط

لم نكن مجانين فحسب، بل عديمي الاخلاق

فقد بصقنا علىٰ قبلة الأجداد

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان محمد علي/ ص٢٩٩-٣٠١

وكتب غيره (ابن شيخ الإسلام جمال الدين) من أشهر رجال الاتحاد والترقي ما يأتي :

(لم يشاهد أحد وفاة شخص واحد من الجوع أو قيامه بالانتحار في عهد السلطان، بينما شاع الموت جوعـًا وشاع الانتحار في عهد الاتحاديين، ولم يقم السلطان بإعدام (١٧) شخصـًا في يوم واحد، كما فعل الاتحاديون، ولا تعذيب أحد في السجون، بينما كان هناك ١٠٠ شخص يعذبون في زنزانات سجن (فشلة تكبر أغا)، ولم تفقد الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد أرضـًا سوىٰ تونس، بينما مزّق الاتحاديون الدولة العثمانية في ظرف عشر سنين، ولو كان السلطان باقيـًا لما انفجرت الحرب العالمية الأولىٰ، أو لتأخرت كثيراً).

وقال غيره من رؤساء الاتحاد والترقي حين زيارته لقبر السلطان، وهو يجهش بالبكاء: (لقد أخطأت في حقك يا سلطاني! أنا مذنب وآثم في حقك! لقد آذيتك لسنوات وسنوات، وكلما عاملتني بكرم ولطف ازددت عداءً لك، كنت مغفلاً وأحمق، .. كنت مخدوعـًا.. إن الذين خلعوك، والذين شتموك وأهانوك ونفوك، مزَّقوا الدولة العظيمة التي خلفتها وراءك وفتتوها وهدموها، وشتتوا ثلاثين مليونـًا من المسلمين الذين كانوا مرتبطين بحبل الله المتين، وساقوا مليونـًا من الأتراك إلىٰ الموت والهلاك... دمروا الآلاف من القرىٰ.. عرضوا في (جناق قلعة وصاري قامش) آلاف الأتراك الحفاة العراة إلىٰ رصاص الأعداء، فسقطوا صرعىٰ، هؤلاء الفارون من مدّعي القومية والحمية الذين ألصقوا بك أوصاف (السلطان الأحمر) و(عبد الحميد البخيل)، هؤلاء الملاعين قضوا أوقاتهم في ملاهي (بيوك أدّه) و(بيني كوي)، شربوا حتىٰ الثمالة، وأكلوا حتىٰ التخمة... أضاعوا البلد وقلصوه إلىٰ خُمس مساحته السابقة، وحوّلوه إلىٰ خرائب وأطلال، وقلصوا نفوس البلاد إلىٰ الثلث، بسوقها إلىٰ الموت، وأفقروها وشردوها)[1].

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان محمد علي/ ص٢٩٩-٣٠١، عن مصدر تركي: imtak-Hak, Ahmet Muhtar, s, 237-263

المبحث السابع

السلطان رقم(٣٥)

الخليفة السلطان محمد رشاد[١]

عمره: (١٨٤٤-١٩١٨م) عمرّ (٧٤) سنة

حكمه: (١٣٢٦-١٣٣٥هـ)/ (١٩٠٩-١٩١٨م).

حكم (٩) سنوات وعمره ٦٥ سنة

ترجمته:

هو ابن السلطان عبد المجيد، طويل القامة، أزرق العينين، أبيض البشرة، وهو خليفة صوري، لا حول له ولا قوة، وهو أخو الخليفة السلطان عبد الحميد الثاني، وأمره بيد جمعية الاتحاد والترقي الماسونية التركية، وقد عاصر الحرب العالمية الأولىٰ (١٣٣٣-١٣٣٧هـ= ١٩١٤-١٩١٨م)، وقد عارض دخول الدولة في الحرب، ولكن لا رأي لمن لا يطاع.

كان يساعد الفقراء والمرضىٰ كثيراً، وكان يتذوق قراءة كتب التاريخ، صاحب ذاكرة قوية جداً، اهتم والده بتدريسه العلوم الشرقية.

أعلن المشروطية (نظام الحكم الدستوري)، وأخمد تمرّد ألبانيا ١٩١٠، وبدأت حرب البلقان عام ١٩١٢م، وسقطت (أدرنة) في يد بلغاريا عام ١٩١٢م بعد دفاع مجيد.

كانت هجمات الفرنسيين والإنكليز علىٰ مدينة (جناق قلعة)، قد أوقفها الجيش العثماني، وخسر العدو المهاجم (١٢٠,٠٠٠) قتيل عام ١٩١٥م، ثم انسحب الحلفاء، بعد عجزهم عن عبور المضيق.

انسحبت روسيا من (باطوم) علىٰ البحر الأسود نتيجة توقيع معاهدة ١٩١٧م.

توفي السلطان عام ١٩١٨م عن عمر (٧٤) سنة، ودفن في ضريحه في مقبرة مسجد سلطان أيوب، وخلف (٣ أبناء)، ولم تكن له بنات.

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ٨٥

احتلت إيطاليا (طرابلس - ليبيا) في عهده عام ١٩١١م، بعد حروب شرسة وخسائر فادحة، استمرت أطول من عشر سنين، بقيادة عمر المختار - رحمه الله، والذي استشهد شنقًا وعمره التسعين.

١١٩ [(١)]



الخليفة السلطان محمد رشاد

الحرب العالمية الأولىٰ : (١٣٣٣-١٣٣٧هـ / ١٩١٤-١٩١٨م)

أقحمت تركيا في الحرب إلىٰ جانب حلفائها (ألمانيا والنمسا)، ضد دول الحلفاء (إنكلترا وفرنسا وروسيا)، مما انتهىٰ بها إلىٰ السقوط، وإلىٰ الصراع بين العرب والأتراك، من خلال مراسلات (الحسين – مكماهون) من جرّ العرب إلىٰ جانب الحلفاء، فسادت فكرة القومية العربية، ووقع الصدام بين العرب والترك، وسقطت تركيا بعد هزيمتها في الحرب، واحتل الحلفاء اليونان وإستنبول وغرب تركيا، وأُسِر الخليفة[(٢)].

وفي نكبة (أدرنه) في تركيا القريبة من إستانبول، التي سقطت بيد البلغار

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٨٥

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٥٥٢

المبحث الثامن

السلطان رقم(٣٦)

الخليفة السلطان محمد وحيد الدين (محمد السادس)[١]

عمره: (١٨٦١-١٩٢٢م) عمرّ (٧١) سنة

حكمه: (١٣٣٥-١٣٣٨هـ)/ (١٩١٨-١٩٢٢م).

حكم (٤) سنوات وعمره ٥٧ سنة.

ترجمته:

هو ابن السلطان عبد المجيد، أخو محمد رشاد وأخو السلطان عبد الحميد الثاني. كانت دراسته علىٰ أيدي علماء كبار، وعاشت الدولة العثمانية في عصره أسوأ أيامها. انهزمت في الحرب العالمية الأولىٰ، رغم انتصاراتها في جبهاتها، وقّعت معاهدتي (موندروس وثور) بأثقل شروطها[٢].

يقال: إن السلطان عقد اجتماعـاً سريـاً، رفيع المستوىٰ، أمر فيه ضباطه بالتوجه إلىٰ الأنضول، وتحريض الشعب علىٰ التمرد علىٰ الضابط المشبوه مصطفىٰ كمال الذي كان يقود معارك التحرير التي ظنها الشعب تهيؤاً لاستعادة أمجاد الخلافة الإسلامية، فتوسعت في الأنضول (حركة المقاومة الشعبية)، ولكن تشكل المجلس الشعبي، وألغىٰ السلطنة، واعترف بإدارة الجمهورية.

ولما كانت إستنبول بيد الاحتلال، ولا قوة بأيدي السلطان، أجبره مصطفىٰ كمال علىٰ مغادرة البلاد علىٰ بارجة بريطانية إلىٰ مالطة، حتىٰ بلغ سبّ آل عثمان إلىٰ الذروة، وذلك عام ١٩٢٢م، بعد أن حكم الدولة (٣٧) سلطانـاً، ومئة خليفة في عمر الإسلام[٣].

مرّ علىٰ مدن كثيرة في أوروبا، ودعته دول كثيرة للإقامة فيها، حتىٰ استقر في (سان ريمو)

---

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٨٦

(٢) المصدر السابق/ ص٨٦

(٣) المصدر السابق/ ص٨٦، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٥٥٨

في إيطاليا ، ثم وافاه الأجل في ١٥ مايو ١٩٢٦م، عن عمر يناهز (٦٥ سنة)، ولم يُسمح لنعشه بمغادرة إيطاليا إلىٰ تركيا، بسبب عجز ذويه عن تسديد ديونه، فحجز نعشه فكفله رئيس سوريا آنئذ وأتىٰ به إليها، ودفن في الشام في جامع السلطان سليم ؛ ثم حوُلت الأرض التي دفن فيها إلىٰ حديقة عام ١٩٦٥م، فلا يعرف موضع قبره!!

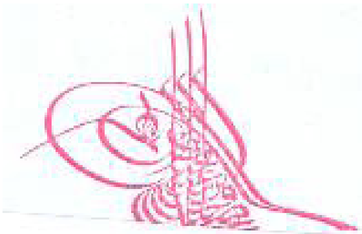
توفي عن ابن واحد و٣ بنات.

١٢٠



الخليفة السلطان محمد وحيد الدين (محمد السادس) (١)

١٢١



طغراء السلطان محمد وحيد الدين (محمد السادس)

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٨٦

المبحث التاسع
السلطان رقم(٣٧)
الخليفة السلطان محمد عبد المجيد الثاني

حكمه: (١٣٣٨-١٣٣٩هـ = ١٩٢٢-١٩٢٣م)

حكم (١) سنة واحدة.

ترجمته:

هو ابن الخليفة السلطان عبد العزيز، لم يمارس أي عمل إداري، وكان مؤدبـًا، مثقفـًا، وكانت جماهير إستنبول تهرع لإلقاء نظرة عليه، وتحيّيه كل جمعة، وهو في طريقه لأداء الفريضة . كان مرّة يرتدي عِمّة محمد الفاتح، وأخرىٰ يتقلد سيف سليمان القانوني، والناس يتهافتون إلىٰ التبرك به، بعد أن أدركوا تآمر أتاتورك علىٰ الخلافة الإسلامية، الذي منعه من الخروج إلىٰ الصلاة ، ثم عزله في آذار/ ١٩٢٣م، وأعلن إلغاء الخلافة الإسلامية في يوم ٣/ آذار/ ١٩٢٤م[1]. بعد أن حنق عليه أتاتورك وخفض مخصصاته للنصف.

١٢٢



الخليفة السلطان عبد المجيد الثاني

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٨٧، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٥٥٨-٥٥٩

المبحث العاشر

سقوط الخلافة[1]

المطلب الأول

تآمر الدول الأوروبية علىٰ الدولة العثمانية

الفرع الأول: بدء التآمر - في القضاء علىٰ الحركة الوهابية والحكم السعودي:

ظهر الإمام محمد بن عبد الوهاب في نجد يدعو إلىٰ تطهير الإسلام من الخرافات والبدع عام ١٧٤٧م، واتخذ لدعوته قوة عسكرية، ثم إن محمد بن سعود التجأ إلىٰ محمد بن عبد الوهاب في الدرعية واستولىٰ علىٰ الإحساء وضمها إليه عام ١٧٥٧م.

توفي محمد بن سعود عام ١٧٦٥م، وخلفه ابنه عبد العزيز، واستعادت الحركة نشاطها عام ١٧٨٧م، وأعلن عبد العزيز الإمـارة لابنه (سعود) خليفة للإمارة (الدولة)، وأيده محمد بن عبد الوهاب، واحتلت الكويت، وقد سبقهم الإنكليز ففشلوا أمام جيوش الدولة العثمانية، وحاولوا الاستيلاء علىٰ كربلاء، وهدم قبر الإمام الحسين، كما احتلوا مكة عام ١٨٠٣م، والمدينة عام ١٨٠٤م، وضربوا القباب التي تظلل قبر الرسول (صلىٰ الله عليه وسلم)، واحتلوا أكثر من نصف سوريا حتىٰ حلب ، وهاجموا النجف ودمشق، وهكذا بدأ نشر المذهب عن طريق القوة والحرب ، وبقتال الدولة العثمانية .

---

(١) هذا المبحث وما بعده ملخص من عدة مصادر تتحدث عن كيفية سقوط الخلافة العثمانية ، منها « الدولة العثمانية – قراءة جديدة لعوامل الانحطاط » د. قيس عباس العزاوي ، ،الدار العربية للعلوم ط٢ سنة ٢٠٠٣م ، و « التاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلىٰ الانحدار » لخليل أينا لجيك ، ترجمة محمود الأرناؤوط ، ط١ ، دار المدار الإسلامي ليبيا ٢٠٠٢م و « أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ : الدولة العثمانية ، للدكتور جمال عبد الهادي وآخرين » ط١ دار الوفاء بالمنصورة –مصر ١٩٩٥م ، و « الدولة العثمانية : عوامل النهوض وأسباب السقوط » ، الصلابي/ ص٥٦٥.

ولم تستطع الخلافة صدهم عن المدينة وبغداد ودمشق ، فاستعانت بواليها في مصر محمد علي الكبير - عميل فرنسا الذي أرسل ابنه طوسون سنة ١٨١١م، فاحتل المدينة ، ثم أرسل ابنه إبراهيم سنة ١٨١٦م، فاحتل عاصمتهم الدرعية وحرثها بالمحراث فلم يُبقِ لها أثراً عام ١٨١٨م، وأمدت إنكلترا الحركة الوهابية بالمال والسلاح لاستثارة الدولة العثمانية ضدها، ثم أثارت الخلافة العثمانية ضدها خداعاً لها بأن الحركة ضد الإسلام وضد الخلافة، فقضت عليها، وتخلصت من ظهور الإسلام النقي من الخرافات في آن واحد، وبذا فازت بريطانيا بهذه الخطة! كما فازت فرنسا.

الفرع الثاني: **تآمر فرنسا علىٰ الخلافة العثمانية**: بتشجيعها لمحمد علي رسمياً علىٰ إعلان الحرب عليها عام ١٨٣١، فاستقل عنها رسمياً وسار لفتح الشام، واحتل فلسطين ولبنان وسوريا، وبدأ يتوغل في الأناظول، غير أن الخليفة أرسل جيشاً قوياً لمحاربته، تعهدت الدول (إنكلترا وروسيا وألمانيا) بالدفاع عن أراضي الدولة العثمانية، بما أعان الخليفة علىٰ إجلاء محمد علي عن سوريا وفلسطين ولبنان، وعودته لمصر، ورضي أن يكون والياً تابعاً للخليفة.

المطلب الثاني

إثارة الدول الأوروبية للنعرات القومية والنزاعات الاستقلالية

واستغلت النصارىٰ ابتداءً لتحقيق هذا الهدف، **وكانت مراكزها في إستنبول وبيروت، كما أسهمت بغداد والقاهرة ودمشق بها،**

أما في لبنان: ففي سنة ١٨٤٧م تأسست (جمعية الفنون والعلوم) في بيروت بإرسالية أمريكية برئاسة عميلين نصرانيين (بطرس البستاني، وناصيف اليازجي)، وجميع المنتسبين إليها نصارىٰ.

سنة ١٨٥٠م تأسست (الجمعية الشرقية)، أسسها اليسوعيون المبشرون، وجميعهم نصارىٰ.

سنة ١٨٥٧م تأسست جمعية ثالثة من النصارىٰ العرب والدروز والمسلمين القوميين، من ١٥٠ عضواً.

سنة ١٨٧٥م تأسست الجمعية السرية برئاسة (خمس شباب كلهم نصارىٰ).

وكانت جميعها تدعو إلىٰ القومية العربية وفصل الدين عن الدولة، وتذم الأتراك في أنهم اغتصبوا الخلافة من العرب، وأنهم محتلون وأعداء، هذا في لبنان. علماً بأن النصارىٰ العرب كلاب ، كما ينص علىٰ ذلك الإنجيل ، وقد مرّ بنا.

أما في إستنبول: قلب الخلافة الإسلامية، فقد أنشؤوا جمعية ثورية سرية (تركيا الفتاة، أو الاتحاد والترقي) في باريس، بشباب أتراك تشبعوا بالأفكار الفرنسية برئاسة (أحمد رضا بك) لنقل الحضارة الغربية إلىٰ تركيا، وفروعها في برلين وسلانيك وإستنبول برعاية فرنسية قوية وإعلام سري يدخل إلىٰ تركيا، وانضم إليها بعض وزراء الدولة السابقين، وكبار موظفيها، وممن يريدون الإصلاح، وكثير من الضباط، واحتضنت المحافل الماسونية هذه الجمعية وكانت جلساتها تعقد في غرف المحافل، بكتمان شديد.

واستمرت بالعمل السري في داخل تركيا حتىٰ قامت بالانقلاب، واستولت علىٰ الحكم عام ١٩٠٨م، ورضيت دول أوروبا عنها، حتىٰ إن سفير إنكلترا الجديد إلىٰ إستنبول (جرالدلوثر) ربط الاتحاديون عربته وجرّوها بدلاً عن الخيل، مبالغاً في إكرامه !

وصار لهذه الجمعية التحكم في الدولة كلها حاضرها ومستقبلها، بتفضيل القومية التركية علىٰ سائر المسلمين، بما مزّق الوحدة الإسلامية والوطنية بين الأتراك والعرب والأرمن والألبان والشركس وسائر القوميات.

حاول العرب العقلاء جمع الأتراك والعرب بوفاق كإخوان يجمعهم الإسلام، ولكنهم فشلوا ، ومنهم جمال باشا حاكم سوريا المعروف بالسفاح لإعدامه بضعة عملاء للفرنسيين من النصارىٰ، وكان علىٰ حق في شنقه الخونة.

المطلب الثالث

الغزو التبشيري والثقافي

الفرع الأول : في لبنان :

تجدد النشاط التبشيري فيها عام ١٨٢٠م بفتح أول مركز تبشيري للمبشرين في بيروت، بتشجيع من إبراهيم باشا، فانتشرت البعثات التبشيرية في جميع بلاد الشام ، بتأثير من فرنسا وإنكلترا وأمريكا، وفتحت كلية للتبشير في لبنان، ونقلت الإرسالية الأمريكية مطبعتها من مالطة إلىٰ بيروت سنة ١٨٣٤م، أصبحت بيروت تحت نفوذ فرنسا بواسطة محمد علي وابنه إبراهيم ، كما نشطت المدارس التبشيرية ومؤسساتها، وانتشرت الفتن بين أهالي بلاد الشام ، بسبب سياسة التبشير المعادية للإسلام ، حتىٰ وقعت مذابح سنة ١٨٦٠م، فتدخلت الدول الغربية بإرسال بوارج فرنسية في حملة برية وبحرية إلىٰ بيروت، وسيطروا علىٰ البلاد وفتحوا الأبواب للمدارس والكليات، خاصة جامعة القديس يوسف اليسوعية، كما فتح الأمريكان الجامعة الأمريكية عام ١٨٦٦م، قامت بأشدّ الحملات ضد الإسلام والمسلمين وحوّلت آلافاً من أبناء المسلمين إلىٰ أفكار الكفر، وأكدت علىٰ العلمانية وفصل الدين عن الدولة، واحتقار الإسلام والمسلمين.

وعُني المبشرون باللغة العربية ليوجهوهم بها عن الإسلام إلىٰ العروبة ، وحمل لواءها النصارىٰ ، ومنهم (ناصيف اليازجي، والأب لويس شيخو)، وتصدر النصارىٰ لحمل القومية العربية، كما تصدروا لحمل اللغة العربية إلىٰ العرب !

الفرع الثاني:

دور مالطة في التبشير: ابتدأ من أواخر القرن السادس عشر حين تأسس مركز كبير للتبشير فيها، منها يرسل المبشرون إلىٰ الشرق الإسلامي، ثم انتقل المبشرون منها إلىٰ بلاد الشام سنة ١٦٢٥م، حيث بدؤوا العمل بمشقة واضطهاد المسلمين لهم، ثم خمد التبشير قرنين، ثم تجدد نشاطهم بدعم من فرنسا أيام محمد علي باشا الكبير.

المطلب الرابع

محاولات إدخال الأحكام الدستورية الغربية

لم تكتف الدول الغربية بإفساد أولاد المسلمين في الجامعات والمدارس والإعلام فحسب، بل عمدت إلىٰ الدولة نفسها، في تغيير نظام الحكم، وتغيير الأحكام الشرعية، بإزالتها ووضع القوانين الغربية مكانها..

الفرع الأول : عهد الخليفة عبد المجيد الأول :

كان الخليفة بعمر ١٧ عامًا، وكان سفيره فوق العادة في لندن (رشيد باشا)، سارع إلىٰ إستنبول وعين وزير الخارجية، فبدأ يدعوا إلىٰ تغيير نظام الحكم الدستوري ليرتفع بالدولة العثمانية إلىٰ مصاف الدول المتقدمة ! فاستجاب الخليفة الشاب، وأعدت وثيقة الدستور بكتمان بالمراحل الآتية:

- سنة ١٨٣٩م كتب (الخط الشريف) المشهور باسم (كلخانة)، وكانت حبراً علىٰ ورق ولم تمارس.
- سنة ١٨٥٥م أصدر السلطان منشور إصلاح آخر باسم (خط همايون) أكدّ فيه المرسوم السابق، سبق أن شرحنا بنوده في عهد السلطان عبد المجيد،

١ـ وأهم ما فيه السماح للنصراني الذي يسلم أن يرجع إلىٰ دينه.

٢ـ وسمح للنصارىٰ بامتلاك الأراضي في الدولة العثمانية، غير أن الوعي الإسلامي للدولة والشعب رفضه ، حتىٰ مجيئ مدحت باشا.

الفرع الثاني:

عهد الخليفة عبد العزيز:

محاولة مدحت باشا وضع دستور الدولة وقدم مسّودته إلىٰ الـوزارة وحصل علىٰ موافقتها عليه، ثم قدمه إلىٰ السلطان فغضب، وأصدر أمره بعزل مدحت باشا من الوزارة وإبعاده والياً علىٰ سلانيك، ثم تمّ اتفاق حسين عوني باشا مع مدحت باشا في قتل السلطان عام ١٨٧٦م، لرفضه الدستور المقترح.

الفرع الثالث:

عهد السلطان مراد: كان آنئذ مختل العقل، وكان الدستور قد اكتمل، فعزل بفتوىٰ المفتي سنة ١٨٧٦م.

الفرع الرابع:

عهد السلطان عبد الحميد الثاني: اكتمل الدستور تحت اسم (قانون أساس)، وكان مستوحىً من الدستور البلجيكي، وكان مدحت باشا الصدر الأعظم، أقر هذا الدستور، مع مراعاة بعض النواحي الإسلامية، كما أقر مجلسين - النواب - باسم (المبعوثان) والشيوخ (بمجلس الأعيان)، وأقرّ أن يجتمع المجلسان مرةً كل سنة، وبعدها تتم موافقة السلطان علىٰ القوانين، ويكون الحكم في الولايات علىٰ أساس اللامركزية.

وقوف السلطان عبد الحميد بوجه دستور مدحت - باعتباره أحكاماً ديموقراطية، تناقض الإسلام، وإن تطبيق أحكامه يعني إلغاء نظام الخلافة. وحين علم السلطان عبد الحميد بتدخل إنكلترا في موضوع الدستور، أقال مدحت باشا كصدر أعظم، باعتباره مرتكباً للخيانة العظمىٰ.

الفرع الخامس :

مؤتمر برلين : عقد سنة ١٨٧٨م من الدول الكبرىٰ (إنكلترا وروسيا وألمانيا) لدراسة مدىٰ الاصلاحات العثمانية في البلقان، وكان (دزرائيلي اليهودي) رئيساً للمؤتمر وهو

رئيس وزراء إنكلترا، وكان بسمارك قد مثل ألمانيا، ووقف بجانب الدولة العثمانية ضد إنكلترا، واستمرت اجتماعات المؤتمر أربعة أسابيع، واتخذت قرارات تطلب من الدولة العثمانية الالتزام بها، فلم يأبه بها السلطان، وانصرف إلىٰ تدريب جيشه، وهدد بالبطش بكل من يدعو للاعتماد علىٰ الدول الغربية أو يطالب بترك الإسلام، فلجأ أعداء الخليفة وأنصار الدستور إلىٰ مغادرة البلاد، لينشئوا مراكز لهم في باريس وجنيف خاصة، باسم (تركيا الفتاة) و(الاتحاد والترقي) .

وتطورّت جهودها بدعم من الدول الثلاث، حتىٰ ثار هذا الحزب علىٰ السلطان عام ١٩٠٨م، وأعلنوا الدستور، واحتلوا إستنبول، وأكرهوا السلطان عبد الحميد علىٰ إقرار الدستور وتعيين وزراء يرضون عنهم، ثم افتتح البرلمان العثماني وكان عبد الحميد مصمماً علىٰ الغاء الدستور، والرجوع إلىٰ الشريعة الإسلامية - واندلعت الثورة الشعبية والجيش منادين بسقوط تركيا الفتاة.

ثم عين السلطان صدراً أعظم آخر، عهد إليه بإعادة الشريعة الإسلامية والأحكام الشرعية إلىٰ حيز التنفيذ، وإلغاء الدستور، غير أن الجيش الثالث في سالونيك تحرك مرة أخرىٰ ضد السلطان واستولىٰ علىٰ الحكم، وعزل الوزارة.

وفي العام نفسه تم خلع السلطان عبد الحميد، وعُيّن مكانه أخوه محمد رشاد، وأعيد وضع الدستور موضع التنفيذ، وبذا تغير نظام الحكم في الدولة العثمانية، وصار دستوريا برلمانيًا، ولم يعد نظام خلافة، ولم يبق إلا رئيس الدولة اسمه الخليفة وبيده السلطنة، فصار للبرلمان حق التشريع للقوانين، وانتهىٰ دور الأحكام الشرعية في الحكم والتشريع، واستبعد القانون المدني (الفقه الإسلامي) وحلّ محله القانون المدني الفرنسي القديم.

المطلب الخامس

الدولة العثمانية والحرب العالمية الأولىٰ

الفرع الأول: حروب الدردنيل

وصلت أساطيل الحلفاء إلىٰ الدردنيل عام ١٩١٥م، غير أن الجيش العثماني صدها بعد صمود وتضحيات من قبل الجانبين العثماني والانكليزي - الفرنسي، وكان قائد الحلفاء (الجنرال هاملتون) يطلب مدداً بالرجال والمال لفداحة الخسائر وصلابة الجيش العثماني، غيرأن جيش الحلفاء انسحب فجأة ولم يستطع احتلال الدردنيل .

حاولت دول الحلفاء الحصول علىٰ موافقة جمال باشا قائد الفيلق الرابع وحاكم سوريا بالانقلاب علىٰ الدولة والعمل مع الحلفاء، فاشترط شروطًا انقسم الحلفاء إزاءها ، ثم رفضت شروطه ، وتحولوا إلىٰ الخائن الثاني (شريف مكة - الحسين) الذي أعانهم بقدر محدود.

الفرع الثاني: ظهور مصطفىٰ كمال :

كانت المضائق التركية العقبة الكؤود في عدم إيصال الإمداد لروسيا من قبل حلفائها إنكلترا وفرنسا إليها في الحرب العالمية الأولىٰ، مما حمل الانكليز علىٰ هجوم كاسح علىٰ الدردنيل في السنة الثانية من الحرب ١٩١٥م، واستطاعوا تشتيت الفرق العثمانية إلىٰ غاليبولي، فعزل القائد الألماني الجنرال (فون ساندروز) القائد العثماني وعين بدله الكولونيل مصطفىٰ كمال، والعثمانيون في أعلىٰ الجبل، والإنكليز في سفوحه، واستمرت المعركة أشهراً، إلا أن الانكليز رحلوا فجأة من دون معرفة السبب ، فكتب النصر لمصطفىٰ كمال في هذه المعركة (أنا فورطة)، وحُقق له نصر وسمعة رهيبة، رغم أن نصره رجّح كفة ألمانيا في الحرب إذ أمنّ جانب روسيا العاجزة عن مواجهتها بنقص السلاح لديها.

أُبعد مصطفىٰ كمال إلىٰ القفقاس لحديثه الصريح مع المسؤولين في امتداح إنكلترا وذم المانيا، وخراب الدولة العثمانية بهذه الحرب .

ثم إن سقوط بغداد عام ١٩١٧م بيد الانكليز حمل مصطفىٰ كمال علىٰ مطالبة الدولة العثمانية بالانسحاب من الحرب، رغم انتصار العثمانيين علىٰ الانكليز في كوت العمارة، وأسر جميع قواتها، غير أن الإنكليز استأنفوا الهجوم واحتلوها مع بغداد عام ١٩١٧م، وواصلوا زحفهم نحو الموصل، فاضطربت وزارة الحربية العثمانية، وعقدت الاجتماعات العسكرية والسياسية بين القائد الالماني والوزير أنور، وزير الحربية، وهو من أبرز أركان حزب الاتحاد والترقي - ومصطفىٰ كمال، لغرض استرداد بغداد بخطط لم تنفذ، غير أن مصطفىٰ كمال وبتأييد من جمال باشا، عارضا الحرب بصراحة، بما أفشل مشروع استردادها.

المطلب السادس

محاولات مصطفىٰ كمال لتسلم الحكم

الفرع الأول: نية الصلح مع الحلفاء:

توفي السلطان محمد رشاد سنة ١٩١٨م، واعتلىٰ العرش مكانه محمد وحيد الدين (محمد الخامس)، الذي صَاَحب مصطفىٰ في زيارتهما إلىٰ المانيا، ليرىٰ قوة المانيا، ويقتنع بترك آرائه.

وحين تولىٰ محمد الخامس السلطة سارع صديقه مصطفىٰ إلىٰ زيارته، فرحبّ به غاية الترحيب، وطلب مصطفىٰ كمال من السلطان أن يجرّد رئيس الوزراء (أنور) والقواد الألمان من كل سلطة، ويستأثر السلطان وحده بالسلطات كلها، وان يكون مصطفىٰ القائد العام، لإنقاذ تركيا من الهاوية، ويعقد صلحـًا منفرداً مع الحلفاء، لم يستجب السلطان وآثر الصمت، بعد ثلاث مقابلات، ثم صرفه،

ثم دعا السلطان مصطفىٰ، وكان بين حاشيته هو وبعض القواد الالمان، فامتدح السلطان مصطفىٰ، ثم توجه اليه أن قد عينتك قائداً لجبهة سوريا، ثقة بقدراتك، ثم صرفه من غير أن يترك له أية فرصة للكلام.

الفرع الثاني: انسحاب مصطفىٰ كمال من سوريا وتركها للانكليز:

إلتحق مصطفىٰ بالجبهة السورية عام ١٩١٨م فتسلم قيادة الجيش السابع من القائد الألماني ساندروز، ولكن انسحب منها بحجته ألاّ فائدة من تنظيم خط دفاعي، والأهم بحجته حماية الأراضي التركية.

ثم إن (لورنس) ضابط الاستخبارات البريطاني طلب من بعض الزعماء العرب الخونة أن يستخدم مصطفىٰ نفوذه ليقنع الحكومة بعقد صلح منفرد مع الحلفاء.

فأبرق إلىٰ السلطان بتعيين عزت باشا رئيسـًا للوزراء، وهو صديقه الذي كتب له برقية

خاصة: (إذا شاء الله آمل أن نلتقي كرفيقين بعد عقد شروط الهدنة)، كما اقترح مصطفىٰ علىٰ السلطان أسماء الوزراء ، وأن يشكلوا الوزارة.

غير أن هذا الاقتراح تحقق بعد انتهاء الحرب.

الفرع الثالث: استسلام الدولة العثمانية واقتسام أراضيها

أما رئيس الوزراء (أنور) فبعد هزائم جيوشه - حاول جمعها، فأخفق طالبـًا عقد الهدنة منتظر المفاوضات لعقد شروطها، وهكذا استسلمت الدولة واحتلها الحلفاء، وبدأ التمزيق للامبراطورية العثمانية بين الحلفاء، واستخدموا (القومية التركية والنزعة الوطنية) سلاحـًا في انهيار الامبراطورية، فجعلوا البلاد الناطقة باللسان التركي قطعة واحدة، وكانوا يضفون علىٰ كلمة الاستقلال معنىٰ التحرر من احتلال الحلفاء، وواقع الحال هو الانفصال عن سائر أجزاء الامبراطورية التي لا تتكلم اللغة العربية، فمعنىٰ الاستقلال هو الانفصال عن سائر أجزاء الامبراطورية بنظر الانكليز، أما البلاد الناطقة باللسان العربي فاقتسموها قطعة قطعة.

وكان هذا التقسيم للغنائم قبل عقد معاهدة الصلح وقبل الاتفاق علىٰ شروطها، واقتسموها باحتلالها عسكريـًا باعتبارها دولاً محتلة في الحرب، وهذا إجراء باطل وغير مشروع دوليـًا، يدعمه (أن احتلال برلين بعد أربعين سنة لم يقرره احتلالها، وإنما قررته شروط الصلح، أو معاهدة الصلح، واتفاق الحلفاء عليها).

وإن جميع البلاد (لبنان وسوريا والعراق وفلسطين وشرقي الأردن والحجاز واليمن، وبقية دول الخليج، ومصر وليبيا والجزائر وتونس)، ليس لها رأي كياني، لا ذاتي ولا دولي، ولم تملك بمفردها سيادتها، لا داخليـًا ولا خارجيـًا، لذلك لا يملك أحد من أهلها حق المفاوضات الدولية، حتىٰ مصر كان مصطفىٰ كامل يطالب بجلاء الانكليز وارجاع مصر إلىٰ الخلافة في إستنبول.

أما الشريف حسين بن علي فهو خائن للخلافة في إستنبول، وهو متمرد عليها، لا يعطيه الصفة الدولية بحق التفاوض، إنما التفاوض مع الخليفة في مقر الدولة في إستنبول، وكل من

رافقه في المفاوضات من بقية العرب فهم خونة للدولة العثمانية الدولة الشرعية المسؤولة عن إمبراطوريتها.

وبهذا التفاوض المنفرد غير الشرعي - دوليـًا - جرىٰ تقسيم الدولة العثمانية تقسيمـًا باطلاً ! ولكن الحق للقوة ، وليس لذاته ولا أهله في شريعة العدو الكافر ! [(١)].

وإن هذا التقسيم كان سراً منذ ١٩١٥م، ثم بمعاهدة (سايكس بيكو) السرية عام ١٩١٦م بين إنكلترا وفرنسا وروسيا، فلما انتهت الحرب سارعت إنكلترا إلىٰ احتلال إستنبول وجميع البلاد العربية، وسارعت فرنسا لاحتلال لبنان وسوريا سنة ١٩٢٠م، وأسهمت ايطاليا عام ١٩١٩م بتملك الجانب الغربي من الأناضول، ولكنها منعت من قبل إنكلترا وفرنسا، واحتلت اليونان إزمير، ثم انتهت المؤامرة الكبرىٰ بمؤتمر لوزان الثاني، وبه انتهت دول الحلفاء من كل ما تريد بشكل دولي.

الفرع الرابع: ماذا بعد الاستسلام؟

يعد اقتسام الامبراطورية العثمانية - باطلاً بالقانون الدولي - بدأ التركيز علىٰ تركيا - مركز الخلافة، فاستولت بوارج الانكليز علىٰ البسفور بعد احتلالها الدردنيل وقلاعه الحصينة التي صمدت في بدء الحرب بوجه جيوش الحلفاء، وأجبرتهم علىٰ الانسحاب، كما احتلت جميع المواقع الحربية الهامة، وكان القائد العام للحلفاء هو الجنرال (هارنجتون) الإنكليزي، المحتل الحقيقي رغم إسهام الفرنسيين والطليان رمزيـًا معه.

بدأوا بخلق الأزمات أمام الخلافة، فطلبوا تغيير الوزارة، فاضطر الخليفة (محمد الرابع) إلىٰ تأليفها، كما أبرق اليه مصطفىٰ سابقـًا، برئيس الوزارة (عزت باشا) مع أعوانه الوزراء ، فنفذ ذلك الخليفة مكرهـًا، وهو ضعيف لا يملك من الأمر شيئـًا وكانت هذه الوزارة تحسن الظن بالإنكليز

---

(١) قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران ١١٨ ـ ١١٩] .

- وهم العدو الأخطر!

وانفرد الانكليز بعقد الهدنة، دون حلفائهم الفرنسيين، بعد احتلالهم لأهم بلاد تركيا، وبعد الهدنة بشهر طلب الانكليز من الخليفة إقصاء عزت باشا عن الوزارة وتسليم (طلعت وأنور) لهم، لاعتبارهما مسؤولين قبل غيرهما عن الحرب الكبرىٰ.

الفرع الخامس: محاولة الانكليز هدم الخلافة سياسياً وقانونياً: استجاب الخليفة إلىٰ أمر الانكليز بعزل الوزارة السابقة وعهد بها إلىٰ توفيق باشا - صديق الانكليز، استرضاء لهم، ولكنهم أرادوا تغيير مجلس النواب (المبعوثان) قبل ذلك، الذي لا تحبه تركيا، رغم أن أكثره من حزب الاتحاد والترقي الذي يرىٰ الاحتفاظ بالخلافة - أي الاحتفاظ بالإمبراطورية العثمانية جميعها، والإنكليز يريدون إلغاء الخلافة وسلخ باقي أجزاء الامبراطورية عن تركيا.

حاول مصطفىٰ كمال أن يقوم بالحل الدستوري للبرلمان، فلم يفلح، فحله السلطان حلاً تحكمياً مفاجئاً، من دون إعلان السبب، ثم إن السلطان كان حريصاً علىٰ منصب الخلافة، وكان يظن أنه لو كلف مصطفىٰ رئيساً للحكومة لدعمه، لما بينهما من صداقة قديمة، ولما وعده في حديث طويل معه بتأييده، غير أن الخليفة راودته الشكوك في مصطفىٰ، والخليفة حريص علىٰ منصبه، فألف الخليفة جمعية (أصدقاء الإنكليز) انتسب إليها الشباب وضباط الجيش - إضافة إلىٰ أن رئيس الوزراء الجديد - فريد باشا زوج ابنة السلطان، وكان معروفاً بـ(الجنتلمان الانكليزي)!

هكذا فإن تقرّب السلطان من الإنكليز، خيانة للدولة والأمة، وطمع بالبقاء في عرشه، غير أن عموم الشعب كان يبغض الإنكليز وينقم علىٰ المحتلين، وصار السلطان ووزراؤه ألعوبة بأيدي الإنكليز، الذين أضحوا هم السلطان الفعلي!

المطلب السابع

ثورات مصطفىٰ كمال علىٰ السلطان

الفرع الأول: مصطفىٰ في أزمير يهاجم السلطان

جاء اليونانيون بأساطيلهم وجيوشهم إلىٰ ميناء أزمير لاحتلالها باتفاق سري مسبق مع الإنكليز، وانطلقت طلقة نارية عليهم، مما حملهم علىٰ البطش بالأهالي والجيش العثماني، قتلاً وإهانة وبصاقًا علىٰ الوجوه، ونهبًا لبيوت المسلمين وتمزيقًا لحجاب المسلمات، ومن يعارض يقتل، وهذا شأنهم أبداً في كل زمان ومكان!

وسبق أن صدر أمر سلطاني علىٰ مصطفىٰ كمال بالإبعاد إلىٰ سمسون، فإذا به ينزل في أزمير في هذه الساعة، وأظهر بخطبه وبرقياته إلىٰ الأهالي أنه أتىٰ منقذاً لهم، وأنه أتىٰ منفذاً لخطة وافق عليها السلطان، وقاد مظاهرة سلمية ليحمل بها الانكليز علىٰ التدخل، ومنع التعرض إلىٰ النصارىٰ، ومما قاله: (إن الأمة التركية لا يمكن ان تقدر لها الحياة، وفيها حكومة تحركها أوروبا، كما تشاء!) إثارة للشعب علىٰ الثورة علىٰ السلطان.

الفرع الثاني:

أصر السلطان علىٰ عودة مصطفىٰ، ولكنه رفض قائلاً: (سأبقىٰ في الأنضول إلىٰ أن يتحقق استقلال البلاد).

ومن هذا الموقف الخطير يتبين أن الإنكليز هم الذين هيأوا كل شيء، تمهيداً للثورة علىٰ السلطان، هم الذين استقدموا اليونانيون برعاية أسطولهم، وهم الذين استقدموا مصطفىٰ بحجة القضاء علىٰ الشغب المصطنع بين اليونانيين والأتراك، ووجهوه وجهة التمرد والعصيان .

الفرع الثالث: دعم إنكلترا لثورة مصطفىٰ كمال

لو ترك مصطفىٰ كمال أن يقف في خطته إلىٰ هذه النهاية، لما استطاع أن يتجاوزها، لأن

الشعب جميعه تقريباً كان متمسكاً بالخلافة.

غير أن الانكليز أثاروا الإعلام الغربي بضخامة الاضطرابات في تركيا، واقترحوا مؤتمراً للصلح بين الحلفاء في باريس، غير أن فرنسا أدركت خداع إنكلترا، وكانت قرارات المؤتمر صارمة ضد الحكم العثماني الكريه - كما وصفوه ، وأن أوروبا مجمعة علىٰ فتح موانئ البحر المتوسط والأسود في وجه جميع الأمم، وذلك لإثارة الأتراك ضد السلطان ولكن فرنسا وإيطاليا لم تكونا راضيتين عن شروط المؤتمر ودعتا إلىٰ مؤتمر لندن في ١٩٢١م لإلغاء هذه المعاهدة.

الفرع الرابع: مراوغات مصطفىٰ مع السلطان

طرح مصطفىٰ كمال وجهة نظره بأن المقاومة للاحتلال هي الأمل الوحيد، فوافقه الجميع، وأن ينظموا العصابات ضد اليونانين في إزمير، وأن يقتسم الثلاثة قيادة القوات التركية - في الغرب - علي فؤاد، وكاظم قره بكير في الشرق، ومصطفىٰ كمال في الوسط.

وطلب مصطفىٰ إقامة حكومة وقتية، فثار الجميع بوجهه لأنها تحدّ للسلطان والجميع يحبونه ولا يريدون إغضابه، فاضطر مصطفىٰ إلىٰ النزول إلىٰ إرادتهم، وأعلن أن الخلافة لا تمسه بسوء، وأنه لا يمسها بسوء، وأكّد وعوده. كرر مصطفىٰ ولائه للسلطان وكان كل من الإثنين لا يطمئن للآخر .

المطلب الثامن

خطوات مصطفىٰ كمال في تسلم الحكم

الفرع الأول: اتخاذ أنقرة مركزاً لحكمه، وإعادة انتخاب البرلمان

بدأ بالاستعداد لانتخابات البرلمان الجديد، من غير مساسٍ بالخلافة، وانتقل مصطفىٰ إلىٰ أنقرة ليقيم فيها مركزاً له، فاستقبله الأهالي بالقرآن الكريم وزغاريد النساء والتهليل والتكبير، ودخلها دخول المنتصر، وتمت الانتخابات الجديدة، وانتخب مصطفىٰ عضواً برلمانيا عن أنقرة.

افتتح البرلمان في إستنبول عام ١٩١٩م بخطاب العرش، وجرىٰ الانتخاب، وامتنع النواب عن انتخاب مصطفىٰ رئيسًا، وبلغت الدول الأوروبية الحكومة العثمانية مذكرة رسمية بأن إستنبول والمضائق تبقىٰ تحت تصرف السلطان، وبذل مصطفىٰ جهداً واسعًا لأخذ الحكم بصورة شرعية، وقلبه إلىٰ نظام جمهوري، بدلاً من السلطنة، فجن جنونه، وقرر أخذ الحكم بالقوة ، بعد أن انتخب مجلس النواب علي رضا باشا رئيسًا للوزراء.

أخذ مصطفىٰ يعد الجيوش ويستعد للقتال، وقاتل الحلفاء وانتصر عليهم، غير أن الإنكليز احتلوا إستنبول سنة ١٩٢٠م، وأعلنت الأحكام العرفية فيها، واعتقل الكثير من الضباط.

الفرع الثاني: نقمة الناس علىٰ السلطان لوقوفه بجانب الانكليز

حث السلطان عن طريق وزرائه علىٰ الخلود إلىٰ السكينة حين احتلال إستنبول، مما أدىٰ إلىٰ فقد السلطان هيبته المقدسة، وإلىٰ نقمة الناس عليه، وتحكم الإنكليز في تغيير الوزارة وحل البرلمان، وصدرت فتوىٰ شيخ الإسلام أن تشعل الحرب علىٰ العصاة الثائرين علىٰ السلطان، وهم أعوان مصطفىٰ، وصدرت إرادة سلطانية بإعدام مصطفىٰ كمال ومن معه، أما الإنكليز فقد انسحبوا من أراضي تركيا، هم والطليان من دون حرب، ليكون نصراً

لمصطفىٰ علىٰ الحلفاء يُعلي رصيده لديهم.

فانقسمت البلاد إلىٰ الإنكليز وبجانبهم الخليفة والحكومة، وحزب مصطفىٰ وإلىٰ جانبه الأهالي جميعـًا، وهو قائدهم ضد الانكليز! وكان أكثر الضباط بجانبه، وكذا الموظفون.

وجرت الانتخابات الشكلية فانتخب الكماليون دون سواهم، ولم ينجح أي نائب غير كمالي. ثم انعقد المؤتمر القومي في أنقرة.

الفرع الثالث: إقامة مصطفىٰ جهاز الدولة في أنقرة وموقف السلطان منه

مع إقامة جيش نظامي، ودوائر الحكومة وصحافة مطبوعة وهيأها لتكون عاصمة الجمهورية، وانتخب مصطفىٰ رئيسـًا للمجلس القومي، وأصدر قرارات ألغىٰ بها المعاهدات التجارية التي سبق أن تمت بين حكومة إستنبول والدول الأجنبية - باطلة، وأن مصادر دخل الدولة تحت حكومة أنقرة.

فما كان من السلطان إلا أن يسيّر حملة عسكرية للقضاء علىٰ حكومة أنقرة ، سار بالجيش مع تحريض القبائل الكردية عليها، ولم يزل الشعب معتبراً طاعة السلطان طاعة لله وعصيانه عصيانـًا لله، نجح جيش الخليفة في أسر فرقة كاملة من الفرق الكمالية، واستمرت المعارك بين الجانبين شهراً كاملاً سنة ١٩٢٠م، وانتصر جيش السلطان انتصاراً ساحقـًا، وانضمت إليه جميع المقاطعات، وكانت أنقرة علىٰ وشك السقوط ، وباتت حياة مصطفىٰ كمال معلقة بخيط ، وأوشك علىٰ النهاية.

ثم عقد الصلح مع مصطفىٰ - بصالحه، وأمضيت في باريس، باسم (معاهدة سيفر) وقع عليها السلطان ورئيس وزرائه - وأذيعت بعد الهدنة بسنة ونصف، علىٰ الشعب التركي من قبل لويد جورج - رئيس وزراء إنكلترا قائلاً: (إن غرض الحلفاء هو تحرير الأمم غير التركية من النير التركي)، وذلك في اللحظة التي حوصر فيها مصطفىٰ في أنقرة، ولم يبق بينه وبين السقوط شيء، فزاد الهياج علىٰ الإنكليز وعلىٰ حليفهم الخليفة ووزرائه، فتغير الموقف

رأساً علىٰ عقب، وانصرف الناس من الخليفة إلىٰ مصطفىٰ كمال، باعتباره ثائراً ضد الإنكليز - بمسرحية نادرة في عمر التاريخ ! وهزم جيش الخليفة شرّ هزيمة، وصار مصطفىٰ هو المنقذ من الاحتلال !

خطورة معاهدة (سيفر) الموقعة من قبل السلطان ورئيس وزرائه ومن بنودها :

١- بلاد العرب - الحجاز دولة مستقلة، وترك تركيا سيطرتها علىٰ فلسطين وسوريا والعراق، ومستقبلها يقرره الحلفاء.

٢- تركيا الأوروبية منحت إلىٰ اليونان.

٣- سميرنا والجزر الايجية، تحت الإدارة اليونانية، ورودوس لإيطاليا - وقتياً.

٤- أرمينيا - دولة مستقلة.

٥- كردستان - حكم ذاتي للأكراد - شرقي نهر الفرات، ثم تعديل الحدود مع ايران، وأوصوا بمنحهم الاستقلال.

٦- المضايق تحت إشراف دولي، وتبقىٰ إستنبول تحت السيادة التركية.

٧- تحديد الجيش التركي بـ ٥٠,٠٠٠، واخضاعه لتوجيه الحلفاء.

مع شروط أخرىٰ لا داعي لذكرها.

الفرع الرابع: حكومة أنقرة واتصالها بالدول مباشرة:

بعد استقرار مصطفىٰ في حكومته، دعت إنكلترا إلىٰ عقد **مؤتمر لندن** عام ١٩٢١، فدعت مصطفىٰ كما دعت وفد الخليفة برئيس وزرائه، فرفض مصطفىٰ، ثم وافق، كما رفض الخليفة، ثم وافق كذلك، وكان هذا المؤتمر بصالح بقية دول الحلفاء - فرنسا وإيطاليا، للمزيد من غنائمهما.

وفي المؤتمر تنازل رئيس وزراء السلطان عن الحديث إلىٰ رئيس دولة أنقرة، وأن كلمته

هي العليا، فشل **(مؤتمر لندن)** في تقسيم التركة بين الدول الأوروبية، وانفض عن غير شيء، وبعد رجوع الوفدين رفض مصطفىٰ كمال المعاهدة.

الفرع الخامس : مصطفىٰ كمال والمشكلة اليونانية

وهي المشكلة الوحيدة العسكرية أمام مصطفىٰ، للتخلص من الجيوش اليونانية في تركيا، بدأت اليونان بالهجوم علىٰ الأتراك، واستمر القتال سنة ونصف، وأعلن الحلفاء ابتداءً حيادهم، زحف اليونانيون علىٰ أسكىٰ شهر وأفيون قره حصار، عام ١٩٢٢م، ثم هُزِموا إلىٰ بروسة، ثم حاولوا احتلال إستنبول، ولكن القائد الانكليزي وقف بوجوههم، واستمرت الحرب ضد الجيش العثماني وانتصروا عليه انتصارات، صمد الجيش العثماني، غير أن مصطفىٰ كمال حين وصل المعركة أمر بالتراجع وترك السلاح والغنائم الكثيرة لليونان، مما أنزل رصيد مصطفىٰ إلىٰ الحضيض في الجيش وفي حكومته بأنقرة، غير أن المعركة استمرت مع اليونانيين، وكانت الخسائر فادحة، غير أن الحلفاء ضغطوا علىٰ الجيش اليوناني لينسحب، وكان الجيش التركي يهاجمه بانسحابه، وحين وصوله إلىٰ أزمير أخلوها من غير طلقة رصاص فيها، وطلبت إنكلترا وفرنسا وإيطاليا الهدنة، فعقدت في عام ١٩٢٢م، وتخلىٰ اليونانيون عن تركيا، وانتهت الحرب.

وبدأت الدعاية البريطانية لمصطفىٰ كمال بين الحرب التركية اليونانية، باعتباره البطل المنتصر ولقّب بـ(الغازي) لينزل بالسلطان بعدها الضربة المميتة.

الفرع السادس : مصطفىٰ كمال وإلغاء الخلافة :

بعد انتهاء المشكلة اليونانية وملحقاتها، تفرغ مصطفىٰ إلىٰ الغاء الخلافة، غير أن اكثرية المجلس القومي أشعرته علنا باستعدادها لمقاومته، مما اضطر مصطفىٰ إلىٰ التريث، ولم يحدّث أحداً بنواياه، وأخبر المجلس أنه واهم في عالم الخيال ! فهدّأ بتصريحه العاصفة ضده.

ثم إن انسحاب الفرنسيين والإيطاليين واليونانيين من تركيا، جعل الحامية الإنكليزية هي الوحيدة في السلطة، بقيادة هارنجتون ، وهو سراً صديق لمصطفىٰ، وكانت قوة مصطفىٰ

وشعبيته طاغية، والسلطة بيده، ولا يملك الخليفة أي شيء سوىٰ الاسم ! وكان يقاسي من أمراض ألمّت به، ولا أحد يستجيب له، وكان الناس يتصدقون عليه، ويقترض ليعيش.

بعد مؤتمر لوزان بأسبوعين، قام (رفعت باشا) بانقلاب عسكري مفاجئ في إستنبول، استولىٰ علىٰ مقاليد الحكم عن طريق الجيش، تحت بصر الجنرال هارنجتون وسمعه، فكتب السلطان إلىٰ القائد الانكليزي ملتمساً حمايته، وحياته تواجه الخطر.

وبعد يومين جاءت سيارة إسعاف انكليزية إلىٰ قصر السلطان فخرج يتبعه ابنه، وخادم يحمل حقيبته الصغيرة ومتاعه، وانطلقت به السيارة إلىٰ زورق بخاري حمله إلىٰ بارجه انكليزية انطلقت به إلىٰ مالطة في ١٧ تشرين الثاني ١٩٢٢م.

الفرع السابع: تولي السلطان عبد المجيد بن عبد العزيز بن عم وحيد الدين الخلافة:

فأسرع الكثير من مؤيدي الخلافة إليه يعلنون تأييدهم له، واكتفىٰ مصطفىٰ كمال بفصل السلطنة عن الخلافة واستأثر بالسلطة، وترك الخليفة مجرداً من أي سلطان، وأخذ يستعد لمؤتمر الصلح.

الفرع الثامن: الإنكليز يشترطون الغاء الخلافة وعلمنة الدولة

وكان ذلك في مؤتمر لوزان ٢٠ تشرين الثاني ١٩٢٢م، وأعلن ممثل إنكلترا أربع شروط للاعتراف باستقلال تركيا، وهي:

١- قطع تركيا لكل صلة لها بالإسلام.

٢- إلغاء الخلافة إلغاء تاماً.

٣- طرد الخليفة خارج الحدود ومصادرة أمواله.

٤- إعلان علمانية الدولة.

وانفض المؤتمر في ١٩٢٣م، باتخاذ دستور مدني بدلاً من دستور تركيا الإسلامي القديم.

المطلب التاسع

مصطفىٰ كمال رئيس الجمهورية التركية

الفرع الأول: انتخابه :

مرّ مصطفىٰ كمال بظروف صعبة، وسط معارضة الأغلبية في إلغاء الخلافة، لغرض تحقيق شروط معاهدة لوزان ، غير أنه ما تمكن من إزاحتها من أمامه ، حتىٰ هيّأ مجلس النواب بجرأته وصرامته أن ينتخبوه، أول رئيس للجمهورية التركية، واشترك ٤٠٪ من النواب بالتصويت.

فأخذ يعمل لإلغاء الخلافة، وإعلانها علمانية، فبدأ الرأي العام يهاجمه، وكذا الخطباء والوعاظ ووزعت النشرات ضده، وغادر الكثيرون من النواب أنقرة إلىٰ إستنبول، واخذوا يلتفون حول الخليفة عبد المجيد، وصار الجو في جميع تركيا ضده، وأرسلت الهند علماءها للاحتجاج، ومنهم آغا خان زعيم الطائفة الإسماعيلية.

اجتمع المجلس الوطني الكبير في عام ١٩٢٤م، وكانت الخطبة الأولىٰ في ضرورة القضاء علىٰ الخلافة، فقوبل بعاصفة من المعارضة الشديدة، كما طالب بفصل الدين عن الدولة، وحصلت مشادات عنيفة لمدة ثلاثة أيام بلياليها تقريباً من دون نتيجة.

الفرع الثاني : ترحيل السلطان عبد المجيد خارج تركيا :

في آخر ليلة من اجتماع المجلس الوطني الكبير أرسل مصطفىٰ كمال أمراً إلىٰ حاكم إستنبول بمغادرة الخليفة عبد المجيد تركيا قبل فجر اليوم التالي، فذهب تصحبه حامية من رجال البوليس والجيش إلىٰ قصر الخليفة في منتصف الليل ، وأجبر أن يستقل سيارة حملته عبر الحدود في اتجاه سويسرا، بعد أن زودته بحقيبة فيها بعض الثياب وبضعة جنيهات.

وبعد يومين حشد مصطفىٰ كمال جميع أمراء القصر وأميراته ورحلهم خارج البلاد، وألغيت كل الوظائف الدينية وأصبحت أوقاف المسلمين ملكاً للدولة ، وتحولت المدارس

الدينية إلىٰ مدنية، وبهذا نفذ مصطفىٰ الشروط الأربعة التي أمر بها سيده وزير خارجية إنكلترا ! فانعقد مؤتمر الصلح بعدها في عام ١٩٢٤م، ووافق علىٰ شروط الصلح ، واعترفت الدول باستقلال تركيا ، وانسحبت إنكلترا من إستنبول والمضايق وغادر (هارنجتون) تركيا، وصرح كرزون الإنكليزي بأن تركيا قضي عليها، ولن تقوم لها قائمة، لأننا قضينا علىٰ القوة المعنوية فيها، الخلافة والإسلام !

دعا أتاتورك الجمعية التأسيسية عام ١٩٢٤م، وطرح عليها **مشروع إلغاء الخلافة** التي سماها (الورم من القرون الوسطىٰ)، فوافقوا بالإجماع، **كما وافقوا علىٰ إقامة الجمهورية في اليوم التالي، فبكىٰ العالم الإسلامي الخلافة ونعوها بحزن عميق.**

غير أن الثأر للإسلام، لم يزل يتحدىٰ، والحمد لله.

علىٰ الشرق نار وفي الشرق عار وللشرق ثار[1]

---

(١) محمد حسن اسماعيل عن مجلة المسلمون، عدد/ ٥

المطلب العاشر

رجوع تركيا إلىٰ الإسلام برحمة الله

ولله الحمد والمنة أن أبقىٰ في الشعب التركي الغيرة الإسلامية، لطيب هذا الشعب أولاً وحذره من المتآمرين عليه ويقظته، وحكمته في شق طريقه بين أعاصير الماسونية واليهودية العالمية والدول المسيحية، وللمصلحين الذين هيّأهم الله ﷻ ثانيـًا.

أسس (كمال أتاتورك) (حزب الشعب) منذ (١٩٣٧ - ١٩٥٠ م)، احتج الشعب علىٰ الحزب الواحد، بعد وفاة أتاتورك عام ١٩٣٨م ، فتأسست عدة أحزاب ، أهمها (الحزب الوطني الديمقراطي (o.p) برئاسة (جلال بايار)، وكان مسنّا ، والمتنفذ فيه (عدنان مندرس) وعمره (٥٠سنة)، وكان يحمل أفكاراً إسلامية ، ولم يهاجم العلمانية ، غير أنه وعد الشعب إذا تم انتخابه سيعيد الأذان بالعربية علىٰ جميع مآذن تركيا ، بعد أن كان الأذان يذاع باللغة التركية ، فسجد الشعب التركي في الشوارع حين سماعه .

وكان حكم عدنان مندرس (١٩٥٢ - ١٩٦٠)، حيث أمر بفتح مدارس الأئمة والخطباء في استنبول وأنقرة ، وفي جميع المحافظات الستين ، كما أرسل البعوث إلىٰ الأزهر ، وكان حكمه متنفسـًا للإسلاميين وتقربـًا إلىٰ البلاد العربية .

لقد كانت المؤسسة العسكرية هي المهيمنة علىٰ الحكم ، فحاكمت عدنان مندرس ، بسبب اتجاهه الإسلامي ، وأعدم عام ١٩٦٠م ، وتشكل علىٰ أثره (حزب العدالة)، برئاسة سليمان زميرال ، وكان اتجاهه إسلاميـًا كذلك علىٰ نهج عدنان مندرس ، ثم حلّوه ، وتشكل حزب آخر (السلامة الوطني) ، برئاسة (نجم الدين أربكان عام ١٩٧٢م ، وهو من الجماعة الإسلامية .

واستمر حكمه لتركيا (ثمانية أشهر)، وأعلن أربكان أنه سيعيد عهد الرسول ﷺ ليلة الانتخابات في المجلس الوطني التركي، وحصل عام ١٩٧٣م علىٰ ١١,٩٪ من الأصوات

بواقع ١,٢٤٠ مليون من أصوات الناخبين، وحصل علىٰ ٤٥ مقعداً في المجلس الوطني.

وظهر المجدّد العلامة بديع الزمان سعيد النورسي المتوفىٰ عام ١٩٦٥م، وأتباعه (النوريون) وهم اليوم في تركيا فقط من حفظة القرآن الكريم وهم يجاوزون المليون، وأما أتباعه في العالم فعددهم ملايين، ومدارسه قاربت الألف، ومع أنه اعتزل السياسة، لكنّه نبّه إلىٰ الوعي واليقظة الدائمة، كما عني بالتربية الإيمانية الذكية، ويعد النورسي مجدد الدين في القرن الرابع عشر الهجري للأتراك والأكراد، بل للعالم الإسلامي كله.

لقد أغراه مصطفىٰ كمال وهدده ونفاه وسجنه، بعد أن خاصمه علىٰ الملأ، ومما قاله: (إن الذي لا يصلي خائن، وحكم الخائن مرتد)[1].

وتحداه بقوله: (اسمعوا يا من بعتم دينكم بدنياكم وتنكستم في الكفر المطلق، إنني أقول بمنتهىٰ ما أعطاني الله من قوة، افعلوا ما يمكنكم فعله، فغاية ما نتمناه أن نجعل رؤوسنا فداء لأصغر حقيقة من حقائق الإسلام..)[2].

لقد تولىٰ الله ورسوله فأفلح ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾[3].

ومن بركاته أن أثمرت دعوته (الحكومة المعاصرة) برئاسة (أردوكان)[4]• تعتز بالإسلام وتغار عليه وتحافظ علىٰ قدسيته أكثر من حرصها علىٰ نفسها، لقد أحبها الله وأحبته، وهذه أمنية المسلم في الحياة

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٥٦٥، عن (حاضر العالم الإسلامي)/ ١/ ١١٧

(٢) المصدر السابق/ ص٥٦٥-٥٦٦

(٣) سورة المائدة ٥٥-٦٥

(٤) وهو الرئيس المسلم الوحيد الذي انتصر لغزة مغضباً، ووصم اليهود ورئيس اسرائيل (شمعون بيريه) بسواد الوجه، كما رفض أن يكون ممثل الدنمرك رئيساً لحلف الناتو، إلا بعد أن اعتذر عن موقف إعلامه من المصطفىٰ (صلىٰ الله عليه وسلم) قبل ثلاث سنين، واشترط أن يكون نائب رئيس الحلف (تركيا) وممثل الحلف في أفغانستان مسلماً تركياً كذلك، وتم الاتفاق علىٰ ذلك تكريماً له، وهو الذي احتج بسحب سفيره من إسرائيل ما لم تعتذر عن إساءته إليه، خلال ساعات، فاعتذرت اسرائيل أول اعتذار في حياتها.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١)

وهكذا فإن الله ﷻ أعاد للأمة الإسلامية من يقيم دينها ويعزها وينصرها:

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٢)

﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (٣)

صدق الله العظيم ﴿ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴾ (٤).

---

(١) سورة المائدة / ٥٤

(٢) سورة الحج/ ٤٠

(٣) سورة الروم/ ٤٧

(٤) سورة النساء/ ١٢٢

الفصل الخامس

تقويم الخلافة العثمانية في عصورها الأربعة

(٦٩٩هـ-١٣٤٠هـ)/ (٦٤٠ سنة)

تمهيد:

المبحث الأول: تقويم أسباب القوة والضعف للخلافة في عصورها

المبحث الثاني : تقويم العصر الأول (عصر النشوء والارتقاء والهيمنة)

المبحث الثالث : تقويم سلاطين العصر الثاني (التماسك)

المبحث الرابع : تقويم سلاطين العصر الثالث (عصر الضعف)

المبحث الخامس : تقويم العصر الرابع (عصر السقوط)

تمهـــيد

إن القارئ الكريم لهذا الكتاب الواسع ليرىٰ فيه ما يسرّه في النصف الأول من عمر الخلافة، بعصريها الأول والثاني، كما يرىٰ فيه ما يُعجبه سروراً، ويذهله حَزَنـًا، في النصف الأخير منه، من انتصارات حاسمة وهزائم ماحقة، وتخلف حضاري وتدخل أوروبي في عصري الضعف والسقوط، كما يجد فيه ما يفرحه بما أوقف الانهيار ثلث قرن أيام الحكمة والورع والإخلاص في عهد الخليفة الصالح عبد الحميد الثاني.

وأحببت أن أضع بين يديك تقويمـًا لكل عصر بما فيه من محاسن ومساوئ بنقاط مركزة، هي العبرة والعظة من هذا الكتاب المحايد الذي يقرّه كل عقل حصيف، وكل قلب منيب.

كما وضعت تقويمـًا لكل سلطان علىٰ انفراد، من خلال محاسنه ومساوئه، ليستبين للقارئ الكريم سرّ القوة والتمكين وسرّ الضعف والسقوط للخلافة العثمانية في عمرها المديد لحكمها في القرون الستة والنصف، إذ النهوض والهبوط يخضعان لسنن الحياة التي تسري علىٰ الجنس الإنساني - من غير تفريق بين قوم وقوم: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾[1].

---

(١) سورة فاطر/ ٤٣

المبحث الأول

أسباب القوة والضعف للخلافة في عصورها[(١)]

المطلب الأول

تقويم العصر الأول (عصر النشوء والاتساع والهيمنة)

عشرة سلاطين، حكموا ٢٧٥ سنة، هم الصفوة المختارة - سلاطين القمم، وكأنهم جميعاً عناهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾[(٢)].

لقد صدقوا الله عهدهم في سلمهم وحربهم، جميعهم شجعان قادوا الجيوش بأنفسهم، وقصصهم في الورع والجهاد لم تزل مضرب الأمثال، حاربوا الدول الأوروبية لعشرين دولة منفردة ومجتمعة، كما حاربوا في آسيا وأفريقيا برّاً وبحراً، ولم يهزموا قط، نصروا الله فنصرهم، وعداً صادقاً من ربهم عز وجل: (ولينصرَنّ الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز)، وقد شذ عن ذلك موقعة (أنقرة) ضد تيمورلنك الذي اكتسح الشرق كله بجيش يقارب المليون.

طوّروا الجيش بسلاحه وتدريباته، فكان أقوىٰ من جميع دول أعدائهم مجتمعة، كما طوّروا أساطيلهم، فكانت أقوىٰ من أساطيل أعدائهم مجتمعة، فكانت المهيمنة علىٰ البحار الأربعة بلا منازع، كما وصلوا إلىٰ موسكو وحاصروا عاصمة أكبر دولة حينئذ (النمسا) عدة مرات، وحاولوا إنقاذ مسلمي الأندلس بمحاولات جريئة بالهيمنة علىٰ البحر المتوسط والشمال الأفريقي جميعه!

---

(١) وهي خلاصة مركزة لما مضىٰ في عصور السلاطين بما وثقناها بمصادرها العديدة لكل فقراتها في هوامشها. لذا فلا حاجة لإعادة التوثيق هنا في هذه الخلاصة

(٢) الأحزاب / آية ٣٢ . .

كانت (الدعوة) تسير جنباً إلىٰ جنب مع (الجيوش الغازية) إذ كان السلاطين والصدور والعلماء يقودونها ويشتركون في الجهاد معهم، كما كان كل جندي داعية، فأسلمت الشعوب وانتشرت رقعة الإسلام ابتداءاً بـ ١٦٠٠٠كم٢، حتىٰ انتهت إلىٰ (٢٠٠٠٠٠٠٠كم٢)، فيما يقارب مساحة (٤٥) دولة من دول هذا القرن في القارات الثلاث.

وفتحوا القسطنطينية بعد (١٠) محاولات سابقة لفتحها، وصارت أجمل مدن العالم وعاصمة الخلافة قرابة (خمسمئة عام) باسم (إسلام بول)، حصل السلطانان المتأخران علىٰ لقب (الخلافة) تنازلاً من خليفة الدولة العباسية لهما ، وعلىٰ لقب (حامي الحرمين الشريفين)، وذابت القوميات والطوائف والمذهبيات علىٰ كثرتها، إذ كانت هوية المواطن العثماني (مسلم) فقط.

وكانت نهضة إسلامية حضارية شاملة، للسلم والحرب، فكانت الكتاتيب، ثم المدارس فالكليات والمعاهد تعج بها أرجاء الإمبراطورية ، إلىٰ جوار الجوامع الكبيرة والمساجد بمئات الألوف، وعمّ الرخاء من خلال الزكاة وحدها، دون الضرائب، وكاد الفقر والأمية أن تُلغىٰ، وأخذ الخلفاء والصدور بالحضارة الحديثة من تصنيع وجهود واسعة للصناعة والتجارة والزراعة والهندسة، إضافة إلىٰ المساواة الكاملة بين المسلمين وأهل الذمة بأمن وانسجام.

أما اللغة العربية فكانت مقدسة لدىٰ جميع الخلفاء والصدور والشعب، وكانت لغتهم الرسمية يُكتب بها، وبرز الخطاطون الموهوبون الذين طوّروا الخط العربي (الإسلامي) إلىٰ القمم واخترعوا أنواعـًا عديدة من الخطوط، وكان الخلفاء في مقدمة الخطاطين، إضافة إلىٰ ثقافتهم العربية والفقهية، وتتلمذوا جميعـًا علىٰ أكابر العلماء، وعلىٰ آبائهم كذلك، ومارسوا القيادة بإشرافهم قبل وفاتهم.

ولقد ذكرنا نماذج متميّزة لأنواع الخطوط العربية، وهي ستأتي لاحقـًا في عشرات الصحف.

المطلب الثاني

تقويم العصر الثاني - عصر التماسك

لأربعة خلفاء، حكموا (نصف قرن)، أسميته بهذا العنوان (التماسك)، لأنه يمثل (تماسك الدولة الواسعة، إضافة إلىٰ الفتوحات الجديدة المحدودة والخسائر المحدودة في الحروب البرية والبحرية).

أما مظاهر القوة في هذا العصر، فهي (التراص والفتوحات، فكانت جميع أطرافها تحت هيمنة الخلافة حيث استمر البناء والتطوير الداخلي للجيوش والأساطيل وتحقيق انتصارات حاسمة، لاسيما في إكمال فتح الشمال الأفريقي كاملاً وتبعيته للخلافة، وهيمنتها علىٰ البحر العربي، فقد وصلت أساطيلها إلىٰ سواحل المحيط الهندي الشرقي والغربي) حتىٰ أندونيسيا والفلبين.

وكانت انتصاراتهم البرية كاسحة ضد الدول الكبرىٰ في أوروبا وضد الصفويين،

كان الحكام بغاية من الورع والحزم والشجاعة في الجهاد الموصول من غير ملل، هُم وصدورهم وجيوشهم وأساطيلهم، وكانوا جميعًا يقودون الحروب مع صدورهم وعلمائهم، وحتىٰ أصغر الخلفاء (أحمد الأول) بعمر (١٤) سنة، كان من أقوىٰ الخلفاء وأكثرهم إسهامًا بالحضارة والتطوير، وبنىٰ أوسع وأجمل جامع في تركيا باسمه، وكان أعمقهم ايمانًا، وأشجعهم جهاداً، وكان رقعة حكمه (٢٠٠٠٠٠٠٠كم٢)، كأوسع مساحة في عمر الإسلام.

وكان الخلفاء علىٰ منزلة عالية من الثقافة، وإتقانهم اللغات الثلاث (العربية والتركية والفارسية)، وكانوا خطاطين متميزين بفنون الخط العربي، وعنوا بالعلم والعلماء والجامعات والمدارس علىٰ نطاق واسع، وهم علىٰ منزلة عالية في الأدب والتقوىٰ والرحمة والحزم.

أما الحروب البرية والبحرية فكانت سجالاً في البر والبحر، ولكن النصر في أغلبها كان حليفًا للعثمانيين.

أما مظاهر الضعف، فقد دبّ إلىٰ هذا العصر من خلال أمرين:

أولهما: الجيش الإنكشاري، الذي استمر تمرده من أواسط هذا العصر، ولمدة قرنين ونصف من الزمن حتىٰ حكم الخليفة محمود الثاني الذي أبادهم جميعـًا، وذلك في أوائل عصر السقوط، وكان تمرد الإنكشارية علىٰ الخلافة ناجمـًا عن منع المفاسد كالخمور والدخان وقتل الصدور دون وجه حق، ولضعف إيمانهم، ولكثرة الحروب المتواصلة.

وثانيهما: الامتيازات الأجنبية، الفرنسية والإنكليزية والبندقية والهولندية، التي حصلت عليها هذه الدول بهدف إثارة روح التمردات القومية والدينية والطائفية، إضافة إلىٰ أثر البعثات التبشيرية (التنصيرية).

المطلب الثالث

تقويم العصر الثالث – عصر الضعف

وقد شمل عهود أربعة عشر خليفة، حكموا قرنين.

الفرع الأول: من مظاهر القوة:

١ – **الخلفاء**: جميعهم يتمتعون بتربية إيمانية علىٰ أيدي علماء، وأكثرهم علماء وأدباء ومجاهدون شجعان، ولهم في حبّ محمد ﷺ قصص نادرة، ونصفهم يقودون الجيوش في المقدمة، والباقون يقود عنهم الصدور والوزراء والعلماء في المقدمة، وبتوجيه مباشر من الخلفاء وكانوا يتقنون اللغات الثلاث المذكورة سالفـًا، وكانوا خطاطين ؛ خطّ كثير منهم القرآن الكريم، وظهر من الخلفاء الصغار الأقوياء، منهم (مراد الرابع) فاتح بغداد الذي حكم بعمر (١١) سنة لمدة (١٧) سنة، وكان يسمىٰ (المؤسس الثاني للدولة العثمانية)، كان صارمـًا حازمـًا في حكمه، إزاء التمردات والأعداء، وتسلم الخزينة فارغة، وتركها ملأىٰ ، رغم حروبه الشرسة وانتصاراته الماحقة، ومنهم (السلطان محمد الرابع) حكم بعمر (٧) سنين لمدة (٣٤) سنة، وكان يقود الجيوش الطاحنة بنفسه، وقضىٰ بحزم علىٰ التمردات، وقاتل الدول الكبرىٰ مثل روسيا والمجر والمانيا والنمسا، وانتصر عليهم،

وحاصر فينا، واستولىٰ علىٰ كريت وبولندا، .. غير أن للصدور والوزراء الأقوياء دوراً مهماً في دعم السلاطين الصغار الموهوبين وغيرهم.

حرّموا الخمر والتدخين، وأعدموا المرتدين، وامتلأت الخزانة لزهد الكثيرين بعد إسراف وتبديد غيرهم، وفي الأيام الأولىٰ من هذا العصر أُعيد بناء الكعبة، ورفضوا تجديد الترخيص للامتيازات الأجنبية، وطهروا الجيش من الانكشارية عدة مرات، وكانت حملات الكثير منهم الإصلاحية واسعة في جميع مجالات الحياة العلمية والتربوية والتجارية والزراعية والصناعية والهندسية.

٢- **الجيش**: كانت الحروب هائلة ومتواصلة تقريباً وتكاد أن لا تهدأ، وفيها انتصارات ماحقة علىٰ العدو في عصور بعض الخلفاء علىٰ أكثر الدول العظمىٰ مجتمعة ومتفرقة، كادت روسيا ان يُقضَىٰ علىٰ جيشها، وحوصرت فينا، ودفعت كثير من الدول الأوروبية الجزية، وكانت الحروب سجالاً، كما خسر العثمانيون الكثير من البلقان وغيرها، ومع الصفويين، وفي بعض الحروب البحرية.

٣- **تقلد رجال أكفاء مناصب (الصدور) و(القادة) و(الإفتاء)**: الذين قادوا ركب الخلفاء حتىٰ في عهود اليافعين المراهقين منهم ممن كانوا بعمر (٧) و(١١) و(١٤) سنة، من غير خلل في إدارة الحكم، غير أن تآمر الإنكشارين علىٰ بعض المراهقين بعمر (١٣) سنة، وعلىٰ غيرهم من الضعفاء، أضعف الحكم، علماً بأن المراهق لا يصلح شرعاً للحكم في الإسلام، إلا بعد سن البلوغ.

فالفرع الثاني : من مظاهر الضعف ما يأتي :

١- **تمرد الجيش الإنكشاري طيلة قرني الضعف**، رغم انتقام الخلفاء والصدور منهم عدة مرات، وهم الذين أسهموا بقتل بعض الخلفاء والصدور، وظهرت منهم الخيانات والتمرد علىٰ الطاعة، ونشر تعاطي الدخان والخمر رغم تحريم الخلفاء لها.

٢- **الحروب سجال** - البرية والبحرية، ولكن أكثرها كانت تحقق الانتصار، وفقدت الدولة

العثمانية الكثير من البلقان، واسترد الصفويون أراضيهم.

٣- **احتلال الفرنسيين، ثم الإنكليز مصر**، بعد معارك سجال بينهما وبين العثمانيين والمصريين.

٤- **استمرار التدخل الأوروبي** عن طريق الامتيازات للدول الكبرىٰ، والتبشير المسيحي، والترخيص لهم بفتح المعاهد والكليات في الشام ومصر، كما أسهمت الماسونية في إفساد البلاد بالخمر والدخان والسفور، واشاعة الزنىٰ، والإساءة إلىٰ الإسلام وتشويه مكانته وأثاروا فتناً داخلية، قُضي عليها بصرامة.

٥- تراجع الاهتمام بالتطوير العلمي، والتربوي والصناعي، والسلاح، طيلة قرني الضعف، مما عجّل بعصر السقوط.

٦- جمود الاتجاه الديني علىٰ التقليد، ونبذ الاجتهاد، وانتشار الصوفية الجاهلة، والخرافية منها، الداعية إلىٰ جمود العقل وجمود الحياة والكسل، وهي لا تثمر إلا التخلّف، وانتشار الأمية، والقضاء علىٰ الدعوة الوهابية التي كانت تدعو إلىٰ الرجوع إلىٰ الإسلام - قرآناً وحديثاً، نقياً من الخرافات.

المطلب الرابع

تقويم سلاطين عصر السقوط (الرجل المريض)

ويشمل تسعة خلفاء، حكموا قرناً ونيفاً

يمثل هذا العصر أربعة محاور متباينة:

- **أولها: الخلفاء الأربعة الضعفاء**: أولهم حكم سنة ثم قتل، وأواخرهم ثلاثة صالحون، ولا رأي لهم، إذ الماسونية والدول الغربية تتحكم بهم.
- **ثانيها: الخليفة مراد الخامس** وهو الوحيد من الخلفاء المتمرد علىٰ دولته، وعميل الماسونية الأكبر، وخمّار وفاسق.
- **وثالثها: الخلفاء الثاني والثالث والرابع**: خلفاء أقوياء جمعوا بين التغريب والأصالة وطوروا البلاد بالتصنيع الغربي والسلاح والأساطيل البحرية، حتىٰ ملكت العثمانية

ثاني أقوىٰ أسطول في العالم، ومدّت سكك الحديد، وأنشئت المستشفيات والصناعات والطرق وأسلاك الهواتف، والكليات والمعاهد والمدارس والمستشفيات والمكتبات والطرق والجسور، وطورت التجارة والزراعة والصناعة... وقضت علىٰ الجيش الإنكشاري بكامله.

هذا وإن واقع الحروب كان سجالاً بين الدولة العثمانية وأعدائها في أوروبا،

ومع مظاهر التغريب، فقد جرىٰ الاهتمام بالمظاهر الإسلامية، حيث أعيد بناء المسجد النبوي والقبة الخضراء والمآذن، والمسجد الأقصىٰ، وكثرت المساجد حتىٰ بلغ عددها في إستانبول وحدها ألف مسجد ونيفٍ، وعشرات الألوف في تركيا، والعالم الإسلامي.

وكان الخليفتان الرابع والخامس، فاسقين مسرفين عابثين، رغم قوة الرابع في الحكم وبنائه الجيش والأسطول.

- **أما المحور الرابع**، فهو الخليفة السادس الصالح عبد الحميد الثاني - رقم (٣٤)، في تسلسل السلاطين والخلفاء في عمر الخلافة، وسنأتي لاحقًا إلىٰ تحليل أثر عصره.

مظاهر السقوط :

- تداعت دول الكفر علىٰ الدولة الإسلامية، كما وعد المصطفىٰ ﷺ : (يُوشِكُ أنْ تَداعىٰ عليكم الأُمَمُ مِن كلِّ أُفُقٍ، كما تَداعىٰ الأَكَلَةُ علىٰ قَصعَتِها..)(١).
- وكان فتح قناة السويس تدخلاً إنكليزيـاً مباشراً في أمور الخلافة مما ساهم في ضعفها.
- كما خسرت الخلافة أقاليم الشمال الأفريقي تباعـًا، وكذلك مصر واليونان.
- **وكانت الحرب العالمية الأولىٰ نهاية الانتكاسة للخلافة** التي فقدت كل شيء وخسرت أجزاء من أراضيها، وما كان للخلفاء رأي فيها، غير أن إنكلترا واليونان خسرتا ١٢٠٠٠٠ قتيل في جناق قلعة في الحرب العالمية ضد الأتراك البواسل.
- **ظهور محمد علي باشا الكبير هو وابنه علىٰ الساحة**، عجل في خسارة الشام ومصر واليونان

(١) المسند لأحمد برقم ٧٩٣٢٢، وقالشعيب الأرناؤوط: إسناده حسن .

والقضاء علىٰ الدولة السعودية الوهابية، غدراً بها، واستجابة للماسونية وللاستعمار الغربي، وخداعـاً للدولة العثمانية.

- **كثرة الإرساليات التبشيرية، والمدارس الأمريكية والفرنسية** في الشام ومصر، مما أدىٰ إلىٰ إثارة التمردات الطائفية والقومية.
- **كثرة الفتن** وقضاء السلاطين عليها بحزم، ثم استمرار دعوتها بالشكل السري بالخفاء.

الخليفة الحازم الذكي الورع السلطان عبد الحميد الثاني :

هو شخصية نادرة في عمر التاريخ الإسلامي والعثماني، قال عنه بسمارك أن ٩٠٪ من عقول البشر يملكها الخليفة، و٥٪ يملكها بسمارك، و٥٪ يملكها سائر القادة.

تربىٰ علىٰ أيدي علماء أتقياء في عصره ، وكان موهوبـاً في الذكاء، والحكمة والسياسة والخلق لاسيما الرحمة، إذ لم يوقع علىٰ إعدام واحد، حتىٰ المتآمرين علىٰ قتله وعلىٰ حكمه، وكان سموحـاً مع النصارىٰ لاسيما الأرمن، واتخذ منهم وزراء وصـدوراً، رغم تآمرهم عليه.

طور الجيش وسلاحه وأسطوله كمّـاً ونوعـاً، وجميع مرافق الحياة الدنيوية نقلاً لمحاسن الحضارة الغربية، ووقف سداً منيعـاً ضد مساوئها.

السنوات الثلاث الأولىٰ من عهده كانت حروبـاً خطط لها من قبله، وكانت حروبـاً ضد روسيا واليونان، انتصر في الأولىٰ جملة انتصارات ثم خسر خسارة فادحة، واضطر إلىٰ الخضوع لمعاهدتين أرهقت الخلافة طيلة حياته، ثم انتصر في الثانية.

عُني في الثلاثين سنة التالية بالإصلاحات الداخلية، وملأ الخزينة بعد أن كانت فارغة ومدينة بأكثر من مليارين ونصف ليرة ذهب، واهتم بالمخترعات العصرية في جميع مجالاتها، وجلب الكثير وصنّع الكثير، ودعا إلىٰ الجامعة الإسلامية لرصّ صفوف المسلمين في العالم داخل دولته وخارجها، حتىٰ الصين، كما دعا اليابان إلىٰ الإسلام بوفود وزيارات متبادلة، ووحد الطرق الصوفية والشيوخ وجميع القوميات كلها بتوجيه

موحد من قبله، وبنىٰ أقوىٰ المخابرات، ووقف سداً منيعـاً ضد اليهود في تآمرهم علىٰ فلسطين، ولقد ضحىٰ بعرشه بسببها.

ظهرت في عصره الكثير من الفرق الباطنية الخطيرة - التي عبثت بمقاليد العالم الإسلامي، منها خارج الدولة العثمانية - كالبابية والبهائية والقاديانية والاسماعيلية والبهرة، في إيران والهند، ومنها في البلاد العربية لاسيما الشام، كالنصيرية والـدروز، والحركات القومية المتطرفة - من عرب وأكراد وأرمن ممن يدعون إلىٰ الاستقلال، والتعاون مع الدول الغربية العدوة للإسلام ضد الخلافة الإسلامية، أما أخطر المؤامرات عليه فكانت من داخل شعبة عملاء الماسونية والدول الأوروبية الكبرىٰ، وهي التي نفذت أدق المؤامرات عليه.

تكاثرت الظِّباءُ علىٰ خراشٍ فلا يدري خُراشٌ ما يصيبُ!

ولـم يكن له سيئة إلا رحمته الواسعة التي لا حدود لها، لمن لا يستحقها بما حمل أعداءه علىٰ التجرؤ عليه وعلىٰ دولته، وكان أخطرها عدم انتقامه من الجيش الثالث الذي أسقطه، وكان بمقدوره القضاء عليه بإشارة، ولكن رفض أن تسفك قطرة دم مسلم من أجل عرشه! وقد أخطأ، رحمه الله وأسبغ له الثواب.

المبحث الثاني

تقويم العصر الأول (عصر النشوء والارتقاء والهيمنة)(١)

(٦٩٩-٩٧٤هـ) (٢٧٥ سنة)

أولاً: السلطان عثمان الغازي - حكم (٢٧ سنة) وعمره (٤١ سنة):

شخصيته: لم ينم ليلته في غرفة فيها كتاب الله تعالىٰ، احتراماً وتهيباً من كتاب الله فيها، مما حمل صاحب الدار علىٰ تزويجه ابنته.

المحاسن:

ورعه وتجرّده لربه:

- إخلاصه لدينه وسلوكه المستقيم دفع الكثير من القادة النصارىٰ إلىٰ الإسلام حباً به وبدينه. وانخرطوا في جيشه في الجهاد، وهم نواة للجيش الانكشاري.
- وصيته لولده من أروع الوصايا في عمر التاريخ، ومنها (ألا يشتغل بأمر لم يأمر به الله، وأنا لسنا طلاب جاه ودنيا، بل جهاد مستمر لنشر كلمة التوحيد، والشعب أمانة)!

زهده: أحصيت ثروته حين وفاته، فكانت تساوي ثروة جندي.

وفاؤه بالعهود: عاهد ألا يمر فوق الجسر إلىٰ قلعة أولوباد البيزنطية أي جندي مسلم، ووفىٰ هو ومن بعده بالعهد.

عدله في حكمه: حكم لقائد نصراني ضد مسلم، فأسلم القائد وقومه.

---

(١) هذا التقويم لسلاطين العصر الأول، ولتقويم سلاطين العصر الثاني، والثالث، إنما هو خلاصة مركزة لما سبق أن عرضناه من سير السلاطين جميعاً، بنصوص موثقة بفقراتها، فقرة فقرة، لذا فلا حاجة لإعادة التوثيق مرة ثانية للحقائق التي سبق توثيقها.

تطويره الجهادي:

- موصول، وكأنه خُلق للجهاد، وافتتح عشرات الحصون، ووصل إلىٰ مشارف القسطنطينية وبحر مرمرة، وكان يقود الجيوش بنفسه.
- ضم الدولة السلجوقية إلىٰ دولته الناشئة.
- بلغت مساحة دولته ١٦٠٠٠ كم^2.
- سمّي (بالغازي) لاستمرار جهاده من غير ملل، وبدأ نواة الجيش الإنكشاري الذي كان له شأن في فتح القسطنطينية.

تطويره الحضاري: أوصىٰ بمجلس الشورىٰ من العلماء الثقات، وهو القائد المؤسس.

ثانيًا: السلطان أورخان - حكم (٣٣ سنة) وعمره (٤٥ سنة) :

شخصيته:

ورعه وتقواه:

- ملتزم بوصية والده الحكيمة التي أشرنا إليها.
- أرسل قبائل كثيرة للدعوة في أوروبا.

المحاسن:

تطوير القوة الجهادية:

- شعاره (الغازي الشهيد)، وعلىٰ رايته الحمراء هلال، تحته سيف (ذو الفقار) للإمام علي (رضي الله عنه).
- استولىٰ علىٰ دولة سلاجقة الروم، التي حكمت (٢٣٥ سنة)، وضمها إلىٰ دولته،
- واحتل (أزميت)، وعشرات الحصون المنيعة، كما احتل (بورصة) المحصنة وايزنك وأنقرة، والدردنيل. وغاليبولي التي فيها قلعة، وبنىٰ (جناق قلعة) وغيرها من القلاع، وعبر إلىٰ قارة أوروبا.

- حاول فتح القسطنطينية، واستولىٰ علىٰ أراضي في البلقان، كان يقود الجيوش بنفسه. بلغت مساحة دولته ٩٥٠٠٠كم٢.

التطوير الحضاري: أقام أول جامعة عثمانية، أنشا المدارس وأقام في كل بلدة كلية ومعهداً ومدارس، اهتم بتحفيظ القرآن الكريم، في المدن والقرىٰ، كما اهتم بالعلوم العصرية والإسلامية، وقضىٰ ٢٠ سنة من غير حرب لتطوير دولته علمياً وعسكرياً وأمنيـًا، ضرب النقود لأول مرة باسمه، وهو أول من استعمل لقب (السلطان).

ثالثًا: السلطان مراد الأول - حكم (٣٠ سنة) وعمره (٣٥ سنة) :

شخصيته:

ورعه وتقواه، كثير الدعاء، خشوعـًا، مشغوفـًا (بالعلم والعلماء) و(بالجهاد). محبوب من قبل الشعب.

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- فتح أحصن مدينة بيزنطية (أدرنة) في الجانب الأوروبي.
- خاض معارك مهولة في البلقان والمجر، الأولىٰ ضد ١٠٠٠٠٠ من المجر، ومعه١٠٠٠٠ عثماني وانتصر فيها.
- انتصر علىٰ جيوش ثلاث دول بلغ تعداد جيوشهم ٦٠٠٠٠ جندي - هزمهم بمعركة (قوصوة)، واستولىٰ علىٰ بلغاريا وصربيا، وامتدت حدود دولته إلىٰ رومانيا والمجر والبانيا، وإلىٰ البحر الادرياتيكي.
- انتصر في جميع المعارك في البلقان، واستشهد في المعركة، بعد (٣٧) معركة خاضها بنفسه، منتصراً في جميعها، بعد استجابة ربه لدعائه بالنصر والشهادة - بلغت مساحة دولته ٥٠٠٠٠٠كم٢.

التطوير الحضاري:

- بناء الجوامع والتكايا.

رابعـًا: السلطان بايزيد (الصاعقة) (البرق) - حكم (١٥ سنة) وعمره (٢٩ سنة) :

شخصيته:

ورعه وتقواه، مجاهد، تقي، داعية، شجاع.

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- اهتم بالتدريبات والتسليح والجهاد الخاطف.
- امتلك ما تبقىٰ من الإمارات البيزنطية في الأنضول.
- حصل علىٰ لقب (سلطان الروم)، وأقرّ الخليفة العباسي بالقاهرة ذلك.
- اتخذ أدرنة عاصمة له، منها كان ينطلق إلىٰ الجهاد.
- حاصر القسطنطينية (٧ أشهر) مرتين، وأخذ منها الجزية وكانت محاولة تسلّمها لولا مباغتة (تيمورلنك) بجيش من ٨٠٠٠٠٠، وجيشه ١٢٠٠٠٠ وهُزم فيها، وأسر ومات في الأسر.
- خاض معارك خطيرة في البلقان وانتصر في جميعها، أهمها معركة (نيغبولي) ضد جميع جيوش الدول الأوروبية، بتحريض البابا، ومعركة (نيكوبولس) ضد التحالف الأوروبي تمهيداً لإنقاذ الأندلس.
- استولىٰ علىٰ البوسنة ورومانيا، بلغت مساحة دولته ٩٢٠٠٠٠كم٢ حين وفاته، أي ضعف مساحة دولة والده.
- أفسد تيمور أولاد بايزيد عليه.

خامسًا: السلطان جلبي محمد - حكم (٨ سنوات) وعمره (٢٤ سنة) :

شخصيته: هو المؤسس الثاني.

ورع وتقيّ، أهدىٰ إلىٰ أمير مكة الهدايا والصدقات علىٰ فقرائها وفقراء المدينة، وصيته من أندر الوصايا ورعًا وحكمة في عمر التاريخ..

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- حصلت مشكلات استمرت (١١) سنة - نصفها قبل حكمه، والثاني في عهده عالجها ليستتب له الحكم، بعد ما أفسد (تيمورلنك) في البلاد.
- قتل أخويه المتمردين في الأوروبي (سليمان) في أدرنة والآسيوي (عيسىٰ) في بروسة.
- قمع الفتن في أوروبا وآسيا، ومنها فتنة الدجال الشيخ بدر الدين وحاربه، ثم انتصر عليه بعد فشله، حاكمه وقتله.
- صالح البندقية والقسطنطينية - مضطراً.
- دخل ٢٤ معركة، قادها بنفسه، وجرح (٤٠) جرحًا، وسمّي (البهلوان) أي الشجاع.
- بلغت مساحة دولته ٥٥٠٠٠٠كم^2.

سادسًا: السلطان مراد الثاني - حكم (٣٠ سنة) وعمره (١٩ سنة) :

شخصيته:

- رحيم ومجاهد وعادل وأديب - كان خير ملوك زمانه زهداً في الحكم.
- زاهد في الحكم - تنازل لابنه محمد الفاتح بعمر ١٤ سنة، بعد ١٤ سنة من حكمه، ثم تنازل للمرة الثانية لولده وعمره (١٩) سنة.
- ومن أشعاره : (تعالوا نذكر الله، لأننا لسنا بدائمين في الدنيا)

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- تآمر عليه عمه فقتله، وتآمر عليه أخوه فقتله.
- احتل الصرب واليونان والأفلاق في رومانيا، وهزم المجر، وأسر منهم ٧٠٠٠٠ جندي، كما استولىٰ علىٰ جنوب ألبانيا.
- انتصر في موقعة (قو صوة)، استمرت ٣ أيام، ضد المجر، وكانت من أشرس معارك التاريخ، قتل فيها من العدو ٨٠٠٠٠ من أصل ١٠٠٠٠٠، وأسِر الباقين ، ثم أطلق سراحهم .
- كان يقود الجيوش بنفسه .
- ثار الإنكشاريون، فأخضعهم مرتين .
- بلغت مساحة دولته ٩٠٠,٠٠٠كم²، أي ضعف مساحة دولة من قبله.

التطوير الحضاري: بنىٰ جامع أدرنة الشهير، وجامع مرادية في أدرنة، اهتم بالعلم والعلماء.

المساوئ:

- خسر معركتين ضد ثمان دول أوروبية مجتمعة بقيادة البابا، وهذه الخسارة ليست من مساوئه، ولكنها قدر الله.

سابعـًا: السلطان محمد الفاتح - حكم (٣٠ سنة) وعمره (١٩ سنة) :

شخصيته:

ورعه وتقواه:

- هو تربية العالمين الشهيرين (أحمد وآق شمس).
- **حفظه القرآن** : حفظه وعمره سبع سنوات ، وحفظ الكثير من الحديث وتعلم الفقه .
- **تواضعه الجم لربه** ، وإخلاصه في جهاده .

- **ذكاؤه** : يتقن (سبع لغات) ومنها: (العربية والتركية والفارسية واللاتينية واليونانية..)، إضافة إلىٰ علومه الدينية والمدنية.
- **شجاعته** : مع الصبر والعزيمة وقوة البدن والتحمل، وقور، واشترك مع أبيه في حروبه في صباه.
- **عدله** : كان شعاره (العدل أساس الملك)، ولاسيما مع أهل الذمة إذ ساواهم بالحقوق والواجبات امتثالاً لقول النبي القائد: (لكم مالنا وعليكم ما علينا)، اعتدىٰ غلام علىٰ القاضي، فأمر السلطان بقتله انتصاراً لحرمة القضاء، ثم ضربه بعصا غليظة مرض بها (٤ أشهر) ثم صار وزيراً بعده، وهو داود باشا.
- **وصيته النادرة لولده بايزيد** التي أكد فيها علىٰ العدل والصلاح والرحمة، ونشر الإسلام في البلاد المفتوحة، وهو أخطر هدف يجب تحقيقه، وانتقاء البطانة الصالحة، واجتناب البدع والمفسدين، وبذل الأموال للمعوزين والمستحقين، وفي قوة الدولة، والعلماء، والتحذير من مخالفة الشريعة وأحكامها، إذ هي الغاية من الحكم ومن الحياة، والتحذير من الترف واللهو، إذ فيه الهلاك !

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- بلغت مساحة دولته ٢٢١٤٠٠٠ كم^{٢}، أي ضعفي ونصف مساحة دولة من قبله .
- أنشأ أقوىٰ أسطول بحري في البحرين الأسود والمتوسط .
- عُني بتدريب الجيش علىٰ السلاح المتطور من أوروبا، لاسيما المدفعية والأساطيل ، وسمّىٰ جنده (جند الله).
- وصلت فتوحاته إلىٰ موسكو ، واستولىٰ علىٰ القرم والبلقان ، وفتح رومانيا وألبانيا واسترجع البوسنة والهرسك .
- أسقط امبراطوريتين - الروم وطرابزون، و٤ ممالك و١١ إمارة واحتل ٢٠٠ بلدة.

- حارب (٢٥) دولة أوروبية منفردة ومجتمعة ، في ٢٨ معركة وقادها بنفسه ، وانتصر في جميعها.
- أنشأ جامعة عسكرية لتخريج الضباط والأطباء والمهندسين والعلماء والقادة العسكريين .
- احتل صقليا وجنوب إيطاليا، تمهيداً لنجدة الأندلس ، أو تمهيداً لفتح (روما) التي أخبر بها (صلىٰ الله عليه وسلم) في نهاية الدنيا ! (من علامات الساعة) .
- توفي وسط جيشه العرمرم استعداداً لمعركة كبرىٰ غير معروفة، ولعلها محاولة لاجتياح إيطاليا، للوصول إلىٰ الأندلس، ومساعدة المسلمين ضد الصليبيين .
- نجا من ١٤ مؤامرة عليه، لاسيما من البندقية .
- فتح القسطنطينية - تحقيقاً لبشارة الرسول (صلىٰ الله عليه وسلم)، أحصن مدينة في العالم وأجملها - وكان فتحها أعجوبة التاريخ !، فتحها وعمره (٢٢) سنة، خلال (٥٤) يوماً باستعداد سنتين قبل الفتح ، ولم يؤذ أحداً من أهلها وردّ عليهم الغنائم، وأكرمهم بوليمة خدمهم فيها. فتح القسطنطينية بـ ٢٦٥٠٠٠ مجاهد ، منهم ١٥٠٠٠ من الإنكشاريين، وبالمدافع الحديثة والمدفع السلطاني، وعن طريق المنجنيق والسلالم علىٰ الأسوار والقلاع والأنفاق ، والأساطيل البحرية ومنها المنقولة براً، ووعد أهلها بالمحافظة عليهم كمحافظته علىٰ نفسه، وهيأ لهم ولجيشه الولائم وخدمهم، ولم يجبر أحداً علىٰ ترك دينه، واستمرت القسطنطينية (إسلام بول) ٤٧٠ سنة عاصمة للخلافة الإسلامية.
- نقل أسطولاً بحرياً من (٧٠) سفينة عبر التلال (٥) كم إلىٰ مقابل القسطنطينية، مما عجل بالنصر.

التطوير الحضاري:

- بنىٰ آلاف المساجد مع مدارس ملحقة بكثير منها أقسام داخلية مجانية، وبنىٰ القصور الفخمة، أهمها (طوب قابي) وهو متحف اليوم .
- أنشأ مسجد الفاتح مع ٨ مدارس علىٰ جوانبه والدوام فيها علىٰ مدىٰ أيام السنة ! ومكتبات وكلية الفاتح.

- اكتشف قبر أبي أيوب الأنصاري في عهده.
- اهتم بالتعليم - الكتاتيب والمدارس، وكادت تمّحي الأمية، والفقر في عموم البلاد، وعُني بالمكتبات، وكان الدوام المدرسي علىٰ مدار السنة. في مدارسه الخاصة حول مسجده الكبير.
- اهتم بالعلوم الإسلامية والعلوم التطبيقية، والعلوم العصرية المتطورة والعلوم العسكرية.
- اهتم بالتجارة والصناعة والطب والمستشفيات، وبناء الأسواق الكبيرة والحمامات ، وهندسة المدن ورفاه الشعب، والمساواة بأهل الذمة ، وتكريم الرهبان والقسس والنصارىٰ عمومـًا .
- قسم الدولة إلىٰ ولايات كبرىٰ وصغرىٰ ، ووزع المسؤوليات وكان علىٰ حكام الولايات فيها أن يتقدموا الجيش في الجهاد .
- حوّل (٨ كنائس) في إستنبول إلىٰ جوامع بشرائها من النصارىٰ .
- البطاقة الشخصية عليها (مسلم) فقط ، لا قومية ولا لغة ولا جنس ولا مذهب.
- أعطىٰ كتبـًا رسمية للقسس والبطاركة يطوفون في البلاد، ويقدمون ظُلاماتهم، فما تقدموا إلا بالشكر له وللمسلمين.
- شرّع دستور الدولة من الكتاب والسنة وسماه (قانون نامة).
- أدخل المياه إلىٰ إستنبول بقنوات خاصة.
- مات مسمومـًا علىٰ يد طبيب حديث الإسلام من اليهود (يعقوب) ، ثم سقط ميتـًا وسط جيشه العرمرم (رحمه الله) .

ثامنـًا : السلطان بايزيد الثاني - حكم (٣١ سنة) وعمره (٣٤ سنة) :

شخصيته:

ورعه وتقواه:

- جمع غبار المغازي وصنع له وسادة من طين ، أوصىٰ بوضعها في قبره تحت رأسه.

- كان يلقب (بالولي) لتقواه.
- لم يتول السلطنة إلا بعد أدائه فريضة الحج.
- كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان.
- صلىٰ عليه أكثر العالم الإسلامي حين وفاته، لاسيما في مصر.

مواهبه:

- كان خطاطًا، وكاد يصل إلىٰ درجة شيخ الخطاطين - مولانا حمد الله، وكان يحمل محبرته له اجلالاً، وقد عرضت نماذج لخطوطه.
- وكان شجاعًا، وأديبًا، يقرّب العلماء والشعراء.

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- بلغت مساحة دولته ٢٣٧٥٠٠٠ كم^{٢}.
- عالج مشكلة تمرد أخيه (جم)، وأصرّ جم علىٰ تملكه القسم الأوروبي، واستمرت المشكلة ١٤ سنة، انتهت بسمّ البابا له وتسليم جثته ميتًا.
- حرص علىٰ إنقاذ غرناطة، وأمد المورسكيين بما مكنهم من الثورة، غير أنها قُبرت في مهدها بقسوة متناهية، وبالمقابل هدد السلطان بايزيد الإسبان بمعاملته للنصارىٰ بالمثل كما يعاملون المسلمين، وفي زمانه كان تسليم غرناطة ومحاكم التفتيش.
- انتصر علىٰ أساطيل البندقية واستولىٰ عليها وعلىٰ غيرها، وتقدم إلىٰ وارشو وحاصر بلغراد، وفتح قلاعًا كثيرة في أوروبا.
- اتفقت الأساطيل الفرنسية والأسبانية والبابوية ضده، فعقد الصلح معهم، إيثاراً للسلم.
- أخمد تمرد (شاه قولو) في إستنبول.
- حارب المماليك في مصر، ثم علىٰ الحدود الشامية انتهت بالصلح حتىٰ نهاية حكمه

١٥١٢م، إيثاراً للسلم..

- كان يقود الحروب بنفسه.
- عقد معاهدات سلام بين أكثر دول أوروبا بدءاً بروسيا، تجنبًا للحروب.
- انسحبت القوات العثمانية من موسكو، بسبب المشكلة بينه وبين أخيه، وفي أول حكمه، تحوطًا لوقوع الجيش في ظروف حرجة، ولعلّ البعض يعتبر هذا الانسحاب من مساوئه في الحروب.

التطوير الحضاري:

- كان يميل إلىٰ السلم، وحروبه قليلة، واهتمامه بالإصلاحات الداخلية والمساجد والتعليم.
- أصلح ما دمره الزلزال الخطير في إستنبول.

تاسعًا: السلطان الخليفة سليم الياووز (المروّع) - حكم (٨ سنوات) وعمره (٤٦ سنة):

شخصيته:

- ورعه، لقّب (بخادم الحرمين الشريفين)
- مجاهد شجاع، صارم وسميّ بـ(المروّع)
- حاز علىٰ لقب (الخلافة) بتنازل الخليفة العباسي (المتوكل الثالث) له، بعد قضائه علىٰ المماليك، ومبايعته علىٰ المنبر في جامع أيا صوفيا، واستمر هذا اللقب مع من بعده.
- متواضع زاهد يأكل بالأطباق الخشبية لونـًا واحداً من الطعام أحيانـًا كثيرة.

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- توقف عن التوسع في الغرب، واتجه نحو الشرق - البلاد العربية خاصة.

- قاتل الصفويين، ورئيسهم (إسماعيل الصفوي) في أشرس معارك التاريخ في صحراء (جالدران) سنة ٩٢٠هـ، خلال (١٢) ساعة، وكان إسماعيل عدواً لدوداً للسنة، إذ قتل منهم أكثر من مليون وسمل عيون الآلاف من علمائهم، واحتل عاصمتهم تبريز للمرة الثانية، وأسر زوجته. وسيطر السلطان علىٰ أكثر إيران والعراق وكردستان والقفقاس، وشرق وجنوب شرق الأنضول. هرب إسماعيل وتحالف مع البرتغاليين وساوم علىٰ الكعبة وجسد الرسول (صلىٰ الله عليه وسلم) في المدينة المنورة، مقابل تسلمهم فلسطين مركز ولادة المسيح (عليه السلام)! ووقوفهم إلىٰ جانبه ضد الدولة العثمانية السنية.
- اهتم بتسليح الجيوش، واستخدم المدافع المتحركة.
- هزم المماليك في الشام ومصر في معركتين رهيبتين - (مرج دابق) علىٰ مشارف حلب، و(الريدانية) في مصر، وتسلم بعدها (القاهرة)، وسكّت النقود باسمه سلطاناً وخليفة.
- ضمّ إليه (المملكة الأيوبية).
- استرد موانئ في الصومال وكينيا من البرتغاليين - مقاديشو وممباسا، كما حرّر بعض الموانئ في أريتريا في جنوب البحر الأحمر.
- انتصر علىٰ الأساطيل البرتغالية في خليج البصرة والبحر الأحمر والبحر العربي - أمام السواحل الهندية، وكانت المعارك البحرية سجالاً بين العثمانيين والبرتغاليين، عند جزيرة (ديو) في غربي الهند.
- تحريره الحجاز واليمن
- جهوده واسعة في التخطيط لتحرير الأندلس، والسيطرة علىٰ الجزائر تمهيداً للإنقاذ.
- بلغت مساحة دولته ٦٥٥٧٠٠٠ كم^{٢}. خلال فتوحات (٤ سنوات) - بثلاثة أضعاف مساحتها أيام والده.

التطوير الحضاري:

- أعاد بناء الحرم المكي بأفضل المهندسين والبنائين العريقين - بعد هدم القديم.

- بنىٰ مسجد (السليمية) في أدرنة.
- نقل جميع الأمانات المقدسة إلىٰ إستنبول.
- أُكتشِفَ رأس الرجاء الصالح في عهده ، مما يسّر لأوروبا السيادة علىٰ الهند والشرق الأقصىٰ وما تبعها من الغنىٰ والثراء في نهبها إضافة إلىٰ تسويق إنتاجها إليها .

عاشراً: السلطان الخليفة سليمان القانوني - حكم (٤٦ سنة) وعمره (٢٦ سنة):

شخصيته :

- حليم، شجاع، وقور، مهيب، لا يتراجع عن رأيه، شاعر أديب.
- عصره هو العصر الذهبي العثماني، مثل عصر هرون الرشيد في الدولة العباسية.

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- عزيمته لا تكل من الجهاد المتواصل.
- حملاته العسكرية، عشرات في القارات الثلاث - وقد قاد (١٣) حملة، انتصر فيها.
- فتح بلغراد ورودس والمجر وحاصر النمسا، وفتح بغداد، وأجزاء من إيران، وأذربيجان وبقية أقاليم القفقاس.
- حاصر فينا وقذفها بالمدافع .
- زادت مساحة إمبراطوريته إلىٰ ١٤٩٠٠٠٠٠ كم^2 - أي أكثر من ضعف مساحتها زمن والده، شمل التوسع (١٥) دولة في آسيا، و(٢٠) دولة في أوربا، و(١٠) دول في أفريقيا.
- اهتم بإعداد الجيوش البرية والأساطيل البحرية، والتدريبات ومصانع السلاح والأساطيل.
- قضىٰ علىٰ المجر في أشرس المعارك في التاريخ، وعلىٰ بولونيا وأوكرانيا ورومانيا واليونان وكريت.
- مع قدرته العسكرية، سياسي ضليع في تفريق أعدائه، لئلا يجتمعوا عليه، وكانت دول

أوروبا مؤتلفة بحلف مقدس ضده .

- انتصر علىٰ (الصفويين)، واحتل عاصمتهم للمرة الثالثة.
- أخمد أربعة تمردات خطيرة : (الغزالي) والي الشام، و(أحمد شاه) والي مصر، والشيعي (باباذ والنون)، والشيعي (قلند جلبي) في قونية.
- أسطوله البحري كان مهيمنـًا علىٰ البحار الثلاثة من غير منازع .
- بذل جهوداً ضخمة لإغاثة مسلمي الأندلس - حملته علىٰ احتلال الجزائر ثم تونس بعد صراع رهيب مع الصليبيين، مع بقاء بعض المقاومة فيها، واستولىٰ علىٰ صقلية وجنوب ايطاليا، وجزائر البليار، كل ذلك تمهيداً لإغاثة المسلمين في الاندلس.

المساوئ:

- عقد أول معاهدة مع فرنسا، فتحت بها أبواب الشرق للتدخل.
- زواجه من (روكسلانا) اليهودية المسلمة، التي أثارت له متاعب كثيرة في أواخر أيامه.
- استعصت عليه جزيرة مالطا مقر أساطيل القديس يوحنا الشرسة.

متفرقات:

- ظهور مارتن لوثر - والمذهب البروتستنتي ضد الكاثوليك والبابابوية في عصره، بما شق النصرانية شقين، وذهب ضحية الصراع بين المذهبين الملايين من الضحايا، وانقسمت الدول الأوروبية سياسيـًا وعسكريـًا بسببها.

المبحث الثالث

تقويم سلاطين العصر الثاني «التماسك»

(٩٧٤-١٠٢٦هـ) (٥١ سنة)

أولاً: الخليفة السلطان سليم الثاني - حكم (٨ سنوات) وعمره (٤٢ سنة) :

شخصيته: عزيمته الجهادية وصرامته وورعه.

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- اهتم ببناء الجيش والأساطيل البحرية وطورها ووسعها.
- عقد صلحًا مع النمسا، التي استمرت بدفع الجزية.
- خرجت أساطيله لفتح أندونيسيا، وساعد المسلمين في الهند ضد البرتغاليين.
- تحول البحر الأسود إلىٰ بحيرة عثمانية.
- بناؤه أسطولاً أفخم من القديم الذي خسر أكثره في معركة ليباناتو البحرية، فاسترد تفوقه في البحر المتوسط.
- أتمّ احتلاله الجزائر ثم تونس احتلالاً كاملاً - بعد أبيه، ثم احتلاله لقبرص.
- احتل اليمن بأفضل قادته بعد معارك شديدة وهيمن من خلالها علىٰ البحر الأحمر والبحر العربي.

التطوير الحضاري:

- اهتم بالشعب وتطويره الحضاري في العلوم والمدارس والكليات المنوعة والزراعة والتجارة والصناعة المتطورة.

- أعاد بناء المحراب السليماني في المسجد النبوي.
- أنشأ جامع السليمية في أدرنة.
- اهتم بحراسة الحرمين، وتأمين طريق الحجيج.

المساوئ:

- استمرار التدخل الفرنسي، بالسماح للبعثات التبشيرية، وحصول فرنسا علىٰ امتيازاتها في الدولة العثمانية خاصة في الشام، لغرس محبة فرنسا - تمهيداً لمؤامراتها في إثارة التمردات.
- خسارته الأولىٰ البحرية في معركة ليباناتو الخطيرة، جنوب البحر الادرياتيكي عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م، ثم بناؤه أسطولاً أفخم من القديم.

ثانيـًا: الخليفة السلطان مراد الثالث - حكم (٢٢ سنة) وعمره (٢٨ سنة) :

شخصيته: تقي ، محبّ للعلماء، متصوف نقي، كريم للجند خاصة - يتقن اللغات الثلاث.

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- صارت بولونيا محمية عثمانية، ثم تمردت واستؤنفت الحرب معها.
- زحفت جيوش القرم تجاه موسكو، وأرغم روسيا علىٰ دفع الجزية للدولة العثمانية
- بلغت مساحة دولته ١٩٩٠٠٠٠٠كـم٢، وهي أوسع رقعة للدولة الإسلامية في عمرها المديد، ولعلّ الدولة الإسلامية في عصر (هرون الرشيد) تنافسها في الاتساع .
- محاولاته الجادة في إنقاذ مسلمي الأندلس ، غير أن ملك المغرب (أحمد المنصور) منع الأساطيل العثمانية التي وصلت الساحل المغربي - تمهيداً لاسترداد الأندلس، منع الاقتراب إلىٰ الساحل ، فعادت أدراجها .

التطوير الحضاري:

- منع الخمور، ثم اضطر إلىٰ إلغاء المنع، بسبب تمرد الانكشاريين من الجند، غير أن عموم الشعب تقي ومجاهد ومطيع للخليفة.
- انتصر علىٰ الصفويين، واستولىٰ علىٰ عاصمتهم (تبريز) للمرة الرابعة، ومنعهم من سبّ الخلفاء، وأخذ ابن عم رئيسهم رهينة عنده.

المساوئ:

- تمرد الجيش الإنكشاري عن طاعته لضعف إيمانه وطاقته القتالية، وتمرد بعض فرقه في قتال المجر وغيرها، بسبب استمرار الحروب، ومقتل الصدر الأعظم (صوقلي محمد باشا) بدسائس الأعداء.
- بدأ الضعف يدبّ في الجيش .
- منح الامتيازات لبعض الدول الأوروبية مع فرنسا والبندقية والبريطانية في المجال التجاري، وهي ذريعة للتدخل الفعلي في أمر الدولة.
- زواجه باليهودية المسلمة (استير كيرا)، وكانت لها مسؤوليات خطيرة، وأسهمت في إعانة اليهود إلىٰ الرحيل من الأندلس إلىٰ مقدونيا.
- سماحه لليهود بالهجرة إلىٰ سيناء في (الطور)، ثم أخرجهم منها ومنعهم من العودة.

ومن الأقدار الإلهية:

- مقتل الصدر الأعظم (صوقللي) وهو من أقوىٰ الصدور، الذي عاصر ثلاثة سلاطين.

ثالثًا: الخليفة السلطان محمد الثالث (الغازي) - حكم (٨ سنوات) وعمره (٣٨ سنة):

شخصيته:

- مجاهد غيور، ورع، يقوم حين يسمع اسم محمد (صلىٰ الله عليه وسلم)، شديد الحب له، صوفي نقي .

- يقود الجيوش بنفسه ، واشتهر بفاتح قلعة (أغرىٰ) التي عجز عن فتحها (سليمان - جده)، كما اشتهر (بالغازي).
- مثقف ثقافة عالية - يتقن اللغات الثلاث.
- عادل، سليم القلب.

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- انتصر علىٰ جيوش المجر والنمسا معـًا.
- قضىٰ علىٰ عدد من الثورات الداخلية.
- كانت حروبه مع الصفويين سجالاً.

التطوير الحضاري:

- اهتم ببناء المساجد والمدارس والمرافق العامة.

المساوئ:

- خسرت الدولة العثمانية الكثير من القلاع والأراضي في أوروبا.

رابعـًا : الخليفة السلطان أحمد الأول - حكم (١٤ سنة) وعمره (١٤ سنة) :

شخصيته:

- تولىٰ الحكم بهذا العمر ، ولم يُسبَق اليه.
- ورع، نشط في إدارة الحكم، يباشر بنفسه.
- بدأ بإرسال أستار الكعبة إليها بدلاً من مصر.
- متواضع زاهد .
- محب للعلم والعلماء .

- عميق الحب لرسول الله ﷺ ، صور أثر قدم الرسول ﷺ ووضعه في تاجه مع أبيات شعرية فيه، وحمله طول حياته، ومن هذه الأبيات الشعرية قوله: (امسح يا أحمد وجهك دائمًا بقدم ذلك الورد).

المحاسن :

التطوير الجهادي:

- عني بتقوية الجيش .
- استرد قلاعـًا منيعة في النمسا ومدنـًا، وانتصر علىٰ النمسا والمجر، ودفعت النمسا الجزية.
- الحروب بين الأساطيل العثمانية والإسبانية والايطالية والقديس يوحنا، كانت سجالاً.
- انتصر علىٰ ألمانيا وحلفائها في أوروبا، ثم صالحوه، وكان يقود الجيوش بنفسه رغم صغر سنه.
- قضىٰ علىٰ ثلاث حركات انفصالية كبرىٰ، في بلاد الشام، قام بها (آلدروز) و(النصيرية)، و(النصارىٰ).

التطوير الحضاري :

- بنىٰ أجمل وأكبر جامع في إستنبول، باسمه .

المساوئ:

- اضطراب احوال الدولة بالثورات الداخلية، في حركة الكردي (جان بولاد)، ووالي أنقرة (قلندر أوغلي)، وحركة (فخر الدين الدرزي) في لبنان، وحركة النصيرية .
- فشله في بعض الحروب البحرية إزاء أعدائه في البحر المتوسط .
- تجديد الامتيازات لفرنسا وإنكلترا، وحصلت هولندا كذلك علىٰ امتيازات .
- انتشر التدخين ، وحرّمه المفتي ، فهاج الجند الإنكشاري وبعض الشعب، مما حمل العلماء علىٰ الصمت.

من الأقدار الإلهية:

- في حروبه مع الصفويين استرجعوا تبريز وبغداد وغيرها، وفعلوا الأفاعيل فيها، وليس له ذنب في ذلك، ولكنه الجيش الإنكشاري الذي استنفد صبر السلاطين بتمرده ، كما أن حروبه مع النمسا كانت سجالاً.

المبحث الرابع

تقويم سلاطين العصر الثالث (عصر الضعف)

(١٠٢٦-١٢٢٢هـ) (١٩٠ سنة)

أولاً: الخليفة السلطان مصطفىٰ الأول - حكم (عدة شهور) وعمره (٢٥ سنة):

شخصيته:

ضعيفة، مصاب بعقله - عزل بعد ٣ أشهر، ونِصّب بدله عثمان الثاني بعمر خمس سنوات ثم أعيد إلىٰ الحكم، بعد عزل (عثمان الثاني)، وحكم مرة ثانية لأشهر، ثم استشهد قتلاً وعمره ٤٧ سنة.

المساوئ:

- مصاب بعقله، أُبعد عن الحكم، ثم قُتل، تدخل الجيش الانكشاري مباشرة في أمور الحكم.

ثانيًا: الخليفة السلطان عثمان الثاني - حكم (٥ سنوات) وعمره (١٣ سنة):

شخصيته:

- فتىٰ ذكي جداً، نشط، وسيم الوجه وجميل الخلق، شاعر جيد.
- تنبأ له العلماء أن يكون الفاتح الثاني.
- لم يساعده أحد لا صدر أعظم ولا وزير.

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- قاد الجيش بنفسه في حرب بولندا وانتصر عليها.
- تمرّد الجيش الإنكشاري عليه وخنقه.

ثالثًا : الخليفة السلطان مراد الرابع - المؤسس الثاني - حكم (١٧ سنة) وعمره (١١ سنة) :

شخصيته:

- ابن السلطان أحمد الأول، قوي جداً في بدنه وحكمه، عبقري، متدين .
- شجاع - استأصل الفساد.

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- انتقم من الإنكشاريين، وانتقم من قتلة عمه.
- هيأ جيشًا قويـًا من المخابرات والأمن .
- أخمد حركات تمرد كثيرة، وأعدم قادتها.
- حارب الصفويين وقاد الجيوش بنفسه، وكان ينام علىٰ جواده، وهدم أسوار بغداد بمدافعه، أحرز لقب (فاتح بغداد)، وقتل من الصفويين ٢٠٠٠٠

التطوير الحضاري:

- حرّم الخمر والتدخين.
- أعدم كل من ارتد عن الإسلام.
- أصلح بغداد المهدمة بعد فتحها بمعارك مهولة.
- تسلم الخزينة فارغة، وتركها ملأىٰ.
- أعاد بناء الكعبة.

رابعـًا : الخليفة السلطان إبراهيم - حكم (٩ سنوات) وعمره (٢٥ سنة) :

شخصيته: متدين، ورع، هادئ.

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- انتصر علىٰ البنادقة براً وبحراً، لهيمنتهم علىٰ التجارة في بحر ايجة، واعتقل جميع البنادقة في أرجاء بلاده.
- احتل جزءاً من كريت

التطوير الحضاري:

- أوقف تدخل النساء في الحكم.
- أصلح الكثير من الفساد.

المساوئ:

- تمرد الجيش الإنكشاري عليه، وقتلوه.

خامساً : الخليفة السلطان محمد الرابع - حكم (٣٩ سنة) وعمره (٧ سنوات) :

شخصيته: ذو عزيمة وشجاعة.

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- تولىٰ الصدر الأعظم قيادة الجيوش، وكان أغلب دول أوروبا قد عقدت حلفاً مقدساً ضد الدولة العثمانية.
- انتصر علىٰ روسيا، والنمسا، ثم انتصر علىٰ ألمانيا، ثم خسر الحرب معها.
- حاصر (فينَّا) للمرة الثانية، بعد حصار القانوني لها، ثم انسحب منها، واحتل كريت، واستولىٰ علىٰ بولندا بأكثر من حرب، واستولىٰ علىٰ المجر.
- أغلب جهوده كانت جهاداً ضد كثير من الدول الأوروبية ، انتصر في أكثرها.
- رفض الصدر الأعظم تجديد الامتيازات لفرنسا، ثم وافق علىٰ حمايتها للبيت المقدس.

- أخمد فتنة اليهودي (شبتاي زيفي) عام ١٦٤٨م، الذي ادعىٰ بأنه المسيح، وأنه سيقود اليهود، وادعىٰ أنه ملك الملوك، سجن وحوكم، ثم نفاه السلطان إلىٰ ألبانيا ثم مات.

المساوئ:

- استقلت القرم عن الدولة العثمانية، بما أدىٰ إلىٰ خسارتها الحرب ضد روسيا.
- خسر الحرب ضد ألمانيا.
- احتلت سفن البندقية المورة واليونان، ومنها أثينة
- كانت قوته مستمدة من قوة الصدر الأعظم (محمد كوبريللي)، الذي احتضنه وعمره (٧) سنوات في الحكم.
- انتهت الحرب بين العثمانيين وخصومهم الصفويين والروس بعقد معاهدة قصر شيرين ١٠٤٩ هـ

سادسًا: الخليفة السلطان سليمان خان الثاني - حكم (٤ سنوات) وعمره (٤٥ سنة):

شخصيته:

- حليم ورع، شجاع، رحيم، أمين، خطاط، كتب مصاحف كثيرة.
- يتقن اللغات الثلاث، ثقافته عالية.

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- حكمه مشحون بالحروب الحاسمة مع كبريات الدول مجتمعة ومتفرقة، انتصر في أغلبها.
- استرد ما استولت عليه ألمانيا سابقًا.
- انتصر علىٰ روسيا وبولندا وألمانيا والبندقية مجتمعة، قادها الصدر الأعظم كوبريللي في

عهد السلطانين محمد الرابع وسليمان خان الثاني، ثم استشهد الصدر الأعظم في جهاده ضد النمسا في حروب ضارية.

- مات وهو يودع الجيش الغازي إلىٰ أوروبا.

التطوير الحضاري:

- طهر الجيش وأمّن السلام.
- كرّم النصارىٰ في جميع أرجاء دولته، لاسيما نصارىٰ اليونان، فاكتسب رضاهم وتمردهم علىٰ المذهب الكاثوليكي الذي أجبرتهم البنادقة عليه.

المساوئ:

- الهزائم في البلقان خاصة مع المجر ومع البندقية التي استولت علىٰ سواحل الماسيا الغربية علىٰ البحر الادرياتيكي.

سابعًا : الخليفة السلطان أحمد الثاني - حكم (٤ سنوات) وعمره (٤٨ سنة) :

شخصيته:

- نشط، قوي العزيمة، خطاط ماهر، كتب مصاحف كثيرة - يتقن اللغات الثلاث.
- شاعر وأديب.

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- حكمه حروب وجهاد متواصل ، ولكنه لا يجاوز المناوشات .
- حاصر الألمان بلغراد وخسروا ١٠٠٠٠ قتيل، ثم انسحبوا .
- انتصر علىٰ البندقيين .

المساوئ:

- خسر بعض المعارك مع الألمان والبنادقة .

ثامنًا: الخليفة السلطان مصطفىٰ الثاني - حكم (٨ سنوات) وعمره (٣١ سنة):

شخصيته:

- شجاع ورع، ومجاهد، زاهد، وخطاط، رجل جدّ وعزيمة.
- **زاهد - يفضل الخبز اليابس لنفسه في خدمة شعبه،** وكان يقول: (أبذل جهدي ونفسي للدين، أصبر علىٰ كافة البلوىٰ ولا أرجع من الحرب قبل أن أكمل الخدمة لشعبي، ثم أنا اشترك بنفسي في الحرب).

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- يقود الجيوش بنفسه.
- حكمه حروب سجال، انتصر في أكثرها - ضد ألمانيا وبولندا والبندقية وروسيا.

المساوئ:

- خسر في إحدىٰ معاركه ٣٠٠٠٠ مجاهد، وخسر (المجر).
- ضعف الجيش لاستمرار حروبه وضخامة تضحياته وخسائره.

الأقدار الإلهية:

- حدث تمرد الانكشارية عليه، وخُلِع عن العرش، ثم توفي.

تاسعـًا : الخليفة السلطان أحمد الثالث - حكم (٢٧ سنة) وعمره (٣٦ سنة) :

شخصيته:

- مجاهد، شجاع، قوي الإرادة في الحكم.
- أديب وشاعر وخطاط.

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- انتصر علىٰ أساطيل البندقية واسترد فوراً (شبه جزيرة جنوب اليونان)، واستولىٰ علىٰ كريت.
- قاتل الصفويين وهزمهم، واحتل عاصمتهم للمرة الخامسة.
- استولىٰ علىٰ داغستان.
- كاد يقضي علىٰ روسيا بحرب ضروس، فقد طوق ٢٠٠٠٠٠ جندي، وكادوا يقعون في الأسر، فتنازلت روسيا عن سواحل البحر الأسود للدولة العثمانية، بموجب بنود معاهدة (أدرنة) بتدخل إنكلترا.

التطوير الحضاري:

- اهتم بالتصنيع العسكري.
- انفتح علىٰ الغرب بالسفراء والبعثات العلمية.

المساوئ:

- استرد الصفويين بعض أراضيهم..
- ثار عليه الإنكشاريون وعزلوه.
- نتائج الاتصال بالغرب، حمل العائدون قشور الحضارة بأنواع الفساد.

عاشراً: الخليفة السلطان محمود الأول - حكم (٢٤ سنة) وعمره (٣٤ سنة):

شخصيته:

ثقافته العلمية عالية، وتربيته سامية، قوي في حكمه.

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- طور صناعة السلاح خاصة المدافع.
- انتصر علىٰ الصفويين - واحتل عاصمتهم للمرة السادسة وغيرها.
- أوقف تقدم جيوش الروس والنمسا، وانتصر عليها وعلىٰ الصرب واسترجع بلادهم وعاصمتهم.
- مساحة دولته ١٥٥٣٨٠٠٠كم^2.

التطوير الحضاري:

- عوض المتضررين عن الزلزال المدمر في إستنبول، ورمم الأضرار.
- ردّ اقتراح قبول المذهب الجعفري ثم أقره .

المساوئ:

- استرد الصفويون جميع ما خسروه.

الأقدار الإلهية:

- عارض الإنكشاريون مشاريعه الإصلاحية ، إذ هم البلاء المزمن خلال قرنين ونصف من عمر الخلافة العثمانية.

أحد عشر : الخليفة السلطان عثمان الثالث - حكم (٣ سنوات) وعمره (٥٥ سنة):

شخصيته:

- شخصيته هادئة، سخيّ، رحيم بالفقراء، خطاط موهوب، ورع، يتفقد الرعية ليلاً متنكراً.
- رسم أثر قدم الرسول (صلىٰ الله عليه وسلم)، ورسم إلىٰ جانبه (توقيعه)، ثم أهداه إلىٰ ضريح سيدنا ابي أيوب الانصاري.

- عصبي يتعجل الأحكام.
- مهتم بتأديب النساء.

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- لم يخُض حرباً.

التطوير الحضاري:

- حكمه استقرار، واصلاحات داخلية.

المساوئ:

- بدأ الفساد يدبّ إلىٰ المسؤولين!

ثاني عشر: الخليفة السلطان مصطفىٰ الثالث - حكم (١٧ سنة) وعمره (٤٠ سنة):

شخصيته:

ثقافته العلمية عالية، سخي جداً، صاحب عزيمة، نشط، شاعر موهوب، ورع، عفيف.

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- الحرب سجال مع روسيا، وانتصر في أكثرها
- فشلت أكثر تآمراتهم علىٰ الدولة العثمانية في محاولة احتلالهم لطربزون، وغيرها.

التطوير الحضاري:

- ملأ الخزينة بالذهب، تمهيداً لتطوير الجيش وسلاحه وتدريبه ليل نهار.
- حملاته الإصلاحية واسعة، افتتح مدارس الهندسة البرية والبحرية، وكان ينوي فتح قناة السويس، وأنشأ جامع (لا له لي).

المساوئ:

- التآمر الخارجي علىٰ الدولة العثمانية وإثارة المتاعب ضد الخلافة في مصر والشام، وفي طربزون، وفشلت حركات التآمر جميعها.
- بدأ التخلف الحقيقي اعتباراً من هذا العصر في مجال المسؤولين والشعب والجند، ولقرن ونصف من الزمن.
- احتل الروس القرم عام ١١٨٥هـ/ ١٧٧١م، كما احتلوا الأفلاق والبغدان (رومانيا اليوم).
- تحقيقًا لمخطط بطرس الأكبر امبراطور روسيا، في غزو الدولة العثمانية، اجتمع عملاء روسيا بمحمد علي باشا الكبير، وتم الاتفاق علىٰ غزوها من داخلها، فتحرك جيش محمد علي إلىٰ الشام ودخل دمشق وصيدا واستولىٰ عملاء روسيا علىٰ بيروت عام ١١٨٦.

الأقدار الإلهية:

- تعاقب عدة صدور ضعفاء وخونة، انتهت بالدولة العثمانية إلىٰ حروب متواصلة من غير فائدة.

ثالث عشر: الخليفة السلطان عبد الحميد الأول (الغازي) - حكم (١٥ سنة وعمره (٤٩ سنة):

شخصيته:

- ثقافته العلمية عالية، خطاط موهوب، شفاف في التعامل ، وهو أقوىٰ السلاطين في القرن / ١٨م.

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- قاد أكثر الحروب بنفسه.
- انتصر علىٰ النمسا التي اعلنت الحرب تضامنًا مع روسيا، كما انتصر علىٰ ألمانيا في حربين، وحصل علىٰ لقب الغازي لكثرة حروبه.

- كانت الحروب مع الصفويين سجالاً .

التطوير الحضاري:

- قام بإصلاحات داخلية و إعمارية ، أنشأ وحدة المدفعية علىٰ غرار الدول الغربية أنشأ كلية الهندسة العسكرية ، ووضع الخطط العسكرية الدفاعية ومصنع المدافع .

المساوئ:

- سيطرت روسيا علىٰ البحر الأسود وعلىٰ بلغاريا وعلىٰ القرم عام ١٧٨٣م بعد استقلالها عن الدولة العثمانية، وحصلت روسيا علىٰ حرية الملاحة لها في كافة الموانئ العثمانية في البحر الأسود والابيض، كما حصلت علىٰ امتياز حرية التجارة براً وبحراً في البلاد العثمانية - الاستيراد والتصدير، وحماية الكاثوليك في البلاد العثمانية.
- سقطت قلعة (أوزي) بيد الألمان وقتلوا جميع المدنين المسلمين فيها وعددهم (٢٥٠٠٠)، فأصيب السلطان بالفالج، ثم مات.

رابع عشر: الخليفة السلطان سليم الثالث - حكم (١٩ سنة) وعمره (٢٨ سنة):

شخصيته:

- مجاهد شجاع، رحيم، أديب، شاعر، أعلن الجهاد، ورع، أبيّ، غيور علىٰ دينه ووطنه وشعبه.
- يتقن اللغات الثلاث (العربية والتركية والفارسية).

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- شحن معنويات الجيش بخطب العلماء، وبزيادة رواتبهم، وعين الاكفاء في القيادة.
- رفع الأسطول البحري إلىٰ المرتبة الثالثة في العالم.
- ورفع القوات البرية إلىٰ ٧٠٠٠٠٠ جندي، وجهز الجيش بأحدث الأسلحة والمدافع

مستفيداً من التصنيع الفرنسي.

- أعلن السلطان الجهاد ضد فرنسا في مصر، وانتصر المسلمون بقيادة علماء الأزهر ورجال القبائل.
- طهر الجيش من الإنكشاريين بقدر محدود، وقد أتعبوه بالتمرد عليه.

التطوير الحضاري:

- زار كبريات الدول الأوروبية، وكتّلها ضد روسيا.

المساوئ:

- اضطراب الأحوال الداخلية والخارجية للدولة.
- حاول استعادة (القرم) ففشل.
- خسر الحرب أمام روسيا والنمسا في موقعة (بورا) عام ١٧٨٩م، وصار البحر الأسود تحت حكم الروس.
- حدثت ثورة الصرب.
- غزو نابليون لمصر، ومعه أقطاب الماسونية الفرنسية.
- أعلن اليهود أنهم الورثة الشرعيون لإقامة دولتهم في فلسطين.
- حارب الحركة الوهابية ظلماً واعتداءً، وهي حركة إسلامية تقوم علىٰ إحياء الكتاب والسنة، مع ما فيها من غلوّ عند البعض، وانتصر عليها.
- بدأ ظهور النشاط الماسوني بمصر.
- ثورة (قباجي) أُبْعِدَ السلطان عن العرش، ثم استشهد بعد سنة من عزله.

متفرقات:

- جرىٰ حلّ رموز الخط الهيروغليفي الفرعوني من قبل علماء نابليون فرنسيين.

- وأعلن نابليون إسلامه نفاقـًا، وجهّز فرقة من نصارىٰ الأقباط، وأثار الفتنة الطائفية لضرب الثورة الشعبية التي قادها علماء الأزهر، وكان لهذه الفرقة مع الجيش الفرنسي وانتفاضة النصارىٰ العوامل المباشرة لاحتلال مصر، وما أعقبها من مجازر رهيبة، واحتلال الدلتا ومنها القاهرة وساحل فلسطين.
- ثورة المصريين ضد الفرنسيين وانتصاراتهم عليهم.
- أحرق الإنكليز الأسطول الفرنسي في الإسكندرية في (أبي قير) فعزلت الجيوش الفرنسية في مصر.
- دمر الفرنسيون بمدافعهم الأزهر وحيّه، ثم غادر نابليون إلىٰ فرنسا بسبب حرب أوروبية عليه، وترك مكانه كليبر، الذي خاض معركتين ضد العثمانيين خسرهما، ثم اغتيل كليبر.
- أسس كليبر أول محفل ماسوني، ودعا إلىٰ السفور والبغاء.
- حصلت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م، مما حمل الدول الأوروبية علىٰ التعاطف مع الدولة العثمانية، خوفـًا من استفحال الثورة النابليونية، فكانت معاهدة (رشتوىٰ) ١٢٠٥هـ/ ١٧٩١م، بين الدولة العثمانية وروسيا والنمسا، فهدأت الحرب بينهم.
- ظهور حركة (الوهابيين) الذين احتلوا مكة والمدينة

المبحث الخامس

تقويم العصر الرابع «سلاطين عصر السقوط»

(١٠٢٦-١٢٢٢هـ) (١٢٠ سنة)

أولاً: الخليفة السلطان مصطفىٰ الرابع - حكم (سنة) وعمره (٢٩ سنة):

شخصيته:

تربيته جيدة، خطاط موهوب.

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- الحرب ضد روسيا، بمناوشات علىٰ الحدود.

المساوئ:

- قتل غدراً بمؤامرة عليه.

ثانيـاً: الخليفة السلطان محمود الثاني - حكم (٣٢ سنة) وعمره (٢٣ سنة):

شخصيته:

مجاهد حكيم، صارم في حروبه.

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- قضىٰ علىٰ الجيش الإنكشاري الذي أفسد أكثر من قرنين ونصف، وأباده كله، وكان عدده (٦٠٠٠٠).

● انتصر علىٰ روسيا بعد أن انتصرت عليه، وتنازلت له عن الصرب وما حولها، ثم استردت بعضها.

● قضىٰ علىٰ التمرد في اليونان.

التطوير الحضاري:

● جددّ بناء المسجد النبوي، وبنىٰ القبة الخضراء فوق القبر الشريف.

● جابه الأوضاع الداخلية والخارجية المضطربة.

● أعماله في الاصلاح كثيرة، تمثلت في فتح المدارس وإنشاء عمارات كبيرة، وترميم الجوامع الكبيرة، وفي بناء مدرسة في مكة المكرمة وترميم المسجد الأقصىٰ.

المساوئ:

● تأثر بالحضارة الغربية، واستبدل بالعمة العثمانية الطربوش الرومي، والزي الأوروبي.

● سمّيت في زمانه (الدولة العثمانية) بالرجل المريض، رغم ذكائه وجهوده واصلاحاته.

● ثورة (اليونان)، بعد إخمادها، تدخل محمد علي باشا الذي استعان به الخليفة، بارسال ابنه إبراهيم باشا، وبعد احتلالها اجبرت الدولة العثمانية علىٰ الاعتراف باستقلال اليونان، وأغرقت اساطيل فرنسا وإنكلترا أكثر الأسطول العثماني، وقتلت ٣٠٠٠٠ جندي عثماني، واستقلت اليونان.

متفرقات:

● أنشأ محمد علي باشا محافل كثيرة ماسونية - تبناها اليهود، ثم عملاؤهم، كما أرسل البعثات من المراهقين إلىٰ أوروبا، وأهمل الأزهر، وأضرّ بمصر كثيراً.

● قضىٰ علىٰ الحركة الوهابية في الجزيرة العربية، قضاء مبرماً غدراً بها.

ثالثاً: الخليفة السلطان عبد المجيد الأول - حكم (٢٢ سنة) وعمره (١٧ سنة):

شخصيته:

● أذكىٰ الخلفاء وأرحمهم.

- جمع بين الأصالة والمعاصرة.
- انتهت حياته بمرض السل لأحزانه وأتعابه.

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- كان يملك ثالث أقوىٰ أسطول بحري في العالم، بعد بريطانيا وفرنسا.
- حصلت حروب شرسة بين روسيا والعثمانيين، انتصر في أكثرها العثمانيون.

التطوير الحضاري:

- وسع مجال التجارة.
- ترقت العلوم في زمانه، وكان أجرأ خليفة في التغريب.
- امتدت أسلاك الهاتف والسكك الحديد في البلاد علىٰ نطاق واسع.
- أعاد بناء المسجد النبوي، وشيد مآذنه وكتب أسماء الله الحسنىٰ وأسماء الرسول ﷺ في داخل المسجد الشريف.
- جدد أروقة وعمارة المسجد الأقصىٰ.
- ازدهرت إستنبول بأكثر من ألف مسجد، وبآلاف في سائر المدن والقرىٰ في تركيا والعالم الإسلامي.
- بنىٰ قصوراً وجوامع كثيرة.

المساوئ:

- خسر الحرب ضد إبراهيم باشا - ابن محمد علي باشا، في الشام، وتسلمها منه الإنكليز.
- فتحت البلاد للبعثات الفرنسية والامريكية والتبشيرية، وتمكن النصارىٰ من الإعلام، وأثاروا النعرات الطائفية.
- خسر اليونان التي استقلت، كما خسر الشام والجزائر وتونس.

- قضاؤه علىٰ الدولة السعودية الوهابية - عن طريق محمد علي باشا، ظلماً لا يغتفر.
- دعوته الصريحة إلىٰ التغريب.
- أصدر مرسوم (خطّي شريف كولخانة) - أي الدستور عام ١٨٣٩م، الذي ساوىٰ به بين المسلمين وأهل الذمة في كل شيء، وعاد بعد نفور المسلمين من هذا المرسوم الذي هو منافٍ للقرآن، فعزل الصدر الأعظم (رشيد باشا) الذي صاغ هذا المرسوم، ثم أصدر قراره بالتزيّ بالزي الغربي عام ١٨٤١م، ثم أصدر السلطان مرسوماً آخر عام ١٨٥٦م، سماه (خطّي شريف همايون)، وكان أجرأ من المرسوم السابق، وفيه تنظيم شؤون الدولة وفق النهج الغربي، وبذا استبعد جزئياً العمل بالشريعة الإسلامية.
- انصرف إلىٰ اللهو والسكر والاسراف في نهاية حكمه، فمقته شعبه المسلم.

رابعاً: الخليفة السلطان عبد العزيز - حكم (١٥ سنة) وعمره (٣١ سنة):

شخصيته:

قوي الجسم، مهيب، مصارع، رسام وشاعر وملحن، حاد المزاج .

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- بنىٰ الأسطول البحري وارتقىٰ به إلىٰ ثاني مرتبة في العالم بعد بريطانيا.
- زاد عدد الجيش من ٥٠٠٠٠ إلىٰ ١٨٠٠٠٠ بتجهيزاته الحديثة.
- أخمد ثورة كريت.
- ضم اليمن إلىٰ دولته.

التطوير الحضاري:

- مدّ سكك الحديد علىٰ نطاق واسع.
- أقام المدارس والمستشفيات والموانئ والصناعة والشركات والطرق.

- أنشأ مجلس الشورىٰ.
- تسبب في فتح قناة السويس.

المساوئ:

- استعمر الإنكليز مصر بعد انتصارهم علىٰ أحمد عرابي في معركة التل الكبير.
- دعوته الجريئة إلىٰ التغريب، واقتباسه من الدساتير الغربية الكثير.
- سلك طريق العبث واللهو، وبدد الخزينة، وأسرف، وأفرغ الخزينة، واقترض الأموال ودفع الربا عليها، مما سمح للدول الكبرىٰ بالتدخل المباشر في شؤون الدولة العثمانية.
- استمرت تسمية العثمانية (بالرجل المريض) كما كانت زمن أخيه ووالده.
- تسبب فتح قناة السويس في تدخل بريطانيا المباشر.
- تآمر كل من فرنسا وبريطانيا عليه، ثم انتهىٰ التآمر بقتله.

خامسًا: السلطان مراد الخامس - حكم (٣ أشهر) وعمره (٣٣ سنة):

المحاسن:

شخصيته:

- مختل العقل حين توليه الخلافة.
- مدمن علىٰ الخمر، وعابث بالمجون ومسرف.
- أول عميل ماسوني صريح يتولىٰ الخلافة.

سادسًا: الخليفة السلطان عبد الحميد الثاني: حكم (٣٣ سنة) وعمره (٣٤ سنة وهو الخليفة (٣٤):

المحاسن:

شخصيته:

- شخصيته قوية مهيبة، ومخجلة، ومحبوب وسموح وحليم وصبور، وجسده قوي،

متواضع يأكل مع وزرائه وحاشيته.

- هوايته الرياضة والسلاح والسياحة وركوب الخيل وتربية الحيوانات والطيور، كما يهوىٰ النجارة، والزراعة والموسيقىٰ والشعر والتاريخ .
- حياته بسيطة بعيداً عن الإسراف مؤثر البساطة.
- ذكي جداً، سياسي ضليع، تربيته الإسلامية ممتازة علىٰ يد علماء نادرين.
- أتقن سبع لغات.
- اهتم بالتصوف النقي، وكان في غاية اللطف والأدب، وبسيط وزاهد في مظهره وحياته، وورع مع ربه.
- علاقته وطيدة مع ألمانيا، وعهد بتدريب الجيش العثماني إليها.
- عفا عن قتلة عمه - مدحت باشا وعثمان باشا – وعاقبهما بالسجن المؤبد، ولم يوقع علىٰ إعدام أحد، حتىٰ المتآمرين عليه.
- من حبه لرسول الله ﷺ أنه أمر بوضع طبقات عديدة من اللباد تحت الخط الحديد، قرب المدينة، منعـاً للضجيج الذي يؤذي ساكنها ﷺ .
- لم يكن يوقع أي أمر حكومي إلا وهو علىٰ وضوء.
- لم يأخذ من خزينة الدولة شيئـاً، بل كان ينفق من ماله الخاص الكثير علىٰ المدارس والمستشفيات وسكة حديد المدينة.
- كان يعمل ليل نهار بطاقة وزرائه مجتمعين، أحيانـاً، ويطلع علىٰ أخبار العالم من الصحف يوميـاً.
- أفكاره متوازنة بين الأصالة والمعاصرة.
- أعطىٰ مناصب إدارية ووزارية كثيرة للنصارىٰ، ولاسيما للأرمن، كما كان يستخدمهم في قصره.

- كان خطاطًا موهوبـًا.
- تسلم الخزينة بديون مليارين ونصف ليرة ذهب، وفي نهاية حياته انخفضت الديون إلىٰ العُشُر.
- مقتصد، ابتدأ بتقليص نفقات قصره، ومنع مظاهر الترف للأميرات في القصر.
- كان ينتقي المخلصين والأكفاء لجميع المناصب، ولا يقوم مخالفه عنه إلا وهو أسير أدبه وأسير حجته، لذكائه وأدبه الجم.
- أُجبر في السنوات الثلاث الأولىٰ علىٰ خوض حروب ضد روسيا والصرب واليونان التي حبكت خيوطها قبل خلافته، وتفرّغ في الثلاثين سنة الباقية إلىٰ الاصلاحات الداخلية الواسعة، وتوثيق صلاته بالدول الأوروبية والدول العربية، وإحباط مؤامرات الأعداء علىٰ الخلافة، من غير ملل، بعقل ذكي واسع الأفق.
- كان رحيمـًا حازمـًا، لم يعدم خلال حكمه ٣٣سنة شخصـًا واحداً ، حتىٰ أولئك الذي بلغ عددهم (٥١) شخصـًا من المتآمرين عليه عفا عنهم ، قوّىٰ الصلات مع الشعوب الإسلامية والعربية خاصة ، وقوىٰ مركز الخلافة في العالم الإسلامي .

التطوير الجهادي:

- انتصر علىٰ اليونان - بحكمة سياسية وبقوة عسكرية خاطفة.
- بنىٰ القلاع وحصّن (جناق قلعة) بما مكّنها من الصمود في الحرب العالمية الأولىٰ، وقتل ١٢٠٠٠٠ بريطاني وفرنسي ويوناني في حصار الحلفاء لها.
- زاد عدد افراد الجيش بأضعاف ما كان عليه حين بدأ الحكم فقد رفده بأكثر من ٦٠ فرقة، ومنها فرق المدفعية، وطوّر المدافع والسلاح، مع تطوير التنظيم والتدريب الدقيق تحت اشراف خبراء من الجيش الألماني.
- رفع عدد قطعات الأسطول إلىٰ (١٦٠) سفينة حربية، بعد أن كانت ٤٠، واشترىٰ زوارق طوربيد، فصار ثالث أسطول بحري في العالم، كما بنىٰ مرافئ السفن ومصانعها الحديثة،

وطوّر التصنيع بأشكاله.

- انتصر في معارك (بلفنا) الأولىٰ والثانية والثالثة ضد روسيا، في بلغاريا، كما انتصر العثمانيون علىٰ الروس في الأنضول في ٦ معارك.
- كشفت المخابرات العثمانية المخطط الإيطالي السري لاحتلال ليبيا فأرسلت ١٥,٠٠٠ جندي، مما حرم الإيطاليين من احتلالها إلا بعد وفاته.
- أبعد الخلافة عن الحروب التي تضعفها وركّز علىٰ بناء الدولة واستقرار الحياة ، وغنىٰ الشعب ، والتأليف بين الأديان والطوائف والقوميات ، وقضىٰ علىٰ الثورات في مهدها ، ولم يقتل إنساناً واحداً في حكمه للإمبراطورية ثلث قرن.
- أنشأ فيالق عسكرية ضخمة في شعوب العالم العربي لصد العدوان.
- وكان لدعوته إلىٰ الجامعة الإسلامية صدىٰ تماسك الشعوب الإسلامية معه ، وكشف تآمر الغرب عليهم .

التطوير الحضاري:

- اهتم بالمخترعات العصرية في جميع المجالات الحضارية من تصنيع وتعليم وإعداد المناهج تحت رقابته، وأنشأ دور المعلمات، وأدخل التلغراف والمدارس الحديثة، واشترىٰ غواصتين، وصنع الغواصة، وتوسع في استيراد السيارات والدراجات والكثير من المخترعات الحديثة والمطابع الحديثة، واهتم بالمرأة تعليمـاً واحتشامـاً، وحصر دور المرأة بالبيت والتعليم.
- حاول تعريب الدولة باتخاذ العربية لغة رسمية لها، ولكنه وجد مقاومة شديدة من المسؤولين من رجال الدولة، وكان يتقن فن الخط العربي.
- نمّىٰ الحياة الزراعية علىٰ طول خط السير، والإفادة من الأراضي القاحلة ونقل المنتجات الزراعية من مواقع زراعتها إلىٰ الأطراف البعيدة .
- إعلانه الدستور ثم الغاؤه، بسبب تعدد شرائح الشعب، بما يثير المتاعب، وبقي ملغياً

بحكمته ٢٣ سنة، ثم أعاده بضغط شديد من رجال الحركة الماسونية.

- استحدث أقوىٰ جهاز للمخابرات، في كشف المؤامرات الداخلية والخارجية.
- طوّر التعليم بتأسيس عشرات المعاهد والكليات في مختلف الاختصاصات، وحسب النظم الحديثة، كما أنشأ آلاف المساجد والمدارس الحديثة، وحصن التلاميذ من الجهل والأمية، ومن مناهج المدارس التبشيرية المنوّعة.
- اهتم بتأسيس المستشفيات والزراعة والصناعة واقام المصانع المنوّعة والمكتبات والمتاحف والبريد والبرق والتلغراف، وسكك الحديد التي امتدت من المدينة المنورة إلىٰ إستنبول، بكلفة عالية، أسهم هو من ماله الخاص فيها، ثم عطل الخط في الحرب العالمية الأولىٰ من قبل الشريف حسين والإنكليز خوفاً علىٰ الرئاسة التي يحلم بها!
- أغرىٰ بعض العلماء وكبار المخترعين الأوروبيين برواتب ضخمة في سبيل استقدامهم إلىٰ الدولة العثمانية، فرفضوا.
- دعا إلىٰ الجامعة الإسلامية بذكاء وشمول وعمت آثار الدعوة العالم الإسلامي أجمع، وهي دعوة مضادة للنشاط العلماني الأوروبي تستهدف ردّ الاعتبار للخلافة الإسلامية في العالم، واختار لها العلماء الدعاة الأكفاء، برئاسة جمال الدين الأفغاني، ودعا اليابان إلىٰ الإسلام بوفود من الجامعة، وزيارات متبادلة.
- أسس مدرسة العشائر من جميع الدول العربية - بمناهج إسلامية ولغات، وتدريب عسكري.
- اهتم بالوعظ والارشاد، وبإنشاء معاهد له، وخريجوها يعملون في الدعوة للجامعة الإسلامية في العالم أجمع، حتىٰ أنه أسس جامعة إسلامية في بكين بالصين، مع تشييد مئات الجوامع فيها وآلاف الجوامع في الهند.
- حرص علىٰ توحيد القوميات والحاق زعمائها بمجلس المشايخ لرؤساء العرب والأكراد والألبان.

- بدأ بدراسة مشروع إنشاء جسر بين قسمي إستنبول تحت البحر، يمر فيه خط سكة حديد، ولكنه عُزِل بعد إقرار المشروع، وبدأت الدولة التركية اليوم بعد قرن بتنفيذ مشروع مماثل يؤمل أن يكتمل عام ٢٠١٣م إن شاء الله.
- اهتمامه بالصحافة: فقد بلغ عددها (٥٠) جريدة ومجلة خلال عهده، أكثرها كانت بيد الأقليات غير المسلمة وفي خدمتها، وهي تنشر بعشر لغات، وقد استغلها أعداء تركيا من الخارج والداخل، مما اضطره إلىٰ غلق بعضها، ومنع بعضها من الدخول إلىٰ الدولة.
- وحّد الطرق الصوفية وكان عددها (٧٠) طريقة، فقام بربط جميع تكاياها بمقر الخلافة مركزيـًا، مع محاولات تنقيتها من الخرافات.
- أرسل مجموعة من الزهاد والعلماء إلىٰ الهند والصين وجنوب أفريقيا وتركستان وأندونيسيا.
- أنشأ مدينة (بئر سبع) و(طابة).

المساوئ:

- منها بسبب من حكم قبله، وهي الحروب التي خططت لها الماسونية وعملاؤها الأتراك، وخسرت بسببها في السنوات الثلاث الأولىٰ أراضي واسعة في البلقان، وأضخم المعارك ضرراً علىٰ الدولة العثمانية كانت موقعة (بلفنا) الرابعة، بعد انتصاره في الثلاث الأولىٰ ضد روسيا، انتصر فيها العثمانيون ثم خسروها بجرح قائدها وأسره ووصلت قوات الأعداء إلىٰ مشارف إستنبول، وفرضت غرامات ثقيلة بمعاهدتين خطيرتين ارهقتا الدولة العثمانية طيلة حياتها التالية.
- أما الخسائر في عهود من سبقه، فاحتلال فرنسا للجزائر ثم تونس، وفي عصره احتلت بريطانيا قبرص ومصر.
- أما نقطة ضعفه الوحيدة فكانت رحمته المطلقة بالمتآمرين عليه وعلىٰ عرشه، وعفوه عنهم، ثم رحمته بالدم المسلم ألا يُهْرَق في سبيل عرشه، فقد كان بمقدوره إبادة الجيش

الثالث المتآمر، ولكن قلبه الرحيم آثر سلامة المسلمين، علىٰ بقاء الخلافة.

متفرقات:

- تآمر شريف مكة عليه ، فحجزه عنده في إستنبول بتعيينه في مجلس الشورىٰ للدولة، سياسة حكيمة منه، ثم أعيد إلىٰ مكة، فتحالف مع الإنكليز ضد الأتراك المسلمين، ثم مع اليهود في السماح بهجرة اليهود، تمهيداً لإقامة دولة إسرائيل، وكانت ضحايا الجيش العثماني في دفاعه عن فلسطين ٢٥٠٠٠ شهيد وجريح ضد (الخونة من العرب والانكليز معًا).
- كما تآمر (الشيخ حميد الدين) في اليمن و(شيخ عسير) وغيرهما من دعاة الانفصال.
- علاجه للمشكلة الأرمنية - والأرمن أقلية وعددهم (١٣٠٠٠٠٠)، وهم أغنىٰ من المسلمين، وتقلدوا أعلىٰ المناصب، منها منصب الوزير الأعظم، وإن ثلث الموظفين منهم، وهم معفَون من الخدمة العسكرية، وكانت التجارة الممتازة محصورة بأيديهم، إضافة إلىٰ انصرافهم إلىٰ الزراعة والتجارة والصياغة والصيرفة، وإخوانهم المسلمون في جهاد، وتُهْرَق دماؤهم أنهارا. ومن وزرائهم في الدولة العثمانية (١١) وزيراً، ومن النواب (١١) نائبـًا أيام الخليفة عبد الحميد. أما عددهم في روسيا فكان (١١٠٠٠٠٠)، وأحوالهم فيها تعيسة، وهي التي أثارت المشكلة الأرمنية.
- وتآمرت الجمعيات الأرمنية المسلحة بهدف تشكيل دولة لهم، وحدثت صدامات مع الجيش العثماني، بمساعدة روسيا.
- المشكلة الكردية: اجتذب السلطان الأكراد العثمانيين إليه في قتال الصفويين - وأدخل السلاطين العثمانيون الكثير من الإصلاحات إلىٰ كردستان، غير ان الاكراد طالبوا بالاستقلال، مع ظهور النزعة القومية الطورانية والعربية، غير أن الخليفة عبد الحميد الثاني ربط رؤساء الأكراد وشيوخهم به مباشرة، بعد محاولات الإنكليز إثارتهم.
- تآمر اليهود: فشل اليهود برئاسة (هرتزل) في الحصول علىٰ ترخيص لهم بالهجرة إلىٰ فلسطين، رغم مغرياتهم وتهديداتهم.

- جمعية الاتحاد والترقي: أنشأها طالب الباني متآمر علىٰ الخليفة وعلىٰ الدولة، حوكم، ثم حُكِم بالسجن، وعفا عنه السلطان وعن جماعته المتآمرة ثم اتسعت الجمعية، وألقي القبض عليه، وعفا عنه ثانية.
- استمرت المؤامرات تباعـًا علىٰ السلطان من قبل جمعية (تركيا الفتاة)، مؤيدة من قبل إنكلترا وفرنسا والماسونية، وكشفت قبْل يوم واحد، وألقىٰ القبض علىٰ جميع المتآمرين، ثم أصدر السلطان أحكامـًا مخففه، ولم يعدم واحداً، ثم أعطىٰ مناصب جيدة لبعض قادتها، فكسبهم إلىٰ جانبه.

سابعـًا : الخليفة السلطان محمد رشاد - حكم (٩ سنوات) وعمره (٦٥ سنة) :

شخصيته :

رحيم عطوف، ثقافته الأدبية والتاريخية عالية، ذاكرته حادة.

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- عاصر الحرب العالمية الأولىٰ، وعارض دخولها، ولا رأي له، حاكم صوري.
- أخمد تمرد ألبانيا.
- بدأت حروب البلقان.
- أوقف الجيش العثماني الجيوش الفرنسية والإنكليزية واليونانية في (جناق قلعة) وخسروا ١٢٠,٠٠٠ قتيل، في الحرب العالمية الأولىٰ.

المساوئ:

- احتل البلغار (أدرنة) بعد دفاع مجيد.
- احتل الحلفاء إستنبول وغرب تركيا، وأُسِر الخليفة.
- احتلت إيطاليا طرابلس (ليبيا) ١٩١١م، بعد جهاد عمر المختار أكثر من عشر سنين،

واستشهاده بعمر (٩٠) سنة.

ثامنًا: الخليفة السلطان محمد وحيد الدين - حكم (٤ سنوات) وعمره (٥٧ سنة):

شخصيته:

ثقافته الإسلامية عالية.

المحاسن:

التطوير الجهادي:

- حرّض القادة علىٰ التمرد علىٰ أتاتورك - بعد أن عُرِفت نواياه، ولكنه لم يوفق.

المساوئ:

- انهزمت الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولىٰ التي اشترك فيها من دون رأي له.

متفرقات:

- أجبر علىٰ مغادرة البلاد علىٰ بارجه بريطانية إلىٰ مالطة، ودعته دول كثيرة للإقامة فيها، فلم يلبّ.
- استقر في ايطاليا كمنفىٰ، وتوفي فيها، وبقي جسده مرهونـًا فيها مقابل ديونه، ثم تحملت سوريا الديون، ونقل جثمانه إلىٰ سوريا، ودفن فيها، ثم أزيل القبر!!

تاسعـًا: الخليفة السلطان عبد المجيد الثاني - حكم (سنة واحدة):

المحاسن:

شخصيته:

- مؤدب ، الناس يتهافتون عليه للتبرك به ، بعد أن أدركوا خيانة أتاتورك للخلافة الإسلامية.
- مُنِع من الخروج حتىٰ إلىٰ الصلاة، ثم عُزل، بإلغاء الخلافة في ٣/ آذار / ١٩٢٣م.

الباب الثاني
الفردوس المفقود

(٩١-٨٩٧هـ = ٧١١-١٤٩٢م)

(ثمانية قرون)

عصوره وحضارته وجهاده وفواجعه
وجهود العثمانيين لإنقاذه

تمهيد

فتح الأندلس هو بشارة المصطفىٰ ﷺ لطارق ﷺ ، مرتين في رؤيتين رآهما، يبشرّه بالنصر، ويوصيه بأهل الذمة - النصارىٰ من أهلها، قبيل العبور ثم خلاله، وكان المسلمون أمناء علىٰ وصيته ﷺ ، بأهلها ، مما حملهم علىٰ الإسلام والتعرّب، والإسهام مع الفاتحين بالجهاد قبل إسلامهم وبعده، كما جاهد الأتراك غير المسلمين في فتوح القفقاس بإذن من الفاروق ﷺ قبل الإسلام وبعده، وكان ثمرة هذا الجهاد الخالص قيام حضارة تضاهي حضارة المشرق، وفاء الله تعالىٰ لهم علىٰ جهادهم وتماسكهم وتقواهم.

ثم شغلتهم الدنيا - بكراسيها ولهوها وأموالها ونسائها، وعبثها، فتمزقت إلىٰ (١٤) ولاية يحكمها ملوك الطوائف ثم تعددت إلىٰ (٤٠)! فدهمتهم الخطوب باحتلال مدنهم وإحراقها وقتل أهلها واغتصاب نسائها، وبيعهن بأسواق أوروبا، فتنادت العلماء ولا مجيب، إلا القليل ! حتىٰ أنجدتهم أفريقيا - المرابطون في نهاية القرن الخامس وأوائل السادس (٦٢ سنة)، ثم الموحدون (٧٥ سنة)، حتىٰ منتصف القرن السابع، ثم بنو مرين منذ منتصف القرن السابع حتىٰ أواخر القرن التاسع (٢٠٠ سنة)، وحلت الكوارث في القرن الخامس حتىٰ نهاية الأندلس، عدا فترات الإنقاذ الثلاث إذ سقطت عشرات المدن الأندلسية بل دمرت وأحرقت ، إلا (مملكة غرناطة) التي استمرت من منتصف القرن السابع حتىٰ أواخر القرن التاسع (٢٦٠ سنة)، حيث انتهىٰ الإسلام والمسلمون في عهد محاكم التفتيش عام ٨٩٧هـ - ١٤٩٢م، ولا أحد يرجع الصدىٰ![1]، تنفيذاً لنص الكتاب المقدس: (أبادوهم ولم يبقوا نسمة، كما أمر الرب عبده، هكذا أمر موسىٰ يشوع، وهكذا فعل يشوع، ولم يهمل شيئًا

---

(١) العصر الأندلسي، المؤلف/ ص١٧٣-٢١٥ بإيجاز شديد، يمثل العناوين وتواريخها، عن (تاريخ الأندلس)، عبد الرحمن الحجي/ ص١٥٠-١٧٠ وغيره

من كل ما أمر الرب به موسىٰ)[١]، (سقطوا جميعـًا بحد السيف حتىٰ فنوا)[٢]، (.. وأخذوا المدينة وحرّموا كل ما فيها من رجل وامرأة، ومن طفل وشيخ، حتىٰ البقر والغنم والحمير، بحد السيف، وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها)[٣].

ولقد كان تاريخها ترجمة للسنن الكونية التي أحكمها الله للدول والشعوب في عمر التاريخ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[٤].

وهكذا خمدت أنفاس المسلمين بفنائهم جميعـًا علىٰ أيدي النصارىٰ، تنفيذاً لوصايا السيد المسيح ﷺ بزعمهم ، والتي أخطرها ما نسبوه إلىٰ عيسىٰ ﷺ في الإنجيل المحرف المعاصر، كذبـًا عليه : (أما أعدائي، أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم ، فأتوا بهم إلىٰ هنا، واذبحوهم قدّامي)[٥].

وكانت معارك مهولة ، زمن الفتح، والمرابطين والموحدين والمرينيين، بمستوىٰ معارك القادسية واليرموك ونهاوند، ضراوة وفتوحـًا، وسنأتي علىٰ ذكرها بايجاز،

وفي العقود الأخيرة من مملكة غرناطة، وهي تلفظ أنفاسها، كانت الاستغاثات تملأ عنان السماء من أهلها إلىٰ الخلفاء العثمانيين لنجدتها، غير أن عوامل ثلاثة فتّت في عضدهم، وهي :

١- **ثورات الصفويين الشرسة** في إيران المتزامنة مع جهود العثمانيين في الإنقاذ، **وتحالفهم القذر مع البابا والبرتغاليين** النصارىٰ ضد الدولة المسلمة السنية، طيلة أكثر من قرنين

(١) سفر يشوع/ ١١/ ١٥-١٧

(٢) سفر يشوع وصموئيل وغيرهما

(٣) سفر يشوع/ ٨

(٤) النحل/ ١١٢

(٥) إنجيل لوقا/ ١٩/ ١٧

ونصف من الزمن ، ابتداء بعهد السلطان سليم الياووز (٩١٨-٩٢٦هـ) وانتهاء بالسلطان عبد الحميد الأول (ت/ ١٢٠٣هـ).

٢- **خيانة ملك المغرب (أحمد المنصور بالله)** الذي اتفق مع الإسبان والبرتغاليين ضد العثمانيين، فأفشل خططهم في نجدة الأندلس بالأساطيل والجيوش والسلاح المهيّأة لغزو الأندلس، بعد جهود كثيفة موصولة، وذلك عام ٩٨٦هـ في عصر السلطان مراد الثالث[١].

٣- **الأقدار الإلهية** التي قبضت روح السلطان بايزيد الذي اعتزم فتح الأندلس حين عزم افتتاح إيطاليا بعد انتصاره علىٰ الصرب ، والقدر الذي استلب روح محمد الفاتح ، الذي احتل جنوب إيطاليا، تمهيداً لغزو الأندلس بجيش كثيف، ولكن الموت عاجله، والأقدار التي أخطأ بها ثوار الأندلس ساعة الصفر، مما أدىٰ إلىٰ إبادة ١٥٠,٠٠٠ مجاهد أندلسي في حرب البوشارات، وهي أهم ثورة قام بها الأندلسيون بعد سقوط غرناطة ، قادها محمد بن أميمة عام ١٥٦٨م، وتوغل قبلها القائد الجزائري العثماني (حسن آغا) بجيش عثماني في ١٣٠٠٠ جندي، محمولاً علىٰ ١٣ سفينة، عام ١٥٣٩م، في الأراضي الإسبانية في الساحل الجنوبي، غنم أموالاً وسبايا وأسرىٰ، وباعهم في المدن المغربية، كما أنقذ عدداً من المسلمين[٢]. واحتل قبلها العثمانيون مدينة (بجاية) بـ ٣٠٠٠٠ مجاهد عام ٩٦٣هـ/ ١٥٥٥م، تمهيداً لإنقاذ الأندلسيين[٣].

وهكذا اندثر المسلمون في الأندلس، عقاباً إلهياً لهم علىٰ تشتتهم وحبهم للدنيا، وعبثها، وبقيت آثارهم تشهد لهم، ولم تزل حتىٰ الآن من عجائب الدنيا.

لقد اشتمل هذا الباب علىٰ ثلاثة فصول :

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣١١-٣١٤ باختصار، عن (الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترىٰ عليها)/ ٢/ ٩٢٦، وحرب الثلاثمئة سنة/ ص٣٩٢-٣٩٣

(٢) المصدر السابق/ ٢٧٥، عن حرب الثلاثمئة سنة/ ص٢٨٠

(٣) المصدر السابق/ ص٣١١، عن محنة المورسيكومن في اسبانيا، محمد قشيليو/ ص٣٣-٣٥، وجهود العثمانيين/ ص٣٩٩-٤٠٠، ٣٩٤

عُني **الفصل الأول** بعصور الأندلس الأربعة بشيء من التفصيل، في فتوحاتهم وحضارتهم وإنقاذهم ثم اندثارهم.

كما عُني **الفصل الثاني** بدراسة مدى التزام المسلمين في سلمهم وحربهم بالقيم الإنسانية، في مقابل التزام أعدائهم النصارى بسلوك الذئاب الشرسة المفترسة للمسلمين في سلمهم وحربهم .

أما **الفصل الثالث والأخير**، فيختص ببيان جهود الدولة العثمانية في انقاذ الأندلس والعقبات التي حالت دون تحقيق ذلك.

الفصل الأول

الفردوس المفقود وعصوره التاريخية

المبحث الأول: عصر الفتوحات

المبحث الثاني: عصر القوة والاستقرار والحضارة

المبحث الثالث: عصر الضعف والإنقاذ

المبحث الرابع: عصر انهيار الأندلس وظهور مملكة غرناطة الصامدة

المبحث الأول

عصر الفتوح (٩١-١٢١هـ) ٣٠ سنة

المطلب الأول

فتح الأندلس (٩١-٩٣هـ)

بدأ الفتح بنزول جيش القائد طارق بن زياد المسلم البربري في جنوب الأندلس، وفيه (١٢) عربيًا مسلمًا، وخوضهم معركة (البرباط) (وادي لكه) عام ٩٢هـ/ ٧١١م، في أواخر رمضان، لمدة ثمانية أيام متواصلة، وجيشه ٧٠٠٠ جميعهم مشاه ، ضد ١٠٠,٠٠٠ فارس[١]، بقيادة لذريق، ثم تحقق النصر بعد خسارة ٣٠٠٠ شهيد، وقتل عشرات الألوف من جيش العدو، ومثلهم من الجرحىٰ، ومثلهم من الغرقىٰ في الوحل والتائهين في الجبال، وصار لكل جندي مسلم فرس ، ثم استغاث طارق (الغوث الغوث) بموسىٰ بن النصير بعد أن فقد نصف جيشه، فأنجده بـ ٥٠٠٠ مجاهد، ثم بـ ١٨٠٠٠ مجاهد بقيادة (موسىٰ)، واستكمل الفتح في (٣,٥) سنوات عام ٩٣هـ[٢].

المطلب الثاني

فتح فرنسا (الأرض الواسعة) (١٠٢-١٢١هـ)

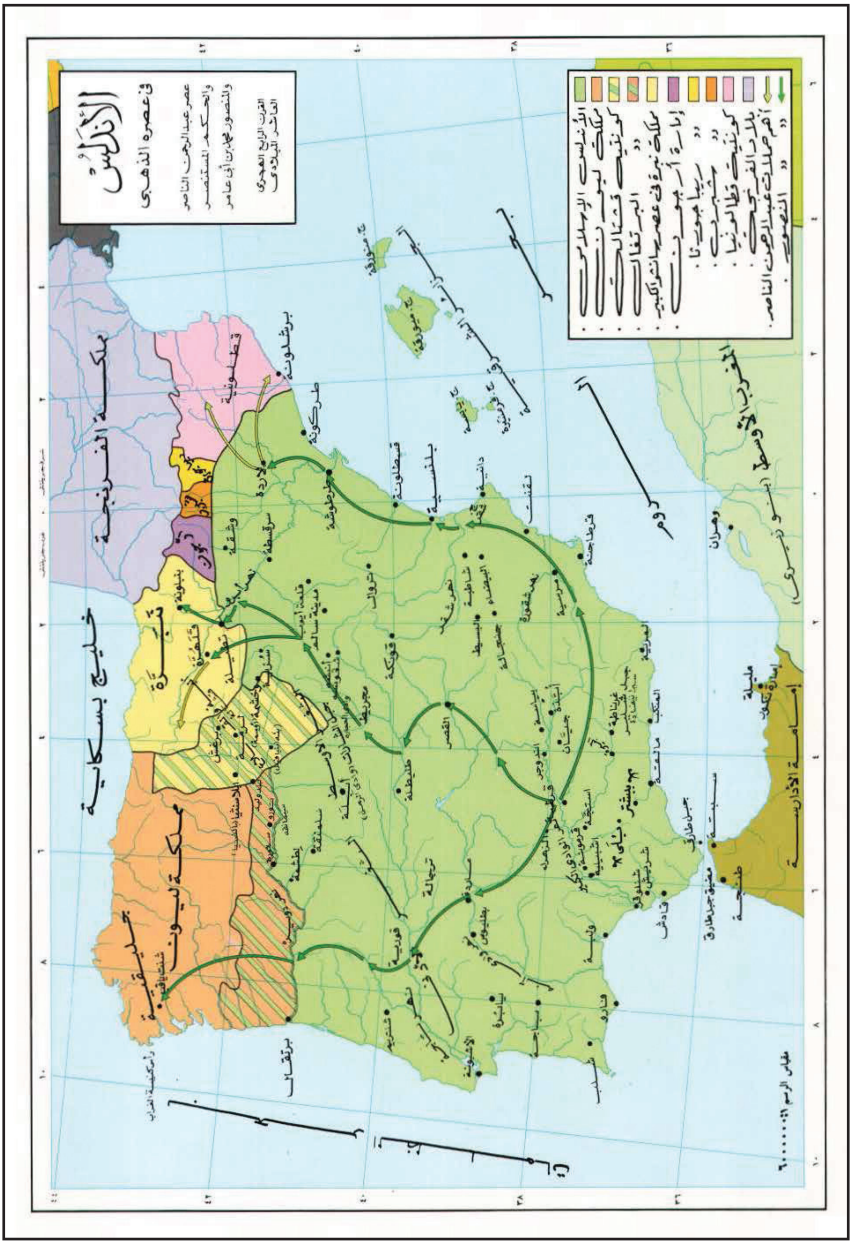
كان الفتح في النصف الأول من عهد الولاة الذي استمر (٤٢ سنة) (٩٥-١٣٨هـ/ ٧١٤-٧٥٥م)، واستمر الفتح خلال (٢٠ سنة)، وكانت الأندلس ولاية من ولايات الدولة الأموية بالشام، ومراحل الفتح كما يأتي:

---

(١) واختلفت الآراء في عدد جيش لذريق، إذ منهم من قال أنه ٩٠,٠٠٠، ومنهم من قال ٢٤٠,٠٠٠، ولعلهم قد أضافوا اليه الجيش الاحتياطي

(٢) تاريخ الأندلس، د. عبد الرحمن الحجي/ ص٥٢

١٢٣[1]



الأندلس المسلمة في عصرها الذهبي

(١) أطلس تاريخ الإسلام ، حسين مؤنس/ ص ١٧٢ .

فتح فرنسا (الأرض الواسعة) في ست هجمات كاسحة، كان يقودها ولاة الأندلس أنفسهم :

أولها - الوالي السمح بن مالك الخولاني (يمنيّ) قائد الجيش في (رمضان عام ٧٠٠/ ذو الحجة ١٠٢)، استولىٰ علىٰ جنوب فرنسا، وشرقها، غير أنه استشهد في يوم التروية في معركة لم ينج منها أحد من المجاهدين، وأقام حكومة إسلامية في (مقاطعة سبتمانيا) جنوب فرنسا (انظر في الخارطة بعد ٣ صحائف)، استمرت قرناً كاملاً شرق **جبال البُرت** علىٰ سواحل البحر المتوسط، وقام بإنشاء قنطرة قرطبة الشهيرة علىٰ نهر الوادي الكبير، باستئذان عمر بن عبد العزيز، وأقسم ألا يعبر عليها إلا للجهاد، وقد برّ بوعده، هو والذين خلفوه من بعده من الأمراء والخلفاء[١]،

ثانيها - عبد الرحمن الغافقي - لمدة ٣ أشهر، بمعارك كانت سجالاً.

ثالثًا - عنبسة الكلبي (١٠٣-١٠٧هـ) لمدة ٤ سنين ونصف، احتل شرق فرنسا إلىٰ (سانس) في أعالي نهر الرون، علىٰ بعد ١٠٠ كم من باريس، استشهد فيها[٢].

رابعًا - يحيىٰ بن سلمة (١٠٧هـ/ ٧٢٦م)، لمدة سنتين ونصف[٣].

خامسًا - عبد الرحمن الغافقي (١١٢هـ/ ٧٣٠م) لمدة سنتين وثمانية أشهر، خاض معارك متواصلة، واحتل **آزال** علىٰ نهر الرون بحروب طاحنة، وزحف غربًا واحتل حوض نهر كارون، حتىٰ المحيط الأطلسي - خليج بسكاي - وهكذا سيطر علىٰ أكثر من ثلث فرنسا، ثم اجتمعت عليه جيوش أوروبا في موقعة (بلاط الشهداء) في رمضان عام ١١٥هـ، علىٰ بعد ٢٠٠كم جنوب غرب باريس بين مدينتي (تور وبواتيه)، واستشهد، وخسر المسلمون المعركة التي استمرت عشرة أيام، وذبح الجرحىٰ من جنود المسلمين ، وسالت دماؤهم أنهارا! ضد وحوش كانوا عراة يلبسون جلود الذئاب[٤].

---

(١) تاريخ الأندلس، د. عبد الرحمن الحجي/ ص١٨٧-٢٠٦ بإيجاز، عن (نفح الطيب)/ ج١/ ص٢٢٦-٢٢٧، وعن المقريزي، ومصادر أخرىٰ

(٢) المصدر السابق/ ص٢٠٨

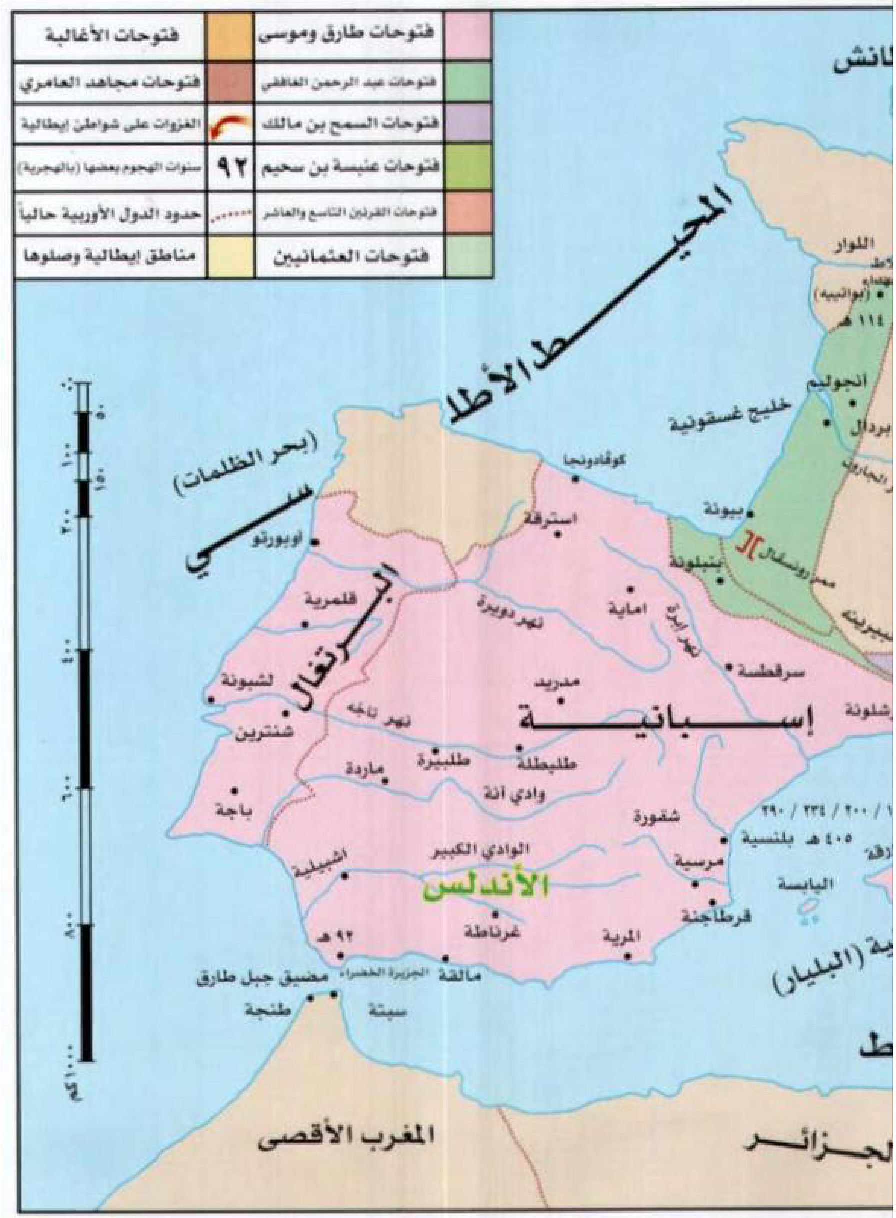
(٣) المصدر السابق / ص٢٠٤ باختصار

(٤) المصدر السابق / ص١٩٣-٢٠٣، عن (نفح الطيب) في صحائف كثيرة

١٢٤



الفتوحات العربية تحت ظلال الإسلام في أوربا



الفتوحات العربية تحت ظلال الإسلام في أوربا

سادسًا - عقبة بن الحجاج (١١٦-١٢١هـ)، كان مجاهداً خمس سنين، استولىٰ علىٰ جنوب فرنسا إلىٰ حدود إيطاليا، ثم خسر المعركة، فانسحب إلىٰ ولاية (سبتمانية) أي (الولايات السبع)- التي خضعت للحكم الإسلامي قرنـًا من الزمن. وكانت خاتمة الفتح الإسلامي في فرنسا[١].

آثار عصر الفتوح في الأندلس - لقد كانت غاية الفتح نشر الإسلام، لذا فإن المجاهدين عنوا بالمساجد، مراكز الدعوة، كما عنوا بالمدارس لأسلمة الشعوب وتربيتها، وعنوا بأهل الذمة، كما أوصاهم نبيهم، فأحبوهم وتزاوجوا منهم، وظهر (المولدون) بنسبة عالية، وهم نسل المصاهرة بين المسلمين الفاتحين ونساء الإسبان - ومنهم الإمام ابن حزم، هو من أصل نصراني، وابن خلدون وابن عبد ربه قاضي إشبيلية، وكثير من القضاة والعلماء والأدباء المشهورين[٢].

كما ظهر (المستعربون) بنسبة كبيرة، وهم أهل الذمة ممن يتكلم العربية، ويحبون المسلمين، ويلبسون لباسهم، ويختتنون، ويمتنعون عن أكل لحم الخنزير، وأكثر إسمائهم إسلامية، وأتقنوا العربية وتذوقوها، ونقلوا الأمم إلىٰ إسلامهم بسلوكهم المتميز، ولم ينقلوا الإسلام إلىٰ الأمم![٣]

(١) تاريخ الأندلس، د. عبد الرحمن الحجي/ ص٢٠٤-٢٠٧ باختصار

(٢) وتفصيل ذلك في التاريخ الأندلسي والفتح الإسلامي حتىٰ سقوط غرناطة - عبد الرحمن الحجي

(٣) التاريخ الاندلسي، د. عبد الرحمن الحجي / ص٢٧٧-٢٨٠

المبحث الثاني

عصر القوة والاستقرار والحضارة

يشمل ٣ عهود - (١٦٠ سنة) (١٢١-٢٨٠هـ)[(١)]

المطلب الأول

عهد الولاة: (٩٥-١٣٨هـ/ ٧١٤-٧٥٥م)

يعتبر بعض المؤرخين مدة الفتح داخلة في هذا العهد، الذي ينتهي بمجيء عبد الرحمن الداخل إلىٰ الأندلس سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٥م، وقد حكم الأندلس في هذا العهد الذي استمر ٤٢ سنة (عشرون) واليًا، كانوا تابعين للخلافة الأموية في دمشق مباشرة أو بواسطة ولايات الشمال الأفريقي والمغرب[(٢)]، لم ينحصر الجهد في الميدان العسكري الذي هيمن به المسلمون علىٰ كافة البلاد فحسب، بل شمل الميدان الإصلاحي كذلك في كل وجوه الحياة المالية والزراعية والعمرانية والهندسية والإدارية، كما بنيت قنطرة قرطبة العجيبة[(٣)].

المطلب الثاني

عهد الإمارة (١٣٨-٣١٦هـ): لمدة (١٧٥) سنة[(٤)]

١- بدأه عبد الرحمن الداخل (أبو الملوك) (١٣٨-١٧٢هـ)، الذي قضىٰ علىٰ خصومه، وعلىٰ جيش عباسي أرسله المنصور، وانتصر علىٰ (شارلمان) الذي عبر جبال البرت، وقضىٰ علىٰ ثورات داخلية، أهمها ثورة الوالي (يوسف عبد الرحمن العنزي) في معركة حاسمة

(١) انظر موسوعة الأدب الإسلامي وتاريخه في عصوره - العصر الأندلسي، د. عابد الهاشمي/ ص١٧٩

(٢) التاريخ الأندلسي، د. عبد الرحمن الحجي / ص٣٩

(٣) المصدر السابق/ ص٢١٢

(٤) المصدر السابق/ ص٢١٥

(المصارّة) ١٣٨هـ/ ٧٥٦م، وأنشأ مسجد قرطبة الجامع سنة ١٧٠هـ، وسكّ النقود باسمه، أسس الداخل إمارة مستقلة عن الخلافة العباسية استمرت ١٧٨ سنة حتىٰ إعلان الخلافة من قبل عبد الرحمن الناصر الثالث (سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٩م)[١]، لقّب أبو جعفر المنصور عبدالرحمن الداخل بـ(صقر قريش)[٢].

٢- هشام - حكم (٨) سنين (١٧٢-١٨٠هـ)، جدد قنطرة قرطبة الشهيرة.

٣- الحكم الأول - حكم (٢٧) سنة (١٨٠-٢٠٦هـ)[٣].

٤- عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ)، وسع مسجد قرطبة، حكم (٣٢) سنة. ظهور مملكة (نبارة) الإسبانية عام ١٩٠هـ، وقبلها دولة (ليون) التي استمرت حتىٰ نهاية الحكم الإسلامي ثم ظهرت دولة (قشتالة) عام ٣٥٩، واستمرت حتىٰ نهاية الحكم الإسلامي، وبنىٰ مدينة مرسية. وتوالت هجمات النورمان (الفايكنك - قراصنة البحر الجيرمان) علىٰ الأندلس بوحشية - الهجوم الأول/ ٢٢٩، الهجوم الثاني عام ٢٤٥هـ - بعد ١٥ سنة، والثالث عام ٢٤٧هـ، وارتكبوا ما يفوق الوصف في القتل والنهب والأسر والاغتصاب، كما تصدت لهم الأساطيل الأندلسية المسلمة وألحقت بهم أفدح الخسائر، كما سيطر الأسطول الأندلسي أيام عبد الرحمن الداخل علىٰ الجزائر الثلاثة الشرقية (منورقة وميورقة واليابسة) سنة ٢٣٤هـ/ ٨٤٨م[٤]، وكانت معارك هائلة تجري بين الشمال الإسباني والجيوش الإسلامية، سجالاً[٥].

---

(١) تاريخ الأندلس، د. عبد الرحمن الحجي/ ص٣٩، ٢١٧

(٢) المصدر السابق/ ص٢١٧، عن (نفح الطيب)/ ١/ ٣٢٩، والبيان في المغرب/ ٢/ ٥٩

(٣) المصدر السابق/ ص٢١٧، عن (نفح الطيب)/ ٣/ ٢٧، ١/ ٣٤٧، ١/ ٣٢٩، والبيان المغرب/ ٢/ ٥٩

(٤) التاريخ الأندلسي، عبد الرحمن الحجي / ٢٤٣، عن (دولة الإسلام في الأندلس)/ ١/ ١٩٧، ٢٦٠، وما بعدها

(٥) نفح الطيب/ ١/ ١٦٧، ٣٤٥-٣٤٦، ٣٥٠، ٣٨٣، ٢/ ٢٥٧، والتاريخ الأندلسي، عبد الرحمن الحجي / ص٢٢٣-٢٤٠ بإيجاز شديد، عن عشرات المصادر عن نصوص من الأندلس/ ١١٩، والمقتبس/ ٢/ ٣١١-٣١٢، وغيرها

٥- محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ)، حكم (٤٤ سنة)، هو الذي بنىٰ مدينة (مجريط) تحولت بعدئذ إلىٰ (مدريد) العاصمة الأسبانية المعاصرة.

٦- المنذر بن محمد (٢٧٣-٢٧٥هـ/ ٨٨٦-٨٨٨م)، حكم (٢ سنتين).

٧- عبد الله بن محمد (٢٧٥-٣٠٠هـ/ ٨٨٨-٩١٢م)، حكم (٢٥ سنة)[١].

آثار عهد الإمارة في الأندلس:

تطورت فيه الحركة العلمية والأدبية والعمرانية، والجيش وسلاحه وأساطيله البحرية الكثيفة، وسع مسجد قرطبة الجامع، وتوفر الأمن والغنىٰ، وقامت علاقات دبلوماسية مع الدول العربية والإسلامية وشمال إسبانيا.

وكان الذين أسلموا من أهل الأندلس أضعاف العرب والبربر الفاتحين.

وتمذهب الأندلسيون بمذهب الإمام الأوزاعي/ ت ٨٨، ثم بمذهب الإمام مالك، ثم الإمام الشافعي، ثم الإمام ابن حزم الظاهري (رضي الله عنهم).

وظهرت فرقة (المعاهَدين - الذميين) - كانت حقوقهم كالمسلمين عدلاً ورحمة، وكانوا محبين للمسلمين، ويتكلمون العربية. وعمّ الرخاء، ولم يكن هناك متسوَّل بين المسلمين والذميين.

وظهر العلماء والمخترعون - منهم عباس بن فرناس، الذي استخرج الزجاج من الحجارة، وهو أول من حاول الطيران، وانتهت حياته بمحاولته[٢].

واستقل القضاء، واشتهر القضاة بالعدل والجرأة، وقدمها العلماء والتلاميذ من أقاصي الأرض.

---

(١) العصر الأندلسي المؤلف/ ص١٨٠-١٨١، عن (تاريخ الأندلس)، عبد الرحمن الحجي / ص١٦٠-١٧٠ بإيجاز

(٢) المصدر السابق، المؤلف/ ص١٨١-١٨٢، عن المصدر السابق له/ ص٢٧٨-٢٨٧ باختصار شديد .

المطلب الثالث

عهد الخلافة (٨٤ سنة) - (٣١٦-٤٠٠هـ)

وإذا احتسب ابتداء من حكم الناصر قبل إعلانه الخلافة في ٣١٦هـ فيمتد إلىٰ ١٠٤ سنين .

آثار هذا العهد في الأندلس :

- أخضع الخليفة الناصر جميع ملوك أوروبا، وكانوا يقبّلون يده[١]، بلغت الحضارة في زمانه القمة، ولها مدارسها وكلياتها وجوامعها ومكتباتها التي تضم مئات الألوف من المصادر العلمية![٢]
- تطورت صناعة الأساطيل البحرية حتىٰ هيمنت علىٰ البحر المتوسط، وترسانة السلاح، وفتحت الجزائر الشرقية الثلاث سنة (٢٩٠هـ/ ٩٠٣م) أيام الأمير عبد الله[٣].
- قامت العلاقات الدبلوماسية، بين الأندلس والدول الإسلامية والأوروبية[٤].
- أنشأ مدينة الزهراء (٣٢٥هـ/ ٩٣٦م)، التي اكتمل بناؤها في ٤٠ سنة، علىٰ بعد (٥) أميال شمال غرب قرطبة، واتخذها عاصمة له فترة من الزمن، وأنشأ الحاجب المنصور شرق قرطبة مدينة الزاهرة عام (٣٦٨هـ/ ٩٧٨م).
- كما أنشأ مدينة (سالم)، شمال شرق مدريد علىٰ بعد ١٣٥كم، و(المرية) جنوب شرق الأندلس، كانت قاعدة الأسطول الأندلسي، وغدت (قرطبة) جوهرة العالم[٥].
- ازدهر القضاء النزيه في زمانه.

---

(١) التاريخ الأندلسي، عبد الرحمن الحجي/ ص٣٠١، بل أن الفونس ملك ليون عام ٣٩٧هـ، عهد تربية ابنه إلىٰ مربيين في قرطبة: نفس المصدر/ ص٣٠٣، عن (أندلسيات)/ ٢/ ٥٨، والحضارة الإسلامية في الأندلس/ ٢٥-٣١

(٢) المصدر السابق/ ص٣١٧ - ويذكر أن مكتبة الحكم بلغت ٤٠٠,٠٠٠ مجلد

(٣) المصدر السابق/ ص٣٠٧، عن (جغرافية الأندلس وأوروبا)/ ٣١، ومرحلة الأندلس/ ٧٩، ١٠٣-١٠٤، ٣١٧، عن (الكتب والمكتبات في الأندلس)، عبد الرحمن الحجي، مجلة الدراسات الإسلامية/ ٤/ ٣٧٠

(٤) المصدر السابق/ ٣١٨، ٣٢٠، ٣٠٢، عن (سياسة الفاطميين نحو الغرب والأندلس)/ ٥/ ٢٠٧، وأندلسيات/ ١/ ٤٢، ونفح الطيب/ ١/ ٣٦٧

(٥) المصدر السابق/ ص٣٠٣-٣٠٥، عن (البيان المغرب)/ ٢/ ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٨٧، ونفح الطيب/ ١/ ٣٤٧، والروض المعطاء/ ص١٨٣

- قضىٰ علىٰ ثورتين خطيرتين في الشمال، بخسائر فادحة[١].

- أقام الأندلسيون المهاجرون إلىٰ جنوب فرنسا إمارات جبال القلال التي امتدت من جبال الألب إلىٰ جنوب فرنسا وشمال إيطاليا وجنوب سويسرا وشرقها، في جبل القلال (فراكسينتوم) ٢٧٧-٣٦٥هـ، تقع في المساحة التي تغطي أواسط سويسرا وشرقها وشمال ايطاليا إلىٰ ما يقارب (ميلانو)، وبين نهر الرون تقريباً غرباً، وتورتو شرقاً في إيطاليا، وجنوب فرنسا بين مرسيليا في فرنسا وجنوة في ايطاليا، وسواحلها علىٰ البحر المتوسط لا تقل عن ٣٠٠كم، وهي بمساحة دولة غرناطة تقريباً، أنظر الخارطة (فتوحات العرب تحت ظلال الإسلام في أوروبا)،استمرت قرابة القرن، كانت قوية تهدد أمن أوروبا، وقد توسطت الدولة الرومانية المقدسة لدىٰ الخليفة الناصر بعقد معاهدة سلام، بينها وبين دول أوروبا، فاعتذر[٢].

- قام النورمان بالهجمات الرابعة والخامسة والسادسة، علىٰ الموانيء الأندلسية، وتكبدوا خسائر فادحة[٣].

- بناء مسجد (قرطبة الجامع) الذي بدأه عبد الرحمن الداخل سنة (١٧٠هـ/ ٧٨٦م)، وأكمل بناءه عبد الرحمن الناصر[٤].

- أما المجال الزراعي فكانت جميع الأندلس مزروعة ومملوءة مدناً وقرىٰ، وقنوات الري، والخضرة والزراعة تملأ الأرض[٥].

---

(١) تاريخ الأندلس، د. عبد الرحمن الحجي/ ص٣٠٠-٣٠١

(٢) المصدر السابق/ ٣١٣-٣١٩، عن عدة مصادر

(٣) المصدر السابق/ ص٣٠٧-٣١٢، عن (أوروبا الوسطىٰ)/ ١/ ص٣٢٧-٣٢٩، والمسلمون في صقليا/ ٣١، وعشرات المصادر الأخرىٰ

(٤) المصدر السابق/ ٣٠٣، عن (البيان المغرب)/ ٢/ ص٢٢٩، ٢٣٠، ٢٨٧، ونفح الطيب/ ١/ ص٢٤٧، وأعمال الاعلام/ ٢/ ص٣٨، ٤٢، ٧٦، والأندلسيات/ ٢/ ص١٥٩

(٥) المصدر السابق/ ص٢٨٥-٢٨٦، عن (نفح الطيب)/ ١/ ٣٣٧، ٤٦٦، ٢٢٠، ٣٠٦، ١٥٦-١٨٦، ٣٧٤، والبيان المغرب/ ٢/ ص٦٠

أهم خلفاء الأندلس :

١- عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله)[١]: حكم ٥٠ سنة (٣٠٠-٣٥٠هـ/ ٩١٢-٩٦١م).

٢- الحكم الثاني (المستنصر بالله) - حكم ١٦ سنة (٣٥٠-٣٦٦هـ/ ٩٦١-٩٧٦م).

٣- هشام الثاني (المؤيد بالله) الابن الصبي - حكم ٣ سنين وعمره ١١ سنة (٣٦٦-٣٦٩هـ/ ١٠١٣م).

٤- محمد بن أبي عامر (الحاجب المنصور) (٣٦٩-٤٠٠هـ)، كان هو الخليفة الفعلي[٢]، وَوَرَّث الحكم لأولاده من بعده، ولم يحمل لقب الخلافة[٣].

---

(١) الخليفة عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله)، (٢٧٧-٣٥٠هـ/ ٨٨٩-٩١٦م): هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الحكم بن هاشم بن عبد الرحمن الداخل، أبو المطرف الروائي الأموي، ولد وتوفي بقرطبة، نشأ يتيماً (قتل أبوه وعمره ٢١ يوماً)، فرباه جده، وبويع بعد وفاة جده.

تولىٰ زمام الحكم وعمره ٢٣ سنة، ملك خمسين سنة، ولم يشهد التاريخ الإسلامي عهداً زاهراً كعهده زمن استقرار علم وحضارة. أخمد الفتن بحزم وشجاعة في الأراضي التي لم يخضعها المسلمون في الفتوح، وانقاد اليه أعداؤه في الأندلس من ملوك الأسبان، وفد إليه سفراء الدول الأوروبية والإسلامية.

إن ظهور الدولة الفاطمية وهيمنتها علىٰ البحر المتوسط (٣٠٠-٥٦٠هـ)، وضعف الخلافة العباسية، جعلت سلطة الأندلس في خطر التهديد، بما حمل الناصر أن يعلن الخلافة ولقبه بأمير المؤمنين.

واجه ثورات قضىٰ عليها، كان علىٰ رأسها عمر بن حفصون رأس الفتنة.

بلغت الأندلس في زمنه أوج مجدها، ونافست قرطبة بغداد في العلوم والأدب، كان فيها ١٣٠٠٠ جامع، و٣٠٠ حمام و٢٨ ضاحية، وأسواق فسيحة وعمارات فخمة وفنادق منيفة.

وبنىٰ الناصر مدينة (الزهراء) ٢٥ سنة، وبنىٰ فيها قصراً نادراً، وأنشأ أسطولاً زاحم به أسطول الفاطميين، وجيشاً قوياً سيطر به علىٰ جميع الأندلس إلا دولة (ليون الإسبانية)، وكانت حروبه حاسمة لاسيما موقعة (جليّقة)، قتل من المسلمين عشرات الألوف، ومن أعدائهم مئات الألوف.

بلغ الرخاء علىٰ الدولة والشعب القمة، خلّف ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ خمسة الآف مليون، كان يقسمها، ثلثاً للجند وثلثاً للبناء، وثلثاً للادخار.

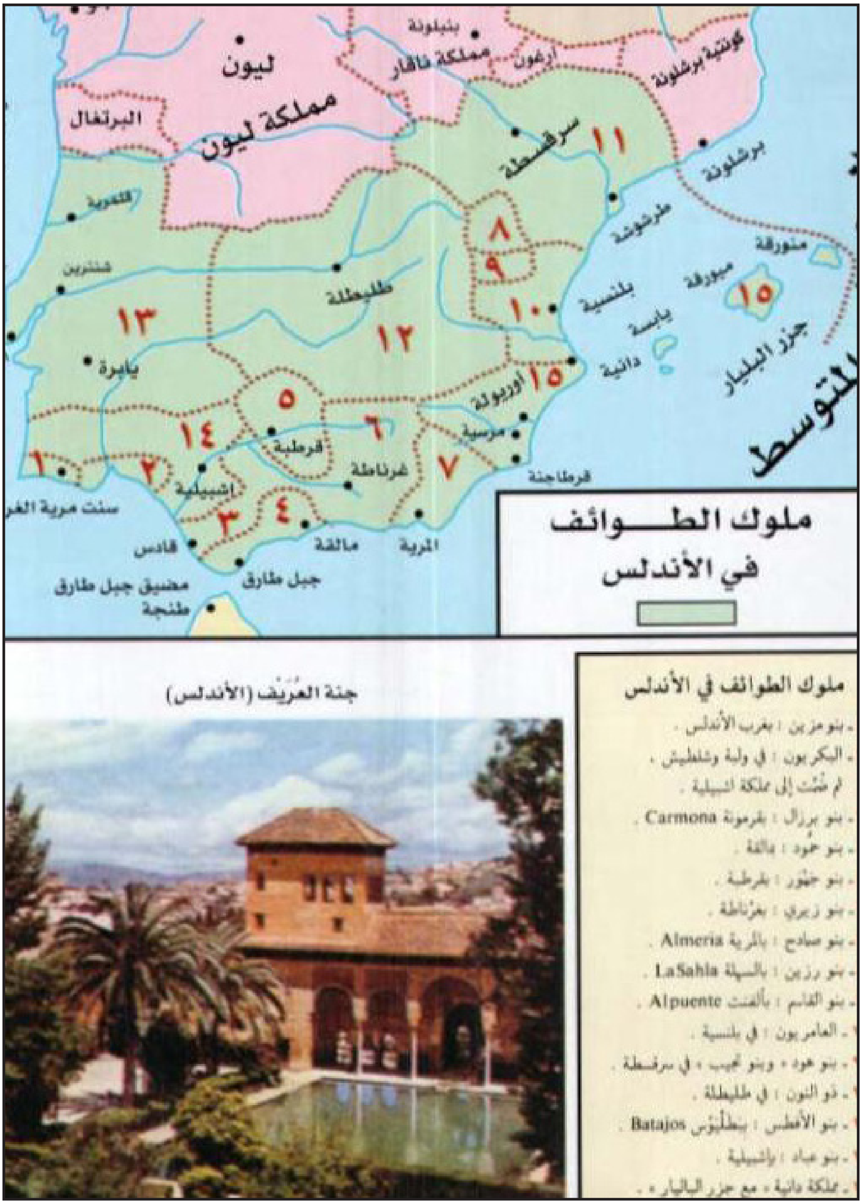
كان عمله دؤوبا، حسب راحته في حكم خمسين سنة فكانت (١٤) يوماً، وقد سجلها بورقة بخطه.

كانت اللغة العربية لغة التدريس في معاهد النصارىٰ واليهود

(٢) المصدر السابق/ ص٢٩٨-٢٩٩

(٣) الأدب الأندلسي، المؤلف/ ص١٨٤، عن (التاريخ الأندلسي)، د. عبد الرحمن الحجي/ ص٢٩٣

١٢٥



ملوك الطوائف في الأندلس

المبحث الثالث

عصر الضعف والإنقاذ

النجدات الشجاعة المتماسكة

المطلب الأول

عصر الضعف : الطوائف (٤٠٠-٤٨٤هـ) والفواجع

بعد انهيار الخلافة، ظهرت ملوك الطوائف: (مملكة سرقسطة، إمارة قرطبة، مملكة طليطلة، بطليموس، إشبيليا، بلنسية، غرناطة)، وانبرىٰ الأمراء والقضاة والأئمة في الدعوة إلىٰ الوحدة والتماسك لاسيما بعد أن وصل عدد هذه الإمارات إلىٰ أكثر من (٤٠) إمارة ![١]

- اهتم ملوك الطوائف بمصالحهم الخاصة فقط دون الأمة، حتىٰ وصفهم الإمام ابن حزم: (لو وجدوا في اعتناق النصرانية وسيلة لتحقيق أهوائهم ومصالحهم لما ترددوا)[٢].
- الصراعات قائمة بينها، وكثر الترف وشرب الخمر، والقيان.
- عاث اليهود بأحوال الأندلسيين.
- حصلت مآسٍ وفواجع في هذا العصر: في بربشتر، وطليطلة وبلنسية، يندر حصول أمثالها في التاريخ، أهمها:

فاجعة بربشتر: استولىٰ (النورمان) الوثنيون المتنصرون في منتصف القرن الخامس بتحريض من البابا لهم علىٰ (بربشتر) سنة ٤٥٦هـ، شمال شرق الأندلس، هجموا مباغتة بجيش من ٤٠٠٠٠، واستمر الحصار لها ٤٠ يومـًا، وبعد معارك ضارية خارج المدينة وداخلها، وبعد اشتداد الحصار وانقطاع الماء عنهم، استباح العدو المدينة، وقتل ١٤٠٠٠٠

(١) التاريخ الأندلسي، د. عبد الرحمن الحجي/ ص٣٥٥، وما بعدها

(٢) دولة المرابطين/ ص١٤٦، عن (دول الطوائف)/ ص٤٠٦، نقلًا عن رسالة ابن حزم

ذبحـًا، ثم ضمّ إليهم ٦,٠٠٠، وانتهبوا المدينة وهتكوا أعراض أهل المدينة أمام آبائهم وأزواجهم المغلغلين، والخطب أفدح من أن يوصف وسبوا نساءها، وصار لأكبر رؤسائهم ١٥٠٠ جارية أبكاراً، وحملوا أحمالاً من الحلي والكسوة بحمل خمسمئة حمل، ومات المئات من النساء علىٰ وجوههن علىٰ الماء يكرعنه من العطش، ومن ثم أمروا بقية أهلها أن يعودوا إلىٰ بيوتهم فاقتسمهم الجنود عبيداً أو نهبا وتعذيبا، وهتكـًا للأعراض، ومن نجا بالهرب طاردوه فقتلوه وأخذوا من بنات المسلمين الأبكار الجميلات ٥٠٠٠ أهدوهن إلىٰ إمبراطور القسطنينية[١].

فاجعة طليطلة: استولىٰ العدو (الفونس السادس) علىٰ (طليطلة) سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، بعد حصارها سبع سنين، ولم يقدر علىٰ إنقاذها أحد، أعطىٰ أهلها الأمان ونقض العهد بعد شهرين، نكل بأهلها، وقتل الآلاف، وهتك الأعراض، ودمّر الدور علىٰ أهلها، وحول جامعها إلىٰ كنيسة، وهدم ٨٠ منبرا[٢].

فاجعة بلنسية: استولىٰ العدو عليها سنة ٤٨٧هـ، حاصرها لذريق عشرين شهراً، ولم يستطع المرابطون نجدتها لبعدها عنهم، كان حاكمها القاضي الشجاع الورع ابن جحاف، جاع الناس مجاعة رهيبة، أكلوا الفئران والكلاب والجيف، وأكل الناس الناس، ومن مات منهم أكلوه، وأكلت الدواب والجلود، وهلك أكثر الناس جوعـًا، فماتوا، ومن فرّ فقئت عينه أو قطعت يداه أو دقت ساقاه أو قتل.

اضطرت علىٰ الاستسلام، حفر القائد الصليبي القنيطور للقاضي حفرة في الأرض وأحرقه بالنار أمام أهله وولده، وأراد إقحام أهله وأولاده فيها فمُنِع، وكان يدير النار علىٰ جسده بيده استعجالاً لموته من العذاب، أمام صياح وعويل المسلمين والنصارىٰ، كما أحرق الكثيرين من أهلها بنار عظيمة، وعلقت جثث أهلها في الصوامع والأشجار، وكان

(١) التاريخ الأندلسي، عبد الرحمن الحجي/ ص٣٥٩-٣٦١ بإيجاز

(٢) نفح الطيب/ ج٤/ ص٤٨٣، والتاريخ الأندلسي، د. عبد الرحمن الحجي/ ص٣٩٥-٣٩٦، ٣٥١

الرجل يمشي فيسقط ميتاً، وقطعت الألسن وفقئت العيون، وسلطت الكلاب الضارية تأكلهم، وبيع المسلم بخبزة وقدح خمر ورطل سمك، وأعلن القائد أن من وجد عنده شيء من الحديد فماله ودمه حلال، فسلموا الإبر والمسامير، ثم خرج إليهم يريد ٧٠٠,٠٠٠ مثقال ذهب، وإلا يهلكهم، فكان له ما أراد وزيادة، وأحرق لذريق من تبقىٰ من أهلها وأعيانها وعامتها، وكان ذلك سنة ٤٩٠هـ[1].

أسباب النكبة:

وإن أسباب نكبة الأندلس، نختصرها بأبيات من الشعر:

١ – الفساد:

٢ – الذنوب:

٣ – تمزّق الأندلس:

٤ – المظاهر الزائفة، ومنها الألقاب الكاذبة الرنانة:

المطلب الثاني

عصر الإنقاذ: بالنجدات الشجاعة المتماسكة القوية، مع استمرار الحضارة وصعودها

الفرع الأول: عصر المرابطين (الملثمين)[2] (٤٤٠-٥٤٢هـ) (١٠٢ سنة):

اعترفوا بالخلافة العباسية، واتخذوا السواد شعاراً لهم، ونقشوا رسم الخليفة العباسي علىٰ نقودهم منذ منتصف القرن الخامس الهجري، بسبب كونهم مالكيّين سنّيين، اتصل بالخليفة العباسي أحمد المستظهر بالله (٤٨٧-٥١٢هـ)، بعثه إليه من قبل العلامة عبد الله بن محمد بن العربي، ثم عادت البعثة إلىٰ المغرب بتقليد الخليفة للأمير يوسف بن تاشفين.

---

(١) التاريخ الأندلسي، د. عبد الرحمن الحجي/ ص٣٦٩-٣٧٩ باختصار شديد، ونفح الطيب/ ج٢/ ص٨٤، ١٩٩، ٢٣٧

(٢) دولة المرابطين، الصلابي/ ص٢٣٥

حكموا الشمال الأفريقي من المحيط الاطلسي إلىٰ السودان، كما حكموا شمالي دولهم في افريقيا والأندلس قرنـًا من الزمن (٤٤٠ - ٥٤٢ هـ) (١٠٠٩-١٠٩١م)، أنقذوا الأندلس خلال أكثر من نصف قرن (٦٢) سنة ، واستردوا ثلثيها ووحدوها تحت حكمهم المباشر، وسالت دماؤهم أنهاراً، وانتصروا في مئات المصادمات الجانبية، وعشرات المعارك الفاصلة[١]، التي سيأتي تفصيل بعضها لاحقـًا.

آثار المرابطين في الأندلس، وهم (المتصوفون الأنقياء المجاهدون):

- سياسة المرابطين إسلامية بحتة في أن مبايعة الخليفة العباسي واجبة، لذا أعطوا بيبعتهم له لكونهم سنيّين مالكيّين، واتخذوا السواد شعاراً لهم، ونقشوا رسم الخليفة العباسي علىٰ نقودهم منذ منتصف القرن الخامس الهجري، وكتب الخليفة العباسي المستنصر بالله (٤٨٧-٥١٢هـ/ ١١١٨م)، رسالة مع الإمام عبد الله بن محمد العربي وبعثه معه، واستأذنه بتقليده ولاية جميع بلاده، من الأطلسي وغانة والنيجر والصحراء الكبرىٰ والسودان والشمال الأفريقي، ومنها الأندلس والمغرب، فسرّ الخليفة ووافق علىٰ ذلك، فصارت جميع أراضي دولة المرابطين خاضعة للخلافة العباسية في عصر الإمام يوسف بن تاشفين[٢].
- ألغىٰ السلطان ابن تاشفين لقب أمير المؤمنين الذي كان تلقب به جميع السلاطين قبله، تورعـًا وتواضعـًا، إذ هو لقب الخلفاء العباسيين، واستبدل به (أمير المسلمين).
- كان القضاة والعلماء والأمراء في مقدمة الجيوش في الحروب.
- دعا الملك (المعتمد بن عباد) بعض ملوك الطوائف، واستقروا علىٰ دعوة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين لإنقاذهم ونصرة دين الله من الصليبيين.
- اهتم المرابطون بالأساطيل وتطوير السلاح وتحصين المدن، كما اهتموا بالزراعة

(١) انظر دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين، سلامه محمد سلمان الهرني، بتصرف، والنثر الأندلسي في عصور الطوائف والمرابطين، د. حازم عبد الله خضر، بتصرف .

(٢) دولة المرابطين، الصلابي/ ص١٨٢-١٩١ بايجاز شديد

والتجارة والجمال الهندسي لاسيما في الجوامع والقصور والشوارع والقناطر (الجسور)، بعدما عبث الفونس بالمدن الأندلسية، أرواحها وبلدانها وزروعها وأموالها عام (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م)، وكانت مبادرة دعوته من قبل الفقيه أبي الوليد الباهي مع المتوكل عمر بن الأفطس حاكم بطليوس(١).

ومن آثار المرابطين المعمارية :

في المغرب :

١- **جامع القرويين** - وهو كذلك جامعة إسلامية عريقة، وكانت تقارع الأزهر في العلم، وتخرج الدعاة والعلماء والفقهاء والأدباء، كان تأسيسه عام ٢٥٤هـ/ ٨٥٩م، وأكثر العمارة علىٰ عهد علي بن يوسف عام ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م، وكان منبره من أجمل منابر الإسلام،

٢- **المسجد الجامع بتلمسان**، تم بناؤه عام ٥٣٠هـ في إمارة علي بن يوسف، هندسته في غاية الجمال والدقة، وفيه تقليد مباشر لمسجد قرطبة،

٣- الآثار الحربية - في بناء الحصون والقلاع والأسوار لمدن المغرب والأندلس، أكثرها زمن عليّ للدفاع(٢).

أما في ميدان العلم، فقد ظهر علماء أجلاء، منهم :

١- القاضي الفقيه **أبو بكر بن العربي**، أعظم فقهاء الأندلس في عصر المرابطين، ولد عام ٤٦٨هـ/ ١٠٧٦م، وتوفي سنة ٥٤٣هـ، ودفن في فاس، وله مؤلفات غزيرة وقيمة.

٢- القاضي الفقيه **عياض**، كان إمام عصره في الحديث والعلوم والنحو واللغة والأنساب، ولد عام ٤٧٦هـ، وتوفي ٥٤٤هـ، ودفن في مراكش، وله مؤلفات غزيرة ومواقف جرئية بوجه الملوك والسلاطين.

---

(١) انظر العصر الأندلسي، للمؤلف/ ص١٨٨-١٨٩ تفصيلًا، والتاريخ الأندلسي، د. عبد الرحمن الحجي/ ص٣٩١-٤٠٠ بتصرف، وأحكام القرآن في المقدمة والعواصم من الفواصم/ ١٣، ١٦

(٢) المصدر السابق/ ص٢٤٧-٢٤٩، عن (تاريخ المغرب والأندلس)/ ص٣٦٦، ٣٧٢، ٣٧٧

١٢٦



قصر الحمراء الأندلس

١٢٧



المرابطون والأقاليم الإدارية في الأندلس وإفريقية

- **أما في ميدان الصناعة أيام المرابطين** ، فكانت مزدهرة في كل ميدان - الحربية والمدنية المتنوعة والعمرانية كان بها من طراز الحرير ٨٠٠ طراز، وصناعة الآلات النحاسية والحديد.
- **أما في المجال العلمي**، فقد ظهر العلماء في كل فن من الرجال والنساء، من الفقهاء والأدباء والشعراء واللغويين والنحاة، والأطباء والفلاسفة والفلكيين.
- **أما النظام المالي**، فكان نظاماً إسلامياً صرفاً، يقوم علىٰ (الزكاة والعشر والجزية وأخماس الغنائم)، ولم يأخذوا ماكساً ولا ضريبة، واغتنت الأندلس وترك ابن تاشفين عشرات الألوف من الدنانير الذهبية في الخزينة في نهاية حكمه، غير ان ابنه (علي بن يوسف) اضطر إلىٰ أخذ الضرائب لتحصين المدن وتقوية الجيش وبناء القلاع ضد الفونس[١].
- **عزائمهم لا تملّ، ووفاؤهم بالعهود**، وتحمل أعباء الحروب مهما كانت قاسية، لا مثيل له.
- **تمسكهم بالإسلام نادر لا مثيل له في زمانهم** ، يخضعون لفتوىٰ الإمام ، وقد أرسل الإمام أبو بكر بن العربي علامة الأندلس إلىٰ الإمام الغزالي أبي حامد في موقف يوسف بن تاشفين من الجهاد في الأندلس، فأفتىٰ بوجوبه، والتزم السلطان بها في عبوره إلىٰ الأندلس مجاهداً عدة مرات قائلاً: (إن أمر الله في الجهاد هو الأمر المطاع)[٢].
- **عصرهم عصر علم وتشجيع العلماء** وحلقات المساجد والمدارس وإعداد الشعب إلىٰ الجهاد الموصول ضد أوروبا بأكملها !، وكان للحرب قضاة متخصصون، كما كان هناك قضاة مدنيون، وكان للقضاء منزلة متميزة، والقضاء مستقل[٣]، وظهر في عصرهم كبار الأدباء والعلماء، مثل ابن زيدون وابن وهبون وابن اللبانة وابن عبدون وابن عمار، وابن

(١) (دولة المرابطين)/ ص١٧٩، وتاريخ الغرب والأندلس/ ص٣٢٠

(٢) دولة المرابطين/ ص١٤٨-١٥٤، عن (دراسات في تاريخ المغرب والأندلس)، د. أحمد عبادي/ ص٤٨٤

(٣) المصدر السابق/ ص٢٨٢

خفاجة، وشاع في الموشحات والأزجال[١]، وكان للأمراء القدح الأعلىٰ في العلم، وكتب المظفر من بني الأفطس كتاب (المظفري)، في مئة مجلد!، وكان المعتمد بن عباد الأديب الشاعر والمجاهد هو ووالده وجده، ومنهم العلماء في الطب مثل (ابن زهر) من أعظم أطباء الإسلام، وكانت تدرس كتبه في أوروبا، ومنهم الجغرافيون كالبكري والعذرىٰ، والمؤرخون كابن حيان القرطبي، وظهر من علماء الجغرافية (الادريسي) الشريف أبو عبد الله محمد صاحب كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)[٢]، ومنهم المختصون في علم الفلك والزراعة كالزرقاني والقرطبي، وظهر بينهم علماء في الفلسفة والرياضيات، وانتشر العلم والأدب علىٰ نطاق واسع بين النساء، حتىٰ إن الإماء ليس فيهن أميات[٣].

- **تعامل المرابطين مع أهل الذمة** في التزام دفع الجزية ومنع الاعتداء بين المسلمين وأهل الذمة بعضهم علىٰ بعض، وتحاشي أهل الذمة من الإساءة إلىٰ القرآن الكريم أو الإسلام أو رسوله (صلىٰ الله عليه وسلم) بما لا يليق، وتجنب ما فيه إظهار منكر كشرب الخمر في المرافق العامة، والتميّز عن المسلمين بعلامة خاصة[٤]. والكف عنهم ليكونوا آمنين، والحماية لهم ليكونوا محروسين، قال ابن عمر: (احفظوني في ذمتي)[٥].

أما أهم الأحداث العسكرية التي حدثت خلال نصف قرن، ابتداء بموقعة زلاقة عام ٤٧٩هـ لغاية ما بعد وقعة **إفرغة** عام ٥٢٨هـ، من حكمهم الذي دام قرناً من الزمن، فليس بطاقة أية دولة أن تتحمل أعباءها في قرون، واسترجعوا ثلثي الأندلس[٦]، كما في الخريطة المرفقة.

---

(١) دولة المرابطين/ ٢٥٥، ٢٥٧ بايجاز عن (ابن خفافة)، الديوان/ ص٢٩٠-٢٩١، وابن خلدون المقدمة/ ٤٣٦

(٢) المصدر السابق/ ص٢٨١، عن (تاريخ المغرب والأندلس)/ ص٤٠١-٤٠٣

(٣) التاريخ الأندلسي، د. عبد الرحمن الحمي/ ص٤٥٠-٤٥١، عن (المغرب في حلىٰ الغرب)/ ٢/ ١٠٨، والحلة السيراء/ ٢/ ٢١١، والذيد والتكملة/ ٥/ ٢٧٠

(٤) دولة المرابطين/ ص١٩٧-١٩٨، عن (المعني)، ابن قداحه/ ج١٠/ ص٦٠٦-٦١٨

(٥) المصدر السابق/ ص١٩٧-١٩٨، عن (الاحكام السلطانية)، الماوردي/ ص١٤٣

(٦) التاريخ الأندلسي، د. عبد الرحمن الحجي/ ص٤٤٣

● **حقق الأسطول الحربي انتصارات هائلة في البحر المتوسط**، سواء في الساحل المغربي، أم سواحل الأندلس، واستولوا علىٰ جزائر البليار الثلاث[١]، غير أن استمرار المعارك بين الجيوش الأوروبية مجتمعة مع الاسبان ضد المرابطين أتعبتهم، ففشلوا في كثير من المعارك أفقدتهم الكثير من المدن والموانئ، اضافة إلىٰ ضعف الأمير علي بن يوسف الذي عني بالزهد والعبادة، وترك أمور الدولة في أواخر أيامه مما أدىٰ إلىٰ اضعاف الدولة تدريجيـاً، وعدم اهتمامه بالخطر المحدق به من قبل الموحدين.

● عبَر أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين وابنه علي بن تاشفين إلىٰ شبه الجزيرة (الأندلس) عشرات المرات، بجيوش جرارة وعزائم لا يفلّها الحديد، وحرّر عشرات المدن الكبرىٰ، واحتل الكثير من القلاع الحصينة، واسترجعوا الجزر الشرقية الثلاثة، وانتصر في الزلاقة (٤٧٩هـ)، وانتصروا في عشرات المعارك الفاصلة، لاسيما (إقليش/ ٥٠١هـ)، (قلائد العقبان/ ٥١٤هـ)، و(أفراغة/ ٥٢٨هـ)[٢].

أسباب ضعف المرابطين وسقوطهم :

تتلخص بالنقاط الآتية :

١- الانغماس في الملذات والشهوات ، في أواخر حكمهم .

٢- ظهور السفور والاختلاط بين النساء والرجال في نهاية حكمهم.

٣- انحراف نظام الحكم عن نظام الشورىٰ إلىٰ الوراثي، مما أدىٰ إلىٰ الصراع بين الأولاد علىٰ الحكم في نهاية حكمهم.

٤- إلزام المرابطين الأندلسيين بمذهب الإمام مالك وحده دون بقية المذاهب السنية.

٥- استغلال الكثير من رجال الدين في نهاية حكم الدولة نفوذهم، فاغتنوا أو عاشوا حياة البذخ المفرط، بما أفقد الشعب ثقته بهم.

---

(١) دولة المرابطين، الصلابي/ ص٢٤١-٢٤٤، عن (تاريخ المغرب والأندلس)/ ص٣١١-٣١٢

(٢) المصدر السابق/ ص٢٦١-٢٧٧ بإيجاز شديد، عن (سير أعلام النبلاء)/ ج١٩/ ص٣٧٨، وتاريخ الإسلام الذهبي/ ص٣٦٩، والعصر الأندلسي، المؤلف/ ص١٨٩-١٩٢ تفصيلاً

٦- ضعف الأمراء المتأخرين من زهاد ومن لاهين، وعدم خبرتهم في إدارة الحكم.

٧- فقد المرابطين لكثير من قادتهم وعلمائهم العظام اثناء جهادهم مع جيوشهم.

٨- الأزمة الاقتصادية التي أنهكت المرابطين، نتيجة انحباس المطر لسنوات عديدة وحصول الجفاف والقحط بالأندلس والمغرب، إضافة إلىٰ أسراب الجراد التي أكلت ما تبقىٰ من الأخضر علىٰ وجه الأرض، وكان ذلك بين عامي ٥٢٤-٥٣٠هـ.

٩- صدامها المسلح مع جيوش الموحدين في نهاية حكمهم[١].

الفرع الثاني: عهد الموحدين(٥٤٠-٦١٤هـ)(٧٥سنة)، حكموا ثلث الأندلس الجنوبي، وحكمت دولتهم في الشمال الافريقي ١٣٥سنة ، والأندلس (٥٣٢-٦٦٨هـ) (قرن وربع) :

موجز تاريخ الموحدين وجهادهم :

ابن تومرت-المؤسس الفكري لهذه الدولة، كان ذكياً مخططاً، تظاهر ابتداءاً بزي الزهاد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحرّش بالملوك، فدعا السلطان علي بن يوسف المرابطين العلماء لمناظرته، فانتصر عليهم بقوة حجته، وشاع صيته، فأخفىٰ نفسه في خيمة في مقبرة ليوهم الناس أنه طالب آخرة، وهو طالب حكم! واستفاد من القبائل البربرية اتخذها قاعدة شعبية، ولما تمكن من ثقة أتباعه، أعلن أن الظلم والفساد لا يُزال إلا بالمهدي، وأن الإيمان بالمهدي واجب، ومن لا يؤمن به فهو كافر، ثم أعلن أنه المهدي المنتظر، وبايعه البربر ولقبوه بالمهدي القائم بأمر الله عام ١١٢٤م[٢]، وأعلنت وفاته بعد ثلاث سنين[٣]، كان مخططاً منافقاً رهيباً، ذكياً، ركب الحرام، وسفك الدماء وهتك الأعراض وغصب الأموال من أجل أهدافه المنحرفة.

---

(١) دولة المرابطين، الصلابي/ ص٢٨٤-٢٨٧، عن (تاريخ المغرب والأندلس)/ ص٤٠٧-٤٠٩، والزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين/ ص٦٨، وسقوط دولة الموحدين/ ص٣١

(٢) دولة المرابطين، الصلابي/ ص٣٠-٣٦ بايجاز، عن (دولة المرابطين)، سلامه محمد/ ص١١، ١٠٣-١٠٤، ١٠٩، والبيان، المطرب/ ٣/ ص٢٢، والكامل لابن كثير/ ٩/ ٥٦٢، وابن خلدون/ ٦/ ٢٢٨

(٣) المصدر السابق/ ص٩١، عن (دولة المرابطين)/ ١٢٢، وذلك بعد اتفاق كلمتهم علىٰ خلافة عبد المؤمن بن علي

اتّهم المرابطين بالمجسمة، وهم بريئون من التجسيم، واتخذ من (تينمل) عاصمة له في جبال الأطلس الكبير - حتىٰ وفاته في ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م، تبنىٰ مذهب المعتزلة الذين نفوا الصفات عن الله : (لا علم لله ولا قدرة ولا كلام ولا مشيئة ولا سمع ولا بصر ولا استواء)! لذا سمّىٰ أتباعه (الموحدين)! ثم نهج نهج الأشاعرة في تأويل بعض الصفات، وانطلقوا كالإعصار يحطمون خصومهم إذ هم كفار تباح دماؤهم وأموالهم، ماداموا لا يؤمنون بعقيدتهم، واستباحوا دماء الألوف المؤلفة من أهل السنة أهل العقيدة السليمة[١]، ومن عقيدته أن كل من في الأرض عبيد لهم، وأن القاتل منهم لا يقام عليه القصاص!.

كان لابن تومرت أجهزة دولة سياسية وثقافية وعلمية وعسكرية وشعبية، وبدأت المناوشات مع المرابطين في مراكش عام ٥١٩هـ/ ١١٢٥م[٢].

عبد المؤمن - شخصيته مهيبة، ولد عام ٤٨٧هـ، من أوثق اصحاب ابن تومرت، بويع بالخلافة عام ٥٢٦هـ[٣].

سار بجيش ضخم ٣٠,٠٠٠ ضد المرابطين عام ٥٢٦هـ، وقتل منهم الألوف ظلماً، واحتل عشرات المدن والقلاع في المغرب، وانضم إليه الكثير من المرابطين في المغرب والأندلس[٤].

توفي علي بن يوسف أمير المرابطين عام ٥٣٧هـ، وخلفه تاشفين عام ٥٣٩هـ.

دخل عبد المؤمن فاس منتصراً، ثم مراكش، وأعلن خلافته عام ٥٤٠هـ، وقرر احتلال الأندلس عام ٥٤١هـ[٥].

---

(١) دولة المرابطين/ ص٤٤-٤٥، عن (المنار المنيف)/ ص١٥٢-١٥٣، والمصدر السابق/ ص٤٩-٥٠، ٥٢، ٥٥

(٢) المصدر السابق/ ص٧٦-٧٧، عن تجربة الاصلاح في حركة المهدي ابن تومرت/ ص١٢٠-١٢١، والحلل الموشية لابن الخطيب/ ص٨٠

(٣) المصدر السابق/ ص٩٨، عن (سير أعلام النبلاء)/ ٢٠/ ص٣٦٩

(٤) المصدر السابق/ ص١٠٠-١٠٤، عن (تاريخ المغرب والأندلس)/ ص١١٣-١١٤، ودولة المرابطين/ ص١٢٧

(٥) المصدر السابق/ ص١٠٨-١١

تغلب الموحدون علىٰ غرناطة عام ٥٤٩هـ، واستولوا علىٰ تونس وطرابلس الغرب عام ٥٥٦هـ[١].

سياسة إمام الموحدين (عبد المؤمن) إزاء أهل الذمة اليهود والنصارىٰ:

هي: إما الإسلام واما اللحاق بدار الحرب، وإما القتل، فأسلمت طائفة، وأخرىٰ اختارت الحرب، وضرب كنائسهم، واتخذها مساجد، وألغىٰ الجزية! ولم يدع مشركًا في بلاده، لا يهوديًا ولا نصرانيًا، والجميع مسلمون[٢]، وهو الوحيد بين أئمة المسلمين في عمر الإسلام الذي انفرد في قتل المواطن من غير المسلمين.

سياسته مع المسلمين :

نادىٰ من ترك الصلاة ثلاثًا يقتل، مسلم متزمت منحرف! زاهد، كان يؤم الناس ويلبس الصوف، ويصوم الاثنين والخميس، ويقسّم الفيء بالشرع، فأحبه الشعب، وكان له مصانع ضخمة للسلاح وعمل السفن البحرية ومخازن ضخمة للجيش. ربط في الإسلام بين مجالي العلم والجهاد، وأنشأ مدارس لتخريج الساسة وموظفي الدولة وقادة الجيش، وكان يدربهم علىٰ فنون القتال والسباحة والمعارك البحرية، وكان عبد المؤمن من أعظم قادات عصره إبداعًا وشجاعة وعزيمة[٣].

كان له ١٣ ولداً[٤].

جعل عبد المؤمن الحكم وراثيًا في عقبه، فانحرف عن تعاليم ابن تومرت ، فعارضه الكثير من الموحدين .

أول مقدمه إلىٰ الأندلس عام ٥٥٨هـ، بـ ١٠٠٠٠٠ راجل و١٠٠٠٠٠ فارس وسلاح

---

(١) دولة المرابطين/ ص١١٤، عن (المغرب الكبير)/ ٢/ ٧٩١-٧٩٢، ٧٩٥، والمراكشي/ ص٢٢٦

(٢) المصدر السابق/ ص١١٩، عن (سير أعلام النبلاء)، الذهبي/ ص٢٠، ٣٧، ٣٧١

(٣) المصدر السابق/ ص١١٧، عن (تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين)، يوسف أشباح/ ٢/ ٥٠، والارك، د. شوقي أبو خليل/ ص٢٩، ١٢٣، عن سقوط دولة الموحدين/ ص٥٨

(٤) المصدر السابق/ ص٢٢، الهامش

وعتاد وزاد الجيش، غير أنه توفي عام ٥٥٨هـ، قبل بدء المعارك.

الخليفة الثاني: أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن:

أخلاقه حسنة، محبوب، شجاع، زاهد، يحفظ صحيح البخاري، بعد حفظه للقرآن، وأتقن النحو والطب والفلسفة، وكان يحاسب علىٰ الذنب الصغير، ولكنه سفاك للدماء![1] خلف والده، وحمل أباه ميتاً إلىٰ المغرب، وحكم عام ٥٥٨هـ.

عبور الخليفة إلىٰ الأندلس:

قاومه في الأندلس حاكم بلنسية ابن مردغيش حليف الأسبان، قاوم الموحدين طويلاً، وأضرّ بهم وأضعفهم، وقضىٰ علىٰ ثورته عام ٥٦٠هـ، ثم ثورة أخرىٰ أخطر منها قادها (سبع) عام ٥٦٢هـ قضىٰ عليها، ثم ثورة ثالثة في المغرب، قضىٰ عليها، ثم كانت فترة هدوء، انتعشت الزراعة والصناعة والتجارة والعلوم[2].

مكث في الأندلس ٤ أعوام، بنجاحات باهرة في الحروب، عاد إلىٰ مراكش عام ٥٧١هـ، وباشر ببناء جامع إشبيلية ومنارتها الشهيرة بارتفاع ٩٦م، وادخل الماء اليها، وأقام جسراً علىٰ واديها.

اشتدت الحرب، برية وبحرية، بعد عبوره عام ٥٨٠هـ، وقاتل البرتغاليين، وكانوا أشد الأعداء علىٰ المسلمين، وتوغل إلىٰ قلب الأندلس في مملكتي قشتالة وليون، واتجه إلىٰ أشبويه (عاصمة البرتغال - لشبونة) لحصارها ففتحها، ولكنه استشهد علىٰ أبواب إشبيلية في عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م، بعد أن حكم ٢٢ سنة ثم دفن إلىٰ جوار أبيه[3].

انتشر الطاعون في المغرب والأندلس زمن يوسف عبد المؤمن عام ٥٧١هـ لمدة عام،

---

(١) دولة المرابطين/ ص١٣٨، عن (البداية والنهاية)/ ١٢/ ٢٦٤، والمصدر السابق/ ص١٤٠-١٤١، عن (سير أعلام النبوه)/ ٢١/ ١٠٠

(٢) المصدر السايق/ ص١٤٦-١٤٧، عن (سقوط دولة الموحدين)/ ٧٥، ٩١، ٩٦، ٩٨

(٣) المصدر السابق/ ص١٤٩، ١٥٢، عن (الأرك)، شوقي ابو خليل/ ص٤٢، والمغرب الكبير/ ٢/ ص٨٠١، وسقوط الموحدين/ ص١٢٠، ١٢٧

فقضىٰ علىٰ الكثير من السكان من كبار العلماء والقادة الذين اسهموا في اقامة دولة الموحدين، وتعطلت التجارة والزراعة والصناعة، وتأخر قتال النصارىٰ من قبل الموحدين[١].

الخليفة الثالث: أبو يوسف يعقوب المنصور:

عمل علىٰ محو الباطل من دعوة ابن تومرت، كان عصره الذهبي قد وصل القمة في إقامة دولته، حكم بلاداً تضاهي حكم العباسيين في أوج قوتهم[٢].

قضىٰ علىٰ ثورة ابن غانية في الجزائر الثلاث، في عام ٥٨٤هـ[٣].

جهاده في الأندلس (معركة الأرك)، وسيأتي ذكرها تفصيلاً في الفصل الثاني، في المبحث الأول (صحائف الجهاد المشرقة ومعاركه الفاصلة).

الصلة بين السلطانين صلاح الدين الأيوبي وأبي يوسف يعقوب المنصور:

عاشا في عصر واحد، لقد ضم نور الدين الزنكي الشام مع مصر إلىٰ حكمه، قبل معركة حطين، فأمن ظهره، وتولىٰ القيادة بعده صلاح الدين الذي استولىٰ علىٰ بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ، لذا فكر صلاح الدين بالاستعانة بأساطيل السلطان المنصور الموحدي، فأرسل إليه هدايا مع كتاب رقيق يستعطفه بأمير المسلمين، ولم يخاطبه بأمير المؤمنين، فلم يعجبه الخطاب، إضافة إلىٰ أن اعتراف صلاح الدين بالولاء للدولة العباسية، والموحدون لم يعترفوا بخلافة العباسيين، ويرون أن دار الخلافة الشرعية هي مدينة مراكش لا بغداد، لذا فإنه لم يسعفه إلا ارسال (١٨٠) سفينة، حال دون استيلاء الصليبيين علىٰ سواحل الشام[٤]، وكان يطمع أن يضم مصر إلىٰ دولته ! وكان يخطط لغزوها، إلىٰ أن مات، وكان السلطان

---

(١) دولة المرابطين/ ص٢٠٧-٢٠٩، انظر العقاب/ ٣١-٣٢، ٣٥-٣٦، وتاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين/ ٢/ ١١٣

(٢) المصدر السابق/ ص٢٠٩-٢١٣، عن (تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين)/ ٢/ ١١٧، ٢/ ١١٨، والعقاب/ ٤٢، ٤٦، ٤٧، ونفح الطيب/ ١/ ٤٢٠

(٣) المصدر السابق/ ٢١٥-٢١٨، عن (العقاب)/ ٥٠-٥٣، وتاريخ الأندلس، يوسف أشباخ/ ٢/ ١٢٣

(٤) المصدر السابق/ ص١٨٨-١٩٠، عن (الاستقصاء)، السلاوي/ ٢/ ١٦٣، والعبر/ ٦/ ٤٩٠، وتاريخ الإسلام/ ٤/ ٢١٦

صلاح الدين يخطط لغزو ليبيا تمهيداً للاستيلاء علىٰ المغرب، ومع ذلك فإن السلطان المنصور كافأ سفير صلاح الدين، ابن منقذ في قصيدة من ٤٠ بيتـًا، أعطاه بكل بيت ألفا[١].

وفاة السلطان المنصور: توفي سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٩م، في عودته من الحج في الشام، وقيل غير ذلك، ثم دفن مع آبائه[٢].

الخليفة الرابع الموحدي أبو محمد عبد الله الناصر:

حكم بعد والده، وعمره ١٨ عاماً، عام ٥٩٥هـ/ ١١٩٩م، كان شابـًا طموحـًا معتزاً بنفسه وبرأيه، قليل الذكاء، مستبداً بالأمور.

إخماد ثورة بني غانية: سبق أن قضىٰ عليها السلطان محمد الناصر في تونس، والمهدية عند استلامه الحكم، وبعد وفاة الموحدي المنصور ثار بنو غانية واستولوا من جديد علىٰ تونس والمهدية، والدعاء للخليفة العباسي، كما استولوا علىٰ الجزر الثلاث - الباليار، فجهز السلطان الموحدي الناصر حملة بحرية من ٣٠٠ سفينة فيها بضعة ألوف من الفرسان والرماة، واحتل الجزائر في عام ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م، ثم قضىٰ عليهم في تونس والمهدية بجيشه وأسطوله عام ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م، وبذا تخلص الناصر من بني غانية، وأضعفت هذه الثورة والقضاء عليها الجيش الموحدي نصف قرن، وقاومت (بنو غانية بثورتها) لأربعة عقود بسبب حرصها علىٰ وحدة الأمة السنية وخضوعها إلىٰ الدولة العباسية، علىٰ نهج المرابطين[٣].

جهاد الناصر في الأندلس: بعد إخماد الناصر لثورات المغرب سمع باستعداد الفونسو في الأندلس وعهوده مع ملكي نافار وأراغون، واعتزم محو وصمة هزيمة الأرك.

معركة العقاب (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م): وحّد الإسبان جبهتهم الداخلية وضموا إليهم جيوشـًا جرارة من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا، بتأييد البابا، وشرعوا بإحراق الزروع والحقول

(١) دولة المرابطين/ ص١٩١-١٩٣، عن (معركة الأرك)/ ٧٤

(٢) المصدر السابق/ ص١٩٥-١٩٦، عن (معركة الأرك)/ ٧٦، وسير أعلام النبلاء/ ٢١/ ٣١٩

(٣) المصدر السابق/ ١٩٧-٢٠١، عن (موسوعة المغرب العربي)/ ٧/ ٢٣٦، ٢٤٠، والعقاب، شوقي أبو خليل/ ١٥-١٦

ونهب القرىٰ وقتل السكان وسبيهم، فأعلن السلطان الجهاد، وجمع نصف مليون مجاهد[1]، عبر إلىٰ الأندلس وانهك قواته بمحاصرة حصن (سليطوة) ثمانية أشهر حتىٰ جاء الشتاء، وسقط الحصن بأيدي الموحدين، فثارت أوروبا حقداً علىٰ الموحدين، تجمعت حشودهم الكثيفة التي لا تعدّ جنودها في طليطلة، تقدم الجيش الأول القادم من أوروبا ما بين ٦٠٠٠٠-١٠٠٠٠٠، ثم الجيش الثاني، أما الجيش الثالث فكان أضخم الجيوش، ولم تذكر المصادر عدد الجيوش الأوروبية لضخامة العدد[2].

حصار قلعة رباح: هاجم النصارىٰ حصن (مجلون)، وأبادوا جميع من فيه، ثم ساروا إلىٰ قلعة (رباح) حتىٰ سقطت المدينة، واضطر القائد أبو الحجاج يوسف بأن يفاوض النصارىٰ، وانسحب بجنوده وترك القلعة بعد أن بذل جميع طاقاته، فغضب عليه السلطان فقتله جهاراً أمام الجيش، مما أغضب الجيش، وهو خطأ فادح[3].

وصف معركة العقاب: كانت الجيوش الموحدية خمس فرق - الأولىٰ ٦٠,٠٠٠ مقاتل من المجاهدين الذين باعوا أنفسهم لله، وتمنوا الشهادة، ثم الميمنة والميسرة والقلب، فانطلقت الفرقة الأولىٰ بهجوم عنيف جداً، ولكنهم لم يستطيعوا اختراق صفوفهم بسبب فرسانهم الكثيفة، فمزقوا المهاجمين واستشهد الألوف، فطاردهم الإسبان إلىٰ قلب الجيش الإسلامي، حيث صفوة الجند، فارتدوا فارين، فتابعهم فرسان المسلمين، فانطلق الأحبار إلىٰ قلب المعمعة يرفعون أعلاماً عليها صورة المسيح لإثارة حماسهم الصليبي ، انهزم الجناح الأيمن والأيسر، وبقي الجنود النظاميون الموحدون والحرس المغاربي، وصمدوا صموداً ببسالة نادرة وجلد لا مثيل له ولكنه لم يفلح، فانسحب نحو بياسة، ومنها إلىٰ إشبيلية[4].

---

(١) دولة المرابطين/ ص٢٠٣، عن (معركة العقاب)، شوقي ابو خليل/ ص٢٦، ٢٨-٣١

(٢) المصدر السابق/ ص٢٠٤-٢٠٧، عن (العقاب)/ ص٢٦، ٢٨-٣١

(٣) المصدر السابق/ ص١٣٥، ١٥٧، عن (سقوط الموحدين)/ ص١٣١، ومعالم تاريخ الأندلس، حسين مؤمن/ ٢٢٤، ٢٢٧

(٤) المصدر السابق/ ص١٦٧، عن (معالم تاريخ المغرب والأندلس)/ ص١٩٤-١٩٥

لقد كانت الخسائر في الأرواح فادحة في الجند والعلماء والقادة، بل كانت الموقعة نكبة علىٰ الأندلس كلها، بسبب غرور السلطان بكثرة جنده، وقلة خبرته بالقيادة العسكرية، وبقتله القائد أمام الجيش، وإصرار أوروبا جميعها علىٰ الانتقام والثأر للأرك، فقد المسلمون ثلث قواتهم، وقتل النصارىٰ جميع الأسرىٰ، واحتلوا عشرات المدن بعدها، والمسلمون يذبحون والرهبان يرتلون الصلوات[١]!

حكم الناصر ١٥ سنة، توفي مسموماً من خادمه بأمر أحد وزرائه، وعمره ٣٤ سنة عام ٦١٠هـ/ ١٢١٤م، بعد أن تنازل لولده أبي يعقوب يوسف الملقب بالمستنصر بالله، وكان يومئذ طفلاً في العاشرة، واعتكف في قصره وحدائقه يلهو بملاذه سنة، ثم قتل بالسّمّ![٢]

وخلف المستنصر خلفاء موحدون ضعفاء (عشرة) آخرهم أبو دبوس الواثق بالله (٦٦٥-٦٦٨هـ/ ١٢٦٦-١٢٧٠م)،

بعد سقوط دولة الموحدين ظهرت دويلات في الشمال الأفريقي، منها دولة بني حفص في أفريقيا، ودولة بني زيان في المغرب الأوسط، ودولة بني مرين، ثم بني وطاس في المغرب الأقصىٰ[٣].

آثار الموحدين الإيجابية في الأندلس: نلخصها بنقاط مما ذكرناه سابقاً:

- التزام الدولة بأحكام الإسلام، وتحريم الخمور، وطاردوا شاربيها، وتشدّدوا بقتل تارك الصلاة ثلاثاً.
- ألغيت أحكام الإعدام إلا بأمر الخليفة.
- بدلوا أحكام الذميين، إذ لا جزية، إما الإسلام وإما الحرب، وإما القتل، وكان ذلك في أول حكمهم في المغرب وأفريقيا.
- الغنىٰ والرخاء يعم الشعب **لا يكاد تجد فقيراً يستجدي ويتسول، اكتفوا بالزكاة والعُشر،**

(١) دولة المرابطين/ ص١٦٧-١٦٩، عن (موسوعة المغرب العربي)/ ٣/ ٢٢٤، ٢٢٧

(٢) المصدر السابق/ ص٢١٩، عن (العقاب)/ ص٥٧

(٣) المصدر السابق/ ص٢٣٤-٢٣٥

ولم يأخذوا الضرائب كما فعل المرابطون.

- كانت لهم سفارات مع الدول الأوروبية والإسلامية.
- الجيوش يقودها الخليفة بنفسه، ويتقدمها العلماء والقضاة في القرن الأول من حكمهم.
- تطور النظام الهندسي في بناء المدن والحصون ومجاري المياه والقنوات والجوامع والمآذن، وكانت مئذنة إشبيلية -من عجائب الدنيا - ارتفاعها ٩٦م، ولم تزل قائمة.
- نمت الحركة العلمية، يتصدرها الخلفاء والعلماء والفقهاء في مجالات الفقه والتفسير والحديث واللغة والنحو والأدب والتاريخ والطب والفلك والخطابة والكتابة، والسياسة والإدارة والأمور العسكرية والصناعية والزراعية.

أسباب سقوط الموحدين: تتلخص بالنقاط التالية:

١- ظلمهم الفظيع للمرابطين، وسفك دمائهم والاعتداء علىٰ الأموال وسبي النساء[١].

٢- مقتل البطل القائد المخلص الحجاج أمام الجيش.

٣- خسائر ثلث الجيش وكثير من القادة وكبار العلماء في معركة العقاب[٢].

٤- إصرار ملك قشتالة علىٰ الانتقام والثأر لموقعة الأرك.

٥- ضعف شخصية الخليفة الناصر وقلة خبرته وغروره.

٦- ثورات المغرب مع بني غانية لمدة ربع قرن، استنفدت نفائس أموال الموحدين وخبرة رجالها[٣].

٧- ثورات الأندلس المتتالية، ولاسيما الثورتان المشهورتان: ثورة ابن مريش المتحالف مع النصارىٰ، وعامل بلنسية الخائن[٤].

٨- سقوط عاصمتهم مراكش بأيدي المرينيين عام ٦٦٥-٦٦٨هـ.

---

(١) دولة المرابطين/ ص٢٢٠-٢٢٣، عن مصادر كثيرة .

(٢) المصدر السابق/ ص٢٢٧-٢٢٨، عن (دراسات في تاريخ المغرب والأندلس) .

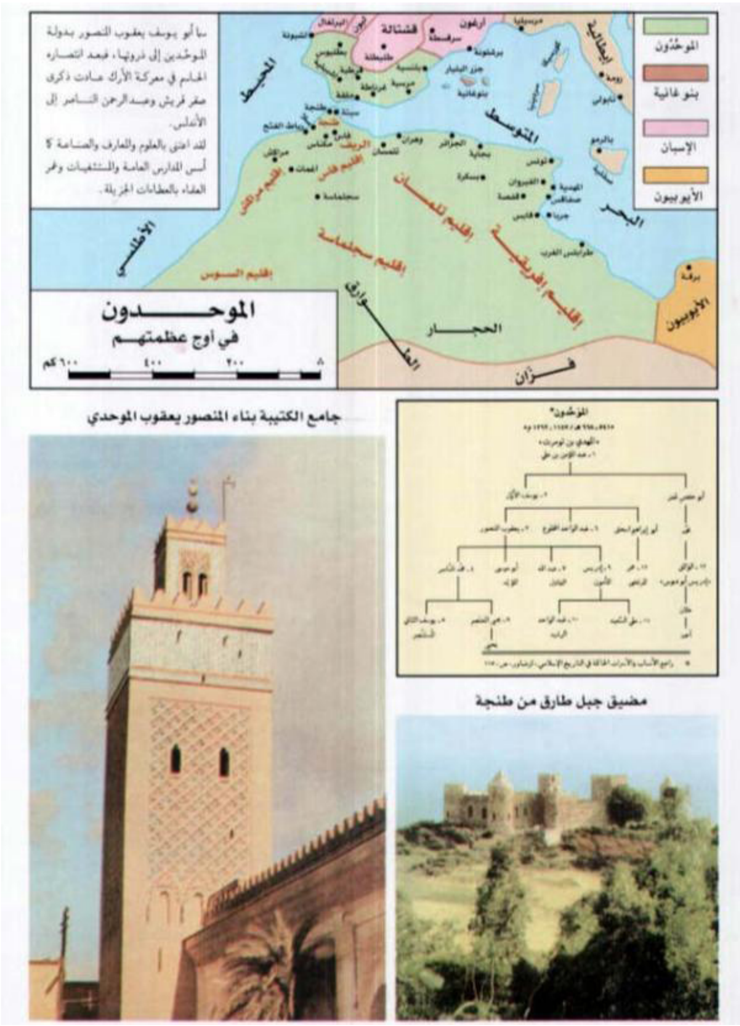
(٣) المصدر السابق/ ص٢٢٣، عن (العقاب)/ ص٦٨ .

(٤) المصدر السابق/ ص٢٢٤، عن (دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي)، عز الدين/ ص٨٣

٩- النزاع علىٰ الخلافة بين الموحدين[١].

١٠- الترف والانغماس في الشهوات للخلفاء المتأخرين[٢].

١٢٨



الموحدون في أوج عظمتهم

---

(١) المصدر السابق/ ص٢٢٥

(٢) المصدر السابق/ ص٢٢٩

المبحث الرابع

عصر انهيار الأندلس ودعم دولة بني مرين لها وظهور مملكة غرناطة

المطلب الأول

الهزائم المتعاقبة وقيام دولة بني مرين ومملكة غرناطة

الفرع الأول : الحصار والإبادات الجماعية :

بعد نهاية حكم الموحدين للأندلس، سقطت عشرات المدن الكبرىٰ والموانئ والجزر الثلاث بحصارها، ثم كان الغدر بهم ومهاجمتهم ونهب أموالهم وحليهم، وهتك أعراضهم، ثم ذبحهم أو حرقهم بالنار، أو حرق المدن بمن فيها، أو طرد أهلها في العراء ثم ملاحقتهم والقضاء عليهم رجالاً ونساءً وأطفالاً. بعد عهود الأمان الكاذبة، ولم يبق بيد المسلمين إلا (غرناطة) المسماة بالأندلس الصغرىٰ[(١)].

وإن المدن الكبرىٰ والموانئ الرئيسة في الأندلس والمدن الصغيرة والقرىٰ اكتسحها الإسبان، وأبادوا أهلها ذبحًا، لاسيما بعد موقعة العقاب عام ٦٠٩هـ ، ذكرناها في المطلب السابق من المبحث الثاني في فواجع الأندلس بغدر الصليبيين في الفصل الثاني من الباب الثاني، وكانت المجازر بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر، وسيأتي تفصيلها.

---

(١) التاريخ الأندلسي، عبد الرحمن الحجي/ ص٥٤٩-٥٥٢ باختصار، عن (نهاية الأندلس)/ ص١٩٥-٢٠١، و(وثائق عربية غرناطة)/ ٤٠، ٤٣٥، ٤٣٧، ٤٦٩

الفرع الثاني: دولة بني مرين وجهادها مع مملكة غرناطة (٥٩٢-٨٦٩هـ/ ١١٩٠-١٤٦١م) لمدة (٢٧٥) سنة: في الشمال الافريقي والأندلس .

- حكمت دولة بني مرين الأندلس ٩٠ سنة.
- أول زعيم لقبائل مرين كان عبد الحق المريني، التزم عبد الحق بالمذهب المالكي، وكان ورعـًا بعيداً عن الخرافات والبدع ، توفي عام ٦٤٢هـ[١]، خلفه أولاده الأربعة، أحدهم (يعقوب - أبو يوسف) قضىٰ علىٰ الموحدين ، وصار أمير المغرب عام ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م ، كان المرينيون تابعين للحفصيين في تونس ، ثم انفصلوا عنهم[٢].
- كانت عاصمته (فاس) ثم انتقل إلىٰ عاصمة جديدة (الدار البيضاء) عام ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م، امتد سلطانهم من ليبيا إلىٰ المحيط الأطلسي، بعد أن ضم تونس إلىٰ دولته.
- عبر البحر من المغرب إلىٰ الأندلس - ابو يوسف يعقوب المنصور المريني، وهزم بقايا الموحدين سنة ٦٥٦هـ، وعبر عدة مرات أخرىٰ بحملات موفقة ضد الإسبان في عمق أراضيهم، وكانت أعماله جبارة في قوة الدولة سياسيـًا وعسكريـًا وعمرانيـًا، وأخضع المغرب جميعه لسلطانه.
- تولىٰ الملك في مملكة غرناطة بعد وفاة أبيه عبد الله الغالب بالله - ابنه محمد الذي اتصف بالعزم والقوة وسعة الأفق، وكان شاعراً وفقيهـًا حتىٰ سمي (محمد الفقيه)، تحركت في أول عهده قوات الفونسو العاشر ملك قشتالة للقضاء علىٰ غرناطة، فاستغاث بسلطان المغرب المريني (أبي يوسف يعقوب)، فخرج ولده (أبو زياد) بجيش من (٥٠٠٠) من خيرة المجاهدين، بعدة وجنود وطبول، وأوصاه بالتقوىٰ ، فعبر إلىٰ الأندلس ، ونزل بالجزيرة الخضراء، ثم علىٰ شريش داخل بلاد العدو، يفتح ويغنم، ورجع منصوراً، وكانت غزوة استطلاع[٣]، ثم كانت موقعة (إستجة) الشهيرة، سيأتي تفصيلها في الفصل

(١) التاريخ الأندلسي، عبد الرحمن الحجي/ ص٣١٥.
(٢) المصدر السابق/ ص٣١٥، عن (قادة فتح بلاد المغرب)/ ٢/ ص٢٠٠
(٣) المصدر السابق/ ص٢٤٧-٢٤٨، عن (المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب)، د. عبادة كحيلة/ ص٢٦٩

الثاني، المبحث الأول، المطلب السادس (موقعة إستجة).

- توفي الخليفة وخلفه ابنه (أبو يعقوب - يوسف) سنة ٦٨٥هـ.
- خاض معركة (مشيخة الغزاة) سنة ٦٧٤هـ، وهي معركة رهيبة كالبرباط والأرك.
- حدثت معارك برية وبحرية كثيرة، وكانت سجالاً بين الإثنين، المرينيين والإسبان، تكبد الطرفان خسائر فادحة، واستشهد أكابر العلماء والفقهاء.
- استمر الرخاء والأمن أربعة أخماس (٥/ ٤) القرن (٧٤٠-٨٢٠هـ).
- استطاع المرينييون في عصر أبي الحسن المريني (٧٣١-٧٥٢هـ/ ١٣٣١-١٣٥١م)، وولده أبي عثمان فارس (٧٥٢هـ/ ١٣٥١م) أن يوحدوا الشمال الأفريقي بالقوة، وعادت وحدة الشمال الأفريقي لمدة قصيرة، وانشغل بالجهاد في الأندلس، وعادت حركة التوسع في الشمال الأفريقي بعد هزيمته أمام النصارىٰ في الأندلس، ودخل تونس عام ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م، لتمتد مملكته من مسراته في ليبيا إلىٰ المحيط الأطلسي ورندة في الأندلس[١].
- بعد وفاة عنان (٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م) تدهورت أوضاع بني مرين السياسية والعسكرية، بسلاطين ضعاف، كان آخرهم عبد الحق (٨٢٣-٨٦٩هـ)، قرب اليهود من مقاليد الحكم، فتسلطوا علىٰ رقاب الأهالي، وانفجرت الثورة من الشعب، وبايعوا محمد بن علي الإدريسي، بعد أن خسر المرينيون المغرب إلا (فاس)، وانتهت الدولة في ٨٦٩هـ/ ١٤٦٥م، بعد أن استمرت ٢٠٠ سنة[٢].
- خلف المرينيين (الدولة الوطاسية): بعد حكم الشريف الإدريسي للمغرب عام ٨٦٨هـ، استطاع (محمد الشيخ) أن ينتزع الحكم منه بحرب ضروس، إحتل فاس عام ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م، وكانت الفتن علىٰ أشدها خلال حكمه، وتوسع البرتغاليون النصارىٰ في موانئ

---

(١) التاريخ الأندلسي، عبد الرحمن الحجي/ ص٣١٨، عن (قادة تاريخ الأندلس والمغرب)/ ص١٤١

(٢) المصدر السابق/ ص٣١٨-٣١٩، عن (موسوعة المغرب العربي)/ ٣/ ص٣٣٦-٣٣٧، وتاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس إلىٰ القرن العاشر/ ص١٤٢

المغرب واحتلوا سبتة وطنجة وأصيلا، وكان سقوط غرناطة في عهدهم (١٤٩٢م)، وهاجر إلىٰ المغرب الآلاف من المسلمين.

- ثم خلفهم السعديون، برئاسة الشريف أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله، وأعلن الجهاد ضد الإسبان والبرتغاليين، وانتصر عليهم حتىٰ توفي سنة ٩٢٣هـ، خلفه ولده (أبو العباس أحمد الأعرج)، حارب البرتغاليين وانتصر عليهم عام ٩٣٠هـ، دخل مراكش واتخذها عاصمته، ثم انقسم الحكم بين الوطاسين والسعديين، ثم كان دور السلطان العثماني سليمان القانوني في توحيد المغرب العربي، تمهيداً لنجدة الأندلس، وسيأتي تفصيله لاحقًا.

الفرع الثالث: نشوء مملكة غرناطة القوية الصامدة (٦٣٥-٨٩٧هـ)،ودعم المرينيين لها:

حكمت مملكة غرناطة (٢٦٢) سنة، قاومت خلالها دول أوروبا مجتمعة .

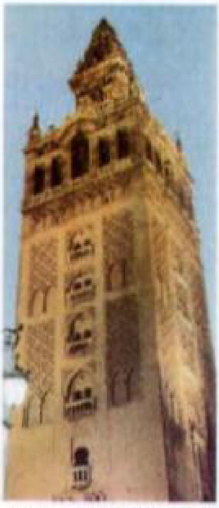
تداولها أكثر من (٢٠) سلطانـًا ، تمثل أقل من ١٠٪ من مساحة الأندلس - تقع جنوب غرب الأندلس، كانت معاصرة لدولة بني مرين في المغرب ، التي خلفت الموحدين ، وهي دون قوتهم .

ابن هود : ظهر في هذه الظروف المضطربة الحالكة علىٰ المسلمين في الأندلس ، ظهر في شرقها محمد بن هود (٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م) في مرسية، كان له الفضل في قيام هذه الدولة، استرد من أعدائه الإسبان معظم الأندلس (مرسية ٦٤٤هـ، وقرطبة ٦٣٢هـ، وإشبيلية ٦٤٦هـ) بعد معارك طاحنة ضد من تبقىٰ من الموحدين، وضد الإسبان النصارىٰ واستأصلهم، وكانت نواة لدولة غرناطة، وبعد وفاته عام ٦٣٥هـ ظهر ابن الأحمر أبو عبد الله الغالب بالله محمد بن يوسف، أخضع المدن السابقة مع مدن أخرىٰ في وسط الأندلس - وبويع أميراً لمملكة غرناطة سنة ٦٣٥هـ، وشعارها (لا غالب إلا الله)[١].

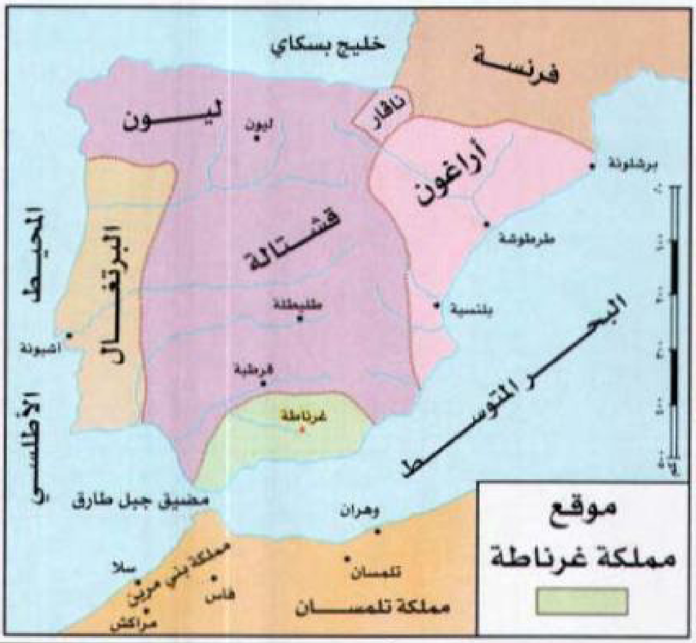
---

(١) دولة الموحدين، الصلابي/ ص٢٣١-٢٣٢، عن (البيان المغربي)/ ٣/ ص٢٦٩، نقلًا عن دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي/ ص١٠٨

١٢٩



(الجيرالدا) من أروع ماتركه العرب من آثار في الأندلس بناها يوسف بن عبد المؤمن ١١٨٠ م في إشبيلية





دولة غرناطة قاومت الإسبان وأوروبا ٢٦٠ سنة

المطلب الثاني
حضارة مملكة غرناطة

- رغم ظروف القلق، واستهدافها ٢٦٠ سنة لهجمات الجيوش الأوروبية عليها بشراسة فإنها كانت تطفح بالرفاه والرخاء والأدب والعلم، وظهور ذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب، أعجوبة الدنيا حُكْمًا وشعراً، وفلسفة وخطابة وجهاداً وتأليفًا وورعًا وأدبًا، كما ظهر علماء وأدباء وفقهاء ومؤرخون كثيرون .
- ازدهر العمران وقد انعكس في المساجد ، وكان قصر الحمراء آية الفن القديم والحديث .
- تطور سلاح الجيش ، واختراع المدافع التي تقذف بالبارود الذي يتحول إلىٰ طاقة قاذفة، انتقلت إلىٰ أوروبا، كما تطورت صناعة السفن والأسطول البحري .
- ازدهار الصناعات، ومنها أنسجة الحرير (٨٠) نوعًا، والورق الفاخر المذهب العجيب، والأصباغ والدباغة والجلود.
- توسعت مجالات التجارة إلىٰ الدول الأوروبية والإسلامية، كما ازدهرت المجالات الهندسية في المساجد والقصور والشوارع والحدائق والحمامات والفنادق.
- عُدّت مدينة غرناطة من أجمل مدن العالم وأنظفها ، وكانت تضم مليون نفس(١).
- ومن أسباب بقائها إخلاص قادتها وشعبها لله ﷻ ، وقربها من المغرب، من بني مرين الذين دعموها بالمال والسلاح والرجال لمدة قرنين كاملين ، ويوم ضعفت دولة بني مرين انهارت الأندلس، ومن أسباب ازدهارها كذلك هجرة (المدجنين) من المسلمين المطرودين من مدنهم إلىٰ غرناطة، بما يحملون من خبرات حضارية وعلمية وعسكرية عالية، مكنتها من الصمود والتحدّي، ثم مناعة حصونها(٢).

---

(١) ولقد بلغ من قذارة الإسبان وانحطاطهم الحضاري احتجاجهم علىٰ إزالة الأقذار من مدريد - العاصمة، ١١٧٤هـ، ذاكرين أن إزالتها تؤدي بنتائج خطيرة علىٰ السكان، لذا يجب ان يعيشوا بين الأقذار، كما عاش آباؤهم، كذلك من قبل (٢٦٠) سنة!!

(٢) التاريخ الأندلسي، عبد الرحمن الحجي/ ص٥٢١-٥٢٢، عن (نهاية الأندلس)/ ص٧٠-٧١، والحضارة الإسلامية في الأندلس/ ص٥٥، ٥٤١-٥٤٢، ورحلة ابن بطوطة/ ص٦٧٠، ٥٦٠-٥٦٢، عن (نفح الطيب)/ ٤/ ص٥١١-٥٣٣، ٥٤٠-٥٤١، ونهاية الأندلس/ ص١٢٧، ٢١١

● معركة (مشيخة الغزاة ٧١٩هـ) كانت صمام أمن ووقاية من العدو، بسبب النصر المبين، وهي بمنزلة معركة (القادسية واليرموك)!!، وسيأتي تفصيل حوادثها في صحائف الجهاد المشرقة من الفصل الثاني.

١٣٠



دولة بني مرين في أقصىٰ اتساعها

المطلب الثالث

غرناطة تلفظ أنفاسها الأخيرة

الفرع الأول: سقوط غرناطة واستسلامها:

- سقطت الدولة المرينية سنة ٨٦٩هـ، فتوحدت ممالك الأندلس ودول أوروبا للقضاء علىٰ غرناطة العزلاء.

- ومنذ سقوطها بدأت المصائب تنصبّ عليها تباعـًا، من حصار لعشرات المدن والموانئ، ثم سقوطها بأيدي العدو، ثم استرجاعها، وهكذا، غير أن وسائل الحرق الشامل للمدن والإبادة الجماعية قضىٰ علىٰ أكثر المدن بهذه الوحشية التي لا طاقة لأحد بمقاومتها، فكيف بدويلة عزلاء أمام جيوش أوروبا مجتمعة!!

- استسلام غرناطة (٨٩٧هـ/ ١٤٩١م) من قبل آخر ملوكها عبد الله الصغير بشروط التسليم (٦٧) شرطـًا[١]، ورحل بمواكب عظيمة! ومعه خلق كثير إلىٰ ريف المغرب، حيث استقر بفاس سنة ٩٢٤هـ، وبنىٰ فيها قصراً علىٰ النمط الأندلسي، ودفن فيها، ومن ذريته عام ١٠٢٧هـ من كان يستجدي علىٰ قارعة الطريق ويعدون من جملة الشحاذين[٢].

- وفي سنة ٨٩٧هـ استولىٰ النصارىٰ علىٰ الحمراء، ودخلوها، وانتهىٰ الحكم الإسلامي إلىٰ غير رجعة، وتركها آخر ملوكها أبو عبد الله محمد الحادي عشر، وغادر (البشرّات) جنوب الأندلس إلىٰ المغرب[٣].

---

(١) التاريخ الأندلسي، عبد الرحمن الحجي/ ص٥٥٢-٥٥٣، جمعها المقّري في ص٥٥٣-٥٥٤ من كتاب التاريخ الأندلسي

(٢) نفح الطيب/ ٦/ ٢٦٠

(٣) التاريخ الأندلسي، الحجي/ ص٥٥٤، عن (نفح الطيب/ ٤/ ص٥٢٥، أزهار الرياض/ ١/ ص٦٥-٦٦، نبذة العصر/ ٤٢

الفرع الثاني : شروط تسليم غرناطة

اتفق عليها العلماء والقادة والأمراء ، وكانت ٦٧ شرطـًا ، وأهم شروط الاستسلام ما يأتي :

١ – تأمين الصغير والكبير من النفس والأهل والمال، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم وعقارهم.

٢ – إقامة شريعتهم علىٰ ما كانت عليه، ولا يحكم علىٰ أحد منهم إلا بشريعتهم.

٣– تبقىٰ المساجد والأوقاف كذلك.

٤ – لا يدخل النصارىٰ دار مسلم، ولا يغضبوا أهلها.

٥ – لا يولىٰ علىٰ المسلمين نصراني أو يهودي.

٦ – فك أسرىٰ غرناطة السابقين.

٧– المسلمون آمنون في أنفسهم وأموالهم، ولا يجعل لهم علامة كما لليهود علىٰ رؤوسهم[١].

الفرع الثالث: نتائج الاستسلام وغدر النصارىٰ بنقض شروطه :

بعد إبرام العقد، ومصادقة البابا عليه، أقسم ملكا قشتالة بدينهما وشرفهما الملكي بتنفيذ شروط العقد، ووقعا باسميهما ومهرا بخاتميهما، الآن وإلىٰ الأبد!! وأكدوا هذا العهد سنة ٨٩٨هـ – ١٤٩٢م، وذيل هذا التوكيد بتواقيع لجمع كبير من الأمراء والأحبار والأشراف والنبلاء، استسلم شعب غرناطة، وكان (٢٠) مليونا كما تذكر بعض المصادر، نكث النصارىٰ العهد[٢]، وهذا دأبهم منذ ظهور الإسلام حتىٰ يرث الله الأرض وما عليها، يقول تعالىٰ: ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴾[٣].

- في سنة ٩٠٤هـ أعلن القسس أنّ من كان أسلم من النصارىٰ عليهم أن يرجعوا قهراً إلىٰ دينهم، كما أعلنوا أن من كان من أجدادهم نصراني فعليهم أن يتنصروا، وأعلنوا للمسلمين أن من يتنصر ينجو من الموت.

---

(١) وهي الطاقية التي يضعها اليهود اليوم علىٰ رؤوسهم، وكانوا يلبسونها في الماضي اكراهـًا، ليعرفهم المواطنون في أوروبا، ويحذروهم.

(٢) التاريخ الأندلسي، عبد الرحمن الحجي/ ص٥٦٩

(٣) سورة الأعراف/ ١٠٢

- بدأ التعذيب والقتل بالمسلمين، فاعتزل كثير منهم في قرىٰ، فجمعوهم وقتلوهم عن آخرهم، وأحرقوا كثيراً منهم، ومنعوا المسلمين من حمل السكين بل الحديدة!.
- ومن ظهر لهم أنهم يكذبون عليهم في التنصير، يحرقونهم.
- قاتل كثير من المسلمين النصارىٰ، وانتصروا عليهم، حتىٰ إذا تمكن النصارىٰ منهم استأصلوهم.
- انتصر المسلمون علىٰ النصارىٰ في جبل بالنقة في أكثر من ٢٣ معركة، وقتلوا من النصارىٰ الكثير، ثم انتصر عليهم النصارىٰ وأبادوهم وهم عشرات الألوف.
- سنة ١٠١٧هـ هربت ألوف من المسلمين إلىٰ المغرب وتونس والشام والقسطنطينية.
- طاردت أساطيل فردناند وإيزابلا الهاربين بحراً إلىٰ المغرب والجزائر، فقتلوا منهم ٨٠٠٠٠٠ غرقـًا كانوا طعام الحيتان والأسماك.
- وضعت في المساجد والمآذن النواقيس والصلبان[١].
- وهكذا لقي (٢٠) مليونـًا من (مملكة غرناطة) الفناء، بعد أن فني من المسلمين الملايين في جميع الأندلس - من المدنيين في عمر التاريخ الإسلامي فيها، في حين لم يقتل نصراني واحد من المواطنين طيلة القرون الثمانية من حكم الإسلام فيها، بل كان الذميون كالمسلمين في الحقوق والواجبات (لكم ما لنا، وعليكم ما علينا)[٢].

أما ما أضمره الملكان في محاكم التفتيش فهو تنصير المسلمين بإشراف الكنيسة، وبالعنف، وحينما رفضوا المسيحية اعتبروهم أعداء ثـواراً عملاء - التزامـًا بوصية انجيلهم المحرف الحالي (من ليس معي فهو عليّ، ومن لا يجمع معي فهو يفرّق)[٣]، وهي سياسة العالم المسيحي اليوم ضد العالم الإسلامي.

---

(١) التاريخ الأندلسي، عبد الرحمن الحجي/ ص٥٦٩-٥٧٣، عن (نهاية الأندلس)/ ٢٥٠، أزهار الرياض/ ١/ ص٦٨-٧٠، ونبذة العصر/ ص٤٠-٤٤، ونفح الطيب/ ٤/ ص٥٢٧-٥٢٨

(٢) أخرجه الطبراني، الحافظ أبو القاسم سليمان

(٣) إنجيل متىٰ/ ١٢/ ٦

أصدر الملكان الكاثوليكيان عام ١٥٠١م أمراً خلاصته أنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال[1].

فكانت الهجرة إلىٰ المغرب، ومن بقي أخفىٰ إسلامه، وأظهر تنصيره، وعند التبليغ عن مسلم يخفي إسلامه يزج بالسجون، وهي مُظلمة عميقة رهيبة، تغصّ بالحشرات والجرذان، يقيد فيها المتهمون بالأغلال.

١٣١



موافقة أبي عبد الله آخر ملوك غرناطة للخروج من الأندلس

(١) دولة الموحدين، الصلابي/ ص٢٨٢، عن (محاكم التفتيش)/ ص٩١

المطلب الرابع

محاكم التفتيش وفجائعها

الفرع الأول: استئصال المسلمين:

أقيمت محاكم التفتيش في طول البلاد وعرضها، وأحرق الملايين من العرب والمسلمين من أصول غير إسبانية دفعة واحدة، ونصح كردينال (طليطلة) (كمينسس) الذي كان رئيساً لمحاكم التفتيش بقطع الرؤوس (!) تنفيذاً لنص الانجيل المحرّف الحالي: (أما أعدائي، أولئك الذين لا يريدون أن أملك عليهم، فأتوا بهم إلىٰ هنا، واذبحوهم قدامي)[١].

وبقي في إسبانيا أعداد كثيرة من الملايين المسلمين، بعد مجازر محاكم التفتيش، لم يكن لهم حيلة إلا التنصر أو التستر، أو الثورة، وسيأتي تفصيل ذلك في المبحث الثالث لاحقاً[٢].

كما أمر رئيس محاكم التفتيش بجمع ما يستطيع جمعه من الكتب العربية، بأكداس ضخمة في ساحات المدينة، وفيها علوم لا تقدر بثمن، بل هي خلاصة ما بقي من الفكر الإنساني، وأحرقها[٣].

الفرع الثاني: سلوك الإسبان إزاء (المورسكيين)[٤] - تكفير وإعدام:

يعتبر الموريسكي[٥] أو العربي المتنصر قد عاد إلىٰ الإسلام، أنه كافر يستحق الموت، وذلك: إذا امتدح دين محمد ﷺ، أو قال إن يسوع المسيح ليس إلهاً وليس إلا رسولاً. أو أن صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أمه، ويجب علىٰ كل نصراني أن يبلغ عن ذلك. ويجب عليه أيضاً أن يبلغ عما إذا كان قد رأىٰ أو سمع بأن أحداً من الموريسكيين يباشر

---

(١) انجيل لوقا/ ١٩/ ٢٧

(٢) دولة الموحدين، الصلابي/ ص٢٨١، عن (سقوط غرناطة)/ ص٩٨

(٣) المصدر السابق/ ص٢٨١، عن نفس المصدر

(٤) دولة الموحدين، علي محمد الصلابي/ ص٢٨٩، عن (الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس/ ٣/ ص٢٢٦

(٥) الموريسكي يطلق علىٰ المسلم الذي أكره علىٰ الدخول في النصرانية بنظر النصارىٰ، وهو المسلم من أصل نصراني - مختاراً من غير إكراه - بواقع الحال ومن وجهة الإسلام والمؤرخين المسلمين

بعض العادات الإسلامية. ومنها أن يأكل اللحم في يوم الجمعة وهو يعتقد أن ذلك مباح. وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدي ثياباً أنظف من ثيابه العادية. أو يستقبل المشرق قائلاً باسم الله، أو يوثق أرجل الماشية قبل ذبحها، أو يرفض أكل تلك التي لم تذبح، أو ذبحتها امرأة. أو يختن أولاده أو يسميهم بأسماء عربية، أو يعرب عن رغبته في أتباعه هذه العادة، أو يقول إنه يجب ألا يعتقد إلا بالله وبرسوله محمد ﷺ أو يقسم بإيمان القرآن، أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله، ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب، أو يتناول الطعام قبل الفجر (السحور) أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر. أو يقوم بالوضوء والصلاة. بأن يوجه وجهه نحو الشرق ويركع ويسجد ويتلو سوراً من القرآن. أو أن يتزوج طبقاً لرسوم الشريعة الإسلامية. أو ينشد الأغاني العربية.

الفرع الثالث: نماذج من التعذيب بما لا يحتمله إنسان:

- ملء البطن بالماء حتىٰ الاختناق.
- ربط يدي المتهم وراء ظهره وربطه بحبل فوق راحته وبطنه، ورفعه وخفضه معلقاً، سواء بمفرده أو مع أثقال تربط معه، والأسياخ المحمية!
- سحق العظام بالآلات الضاغطة
- تمزيق الأرجل، وفسخ الفك.
- لا يوقف التعذيب إلا إذا رأىٰ الطبيب حياة المتهم في خطر، ولكن التعذيب يستأنف حتىٰ بعد عودة المتهم إلىٰ رشده، أو يجف دمه[1].
- قرار المحكمة لا يتم إلا عند التنفيذ في ساحة البلدة، وهو إما سجن مؤبد أو مصادرة أموال أو تهجير، أو إعدام حرقاً، وهو الغالب عند الأحبار الذين يشهدون من الملكين

(١) دولة الموحدين، الصلابي/ ص٢٨٢، عن نفس المصدر

الكاثوليكيين حفلات الإحراق[١].

- أما تعذيب النساء، فبتعرية المرأة إلا ما يستر عورتها في مقبرة مهجورة، ويجلسون بها علىٰ قبر، ويضعون رأسها بين ركبتيها، ويشدّون وثاقها، فلا يمكنها الحراك، وكانوا يربطونها إلىٰ القبر بسلاسل حديد، ويرخون شعرها فيجللها، وتظهر لمن يراها عن كثب كأنها جنّية، لاسيما إذا أرخىٰ الليل سدوله، وتترك المسكينة علىٰ هذه الحال إلىٰ أن تجنّ أو تموت جوعـًا وعطشـًا ورعبـًا[٢].
- إذا علم أن رجلاً اغتسل يوم الجمعة يصدر في حقه حكم الموت، وإذا وجدوا رجلاً لابسـًا للزينة يوم العيد عرفوا أنه مسلم فيصدر في حقه حكم الإعدام.
- كانوا يكشفون عورة من يشكون أنه مسلم ، فإذا وجدوه مختونـًا، أو كان أحد أسرته كذلك فنهايته الموت هو وأسرته.
- كان دستور محاكم التفتيش في ديوان التحقيق يجبر محاكمة الموتىٰ والغائبين ، وتصدر الأحكام في حقهم، وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء، فتصادر أموالهم، وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق، أو تنبش قبورهم، وتستخرج رفاتهم لتحرق في موكب (الأوتودافي)، ويتعدّىٰ أثر الأحكام الصادرة إلىٰ أسرته وولده[٣]. وكان أعضاء محاكم التفتيش يتمتعون بحصانة خارقة وسلطات مطلقة،.. واغتنوا وصاروا من أصحاب الملايين!

الفرع الرابع: براءة اختراع في التعذيب، لا مثيل لها في التاريخ ولا في الخيال:

لقد استمرت محاكم التفتيش الظالمة وأصبح لهذا العمل الفظيع والحقير تلاميذ في الديار الإسلامية والعربية، يمارسون القهر والظلم والجور بكل أنواعه علىٰ أبناء المسلمين

---

(١) دولة الموحدين، الصلابي/ ص٢٨٣، عن (سقوط غرناطة)/ ص١٠٠

(٢) المصدر السابق/ ص٢٨٣، عن (محاكم التفتيش)/ ص٩٢، نقلًا عن سقوط غرناطة/ ص١٠٩

(٣) المصدر السابق/ ص٢٨٤-٢٨٥، عن (سقوط الأندلس)/ ١٠، وديوان التحقيق والمحاكمات الكبرىٰ، محمد عبد الله عنان/ ص٢٤، ٣٢

الذين يطالبون بإعادة نظام الحكم الإسلامي في كافة شؤون حياتهم، إنها حلبة الصراع بين الحق والباطل، والهدىٰ والضلال، والعدل و الظلم إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن نماذج التعذيب: صدّق أو لا تصدّق!

لقد استمرت محاكم التفتيش أكثر من ثلاثة قرون، تمارس بشتىٰ وسائل التعذيب، في انتزاع أرواح المسلمين من أجسادهم، وعندما احتل نابليون إسبانية بعد قيام الثورة الفرنسية أصدر مرسوماً سنة ١٨١٨م بإلغاء محاكم التفتيش في إسبانيا بعد أكثر من ثلاثة قرون، ولكن رهبان (الجزويت) أصحاب المحاكم الملغاة استمروا في القتل والتعذيب، فشمل ذلك الجنود الفرنسيين، فأرسل المارشال (سولت) الحاكم العسكري الفرنسي لمدريد الكولونيل (ليمونكي) مع ألف جندي وأربعة مدافع، وهاجم دير الديوان، وبعد احتلال الدير وتفتيشه عنوة لم يعثروا علىٰ شيء، فقرر الكولونيل (ليمونكي) فحص الأرض وعند ذلك نظر الرهبان إلىٰ بعضهم نظرات قلقة، أمر الكولونيل جنده برفع البُسُط، فرفعت، ثم أمر بأن يصبوا الماء بكثرة في أرض كل غرفة علىٰ حدة، ففعلوا. فإذا الماء يتسرب إلىٰ أسفل في إحدىٰ الغرف، فعرفوا أن الباب من هنا يفتح بطريقة ماكرة بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلىٰ جوار رجل مكتب الرئيس. وفتح الباب بقحوف البنادق، واصفرت وجوه الرهبان وكستها غبرة. وظهر سلم يؤدي إلىٰ باطن الأرض ونزل القائد الكولونيل وجنده. ويذكر هذا الإنسان في مذكراته ما يأتي[1].

فإذا نحن في غرفة كبيرة مربعة، وهي عندهم قاعة المحكمة، في وسطها عمود من الرخام، به حلقة حديدية ضخمة، ربطت بها سلاسل، كانت الفرائس تقيد بها رهن المحاكمة وأمام ذلك العمود عرش (الدينونة) كما يسمونه، وهو عبارة عن (دكة) عالية يجلس عليها رئيس الديوان[2]، وإلىٰ جانبيه مقاعد أخرىٰ أقل ارتفاعاً معدة لجلوس جماعة القضاة ثم توجهنا

(١) دولة الموحدين، الصلابي/ ص٢٩١، عن (التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام لمحمد الغزالي نقلًا عن مصرع غرناطة

(٢) رئيس ديوان محكمة التفتيش

إلىٰ غرف آلات التعذيب، وتمزيق الأجسام البشرية. وقد امتدت تلك الغرف مسافات كبيرة تحت الأرض. وقد رأيت بها ما يستفز نفسي، ويدعوني إلىٰ التقزز ما حييت، رأينا غرفًا صغيرة في حجم جسم الإنسان، بعضها عمودي وبعضها أفقي، فيبقىٰ سجين الأفقية ممداً بها حتىٰ يموت. وتبقىٰ الجثة في السجن الضيق حتىٰ تبلىٰ ويتساقط اللحم عن العظم، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من الأجداث البالية تفتح كوة صغيرة إلىٰ الخارج، وقد عثرنا علىٰ عدة هياكل بشرية مازالت في أغلالها سجينة.

والسجناء كانوا رجالاً ونساء تختلف أعمارهم بين الرابعة عشرة والسبعين، واستطعنا فكاك بعض السجناء الأحياء وتحطيم أغلالهم، وهم علىٰ آخر رمق من الحياة، وكان فيهم من جُنّ لكثرة ما لاقىٰ من عذاب، وكان السجناء عرايا زيادة في النكاية بهم، حتىٰ اضطر جنودنا أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها لفيفًا من النساء السجينات.

وانتقلنا إلىٰ غرف أخرىٰ فرأينا هناك ما تقشعر لهوله الأبدان، عثرنا علىٰ آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم وكانوا يبدؤون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين، وذلك كله علىٰ سبيل التدريج حتىٰ تأتي الآلة علىٰ البدن المهشم، فيخرج من الجانب الآخر كتلة واحدة.

وعثرنا علىٰ صندوق في حجم رأس الإنسان تمامًا، يوضع فيه الرأس المُعذّب، بعد أن يربط صاحبه بالسلاسل في يديه ورجليه فلا يقوىٰ علىٰ الحركة وتقطر علىٰ رأسه من ثقب في أعلىٰ الصندوق نقط الماء الباردة فتقع علىٰ رأسه بانتظام في كل دقيقة نقطة. وقد جن الكثيرون من ذلك اللون من العذاب، قبل أن يحملونه علىٰ الاعتراف، ويبقىٰ المعذب علىٰ حاله تلك حتىٰ يموت[1].

وعثرنا علىٰ آلة ثالثة للتعذيب تسمىٰ السيدة الجميلة، وهي عبارة عن تابوت تنام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة علىٰ هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها، وقد برزت من جوانبها

(١) دولة الموحدين، الصلابي/ ص٢٩٢، عن (مصرع غرناطة)/ ص١١٢

عدة سكاكين حادة. وكانوا يطرحون الشاب المعذّب فوق هذه الصورة. ثم يطبقون عليه باب التابوت بسكاكينه وخناجره، فإذا أغلق مُزّق الشاب وتقطع إربـًا إربـًا.

كما عثرنا علىٰ جملة آلات لسل اللسان، ولتمزيق أثداء النساء وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب فظيعة، ومجالد من الحديد الشائك لضرب المُعذّبين وهم عرايا حتىٰ يتناثر اللحم عن العظم.

ولما شاهد الناس بأعينهم وسائل التعذيب جن جنونهم وانطلقوا - كمن به مسّ - فأمسكوا برئيس الدير ووضعوه في آلة التكسير، فدُقت عظامه دقا، وسحقتها سحقا.

وأمسكوا أمين سره، وزفّوه إلىٰ السيدة الجميلة، وأطبقوا عليهم الأبـواب. فمزقته السكاكين شر ممزق، ثم أخرجوا الجثتين، وفعلوا بسائر العصابة وبقية الرهبان كذلك[(١)].

قلت: ومن سنن الله الجارية تسليط بعض الظالمين علىٰ بعض، ولذلك انتقم الله من هؤلاء القساوسة المتوحشين الذين نزعت من قلوبهم أدنىٰ مشاعر وأحاسيس الإنسانية وانقادوا في حزب الشيطان اللعين.

هذا دينهم في التعامل مع أعدائهم، وتعاملنا مع العدو تمثله الآيات الكريمة:

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[(٢)].

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[(٣)].

وكان النصارىٰ من أهل الذمة يسمّون بـ(المعاهَدين)، لم تهدم كنيسة واحدة لهم، ولم تحول إلىٰ مسجد، ولم يؤذ واحد في جسمه وعرضه وماله وداره وأرضـه، وفي الحديث الصحيح : (من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة،...)، ولم يكره علىٰ ترك دينه: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾[(٤)].

---

(١) دولة الموحدين، الصلابي/ ص٢٩٣، عن (مصرع غرناطة)/ ص٩٣

(٢) سورة فصلت/ ٣٤

(٣) سورة الإنسان/ ٨ ـ ٩

(٤) سورة البقرة/ ٢٥٦

المطلب الخامس

أسباب سقوط غرناطة، والأندلس عمومًا

ضعف الشمال الأفريقي بعد الموحدين، وضعف بني مرين عن استمرار العون لها.

١- اتحاد ممالك اسبانيا ضد غرناطة، ومنهم مملكة أرجون - فردناندو، وقشتالة - إيزابيلا.

٢- الانغماس بالشهوات - الجنس والخمر، لاسيما في العقود الأخيرة من حكم غرناطة.

٣- الركون إلىٰ الدنيا وإهمال الجهاد في الفترة المتأخرة.

٤- الاختلاف والتفرق.

٥- موالاة النصارىٰ والثقة بهم، والتحالف معهم.

٦- تخاذل المسلمين عن نصرة بعضهم بعضا.

٧- غدر النصارىٰ ونقضهم للعهود.

٨- عدم استماع ملوك الطوائف لنصح العلماء.

٩- رضىٰ المتأخرين بالخضوع والذل لحكم النصارىٰ.

١٠- سوء سياسة الولاة المتأخرين، وإرهاق الشعب بالجبايات والضرائب، وغنىٰ الطبقة الحاكمة واسرافها ولهوها.

١١- الثورات الداخلية في الأندلس[(١)].

ولقد عقدنا (الفصل الثالث) في جهود الدولة العثمانية لإنقاذ الفردوس المفقود، بيانًا لاستكمال التماسك الإسلامي مع الأندلس التي اجتمعت عليها أوروبا بكثافة جيوشها وعُددها - إنه تماسك يتمثل في المرابطين والموحدين والمرينيين - المجاورين للأندلس - عبر مضيق جبل طارق، ثم التماسك مع العثمانيين الذين يبعدون عنهم أكثر من ثلاثة آلاف كيلومتر عبر البحر المتوسط من أقصاه إلىٰ أقصاه، وهم أتراك ليسوا عربًا ولكنه الإخاء

(١) ا دولة الموحدين، الصلابي/ ص٢٩٣-٣١٠، عن عشرات المصادر

الإسلامي: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[(١)]، واستغرقت هذه النجدة العثمانية معارك بحرية هائلة ضد الأساطيل النصرانية، لعشرات العقود كما استغرقت معارك برية مهولة في الشمال الأفريقي ضد الإسبان والبرتغاليين، حتىٰ إذا أزفت ساعة الإنقاذ بالاستيلاء علىٰ الشمال الأفريقي كاملاً، غدر المغرب العربي بسلطانه السعدي بالأندلس، باتفاقه مع البرتغاليين والإسبان الكفار ضد العثمانيين المسلمين، ومنع أسطولهم من سواحله!، الأتراك يريدون الإنقاذ وحكام المغرب يخونون إخوانهم المحتضرين في الأندلس، فما كان من الأسطول العثماني إلا أن يعود أدراجه، وسرعان ما واجهت جيوش العثمانيين الخيانة الثانية في المشرق، وقد تمثلت في خيانة الصفويين لإسلامهم بالتقائهم مع الكفار ضد العثمانيين السنّة.

(١) سورة الحجرات/ ١٠

الفصل الثاني
صحائف الجهاد المشرقة
وفواجع الأندلس بغدر النصارى بأهلها

تمهـــيد

المبحث الأول: صحائف الجهاد المشرقة (المعارك الفاصلة)

المبحث الثاني: فواجع الأندلس بغدر الصليبيين

تمهـــيد

عقدنا هذا المبحث لبيان البون الشاسع بين المسلمين والنصارىٰ في السلوك، لاسيما في الحروب، إن جهاد المسلمين عقيدة حق ونبل وحكمة وقيم وشجاعة وفوز ساحق، لا ملل فيه ولا خوف، وهو أمان للمسالمين من نساء وأطفال وشيوخ ومرضىٰ وأسرىٰ وجرحىٰ ورهبان في صوامعهم، كما هو أمان للأموال والأعراض والأملاك، ولا قتال مع من لا يقاتلنا: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[١].

اما حروب أعدائنا فغدر وذبح وحرق وتمثيل وهتك للأعراض وتدمير للمدن ونهب للأموال، يستوي في ذلك المسالم والمحارب والأسير والجريح والأطفال والنساء ورجال الدين!! وذكرنا نماذج لكل من غدر بهم العدو الصليبي في هجماته وانتصاراته، بحيث لا يُبقىٰ أثراً للحياة ولا أثراً للإسلام في الرقعة التي يفتحها.

(١) سورة البقرة/ ١٩٠

المبحث الأول

صحائف الجهاد المشرقة ومعاركه الفاصلة

أهم معارك النصر الفاصلة[١]:

- البرباط سنة ٩٢هـ (معركة الفتح) .
- الزلاقة سنة ٤٧٩هـ وردت في عهد (المرابطين).
- إقليش سنة ٥٠١ هـ - في عهد (المرابطين).
- إفراغة سنة ٥٢٨هـ - في عهد (المرابطين).
- الأرْك سنة ٥٩١ هـ - في عهد (الموحدين).
- إستجة سنة ٦٧٤هـ - في عهد (بني مرين).
- مشيخة الغزاة سنة ٧١٩هـ - في مملكة (غرناطة).
- استعادت الجيوش الإسلامية جميع المدن والجزر التي احتلها العدو بمعارك حاسمة مرةً أو مرتين، بجيوش الأندلسيين المسلمين وجيوش المرابطين والموحدين والمرينيين.

المطلب الأول

موقعة البرباط (٩٢هـ) : (وادي برباط)، و(وادي لكّة)

كان موسىٰ بن نصير حين أنقذ طارقا مكبّاً علىٰ الدعاء والبكاء والتضرع لله تعالىٰ والابتهال إليه في أنْ ينقذ جيش طارق، وما علم أنه هزم له جيش قط[٢].

---

(١) الأدب الإسلامي وتاريخه في عصوره، العصر الأندلسي، ١٤١-١٤٧، المؤلف

(٢) التاريخ الأندلسي، عبد الرحمن الحجي/ ص٦٢-٦٣، ٦٧، ما بعدها، راجع نفح الطيب/ ١/ ٢٦١، وفجر الأندلس/ ص٧٢، ٧٥، وتاريخ الأندلس/ ص٤٦-٤٧

يصف المقريزي المعركة التي دارت بين الفريقين : «فلما أصبح الفريقان تجمعوا، وعبَّؤوا جيوشهم، وحُمِل لذريق، وهو علىٰ سريره، وقد حُمِل علىٰ رأسه رِواق (قبة) ديباج يظلله، وهو مقبل في غابة من البنود والأعلام، وبين يديه المقاتلة والسلاح، وأقبل طارق في أصحابه، عليهم الزَّرَد (الدروع)، ومن فوق رؤوسهم العمائم البيض، وبأيديهم القِسِيُّ العربية، وقد تقلدوا السيوف، واعتنقوا الرماح، فلما نظر إليهم لذريق داخله الرعب! ورآه طارق فقال: هذا طاغية القوم، ثم حَمَل وحمل أصحابه معه، فتفرّقت المقاتلة من بين يدي لذريق، فخلص اليه طارق، فضربه بالسيف علىٰ رأسه، فقتله[١] علىٰ سريره، فلما رأىٰ أصحابه مصرعَ صاحبهم، اقتحم الجيشان، وكان النصر للمسلمين، ولم تقف هزيمة العدو علىٰ موضع، بل كانوا يُسَلمِّون بلدا بلدا، ومعقلا معقلا». وتلك هي معركة وادي البرباط التي وقعت سنة ٩٢هـ، استمرت ثمانية أيام، وقتل من المشركين خلق عظيم، وكانت الغنائم فوق التصوّر، ولم يبق جندي مسلم إلا له فرس مما غنموه، ولم يكونوا يملكون فرسًا واحداً![٢].

ثم تلاحقت سيول البربر تتدفق علىٰ الأندلس من أفريقيا، بعد أن كتب طارق إلىٰ مولاه موسىٰ يطلب منه (الغوث الغوث) حينما توالت الإمدادات للإسبان بما لا يحصيه العدُّ من الجنود[٣].

ولم يتوقف طارق في زحفه حتىٰ وصل إلىٰ منتصف الأندلس، وفتح جميع المدن ومنها (طليطلة) عاصمة الأندلس خلال سنة من اقتحامه الأندلس.

وتوالىٰ المدد لطارق من موسىٰ بـ ٥,٠٠٠ مجاهد، كما احتل (اسنجة ومالقة وغرناطة والبيرة وجبان وطليطلة وقرموته ومورور واشبيلية وقرطبة وأريونة)، ثم انطلق طارق شمالاً إلىٰ (وادي الحجارة) إلىٰ مدينة الماندة واحتلها، حتىٰ وصل إلىٰ شمال اسبانيا، واقتحم أرض جليقة

(١) ومنهم من قال: انه غرق حينما حاول عبور البرباط، ولم يعثر علىٰ جسده لا حيّا ولا ميتا

(٢) التاريخ الأندلسي، عبد الرحمن الحجي/ ص٦٧-٦٨، عن (تاريخ الأندلس)/ ص٤٧

(٣) التاريخ الأندلسي، عبد الرحمن الحجي/ ص٥١-٦٣ بإيجاز، نقلًا عن عشرات المصادر، ومنها المقريزي في نفح الطيب/ ج١/ ص٢٢٦-٢٢٧

إلىٰ مدينة استرقة[١]،

ثم وصل موسىٰ بن نُصَيْر بجيش كثيف في ٩٣هـ ٧١٢م قوامة ١٨,٠٠٠ جلهّم من القيسية واليمانية[٢]، واحتل مدنا كثيرة منها (شدونة واشبيلية وماردة وليلة وباجة وتدمير).

ثم التقىٰ طارق أميره (موسىٰ) عام ٩٤هـ/ ٧١٣م عند طليطلة أو قرطبة، وقال طارق لأميره: أيها الأمير، والله لا أرجع عن قصدي هذا، مالم أصل الىٰ البحر المحيط أخوض فيه بفرسي ... واستطاعَ طارق بجيشه وحده ١٢,٠٠٠ الذي استشهد ثلثه ضدّ مئات الآلاف من جند الإسبان، أن يحتل نصف الأندلس خلال سنة واحدة، أوصىٰ موسىٰ طارقًا بالتوقف في طليطلة، فأطاعه، وانتظره في أواخر سنة ٩٣هـ[٣].

المطلب الثاني

موقعة الزلاقة (٤٧٩هـ)

كان لسقوط طليطلة سنة٤٧٨ هـ السبب المباشر لعبور المرابطين الىٰ الأندلس.

وقعت (موقعة الزلاقة) سنة ٤٧٩هـ، وكان المجاهدون بقيادة المعتمد بن عباد ويوسف بن تاشفين ضد الفونس السادس علىٰ رأس جيش من شمال إسبانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا مع رهبان، يزيد تعداده علىٰ ٥٠,٠٠٠ جندي[٤]، في حين أن الجيش الإسلامي أقل من النصف. في حدود ٢٤,٠٠٠ جندي[٥]، ورُئي الرسول (صلىٰ الله عليه وسلم) في المنام يبشر بالنصر في يوم الجمعة، فا ستبشر المسلمون[٦].

(١) أنظر خارطة فتح الأندلس ص٣٨١

(٢) المصدر السابق/ ص٦٩، عن (تاريخ الأندلس)/ ص١٤٥، والبيان المغرب/ ٢/ ص١٢، ونفح الطيب/ ١/ ص٢٦٩

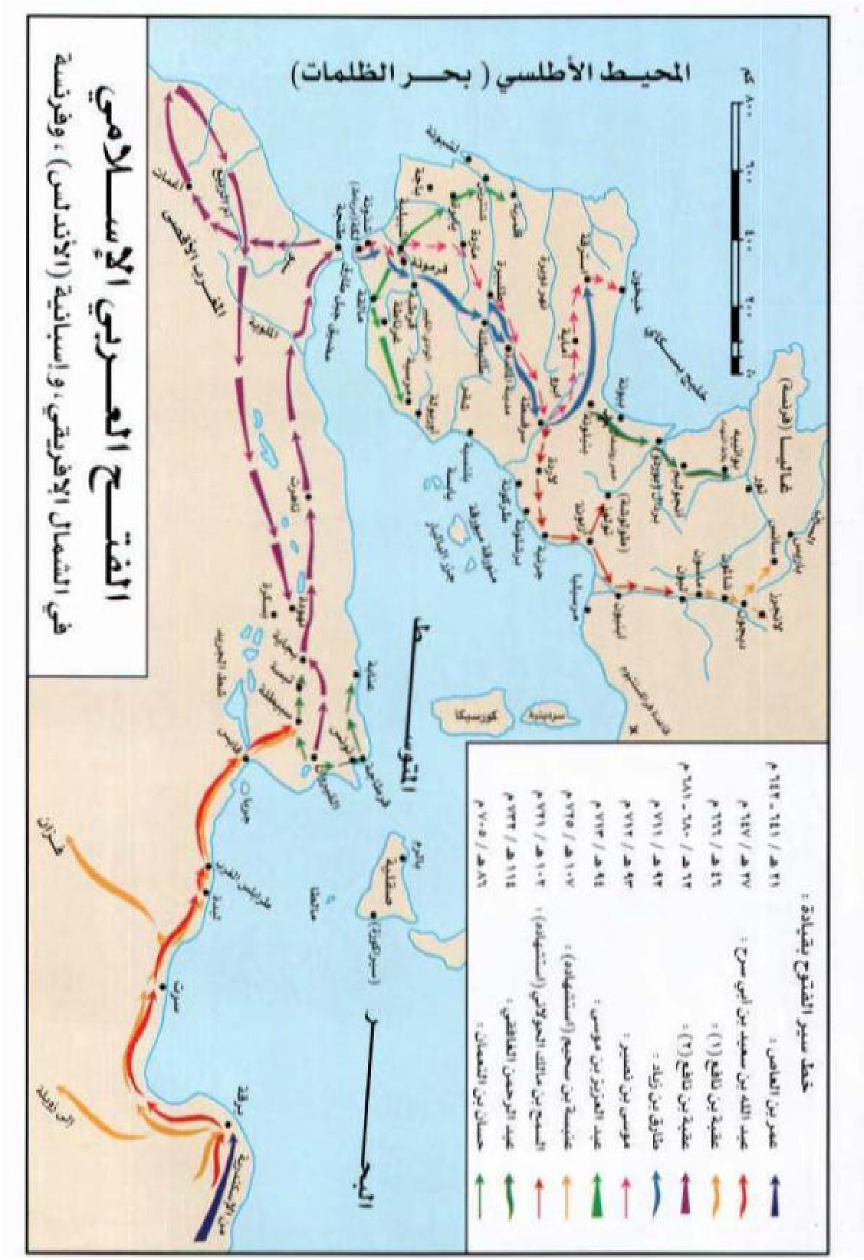
(٣) التاريخ الأندلسي/ ص٨٣، عن (البيان)/ ٢/ ص٢٦، عن (الرازي)، نفح الطيب/ ١/ ص٢٧١ عن (ابن حيان وغيره، جغرافية الأندلس وأوروبا/ ص٨٩، وغيرها كثير

(٤) غير ان مؤلف (دولة المرابطين) يذكر أن عدد جيش الفونس ٨٠,٠٠٠ فارس، و٢٠٠,٠٠٠ راجل، ص١٢٨، عن (الحلل الموشية)/ ص٤٥-٤٧

(٥) دولة المرابطين، الصلابي/ ص١٢٠، عن (دولة المرابطين)/ ص٨١، والكامل في التاريخ، ابن الأثير/ ١٠/ ص١٥٣

(٦) المصدر السابق/ ص٤٠٧، عن (الروض المعطار)/ ص٩٠-٩١، ونفح الطيب/ ٤/ ص٣٦٥-٣٦٩

١٣٢



الفتح العربي الإسلامي في الشمال الإفريقس وأسبانيا وفرنسا

استغاث المعتمد يوسف بن تاشفين قبل المعركة بشهرين (..ونحن أهل الأندلس ليس لأحد منا طاقة علىٰ نصرة جاره ولا أخيه،... استنصرت بالله ثم بك، لتجوزوا لجهاد هذا العدو الكافر، وتحيوا شريعة الإسلام)، وقال: (رعي الجمال خير من رعي الخنازير)[١]. وأجابه باحترام وتوقير بالمواقعة بكتاب رقيق[٢].

وأمده المعتمد بأسطول لنقل جنوده سنة ٤٧٦هـ، عبر الأمير يوسف بن تاشفين بجيوشه التي كانت تضم ٧,٠٠٠ فارس، وأكثرها من الرحّل وألوف من الجمال، هبت ريح شديدة في البحر فدعا ربه (اللهم إن تعلم أن جوازنا هذا البحر خير للمسلمين فسهل علينا جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعّبه حتىٰ لا أجوزه)، فهدأ البحر[٣].

توفي ابنه أبو بكر وهو في إشبيلية فلم يثنه عن التقدم، وسارع جميع أمراء الطوائف بقواهم في المعركة، وانتظمت القوات الأندلسية لوحدها في المقدمة بقيادة المعتمد، والمرابطية في المؤخرة[٤]، وانتظروا أياما حتىٰ قدم (الفونس السادس) وقال مستعليا: (أقاتل بجيشي الجن والإنس وملائكة السماء)![٥] وفي رواية: (القىٰ محمداً وآل محمد والإنس والجن والملائكة)[٦]، أجابه ابن تاشفين علىٰ ظهر رسالته (ما ترىٰ، لا ما تسمع، إن شاء الله)، وأردفه ببيت المتنبي:

ولا كُتْبَ إلا المشرفيّةُ والقنا ... ولا رُسْلٌ إلا الخميسُ العرمرمُ[٧]

وكان في الاستقبال مع المعتمد ابن زيدون وزير قرطبة مع القضاة. وقال المعتمد لملوك

(١) دولة المرابطين/ ص١١٤، عن (وفيات الاعيان)/ ٧/ ص١١٥

(٢) المصدر السابق/ ص١١٧، عن (دولة المرابطين)/ ص٧٤، ومذكرات الأمير عبد الله صاحب غرناطة/ ص١٠٢-١٠٣

(٣) المصدر السابق/ ص٤٠٣، (عن دولة الطوائف)/ ٩/ ص٣١٩-٤٤٧

(٤) المصدر السابق/ ٤٠٥، عن (أعمال الأعلام)/ ٢/ ص٢٤٦، ٣٢/ ٢٤٢

(٥) المصدر السابق/ ص٤٠٥، عن (الروض المعطار)، نفح الطيب/ ٤/ ص٣٦٣

(٦) المصدر السابق/ ص١٢١، عن (الأندلس في عهد المرابطين)/ ص٨٣

(٧) المصدر السابق/ ص١١٢، عن (تاريخ ابن الكرديوي)/ ص٩١

الطوائف (رعي الجمال، خير من رعي الخنازير).

عرض ابن تاشفين علىٰ ألفونس الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب فرفض[١].

مكر العدو بموعد المعركة، ثم غدر بهم يوم الجمعة وكانوا مستعدين تصديقاً بما أخبرهم به الرسول (صلىٰ الله عليه وسلم) في المنام، وأفاد المسلمون من جمالهم التي ليس فيها واحد في الأندلس وكانت الخيل تنفر منها، ورغاؤها إلىٰ عنان السماء[٢].

رأىٰ ألفونس رؤيا قبل المعركة، نفسه راكباً الفيل يضرب نقيره طبل، فهالته الرؤيا، فسأل القساوسة والرهبان عنها فلم يعرفوا تأويلها، فدس يهودياً إلىٰ المسلمين، فقال له المعبّر المسلم: (**ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ...**) وأما ضربة النقير فتأويلها: (**فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير، علىٰ الكافرين غير يسير**). صمد المعسكر الإسلامي حين انحدرت جيوش العدو كالسيل الجارف من المرتفعات إلىٰ السهل، وأبدىٰ المعتمد بسالة نادرة إذ كان قد تصدىٰ لهم أولاً فصبر صبراً جميلاً لم يعهد لأحد مثله، وأُثخِن بالجروح وضُرِب علىٰ رأسه ففلقت هامته، حتىٰ وصلت إلىٰ صدغه وجرحت يمنىٰ يديه وطُعِن في أحد جانبيه وعُقِرت تحته ثلاثة أفراس، ..وكان يقاسي حياض الموت.

ثم تحرك ابن تاشفين بجيشه من (الصحراويين) علىٰ مؤخرة المعسكر القشتالي، وأحرق فيه النيران الكثيفة المرعبة، وكان لقرع الطبول الذي يدوي في الأفاق أثره المعنوي، وقاتل المرابطون بصفوف ثابته، وما أن حل المغرب حتىٰ هرب ألفونس بمن معه تحت جناح الظلام وقد طُعِن في إحدىٰ ركبتيه وفقد إحدىٰ ساقيه، بقي يخنع بها بقية عمره[٣].

فكفّ ابن تاشفين عنه، وكانت المعركة يوماً واحداً، وكانتَ أعداد ضحاياها من

(١) التاريخ الأندلسي/ ص٤٠٦، عن (وفيات الاعيان)/ ٧/ ص١١٦، ونفح الطيب/ ٤/ ص٣٦١-٣٦٢

(٢) المصدر السابق/ ٤٠٧، عن (الروض المعطار)/ ص٩٠-٩١، ونفح الطيب/ ٤/ ص٣٦٥-٣٦٩

(٣) المصدر السابق/ ص٤٠٨، عن (اعمال الأعلام)/ ٣/ ٢٤٤، ودولة المرابطين/ ص١٢٤-١٢٨، عن الأندلس في عهد المرابطين/ ص٨٥، والروض المعطار/ ص٩٢، وملوك الطوائف/ ص٣١٤

الجانبين فوق ما يتصوره الخيال[١]، غير أن خسائر العدو كانت أضعاف خسائر المسلمين، وبلغت أكداس جماجم العدو التي أمر ابن عباد بضمّها فاجتمع منها تلّ عظيم[٢].

وأقامت العساكر أربعة أيام تجمع الغنائم التي كانت بما يفوق حد الوصف، واعتذر ابن تاشفين عن أخذ شيء منها وآثر الأندلسيين بها. ورجع مع ألفونس ٥٠٠ فارس مثخنين بجراحهم، وما وصل منهم معه إلاّ مئة من جيشه الكثيف، وبقي لا يأكل ولا يشرب حتىٰ هلك[٣].

وأنقذت هذه المعركة الأندلس قرناً من الانهيار الثاني الذي سيأتي بإغاثة الموحدين، بل إنها أعانت في مدّ عمر إسلامية شبه الجزيرة الأندلسية لأربعة قرون أخرىٰ[٤].

واستشهد من المسلمين الكثير من كبار العلماء والقضاة والزهاد ومنهم والد الإمام ابن حزم، واستعجل ابن تاشفين في الرجوع إلىٰ المغرب وسار معه المعتمد مودعا إياه إلىٰ المغرب. غير أنه ترك جيشاً كثيفاً في الأندلس لحمايتها من العدو المتربّص، قبل عودته إلىٰ المغرب، ومع ذلك لم تسلم الأندلس من أحقاد الصليبيين وانتقامهم، بسبب عدم حسم الموقف معهم بمطاردتهم قبل رحيله.

المطلب الثالث

موقعة أقليش (٥٠١هـ)

أو (الإقماط السبعة، أي الأمراء)، بأمر من الخليفة علي بن يوسف، لأخيه تميم أن يستأنف الجهاد، فاتجه نحو (أقليش)، شرق طليطلة، ففتحها، واتجه إلىٰ قصبة أقليش المنيعة، وهزم جيش ألفونس السادس الممزق، وقتل القائد، وهو ولده الوحيد (شانجة) بعمر ١١ سنة، مع قائده الكبير، وقد رافقه الأمراء السبعة، فسميت الموقعة بهم، وكانت بمستوىٰ

(١) التاريخ الأندلسي/ ص٤٠٨، عن أعمال الأعلام/ ٣/ ٢٤٤

(٢) العصر الأندلسي، المؤلف/ ص١٤٤، عن (نفح الطيب)

(٣) دولة المرابطين، الصلابي/ ص١٢٨

(٤) التاريخ الأندلسي، الحجي/ ص٤٠٩، عن (فارن: الحلل الهندسية)/ ٢/ ١٩٥

(الزلاقة) في خطورتها ونتائجها، كما استشهد من المسلمين الكثير، ومنهم علماء أجلاء، وكان جيش العدو يفوق الجيش الإسلامي بكثير وكان تعداده ١٣,٠٠٠ مقابل ٣,٠٠٠ جندي مسلم، وكانت المعركة بقيادة المرابطين من جيوشهم وجيوش الأندلسيين[(١)].

المطلب الرابع

موقعة الأرْك (٥٩١هـ)[(٢)]

الأرك: حصن يقع قريباً من السهل الذي وقعت فيه موقعة الزلاقة.

حدثت الموقعة عام ٥٩١هـ/ ١١٩٥م بين الجيش الإسلامي من الموحدين والأندلسيين وبين جيش قشتالة بقيادة ملكها ألفونس الثامن[(٣)].

انتهت مدة الهدنة التي عقدها ألفونس ملك قشتالة لخمس سنين، لعام ٥٩٠هـ، فأرسل لتجديدها خداعًا، ولكنه جمع الحشود، وعاث بالبلاد فساداً، وأنذر ثغور المسلمين بالهجوم عليهم[(٤)].

كان جيش الفونس الثاني أكثر من ربع المليون[(٥)]، يضم أكثر من ٢٥,٠٠٠ فارس، وأكثر من ٢٠٠,٠٠٠ راجل من أوروبا وإسبانيا الشمالية ومعه جماعات من تجار اليهود أتوا لشراء أسرىٰ المسلمين وأسلابهم، وأعدوا أموالا لذلك، ولم يجتمع في الأندلس مثل هذا الجيش

(١) التاريخ الأندلسي، د. عبد الرحمن الحجي/ ص٤٢٥، عن (نظم الجمان)/ ٦/ ص٧٠٥، وتاريخ الأندلس/ ص١١٤-١١٥، وعصر المرابطين والموحدين/ ١/ ص٢٧، ٦٠، والبيان المغرب/ ٤/ ص٥٠

(٢) والأرْك: موضع بنواحي بَطَلْيَوس، في منتصف الأندلس ج. طليطلة وهي جنوب مدريد.

(٣) التاريخ الأندلسي، عبد الرحمن الحجي/ ص٤٨٤، عن (عصر المرابطين والموحدين)/ ٢/ ص٢٠٠، ودولة الموحدين، الصلابي/ ١٧٤، عن (الأرك)، شوقي أبو خليل/ ص٥٣-٥٤

(٤) المصدران السابقان، الأول/ ص٤٨٤-٤٨٥، عن البيان المغرب، انطوان/ ص٩١-٩٢، والثاني عن (المعجب/ ص٣٥٨، ونفح الطيب/ ٤/ ص٣٨١

(٥) وقيل (١٥٠,٠٠٠) يزيد عن ثلاثة أضعاف الجيش الإسلامي، دولة الموحدين، الصلابي/ ص١٧٥، عن موسوعة المغرب العربي/ ص٢٣١

قط[١]، وقد قدّر بعض المؤرخين أن عدد أفراد الجيش الإسلامي الموحدي، بقدر جيش العدو وقيل ضعفه، وفي صباح يوم المعركة أذاع الأمير أبو يوسف يعقوب المنصور أنه حلم قبل ليلة بفارس علىٰ فرس أبيض خرج من باب فتح في السماء، وبيده راية خضراء، انتشرت في الآفاق، ويقول له بأنه من ملائكة السماء السابع، ويبشره بالنصر بحول الله[٢].

وكان الجيش الأندلسي في المقدمة، والموحدي في المؤخرة ينتظر الإنقاذ في اللحظة الحاسمة، كما حدث في الزلاقة[٣].

لجأ الخليفة إلىٰ الجيش بنصيحته قائلاً : (اغفروا لأمير المؤمنين، فإن هذا موضع غفران - وتغافروا فيما بينكم، وطِّيبوا نفوسكم وأخلصوا لله نياتكم)، فبكي الناس لهذا الكلام الخاشع ثم قام خطيباً وحرّض علىٰ الجهاد وبيّن فضله فضج بالدعاء، والمسلمون يبكون تشوقاً إلىٰ الله والرسول والجنة واشتدت العزائم، وتنزّلت رحمة الله، وانحدر جيش العدو من المرتفعات كالبحر الزاخر أفواجاً والمسلمون صامدون، وحين اشتدت الأزمة تحرك الخليفة يطوف بالجند ويحثهم علىٰ تجديد النوايا وتحرّك منفرداً علىٰ ساقيه بين الصفوف مشجعاً، وبعد نزال رهيب اضطر الجيش الكافر إلىٰ التقهقر صوب طليطلة، **واستمرت المعركة يوماً واحداً وفرّ ملكهم**، وكان القتلىٰ من الفريقين كثير، غير أنهم من العدو أضعاف، وغنم المسلمون مغانم لا تحصَىٰ، وافتتحوا حصن الأرْك. وكانت أعظم من موقعة الزلاقة في حقيقتها ونتائجها[٤].

وكان عدد من قتل من الفرنج ١٤٦,٠٠٠ ألفاً وعدد الأسارىٰ ٣٠,٠٠٠ ألفاً، وعدد الخيام من الغنائم ١٥٠,٠٠٠ خيمة والخيل ٨٠,٠٠٠ والبغال ١٠٠,٠٠٠ والحمير

(١) التاريخ الأندلسي، د. عبد الرحمن الحجي/ ص٤٨٦، عن الملتمس/ ص٤٥-٤٦
(٢) دولة الموحدين، الصلابي/ ص١٧٧، عن (معركة الأرك)/ ص٥٧
(٣) المصدر السابق/ ص٤٨٦-٤٨٧، عن (البيان المغرب)/ نطوان/ ص١٩٤، والتكملة/ ٢/ ص٥٥٠-٥٥١
(٤) المصدر السابق/ ص٤٨٧، عن (البيان المغرب/ ص١٩٤-١٩٥

٤٠٠,٠٠٠. جاء بها الكفار لحمل أثقالهم لأنهم لا إبلَ لهم، ومن الدروع ٦٠,٠٠٠، وأما الجواهر والأموال فلا تحصىٰ، وبيع الأسير بدرهم، والسيف بنصف درهم، والفرس بخمسة دراهم، والحمار بدرهم. وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضىٰ الشرع[1]، ونجا الفونس ملك النصارىٰ هارباً إلىٰ طليطلة في أسوأ حال، فحلق رأسه ولحيته، ونكّس صليبه، وآلىٰ أن لا ينام علىٰ فراش، ولا يقرب النساء، ولا يركب فرساً ولا دابة، حتىٰ يأخذ بالثأر، وصار يجمع المقاتلين من الجزائر والبلاد البعيدة ويستعد، ثم لقيه يعقوب وهزمه وساق خلفه إلىٰ طليطلة وحاصره فيها ورماها بالمجانيق وضيق عليها، ولم يبق إلا فتحها، فخرجت إليه والدة الفونس وبناته ونساؤه يبكين بين يديه، وسألنه إبقاء البلد لهن، فرق لهن، ومَنّ عليهنّ بها، ووهب لهن من الأموال والجواهر ما جلّ، وردهن مكرّمات، عفا بعد القدرة، وعاد إلىٰ قُرْطُبة،، فأقام شهراً يقسم الغنائم وجاءته رُسلُ الفونس بطلب الصلح، فصالحه وأمن الناس مدَّته .

ثم رجع إلىٰ إشبيلية سنة ٥٩٣هـ، وعاد إلىٰ بلاده وأتم بناء (مئذنة) مسجده المسماة حاليًا بـ(الجيرالدا)، وارتفاعها ٩٦م، ولم تزل قائمة، ثم عاد لاستئناف الجهاد[2]، ثم إن الإفرنج نقضوا العهد، فعاد إلىٰ الأندلس وفعل بهم الأفاعيل، ولم يقدر أحد علىٰ لقائه، ثم توفي السلطان سنة ٥٩٥هـ في مراكش رحمه الله تعالىٰ[3].

---

(١) العصر الأندلسي، المؤلف/ ص١٤٥، عن (نفح الطيب)

(٢) التاريخ الأندلسي، عبد الرحمن الحجي/ ص٤٩٠-٥٠١، عن (عصر المرابطين والموحدين/ ٢/ ٧٠، ٢١٧، ٢٣٠، وما بعدها

(٣) دولة الموحدين، الصلابي/ ص٢٠٢، عن (معركة العقاب)، شوقي أبو خليل/ ٢٣

١٣٣





مكناس



أسوار مراكش التي بناها السلطان
علي بن يوسف بن تاشفين

المعارك الكبرىٰ في الاندلس

المطلب الخامس

موقعة (أستجّة) (٦٧٤هـ)

(وقعة أستجة) جنوب قرطبة ـ كانت معركة هائلة من جنس معارك (الزلاقة والأرك وإقليش وأفراغة)، عبر السلطان أبو يوسف - يعقوب المريني بجيش تصالح فيه مع بني زيان بحملة مشتركة ضد العدو إلىٰ الأندلس، ووصل إلىٰ الوادي الكبير، وقطع مسافات شاسعة، واستولىٰ علىٰ مدن كثيرة، كانت الوقعة بين قرطبة وإشبيلية، تصدىٰ له جيش قشتاله النصراني، وعدد رجال جيش النصارىٰ ٩٠,٠٠٠ (٣٠,٠٠٠ فارس، و٦٠,٠٠٠ راجل) بقيادة (دونه) صهر ألفونس العاشر، الذي لم يكن قد عرف الهزيمة قط[(١)]، والجيش الإسلامي أقل من العشر بقيادة الأمير المريني أبي يوسف يعقوب. هو وابنه في المقدمة يقاتلان ببسالة نادرة، والأمير ترجّل وأسبغ وضوءه وصلىٰ ركعتين، ثم أقبل إلىٰ الله بالدعاء كدعاء النبي (صلىٰ الله عليه وسلم) لأهل بدر: (اللهم انصر هذه العصابة، وأيدها وأعنْها علىٰ جهاد عدوك وعدوها)، وخطب بالجيش الإسلامي، وبايع الله علىٰ الموت، فانسكبت الدموع، وأنابت القلوب، وارتفعت الأصوات بالشهادة والتكبير، وكانت ملحمة لا يعرف شدتها إلا الله، وصبر المسلمون أمام جحافل العدو، فنصرهم الله نصراً مؤزراً، وقتل من الجيش الكافر الكثير وقتل قائده وابنه، وتشتت جيشه، وحاصر المنصور إشبيلية، فطلب أهلها الصلح والأمان فأجابهم، ثم رجع إلىٰ المغرب في نفس السنة، وترك ٣,٠٠٠ فارس حماية وعوناً لغرناطة، واستحدث (مشيخة الغزاة) لتنظيم أمور الجهاد في الأندلس[(٢)]، ورئيسها (شيخ الغزاة) بقيادة (عبد الله بن أبي العلاء) الذي استشهد في ٦٩٣هـ، وخلفه ابن أخيه (أبي سعيد عثمان)، ثم كانت الغزوة الثانية (٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م، بعبور أبي يوسف إلىٰ الأندلس، غير أن

(١) دولة الموحدين، الصلابي/ ص٢٥٠-٢٥١، عن (مصر مع غرناطة)/ ص٤٥-٤٦

(٢) المصدر السابق/ ٢٥٣-٢٥٤، عن (التاريخ الأندلسي)/ ص٥٣٨، وسقوط غرناطة/ ٥٠، ٢٤٧-٢٥٢، عن المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، د. عمياءة كمال/ ص٢٦٩، ومصرع غرناطة/ ٤٣، ٤٨، والتاريخ الأندلسي/ ١٣٨

ابن الأحمر، زعيم غرناطة، عقد أحلافاً مع ملك قشتالة، أضرّت بالمسلمين.

ثم كانت الغزوة الثالثة بالبحر وبأسطول ضخم عام ٦٧٨هـ، وانتصر علىٰ الأسطول القشتالي.

ثم كانت الغزوة الرابعة عام ٦٨٤هـ، براً وبحراً، وأرغم شانجه ملك قشتالة علىٰ طلب الصلح.

توفي المنصور عام ٦٨٥هـ/ ١٢٨٥م، بعد حياة حافلة بالجهاد وكان صوّاماً قوّاماً، كثير الذكر والدعاء، مكرماً للصالحين والعلماء، ولم يلق جيشاً إلا هزمه، وكان خطيباً شجاعاً يبدأ الحرب بنفسه[١].

المطلب السادس

وقعة مشيخة الغزاة (سنة ٧١٩هـ)

توفي أبو يوسف يعقوب المنصور المريني عام ٦٨٥هـ/ ١٢٨٥م، بعد جهاد متواصل في المغرب والأندلس، وورثه ابنه محمد الثاني (أبو يعقوب يوسف) وله جهاده في الأندلس، وتوفي في سنة ٧٠١هـ/ ١٣٠١م، وخلفه ابنه محمد أبو عبد الله الملقب بالمخلوع، ثم ساء الحكم، استغل العدو هذه الفوضىٰ في بني مرين فحاصر قلاعاً ومدناً في الأندلس واحتلها ثم زحف الجيش القشتالي بجيش ضخم بقيادة دون بطرة ودون خوان علىٰ غرناطة، وحدثت (وقعة مشيخة الغزاة) الشهيرة، التي لاتقل خطورة عن سالفاتها (البرباط والزلاقة والأرْك) الفاصلات، وذلك أن الجيش القشتالي زحف علىٰ غرناطة سنة ٧١٨ بجيش كثيف جداً يتألف من ٢٠٠٠٠٠مقاتل معهم ٢٥ملكاً، بقيادة (دون بطرة) و(دون خوان) ـ الوصيان علىٰ ملك قشتاله الصغير (الفونس الحادي عشر). وكان عدد جيش المسلمين ٦٠٠٠منهم ١٥٠٠فارس و٤٥٠٠رجاله ! وقيل دون ذلك[٢].

استغاث الإمام الصالح أبو سعيد عثمان بن أبي العلاء بالمريني فلم يغثهم، فالتجؤوا

(١) دولة الموحدين، الصلابي/ ص٢٤٨-٢٤٩، ٢٥٧، عن عشرات المصادر

(٢) المصدر السابق/ ص٣٦٠، عن (ابن جزي ومنهاجه في التفسير)، علي الزيدي/ ١/ ص٥٦، والتاريخ الأندلسي/ ص٥٤١-٥٤٣

إلىٰ الله يجأرون إليه بالدعاء. وأخلصوا له النيات.

وبعد أن ذهب سلطانهم (دون بطرة) إلىٰ طليطلة، ودخل علىٰ مرجعهم (البابا) وسجد له وتضرّع، أمره باستئصال المسلمين من الأندلس،.. التحم الجيشان، فكانت ملحمة تنزلت فيها رحمة الله وملائكة النصر، فقتل (دون بطرة ودون خوان والملوك الخمسة والعشرين)، وقتل من جيشهم ما لا يحصىٰ.

كانت خسائر العدو فادحة، إذ كان عدد القتلي يربو علىٰ ٥٠٠٠٠، وهلك مثلهم في البوادي، ومن السبي ٧٠٠٠ نفس، وهلك الملوك والأمراء النصارىٰ جميعهم، لعدم معرفتهم الطرق، والذين هلكوا في الجبال ما لا يحصىٰ عددهم، والتقدير الإجمالي للقتلىٰ والهالكين من جيشه أكثر من ١٠٠٠٠٠ جندي، واستمر البيع في الأسرىٰ والأسلاب والدواب ستة أشهر[١].

وكانت الغنائم بحجم الانتصار ٤٣ قنطاراً من الذهب، و١٤٠ قنطاراً من الفضة، و٧٠٠٠ أسير، ومنهم امرأة الطاغية وأولاده، فبدلت في فداء نفسها بمدينة (طريف وجبل الفتح و١٨ حصنـًا)، فلم يقبل المسلمون، ولم يقتل من المسلمين والأجناد سوىٰ ١٣ فارسـًا و١٠ أنفس[٢].

لقد سُلِخَ الطاغية (دون بطرة)، بعد قتله، من غير تمثيل به وهو حيّ ، وحُشِي جلده قطنـًا، وعُلِّق علىٰ باب غرناطة سنوات، وطلبت النصارىٰ الهدنة، فعقدت لهم[٣].

(١) دولة الموحدين، الصلابي ص٢٦٠، عن (التاريخ الأندلسي)/ ص٥٤١-٥٤٢، وابن جزي ومنهجه في التفسير/ ١/ ص٥٧

(٢) العصر الأندلسي، المؤلف/ عن (نفح الطيب)

(٣) المصدر السابق/ عن (نفح الطيب)

المبحث الثاني

فواجع الأندلس بغدر الصليبيين(١)

لئن استمرت الحروب الصليبية في فلسطين قرنين، فإنها استمرت في الأندلس قرابة خمسة قرون، ولئن كانت الحملات الصليبية الأولىٰ عشراً، فإنها في الثانية عشرات متواصلة.

وكانت المدن الأندلسية تحاصر شهوراً وسنين وتحل المجاعة والكوارث ثم يقتحمونها بعد صراع رهيب بإبادات شاملة ومجازر جماعية، وبفجور بالاعراض وسبي وحرق وتمثيل، ثم يستردها المسلمون المرة والمرتين والثلاث لأكثرها، كما سنرىٰ في الفواجع القادمة، وكما مرّ بنا سابقًا في جميع المواقع التي خاضوها والمدن التي احتلوها.

المطلب الأول

الإبادات الماحقة والمجازر الجماعية في أكثر المعارك والمدن

وأهمها : (أشبونة - لشبونة، إشبيلية مرات وقرطا جنة وطليطلة والجزيرة الخضراء ونكور وبلنسية عدة مرات وبربشتر عدة مرات وطليطلة عدة مرات وسرقسطة عدة مرات والمرية وموقعة العقاب وموقعة أنيشة، وأبذة ومدينة الفتح عدة مرات وجزيرة ميورقة عدة مرات ومرسية ووقعة العقاب والبيرة ومالقة وجبل طارق). وعدد الضحايا في هذه المدن بضعة ملايين عدا ضحايا غيرها، كما يظهر في المدن والحروب طيلة القرون الخمسة الأخيرة من عمر الإسلام في الأندلس، أما ضحايا محاكم التفتيش وما بعدها فكانت بما مجموعه عشرات الملايين قتيلاً وذبحًا وغرقًا، إذ لم يبق في الأندلس مسلم يعلن إسلامه علىٰ قيد الحياة، تنفيذاً لنصوص كتابهم المفترىٰ: (وأما مدن هؤلاء

---

(١) دولة الموحدين، الصلابي ١٥٣-١٦٧، ١٩٨-٢١٢

الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً، فلا تستبقِ منها نَسَمة بل تحرمها تحريمًا، كما أمر الرب إلهك)[١].

وأما فتكهم بخصومهم فأوامر مقدسة يطفح بها كتابهم المقدس! كذا: (تحطم أطفالهم والحوامل تشق)[٢]. (ضربوها بحد السيف مع ملكها وكل نفس بها، لم يبق شارداً، فحرمها وكل نفس بها،.. وأحرقها بالنار)[٣].

بل إن داوود (عليه السلام) في عقيدتهم هو (رجل الدماء)، وهو القدوة في حروبهم، كان يقتل شعوبـًا كاملة بالفؤوس والمناشير ويسلخ جلودهم وهم أحياء، ويحرقهم بأفران النار وهم أحياء: (وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد وأمرّهم في أتون الآجر،... (أي الأفران) هكذا فعل بعشرات من المدن العربية[٤].

المطلب الثاني

فاجعة بربشتر سنة ٤٥٦هـ

استولىٰ (النورمان الوثنيون المتنصّرون في بداية القرن الخامس) بتحريض البابا لهم علىٰ (بربشتر) شمال شرق الأندلس سنة ٤٥٦هـ.. هجموا مباغتة بجيش من ٤٠,٠٠٠ واستمر الحصار لها ٤٠ يومـًا، وبعد معارك ضارية خارج المدينة وداخلها وبعد اشتداد الحصار وانقطاع الماء عنهم، استباح العدو المدينة وأسر ما بين أربعين ومئة ألف وقتل ١٤٠,٠٠٠ ذبحـًا، ثم ضم إليهم ٦,٠٠٠ آخرين حصدوا رؤوسهم بالسيوف، وانتهبوا المدينة، وهتكوا الأعراض أمام آبائهم وأزواجهم المسلسلين ...

(١) التوراة/ سفر التثنية - ٢٠ - ١٠ - ١٨. علماً بأن التوراة جزء من الكتاب المقدس بعهديه (القديم والجديد) الذي يؤمن بقدسية النصارىٰ جميعهم بنصوص صريحة في إنجيلهم.

(٢) التوراة/ سفر هوشع/ ١٣/ ١٦.

(٣) التوراة/ سفر يشوع/ ١٠ -١١-١٢.

(٤) التوراة، سفر صموئيل الثاني - ٢٩ - ٣٢.

والخَطْب أفدح من أن يوصف، وسبوا نساءها. وصار بعض رؤسائهم يملك ١٥٠٠ جارية أبكاراً، وحملوا أحمالاً من الحلي والكسوة بحمل خمسمئة حمل ... ومات المئات من النساء علىٰ وجههن علىٰ الماء يكرعنه من العطش ثم أمروا ببقية أهلها أن يعودوا إلىٰ بيوتهم، فاقتسمهم الجنود عبيداً ونهباً وتعذيباً، وهتكاً لأعراض البنات والنساء، ومن نجا بالهرب طاردوه فقتلوه وأخذوا من بنات المسلمين الجميلات الأبكار ٥,٠٠٠ أهدوهن إلىٰ صاحب القسطنطينية[1].

● استرجاع المسلمين (بربشتر) سنة ٤٥٧ هـ، بعد تسعة شهور من تدميرها وإفناء أهلها، والذي استردها (أحمد بن هود) بـ ٦٠٠٠ جندي بهتاف (الله أكبر) و(الشهادة)، فتسمىٰ بعدها بـ(المعتز بالله). وقتل من الكفار ١٠٠٠ فارس و٥٠٠ راجل[2].

المطلب الثالث

فاجعة طليطلة

● استيلاء العدو (الفونس السادس) علىٰ (طليطلة) (سنة ٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م) بعد حصارها سبع سنين، وأعانها عمر بن محمد بن الأفطس حاكم بطليوس وحده، ولم يقدر علىٰ إنقاذها، وبعد إعطاء أهلها الأمان ونقضه العهد بعد شهرين، نكّل الفونس بأهلها، وحوّل جامعها إلىٰ كنيسة، واستولىٰ علىٰ رقعة واسعة، وهدم ٨٠ منبراً[3].

---

(١) العصر الأندلسي، المؤلف/ ص١٥٥-١٥٦، عن (نفح الطيب)/ ج٦/ ص٣٦٤-٣٦٥، والتاريخ الأندلسي، د. عبد الرحمن الحجي/ ص٣٦١

(٢) التاريخ الأندلسي، د. عبد الرحمن الحجي/ ص٢٦١-٢٦٣، عن (البيان المغرب/ ٣/ ص٢٢٧، وأعمال الأعلام/ ٢/ ص١٧١، وجغرافية الأندلس وأوربا، البكري/ ص٩٥، والروض المعطار/ ٤١، ٩٢-٩٤

(٣) التاريخ الأندلسي، د. عبد الرحمن الحجي / ٣٥١ - ٣٥٢ عن نفح الطيب ج ٤ / ٤٨٣ /٤٨٣ - ٤٨٦ نسبها لمجهول، وتاريخ المغرب والأندلس، أمين توفيق الطيبي/ ١٢٠، وأخذها العدو بعد أن حاصرها سبع سنين.

المطلب الرابع

فاجعة بلنسية

● استيلاء العدو علىٰ (بلنسية) سنة ٤٨٧ هـ، فقد حاصرها لذريق عشرين شهراً، ولم يستطع المرابطون نجدتها لبعدها عنهم. وكان حاكمها القاضي الشجاع الورع ابن جحاف .

● جاع الناس مجاعة رهيبة أكلوا الفئران والكلاب والجيف، بل أكل الناس الناس، ومن مات منهم أكلوه، وأكلت الجلود والدواب، وهلك أكثر الناس جوعا فماتوا: ومن فرّ من المحلة فقئت عيناه أو قطعت يداه أو دقت ساقاه أو قتل![1]

● اضطرت للاستسلام، واستصفىٰ القنيطور، القائد الصليبي - أموال القاضي ابن جحاف، ثم حفر له في الأرض وأحرقه بالنار سنة ٤٨٨ أمام أهله وولده، بسبب تجربته عامـًا بصدق الدين والعدل، وأراد إقحام أهله وأولاده فيها، فمُنِع، وكان يدير النار علىٰ جسده بيده استعجالا بالموت من العذاب، أمام صياح وعويل المسلمين والنصارىٰ، كما أحرق الكثيرين من أهلها بنار عظيمة، وهان عليهم الإحراق بالنار من الموت جوعـًا، وعلقت جثث أهلها في الصوامع والأشجار، وكان الرجل يمشي فيسقط ميتا! ومن لم يُفَدِّ نفسه قطع لسانه وفقت أجفانه وسلطت الكلاب الضارية عليه تأكله، وبيع المسلم بخبزة وقدح خمر ورطل سمك: وسلمت المدينة علىٰ شروط التأمين للسكان ولحاكم المدينة، علىٰ أنفسهم وأموالهم، ونقضوا العهد أول ساعة - وأعلن قائدهم أن من وجد عنده شيئ من آلات الحديد فماله ودمه حلال، فسلموا الإبر والمسامير، ثم خرج إليهم يريد ٧٠٠,٠٠٠ مثقال ذهب، وإلاّ يهلكهم، فكان له ما أراد وزيادة، وحوّل المسجد إلىٰ كنيسة .ثم أحرق لذريق مجموعة من أهل بلنسية وأعيانها وأدبائها المشهورين سنة ٤٩٠هـ[2].

(١) العصر الأندلسي، المؤلف/ ص١٥٨، ونفح الطيب، المقّري/ ج٦/ ص٨٤، ١٩٩، ٢٣٧، والتاريخ الأندلسي، د. عبد الرحمن الحجي/ ص٣٧٢-٣٧٤، عن (البيان المغرب)/ ٣٢/ ص٣٠٥، والبيان المغرب/ ٤/ ص٣٣

(٢) المصدر السابق/ ص٣٧٥-٣٨٤ باختصار، عن عشرات المصادر

● استعادة المسلمين بلنسية سنة ٤٩٥ بعد ثمان سنوات ونصف، من قبل المرابطين بقيادة ابن عم يوسف بن تاشفين - أبو محمد مزدلي، بعد وفاة القنيطور - لذريق، سنة ٤٩٣، بسبب انتصارات المرابطين في معارك ضارية أخرىٰ، بعد أن صارت أطلالاً وركاماً لحرقها جميعها بالنار[1]، والغربيون لم يزالوا يفخرون بلذريق هذا.

ولم يزل أمر بلنسية يضعف باستيلاء العدو علىٰ أعمالها إلىٰ أن حاصرها ملك برشلونة النصراني، فاستغاث زيان بصاحب أفريقية أبي زكريا بن أبي حفص .

ولما وصلت أساطيله رآها محاصرة ولم يفلح في إنقاذها فرجع إلىٰ بلاده[2].

ولم يزل أهل الأندلس بعد ظهور النصارىٰ علىٰ كثير منها، يستنهضون عزائم الملوك والسلاطين لأخذ الثأر حتىٰ فنوا!.

المطلب الخامس

بقية المجازر في المدن الأخرىٰ[3].

نذكرها علىٰ سبيل الاستشهاد بوحشية الصليبيين، لا علىٰ سبيل الحصر:

وأشباهها كثير لا يحصىٰ، وأغلبها حدثت بعد فاجعة موقعة العقاب سنة ٦٠٩هـ التي خسر الموحدون فيها أكثر جيوشهم التي بلغت ٢٠٠٠٠٠، وقيل ضعفها، أو ضعفيها، وكانت أكبر نكسة لهم في الأندلس، بعدها سقطت مدنها تباعاً بفناء لا يوصف مداه، لمدة قرنين ونصف.

١- نكبة مدينتي (بياسة) و(أبذة) سنة ٦١٠هـ، أما الأولىٰ فقد هجرها أهلها قبل سقوطها خوفاً من الذبح والاغتصاب، فوجدها العدو خالية مهجورة، فأحرقها بالنار، ودمر

(١) العصر الأندلسي، المؤلف/ ص٣٨٥-٣٨٦، عن (الحلة البراء)/ ٢/ ٢١٢، ونظم الجمال/ ٦/ ٨، وتاريخ الأندلس/ ص١٠٨-١٠٩، والبيان المغرب/ ٤/ ٦٠، نظم الجمال/ ٦/ ١٩، والبيان المغرب/ ٤/ ص٤٢

(٢) العصر الأندلسي، المؤلف/ ص١٦٠، الشاعر القضاعي (أبو عبد الله بن الأبار) صاحب كتاب (التكملة) والقصيدة طويلة

(٣) وتفصيلها في العصر الأندلسي، المؤلف/ ص ١٩٤-٢٠٧

مسجدها الأعظم، وأما (أبذة) فكانت مأهولة بأهلها، فحاصروها ١٣ يومـًا، ثم دخلوها عنوة، وعاثوا فيها ذبحـًا وقتلاً وسلبـًا واغتصابـًا، وكان سبيهم ١٠٠٠٠٠ بما ملأ أوروبا قاطبة، من نساء المسلمين وأطفالهم، فكانت هذه أشدّ من الهزيمة، وذبح فيها ٦٠٠٠٠ مسلم، بعد إعطائهم الأمان ![١]

٢- سنة ٦١٤هـ سقطت مدينة (جبل الفتح)، بمساعدة أسطول الصليبيين الألمان، وقتل النصارىٰ كل من فيها، وكبار العلماء المشهورين[٢].

٣- سنة ٦٢٦هـ سقطت (ماردة) بمآسٍ تدمي القلوب، وتزهق الأرواح[٣].

٤- سنة ٦٢٧هـ سقطت (جزيرة ميورقة) كبرىٰ جزائر الباليار، بعد حصار بحري طويل، بجيوش إسبانيا وإيطاليا وفرنسا وأساطيلها، ووقعوا الصلح، ثم استباحوها، فقتلوا جميع سكانها، وذبحوا ٢٤٠٠٠ مسلم علىٰ دم واحد، و١٦٠٠٠ مقاتل، ومات واليها تحت العذاب شهرين، واستشهد جميع علمائها وقرائها وأدبائها[٤].

٥- سنة ٦٣٣هـ سقطت (قرطبة)، وكانت لخمسة قرون معقل العلم والأدب والعلماء والفروسية، فأخرجوا منها أهلها لا يملكون قطميراً، وورث النصارىٰ كنوزهم وأموالهم وقصورهم، ومسجد قرطبة الشهير الذي حوّلوه إلىٰ كنيسة، ومازال كذلك منذ ستة قرون![٥]

٦- سنة ٦٣٤هـ معركة (أنيشة) الذبيحة، شمال بلنسية، ذهب ضحيتها كبار علمائها، وما لا يحصيه إلا الله من جند المسلمين، وخُنِق سبعون من أهل الصفّ الأول بجامعها[٦].

---

(١) العصر الأندلسي، المؤلف/ ص١٩٧

(٢) المصدر السابق/ ص١٩٨

(٣) المصدر السابق/ ص١٩٨

(٤) المصدر السابق/ ص٤٦٩-٤٧١، عن (الدين والتكملة)/ ٤/ ٣١، عنوان الدراثة الغبريني/ ٣٠٦، أعمال الاعلام/ ٢/ ٢٧٦، والمغرب/ ٢/ ٤٦٩

(٥) المصدر السابق/ ص٤٧٢، عن التكملة/ ١/ ١٢٠، ٣٢٣، وأعمال الأعلام/ ٢/ ٣٣٢، والاحاطة/ ١/ ٣٨٣، ٥٥٣، وعصر المرابطين والموحدين، ٢/ ٤٢٤

(٦) المصدر السابق/ ص٤٧٣-٤٧٤، عن (التكملة)/ ٢/ ٨٨١، والمرقية العليا، ١١٩

١- سنة ٦٣٦هـ سقطت (بلنسية)، لأكثر من مرة من تحريرها، وسبق أن ذكرنا مصيبتها الأولىٰ، حروبها وحصارها في ٦٣١هـ، فكانت مذابح ماحقة، تصديقاً لحكم انجيلهم الذي سبق ذكره اكثر من مرة.

٢- سنة ٦٤٣هـ سقطت (شاطبة) بعهود الأمان، ثم نقضوها سنة ٦٤٥هـ، وطردوا منها أهلها إلىٰ الصحارىٰ[١].

٣- سنة ٦٤٦هـ سقوط (اشبيلية) بعد قتال عدة سنين، وحصارها سنة ونصف، استسلمت اضطراراً، بشرط رحيل أهلها، غادرها من أهلها نصف مليون في رمضان، بعد استباحتها وقتل أكابر القوم وعامتهم، وكان سقوطها ايذاناً بسقوط سائر المدن والحصون الإسلامية بينها وبين الوادي الكبير، فاستولوا بعدها علىٰ شريش وشذونه وقادس وسلوفه وغليانه وروضة وثغر شنتمريه..

٤- سنة ٦٦٤هـ سقوط (مرسية)، بعهود الأمان، ثم نقضوها سنة ٦٧٣هـ، حيث أخرجوهم منها، وغدروا بهم خارجها في الطريق قتلاً وذبحاً وإبادة، بعد سبيهم النساء والأطفال، وورثوا جميع ما يملكون في بيوتهم[٢].

٥- سنة ٦٨٦هـ سقطت جزيرة (منورقة)، بعد ٦٠ سنة من سقوط أختها، وأجلي المسلمون عنها، وخرج حاكمها حاملاً رِمّة أبيه إلىٰ الأندلس! وبذا لحقت شرق الأندلس وغربها وشمالها ووسطها بيد الصليبيين، ولم يبق بأيدي المسلمين إلا (غرناطة) المسماة بالأندلس الصغرىٰ، التي قاومت أوروبا مجتمعة عليها قرنين ونصف[٣].

٦- سنة ٨٦٧هـ سقط (جبل طارق) - للمرة الثالثة بيد القشتاليين إلىٰ غير رجعة[٤].

---

(١) العصر الأندلسي، المؤلف/ ص١٩٩

(٢) المصدر السابق/ ص١٩٩

(٣) المصدر السابق/ ص٢٠٠

(٤) المصدر السابق/ ص٢٠٨

الفصل الثالث
جهود الدولة العثمانية
لإنقاذ الفردوس المفقود

(٨٠٠هـ- ١٠٠٠هـ/ ١٣٩٠-١٥٩٠م)

(لمدة قرنين)

المبحث الأول: جهود السلطان بايزيد الأول

المبحث الثاني: جهود السلطان محمد جلبي

المبحث الثالث: جهود السلطان مراد الثاني

المبحث الرابع: جهود السلطان محمد الفاتح في الإنقاذ

المبحث الخامس: جهود الخليفة بايزيد الثاني في الإنقاذ

المبحث السادس: جهود الخليفة سليم الأول في الإنقاذ

المبحث السابع: جهود الخليفة سليمان القانوني في الإنقاذ

المبحث الثامن: جهود الخليفة سليم الثاني في الإنقاذ

المبحث التاسع: جهود الخليفة مراد الثالث في الإنقاذ

المبحث الأول

جهود السلطان بايزيد الأول حكم ١٤ سنة

(٧٩١-٨٠٥هـ = ١٣٨٩-١٤٠٢م

استمرت محاولات الإنقاذ على أيدي تسعة سلاطين عثمانيين خلال ٢٠٠ سنة (٨٠٠-١٠٠٠هـ)، كما يأتي بالتتابع، لاسيما في القرن الأخير منها.

أعلن السلطان بايزيد الاول أنه سيفتح إيطاليا تمهيداً لإغاثة مسلمي الأندلس، فاستولىٰ بحروب ساحقة في البلقان علىٰ بلغاريا والبوسنة ورومانيا بعد معركة هائلة (نيكوبولس) عام ٨٠٠هـ ضد المجر وقاد جيشه بـ (١٢٠٠٠٠) مجاهد ضدّ جميع الدول الأوروبية مجتمعة. غير أن تيمورلنك عاجله باكتساح الشرق الإسلامي بجيشه المؤلف من ٨٠٠٠٠٠ جندي، وقد خسر السلطان بايزيد الأول هذه المعركة غير المتكافئة، وأُسِر، ثم مات في الأسر[١].

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، أورخان/ ص١٢، والدولة العثمانية، الصلابي/ ص٩٢، عن (الدولة العثمانية في تاريخ الإسلام الحديث)/ ٢/ ٣

المبحث الثاني

جهود السلطان محمد جلبي حكم ٨ سنوات

(٨١٥-٨٢٤هـ/ ١٤٠٢-١٤٢١م)، المؤسس الثاني للدولة العثمانية

استمرت فتوحاته في البلقان تمهيداً لإغاثة المسلمين في الأندلس، رغم قصر مدة حكمه، ورغم الفتنتين - فتنة إخوته التي غرسها تيمورلنك بينهم، وفتنة الدجال، لقد قاد (٢٤) معركة، وأصيب بـ(٤٠) جرحًا في حروبه في بلاد البلقان، تمهيداً للوصول إلىٰ الأندلس لإغاثة مسلميها، وكان قويًا مصارعًا[١].

(١) ألبوم العثمانيين/ ص٤١

المبحث الثالث

جهود السلطان مراد الثاني

(٨٢٤-٨٥٥هـ/ ١٤٢١-١٤٥١م)

استمرت حروبه في البلقان للغاية نفسها التي من أجلها جاهد أسلافه في بلاد البلقان خاصة، فاستولىٰ علىٰ بلاد الصرب واليونان والأفلاق في رومانيا وهزم المجر، في معارك مهولة، كان قتلاها بعشرات الألوف، وأسراها كذلك، كما احتل جنوب ألبانيا، ووصل إلىٰ سواحل دالماسيا علىٰ البحر الادرياتيكي، تمهيداً لإنقاذ الأندلس[1].

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص١٠٤ بايجاز، والسلطان عبد الحميد الثاني، أورخان، ص١٣

المبحث الرابع

جهود السلطان محمد الفاتح في الإنقاذ: حكم ٣١ سنة (٨٥٥-٨٨٦هـ/ ١٤٥٠-١٤٨١م)

كان (رضي الله عنه) يتحرق إلىٰ نجدة المسلمين في الأندلس، لاسيما مملكة غرناطة التي كانت تحتضر وتستغيث.

لذا فإنه بدأ بإنشاء أقوىٰ أسطول في البحر المتوسط، حماية للدولة، وتمهيداً لإنقاذ الأندلس علىٰ المدىٰ البعيد، وبدأ باحتلال صقلية وجنوب إيطاليا إلىٰ نابولي، ثم أعدّ جيشاً كثيفاً في غرب تركيا، وما كان أحد يدري إلىٰ أين سيتجه به، وكان يقول: (لو علمت شعرة من رأسي إلىٰ أي اتجاه سأسير بجيشي لأحرقتها)، وما أن وصل إلىٰ جيشه ليقوده إلىٰ الجهة السرية التي ينوي قيادته إليها حتىٰ فجأه الموت، وغالب الظن أنه كان ينوي الأندلس، بدليلين - أولهما تحرّقه إلىٰ نجدتها وشكواه وألمه بسببها، من خلال تصريحاته، وثانيهما احتلاله جنوب إيطاليا مع صقلية ، وهو الطريق إلىٰ الأندلس[١].

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٠١، عن (محمد الفاتح)/ ص٣٧٣، ونفس المصدر/ ص٨٨، عن (الفاتح)، د. سالم الرشيدي/ ص٣٣

المبحث الخامس

جهود السلطان بايزيد الثاني بن محمد الفاتح في الإنقاذ: حكم ٣٢ سنة (٨٨٦-٩١٨هـ/ ١٤٨١-١٥١٢م)

وفي نهاية الثلث الأول من حكمه كانت الطامة الكبرىٰ باستسلام غرناطة، أعقبها إبادة المسلمين في الأندلس كلها.

المطلب الأول

استغاثات الأندلسيين

لقد كانت استغاثات الأندلسيين علىٰ شكل وفود ورسائل وقصائد موجهة إلىٰ حكام المشرق الإسلامي :

أولاً: إلىٰ الملك الأشرف - سلطان المماليك في مصر - فكان جوابه بإرسال وفود إلىٰ البابا وملوك النصرانية، وذكرهم بأن النصارىٰ الذين تحت حمايته يتمتعون بالحرية، وهدد بسياسة التعامل بالمثل وبالتنكيل والقصاص بالنصارىٰ في دولته، إذا لم يكفّوا عن القتل والترحيل، وردّ ما أخذت من أراضيهم، فلم يستجب البابا، ولا الملكان الكاثوليكيان - لقشتالة وأرغون[(١)].

ثانيـًا: استغاثات إلىٰ السلطان بايزيد الثاني، بوفود ورسائل .[(٢)]

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٠٨-٣٠٩، عن (رسالة مسلمي غرناطة للسلطان سليمان عبد الجليل التميمي)، المجلة المغربية، عدد٣/ ص٢٨، وخلاصة تاريخ الأندلس، شكيب ارسلان/ ٢١٣، وأزهار الرياض في أخبار رياض التلمساني/ ١/ ١٠٨-١٠٩

(٢) المصدر السابق/ ص٣٠٩-٣١٥، من أصل مئة بيت. القصيدة ركيكة جداً لا تخلو من أبيات مختلة الوزن، يضاف لذلك بعض أغاليطها النحوية نحو: (عسىٰ تنظروا فينا) والصواب تنظرون و (لا نذكرنه) والصواب ولا نذكره ؛ وغيرها مما تناولنا تصويبه، هذا فضلاً عن خلط الشاعر بين القوافي التي التزم فيها ألف التأسيس وأخرىٰ لم يلتزم بها، وهي التي استهل بها قصيدته .

المطلب الثاني

جهود السلطان بايزيد الثاني في إغاثة الأندلس

تعثرت جهوده بسبب تآمر أخيه (جم) عليه، في محاولة انتزاع العرش منه، وانتهىٰ النزاع بحروب مع أخيه، انتهت بالهزيمة - ثم قتله، كما تعثرت بسبب الحروب ضد بعض دول أوروبا، وبسبب التحالف الصليبي الذي يقوده البابا ضد العثمانيين، وبسبب الحروب ضد روسيا التي استردت (موسكو) من الدولة العثمانية عام ٨٨٦هـ، وتعثرت بسبب تمرّد دولة المماليك عليه في مصر والشام[(١)].

ومع ذلك فإن الملك الأشرف - سلطان المماليك استجاب إلىٰ استغاثة الأندلسيين بإرسال جواب إلىٰ البابا مع وفود إليه، وذكرهم بأن النصارىٰ الذين هم تحت حمايته يتمتعون بالحرية والكرامة، وهدد بسياسة التعامل بالمثل، بالتنكيل والقصاص بالنصارىٰ في دولته، إذا لم يكفوا عن القتل والترحيل ورد ما أخذ من أراضيهم فلم يستجب الملكان الكاثوليكيان - لقشتالة وأرغون[(٢)].

وجواباً لاستغاثتهم أرسل بايزيد الثاني أسطولاً إلىٰ شواطئ الأندلس فيه مجاهدون عثمانيون، وترك الرعب في أساطيل النصرانية.

بدأ العثمانيون بتقوية الأسطول البحري الحربي في البحر المتوسط، تمهيداً لغزو الأندلس، وخاض معركة بحرية ضخمة في خليج **لبانتو** في اليونان - قرب ايطاليا (٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م)، واستولىٰ علىٰ مدينة لبانتو (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م)، مما أدىٰ إلىٰ حقد أوروبا عليهم، فتحالفت أساطيل ألبانيا وفرنسا ونابولي وإسبانيا والبندقية ضده**!**[(٣)]

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٠٧، عن (الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادي/ ص٤٩-٥٠

(٢) المصدر السابق/ ص٣٠٨-٣٠٩، وقد وردت سابقاً

(٣) المصدر السابق/ ص٢١٦، عن (الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث)/ ص٥٢

المبحث السادس

جهود الخليفة سليم الأول (الياووز، المروّع) في الإنقاذ حكم (٨ سنوات) (٩١٨-٩٢٦هـ/ ١٥١٢-١٥٢٠م)

هو ابن بايزيد الثاني، أطلق علىٰ نفسه لقب (خليفة الله في طول الأرض وعرضها) عام ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م، ومنحه الخليفة العباسي لقب (خادم الحرمين الشريفين)، بعد انتصاره علىٰ المماليك في مصر والشام والحجاز واليمن، وبعد تنازل آخر خليفة عباسي له عن الخلافة[١].

تعثرت جهود السلطان سليم في إنقاذ الأندلسيين المسلمين من محنتهم بسبب ثورة الصفويين[٢] ضده، مما حمله علىٰ توجيه قوته الحربية في القضاء عليهم في **معركة (صحراء جالديران)** عام ١٥١٤م ، واحتلال عاصمتهم، ثم دولتهم الشيعية الإمامية التي كانت تلعن الإمامين أبا بكر وعمر (رضي الله عنهما) علىٰ المنابر، وتكفيرهما وتكفير أتباعهما من الصحابة ومن أتىٰ بعدهما، ومنهم الدولة العثمانية، وتكفير جميع السنة الذين يترضّون عليهما، كما تعثرت جهوده في الإنقاذ بقضائه علىٰ دولة المماليك، **واستردّ لقب (الخليفة) الذي تنازل عنه (المتوكل الثالث) آخر خليفة عباسي عام ٩٢٤هـ/ ١٥١٨م**، بما يسّر له تحرير الحجاز واليمن من المماليك، وخضوعهما لسلطانه.

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٢٩-٢٣٠، عن (العثمانيون في التاريخ والحضارة)، د. محمد حرب، ٧١، ١٦٩، وقراءة جديدة في التاريخ العثماني/ ٧٠ باختصار، وألبوم العثمانيين/ ٤٩، والمصدر السابق/ ص٢٣٢-٢٣٥، عن العثمانيون في التاريخ والحضارة/ ص٢٩، ٣٠

(٢) تزامنت ثورات الصفويين الشيعية الإمامية المستمرة ضد الدولة العثمانية السنية ثلاثة قرون مع اتساع الدولة العثمانية السريع في أوروبا وأفريقيا وآسيا، منذ (٩٠٠-١٢٠٠هـ)، مما أضعف الدولة العثمانية جراء حروب شرسة استمرت حتىٰ (١١٥٠هـ) تقريباً، وإلىٰ نهاية حكم السلطان أحمد الثالث ت/ ١١٤٣هـ = ١٧٢٠م، وكانت ثورات الصفويين باتفاق مع البابا، لإضعاف خصمها الألد الدولة العثمانية وإعاقتها عن إنقاذ الأندلس، فكان البابا والنصارىٰ وراءه أحباباً وإخواناً، والعثمانيون السنة المسلمون أعداءً.

غير أن هذه الحوادث الضخمة لم تثنه عن نجدة الأندلس بما يقدر عليه، وقد صرّح بنيّة استرجاعه الأندلس بعد احتلاله لبلغراد، فاستعان بالأخوين (خير الدين وعروج بربروسا) لاحتلال الشمال الأفريقي، تمهيداً لغزو الأندلس[١]. وكان الأخوان قائدي الأسطول العثماني في البحر المتوسط، وسبق أن خاضا معارك هائلة ضد الأساطيل الصليبية، وحققا انتصارات ضخمة، كما حققا انتصاراتهما في عهد الخليفة سليمان القانوني من بعده.

فتح الجزائر عام ١٥١٩م:

لقد أرسل أهل الجزائر استغاثات إلىٰ الخليفة سليم الأول ضد الإسبان المستعمرين لها، فأرسل إليهم قوة عسكرية عثمانية تتألف من بضعة آلاف من الجنود والإنكشاريين ومن المتطوعين المجاهدين، مع ١٤ سفينة حربية مجهزة بالعتاد والجنود، بعد أن منح (خير الدين بربروس) القيادة العليا للقوات المسلحة، اقتحم بهم مع المجاهدين الجزائريين معارك قاسية مع أخيه الذي استشهد فيها، دخلت بعدها الجزائر رسمياً تحت سيادة العثمانية عام ١٥١٩م، ومازالت بعض مدنها تحت سيطرة الإسبان[٢].

وكان احتلال الجزائر قاعدة ينطلق منها الغزو نحو المغرب، ومنها إلىٰ الأندلس، وتوفي الخليفة، ولم يقطف ثمار النجدة.

---

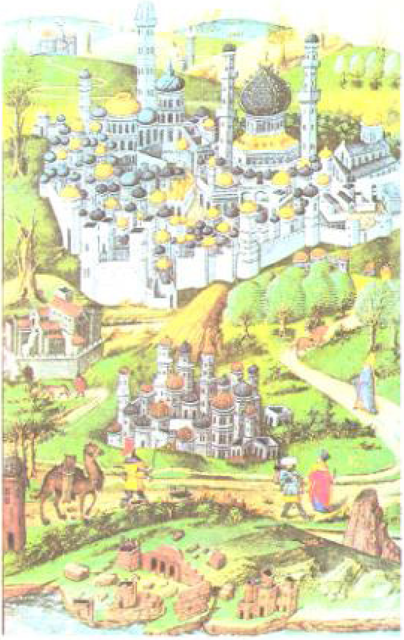
(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٥٦-٢٥٧، عن (الدولة العثمانية)، د. علي حسون/ ص٥٣، والمغرب في بداية العصور الحديثة/ ص٣٧-٣٨

(٢) المصدر السابق/ ص٢٥٩-٢٦١، عن (قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين)/ ص٥٨، ٨٦، والدولة العثمانية دولة إسلامية/ ٢/ ص٩١٠-٩١١

١٣٤



أسطول بابا عروج أمام سواحل الجزائر

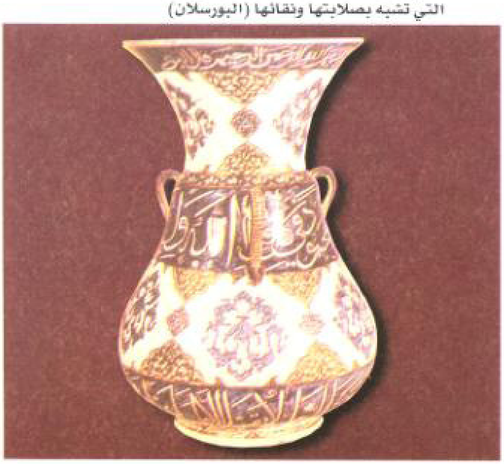


القدس في العهد العثماني ، وقبة الصخرة بين المنارتين

سيد البحار : خير الدين بربروس ، في زيه الوطني الجزائري



قنديل خزفي من قناديل قبة الصخرة في بيت المقدس ، صنع بتركيا سنة ١٥٤٩ م ، وهو مازال في لمعانه ومادته الخزفية التي تشبه بصلابتها ونقائها (البورسلان)



صور منوعة

المبحث السابع

جهود الخليفة السلطان (سليمان القانوني)

في الإنقاذحكم (٤٩ سنة)

(٩٢٦-٩٧٤هـ = ١٥٢٠-١٥٥٦م)

المطلب الأول

عزم السلطان علىٰ احتلال الأندلس براً وبحرا

أما الحرب البرية، فإنه صرّح باجتياحه الأندلس، بعد استيلائه علىٰ بلغراد، واستمر زحفه البري شمالاً وغربـًا في أوروبا، فوصل إلىٰ (فينّا) وحاصرها عام ١٥٢٩م[(١)].

أما الحرب البحرية، فقد استعد لها بإنشاء أضخم أسطول بحري في المتوسط والبحار - الأسود والعربي، والأحمر، وهيمن علىٰ الملاحة فيها جميعـًا، إزاء الأساطيل الأوروبية.

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٤٩، عن (الشعوب الإسلامية)، د. عبد العزيز نوار/ ص١٤٧، ونفس المصدر/ ص٢٦٥، عن (سيرة خير الدين باشا)، عبد القادر عمر/ ق٤٨أ، ٤٨ب

كانت لشهرة الأخوين (خير الدين وعروج بربروسا)[١] وتحقيقهما انتصارات هائلة ضد الإسبان والبرتغاليين وفرسان القديس يوحنا - منذ أيام السلطان سليم، ما حمل (الخليفة سليمان) علىٰ تقريبهما[٢].

أرسل الخليفة سليمان إلىٰ خير الدين بربروسا يخبره بعزمه علىٰ فتح إسبانيا، فجمع خير الدين العلماء والمشايخ وأعيان البلاد، وقرأ عليهم خطاب السلطان، وأخبرهم بتنفيذ الأمر وفرحوا جميعـًا، ثم أبحر خير الدين إلىٰ الخليفة برفقة (٤٤) سفينة، وهزم في طريقه أسطول آل هابسبرج، وأنزلهم الخليفة في أحد قصوره، ومنحه لقب (قبودان باشا - وزير البحرية)، كل ذلك تمهيداً لتحرير الأندلس، ثم إن الصدر الأعظم الذي كان بحلب استضاف خير الدين، وألبسه خلعة السلطان التي أرسلها إليه في اليوم الثاني باحتفال مهيب، وأكرمه

(١) ترجمة حياتهما: أصلهما ينتمي إلىٰ الأتراك المسلمين - أبوهما تركي من جزيرة مدللي من جزر الأرخبيل، وأمهما سلمة كان لها الأثر في تحويل نشاطهما شطر الأندلس، وكان لهما أخوان مجاهدان كذلك (إسحق ومحمد إلياس)، ثم ان اسم (عروج - أوروج) مأخوذ من حادثة الأسراء والمعراج، ويرجح أنهما ولدا ليلتها. ولهما الفضل في نشاط الأسطول العثماني في البحر المتوسط، وكان لهما خبرة واسعة في صناعة السفن والملاحة والحروب البحرية. الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٥٥-٢٥٨ باختصار، عن (المغرب في بداية العصور الحديثة)، د. صلاح العقاد/ ص٣٧، وحرب الثلاثمئة سنة بين الجزائر وإسبانيا/ ص١٦٠-١٦١، والدولة العثمانية العلية/ ص٦٥، وقراءة جديدة في تاريخ العثمانيين/ ص٧٩-٨٠، والدولة العثمانية، د. علي حسون.

استطاعا الاستيلاء علىٰ العديد من الموانئ البحرية والمدن في شمالي أفريقيا، وقد حققا النصر في معارك بحرية شرسة ضد اساطيل البرتغاليين والقديس يوحنا، وكان لهما محاولاتهما الجريئة في إنقاذ الأندلسيين. المصدر السابق/ ص٢٥٦-٢٦٦ باختصار، عن عشرات المصادر.

ظهر نشاطهما البحري ابتداء من ١٥١٤م، حين تحالف العثمانيين معهم، وتعيين السلطان سليمان القانوني لخير الدين بربروسا وزيراً للبحرية، ثم إن السلطان سليمان القانوني وجه أمراً إلىٰ خير الدين بربروسا عام ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م يعزم فيه علىٰ السير بجنوده إلىٰ إسبانيا للاستيلاء عليها، بعد استيلائه علىٰ بلغراد، بما حمل خير الدين علىٰ تطهير الشمال الإفريقي من الإسبان كمقدمة لاستعادة الأندلس فاستولىٰ علىٰ تونس وضمها إلىٰ الدولة العثمانية - بعد ضم الجزائر إليها، ثم توجه إلىٰ المغرب الأقصىٰ- سياتي التفاصيل لاحقًا. المصدر السابق/ ص٢٦٨-٢٦٩ باختصار، عن (الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترىٰ عليها)/ ٢/ ص٩١٥-٩١٦، وفتح العثمانيين عدن، محمد عبد اللطيف البحراوي/ ص١٢٧، وحرب الثلاثمئة سنة/ ص٢٣٠

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٥٦-٢٥٩، عن (الدولة العثمانية)، د. علي حسون/ ص٥٣، والمغرب في بداية العصور الحديثة/ ٣٧-٣٨، والدولة العثمانية دولة إسلامية مفترىٰ عليها/ ٢/ ص٩٠٢، ٩٠٩، قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين/ ٨٣-٨٤

إكرامًا عظيمًا، ثم رجع إلىٰ إستنبول مكرّمًا، فأصدر السلطان أوامره باحتلال تونس نظراً لموقعها الاستراتيجي[١].

المطلب الثاني

تونس: (فتحها، ثم استعادة الإسبان لها)

أولاً: فتح تونس (٩٤١هـ/ ١٥٣٤م): غادر خير الدين الدردنيل بأسطول عثماني قوي جديد، متجهًا إلىٰ سواحل إيطاليا الجنوبية، فاستولىٰ علىٰ مدن كثيرة في سواحلها منها (كورون وليبانتو)[٢]، ثم اتجه إلىٰ صقلية، وغزا سواحلها، ثم اتجه إلىٰ تونس، واستولىٰ عليها، وأعلن رسميًا ضمها إلىٰ الدولة العثمانية، لأهميتها في الشمال الأفريقي، ولقربها من إيطاليا، ولكونها بين الجزائر وطرابلس، ومجاورتها لمالطا، مقر فرسان القديس يوحنا، أعدىٰ أعداء الإسلام[٣].

وهكذا خضعت تونس وقبلها الجزائر إلىٰ حكم الدولة العثمانية، تمهيداً لغزو الأندلس، ومن دون السيطرة عليهما لا يمكن غزوها.

علم شارل الخامس - إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، من خلال تجسّسه علىٰ نوايا الدولة العثمانية في استرداد الأندلس، ومن خلال سيطرتها علىٰ الشمال الأفريقي - تونس والجزائر، فعمل الإمبراطور علىٰ عقد تحالف مقدس مع (إسبانيا وبلجيكا وهولندا وألمانيا والنمسا وإيطاليا) ضد الدولة العثمانية، لإفشال خطط محاولة إنقاذ الأندلس[٤].

وفي المحاولة الأولىٰ لنجدة الأندلس، استطاع الأسطول العثماني بقيادة الأخوين باربروسا من الاستيلاء علىٰ (بجاية) من الحكم الإسباني عام ١٥١٢م.

ثم إن خير الدين ضرب السواحل الإسبانية (سنة ٩٣٦هـ = ١٥٢٩م)، وأنقذ آلاف

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٦٧-٢٦٨، عن (جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس)/ ص٣١٦-٣١٧

(٢) المصدر السابق/ ص٢٦٧، عن (ليبيا بين الماضي والحاضر)، حسن سليمان محمود/ ص١٦٦

(٣) المصدر السابق/ ص٢٦٨، عن (الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترىٰ عليها)/ ٢/ ص٩١٥-٩١٦

(٤) المصدر السابق/ ص٢٦٩-٢٧٠

المسلمين من إسبانيا، بتوجيه (٣٦) سفينة خلال (٧) رحلات إلىٰ السواحل الإسبانية، وأسر رقيقًا باعهم في أوروبا[١].

وهكذا فإن تونس خضعت للدولة العثمانية، وسبقتها الجزائر عام ١٥١٩م، آخر حكم الخليفة سليم الأول.

المطلب الثالث

استعادة الإسبان لتونس

استغل الإمبراطور (شارل الخامس) إمبراطور النمسا، بعد تحالفه المقدس بقيادة البابا والدول الأوروبية، استغل ظرف الدولة العثمانية التي كانت تخوض حربًا موقوتة بين البابا والشاه عباس، ملك الدولة الصفوية في إيران، فجهز جيشًا من ٣٠,٠٠٠ مقاتل إسباني وهولندي وألماني ونابولي وصقلي حملهم علىٰ ظهر (٥٠٠) سفينة، من ميناء برشلونة، لمواجهة الأسطول العثماني في البحر الابيض المتوسط، وفوجئ خير الدين بقوة تفوق قوته، فانسحب، ونصب الإمبراطور حاكمًا علىٰ تونس - عميلاً خائنًا هو (الحسن بن محمد)، وذلك عام ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م، غير أن تلك القوات فشلت في احتلال الجزائر[٢]، رغم انشغال الجيوش العثمانية بالجهاد ضد الصفويين بحروب طاحنة[٣].

رد خير الدين علىٰ هجمة شارل الخامس بالهجوم علىٰ جزر البليار الثلاثة الإسبانية، ثم اجتاز مضيق جبل طارق، وانقض علىٰ السفن الإسبانية والبرتغالية العائدة من الأراضي الأمريكية المحملة بالذهب والفضة، فاهتزت المسيحية في أوروبا لهذا الخبر![٤]

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٦٤، عن (جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس)، د. نبيل عبد الحي/ ص٣١١

(٢) المصدر السابق/ ص٢٧٠-٢٧١، عن (تاريخ الجزائر الحديث)، محمد خير فارس/ ص٣٤، وحقائق الأخبار عن دول البحار/ ١/ ص٤٢٠، وجهود العثمانيين لاسترداد الأندلس/ ص٣٢١، وحرب الثلاثمئة سنة/ ص٣٢١

(٣) المصدر السابق/ ص٢٧١، عن (فتح العثمانيين لعدن)/ ص١٣٠

(٤) المصدر السابق/ ص٢٧١-٢٧٢، عن (حرب الثلاثمئة سنة)/ ص٢٣٦، ٢٤١-٢٤٢، ٢٧٧

المطلب الرابع

الجزائر

أولاً: الجزائر بين العثمانيين والإسبان:

كان من حكمة الخليفة أن عقد تحالفًا رسميًا مع فرنسا (٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م)، شقّ به الاتحاد الكاثوليكي بسبب هجوم الإسبان علىٰ تونس، وبذا طوقت الامبراطورية الرومانية من قبل الفرنسيين والعثمانيين[١].

ومن مظاهر الضعف الأوروبي والخوف من قوة الأسطول العثماني بقيادة خير الدين طلب الإمبراطور شارل الخامس عقد هدنة مع خير الدين (٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م)، وأغراه بمناصب وأموال ولكنه فشل في فصل الشمال الأفريقي عن إستنبول، كما فشل في محاولة سابقة معه[٢].

ثانيًا: تعيين المجاهد الكبير حسن آغا الطوشي[٣]:

عين حسن آغا نائبًا لخير الدين بربروسا في قيادة الأسطول العثماني، ركب الجيش العثماني البحر في ٩٤٩هـ/ ١٥٣٩م قوامه ١٣٠٠ جندي، علىٰ (١٣ سفينة) باتجاه الساحل الإسباني، نزل حسن آغا وجيشه إلىٰ البر، فاحتل أراضي، وغنم ما فيها من غنائم، كما توغل في جهات الساحل الإسباني الجنوبي، وغنم الكثير من أموال ومتاع، مع أسرىٰ وسبايا بأعداد كثيرة، ساقهم للبيع في المدن المغربية خاصة تطوان، وفي رجوع أسطوله هذا خاض معركة

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٧٢، عن (جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس)/ ص٣٢٣

(٢) المصدر السابق/ ص٢٧٤

(٣) ترجمة حياته: شغل منصب نائب وزير البحرية (خير الدين بربروسه)، وذاع صيته بانتصاراته الباهرة البحرية في البحر المتوسط. حكم الجزائر، وحقق الأمن والاستقرار فيها، ثم نزل بجيش عثماني في الأندلس (٩٤٩هـ/ ١٥٣٩م، وحقق انتصارات بإغاثة أهلها. المصدر السابق/ ص٢٧٤، عن (تاريخ الجزائر العام)، عبد الرحمن الجيلاني/ ٣/ ص٦٢-٦٣، وتاريخ الجزائر الحديث/ ص٣٥، وحرب الثلاثمئة سنة/ ص٢٧٩-٢٨٠

ضد الأسطول الإسباني، خسر الجانبان فيها خسائر كبيرة[١].

ثالثًا: فشل غزو الإسبان للجزائر:

تعرضوا لنكبة موجعة، ـ بعد غزوتين سابقتين فاشلتين - أيام عروج وأيام خير الدين، أرسل الإمبراطور حملة بحرية إلىٰ مدينة الجزائر ١٥٤١م، فجمع القائد حسن آغا العشائر والمجاهدين، وتزاحم المجاهدون بكثافة، مع استعداداتهم الواسعة للدفاع، وأصر المجاهدون ألا يتركوا المدينة إلا ركامًا أو ينتصروا[٢].

هبت ريح عاصفة لمدة عدة أيام، اقتلعت خيام جنود الحملة الإسبانية، وارتطمت السفن ببعضها فغرق الكثير، وقذفت العواصف بعضها إلىٰ الشاطئ، فهجم المجاهدون المسلمون عليها، واستولوا علىٰ ما فيها من ذخائر ومؤن، أما الأمطار فقد أفسدت مفعول البارود، ولم يقدر الإمبراطور علىٰ الهجوم في هذه الظروف، وخسر الكثير بتقدير الله، ثم بشجاعة المجاهدين، وفني الكثير من جنده، ولاذ بالفرار إلىٰ إيطاليا، يجر أذيال الندامة، بدلاً من إسبانيا، وشبه أهل الجزائر هذه المعركة بهزيمة أصحاب الفيل، واشترك في المعركة أعداد كثيرة من المسلمين المهاجرين من الأندلس[٣].

ثم التحق بقيادة الأسطول خير الدين من جديد بأمر من الخليفة، واشترك مع المجاهد حسن آغا - الباشا - بأمر سلطاني جديد - مكافأة لهما علىٰ قيادتهما الأسطول العثماني الذي سيطر علىٰ البحر المتوسط، فتوالت هجماته علىٰ السواحل الإسبانية والإيطالية، وصدر أمر تعيين حسن خير الدين مكان حسن آغا حاكمًا أعلىٰ للجزائر بدله عام ٩٥١هـ/ ١٥٤٤م[٤]، وعرض عليه الخليفة البدء بتحضير الجزائر في الاستعداد الفعلي للتحرير.

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٧٥، عن (حرب الثلاثمئة سنة)/ ص٢٨٠

(٢) المصدر السابق/ ص٢٧٥، عن (جهود العثمانيين)/ ص٣٢٦

(٣) المصدر السابق/ ص٢٧٦-٢٧٧، عن (خير الدين بربروسا)، بسام العسلي/ ص١٠٨، ١٥٣

(٤) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٧٨، عن (حرب الثلاثمئة سنة)/ ص٢١٣، والدولة العثمانية دولة إسلامية مفترىٰ عليها/ ٢/ ٩٢٠

المطلب الخامس

تحالف الدولة العثمانية مع فرنسا، وشق الاتحاد الأوروبي

انضم الأسطول الفرنسي عام ١٥٤٠م إلىٰ الأسطول العثماني، باتفاق بين الدولتين، حين أيقنت فرنسا بعزم العثمانيين علىٰ غزو الأندلس، راغبة أن يصيبها من نصر العثمانيين شهرة النصر، ويكون لها نصيب من نتائجه، فوضعت فرنسا أسطولها تحت قيادة خير الدين في (طولوز) - قاعدة جديدة للأسطول الإسلامي، والتي غادرها أكثر أهلها بأمر ملك فرنسا للمسلمين، وكان الأذان في مساجد الميناء يعلو من مآذنها، وذلك برغبة من ملك فرنسا عام ١٥٤٤م، إلاّ أن خير الدين توفي بعد غزوه جزراً في المتوسط، إضافة إلىٰ سواحل الأندلس الشرقية، وأنقذ آلاف المسلمين منها، وأسر من الإسبان رقيقًا باعوهم في أوروبا، فاهتزت لهذه الانتصارات، فاشترىٰ الفرنسيون الرقيق وباعوهم بأرباح طائلة لليهود الإيطاليين الذين باعوهم بأسعار عالية، وأرباح خيالية إلىٰ الإمبراطور (شارل)، واستطاع خير الدين أن ينتزع (نيس) من إسبانيا، ويضمها إلىٰ فرنسا[١].

وأخذت الدعاية النصرانية في أوروبا تشيع أن (خير الدين اقتلع أجراس الكنائس، فلم يعد يسمع في طولوز إلا أذان المؤذنين)، وبقي خير الدين في مدينة طولوز حتىٰ سنة ١٥٤٤م، قاعدة للجيش والأسطول الإسلامي، بعد أن غادرها معظم سكانها، بأمر ملك فرنسا، وتركوها بأيدي المسلمين[٢].

انهارت سمعة الإمبراطور شارل في أوروبا بسبب هزائمه أمام العثمانيين، وبسبب ظهور المذهب البروتستيني، والإمبراطور كاثوليكي، وبدأ الصراع بين الفريقين[٣].

بعد جلاء خير الدين عن (طولوز) بمعاهدة مع ملك فرنسا عام ١٥٤٤م، رجع إلىٰ

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٨٣، عن (خير الدين بربروسة)، العسلي/ ص١٦٦

(٢) المصدر السابق/ ص٢٨٣، عن نفس المصدر

(٣) المصدر السابق/ ص٢٨٣، عن نفس المصدر

إستنبول، فمر بمدينة **جنوة**، فتقدم مجلس حكومتها بهدايا ثمينة له، خوفاً من مهاجمتها، وتابع رحلته البحرية إلىٰ جزيرة (**ألبا**)، وكانت تحت الحكم الإسباني، ومنفىٰ نابليون فيما بعد، فاحتلها، وغنم ما فيها، واحتل عدداً من المدن الساحلية في إيطاليا، منها مدينة (**لياري**)، وكانت سفنه مثقلة بالغنائم، فاستقبله الخليفة أحسن استقبال، وكان ختام حياته بهذه الانتصارات التي توفي بعدها عام ٩٥١هـ/ ١٥٤٤م[١].

ولقد أحيا خير الدين بجهاده وشجاعته سير القادة الأوائل في صدر الإسلام[٢].

المطلب السادس

عودة إلىٰ الصراع في الجزائر بين الإسبان والعثمانيين

أولاً: تعيين صالح رايس[٣] بديلًا عن حسن:

صدرت الأوامر السلطانية إلىٰ حسن بن خير الدين بالتعاون مع فرنسا في تحرير الأندلس، فرفض، محتجاً بأن لا ينتصر المسلم بكافر، فعزله الخليفة القانوني، وعين بديلاً عنه صالح رايس (٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م) حاكماً جديداً لها[٤].

خطة صالح الرايس: تتمثل بأربع نقاط:

١- ضم الصحراء الجزائرية إلىٰ الدولة العثمانية، ليتفرغ إلىٰ تحرير الأندلس.

٢- إخراج الإسبان من معاقلهم الباقية في الجزائر.

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٨٣-٢٨٤، عن نفس المصدر

(٢) المصدر السابق/ ص٢٨٥، عن نفس المصدر/ ص١٧٠-١٧١، ١٧٦

(٣) ترجمة حياته: هو الحاكم الجديد للجزائر بأمر سلطاني في ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م، أطلق عليه لقب (أمير الأمراء الكرام)، ناله مدح وإطراء بما يستحقه، وقد عمل مجاهداً علىٰ اكتمال وحدة الجزائر، وحل المشكلات الداخلية فيها، واستعادة تونس، وإعلان النفير العام للجهاد لتحرير الأندلس. ثم نقل من مسؤوليته إلىٰ ولاية أخرىٰ، توفي صالح الرايس بالطاعون عام ٩٦٣هـ/ ١٥٥٦م، عن عمر سبعين سنة، وكان قد هيّأ قوة ضاربة برية وبحرية للزحف علىٰ مراكش، ولمشاريعه تفصيلها أعلاه. المصدر السابق/ ص٢٩١، ٢٩٧، عن (جهود العثمانيين)/ ص٣٦٦، و(تاريخ الجزائر)، الجيلاني/ ص٨٨٣-٨٨٩

(٤) المصدر السابق/ ص٢٨٦، عن (الجزائر والحملات الصليبية/ ص٣٠-٣٢، وبداية الحكم المغربي للسودان الغربي، محمد المغربي/ ص٩٠-٩١

٣- القضاء علىٰ المشاحنات في المغرب.

٤- إعلان النفير العام للجهاد، والسير براً وبحراً علىٰ رأس الجيوش الإسلامية إلىٰ الأندلس واسترجاع المغرب - طريق التحرير للأندلس[١].

ثانيًا: تنفيذ الخطة، ثم موت صالح رايس:

بدأ صالح بطرد الإسبان من وهران بجيش قوامه ٣٠٠٠٠ جندي مجاهد، غزا به (بجاية) عام (٩٦٣هـ / ١٥٥٥م) ودعمه الأسطول العثماني بالمدافع والأسلحة، فسقطت بجاية، واستسلم حاكمها الإسباني للعثمانيين[٢].

اتفق السعدي - حاكم المغرب الخائن مع البرتغال علىٰ التعاون لطرد العثمانيين، فوصل الخبر إلىٰ الخليفة فكان جوابه الحاسم مهاجمة وهران، وأرسل (٤٠) سفينة، للاستيلاء عليها وعلىٰ المرسىٰ الكبير، وضم صالح إلىٰ أسطوله (٧٠) سفينة مع ٤٠٠٠٠ من جنوده لفتح وهران، غير أن الموت عاجله بالطاعون عن عمر بلغ (٧٠ سنة) عام (٩٦٣هـ/ ١٥٥٦م)[٣]، **بعد احتلاله فاس العاصمة، وضمه المغرب إلىٰ الجزائر تحت الحكم العثماني، وقد أعلن الباب العالي ضمّ المغرب إلىٰ الدولة العثمانية عام ٩٦٤هـ/ ١٥٥٤م، بعد أن خطب الإمام للسلطان العثماني**[٤].

ثالثًا: إعادة حسن بن خير الدين حاكمًا للجزائر عام ٩٦٤هـ/ ١٥٥٧م

بعد انقطاع لعدة أعوام لصالح الرايس، واستبشر الجزائريون برجوعه لحزمه وشجاعته وتقواه، وتولىٰ قيادة الجيش (يحيىٰ)، لإكمال خطة صالح الرايس، فحوصرت وهران،

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٩١، عن (جهود العثمانيين)/ ص٣٦٦

(٢) المصدر السابق/ ص٢٩٣، عن (تاريخ الجزائر العام)/ ٣/ ص٨٨

(٣) المصدر السابق/ ص٢٩٧، عن (تاريخ الجزائر الحديث)/ ص٨١، وتاريخ الجزائر العام/ ٣/ ص٨٨-٨٩

(٤) المصدر السابق/ ٢٩٢، عن (المغرب في عهد الدولة السعدية)/ ص٨٠-٨١، وبداية الحكم المغربي في السودان الغربي/ ص٩١

ولكنها لم تفتح بسبب نجدات إسبانيا المتوالية والسريعة لها[١].

وقد غدر السعديون (المغاربة) فأرسلوا حملة ضخمة للقضاء علىٰ الجيش المحاصر لتلمسان، ولكن العثمانيين قضوا عليها[٢]،

بدأ حسن بتنفيذ خطته المتمثلة بهدفين - تطهير الشمال الأفريقي من النصارىٰ وعملائهم، واسترداد الأندلس.

وبينما كان حسن باشا يستعد لغزو المغرب، إذا بالجنود الإنكشاريين يعتقلونه مع بعض قادة الجند ويحملونه إلىٰ إستنبول (٦٩٦هـ/ ١٥٦١م) غير أن السلطان أعاده معززا بعد أن زوده بعشر سفن، وقوة عسكرية مسلحة تعزيزاً لخطته لمهاجمة ما تبقىٰ لإسبانيا في الجزائر (وهران والمرسىٰ الكبير)، بجيش مؤلف من (١٥,٠٠٠ مجاهد - منهم رماة البندقية وألف فارس و ١٢,٠٠٠ مجاهد)، غير أنه لم يقدر علىٰ فتحها، وانسحب الأسطول العثماني إلىٰ الجزائر (٩٧١هـ/ ١٥٦٣م)[٣].

ثم إن القوات الإسبانية هاجمت في الجزائر قبل ذلك مدينة (مستغانم) عام (٩٦٥هـ/ ١٥٥٨م) وفشلت بخسائر فادحة[٤]، قام حسن بن خير الدين في نفس العام بتخريب الساحل الاسباني من **قرطاجة** حتىٰ **سانت فنست**، وصار تحت قيادته سفن كثيرة فيها جنود مدربون ومسلحون، فقطعوا الملاحة والتجارة الهندية، وعم الخوف لدىٰ الإسبان، وتلقب حسن بحق سيّد مضيق جبل طارق[٥].

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٩٨، عن (حرب الثلاثمئة سنة)/ ص٣٦٦-٣٦٧، ونفس المصدر/ ص٣٠٠، عن (جهود العثمانيين)/ ص٣٨٠

(٢) المصدر السابق/ ص٢٩٨، عن (صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر)/ ص٣٤٥

(٣) المصدر السابق/ ص٣٠٥-٣٠٦، عن (تاريخ الجزائر العام)/ ٣/ ص٩٣، وحرب الثلاثمئة سنة/ ٣٧٩، وأطوار العلاقات المغربية العثمانية/ ص٢١٣

(٤) المصدر السابق/ ص٣٠١، عن (لسان العرب)، ابو عبد الله السليماني/ ص٩٤، وتاريخ الدولة السعدية/ ص٨٧

(٥) المصدر السابق/ ص٣٠٢، عن (جهود العثمانيين)/ ص٣٨١

المطلب السابع

محاولة السيطرة علىٰ مالطة

لقد كان السلطان العثماني عازماً علىٰ فتح مالطا التي أصبحت أكبر معقل من معاقل القراصنة النصارىٰ، أتباع فرسان القديس يوحنا، في البحر المتوسط، فأرسل ٣٠٠٠ مقاتل علىٰ ظهر (٢٥) سفينة إلىٰ مالطة عام ١٥٦٥م، وحاصرها، غير أن صقليا أرسلت اسطولاً يتألف من (٢٨) سفينة حربية مع أعداد كبيرة من المقاتلين، فانسحب الأسطول الإسلامي[١].

المطلب الثامن

استعادة العثمانيين لتونس

عاد الأسطول العثماني إلىٰ تونس، واستعاد سيادته عليها، بعد نجاحه في اتمام عمليات بحرية وبرية كثيفة بقيادة (حسن باشا) في رمضان (٩٦٧هـ/ ١٥٦٠م)، فاستنجد الإسبان بفرنسا، من غير استجابة لهم، ثم اتجه إلىٰ طرابلس، ودخلها دخول الفاتحين، ثم غادر إلىٰ إستنبول[٢].

المطلب التاسع

المغرب بين العثمانيين والعملاء العرب للإسبان والبرتغال

عقد الملك السعدي المتوكل علىٰ الله الغالب هدنة مع البرتغال (٩٦٢هـ/ ١٥٥٥م)، واستمرت سنين، ثم عُزِّزت بالتعاون مع الإسبان ضد العثمانيين (٩٦٣هـ/ ١٥٥٥م)، وأرسل جيوشاً كثيفة ضدهم، غير أن العثمانيين عاجلوه بهجوم خاطف انتصروا فيه عليه، واحتلوا فاس (٩٦٤هـ/ ١٥٥٤م)، وأعلن الباب العالي ضم المغرب إلىٰ الدولة العثمانية رسمياً[٣].

بلغ حب الملك السعدي للسلطة، وخوفه من انتزاع العثمانيين لها منه، أن أعلن أن

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٠٢، عن (تاريخ الجزائر العام)/ ٣/ ص٩٤-٩٥

(٢) المصدر السابق/ ص٣٠٩-٣١٠، عن (المغرب الكبير)، جلال يحيىٰ/ ي٨٤، والأتراك العثمانين في شمال أفريقيا، عزيز سامح/ ص٨٤، وتاريخ الجزائر الحديث/ ص٤٩

(٣) المصدر السابق/ ص٢٩٥، عن (تاريخ الدولة السعدية)/ ص٨٣-٨٤، ٢٩٢، عن (بداية الحكم المغربي في السودان الغربي)/ ص٩١، والمغرب في عهد الدولة السعدية/ ٨٠-٨١

الأتراك أجانب عن البلاد، وأنهم أعداء له، فيجب معاملتهم معاملة الأعداء، أما العرب فيمكن أن نترك لهم حريتهم في حالة استسلامهم دون مقاومة، إلا أن الملك السعدي أوضح أنه لن يسمح أبداً بأن يصبح أي عربي عبداً، لأن هذا مخالف للشريعة(١). أي فقه أعوج هذا !! والنبي الهادي ﷺ يأمرنا: (اسمعوا وأطيعوا، ولو تأمّر عليكم عبد حبشي، رأسه كالزبيبة، مادام يقيم فيكم حكم الله)(٢).

واتجه حسن بن خير الدين بجيشه من المجاهدين إلىٰ المغرب وضيّق به علىٰ الإسبان، وأرسل حملة إلىٰ الساحل الإسباني الجنوبي، وتعقب القوافل البحرية الإسبانية في جبل طارق، واستولىٰ علىٰ سفن الهند، وسيطر علىٰ مضيق جبل طارق، فما استطاعت السفن الإسبانية العبور إلاّ بكل حذر.

ولم يزل التحالف العثماني الفرنسي العسكري قائماً(٣).

ثم إن السعديين - بغفلة من العثمانيين، حين رحل أسطولهم إلىٰ إستنبول - استطاعوا بهجوم خاطف السيطرة علىٰ تلمسان في الجزائر، وكانت قاعدة بحرية خطيرة لتهديد الأساطيل الإسبانية والبرتغالية، ولغزو الأندلس(٤).

قامت ثورات متواصلة في المغرب ضد السعديين الخونة بقيادة السلطان عبد الله الغالب بالله (عام ٩٦٥-٩٦٦هـ/ ١٥٥٨م)، وقام بذبحه ثلاثة منهم لرفضهم البيعة بولاية العهد لابنه محمد المتوكل، وتجمعت حشود الجانبين - العثماني بقيادة (حسن)، والسعديين، غير أن ظروف الطرفين لم تسعف بوقوع المعركة(٥).

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٢٩٦، عن (حرب الثلاثمئة سنة)/ ٦١-٦٢

(٢) أخرجه البخاري (٩/ ٢٦، رقم ٢٤١٧).

(٣) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٠٢-٣٠٣، عن (جهود العثمانيين)/ ص٣٨١، واطوار العلاقات المغربية العثمانية/ ص٢١٩، وتاريخ الدولة السعدية/ ٩٠

(٤) المصدر السابق/ ص٣٠١، عن (لسان العرب)، ابو عبد الله السليماني/ ص٩٤، وتاريخ الدولة السعدية/ ص٨٧

(٥) المصدر السابق/ ص٣٠٠، عن (جنود العثمانيين)/ ص٣٨٠، وأطوار العلاقات المغربية العثمانية/ ص١٧، وتاريخ الدولة السعدية، عبد الكريم كريم/ ص٨٦، وحرب الثلاثمئة سنة/ ص٣٧٢

المبحث الثامن

جهود الخليفة سليم الثاني في الإنقاذ: حكم (٨) سنوات

(٩٧٤-٩٨٢هـ/ ١٥٦٦-١٥٧٨م)

تتمثل جهوده في سبيل إنقاذ المسلمين الأندلسيين من الإسبان بما يأتي :

المطلب الأول

الجزائر والوباء

أسند الخليفة منصب القائد العام للأسطول العثماني إلىٰ حسن بن خير الدين، وصار محمد بن صالح الريس بديلاً عنه، عام ٩٧٤هـ/ ١٥٦٧م، فانتشر الوباء في الجزائر، مما حال دون استمرار الحروب، فشغل بمواساة الشعب. غير أن الإسبان ما لبثوا أن هاجموا مدينة الجزائر ففشلوا في احتلالها[١].

تعيين قلج[٢] علي حاكماً للجزائر عام ٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م، ووضع أهدافاً ثلاثة لحكمه:

١- إعادة الحكم الإسلامي في إسبانيا.

٢- تحرير الشمال الأفريقي.

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٠٨، عن (حرب الثلاثمئة سنة)/ ص٣٨٣، ٣٨٥

(٢) قلج : أسند إليه منصب بيلربك الجزائر عام ٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م، عُرف بالعزيمة والبطولة الحربية الشجاعة، وخطط لحكمه أهدافاً ثلاثة خطيرة ذكرها أعلاه، فعُني بقوة الأسطول كميا ونوعا، أعاد تونس للدولة العثمانية بمساعدة الوزير القدير الشجاع (سنان باشا) عام ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م، وقام بمحاولات جريئة لإنقاذ الأندلس. وكانت معركة ليبانتي البحرية ضد الأسطول الصليبي وأظهر فيها بسالة عثمانية، ولكنها انتهت بالخسارة، ولكنه قاد اسطولاً أضخم من الأسطول السابق، وكان مهيباً من قبل خصومه في البحر والبر. المصدر السابق/ ص٣٠٨-٣١٠، ٣٤٤-٣٤٥، عن (المغرب العربي الكبير، جلال يحيىٰ/ ص٨٤، والاتراك العثمانيون في شمال افريقيا، عزيز سامح/ ص٨٤، وتاريخ الجزائر الحديث/ ص٤٩، وتاريخ الجزائر العام/ ٣/ ص٩٦، وتاريخ الجزائر الحديث/ ص٥٠، وجهود العثمانيين/ ص٤٥٧، وتاريخ الجزائر الحديث/ ص٥١

٣- إعادة تونس للحكم العثماني[١].

المطلب الثاني

احتلال العثمانيين لتونس

صمم قلج علي علىٰ ضرورة تصفية القواعد الإسبانية في تونس، قبل أن يبدأ نشاطه في تحرير الأندلس، وكان الإسبان قد اتخذوها نقطة انطلاق ضد العثمانيين، فجهز جيشاً من ٧,٠٠٠ مقاتل زاحفاً علىٰ تونس، فانهزم الأمير الحفصي، وخضعت تونس للعثمانيين، وأخذ (قلج) بيعة أهلها للسلطان (سليم الثاني)، وبقي جزء من تونس بأيدي الإسبان[٢].

المطلب الثالث

فتح قبرص

بجيش كثيف قوامه ١٠٠,٠٠٠ مجاهد، واستعصت عليهم مدينة **(فامجوستا)** الحصينة، ولكنها بعد حصار طويل اضطرت إلىٰ الاستسلام لمجاعة في ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م، وكانت تابعة من قبل للإمبراطورية الكاثوليكية التي اضطهدت سكانها الأرثوذكس، وهجّر إليها السلطان آباء المواطنين المسلمين الذين كانوا يسكنونها، كما هجّر معهم جالية من الأتراك[٣].

المطلب الرابع

معركة ليبانتي البحرية

اهتزت مشاعر أوروبا لهيمنة العثمانيين علىٰ شرق البحر المتوسط واحتلالهم لقبرص، إذ كانت شوكة في المواصلات البحرية العثمانية.

فصرّح البابا بيوس الخامس (١٥٦٦-١٥٧٢م): (إن السلطنة التركية قد تبسّطت تبسّطاً

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٤٤

(٢) المصدر السابق/ ص٣٤٥، عن (الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية/ ص٢٥٠-٢٥١، وحرب الثلاثمئة سنة، ص٤٠٠

(٣) المصدر السابق/ ص٣٣٨، عن (جهود العثمانيين)/ ص٤٤٧، وفي أصول التاريخ العثماني/ ص١٤٦-١٤٧

هائلاً، بسبب نذالتنا)، ودعا إلىٰ حلف أوروبي من: (ملك إسبانيا وجمهورية البندقية، وبعض الإمارات الإيطالية، وتوسكاني، وجنوه، وسافوي والنمسا)، وانضمت إليه فرنسا، بنقض عهودها مع العثمانية، واختير (دون جوان) النمساوي، قائداً للحملة البحرية، وكان أحد بنود هذه المعاهدة هو إعلان الحرب الهجومية والدفاعية علىٰ الأتراك، لاسترداد جميع المواقع التي اغتصبوها، ومنها (تونس والجزائر وطرابلس)[١].

كانت المعركة في جنوب البحر الأدرياتيكي - قرب ليبانتو، التي سميت المعركة بها. احتدمت المعركة عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م، وبعد قتال ضارٍ شرس من الجانبين، فقد المسلمون (٢٠٠٠٠ - ٣٠٠٠٠) مجاهد، وخسروا (٢٠٠) سفينة حربية، نصفها غرق، والباقي غنمه العدو، ونجا (قلج علي) بأكثر سفنه، مع غنيمته لسفينة تحمل علم البابا، فاستقبله السلطان، ومنحه رتبة قائد البحرية العثمانية (قبودان باشا)، مع الاستمرار في منصبه (كبيرلبك) للجزائر، وهو أعلىٰ لقب لحاكم[٢].

صدىٰ الانتصار لدىٰ البابا: امتدح قائد الحملة (دون جوان) بأنه المعني ببشارة الإنجيل حين قال: (بشرّ بمجيء رجل من الله يدعىٰ يوحنا)، وهو الابن غير الشرعي (ابن حرام، ابن زنىٰ)[٣]!

ثم إن البابا كتب إلىٰ الصفويين، عن طريق الشاه طهماسب: (لن تجد أبداً فرصة أحسن من هذه الفرصة للهجوم علىٰ العثمانيين، إذ هم عرضة للهجوم عليهم من جميع الجهات)، كما أرسل إلىٰ ملك الحبشة وإمام اليمن لنفس الغرض[٤].

صدىٰ الانتصار لدىٰ أوروبا النصرانية: جميع الدول أقامت الاحتفالات الدينية والزينة،

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٣٩، عن (حرب الثلاثمئة سنة)/ ص٣٩٦، وتاريخ الدولة العثمانية/ ١٢٥، وجهود العثمانيين/ ص٤٥٢

(٢) المصدر السابق/ ص٣٤٠، عن (حرب الثلاثمئة سنة)/ ص٣٩٦، ٣٩٨-٣٩٩، وتاريخ جهود العثمانيين/ ص٢٥٤، وتاريخ الدولة العثمانية/ ص١٢٦

(٣) المصدر السابق/ ص٣٤١، عن (أصول التاريخ العثماني)/ ص١٤٧، وفلسفة التاريخ العثماني/ ص١٤٣

(٤) المصدر السابق، عن (تاريخ الدولة العثمانية/ ص١٢٦

تشفياً بأول انخذال للأسطول العثماني، الذي كان مرعباً لأساطيلها وملاحتها في البحر المتوسط[١].

تقدم سفير فرنسا لدىٰ السلطان بطلب ترخيصه لها، ببسط نفوذها علىٰ الجزائر، بدعوىٰ الدفاع عن حمىٰ الإسلام والمسلمين، مقابل دفع مبلغ مالي ضخم، فأعرض السلطان، غير أنها بإلحاحها المتواصل استطاعت الحصول علىٰ موافقة إقامة مراكز تجارية فيها[٢].

المطلب الخامس

إعادة بناء الأسطول العثماني

خلال سنتين، وبهمّة السلطان وقلج علي باشا، أمير البحر، أنشأت الدولة العثمانية (٢٥٠) سفينة جديدة، فارتاعت البندقية من هذا الأسطول الضخم الذي تبختر في البحر المتوسط، وطلبت الصلح مع العثمانيين، بتنازلها عن جزيرة قبرص، ودفع غرامة بحرية (٣٠٠,٠٠٠) دوكة[٣].

المطلب السادس

تونس (احتلال الإسبان لها ثم استرجاعها)

١ - **احتلال الإسبان لتونس**: كان يحكمها السلطان الحفصي، فوجه إليه فيليب الثاني، طلباً بتنازله عن عنابة وبنزرت، مقابل إخماد فيليب للثورات فيها، فرفض حاكمها أبو العباس، وقبلها أخوه محمد، فخرج (دون جوان) بأسطوله المؤلف من ١٣٨ سفينة تحمل (٢٥,٠٠٠) مقاتل من جزيرة صقلية في ٩٨١هـ/ ١٥٧٣م، فاحتلها مباغتة، وفرّ أهلها بدينهم، من شرّ الإسبان[٤].

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٤٢، عن (جهود العثمانيين)/ ص٤٥٥، وفلسفة التاريخ العثماني/ ص١٤٣

(٢) المصدر السابق/ ص٣٤٢، عن (تاريخ الجزائر العام)/ ٣/ ص٩٧-٩٨

(٣) المصدر السابق/ ص٣٤٣، عن (حرب الثلاثمئة سنة)/ ٣٣٩، وجهود العثمانيين/ ص٤٥٦

(٤) المصدر السابق/ ص٣٤٣، عن (جهود العثمانيين)/ ص٤٥٧، وحرب الثلاثمئة سنة/ ص٣٩٩-٤٠٠

٢- استعادة العثمانيين لتونس: أصدر السلطان أوامره السريعة والحازمة إلىٰ وزيره سنان باشا، وأمير البحر قلج علي باشا بالاستعداد لاسترجاع تونس، وتهيأت (٢٨٣) سفينة، وبينما يتأهب الأسطول، حشد الحاكم العثماني حيدر باشا، في تونس المجاهدين الذين التفوا حوله في القيروان، استعداداً لمنازلة العدو[١].

أبحر الأسطول العثماني في ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م، ضرب في طريقه ساحل صقلية، واستولىٰ علىٰ سفينة نصرانية، ووصل إلىٰ تونس في خمسة أيام، ووصلت نجدات من الجزائر بقيادة رمضان باشا، ومن طرابلس بقيادة مصطفىٰ باشا، ومن مصر[٢]. وبدأت المعركة البرية والبحرية، وانتهت بمحاصرة تونس والاستيلاء عليها، واستمرت المعارك القاسية التي اشترك فيها الوزير سنان، يقاتل بنفسه وينقل الحجارة والتراب علىٰ ظهره مثل الجنود، وهكذا قادة الجيش العثماني وجنودهم المجاهدون الصادقون في جميع حروبهم، **وكان يقول لجنوده: لا تحرموني من ثواب المشاركة!**. وبذا ضاع أمل الإسبان في إقامة دولة لهم في شمال إفريقيا[٣].

المطلب السابع

محاولات الدولة العثمانية في إنقاذ مسلمي الأندلس، وفي استعادتها في أكبر ثورة

وصلت أخبار الحروب البرية والبحرية في الشمال الإفريقي إلىٰ المسلمين في الأندلس، وشعروا بأنها تمهيد لإنقاذهم، مما شجعهم علىٰ التأهب للثورة، ثأراً لما مضىٰ من قتل وتنكيل بهم علىٰ يد النصارىٰ، من مذابح وحرق وانتهاك أعراض واسترقاق، مضافاً إليها الحقد الكامن في كل مسلم في الأندلس الذي يشعر بضياع كرامته ودينه وعرضه وحريته وماله

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٤٤، عن (تاريخ الجزائر الحديث)/ ص٥١، وأطوار العلاقات المغربية العثمانية/ ص٢٨٠، وجهود العثمانيين/ ٤٥٨

(٢) المصدر السابق/ ص٣٤٥، عن (الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية)/ ص١٥١، ٢٥٤، وحرب الثلاثمئة سنة/ ص٤٠٠

(٣) المصدر السابق/ ص٣٤٥، عن (تاريخ الجزائر الحديث)/ ص٥١

وداره وحياته، فانتشرت روح الثورة في كل نفس وشعرت الحكومة الإسبانية بذلك فشكلت ميليشيات تقيم في كل مدينة توقعاً للطوارئ، وتلقىٰ مسلمو الأندلس مساعدات عثمانية، مما أدىٰ إلىٰ تفجير أكبر ثورة في الأندلس بعد محاكم التفتيش (ثورة حرب البورشارات) عام ٩٧٥هـ/ ١٥٦٨م، غير أن السلطان السعدي الغالب بالله، كذب علىٰ أهل الأندلس بوعود معسولة بتقديم ما تحتاجه الثورة من عتاد وسلاح ورجال، وهو علىٰ علاقات وثيقة بفيليب الثاني، وبذا عمل علىٰ خذلان الثورة ونكبتها في مهدها، بعد الاستعدادات الهائلة من قبل الدولة العثمانية بالمعارك البرية في الشمال الأفريقي، والمعارك البحرية في البحر المتوسط. فانتبهت الدولة الاسبانية لذلك، واستعدّت لمواجهة الثورة لاسيما بعد عجز الإسبان عن تحويل المسلمين إلىٰ المسيحية، بشتىٰ الوسائل، وبعد حرمانهم من التحدث بلغتهم العربية والاتصال بالشمال الأفريقي، كما حرّموا علىٰ نسائهم الخروج إلىٰ الشارع متحجبات، مما أدىٰ إلىٰ تفجّر ثورة (البورشارات المسلحة)، وهي أخطر ثورة مسلحة، بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م، بثلاثة أرباع القرن، بزعامة (محمد بن أمية)، وكان معه من المجاهدين أكثر من (١٥٠,٠٠٠)[١] مجاهد عام ٩٧٦هـ/ ١٥٦٩م، غير أن أمير المغرب السلطان السعدي الغالب بالله، خانهم، تقرّباً إلىٰ الإمبراطور الإسباني فيليب تخوفاً من هيمنة الدولة العثمانية المسلمة علىٰ بلاده[٢].

خيانة السلطان السعدي الغالب بالله لمسلمي الأندلس:

بذل السلطان السعدي الوعود المعسولة لرسل الثوار البورشارات، ووعدهم بالنصر، وتقديم جميع حاجاتهم من عتاد وسلاح ورجال، مع محافظته علىٰ روابطه الودية مع فيليب الثاني ملك الاندلس.

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣١١، عن (محنة المرسكيين في اسبانيا)، محمد قشتيليو/ ص٣٣-٣٥

(٢) المصدر السابق/ ص١، عن (محنة المورسكيين في اسبانيا)، محمد قشتيليو/ ص٣٣-٣٥، وتاريخ الدولة السعدية، لمؤلف مجهول/ ص٣٧-٣٨، وجهود العثمانيين/ ٣٩٨

أما السلطان قلج علي أمير الجزائر وأمير البحر، فقد أمدّ الثوار بالرجال والسلاح والعتاد، وجمع ١٤٠٠٠ رجل من رماة البنادق، و٦٠٠٠٠ مجاهد، أرسلهم إلىٰ مدينتي (مستغانم ومازعران) في الجزائر، استعداداً للهجوم علىٰ وهران، ثم النزول في بلاد الأندلس، وكان يرافق ذلك الجيش عدد كبير من المدافع وأربعمئة بعير محملة بالبارود الخاص بالمدافع والبنادق، واتفقوا علىٰ موعد الثورة، حين وصول القوات الإسلامية السواحل الإسبانية، غير أن الثورة لن تقع في الموعد المحدد لها، بسبب فشل الجيوش العثمانية والجزائرية في استرداد وهران، تمهيداً للانقضاض علىٰ الإسبان، ووصلت (٤٠) سفينة من الأسطول العثماني أمام مرسىٰ الميرة الإسباني، لنجدة الثوار ساعة نشوبها، ولكنّ أحد رجال الثورة انكشف أمره، فداهمه الإسبان وضبطوا ما كان يخفيه من سلاح، بعد أن أنزل قلج علي السلاح والعتاد والمتطوعين في الساحل الأندلسي، فضاعت بذلك فرصة مفاجأة الاسبان[١].

وكانت الثورة والإنزال البحري الذي قام به قلج علي في شعبان ٩٧٦هـ/ يناير ١٥٦٩م ببعث أسطول الجزائر لتأييد الثائرين في محاولتهم الأولىٰ، في الشتاء والزوابع علىٰ أشدَّها، فأُغرقت (٣٢) سفينة جزائرية، بما فيها من رجال وسلاح، وتمكنت (ست) سفن من إنزال شحنتها فوق السواحل الأندلسية، وكانت تحمل المدافع والعتاد والمجاهدين، فأنزلت - رغم العواصف العاتية ٤٠٠٠ مجاهد من رماة البنادق، مع ذخائر كبيرة، وقيادات عثمانية[٢]، ثم عاد العثمانيون إلىٰ دعمها بالرجال والسلاح (٩٧٧هـ/ ١٥٧٠م)، وكان (السلطان قلج) عازماً أن يقود الثورة بنفسه بعد أن تلقىٰ أمراً من السلطان سليمان القانوني بالتنفيذ، وان

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣١٢، عن (حرب الثلاثمئة سنة)/ ص٣٩٢-٣٩٣، والدولة العثمانية دولة إسلامية مفترىٰ عليها/ ٢/ ٩٢٦، وجهود العثمانيين/ ٣٩٩

(٢) المصدر السابق/ ص٣١٣، عن (حرب الثلاثمئة سنة)/ ص٣٩٣-٣٩٤

الغفلة عن انقاذ المسلمين وعن الكفار غير جائزة شرعـًا، وكان زعيم الثورة في الأندلس ابن أمية، ولكنه تأخرّ فهاجمه المتآمرون وقتلوه، وعينوا بدله عبد الله بن محمد، فنجح الثوار المسلمون في تطويق مدينة (أرجيه) في الجنوب(١)، فباشر الإسبان بقمع الثورة، بالابن غير الشرعي لإمبراطور إسبانيا شارل - المأبون - النمساوي القائد للأسطول الإسباني (٩٧٧-٩٧٨هـ/ ١٥٦٩-١٥٧٠م)، فذبح النساء والأطفال أمام أعين الآباء، وأحرق الدور، وكان شعاره (لا هوادة)، وأتوا بما لا يوصف من الفظائع، فهدأت الثورة لحين، ثم أعاد الكرّة قائدها الأول مولاي عبد الله، فتمكن الإسبان منه بحيلة وقتلوه، وقطعوا رأسه، ونصبوه فوق أحد أبواب غرناطة لمدة طويلة، لإرهاب المسلمين(٢).

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣١٤، عن حرب الثلاثمئة سنة)

(٢) المصدر السابق/ ص٣١٤،

المبحث التاسع

جهود الخليفة مراد الثالث في إنقاذ الأندلس: حكم (٢٢) سنة (٩٨٢-١٠٠٣هـ/ ١٥٤٥-١٥٩٤م)

كانت آخر محاولات استرداد الأندلس قد جرت في زمانه، حتىٰ نهاية الألف الهجري، وبعد قرن من فناء الأندلس، غير أن الخيانة والغدر بالأندلس كانت من قبل السلطان المغربي المنتسب زوراً إلىٰ العروبة والإسلام محمد المتوكل السعدي، هو وأولاده!![1]

المطلب الأول

السلطان المغربي الخائن السعدي

اتفق مع ملك البرتغال علىٰ أن يعينه علىٰ طرد عمه عبد الملك، ويتنازل له مقابل ذلك عن جميع شواطئ المغرب! أية خيانة غدر بالوطن وبالأندلس الذي يستغيث أهلها من الجوع والاغتصاب والتنصير والموت!![2]

بعدما حدث من محاولات جادة وحوادث مفجعة في عهد الخليفة (سليم الثاني) لاسترداد الأندلس، رغم انشغاله بحروب خطيرة في القارات الثلاث، ضد الشيعة الصفويين في إيران، و(الهابسيرج)، وسط أوروبا، بالإضافة إلىٰ واجبها نحو حماية مقدسات الأمة الإسلامية في الحجاز وتدعيم حزامه الأمني[3]، فإن خليفته - ابنه مراد الثالث - واصل جهوده الجهادية بإصرار، وكانت آخر عقبة قبل البدء بالهجوم علىٰ الأندلس، هو صدّ الغزو

(١) ألبوم العثمانيين/ ٥٥

(٢) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص ٣٢٩، عن (تاريخ الجزائر الحديث)، الجيلاني/ ص١٠١

(٣) المصدر السابق/ ص٣٣٠، عن (جهود العثمانيين)/ ص٥٣٢

الأوروبي الكثيف عن المغرب، وتفصيله كما يأتي[١]، فقد عقد السعدي معاهدة مع إنكلترا لشراء السلاح والعتاد الحربي منها ضد عمه وضد العثمانيين[٢].

محاولة العثمانيين في الإنقاذ :

جهّز الوالي العثماني في الجزائر (قلج علي ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م) جيشاً لمحاربة إسبانيا فوق أرضها، فنزل المجاهدون المسلمون في برشلونة، فأعملوا فيها تدميراً، ثم عبروا مضيق جبل طارق، وهاجموا جزر الكناري التي تحتلها إسبانيا، فدمروا المركز العسكري، وغنموا ما فيها، ولم يكن الأسطول العثماني يذهب للأندلس لمجرد التنكيل بالإسبانيين، ولتدمير منشآتهم، فحسب بل كان بالدرجة الأولىٰ لإنقاذ المسلمين من نكبتهم، وتعرض المجاهدون أثناء ذلك لمعارك قاسية، وهزائم أحياناً ومجازر رهيبة[٣].

تطاول الانكشارية في الجزائر في التمرد، في حين انصرف المجاهدون في الأندلس يجاهدون، فانتصب (حسن فنريانو) في نشاطه البحري آمراً علىٰ الجزائر (٩٩١هـ/ ١٥٨٣م)، ولم يعارض الباب العالي في توليه، لرجاحة عقله في حسم الخلاف واستتباب الأمن.

واستمر (حسن) في الجهاد في السواحل الإسبانية والجزر الشرقية الثلاث، وكسب المغانم والنفائس والأسرىٰ[٤]، وفي عام ٩٩٢هـ/ ١٥٨٤م أبحر حسن فنريانو بأسطوله علىٰ ثغر بلنسية، وحمل أعداداً كبيرة من مسلمي الأندلس، إذ انقذهم من الإسبان، كما استطاع في السنة التالية إنقاذ جميع سكان كالوسا، إذ حملهم إلىٰ الجزائر، وفي السنة بعدها توغل مراد رايس في المحيط الأطلسي، وأغار علىٰ جزر الكناري، وغنم منها غنائم كثيرة بما فيها زوجة حاكم الجزر[٥].

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٢٩-٣٣٠، عن (المغرب في عهد الدولة السعدية)/ ص١١٢، وتاريخ الجزائر، الجيلاني/ ١٠١

(٢) المصدر السابق/ ص٣١٥، عن (بداية الحكم المغربي في السودان الغربي)/ ص٩٤

(٣) المصدر السابق/ ص٣٣٠، عن (الجزائر والحملات الصليبية)/ ٥٩

(٤) المصدر السابق/ ص٣٣١، عن (تاريخ الجزائر الحديث)/ ص٥٩

(٥) المصدر السابق/ ص٣٣١، عن (تاريخ الجزائر العام)، الجيلاني/ ٣/ ص١٠٢-١٠٣

ثم كافأه السلطان مراد الثالث بمنصب إمارة البحر، بعد وفاة قلج علي (٩٩٥هـ/ ١٥٨٧م)[١].

كان الصراع في المغرب بين محمد المتوكل السعدي، ومعه جيوش ملك البرتغال (سبستيان)، وبين عمه المخلص لبلاده وللعثمانيين (عبد الملك)، الذي كان علىٰ ثقافة عالية وحكمة، واستغاث بالخليفة، فأمدّه بفيلق عسكري متميز من ٥٠٠٠ مقاتل مسلح بأحدث السلاح، فدخل فاس بعد أن احرز نصراً كبيراً علىٰ ابن أخيه المتوكل، ثم عاد الجيش ادراجه إلىٰ الجزائر، ثم وقعت المعركة الطاحنة للعدو: (وادي المخازن - أو معركة الملوك الثلاثة، أو معركة القصر الكبير)

المطلب الثاني

معركة وادي المخازن

كان محمد المتوكل بعد هزيمته من عمه عبد الملك قد اتصل بملك البرتغال سبستيان، واتفق معه علىٰ أن يعينه علىٰ طرد عمه من حكم المغرب، وأن يتنازل له مقابل ذلك عن جميع شواطئ المغرب، فقبل سبستيان هذا العرض المغربي[٢].

بينما محمد المتوكل الخائن بانتظار تنفيذ وعد البرتغال، أرسل العثمانيون مدربين مع أسلحة منوعة، مع فيلق عسكري - لدعم عبد الملك في حربه بمعركة وادي المخازن[٣].

جهز العدو ألف مركب لنقل ١٢٥٠٠٠ جندي[٤]، من الإسبان والبرتغال والطليان والألمان، بكافة سلاحهم وذخائرهم إلىٰ المغرب، ومعهم محمد المتوكل الخائن

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص ١٣٣ .

(٢) المصدر السابق/ ص٣١٧، عن (تاريخ المغرب)، محمد بن عبود/ ٢/ ص١٩

(٣) المصدر السابق/ ص٣١٧، عن (جهود العثمانيين)/ ص٤٧١

(٤) المصدر السابق/ ص٣٢٠، عن (وادي المخازن)/ ص٥٦، وقيل ١٢٥,٠٠٠، وقيل ٨٠,٠٠٠ مقاتل، عن (الاستقصاء)/ ٥/ ص٦٩

بشرذمة ما بين ٣٠٠-٦٠٠ رجل، وهيأ (عبد الملك) من خلال نداء الجهاد (٤٠,٠٠٠ مجاهد)، مع تفوّق في الخيل والمدفعية، وارتفاع في المعنويات والخبرة العسكرية، والقيادة العثمانية الحكيمة[١].

كانت المعركة صباح الاثنين (٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م)، استمرت لمدة أربع ساعات وثلث، وسبقتها خطب إيمانية، وتدفق العلماء بين المسلمين، يلهبون الجهاد، وكانت الخطب الإيمانية على أشدها إثارة للجند الإسلامي، أما العدو، فقد أسهم الرهبان والقسس بنقل رسائل البابا في حطّ الذنوب عن الجيش المقاتل، وأن مفاتيح الجنة ستكون بأيديهم إذا ماتوا في الحرب! أظهر عبد الملك وأخوه العباس والقادة العثمانيون عبقرية فذه في المعركة[٢].

بدأت الحرب بطلقات نارية، إعلانـًا لبدئها، وبدأ السلطان عبد الملك يردّ هجومهم متقدمـًا جنده، شاهراً سيفه، ولكن المرض الذي رافقه ألجأه إلىٰ خيمته، ففاضت روحه، وهو واضع سبابته في فمه مشيراً إلىٰ كتمان أمر موته عن الجند، حتىٰ يتم النصر، وقد كان، ولم يعلم بموته أحد، إلا أخوه أحمد المنصور الذي قاد مقدمة الجيش، وحاجبه الذي كان يقول: إن السلطان يقول: كذا وكذا، وهو ميت! وكانت المعركة علىٰ أشدّها حتىٰ انهار العدو، فهرب إلىٰ القنطرة، فإذا هي مهدمة بأمر من عبد الملك، فألقىٰ العدو نفسه في النهر، فمنهم من غرق، ومنهم من قتل، ومنهم من أُسر، وقتل (سبستيان) مع ألوف معه، وغرق الخائن (المتوكل) في نهر وادي المخازن[٣].

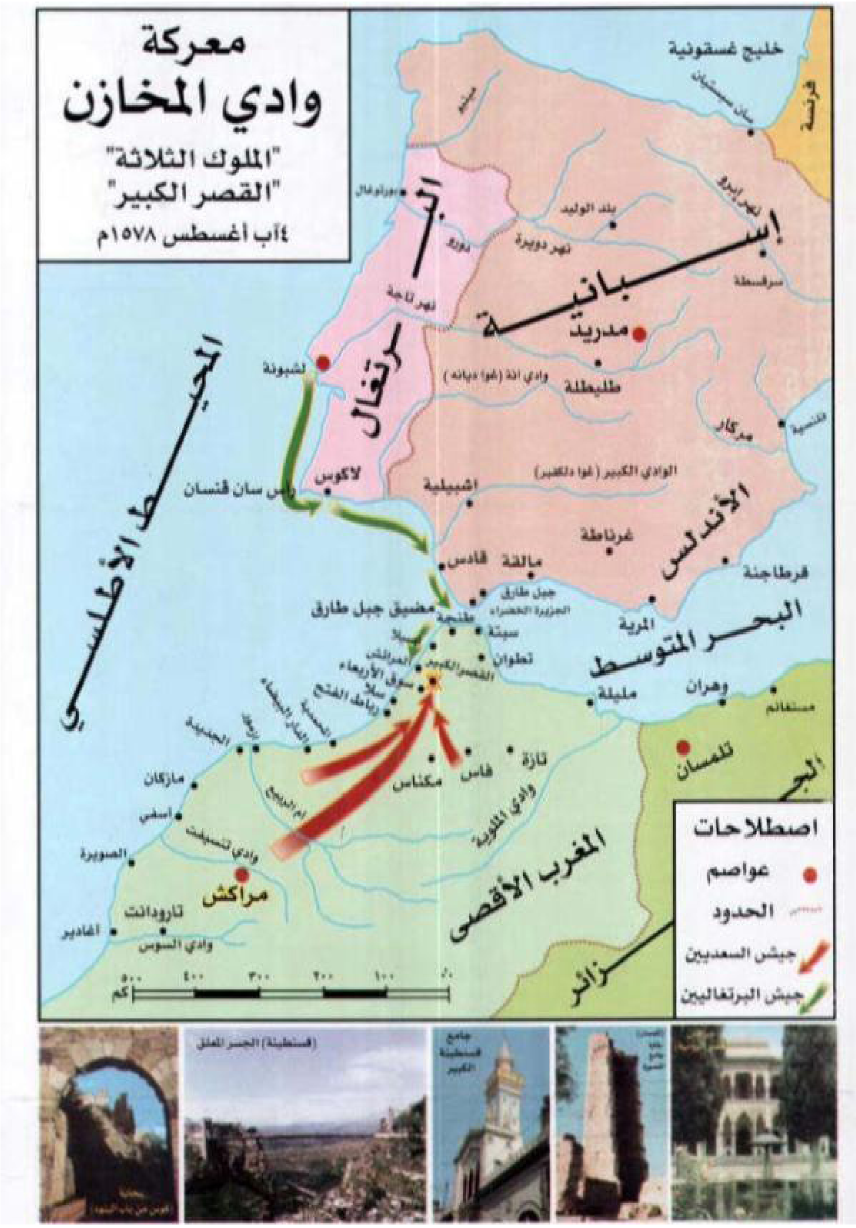
---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٢١، عن (وادي المخازن)/ ص٦٢

(٢) المصدر السابق/ ص٣٢٣، عن (وادي المخازن)/ ص٦٦-٦٧

(٣) المصدر السابق/ ص٣٢١، عن (وادي المخازن)/ ص٥٦

١٣٥



معركة وادي المخازن

نتائج المعركة :

وصلت أخبار النصر إلىٰ السلطان (مراد خان الثالث)، وإلىٰ العالم الإسلامي، شاكرين الله تعالىٰ، ومهنئين للشعب المغربي وسلطانه له بعد عبد الملك أخوه أحمد المنصور بالله، الملقب بالذهبي (٣٠ جمادىٰ الآخرة/ ٩٨٦هـ)، وبويع بعد انتهاء المعركة بميدانها بالسلطان، واشتهرت الدولة السعدية في العالم، وصارت دول أوروبا تخطب ودها، وأرسل ملك إسبانيا والبرتغال الهدايا الثمينة إليها، كما وصلت هدايا الدولة العثمانية، ثم أرسل ملك فرنسا، (وكانت الوفود تصبح وتمسي علىٰ أعتاب تلك القصور)، وانهارت سمعة البرتغال[(١)].

مات في تلك المعركة ثلاثة ملوك: صليبي حاقد (سيبستيان) ملك البرتغال، وملك خائن مخلوع محمد المتوكل، ومجاهد شهيد (عبد الملك المعتصم بالله)[(٢)].

اهتم السلطان أحمد المنصور بالله بالتقدم العلمي، وبجهاز الأمن والاستخبارات والجهاز القضائي، وفصل السلطتين القضائية عن التنفيذية، وجعل مجلس المظالم بجوار قصره، وأمنّ الطرق جميعها بسلام، وطوّر جميع شؤون الدولة بغاية من الدقة والتجاوب مع الشريعة الإسلامية، كما عُني بتطوير الجيش، واقتدىٰ بالعثمانيين فيه، وأسند الوظائف الإدارية والعسكرية إلىٰ الأكفاء، كما اهتم بتطوير المدافع والأساطيل الحربية، واهتم بالطب والصيدلية والعلوم والمناهج الدراسية[(٣)].

واتسعت الدولة السعدية إلىٰ البحر الأحمر، حيث ضمت السودان إلىٰ دولتها[(٤)].

بدأت القوات الإسبانية في اقتحام البرتغال ٩٨٨هـ، وضمتها إلىٰ بلادها واحتلت العاصمة لشبونة ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م[(٥)].

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٢٦، عن (الاستقصاء)/ ٥/ ٩٢، نقلًا عن وادي المخازن/ ص٧٠

(٢) المصدر السابق/ ص٣٢٧

(٣) المصدر السابق/ ص٣٢٦، عن (الاستقصاء)/ ٥/ ٩٢، نقلًا عن وادي المخازن/ ص٢٨-٣٢٩، عن (وادي المخازن)/ ص٤٢-٤٤، وتاريخ عصر النهضة الأوروبية، نور الدين حسام/ ص٤٥٦-٤٥٨

(٤) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص ٦٢٣

(٥) المصدر السابق/ ص٣٢٩، عن (تاريخ الجزائر الحديث)، محمد خير فارس/ ص٥٢

صدرت الأوامر السلطانية العثمانية إلىٰ السلطان قلج علي بالتحرك بأسطوله المؤلف من ٣٠٠ غراباً (سفينة حربية) وجيش بخبرات منوعة، ليستفتح بها بلاد الأندلس[١]، من الجزائر إلىٰ المغرب، لضمها إلىٰ الدولة العثمانية، تمهيداً لاحتلال إسبانيا، فتصدىٰ لها الأسطول المغربي، وقواته البرية علىٰ الحدود، متفقاً مع الإسبان عسكرياً بتقديمهم المساعدات العسكرية للمغرب، لمواجهة التدخل مقابل التنازل عن مدينة (العرائش)، وامتيازات أخرىٰ للإسبان في المغرب، وهذه الخيانة الثانية لسلطان المغرب السعدي المنتصر علىٰ العدو، تم الحليف له طمعاً بالعرش أن يزيحه عنه العثمانيون في بلده المغرب، استعد السلطان المغربي السعدي لمواجهة التدخل العثماني، واتجه بجيوشه إلىٰ الحدود، وسدّ مدخل مملكته وحصن الثغور[٢].

تراجع الأسطول العثماني لئلا تهرق قطرة دم مسلم، وتوجه إلىٰ المشرق الإسلامي لمحاربة الصفويين في إيران، وحماية المقدسات الإسلامية في الحجاز، وتدعيم حزامه الأمني، كما توجه إلىٰ وسط أوروبا لمواجهة قوات بولندا والنمسا والمجر[٣].

المطلب الثالث

انفراد الجزائر في دعم مسلمي الأندلس

جهز الوالي العثماني في الجزائر عام ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م، أسطوله فنزل المجاهدون المسلمون في برشلونة، فدمروا الكثير، ثم عبروا مضيق جبل طارق وهاجموا جزر الكناري التي كانت تحت سيطرة إسبانيا، ثم تعرّض المجاهدون لمعارك قاسية وهزائم[٤].

وكان لسلوك الجيش الإنكشاري في الجزائر أثره في وضع العقبات إزاء إنقاذ مسلمي

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٢٩، عن المصدر السابق/ ص٥٢

(٢) المصدر السابق/ ص٣٢٩، عن المصدر السابق/ ص٥٢

(٣) المصدر السابق/ ص٣٣٠، عن (المغرب في عهد الدولة السعدية)/ ص١١٢، وتاريخ الجزائر، الجيلاني/ ص١٠١

(٤) المصدر السابق/ ص٣٣٠، عن (الجزائر والحملات الصليبية)/ ص٥٩

الأندلس، في الوقت الذي انصرف رجال البحر في جهادهم البحري علىٰ نطاق واسع، مما حمل الوالي (حسن) علىٰ العودة إلىٰ الجزائر، وفرض طاعته عام ٩٩١هـ[(١)].

وفي عام ٩٩٢هـ/ ١٥٨٤م أبحر الوالي حسن بأسطوله متوجها إلىٰ ثغر (بلنسية)، وأنقذ أعداداً كبيرة من مسلمي الأندلس، كما أنقذ عام ٩٩٣هـ جميع سكان (كالوسا) إلىٰ الجزائر، وبعدها في ٩٩٧هـ/ ١٥٨٥م أغار علىٰ جزر الكناري في المحيط الأطلسي، وغنم الكثير مع زوجة حاكم الجزر، ثم استدعاه السلطان مراد الثالث، ليتولىٰ منصب إمارة البحر، بعد وفاة (قلج علي عام ٩٩٥هـ - ١٥٨٧م)، وعيّنه عليها باشا لمدة ثلاث سنوات[(٢)].

ثم إن ضعف نية الدولة العثمانية في استرداد الأندلس، بسبب موقف الدولة السعدية، خيانة منها لأهل الأندلس في اتفاقها مع الإسبان ضد العثمانية، وبسبب كره الشعب الجزائري للجيش الإنكشاري العثماني، وبسبب وفاة القائد الشجاع قلج علي ١٥٨٧م، وبسبب تحوّل الجزائر إلىٰ ولاية كطرابلس وتونس بعد أن كان الشمال الأفريقي كله تحت مسؤولية البيلربيك المقيم في الجزائر[(٣)].

وبذا بقي مسلمو الأندلس منذ ذلك التاريخ (١٠٠٠هـ) تقريباً، بعزلة تامة، امّحىٰ بعده صوت الإسلام والمسلمين فيها إلىٰ الأبد! بعد قرن من القضاء علىٰ مملكة غرناطة المسلمة في الأندلس.

آخر محاولة لإنقاذ المسلمين من الأندلس :

أرسل الديوان عام ١٦١٠م ، الحاج إبراهيم آغا إلىٰ لندن سفيراً فوق العادة ، ولقد كان الغرض الحقيقي من ذهابه إلىٰ أوربا هو جميع الأندلسيين الذين لم يتمكنوا من الوصول إلىٰ شمال افريقيا ، ولجؤوا إلىٰ غرب أوربا ، والذين كان أكثرهم في عداد العبيد، جمع العائلات التي تمكن من العثور عليها ، ونقلها إلىٰ الأراضي العثمانية) تاريخ الدولة العثمانية / ٤٥٤ .

---

(١) الدولة العثمانية، الصلابي/ ص٣٣١، عن (تاريخ الجزائر الحديث)/ ص٥٩

(٢) المصدر السابق/ ص٣٣١، عن (الجزائر العام)، الجيلاني/ ٣/ ص١٠٢-١٠٣

(٣) المصدر السابق/ ص٣٣٢، عن (المغرب العربي)، العقاد/ ص٢٨، وجهود العثمانيين/ ص٤٧٧

الخَاتِمَة

من الإعجاز الإلهي نشأة الخلافة العثمانية المجاهدة بسلاطينها وشعبها الذين بدأت نشأتهم في رعي الغنم ليتسارعوا بعدها إلىٰ قمم المجد في الأنضول، خلال ثلاثة قرون، افتتحت خلالها القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومية الشرقية لمدة ١١٥٠ سنة، وكانت أحصن مدن العالم، فتحها السلطان الفاتح (عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م) قبل ٥٧٠ سنة هجرية.

واستمرت الدولة العثمانية المسلمة في صعود القمم، حتىٰ انتهت إلىٰ حكم أوسع رقعة في عمر التاريخ الإسلامي، بما تشمل أكثر من (٤٥) دولة من دول هذا القرن في القارات الثلاث، مكافأة لهم علىٰ إخلاصهم لرب العالمين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾(١)، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(٢).

تلك سنة الله في قوانين الحياة التي تحكمها ؛ قال تعالىٰ : ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾(٣)، ولقد كان الله معهم بالقدر الذي كانوا معه ، مع زيادة كرمه ﷻ لهم ؛ وقال تعالىٰ أيضـًا : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾(٤). وفي الأثر: (مقامك عند ربك كمقام ربك في قلبك)، لقد كان جميع الخلفاء في العصرين الأول والثاني (١٤) يقودون الجيوش في (٣٢٥) من السنوات الأولىٰ في النصف الأول من عمر الخلافة العثمانية حتىٰ انتهت إلىٰ حكم (٢٠,٠٠٠,٠٠٠)كم٢، أما النصف الثاني من عمر الخلافة فظهر (٦) خلفاء من أصل (١٤) يقودون الجيوش ومنهم (٧) مجاهدون، كما ظهر (١) خليفة واحد في عصر السقوط من أصل (٩) يقود الجيش ، ومنهم (٣) مجاهدون ومعلمون وصالحون ، وبقي (٦) منهم (٣) ما بين مجنون وفاسق و(٣)

---

(١) سورة الأنبياء/ ٩٠

(٢) سورة العنكبوت/ ٦٩.

(٣) سورة الأحزاب/ ٦٢

(٤) سورة محمد/ ١٧

في نهاية الخلافة لا رأي لهم ، وكان من الخلفاء في عصر الضعف والسقوط مسرفون وفاسدون وضعفاء لايتجاوزون أصابع اليد الواحدة من غير (٦) الأخيرين .

وحين خف ميزان الدِّين لدىٰ بعض الخلفاء والصدور، وهزل تدين الجيش وخضعت الدولة لضغوط الدول النصرانية والمنظمات اليهودية والماسونية، وتخلفت عن مواكبة العصر في التقدم الحضاري - الصناعي والعسكري والعلمي والتربوي والسياسي والاقتصادي، حينئذ غُلِبت علىٰ أمرها، ولم ينفعها الإيمان وحده، لاسيما إيمان الدراويش، والتقليد المذهبي الأعمىٰ.

فاجتمع الانحراف عن الدين الخالص إلىٰ تحالف دول الكفر عليها والغدر بها، حتىٰ زاغت قلوب بعضهم في أواخر عصر الضعف وفي عصر السقوط، عن هدي الله إلىٰ الخضوع للغرب والعلمنة ، فغيّرت القوانين ، وانتشرت الخمور والفجور: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[1]، ولم يكن هذا الانحدار سريعـًا، بل استمر قرنين من الزمن بسبب عمق الإيمان لدىٰ عموم الشعب، ولدىٰ الكثير من الخلفاء الأتقياء المجاهدين، ولدىٰ أغلبية الجيش المجاهد، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ الخليفة الحازم الورع عبد الحميد الثاني، الذي استرد هيبة الخلافة، وحال دون السقوط بلطف الله وقدره، ثم حكمته وقوة جيشه وأساطيله، وهيمنته علىٰ الدولة ثلث قرن، انتهىٰ بإقصاء اليهود له، بسبب إصراره علىٰ التمسك بفلسطين، ثم كان الانهيار بعده بـ(١٥) سنة ! وإعلان إلغاء الخلافة الإسلامية !

غير أن الأمة التركية مازالت تموج هي وشعبها بروح الإسلام ، رغم ما تركه أتاتورك والماسون واليهود والدول النصرانية من آثار خطيرة عليها ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

لقد استمات الأتراك في الدفاع عن المضايق، حين حاول الحلفاء احتلالها، في حروب الاستقلال، بجهاد أثار إعجاب العالم، وضحّوا بربع مليون مجاهد مقابل ١٢٠٠٠٠ قتيل

(١) سورة الصف/ ٥

(٢) سورة يوسف/ ٢١

من القوات البريطانية واليونانية.

وهكذا أراد العالم الغربي للمسلمين - أتراكـًا وعربـًا أن يكونوا بمهانة وطاعة عمياء لهم، وما تحقق ذلك إلا بانسلاخهم من دينهم، إذ هو العقبة الكؤود إزاء مصالحهم وأحقادهم: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[1]، إنه الصراع الرهيب بين الإيمان والكفر، وبين المجاهدين والطغاة، ولن ينتصر الباطل إلا بغفلة الحق وأهله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[2].

(١) سورة البروج/ ١٠

(٢) سورة الأنبياء/ ١٨

العِبَر من الكتاب

إن العبر التي نستقيها من الكتاب خطيرة، علينا أن نضعها في بؤرة الذاكرة وسويداء القلب، نهتدي بها في تفسير التاريخ الماضي والحاضر، والتنبوء للمستقبل، وقوانين الحياة خالدة تحكم البشر مادامت الحياة : ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[(١)].

١ – لقد نصر الله الخلافة العثمانية بسلاطينها وجيوشها وأمتها علىٰ سائر أعدائها، حين التزمت بنظام الله ودستوره: ﴿ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز)[(٢)]، نصرها في الحروب ضدّ أعدائها من الكفار - النصارىٰ، ومن المنافقين مدعي الإسلام - عملاء الغرب - الصفويين وملك المغرب السعدي الذي حال دون فتح الأندلس من جديد بقوات عثمانية ومئات السفن علىٰ السواحل !

٢– كان للوعي الجهادي الذي يقوده السلاطين والخلفاء في عمر الدولة، لاسيما في القرون الثلاثة والربع الأولىٰ، في العصرين الأول والثاني كما كان الخلفاء و الصدور والعلماء والوزراء يقودون الجيوش في القرون الثلاثة والربع الأخيرة في عصري الضعف والسقوط، بما أثّر في قوة الجيوش التي فتحت أوسع رقعة في عمر الإسلام ٢٠٠٠٠٠٠٠كم^{٢}، وكان للعلماء هيمنة علىٰ الدولة وجيشها ولا سيما المفتي الذي يعين الخلفاء ويعزلهم ويعلن الحروب ، بما حملها علىٰ نصرة الإسلام في قرونها الستة والنصف من حكمها.

٣– كثُرت التمردات الموجهة من الدول الأوربية جميعها النصرانية ، واليهود والماسونية ، حين ضعف الوازع الديني لدىٰ بعض الخلفاء والجيش - لاسيما الإنكشاري المتمرد، وبسبب ضعف الحكام والصدور الذين كانوا يعدون علىٰ أصابع اليدين إضافة إلىٰ الخلفاء الخمسة الذين لا رأي لهم إما لخلل عقلي ، وإما لمنعهم من قبل كمال أتاتورك وهم

(١) سورة الاحزاب/ ٤٣

(٢) سورة الحج/ ٤٠

الخلفاء الثلاثة المتأخرون ، وبسبب ما كان من تساهل و سماح للامتيازات الأجنبية التي عبثت بالبلاد ، ونفثت سمومها من خلالها .

٤- انشغال بعض السلاطين، لاسيما في عصري الضعف والسقوط، باللهو والنساء والإسراف، بما ألهاهم عن الشعب في حمايته وعن أعدائهم في التصدي لهم وهم لا يجاوزون عدد أصابع اليد ، وتزوج الكثيرين بالأجنبيات من نصرانيات ويهوديات، فصار بعضهن جواسيس لبلادهم وسخّرن أزواجهن لأهوائهن: (هلكت الرجال حين أطاعت النساء)[١].

٥- كان للصوفية أثر خطير ذو حدين في واقع الخلافة العثمانية، فالصوفيون الأنقياء الأصفياء، كان منهم المجاهدون الذين أشرقت بهم صحيفتها طيلة حكمها، وكان منهم الدراويش الكسالىٰ المعيقون للتقدم .

٦- بقاء الخلافة العثمانية علىٰ التقليد الأعمىٰ لمذهب واحد، وعدم التفتح علىٰ بقية المذاهب الإسلامية، وإن إغلاقها باب الاجتهاد، أبقاها علىٰ جمود وحيرة أمام المشكلات الجديدة التي عصفت بها: (تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور)[٢]، وتوالت الحضارة الغربية بخيرها وشرها، ولا تدري كيف تخطط إزاءها بسبب إغلاق باب الاجتهاد.

٧- تخلّف الخلافة العثمانية عن الأخذ بمحاسن الحضارة الغربية في علوم وتصنيع وتسليح وزراعة وهندسة،.. بما أضعف طاقاتها وقدراتها إزاء أعدائها المتطورين لاسيما في القرون الثلاثة الأخيرة من حياتها.

٨- تورط الخلفاء العثمانيين بكثير من الحروب المتتابعة التي خطط لها أعداؤها، واستجاب لها الخلفاء الضعفاء غير القادرين علىٰ تحمل مسؤولياتها من قصارىٰ النظر مما أنهك الجيوش وأضعفتها في القارات الثلاث خلال مئات السنين المتعاقبة من غير راحة ! حتىٰ انتهىٰ أمر الحروب إلىٰ الخليفة عبد الحميد الثاني الذي قضىٰ ثلاثين سنة من حكمه من

(١) انظر : ضعيف الجامع الصغير للألباني ، رقم ٦٠٩٧ من حديث نفيع بن الحارث الثقفي أبي بكرة..

(٢) جاء عن الخليفة عمر بن هبد العزيز كما في (الاعتصام) للشاطبي ص ٤٦٧ .

غير حرب، بإصلاحات بناءة في قوة الدولة، بعد أن خطط له أعداؤه حروبـاً خطيرة خاضها مكرهـاً في السنوات الثلاث الأولىٰ من حكمه، مما أثقل كاهله طول حياته.

٩- إهمال الخلفاء غير الأكفاء لإدارة الحكم في عصري الضعف والسقوط، مما أدىٰ إلىٰ انتشار الفساد والرشوة والإهمال الذي أسقط هيبة الخلافة لدىٰ الكثيرين، فسبّبَ ذلك كثيراً من التمردات والثورات وآل ذلك إلىٰ استخفاف الدول الكبرىٰ بهم ، وتيسير التآمر عليهم .

١٠- استمرت محاولات إنقاذ المسلمين في الأندلس لمدة قرنين (٨٠٠-١٠٠٠هـ)، واشتدت لمدة قرن وربع (٨٨٦-١٠٠٠هـ)، لاسيما عصر السلاطين والخلفاء: (سليم الأول وسليمان القانوني وسليم الثاني ومراد الثالث)، لثلاثة أرباع القرن ونيف (٩٢٠-١٠٠٠هـ)، مما أدىٰ إلىٰ القضاء علىٰ المماليك ، وضم سوريا ومصر، وبعدها الشمال الأفريقي وجزائر البحر المتوسط المهمة لغرض الوصول إلىٰ الأندلس وإنقاذها، وقد تم الوصول وكانت عدة محاولات جريئة لم توفق إلىٰ نتيجة حاسمة حتىٰ انتهت في عصر مراد الثالث إلىٰ وصول جيش ضخم تحمله ٣٠٠ سفينة عثمانية لغزو الأندلس وقبلها للمغرب، فمنعها الملك الخائن لمسلمي الأندلس **السعدي** ، مما حمل الأسطول علىٰ الرجوع إلىٰ إستنبول لئلا تسفك دماء المسلمين هدراً.

وختامـًا: أزيّـن هـذه الخاتمة بتهنئة المصطفىٰ إمـام الدعاة المجاهدين بأمته المجاهدة (العثمانية) بجهادها الموصول في رفع راية قائدهم الخالد في نفوس مئات الملايين في دولة الخلافة الإسلامية ، ابتغاء رضوانه عز وجل ، وأمـلاً برفقته ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾[1].

(١) سورة القمر/ ٥٤ ـ ٥٥

أهم المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- أوغلو، عبد القادر ددة أوغلو، ألبوم العثمانيين، ترجمة محمد خان الناس، الدار العثماني للنشر ١٩٨٠م.

٣- أحمد زكي صفوت، الجمهرة في خطب العرب/ ٣ أجزاء، دار الحداثة، بيروت ١٩٨٥م.

٤- أورخان محمد علي، السلطان عبد الحميد الثاني - حياته وأحداث عصره، مركز التوزيع، فرع القاهرة، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م

٥- أوقطاي أصلانايا، فنون الترك وعمائرهم، ترجمة أحمد محمد عيسىٰ، استانبول ١٩٨٧م، مركز الابحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول.

٦- الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٧- البخاري، محمد بن اسماعيل ابو عبد الله/ ت٢٥٦هـ، الجامع الصغير، تحقيق أحمد شاكر، المطبعة السلفية، القاهرة.

٨- بني المرجه، موفق بني المرجه، صحوة الرجل المريض، دار البيارق، ط٨، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٩- الترمذي، ابو عيسىٰ، محمد بن عيسىٰ بن سودة/ ت٢٩٧هـ، سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر، مصطفىٰ الحلبي، القاهرة.

١٠- الجذع، أدهم أحمد، أناشيد الدعوة الإسلامية، المجموعة الثانية.

١١- حازم عبد الله خضر، النثر الأندلسي في عصور الطوائف والموحدين.

١٢- الحجي، عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي والفتح الإسلامي حتىٰ سقوط غرناطة، دار القلم، دمشق، ط٥، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

١٣- الركابي، جودت، الأدب في الأندلس

١٤- الزركلي، خير الدين، قاموس الأعلام، ٨م، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط٥/ ١٩٨٠م.

١٥- شوقي أبو خليل، الأطلس العربي الإسلامي، دار الفكر - دمشق، ط٥/ ٢٠٠٢، الاعادة/ ١٢، ١٣٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

١٦- ابن الأشعث - أبو داود، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق عزت عبيد الدعاس.

١٧- السامرائي، حسام الدين، المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٦٠م.

١٨- السامرائي، حسام الدين، نشأة المدارس في الدولة الإسلامية.

١٩- الصلابي، علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية - عوامل النهوض وأسباب السقوط، مكتبة عباد الرحمن، مصر، مكتبة العلوم والحكم، مصر.

٢٠- الصلابي، علي محمد الصلابي، دولة المرابطين، دار البيارق، عمان، الأردن.

٢١- الصلابي،علي محمد الصلابي، دولة الموحدين، دار البيارق، عمان، الأردن ١٩٩٨م.

٢٢- الصلابي، علي محمد الصلابي، المسك الفاتح من سيرة محمد الفاتح، مكتبة الصحابة، الإمارات، الشارقة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

٢٣- صفوت، أحمد زكي، الجمهرة في خطب العرب، دار الحداثة، بيروت ١٩٨٥م.

٢٤- الصيادي، رياضة الأسماع في أحكام الذكر والسماع.

٢٥- الطبراني، الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد، ت/ ٣٦٠هـ، ألمعجم الكبير، حققه الشيخ حمدي السلفي، الدار العربية، بغداد ١٩٧٨م.

٢٦- الطبري، محمد بن جرير (٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل القرآن، دار الفكر، بيروت/ ١٤٠٥هـ.

٢٧- الطيبي، أمين توفيق الطيبي، تاريخ المغرب والأندلس.

٢٨- عبد القدوس، محمد رجب، من شعر الجهاد، مؤسسة الرسالة، ط/ ٢، بيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٩٣م.

٢٩- العمري، موفق، أخلاق بني صهيون، ووسائلهم الظاهرة والمخفية، بغداد ١٩٧٢م.

٣٠- العمري، د. أكرم ضياء الدين، ابن خياط، بغداد.

٣١- علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية، شركة دوغوس التجارية والطباعة المحدودة، إنقرة ١٩٨٧م.

٣٢- عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٣٣- عبد الكريم زيدان، أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، رسالة دكتوراة، جامعة القاهرة ١٩٦٢م.

٣٤- المدرس، علاء الدين، التقريب القرآني في ضوء الصراع العثماني وأثره في بلورة الطائفية، بلا تاريخ، مطبعة المعروف.

٣٥- مريم عبد الله النعيمي، دعوة المتميزين، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، الإمارات العربية المتحدة.

٣٦- محمد فريد بك، تاريخ الدولة العليّة العثمانية، تحقيق د. إحسان، دار النفائس، ط/ ١، ١٤٠٨هـ -

١٩٨٨م.

٣٧- محسن عبد الحميد، جمال الدين الأفغاني المصلح المفترىٰ عليه، مؤسسة الرسالة، ط/ ١، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٣٨- ابن ماجه، سنن ابن ماجه، ٢٠ج، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار الريان للتراث.

٣٩- مسلم، بن الحجاج النيسابوري/ ت٢٦١هـ، صحيح مسلم، تحقيق وتصحيح وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، ط/ ٢، ١٩٧٢م.

٤٠- معمر أولكر، فن الخط التركي بين الماضي والحاضر، بنك إيش التركي، النشرات الثقافية، بدون تاريخ.

٤١- المقّري، أحمد بن محمد بن أحمد التلمساني، ت/ ١٠٤١هـ، نفح الطيب في غض الأندلس الرطيب، تحقيق أحمد عباس، ١٠ج، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٤٢- النووي، أبو زكريا يحيىٰ بن شرف/ ت٦٧٦هـ، شرح صحيح مسلم، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٣- النورسي، سعيد بديع الزمان النورسي/ ت١٩٦٠م، كليات رسائل النور - المكتوبات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، النشر والتوزيع دار سوزلز للنشر - فرع القاهرة، ط٢.

٤٤- النورسي، سعيد بديع الزمان النورسي/ ت١٩٦٠م، كليات رسائل النور، سيرة ذاتية، ترجمة إحسان صالح الصالحي، النشر والتوزيع دار سوزلز للنشر - فرع القاهرة، ط٢.

٤٥- الهندي، ابن خليل الرحمن، إظهار الحق، مطبعة الرسالة ١٩٦٤م.

٤٦- الوائلي، رعد ناصر مايود، الجهاد والحرب في عهد بني الأحمر، رسالة دكتوراه مخطوطة .

٤٧- يوسف آصاف، تاريخ سلاطين آل عثمان .

٤٨- يماز أوفونان ، تاريخ الدولة العثمانية .

انتهىٰ الكتاب بحمد الله وفضله ، (وآخرُ دَعْوَانا أنِ الحمْدُ للهِ ربِّ العالمينَ)

وصلِّ اللهمَّ علىٰ سيّدِنا محمّدٍ وعلىٰ آلِهِ وصحبِهِ أجمعين

فهرست الموضوعات

***